

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

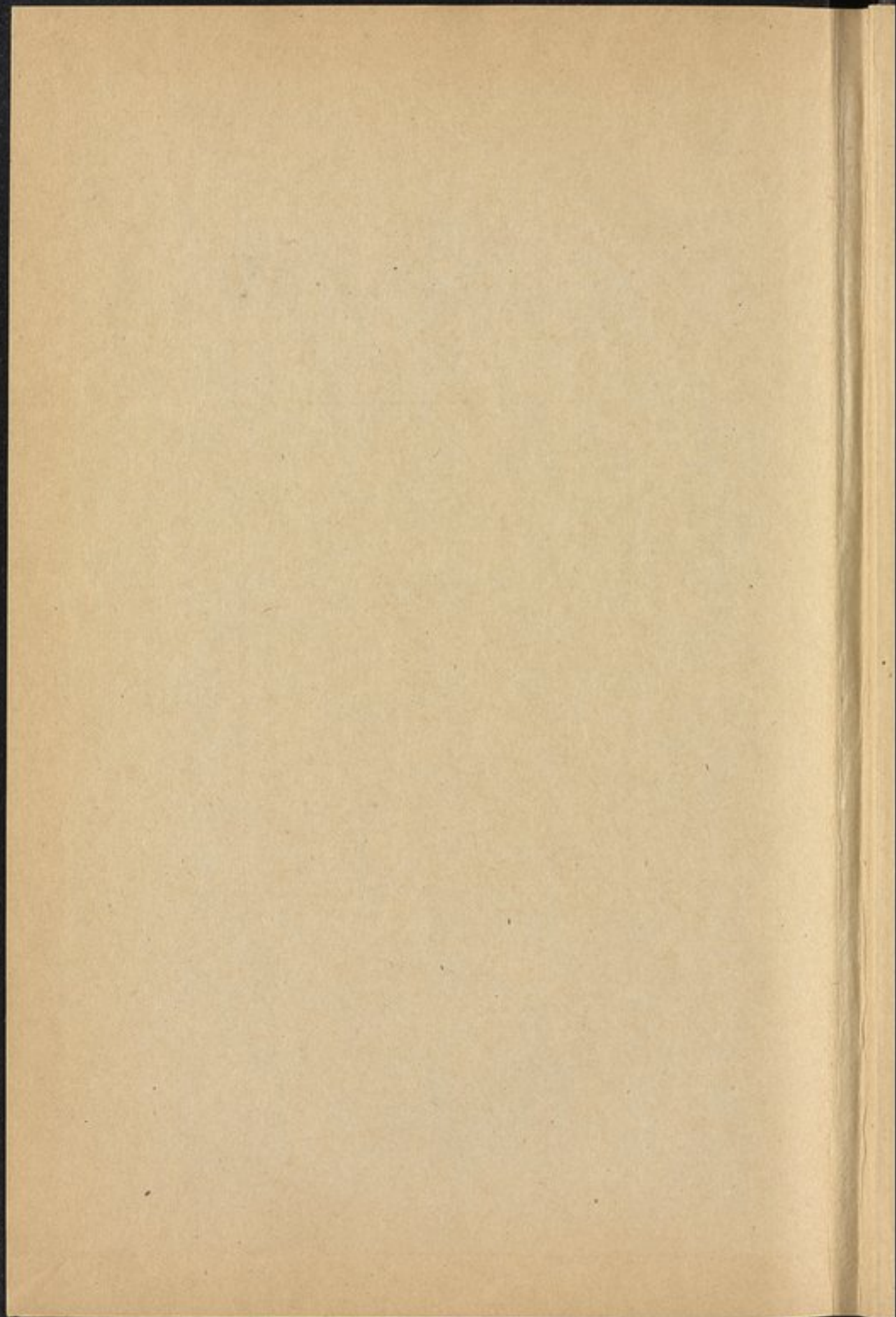


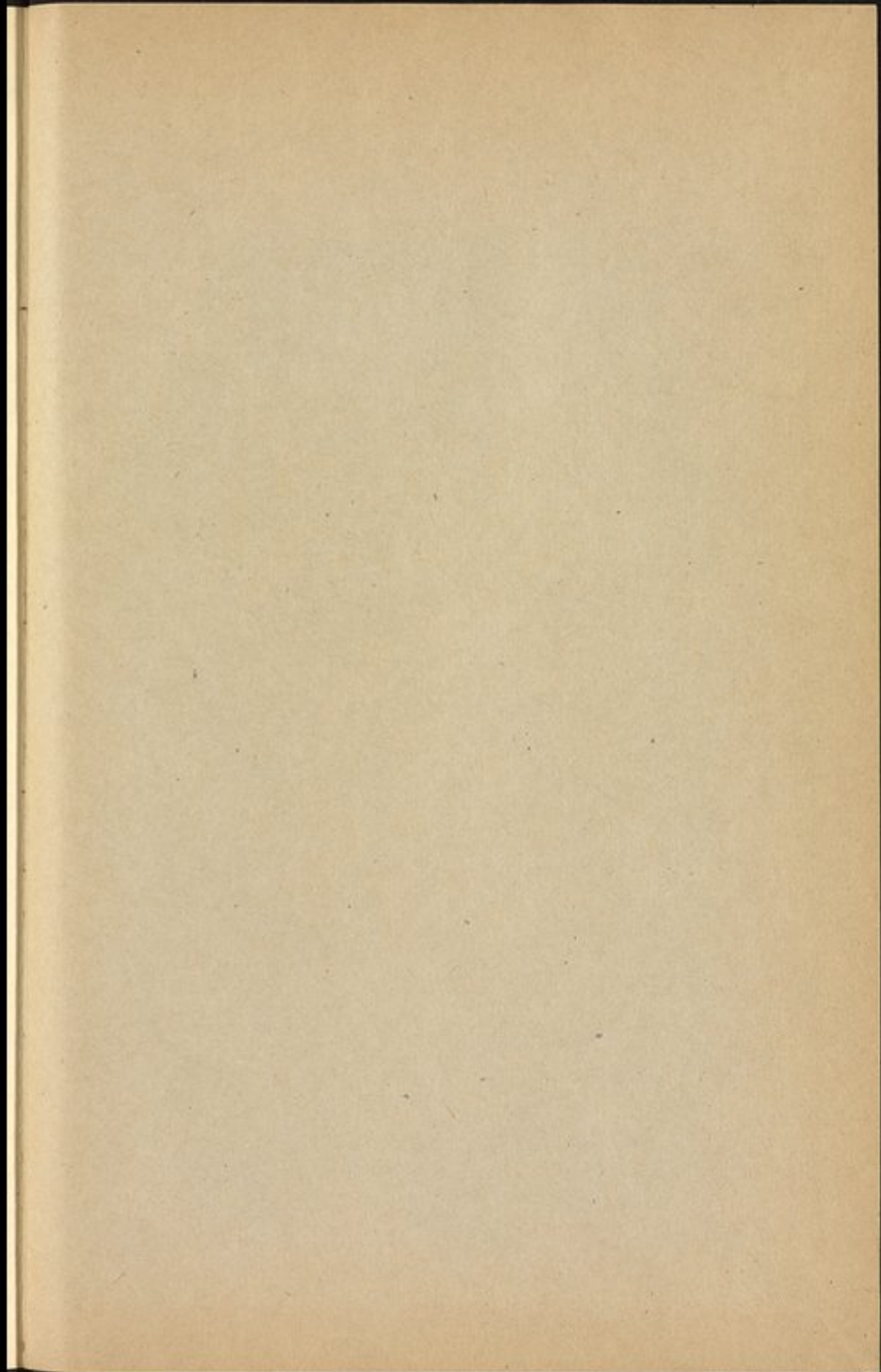
0061892211

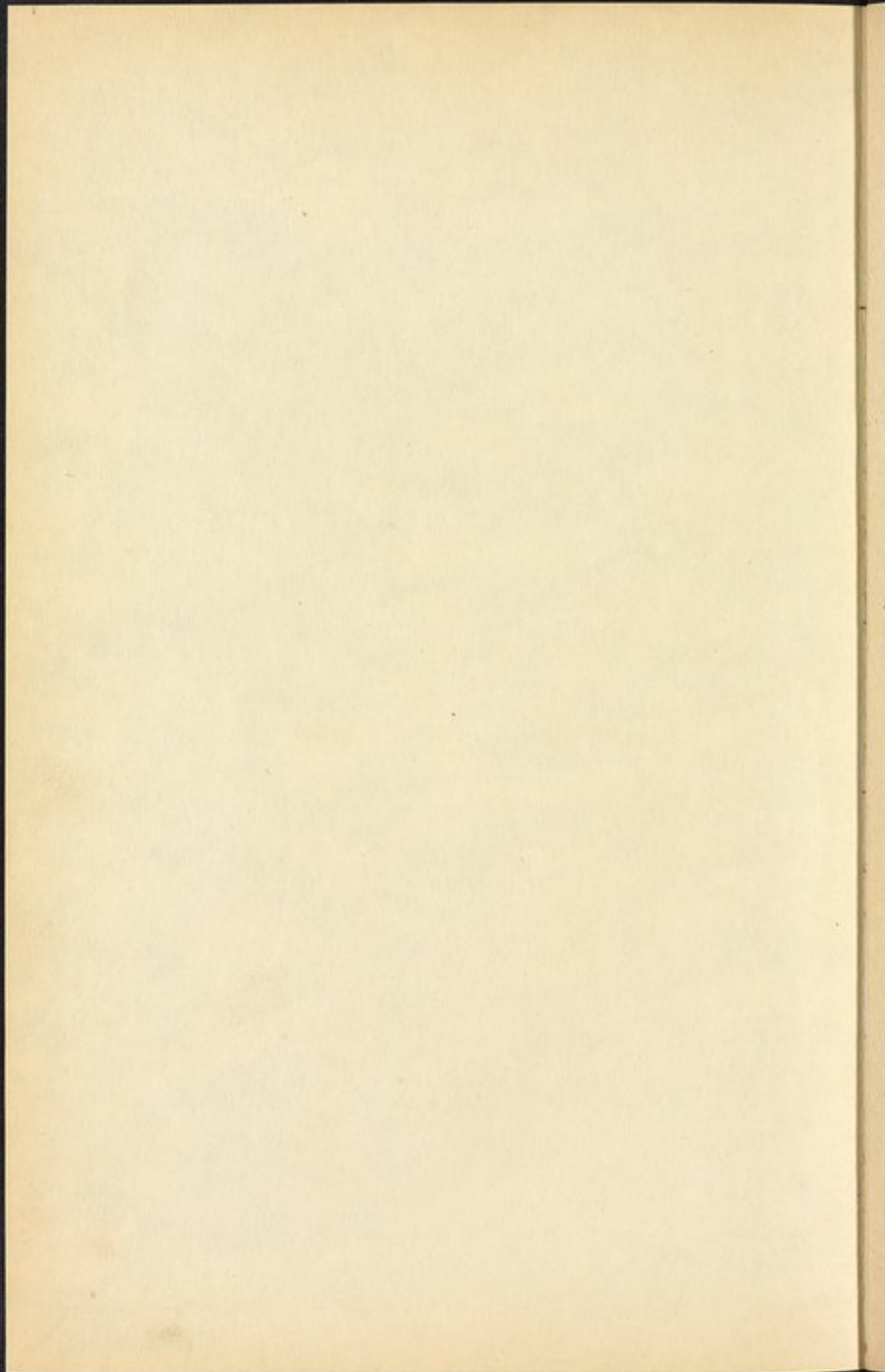
Columbia University
in the City of New York

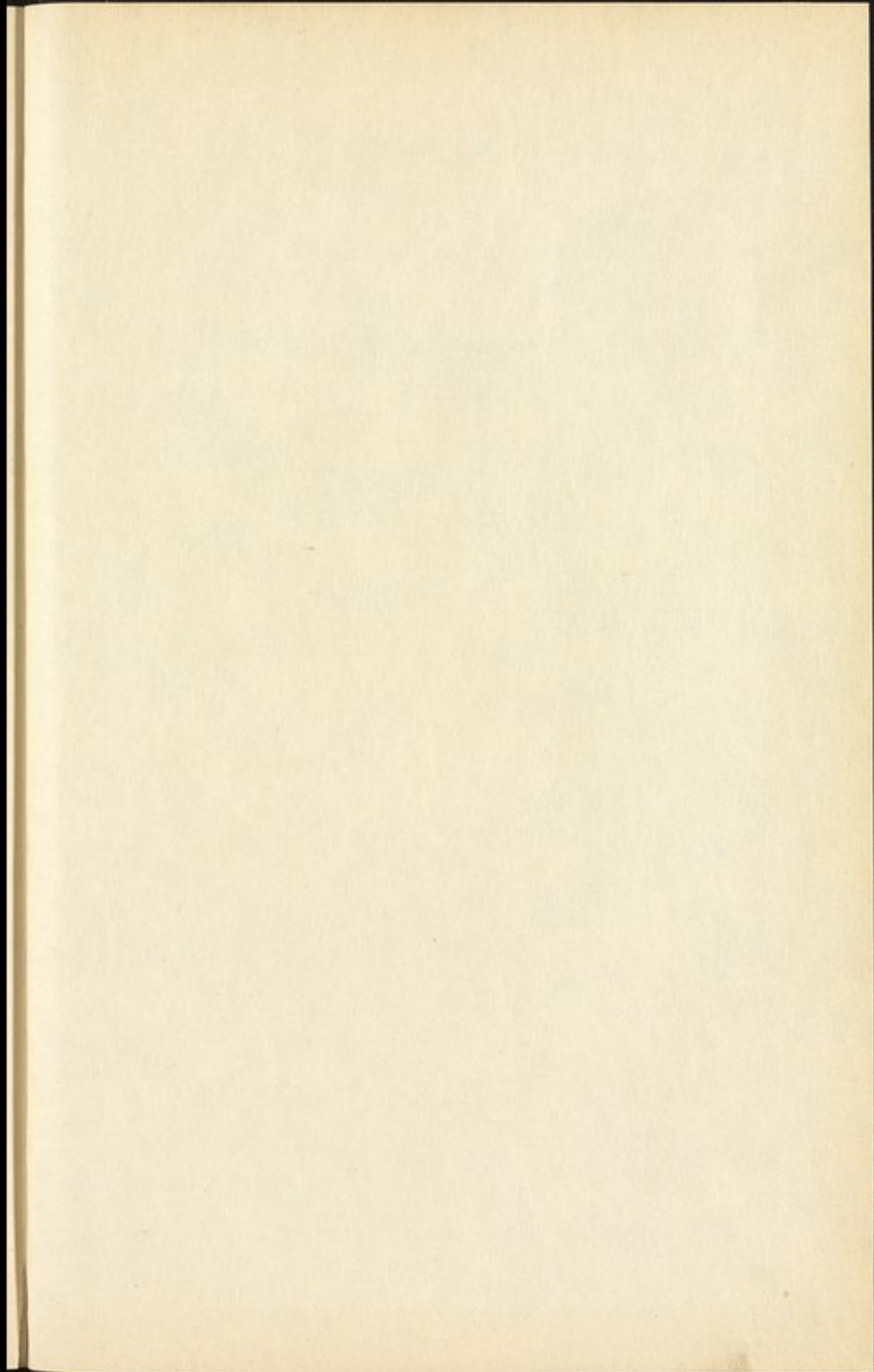
THE LIBRARIES









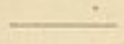


©
331

فهرس

الجزء الرابع عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي



COLLEGE
UNIVERSITY
LIBRARY

8

45-39141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

صفحة

- الباب الرابع - من المقالة التاسعة في الهدن الواقعة بين ملوك
الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان ... ٢
- الفصل الأول - في أصول تتعين على الكاتب معرفتها ،
وفيه ثلاثة أطراف ... ٢
- الطرف الأول - في بيان رتبته ومعناها وذكر ما يرادفها
من الألفاظ ... ٢
- » الثاني - في أصل وضعها ... ٤
- » الثالث - فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن ،
وفيه نوعان ... ٧
- النوع الأول - ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام
وأهل الكفر ... ٧
- » الثاني - ما اشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر
والإسلام وعقود الصلح الحاربية بين زعماء
المسلمين، وهي ضربان ... ٩
- الضرب الأول - الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق
عليها بين الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم ... ٩
- الضرب الثاني - مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة - تحرير
أوضاعها، وترتيب قوانينها، وإحكام معاقدها ١١
- الفصل الثاني - في صورة ما يكتب في المهادنات والسجلات،
ومذاهب الكتاب في ذلك، وفيه طرفان ... ١٦
- الطرف الأول - فيما يستبد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم ،
وتخذ منه نسخ بالأبواب السلطانية، وتدفع
منه نسخ إلى ملوك الكفر، وذلك على نمطين ... ١٦

صفحة

- النمط الأول - ما يكتب في طرة الهدنة من أعلى الدرج ... ١٦
- » الثاني - ما يكتب في متن الهدنة، وهو على نوعين ... ١٧
- النوع الأول - ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد،
وفيه مذهبان ... ١٧
- المذهب الأول - أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذا ما هادن عليه» الخ ١٧
- » الثاني - أن تفتح المهادنة قبل لفظ: «هذا» ببعدية ... ٢٦
- النوع الثاني - من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر -
أن تكون الهدنة من الجانبين جميعاً، وفيها للكتاب
ثلاثة مذاهب ... ٢٩
- المذهب الأول - أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذه هدنة»
ونحو ذلك ... ٢٩
- الثاني - أن تفتح الهدنة بلفظ: «استقرت الهدنة بين
فلان وفلان» الخ ... ٣١
- » الثالث - أن تفتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ «الحمد لله» ٧١
- الطرف الثاني - فيما يشارك فيه ملوك الكفر ملوك الإسلام
في كتابة نسخ من دواوينهم ... ٧٢
- الباب الخامس - من المقالة التاسعة في عقود الصلح الواقعة بين
ملكين مسلمين، وفيه فصلان ... ٧٩
- الفصل الأول - في أصول تعتمد في ذلك ... ٧٩
- » الثاني - فيما جرت العادة بكتابه بين الخلفاء وملوك
المسلمين على تعاقب الدول، مما يكتب في الطرة
والمتن، وفيه نودان ... ٨٤

صفحة

- النوع الأول - ما يكون العقد فيه من الجانبين ٨٤
 » الثاني - ما يكون العقد فيه من جانب واحد ،
 وفيه مذهبان ٩٧
 المذهب الأول - أن يفتح عقد الصلح بلفظ : « هذا » ٩٧
 » الثاني - أن يفتح عقد الصلح بخطبة مفتوحة بـ « الحمد لله »
 وربما كرر فيها التحميد ١٠٠
 الباب السادس - من المقالة التاسعة في الفسوخ الواردة على العقود
 السابقة ، وفيه فصلان ١٠٨
 الفصل الأول - الفسخ ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون
 الآخر ١٠٨
 » الثاني - المفاخعة ، وهي ما تكون من الجانبين جميعا ... ١٠٩

المقالة العاشرة

- في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب ويتنافس في عملها ليس لها تعلق
 بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها ، وفيها بابان ١١٠
 الباب الأول - في الهديات ، وفيه خمسة فصول (الصواب : ستة
 فصول) ١١٠
 الفصل الأول - في المقامات ١١٠
 » الثاني - في الرسائل ، وهي على أصناف ١٣٨
 الصنف الأول - الرسائل الملوكية ، وهي على ضربين ١٣٩
 الضرب الأول - رسائل الغزو ، وهي أعظمها وأجلها ١٣٩
 » الثاني - « الصيد ١٦٥
 الصنف الثاني - من الرسائل - ما يرد منها مورد المدح والتقرير ... ١٧٢

صفحة

- الصف الثالث - من الرسائل - المفانرات ٢٠٤
- » الرابع - « الأستلة والأجوبة ٢٤٠
- » الخامس - « ما تكتب به الحوادث والماجررات ٢٥١
- الفصل الثالث - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،
 فى قدمات البندق ٢٨٢
- » الرابع - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،
 فى الصدقات، وفيه طرفان... .. ٣٠٠
- الطرف الأول - فى الصدقات الملوكة وما فى معناها ٣٠٠
- » الثانى - فى صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم ٣١١
- الفصل الخامس - من الباب الأول من المقالة العاشرة فيما يكتب
 عن العلماء وأهل الأذب ، مما جرت العادة
 بمراعاة النثر المسجوع فيه ، ومحاولة الفصاحة
 والبلاغة، وفيه طرفان... .. ٣٢٢
- الطرف الأول - فيما يكتب عن العلماء وأهل الأذب ،
 وهو على صنفين ٣٢٢
- الصف الأول - الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات
 الكتب، ونحوها ٣٢٢
- » الثانى - التقرىضات التى تكتب على المصنفات المصنفة
 والقصائد المنظومة ٣٣٥
- الطرف الثانى - فيما يكتب عن الفضاة ، وهو على أربعة
 أصناف ٣٤٠
- الصف الأول - التقاليد الحكمة ٣٤٠
- » الثانى - إسمالات المعدالة ٣٤٦

- صفحة
 الصنف الثالث - الكتب إلى النواب وما في معناها ٣٥٠
 » الرابع - ما يكتب في افتتاحات الكتب ٣٥٣
 الفصل السادس - في العمرات التي تكتب للحاج ٣٥٥
 الباب الثاني - من المقالة العاشرة في الهزليات ٣٦٠

الخاتمة

- في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، وفيها أربعة أبواب ... ٣٦٦
 الباب الأول - في الكلام على البريد، وفيه فصلان ٣٦٦
 الفصل الأول - في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها، ويتعلق
 الغرض من ذلك بثلاثة أمور ٣٦٦
 الأمر الأول - معرفة معنى لفظ البريد لغة وأصطلاحاً ٣٦٦
 » الثاني - أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن ٣٦٧
 » الثالث - بيان معالم البريد ٣٧١
 الفصل الثاني - من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مراكز
 البريد، ويشتمل على ستة مقاصد ٣٧٢
 المقصد الأول - في مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية التي
 هي قاعدة الملك، وما يتفرع عنه من المراكز،
 وما تنهى إليه مراكز كل جهة ٣٧٣
 » الثاني - في مراكز غزّة، وما يتفرع عنها من البلاد الشامية ٣٧٩
 » الثالث - في ذكر مركز دمشق وما يتفرع عنه من المراكز ٣٨١
 » الرابع - في مركز حلب، وما يتفرع عنه من المراكز ٣٨٣
 » الخامس - في مركز طرابلس، وما يتفرع عنه من المراكز ٣٨٥
 » السادس - في معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة
 المشرفة والمدينة المنورة ٣٨٥

صفحة	
	الباب الثاني - من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلي، وذكر أبراجها المقترزة بطرق الديار المصرية والبلاد
٣٨٩	الشامية، وفيه فصلان
٣٨٩	الفصل الأول - في مطاراته
	» الثاني - في أبراج الحمام المقترزة لا طارتها بالديار
٣٩٢	المصرية، والبلاد الشامية
	الباب الثالث - من الخاتمة في ذكر هجن الثلج، والمراكب المعدة لحمل الثلج الذي يحمل من الشام إلى الأبواب
٣٩٥	السلطانية بالديار المصرية، وفيه ثلاثة فصول
٣٩٥	الفصل الأول - في نقل الثلج
٣٩٦	» الثاني - في المراكب المعدة لنقل الثلج من الشام
٣٩٦	» الثالث - في الهجن المعدة لنقل ذلك
٣٩٨	الباب الرابع - من الخاتمة في المناور والمحرقات، وفيه فصلان
٣٩٨	الفصل الأول - في المناور
٤٠١	» الثاني - في المحرقات

(تم فهرس الجزء الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى)

كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمة مؤلفه

بقلم

حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الرسول

رئيس التصحيح العربي بالقسم الأدبي

بالمطبعة الأميرية

كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمة مؤلفه

بسم الله الرحمن الرحيم

تحمّد الله تعالى على ما منح من الإعانة وهب من التيسير، ونشكره على ما أولى من التوفيق فهو نعم المولى ونعم النصير، ونصلي ونسلم على سيدنا محمد صبح الهداية وشهابها الساطع، وعلى آله وأصحابه النجوم الثوابت والبُدُور الطوالع.

وبعد، فإن الأمم تآنارها، والشعوب بسيرها وأخبارها، ومن أعظم الآثار قيمه، وأغزرها ديمه، ما تعرف بواسطته نتائج أفكار القادة العلماء، وتبين به قرائح الجهابذة الحكماء.

ولم تزل الأمم الراقية في سالف الدهور وإلى وقتنا الحاضر تعنى بسان علماءها: على اختلاف مذاهبهم، وتباين مشاربهم، وتحلّم من الكرامة والإجلال أعلى الدرجات، وترجع في أمر معاشها ومعادها إلى آرائهم السديده، وأفكارهم الرشيدة، وتعمل بكل جهدها في إنشاء دور الكتب وتشييدها، والمبالغة في تنسيقها وترتيبها: لتحفظ فيها دقائرهم وطوابعهم التي أودعوها ثمرة أفكارهم، ونتيجة بحوثهم.

ولقد أخذت مصرنا العزيزة في صدر الإسلام تُسابق «البصرة والكوفة» في هذا الميدان العظيم، ميدان التقدم والأرتقاء.

وسارت من بعدهما تهاص « بغداد » دار السلام، ومركز الخلافة العباسية
وكنة العالم، وقبلة الآداب - مع ما كان يبذله الخلفاء لعلماها من أنواع التحف،
ويفرغونه عليهم من بذر الأموال : حبا في نشر العلم وبلوغه إلى درجة الكمال .

ولم تكن في ذلك أقل حظا من الأندلس : جنة العالم وزينة الدنيا، حتى في أعظم
عصورها الذهبية المملوءة بالمعالي والمفاخر، يوم كانت تنشر على العالم ألوية الحضارة،
وتتلو عليه آيات بينات من الهدى والفرقان .



وفتحت مضر ذراعيها : مرحبة بكل وافد عليها من أهل العلم والأدب ،
خصوصا بعد أن طوحت يد الردى بمدن العراق وحواسر الأندلس ، ودارت عليها
الدوائر، وذهب كل ما كان لها من آثار العلم وأعمال المجتهد والحضارة . فوفد
علمائها على هذا البلد الأمين ووجدوا فيه ضالتهم المنشودة وأمنيتهم الكبرى .

فاصبحت ميديانا واسعا يتسابق فيه طلاب العلوم والمعارف، وموردا عذبا يزدهم
عليه عشاق الآداب ومحبو الحكمة، وجنة زاوية باكار العلماء ونوايغ الحكماء .

وأصبح ملوكها وأمراؤها ينظرون إلى العلم والعلماء بعين ملؤها الإعظام
والإجلال ، وأخذوا يساعدونهم ، ويبالغون في إكرامهم وإدراج النعم عليهم ،
ويستجمعونهم على الإكثار من التأليف والتصنيف في العلوم المختلفة . وصاروا
لا يؤسسون مسجدا للصلاة ، ولا يبنون مدرسة أو معهدا من معاهد العلم إلا
ويستيدون في داخله خزانة كتب جامعة ، يودعونها الكثير من نفائس الأسفار
والمصنفات في كل فن ومطلب : ميلا منهم إلى نشر المعارف ، ورغبة في تخليد
الذكر وبجميل الأثر .

وقد كان خُلُفائها الفاطميين نِزَانَهُ كُتِبَ كُتْبِي ، كانت من أَجْلِ الخِزَانِ
وأعْظَمِهَا شَأْنًا عِنْدَهُمْ ، وَأَكْثَرِهَا جَمْعًا لِلْكَتَبِ النَّفِيسَةِ مِنْ جَمِيعِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ .
يقال : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْإِسْلَامِ دَارٌ كُتِبَ أَعْظَمُ مِنْ الَّتِي كَانَتْ بِالْقَاهِرَةِ
فِي قَصْرِ الخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ .



وَلَمْ تَزَلِ الْأُمَّةُ الْمِصْرِيَّةُ الْكَرِيمَةُ سَائِرَةً عَلَى هَذَا الْمَنْهَجِ الْقَوِيمِ : تَرَدُّ مَنَاهِلِ الْعِلْمِ
الْعَدْبَةِ ، وَتَتَغَدَّى بِالْبَانَةِ الطَّيِّبَةِ - حَتَّى أَصَابَهَا مَا أَصَابَ غَيْرَهَا مِنَ الْأَيْمِ الْإِسْلَامِيَّةِ ،
فَتَفَرَّقَتْ شِيعًا وَأَحْزَابًا ، وَأَنْصَرَفَتْ عَنِ الشُّؤُونِ الْعَامَّةِ ، وَصَارَ كُلُّ وَاحِدٍ لَهَا
بِذَاتِهِ لَا يَشْعُرُ إِلَّا بِنَفْسِهِ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ .

فَقَلَّ الْأَحْتِفَالُ بِالْعِلْمِ وَأَهْلِهِ ، وَأُهْمِلَتِ الْعِنَايَةُ بِدُورِ الْكُتُبِ وَخِزَانِ الْأَسْفَارِ
عَلَى كَثْرَتِهَا ، وَأَمْتَدَّتْ إِلَيْهَا يَدُ الْخِيَانَةِ تَعْبَثُ بِنَفَائِسِهَا أَيْ شَاءَتْ بِدُونِ مُحَاسِبِ
أَوْ رَقِيبِ . وَأَسْتَوْلَى الْمَغِيرُونَ عَلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا مِنْ
الْكَتُبِ وَالْآثَارِ ، وَتَقَلُّوا مِنْهُ إِلَى بِلَادِهِمْ وَمَمَالِكِهِمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتَّقَلُّوا .

وَهَاهِي الْيَوْمَ تُنَادِي أَهْلَ مِصْرَ مِنْ وَرَاءِ الْبِحَارِ ، وَتُنَاجِيهِمْ بِمَا كَانَ لَسَانِهِمْ
النَّاهِيضَ مِنْ آثَارِ الْعَمَلِ وَدَلَائِلِ التُّبُوغِ .

وَمَا بَقِيَ فِي تِلْكَ الدُّورِ وَالخِزَانِ ، مِمَّا زَهَدَتْ فِيهِ نُفُوسُ الطَّامِعِينَ - صَارَ رَهْنًا عَلَيْهَا ،
لَا تَنْقَعُ عَلَيْهِ الْأَبْصَارُ ، وَلَا يَمُرُّ بِفِكْرٍ : كَأَنَّهُ كَفَرٌ مَدْفُونٌ لَمْ يُهْتَدَ إِلَيْهِ بَعْدُ ، أَوْ سَجِينٌ حَكِيمٌ
عَلَيْهِ بِالسَّجْنِ الْأَبَدِيِّ لَا يَجِدُ لِنَفْسِهِ خَلَاصًا .



تلك كانت حالة مِصر حيناً من الدهر كادت تذهب بكل ما بنى أهلها في الزمن
السابق من تَجْدِيدٍ وَأَسْوَءٍ مِنْ قُوَّةٍ - لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ بِهَا خَيْرًا ،
بِجَلْسِ عَلَى أَرِيكَتَيْهَا ذَلِكَ الْمُصْلِحَ الْكَبِيرَ، وَالْعِصَامِيَّ الشَّهِيرَ، مُؤَسِّسُ «مِصرَ الْحَدِيثَةِ»
سَاكِنُ الْخِنَانِ "مُحَمَّدُ عَلِيٌّ بَاشَا" رَأْسُ الْعَائِلَةِ الْعَلَوِيَّةِ الْكَرِيمَةِ .

فَإِنَّهُ - نَوَّرَ اللَّهُ ضَرِيحَهُ - أَعَادَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ سَالِفَ تَجْدِيدِهَا، وَنَبَهَ الْأَفْكَارَ بَعْدَ
طُولِ رُقَادِهَا ، وَنَشَرَ الْعُلُومَ وَالْمَعَارِفَ بَيْنَ أُمَّتِهَا، وَأَرْسَلَ الْبِعْنَاتِ الْعِلْمِيَّةَ إِلَى
أَشْهُرِ الْجَامِعَاتِ بِأُورُوبَا : لِيَتَعَلَّمُوا أَسَالِيبَ التَّعْلِيمِ الْحَدِيثَةِ، وَيَهْدُوا إِلَى مِصرَ
بِفُنُونِ مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالتَّهْذِيبِ تَدْعُو إِلَيْهَا سُنَّةَ التَّقَدُّمِ وَالْإِرْتِقَاءِ .

وَقَرَّبَ إِلَيْهِ الْعُلَمَاءَ وَالْأَدْبَاءَ ، وَجَمَعَهُمْ عَلَى التَّأْلِيفِ وَالتَّصْنِيفِ . وَوَصَّلَ
الْيَلِيلَ بِالنَّهَارِ فِي سَبِيلِ إِنْهَاضِهَا وَإِسْعَادِهَا، وَأَسَّسَ الْمَدَارِسَ ، وَشَادَ دَوْرَ الصَّنَاعَاتِ
وَالْمَعَامِلِ فِي حَوَاضِرِ هَذَا الْقَطْرِ السَّعِيدِ .

وَأَنْشَأَ "الْمَطْبَعَةَ الْأَمِيرِيَّةَ الْكَبْرَى" ، وَجَهَّزَهَا بِكُلِّ مَا يَلْزِمُ لَهَا مِنْ
الْآلَاتِ وَالْعُدَدِ ، حَتَّى صَارَتْ مِنْ أَرْقَى دَوْرِ الطَّبَاعَةِ فِي الشَّرْقِ ، وَأَخْتَارَ
لَهَا نَوَائِجَ الْعُلَمَاءِ وَأَسَاطِينَ الْكُتَّابِ : لِيَقُومُوا بِتَصْحِيحِ مَا يُطْبَعُ فِيهَا . وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ
الْفَضْلُ الْأَكْبَرُ فِي تَقْوِيَةِ النَّهْضَةِ الْعِلْمِيَّةِ فِي مِصرَ وَغَيْرِهَا مِنَ الْبِلَادِ ، وَنَشْرِ الْعُلُومِ
وَالْأَدَابِ الْعَرَبِيَّةِ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ .



وجاء من بعده حفيده أبو الأشبال، المغفور له "إسماعيل باشا" خديو مصر، فأنشأ "دار الكتب" بالقاهرة، وجمع فيها ما بقي من الكتب في خزائنها المتفرقة في الدور والمساجد . وأخذ الأمراء وغيرهم من كبار الأمة يتبرعون لها بما في دُور كتبهم ونخائنها من نفائس المصنفات .

وأهمها بعدده ولده طيب الذكر "محمد توفيق باشا" خديو مصر فوقف عليها ألفاً وثمانمائة فدان من أجود أراضي القطر الزراعية ، وجعلها إدارة مستقلة بعد أن كانت عالة على إدارة المكاتب ، يُنفق عليها من الأوقاف المحبسة عليها .

وأمتلأت خزائنها بنفائس الأسفار وجلال المؤلفات ، من مصر وغيرها من سائر الممالك ، بما كان يُنفق عن سعة وكرم نفيس في سبيل الحصول عليها .

وبها معرض كبير حوى كثيراً من المصاحف الشريفة والآثار النفيسة ، والمؤلفات القديمة ، والمخطوطات العربية والنقود القديمة في كل دولة من الدول الإسلامية .

وهي على أهل هذا القطر السعيد حسنة من أعظم الحسنات ، وأثر خالد من الآثار الباقيات ، ولها على العلم وأهله الأيادي التي لا تُسكّر ، والمفاتيح التي تُذكر فتشكر ، فقد أعدت للترديدن إليها قاعة كبرى للمطالعة ، وجهزتها بكل ما يلزم لراحتهم وتسهيل أعمالهم - فأقبل عليها الطلاب والعلماء ، والكتّاب والشعراء ، والمتجّمون والحكّماء وغيرهم : يردون نبرها ، ويؤلّون وجوههم شطرها : على اختلاف لغاتهم ، وتباين أجناسهم وطبقاتهم .

ولما أشرف عليها حضرة صاحب السعادة "أحمد حشمت باشا"
وزير المعارف الأسبق وجهه - حفظه الله - عيأته إلى تنظيمها تنظيمًا يكفل لها
التقدم في طريق الإصلاح اللائق بمكاتها : لتأتي بالثمرة المطلوبة منها ، وتقوم
بالخدمة الواجبة عليها : وذلك بنشر العلوم والمعارف بين طبقات الأمة ، وطبع
الآداب العربية وإذاعتها بين أبنائها .

فأختار طائفة مما فيها من نفائس الأسفار ونوادر المؤلفات ، وخصوصًا
المؤلفات المصرية ، وأمر بأن تُطبع في «القسم الأدبي» بالمطبعة الأميرية ، فتشترك
أنوارها على طلاب العلم والحكمة ، ويعم النفع بها من قُرب ومن بُعد ؛ ضئلاً بما أن
تبقى مقصورة على قاعات المطالعة وغرفها ، لا ينتفع بها غير فريق من المقيمين
في مدينة القاهرة .

فكان أجل كتاب ظهر من هذه الكتب في سماء الآداب العربية ، كتاب :

“صبح الأعشى في كتابة الإنسا”

(للقلقشندی)

التعريف بهذا الكتاب

مَهْمَا أَطَالَ الْكَاتِبُ فِي وَصْفِ هَذَا الْكِتَابِ ، وَجَوَّدَ فِكْرَهُ ، وَأَجْهَدَ قَلَمَهُ
فِي التَّعْرِيفِ بِهِ وَبِقِيَمَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ - فَانَّهُ لَا يَبْلُغُ تَعْدَادَ مَا أُودِعَ فِيهِ مِنْ
الْفَوَائِدِ ، وَأَنْطَوَى تَحْتَهُ مِنَ الدَّقَائِقِ .

فَهُوَ كِتَابٌ جَلِيلُ الْقَدْرِ ، عَظِيمُ النِّفْعِ ، كَبِيرُ الْفَائِدَةِ ، لَمْ يُنَسَّجْ عَلَى مَثْوَالِهِ فِي عَالَمِ
التَّأْلِيفِ فِي فُنُونِ الْأَدَبِ وَالْكَتَابَةِ . وَلَا نُعَدُّ مُبَالِغِينَ إِذَا قُلْنَا : إِنَّهُ أَنْفُسُ كِتَابٍ
أَلَّفَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَارِيخِ آدَابِهَا .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ الْقَلْقَشَنَدِيُّ مُؤَلِّفُهُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حَالَةَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ،
وَكَيْفَ كَانَتْ فِي الْعُصُورِ الْأُولَى قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، إِلَى أَنْ وَصَلَتْ إِلَى مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ
مِنَ الْإِتِّشَارِ بَعْدَ أَنْ صَارَتْ لُغَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، لُغَةً الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ السَّمْحَةِ
وَالدِّينِ الْحَنِيفِ ، تَبَعًا لِإِتِّشَارِهَا فِي أَكْثَرِ أَنْحَاءِ الْكُرَّةِ الْأَرْضِيَّةِ : فِي بِلَادِ فَارِسَ
وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، فِي بِلَادِ الرُّومِ ، فِي الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ (وَقَاهَا اللَّهُ) فِي بِلَادِ أَفْرِيْقِيَّةِ
وَالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى ، فِي بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، فِي بِلَادِ الْهِنْدِ ، فِي بِلَادِ الصِّينِ ، فِي بِلَادِ
كثيرة من أوروبا .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلِّفُهُ كَيْفَ زَهَتْ هَذِهِ اللُّغَةُ الشَّرِيفَةُ فِي عُصُورِ الْخُلَفَاءِ : مِنْ
بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي الْعَبَّاسِ ، وَغَزَرَتْ مَادَّتُهَا ، وَأَتَّسَعَ نِطَاقُهَا ، وَدَنَا قِطَافُهَا : فَصَارَتْ
لُغَةَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، لُغَةَ الْأَدَبِ وَالشُّعْرِ ، لُغَةَ الْقَضَاءِ وَالْأَحْكَامِ ، لُغَةَ الْجَدَلِ وَالْمَنَاظَرَةِ .
كَمَا صَارَتْ لُغَةَ التَّأْلِيفِ وَالتَّصْنِيفِ : فِي أَحْكَامِ الدِّينِ ، وَتَهْذِيبِ النُّفُوسِ ، وَتَنْقِيْفِ
العُقُوفِ ، وَنِظَامِ الْمُلْكِ وَالْمَمَالِكِ ، وَسِيَاسَةِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ . وَعُلُومِ الْفَلَسْفَةِ ،
وَالرِّيَاضَةِ ، وَالنُّجُومِ ، وَالطَّبِّ ، وَالْكِيمِيَاءِ ، وَمَا أَشْبَهَهَا .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْكِتَابَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْبِلَادِ وَالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمَا بَلَغَتْهُ مِنْ دَرَجَاتِ الرَّفْعَةِ وَالْأَرْتِقَاءِ ، ثُمَّ مَا آلَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ ، تَبَعًا لَضَعْفِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ : بِاسْتِيْلَاءِ الْمُغِيرِينَ عَلَى بِلَادِ الْخُلَفَاءِ وَمَمَالِكِهِمْ ، مِمَّنْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا فِي اللُّغَةِ ، أَوْ فِي اللُّغَةِ وَالدِّينِ . كَمَا بَيْنَ لَنَا طَبَقَاتِ الْكُتَّابِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَ الْمُلُوكِ مِنَ الرَّعَايَةِ وَعَظِيمِ الْأَحْتِرَامِ .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَشُرُوطِهَا وَرُسُومِهَا ، وَمَنْ وَلِيَهَا : مِنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَرَآكِزِ وَلَايَاتِهِمْ ، وَخُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ ، وَخُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ بِنِعْدَادِ مِصْرَ ، وَخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ بِالْأَمْرِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَمُدَّعِي الْخِلَافَةِ مِنْ بَقَايَا الْمُؤَحِّدِينَ بِأَفْرِيْقِيَّةِ .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَمَا بَلَغَتْهُ مِنْ دَرَجَاتِ الْمَجْدِ وَالْحَضَارَةِ ، وَحُدُودِهَا ، وَأَنْظِمَتِهَا ، وَرُسُومِهَا ، وَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ ، وَالْخَوَاصِّ وَالْعَجَائِبِ ، وَمَا بَهَا مِنَ الْآثَارِ الْقَدِيمَةِ ، وَمَنْ وَلِيَهَا مِنَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ جَاهِلِيَّةً وَإِسْلَامًا .

كِتَابُ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ - وَهُوَ هُوَ ذَلِكَ الْمِصْرِي الصَّحِيمِ ، الَّذِي أَقْلَتْهُ أَرْضُ مِصْرَ ، وَأَظْلَمَتْهُ سَمَاءُهَا ، وَتَشْرِبَ حَتَّى رَوَى مِنْ نَيْلِهَا - الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةَ ، وَقَضَائِلَهَا وَمَحَاسِنَهَا ، وَخَوَاصِّهَا وَعَجَائِبَهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْآثَارِ الْقَدِيمَةِ . وَبَيْنَ نَهْرِ النَّيْلِ وَمَنْبَعِهِ وَمَصْبِهِ ، وَزِيَادَتِهِ وَنَقْصِهِ ، وَمَقَابِسَهُ ، وَمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ ، وَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ فِي النُّقْصَانِ ، وَخُلُجَانِهِ الْمَنْفَرَعَةَ عَنْهُ ، وَجُسُورَهُ الْحَابِسَةَ لِمَائِهِ . وَبَيْنَ بُحَيْرَاتِهَا ، وَجِبَالِهَا ، وَزُرُوعِهَا ، وَرِيَاحِينِهَا ، وَفَوَاكِهِهَا ، وَمَوَاشِيهَا ، وَوُحُوشِهَا ، وَطُيُورِهَا . وَبَيْنَ حُدُودِهَا ، وَأَبْتِدَاءِ عِمَارَتِهَا ، وَسَبَبِ تَسْمِيَّتِهَا بِمِصْرَ ، وَتَفَرُّعِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي حَوْلَهَا

عنها . وبين أعمالها وقواعدها القديمة ، ومبانيها العظيمة الباقية على مرور الأزمان .
وبين قواعدها الحديثة وما اشتملت عليه من محاسن الأبنية . وبين من وليها من
الملوك والسلاطين قبل الإسلام وبعده . وبين ترتيب أحوالها ، ومعاملاتها ،
ونقودها ، وترتيب مملكتها ، ووظائف دولها القديمة والحديثة .

كتابٌ دون فيه مؤلفه عدة كتبٍ أدبية نفيسة بتمامها ، وجمع فيه كثيرا مما تفرق
في غيره من المؤلفات .

ورتبته على مقدمة وعشر مقالاتٍ وخاتمة ، بناها بالإجمال على التعريف بحقيقة
ديوان الإنشاء وأصل وضعه في الإسلام ، وتفرقه بعد ذلك في الممالك ، وبين كتابه
الإنشاء وتفضيلها على سائر أنواع الكتابة ، وصفات الكتاب وأدبهم ، ومدح
فضلاهم وذم حماهم .

ومعرفة كل ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء في الأمور العلمية والعملية : كمعرفة المواد
اللازمة للنشئ : من الخط وتوابعه ولواحقه وغير ذلك .

ومعرفة المسالك والممالك (علم تقويم البلدان) : كمعرفة شكل الأرض وإحاطة
البحر بها ، وبين جهاتها الأربع وما اشتملت عليه من الأقاليم السبعة الطبيعية ،
وبين موقع الأقاليم العرفية منها ، وذكر حدودها الجامعة لها ، وما فيها من الجبال
والبحار والأنهار ، والأقاليم والممالك والبلدان ، ومثلوكها في القديم والحديث
وما يتبع ذلك .

ومعرفة الأمور التي تشترك فيها أنواع المكتبات والولايات وغيرها : من ذكر
الاسماء والكنى ومواضع ذكرهما في المكتبات ، وذكر الألقاب وأصل وضعها ،
وما كان يلقب به أهل كل دولة إلى زمنه ، وكيفية توزيع الأعمال على كتاب

الإنشاء ، ومقادير قطع الورق وما يناسبها من الأقلام ، وغير ذلك من قوانين الكتابة وأنظمتها .

ومعرفة المكتبات العامة وأصولها ومقاصدها ، في القديم والحديث ، ومصطلح المكتبات الدائرة بين كتاب الإسلام ، وكتب النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أهل الإسلام وغيرهم ، والكتب الصادرة عن الصحابة والخلفاء والملوك ومن في معانهم ، وبيان مذاهب الكتاب فيما تفتتح به المكتبات ، وما يُخاطب به أهل الإسلام وغيرهم فيها ، وغير ذلك .

ومعرفة الولايات وطبقاتها ، وما يتبعها من البيعات والمهود ، ومعانها ، والولايات الصادرة لأرباب المناصب : من أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم .

ومعرفة الوصايا الدينية وما يُكتب فيها في القديم والحديث ، والمساحات والإطلاقات وما يكتب فيها ، والطرائق وتحويل السنين ، والتوفيق بين السنين القمرية والشمسية ، وما يكتب في التذكار التي يرجع إليها .

ومعرفة الإقطاعات وأصل وضعها في الشرع ، وما يكتب فيها في القديم والحديث ، وأقول من وضع ديوان الجيش في الإسلام .

ومعرفة الأيمان وما يقع به القسم ، والأيمان التي أقسم الله تعالى بها ، وما كان يخلف بها العرب في الجاهلية ، وما يقسم به أهل كل ملة ونحلة .

ومعرفة عقود الأمانات والصالح ، والمهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وغيرهم .

وذكر فيه فنونا كثيرة يتداولها الكتاب والأدباء ويتنافسون في عملها ، لا تعلق لها بديوان الإنشاء : كعمل المقامات ، والرسائل الملوكية المشتملة على الغزو

والصِّيد ، ورسائل المدح والذم ، ورسائل المفانحات بين الأشياء ، والرسائل
المشتملة على الأسئلة والأجوبة ، والرسائل المكتتبة بالحوادث والمساجرات
وغيرها ، وكقدمات البندق ، والصدقات الملوكية وغيرها ، والعمرات التي تكتب
للحجاج ، وذكور نسخ من ذلك كله . وما يكتب عن العلماء وأهل الأدب : من
الإجازة بالفتوى والتدريس والمرويات ، وما يكتب على الكتب المصنفة والقصائد
من التقریظات ، وما يكتب عن الفضاة : من التقاليد الحكيمة وإيجالات العدالة
وغير ذلك .

وتكلم فيه على البريد وأول من وضعه في الجاهلية والإسلام ، وبين معالمه
ومراكبه ، ومطارات الحمام الرسائلي وأبراجه بالديار المصرية والبلاد الشامية ،
ومراكب الثلج والهجن المعدة لنقله ، والمناوير والمحرقات .

وذكر فيه كثيراً من الآيات القرآنية الشريفة والأحاديث النبوية الكريمة ،
والأمثال والحكم العربية ، وأقوال الكثيرين من أئمة اللغة والتفسير والحديث والفقهاء
وعلم العربية .

وأتى فيه على كثير من أسماء الكتب والفنون ، وكثير من أسماء مشاهير المؤلفين
والعلماء والأدباء والكتاب والشعراء .

وأورد فيه من أصوب الصنعة في الكتابة ما يعني قارئه عن تصفح كثير من
المؤلفات الأدبية وغيرها .

وصمته شيئاً كثيراً يفوق الحصر من الرسائل البليغة لمشاهير الكتاب وأهل الأدب
في الشرق والغرب والتقديم والحديث .

ولم يترك باباً من أبوابه ولا فصلاً من فصوله دون أن يُحليّه من غرر منشأته
لنفسه بالمعجب والمطرب .

ولم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها، ولم يُغادر شاردة ولا واردة إلا أحصاها .
فصار كتابه لذلك - كتاب تاريخ وسير، ولغة وأدب، وفقه وتفسير للقرآن
والحديث، وشرح للأمثال والحكم العربية، وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة
المصرية خاصة .

وعلى الجملة فهو كتابٌ مُمتنعٌ، ودائرة معارف أدبية كبرى، يشهد لمؤلفه بالفطنة
والذكاء، وطول الباع في هذا الفن الجليل فن كتابة الإنشاء، وقوة التمكن في اللغة
العربية وآدابها، وينطق بماله من كثرة الأطلاع على دقيقتها وجايلها .

وإن حُسن نية مؤلفه، وأعماده على فضل الله تعالى في النفع به - ساعداً على
حفظه إلى هذا الزمن من أيدي العوادي، وأنتشاره هذا الانتشار العظيم .

فقد قال في خاتمة تأليفه لهذا الكتاب - تحذُّثاً بنعمة الله عليه - بعد أن ذكر أن
المصنّفات تتفاوت في الحُطُوظ إقبالاً وإدباراً: فن مرغوب فيه، ومرغوب عنه،
ومتوسط بين ذلك، وأنه قل أن ينفق تأليف في حياة مؤلفه، أو يروج تصنيف على
القرب من زمان مصنفه، وبعد أن استشهد على ذلك بما رواه المسعودي في كتابه
"التنبيه والإشراف" عن الجاحظ . قال :

لكنني أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليفي ونفاق سلعته، والمسارة إلى
استيخاؤه قبل انقضاء تأليفه، حتى إن قلبي التاليف والنسخ يتسابقان في ميدان
الطرس إلى اكتتابه، ومرتبب مجازيه للاستينساخ يساهمهما في ارتقابه، فضلاً من
الله ونعمة : (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

ترجمة مؤلفه

أما مؤلفه "أبو العباس أحمد القلقشندي" رحمه الله تعالى، فقد
ترجمه السخاوي في الجزء الأول من كتابه: "الضوء اللامع"، في أعيان القرن
التابع، فقال:

«هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، الشهاب بن جمال بن أبي اليمن
القلقشندي، ثم القاهري الشافعي».

ولد سنة ست وثمانين وسبعمائة، واشتغل بالفقه وغيره، وسمع على ابن الشيخة.
وكان أحد الفضلاء، ممن برع في الفقه والأدب وغيرهما. وكتب في الإنشاء،
وناب في الحكم، وشرح قطعاً من "جامع المختصرات" بل شرع في نظمه.

وعمل "صبح الأعشى في قوانين الإنشا" في أربع مجلدات، جمع فاعى.
وكان يستحضر أكثر ذلك مع "جامع المختصرات" و"الحاوي". وألف كتاباً
في أنساب العرب. وكان فيه تواضع ومروءة وخير.

مات يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة،
وله خمس وستون سنة. ذكره المقرئ في "عقوده" والعيني وآخرون. وسَمَى
المقرئ والدة عبد الله وهو وهم.



وترجمه صاحب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" فقال:

« شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندى الشافعى ، نزيل القاهرة .
تفقه ومهر ، وتعمى الأدب ، وكتب فى الإنشاء ، وناب فى الحكم . وكان يستحضر
" الحاوى " ، وكتب شيئاً على " جامع المختصرات " . وصنف كتاباً حافلاً سماه
" صبح الأعشى فى معرفة الإنشاء " وكان مستحضرًا لأكثر ذلك ، وصنف غير ذلك .
وكان مفضلاً وقوراً فى الدولة إلى أن توفى ليلة السبت عاشر جمادى الآخرة ، عن
خمسة وستين سنة ^(١) . »



وقد وقفنا على شىء من ترجمته وقت تصحيحنا لكتابه " صبح الأعشى " نوره
هنا ، إتماماً للفائدة ، فنقول :

ميلاده ونسبته

ولد المؤلف فى سنة ست وخمسين وسبعمائة كما ذكره السخاوى فى " الضوء
اللامع " ببلدة يقال لها " قلقشندة " من أعمال مديرية القليوبية بالديار
المصرية : من أصل عربى صميم ، من بنى بدر بن فزارة من قبس عيلان .
وكان بنو فزارة وردوا مصر مع من وردوا من العرب ، أيام الفتح الإسلامى وبعده ،

(١) سماه صاحب " كشف الظنون " مرة بأحمد بن علي ، ومرة أنرى بأحمد بن عبد الله ، وثالثة
بأحمد بن عبد الله بن محمد .

وذكر فى عنوان " نهاية الأرب " مؤلف ، المطبوع ببغداد أنه : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله
ابن سليمان بن إسماعيل القلقشندى ، الشهير بأبن أبى فدة .

ووجد مكتوباً على بعض أجزاء " صبح الأعشى " الخطية المحفوظة بدار الكتب أنه أحمد بن عبد الله
ابن أحمد بن محمد بن سليمان بن إسماعيل .

وَنَزَلُوا بِأَقْلِيمِ الْقَلْبِيَّةِ ، وَأَسْتَوْلَى بَنُو بَدْرٍ مِنْهُمْ عَلَى أَجَلِّ بِلَادِهِ . وَكَانَتْ لَهُمُ الرَّأْسَةُ
وَالغَلْبَةُ عَلَى جِيرَانِهِمْ مِنْ بَنِي عَمَّهِمْ بَنِي مَازِنِ بْنِ فَزَّارَةَ . وَكَانَ بَقْلَقَشْنَدَةَ فِرْقَتَانِ :
فِرْقَةٌ مِنْ بَنِي بَدْرٍ وَفِرْقَةٌ مِنْ بَنِي مَازِنِ ^(١) .

نشأته وتربيته

وَنَشَأَ نَشْأَةً حَسَنَةً ، وَتَرَبَّى تَرْبِيَةً عَالِمِيَّةً صَحِيحَةً ، وَتَوَجَّهَ إِلَى نَعْرِ الإسْكَندَرِيَّةِ
وَأَقَامَ بِهِ مَدَّةً مِنْ عُمْرِهِ ، وَطَلَبَ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَى مَشْهُورِي الْعُلَمَاءِ فِي عَصْرِهِ ،
وَأَشْتَغَلَ بِفُنُونِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِقْدَارٌ وَافٍ مِنْهَا . وَأَطَّلَعَ عَلَى كَثِيرٍ
مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَسْفَارِ فِي مُخْتَلَفِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ .

إجازته بالفتيا والتدريس

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ حِينَئِذٍ كَانَ مُقِيمًا بِنَعْرِ الإسْكَندَرِيَّةِ أَجَازَهُ الشَّيْخُ
سِرَاجُ الدِّينِ أَبُو حَفِصٍ عُمَرُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الشَّهْرُبَابِيِّ الْمَلَقْنِي - بِالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ
عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَمْ تَكُنْ سِنُهُ إِذْ ذَاكَ تُتَعَدَّى إِحْدَى
وَعِشْرِينَ سَنَةً ، كَمَا أَجَازَهُ بَأَن يَرَوِي عَنْهُ كُلُّ مَالِهِ مِنَ التَّأْلِيفِ فِي الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ
وغيرهما ، وَأَن يَرَوِي كُلَّ مَا جَازَتْ لَهُ رِوَايَتُهُ بِشَرْطِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ ، كَالْكَتُبِ الصَّحَاحِ
السَّنَةِ ، وَمُسْنَدِ الشَّافِعِيِّ وَمُسْنَدِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَكُتِبَتْ هَذِهِ الْإِجَازَةُ بِحَقِّ الْقَاضِي تَاجِ الدِّينِ بْنِ غَنُومٍ مَوْجِعَ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ
بِمَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ .

(١) أنظر "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" للزلف (ص ١٥٠) .

تَصَدُّرُهُ لِلإِفَادَةِ

وجلس بعد ذلك للإفادة، فانتفع الكثيرون من فقهه وورعه وأمانته .
وعرض عليه كثير من تلاميذه ما حفظوه من الكتب وغيرها في الفقه والأصول
وعُلوم العربية، فأجازهم بما حفظوه منها .

التحاقُّه بديوان الإنشاء

وفي شهر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة التحق بديوان الإنشاء بالأبواب
السلطانية بالديار المصرية، وأنشأ مقامةً في تقرُّب القاضى بدر الدين، بن القاضى
علاء الدين، بن القاضى محيى الدين، بن فضل الله : رئيس ديوان الإنشاء وقتئذ،
سماها "الكواكب الدررية"، في المناقب البدرية^(١) بناها على التعريف بكتابة الإنشاء
وعلو قدرها، وعظم خطرها، وأنها الحرفة التي لا يليق بطالِب العلم غيرها، والصناعة
التي لا يجوز له العدول عنها إلى ماسواها، وصنمها كثيراً من أصول الصنعة في الكتابة
وفروعها . إلا أنها لإيجازها، مع ما أشتملت عليه من كثير المعاني - أحتاجت إلى
شرح وإف يكشف إشاراتها، ويوضح عباراتها، فألف كتابه "صبح الأعشى"
وجعله كالشرح لها .

وفرع من تأليفه في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شوال سنة أربع
عشرة وثمانمائة .

(١) ذكرت في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى (ص ١١٢) .

قيّمته في الكتابة والإنشاء

كانت كتابته وإنشاؤه كأنشاء أهل عصره وكتابتهم ، مبناها على التخيل والتركيب
المحسنات البديعية : من السجع والجناس والتورية وغيرها ، والغلو فيها ، على نحو
ما كان من كتابة « القاضي الفاضل » و « ابن نباتة » والقاضي « شهاب الدين
ابن فضل الله العمري » وأضرابهم . غير أنها كانت تبدو أخف روحاً وأعظم
وضوحاً من كتابة أمثاله .

وإن من قرأ مقامته التي أنشأها عند ألتحانه بديوان الإنشاء ، عرّف ما كان
عليه : من غزارة المادة ، وسلامة الذوق ، وقوة الذاكرة .

مؤلفاته

وله آليف كثيرة ، منها :

كتاب «صبح الأعشى في كتابة الإنشاء» وهو هذا الكتاب .

وكتاب « ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المشمر » وهو مختصر كتاب
«صبح الأعشى» . طبع الجزء الأول منه في مطبعة الواعظ بالقاهرة
في سنة ١٣٢٤ هـ .

وكتاب « الغيوث الهوامع ، في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع »
في علم الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه .

وكتاب "نهاية الأرب، في معرفة قبائل العرب" في الأنساب، ألفه للفتى الجمالي يوسف الأموي^(١)، وطبع في مطبعة الرياض بمدينة بئداد (دار السلام) .
وكتاب "قلائد الجمان، في قبائل العربان" في أنساب العرب أيضا^(٢) .
وله غير ذلك رسائل كثيرة تزيد على المائة أودعها كتابه "صبح الأعشى" .



هذا : وقد أسند إلينا تصحيح كتابه "صبح الأعشى" المطبوع على نفقة دار الكتب، بالقسم الأدبي بالمطبعة الأميرية . فقمنا نحوه بما يجب بإزاء مؤلف جليل مثله، وأجهدنا في تهذيبه وتنقيحه بقدر الطاقة .

وأستعنا على ما وجدناه بأصله من التحريف الكثير والتصحيح الغريب - زيادة على ما فيه من الطمس والسقم في مواضع من بعض أجزائه - بمراجعة كثير من المؤلفات في الفنون المختلفة، ونسخ شئ من رسائل الكتاب ودواوين الشعراء وأهل الأدب، باحثين فيها عن كل موضوع تكلم عنه المؤلف أو أشار إليه في كتابه . ومتى توقفنا في شيء من مسأله أثناء التصحيح : لعدم وضوحه ، أو لأن يد الناخب مسخته ، أو لغير ذلك - رجعنا إلى تلك الكتب والرسائل فصححنا منها، مع المحافظة التامة على عبارة الأصل مهما بلغت من السقم . وما لم نقف عليه فيها، أبقينا على حاله،

(١) كما ذكر ذلك المؤلف في خطبه، وذكر صاحب "كشف الظنون" أنه ألفه لأبي الجود «بتر بن راشد» أمير العربان في البلاد الشرقية والغربية .

(٢) نسبة صاحب "كشف الظنون" لوالده المؤلف، وذكر أنه نبه على ذلك في كتابه "نهاية الأرب" .
[وقد تصفحناه فلم نعتز على ذلك] .

وَوَضَعْنَا بِجَانِبِهِ عِلَامَةً تَدُلُّ عَلَى التَّوَقُّفِ ، وَوَكَّلْنَاهُ إِلَى فَهْمِ الْقَارِيءِ الْكَرِيمِ وَعَبَقْرِيَّتِهِ ،
نَاسِبِينَ كُلِّ إِصْلَاحٍ أَدْخَلْنَاهُ عَلَيْهِ إِلَى مَوْضِعِهِ مِنْ كُتُبِ الْمُرَاجَعَةِ .

وَقَدْنَا أَكْثَرَ كَلِمَاتِهِ بِالشَّكْلِ ، مُعْتَمِدِينَ فِي ضَبْطِهَا عَلَى مَعَارِجِ اللُّغَةِ الْمَشْهُورَةِ ،
وَبَدَلْنَا الْجُهْدَ فِي تَقْرِيهِهِ إِلَى فَهْمِ الْقَارِيءِ ، بَوَضْعِ عِلَامَاتِ التَّرْقِيمِ بَيْنَ جُمْلِهِ وَأَجْزَائِهِ
عِبَارَاتِهِ .

وَمَيَّزْنَا مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَمْثَالِ
الْعَرَبِ وَحِكْمِهَا - بِعِلَامَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ تُمَيِّزُهَا عَنْ سِوَاهَا .

وَوَشَّيْنَا أَكْثَرَ صَفْحَاتِهِ بِمَحَاشِي شَرْحِنَا فِي بَعْضِهَا مَا يُوجَدُ فِي مَتْنِهِ مِنْ غَرِيبِ
اللُّغَةِ ، وَأَثَبْنَا فِيهَا أَسْمَاءَ كُلِّ الْكُتُبِ الَّتِي اعْتَمَدْنَا عَلَيْهَا عِنْدَ التَّصْحِيحِ .

وَمَا هُوَ إِذًا تَقَدَّمَ لِحَضْرَاتِ قُرَّائِهِ الْكِرَامِ - مِنْ أَكْبَرِ الْكُتَّابِ وَأَسَاطِينِ اللُّغَةِ
وَالْأَدَبِ - فِي تَوْيِهِ الْجَدِيدِ الَّذِي يَسِّرُ النَّظَرَ وَيَشْرَحُ الْخَاطِرَ ، مُعْتَذِرِينَ إِلَى
حَضْرَاتِهِمْ فِيمَا يَقْفُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَطَأٍ مَطْبَعِيٍّ وَقَعَ فِيهِ أَثْنَاءَ الطَّبْعِ وَلَمْ تَنْتَبِهْ لَهُ ،
وَالْكَأَلُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

وَفَقَّنَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَا يُجِبُّهُ وَرِضَاهُ ، وَأَطَانَا عَلَى مَشَاقِّ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَوَهَبْنَا
مِنْ لَدُنْهِ الصَّبْرَ وَحُسْنَ الثَّبَاتِ ، فَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ مَا

القاهرة في ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ (٢٧ يناير سنة ١٩٢٠)

محمد عبد الرسول
إبراهيم

دار الكتب السلطانية

كتاب

صحيح الأئمة

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الرابع عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع

بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

١٣٣٨ هـ

١٩١٩ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الباب الرابع

من المقالة التاسعة

(في الهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وملوك الكُفْر ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصولٍ تُتَعَيَّنُ على الكاتب معرفتها ، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأول

(في بيان رُتَبَتِهَا ومعناها ، وذاكر ما يُرادُفُهَا من الألفاظ)

أما رُتَبَتُهَا فإنها متأخرة - عند قُوَّةِ السُلْطَانِ - عن عَقْدِ الحِزْبِيَّةِ : لأن في الحِزْبِيَّةِ ما يدلُّ على ضَعْفِ المعقود له ، وفي الهدنة ما يدلُّ على قُوَّتِهِ .

وأما معناها فالمُهادنة في اللُغَةِ المُصَالِحَةُ ، يقال : هَادَنَهُ يُهَادِنُهُ مُهادِنَةً إذا صالحه والاسم الهدنة . وهي إما من هَدَنَ بَقَّحِ الدال يَهْدِنُ بَضْمَها هُدُونًا إذا سَكَنَ ، ومنه قولهم : « هُدْنَهُ عَلَى دَخَنِ » . أى سَكُونٌ عَلَى غِلٍّ ، أو تكون قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها .

(١) أى من باب قتل كما في المصباح وبه ضبط بالقلم في نسخة خطية من الصحاح ولكن ضَبَّطَهُ في القاموس واللسان وكذا المحكم بالقلم يفيد أنه من باب ضرب ، ففعل فيه لفتين .

(٢) هذا هو أحد شق التفصيل . أى الهدنة إما من الهدون بمعنى السكون أو من الهدون بمعنى التريث والتأخير .

ويرادفها ألفاظٌ أخرى :

أحدها - المُوَادَعَة، ومعناها المصالحَةُ أيضاً، أخذًا من قولهم : عليك بالموَدوع يريدون بالسَّكِينَةِ والوَقَارِ، فتكونُ راجعةً إلى معنى السُّكُونِ . وإما أخذًا من تَوَدِيعِ الثَّوبِ وَنَحْوِهِ : وهو جَعَلُهُ فِي صَوَانٍ يَصُونُهُ ، لأنه بها تحصل الصَّيَانَةُ عن القتال . وإما أخذًا من الدَّعَةِ : وهي الخَفْضُ والهُنَاءُ ، لأنَّ بسببها تحصلُ الرَّاحَةُ من تَعَبِ الحَرْبِ وكَلْفِهِ .

الثاني - المُسَالَمَةُ ومعناها ظَاهِرٌ : لأنَّ بوقوعها يَسْلَمُ كُلُّ من أَهْلِ الجَانِبَيْنِ من الآخر .

الثالث - المُقَاوَضَةُ، ومعناها [المُحَاكَمَةُ مُفَاعَلَةٌ من التَّقْضَاءِ بمعنى الفَصْلِ والحُكْمِ] .

الرابع - المُوَاصِفَةُ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لأنَّ الكَاتِبَ يَصِفُ ما وقع عليه الصُّلْحُ من الجَانِبَيْنِ . على أن الكُتَّابَ يُحْضِرُونَ لَفْظَ المُوَاصِفَةِ بما إذا كانت المهادنة من الجَانِبَيْنِ ، ولا شَكَّ أن ذلك جَارٍ فِي لَفْظِ المُوَادَعَةِ والمُسَالَمَةِ والمُقَاوَضَةِ أيضاً : لأنَّ المُفَاعَلَةَ لا تكون إلا بين اثنين إلا في ألفاظٍ قليلةٍ مَحْفُوظَةٍ ، على ما هو مقرَّر في عِلْمِ العَرَبِيَّةِ .

أما لَفْظُ المُهْدِنَةِ فإنه يصدَّقُ أن يكونَ من جانبٍ واحدٍ، بأن يَتَقَدَّ الأعلَى المُهْدِنَةُ لمن هو دُونَهُ . على أنها عند التَّحْقِيقِ ترجع إلى معنى المُفَاعَلَةِ ، إذ لا تُتصَوَّرُ إلا من اثنين .

وأما في الشَّرْعِ فعبارةٌ عن صُلْحٍ يَقَعُ بين زعيمين في زَمَنِ معلومٍ بشروطٍ مَخْصُوصَةٍ ، على ما سياتي بيانه فيما بعدُ، إن شاء الله تعالى .

والأصل فيها أن تكون بين مَلِكَيْنِ مُسْلِمٍ وكَافِرٍ ، أو بين نَائِبَيْهِمَا ، أو بين أَحَدِهِمَا ونَائِبِ الآخر . وعلى ذلك رَبَّبَ الفُقَهَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ بابَ المُهْدِنَةِ في كُتُبِهِمْ . قال صاحب

”مواد البيان“ . وقد يتعاقد عظماء أهل الإسلام على التواضع والتسليم واعتقاد المودة والتصافي، والتوازر والتعاون، والتعاضد والتناصر، ويستترط الأضعف منهم للأقوى تسليم بعض ما في يده والتفادي عنه بمعاطفته والالتقياد إلى أتباعه، والطاعة والاحترام في المخاطبة، والمجاملة في المعاملة، أو الإمداد بجيش، أو امتثال الأوامر والنواهي وغيرها مما لا يُحصى .

قلت : وقد يكون المالكان متساويين في الرتبة أو متقاربين ، فيقع التعاقد بينهما على المسالمة والمصافاة، والموازرة والمعاونة، وكف الأذية والإضرار وما في معنى ذلك، دون أن يلتزم أحدهما للآخر شيئاً يقوم به أو إتاوة يحملها إليه، ولكل مقام مقال، والكاتب الماهر يوفى كل مقام حقه، ويُعطى كل فصل من الفصول مستحقه .

الطرف الثاني

(في أصل وضعها)

أما مهادنة أهل الكفر فالأصل فيها قوله تعالى : ﴿ فسيجئوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ الآية، وقوله : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ .

وما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن الزبير رضي الله عنه : « أن قريشاً وجهت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالحديبية حين « صدده قريش عن البيت - سهيل بن عمرو ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم « هات [أكتب] بيننا وبينك كتاباً ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم « الكاتب ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أكتب بسم الله الرحمن

«الرحيم» . فقال سهيل : أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن أكتب
«بأسمك اللهم كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لانكتب إلا
«بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أكتب :
«بأسمك اللهم - ثم قال : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله - فقال سهيل :
«والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا ذاتلناك ؛
«ولكن أكتب محمد بن عبد الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : والله
«إني لرسول الله وإن كذبتموني ، أكتب محمد بن عبد الله ، ثم قال النبي
«صلى الله عليه وسلم : على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به - فقال
«سهيل : والله لا نتحدث العرب أنا قد أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من
«العام المقبل ، فكتب - قال سهيل : وعلى أنه لا يأتيك منا رجل
«وإن كان على دينك إلا رددته إلينا - قال المسلمون : سبحان الله !
«كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً ! فبينما هم كذلك ، إذ جاء
«أبو جندل يرسف في قيوده ، وقد نخرج من مكة حتى رمى بنفسه بين
«أظهري المسلمين - فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن
«ترده إلى - فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنا لم نقض الكتاب بعد -
«قال : فوالله [إذا] لا أصالحك على شيء أبدا - قال النبي صلى الله
«عليه وسلم : فأجزه لي - قال : ما أنا بجزيره لك - قال بلن فافعل - !

« قال : ما أنا بفاعِلٍ . قال مِكرز بن حَفِصٍ : بلى قد أجزناه لك . قال »
 « أبو جندبٍ : أى معشرَ المسلمين : أُرِدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مُسْلِماً؟ »
 « ألا ترون ما قد لَقِيتُ؟ وكان قد عَذِبَ عذاباً شديداً فى الله تعالى . »
 « قال عمرُ بن الخطَّابِ : فأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقلت : «
 « أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قال بلى ! قلتُ : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى
 « الْبَاطِلِ؟ قال بلى ! قلتُ : فلم تُعْطَى الدَّيْنِيَّةُ فى دِينِنَا إِذَا؟ قال : إني
 « رسولُ اللهِ ولستُ أُعْصِيه وهو ناصِرِي » .

قلت : هذا ما أورده البخارى فى حديث طَوِيلٍ ^(١) . والذى أورده أصحابُ
 السِّيرِ أن الكاتِبَ كان على بن أبى طالبٍ ، وأن نُسخةَ الكُتَابِ :

« هذا ما قاضى عليه محمدُ بن عبدِ اللهِ مُهَيْبِ بنِ عمرو على وَضْعِ الْحَرْبِ »
 « عنِ النَّاسِ عَشْرَ سَنِينَ ، وأنه من أَحَبِّ أن يَدْخُلَ فى عَقْدِ مِجْدٍ »
 « وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ ، ومن أَحَبِّ أن يَدْخُلَ فى عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ »
 « دَخَلَ فِيهِ » .

وأشهد فى الكُتَابِ على الصَّاحِبِ رِجَالاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ .

(١) ذكر هذا الحديث بتمامه فى كتاب الصلح وهو فى ج ٤ من " إرشاد السارى " للتسلاخى ومعه كان

الطرف الثالث

(فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن)

قال في "مواد البيان" : وهذا الفن من المكتبات له من الدولة محل خطير، ومن المملكة موضع كبير، ويتعين على الكاتب أن يحل له فكره، ويعمل فيه نظره، ويتوفر عليه توفراً يحكم مبادئه، ويهدب معانيه .
والذي يلزم الكاتب في ذلك نوعان :

النوع الأول

(ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام وأهل الكفر)

وهي الشروط الشرعية المعبرة في صحة العقد، بحيث لا يصح عقد الهدنة مع إهمال شيء منها . وهي أربعة شروط :

الأول — في العاقد . ويختلف الحال فيه باختلاف المعقود عليه : فإن كان المعقود عليه إقليماً : كالهند والروم ونحوهما، أو مهادنة الكفار مطلقاً، فلا يصح العقد فيه إلا من الإمام الأعظم أو من نائبه العام المفوض إليه التحدث في جميع أمور المملكة . وإن كان على بعض القرى والأطراف، فلا حد للولاة المجاورين لهم عقد الصلح معهم .
الثاني — أن يكون في ذلك مصلحة للمسلمين : بأن يكون في المسلمين ضعف أو في المال قلة، أو توقع إسلامهم بسبب اختلاطهم بالمسلمين، أو طمع في قبولهم الجزية من غير قتال وإنفاق مال . فإن لم تكن مصلحة فلا يهادنون بل يُقاتلون حتى يُسلموا أو يُردوا الجزية إن كانوا من أهلها .

الثالث — أن لا يكون في العقد شرط ياباه الإسلام : كما لو شرط أن يُترك بأيديهم مال مسلم، أو أن يُرد عليهم أسير مسلم أنقلت منهم، أو شرط لهم على المسلمين

مَالٌ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، أَوْ شُرْطَ رَدِّ مُسْلِمِيهِمْ، فَلَا يَصِحُّ الْعَقْدُ مَعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بِخِلَافِ مَا لَوْ شُرْطَ رَدُّ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ أَوْ الْمَرْأَةِ الْكَافِرَةِ فَإِنَّهُ لَا يَمْنَعُ الصَّحَّةَ. قَالَ الْغَزَالِيُّ: وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ يَقُولَ: ^(١) عَلَى أَنْ مَنْ جَاءَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَدَّدْتُمُوهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مُسَلِّمًا رَدَّدْنَاهُ. فَإِنْ كَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ ضَعْفٌ وَخِيفَ عَلَيْهِمْ، جَازَ اتِّرَامُ الْمَالِ لَهُمْ دَفْعًا لِلشَّرِّ، كَمَا يَجُوزُ فَكُّ الْأَسِيرِ الْمُسْلِمِ إِذَا تَجَرَّأْنَا عَنْ اتِّرَاعِهِ.

الرابع — أن لا تزيد مدة الهدنة عن أربعة أشهر عند قوة المسلمين وأمنهم، ولا يجوز أن تبلغ سنة بحال، وفيما دون سنة وفوق أربعة أشهر قولان للشافعي رضي الله عنه، أحسبهما أنه لا يجوز. أما إذا كان في المسلمين ضعف وهناك خوف، فإنه تجوز المهادنة إلى عشر سنين، فقد هادن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة عشر سنين كما رواه أبو داود في سننه. ولا تجوز الزيادة عليها على الصحيح، وفي وجه تجوز الزيادة على ذلك لأصلحة. فلو أطلق المدة فالصحيح من مذهب الشافعي أنها فاسدة، وقيل: إن كانت في حال ضعف المسلمين حملت على عشر سنين، وإن كانت في حال القدرة: فقد قيل تحمل على الأقل: وهو أربعة أشهر، وقيل على الأكثر: وهو ما يقارب السنة. ولو صرح بالزيادة على ما يجوز عقد الهدنة عليه: فإن زاد على أربعة أشهر في حال القوة أو على عشر سنين في حال الضعف صح في المدة المعتبرة وبطل في الزائد. فإن احتجج إلى الزيادة على العشر، عقد على عشر ثم عشر ثم عشر قبل تقضي الأولى، قاله الفوراني وغيره من أصحابنا الشافعية. وذهب أصحاب مالك رحمهم الله إلى أن مدتها غير محدودة، بل يكون موكولا إلى اجتهاد الإمام ورأيه.

(١) بياض في الأصل بقدر كلمة ولعله « نهادكم على الخ ».

النوع الثاني

(ماشتركة فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر والإسلام، وعقود الصلح
الجارية بين زعماء المسلمين، وهي ضربان)

الضرب الأول

(الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق عليها بين
الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم)

وليس لها حدٌ يحصرها، ولا ضابطٌ يضبطها، بل بحسب ما تدعو الضرورة إليه
في تلك الهدنة بحسب الحال الواقع .

فمن ذلك — أن يشترط عليه أن يكون لوليّه مؤالياً، ولعدوّه مُعادياً، ولسائليه
مُسالياً، ومُحاربه مُحارباً، ولا يُواطىء عليه عدواً، ولا يوقع عليه صلحاً، ولا يُوافق
على ما يقدح في أمره، ولا يقبل سُؤال سائل، ولا يبدل بأذيل، ولا رسالةً مُراسل
مما يخالف الاتفاق الجارى؛ والأخذ على يد من سعى في تقض الصلح ونكث
العهد إن كان من أهل طاعته، والمقاتلة إن كان من المخالفين له، وأنه إذا جنى
من أهل مملكتهم جاني كان عليه إحصاره أو الأخذ منه بالحناية .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أن يكف عن بلاده وأعماله، ومُتطرف تُغوره،
وشاسع نواحيه — أيدي الداخلين في جماعته، والمنضمين إلى حوزته، ولا يُجهز لها
جيشاً، ولا يُحاول لها غزواً، ولا يبدأ أهلها بمنازعة، ولا يشرع لهم في مُقارعة،
ولا يتناوبهم بمكيدة ظاهرة ولا باطنة، ولا يُعاملهم بأذية جليّة ولا خفيّة،
ولا يُطلق لأحدٍ ممن ينوب عنه في إمارة جيشه، ومن يُنسب إلى جملته، ويتصرف

على إرادته - عتانا إلى شيء من ذلك بوجه من الوجوه، ولا سبب من الأسباب، وأن لا يُجاوز حدود مملكته إلى المملكة الأخرى بنفسه ولا بعسكر من عساكره .

ومن ذلك - أن يشترط عليه أن يُفرجَ عمن هو في حوزته ممن أحاطت به ربة الأئير، ويمكّنهم من المسير إلى بلادهم: بأنفسهم وخدمهم وعبائهم وأتباعهم، وأصناف أموالهم، في أتم حراسة، وأكمل خفارة، دون كلفة ولا مشونة تلحقهم على إطلاقهم، ونحو ذلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه ما لا يحمله إليه في كل سنة، أو أن يُسلمَ إليه ما يختاره: من حصون وقلاع وأطراف وسواحل مما وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين، أو أحب أتباعه أو استضافته من بلاد من يهاده من ملوك الكفر، وأن يُبقيَ من بها من أهلها، ويُقرّهم فيها بجرمهم وأولادهم ومواشيهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم، دون أن يلتمس عن ذلك أو عن شيء منه مالا، أو يطلب عنه بدلا، وما يخترط في هذا السلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه عدم التعرض لتجار مملكته، والمسافرين من رعيته، براً وبحراً بنوع من أنواع الأذية والإضرار، في أنفسهم ولا في أموالهم، وللمجاورين للبحر عدم ركوب المراكب الحربية التي لا يعتاد التجار ركوب مثلها .

ومن ذلك - أن يشترط عليه إمضاء ما وقعت عليه المعاهدة، وأن لا يرجع عن ذلك ولا عن شيء منه، ولا يؤخر شيئاً عن الوقت الذي (١)

ومن ذلك - أن يشترط عليه أنه إذا بقي من مدة الهدنة مدة قريبة مما يحتاج إلى التعيين فيه، أن يعلمه بما يريد من مهادنة أو غيرها .

(١) بياض بالأصول ولعله «الذي اتفق عليه» .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أنه إذا أفضى أمد الهدنة على أحد من الطائفتين وهو في بلاد الآخرين، أن يكون له الأمن حتى يلحق مأمته .

ومن ذلك — أن يشترط ما لا يحمله إليه في الحال أو في كل سنة، أو حصوناً، أو بلاداً يسامها من بلاده، أو مما يفلب عليه من بلاد مهاده، إلى غير ذلك من الأمور التي يجرى عليها الاتفاق مما لا تحصى كثرة .

الضرب الثاني

(مما يلزم الكتّاب في كتابة الهدنة — تحرير أوضاعها ، وترتيب

قوانينها ، وإحكام معاقدها)

وذلك باعتماد أمور :

منها — أن يكتب الهدنة فيما يناسب الملك الذي تجرى الهدنة بينه وبين ملكه . ولم أر من تعرض في الهدن لمقدار قطع الورق وإن كثرت كتابتها في الزمن المتقدم بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الفرنج ، كما سيأتي ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى . والذي ينبغي أن يراعى في ذلك مقدار قطع الورق الذي يكتب فيه الملك الذي تقع الهدنة معه : من قطع العادة أو الثابت أو النصف .

ومنها — أن يأتي في ابتدائها براءة الاستهلال : إما بذكر تحسين موقع الصلح والتدب إليه ويمن عاقبته ، أو بذكر السلطان الذي تصدر عنه الهدنة ، أو السلطانين المتهادين ، أو الأمر الذي ترتب عليه الصلح ، وما يجرى هذا المجرى مما يقتضيه الحال ويستوجب المقام .

ومنها — أن يأتي بعد التصدير بمقدمة يذكر فيها السبب الذي أوجب الهدنة ودعا إلى قبول المودعة .

فإن كانت الهدنة مع أهل الكفر، أحتج للإجابة إليها بالأخبار بأمر القرآن والالتقياد إليه، حيث أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمطأوعة على الصلح والإجابة إلى السلم بقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾. وما وردت به السنة من مصالحته صلى الله عليه وسلم قريناً عام الحديبية، وذكر ما سئح له من آيات الصلح وأحاديثه، وما جرى عليه الخلفاء الراشدون من بعده، وكفهم عن القتال ووقفاً عند ما حد لهم. وأنه لولا ذلك لشرعوا الأسنة إلى مخالفيهم في الدين، وركضوا الجياد إلى جهاد من يلهم من الملحدين.

وإن كان الصلح بين مسلمين أحتج بخوفه تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. وبأحاديث التحذير من تقاتل المسلمين كقوله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا لَقِيَ الْمُسْلِمَانِ بَسِيفَتَيْمَا فَاقْتُلْ أَحَدَهُمَا صَاحِبَهُ فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» وما يجرى هذا المجرى.

ومنها - أن يراعى المقام في تجليل المتهادين أو أحدهما بحسب ما يقتضيه الحال، ووصف كل واحد منهما بما يليق به: من التعظيم، أو التوسط، أو انحطاط الرتبة بحسب المقام، ويجرى على حسب ذلك في الشدة واللين.

فإن كانت الهدنة بين متكافئين سوى بينهما في التعظيم، وجرى بهما في الشدة واللين على حد واحد، إلا أن يكون أحدهما أسن من الآخر، فيراعى للأسن ما يجب له على الحد من التأديب معه، ويراعى للحدث ما يجب له على الكبير من الحنو والشفقة.

وإن كانت الهدنة من قوى لضعيف، أخذ في الاستعداد، آتياً بما يدل على علو الكلمة، وأنيساط القدر، وحصول النصر، وأستكمال العدد، وظهور الأيد،

ووفور الجُنْدِ، وقُصُورِ المُلُوكِ عَنِ المَطَاوِلَةِ، وَعَجْزِهِمِ عَنِ المَحَاوِلَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَخْرُطُ فِي هَذَا السَّلْكِ، لَا سِمْيَا إِذَا كَانَ القَوِيُّ مُسْلِمًا وَالضَّعِيفُ كَافِرًا، فَإِنَّهُ يَجِبُ الأَزْدِيَادُ مِنْ ذَلِكَ، وَذِكْرُ مَا لِلإِسْلَامِ مِنَ العِزَّةِ، وَمَا تَوَالَى لَهُ مِنَ النُّصْرَةِ؛ وَذِكْرُ الوَقَائِعِ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا نُصْرَةُ المَسْلَمِينَ عَلَى الكُفَّارِ فِي المَوَاطِنِ المَشْهُورَةِ، وَالأَمَاكِنِ المَعْرُوفَةِ، وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ .

وَإِنْ كَانَتِ الهُدْنَةُ مِنْ ضَعِيفٍ لِقَوِيٍّ، أَخَذَ فِي المَلَايِنَةِ بِمَحْسَبِ مَا يَقْتَضِيهِ الحَالُ، مَعَ إِظْهَارِ الجِلَادَةِ، وَتَمَّاسِكِ القُوَّةِ، خِصُوصًا إِذَا كَانَ القَوِيُّ المَعْقُودُ مَعَ الهُدْنَةِ كَافِرًا. وَإِنْ شَرَطَ لَهُ مَا لَا عِنْدَ ضَعِيفِ المَسْلَمِينَ لِلضَّرُورَةِ أَتَى فِي كَلَامِهِ بِمَا يَقْتَضِي أَنَّ ذَلِكَ رَغْبَةٌ فِي الصَّلَاحِ المَامُورِ بِهِ، لَا عَنِ خَوَرِ طِبَاجِ وَضَعِيفِ قُوَّةٍ، إِذَ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ .

وَمِنْهَا - أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْ سَقِطٍ يُدْخِلُ عَلَى الشَّرِيعَةِ نَقِصَةً، إِنْ كَانَتِ المِهَادَنَةُ مَعَ أَهْلِ الكُفْرِ، أَوْ يَجْرَأُ إِلَى سُلْطَانِهِ وَهَيْصَتِهِ، إِنْ كَانَتْ بَيْنَ مُسْلِمِينَ؛ وَيَتَحَدَّرُ كُلُّ الحَدَّرِ مِنْ خَلَلٍ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ: مِنْ إِهْمَالِ شَيْءٍ مِنَ الشَّرُوطِ، أَوْ ذِكْرِ شَرْطٍ فِيهِ خَلَلٌ عَلَى الإِسْلَامِ أَوْ ضَرَرٌ عَلَى السُّلْطَانِ، أَوْ ذِكْرِ لَفِظٍ مُشْتَرَكٍ أَوْ مَعْنَى مُلْتَبِسٍ يُوقِعُ شُبُهَةً تُوجِبُ السَّبِيلَ إِلَى التَّأْوِيلِ؛ وَأَنْ يَأْخُذَ المَأْخُذَ الوَاضِعَ الَّذِي لَا تُتَوَجَّهُ عَلَيْهِ مُعَارَضَتُهُ، وَلَا تُتَطَرَّقُ إِلَيْهِ مُنَاقَضَتُهُ، وَلَا يَدْخُلُهُ تَأْوِيلٌ .

وَمِنْهَا - أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الهُدْنَةَ وَقَعَتْ بَعْدَ اسْتِخَارَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَرْوِيَةِ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ وَظُهُورِ الخَيْرِ فِيهِ، وَمُشَاوَرَةِ ذَوِي الرَّأْيِ وَأَهْلِ الجِحْيِ، وَمُوَافَقَتِهِمْ عَلَى ذَلِكَ .

وَمِنْهَا - أَنْ يُبَيِّنَ مَدَّةَ الهُدْنَةِ . فَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الصَّحِيحَ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ إِذَا لَمْ تُبَيَّنِ المَدَّةُ فِي مُهَادَنَةِ أَهْلِ الكُفْرِ فَسَدَتْ الهُدْنَةُ .

قال في "التعريف" : وقد جرت العادة أن يحسبها مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمريّة . ويذكر سنين وأشهرًا وأيامًا وساعات حتى يستوفي السنين الشمسية المهادن عليها . أما في عقد الصلح بين مسلمين فإنه لا يشترط ذلك ، بل ربما قالوا : إن ذلك صار لازماً للأبد ، حتى في الولد وولد الولد .

ومنها - أن يبين أن الهدنة وقعت بين الملكين أنفسهما ، أو بين نائبيهما ، أو بين أحدهما ونائب الآخر ، ويستوفي ما يجب لكل قسم منها .

فإن كانت بين الملكين أنفسهما بغير واسطة بين ذلك ، ذكر ما أخذ عليهما من العهود والمواثيق ، والأيمان الصادرة من كل منهما ، وذكر ما وقع من الإشهاد بذلك عليهما ، وما جرى من ثبوت حكمه إن جرى فيه ثبوت ونحو ذلك .

وإن كانت بين المكتوب عنه ونائب الآخر ، يبين ذلك ، وتعرض إلى المستند في ذلك : من حضور كتاب من الملك الغائب بتفويض الأمر في ذلك إلى نائبيه ، وأنه وصل على يده أو يد غيره ، والإشارة إلى أنه معنون بعنوانه ، مختم بختمه المتعارف عنه أو وكالة عنه . ويتعرض إلى قيام البيّنة بها وثبوتها بجائيس الحكم ونحو ذلك من المستندات .

وإن كانت بين نائبين ، يبين ذلك وذكر مستند كل نائب منهما على ما تقدم ذكره . ويتعرض إلى أن النائب في ذلك قام فيه بأختياره وطواعيته ، لا عن إكراه ولا إجبار ، ولا قنبر ولا غلبة ، بل لما رأى لنفسه وأستنيده في ذلك من المصلحة والحظ . وأن كتاب الهدنة قري عليه وبين له فصلاً فصلاً ، وترجم له بموثوق به ، إن كان لا يعرف العربيّة ونحو ذلك .

ومنها - أن يتعرض إلى ما يجرى من التحليف في آخرها : على الوفاء ، وعدم النكث والإخلال بشيء من الشروط ، أو الخروج عن شيء من الالتزامات ،

أو محاولة التأويل في شيء من ذلك، أو السعى في تفضيه أو في شيء منه، وما في معنى ذلك :

فإن كانت بين ملكين، تعرض إلى تخليف كل منهما على التوفية بذلك .

وإن كانت بين أحدهما ونائب الآخر، حلف الملك كما تقدم، وستأتي صورة الخليف الذي يقع في الهدن في الكلام على الأيمان^(١) فيما بعد، إن شاء الله تعالى .

ومنها - أن يحرر أمر التاريخ بالعربي وما يؤرخ به في مملكة الملك المهادن : من الشرياني والرومي وغيرهما . قال في "التعريف" : ولهم عادة أن يحسبوا مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمرية، ويذكر سنين وأشهرًا وأيامًا وساعات حتى يستكمل السنين الشمسية المهادن عليها . وقد تقدم في الكلام على التاريخ من المقالة الثالثة كيفية معرفة التواريخ واستخراجها .

ومنها - أن يقع الإشهاد على كل من المتعاقدين بذلك، ولا بأس بإثبات ذلك . وقد جرت العادة أنه يشهد على كل ملك جماعة من أهل دولته ليقضى على ملكهم بقولهم وإن كان مخالفا في الدين . وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم «أشهد على مصالحتيه مع قريش رجالا من المسلمين ورجالا من المشركين» . وربما طلب النائب عن الملك الغائب إحضار نسخة مهادنة من جهة مستنبيه على ما وقع به العقد، مشمولة بخط الكتاب، مشهودا عليه فيها بأهل مملكته، أو تجهز إليه نسخة يكتب عليها خطه، ويشهد عليه فيها أهل مملكته . والغالب الأكتفاء بالرسل في ذلك .

(١) أي الأيمان الواقعة في عقود الصلح، وإلا فالأيمان بأنواعها تقدمت في ج ١٣ .

الفصل الثاني

في صورة ما يُكْتَبُ في المهادنات والسِّجَلَاتِ ، ومَذَاهِبِ
الْكِتَابِ فِي ذَلِكَ ، وفيه طرفان

الطرف الأول

(فيما يَسْتَبَدُّ ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم - وتُخَلَّدُ منه نُسْخٌ بِالْأَبْوَابِ
السلطانية ، وتُدْفَعُ منه نُسْخٌ إِلَى ملوك الكُفْر)
ثم ما يُكْتَبُ فِي ذَلِكَ عَلَى تَمَطُّينِ :

النمط الأول

(ما يُكْتَبُ فِي طُرَّةِ الْهُدْنَةِ مِنْ أَعْلَى الدَّرَجِ)

وقد جرت العادة أن يفتح بلفظ « هذا » أو لفظ « هذه » وما في معنى ذلك ،
مثل أن يكتب : « هذا عَقْدُ صُلْحٍ » أو « هذا كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « هذه مُوَادَعَةٌ »
أو « هذه مُوَاصَفَةٌ » وما أشبه ذلك . وربما حُذِفَ المبتدأ وهو « هذا » وأكتفى
بالخبر عنه ، مثل أن يقال : « كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « كِتَابُ مُوَادَعَةٍ » أو « عَقْدُ مُصَالِحَةٍ »
وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة بعقد صلح أنشأتها لينسج على منوالها ، وهي :

هذا عَقْدُ صُلْحٍ أَنْتَضَمَتْ بِهِ عُقُودُ الْمَصَالِحِ ، وَأَنْتَسَقَتْ بِوَاسِطَتِهِ سُبُلُ الْمَنَاجِحِ ،
وَتَحَدَّثَتْ بِحُسْنِ مَقْدَمَتِهِ الْغَادِي وَتَرَنَّمَ بِعَيْنِ تَدْيِجَتِهِ الرَّايح . عاقَدَ عَلَيْهِ السُّلْطَانُ فُلَانٌ
فُلَانًا الْقَائِمَ فِي عَقْدِ هَذَا الصُّلْحِ عَنْ مُرْسَلِهِ فُلَانٍ ، حَسَبَ مَا فَوَّضَ إِلَيْهِ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ
فِي كِتَابِهِ الْوَاصِلِ عَلَى يَدِهِ ، الْمُوَرَّخِ بِكَذَا وَكَذَا ، الْمُعْتَوَّنَ بِعُتْوَانِهِ ، الْمُخْتَوِّمَ بِطَابَعِهِ

المتعارف عنه - على أن يكون الأمر كذا وكذا . ويشرح مُلَخَّص ما يقع من الشروط التي يقع عليها الاتفاق بينهما في الصلح إلى آخرها ، ثم يقال : على ما شُرح فيه .

التمط الثاني

(ما يُكتب في متن الهدنة ، وهو على نوعين)

النوع الأول

(ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد)

بأن يكون المملكان متكافئين ، [فيتعاقدان إما على حصين^(١) وإما على مال يعطيه الملك المعقودة له الهدنة لعاقدها ، كما كان يكتب عن صاحب الديار المصرية . وللكتاب فيه مذهبان :

المذهب الأول

(أن تفتتح الهدنة بلفظ : « هذا ما هادن عليه »)

أو « هذه هدنة أو موادة أو مواصفة أو سلم أو صلح » أو نحو ذلك

على نحو ما تقدم في الكلام على الطرة)

وعلى ذلك كتب كتاب الفضية بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش عام الحديبية ، على ما تقدم ذكره في الكلام على أصل مشروعيتهما .

وهذه نسخة هدنة كتب بها عن سلطان قوي ، لملك مضعوف ، باسقاط مال يقوم به المضعوف للقوي في كل سنة أو حصون يسلمها له أو نحو ذلك ، وهي :

هذا ما هادن عليه ، وأجل إليه ، مولانا السلطان فلان - خلد الله سلطاناه وشرف به زمانه - الملك فلانا الفلاني . هادنه حين ترددت إليه رسله ، وتوالت عليه

(١) الزيادة من المقام لاستقامة الكلام .

كُتِبَهُ ، وَأَمَلَهُ ، لِيُثْمِلَهُ ، وَسَأَلَهُ ، لِيُكْفَ عَنْهُ أَسْلَهُ ، حِينَ أَبَتْ صِفَاحُهُ أَنْ تَصْفَحَ ،
 وَتَسْمَأُ عَجَاجِهِ بِالذَّمَاءِ إِلَّا أَنْ تَسْفَحَ ، فَرَأَى - سَدَّدَ اللَّهُ آرَاءَهُ - أَنْ الصُّلْحَ أَصْلَحَ ،
 وَأَنْ مُعَامَلَةَ اللَّهِ أَرْبَحَ ، وَهَادَنَ هَذَا الْمَلِكُ (وَيَسْمِيهِ) عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، وَوَلَدِهِ
 وَنَسْلِهِ ، وَبِجَمِيعِ بِلَادِهِ ، وَكُلِّ طَارِفِهِ وَبِلَادِهِ ، وَمَالَهُ مِنْ مَلِكٍ وَمَالٍ ، وَجِهَاتِ
 وَأَعْمَالٍ ، وَعَسْكَرٍ وَجُنُودٍ ، وَجُمُوعٍ وَحُشُودٍ ، وَرَعَايَا فِي مَمْلَكَتِهِ مِنَ الْمُقِيمِ وَالطَّارِي ،
 وَالسَّائِرِ بِهَا وَالسَّارِي - هُدْنَهُ مُدَّتْهَا أَوَّلُ تَارِيخِ هَذِهِ السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ وَمَا يَتْلُوهَا ، مَدَّةً
 كَذَا وَكَذَا مِنْ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ وَسَاعَاتٍ ، يَحْتَمِلُ فِيهَا هَذَا الْمَلِكُ فَلَانٌ إِلَى بَيْتِ مَالِ
 الْمُسْلِمِينَ ، وَإِلَى تَحْتِ يَدِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فَلَانٍ قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ
 كَذَا وَكَذَا - يَقُومُ بِهِ هَذَا الْمَلِكُ مِنْ مَالِهِ ، وَمَا يَتَكْفَلُ بِجِبَابَتِهِ مِنْ حِرْيَةِ أَهْلِ بِلَادِهِ
 وَتَحْرَاجِ أَعْمَالِهِ ، عَلَى أَقْسَاطِ كَذَا وَكَذَا - قِيَامًا لَا يُجُوجُ مَعَهُ إِلَى تَكْثِيفِ مُطَالَبِهِ ،
 وَلَا إِلَى تَنَاوُلِهِ بِيَدِ مُغَالَبِهِ .

عَلَى أَنْ يَكْفَى مَوْلَانَا السُّلْطَانُ عَنْهُ بَأْسَ بَأْسَاتِهِ ، وَخَيْلَهُ الْمُطِيلَةَ عَلَيْهِ فِي صَبَاحِهِ
 وَمَسَائِهِ ، وَيَضُمُّ عَنْ بِلَادِهِ أَطْرَافَ جُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَيُؤَمِّنُهُ مِنْ بَطَانِهِمْ
 وَسِرَاعِيهِمْ ، وَيَمْنَعُ عَنْ بِلَادِ هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَانِحِمَةِ لِبِلَادِهِ ، وَالْمُزَاحِمَةِ لِدَوَاقِي أَمْدَادِهِ ،
 وَيُرَدِّعُهَا وَعَمَّنْ جَاوَرَهَا مِنْ بَقِيَّةِ مَا فِي مَمْلَكَتِهِ ، وَهِيَ كَذَا وَكَذَا أَيْدَى النَّهْبِ ،
 وَيُكْفَى الْغَارَاتِ وَيَمْنَعُ الْأَذَى ، وَيُرَدِّعُ مَنْ تَزَحُّ مِنْ رَعَايَا هَذَا الْمَلِكِ إِلَيْهِ ،
 مَا لَمْ يَدْخُلْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَيَشْهَدُ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيُقَرَّرَ بِالْكَلِمَتَيْنِ الْمُعْتَادَتَيْنِ ،
 وَيُؤَمِّنَ جَلَابَةَ هَذَا الْمَلِكِ وَمُجَارَهُ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ فِي عَوَارِضِ
 الْأَشْغَالِ ، وَلَا يَحْصَلُ عَلَيْهِمْ ضَرَرٌ فِي نَفْسٍ وَلَا مَالٍ ، وَإِنْ أَخَذَتِ الْمُتَجَرِّمَةُ مِنْهُمْ
 مَالًا أَوْ قَتَلَتْ أَحَدًا ، أَمَرَ بِأَنْصَافِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمُتَجَرِّمِ ، وَأَنْ يُؤْخَذَ بِحَقِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ
 الْمُجْرِمِ . وَعَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ فَيَمْنَعُ يَدْخُلُ إِلَيْهِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يَفْسَحَ لِنَفْسِهِ

ولا لأحد من جميع أهل بلاده في إيواء مُسَلِّمٍ مُتَنَصِّرٍ، ولا يرخص لذي عَمَى منهم
ولا مُتَبَصِّرٍ .

وأنه كلما وردت إليه كتب مولانا السلطان فلان أو كتب نوابه، أو أحد
[من المتعلقين^(١)] بأسبابه؛ يسارع إلى أمثاله والعمَل به في وقته الحاضر ولا يؤخره
ولا يمهله، ولا يطرحه ولا يمهله .

وعليه أن لا يكون عينا للكفار، على بلاد الإسلام وإن دنت به أو بعدت
الدار، ولا يواطى على مولانا السلطان فلان أعداءه [وأولم التتار^(٢)] وأن يلتزم ما يلزمه
من المُسَكَّة بالمسكنه، ويفعل ما تسكت عنه به الأئمة وما أشبهها من الأئسنة .
وعليه أن ينهى ما يتجدد عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهل ملته، ويُنَبِّه على
سوء مقاصدهم، ويعرف ما يهيم سماعه من أحوال ما هم عليه .

هذه هدنة تم عليها الصلح إلى منتهى الأجل المعين فيه ما استمسك بشروطها،
وقام بمقوقها، ووقف عند [حدّها الملتزم به^(٣)]، وصرف إليها عنان اجتهاده وبنى
عليها قواعد وفائه، وصان من التكدير فيها سرائر صفائه؛ سأل هو في هذه الهدنة
المقتررة، وأجابه مولانا السلطان إليها على شروطها المحتررة، وشهد به الحضور
بالمملكيتين وتضمنته هذه الهدنة المُسَطَّرة؛ وبالله التوفيق .

قلت: الظاهر أنه كان يكتب بهذه النسخة عن صاحب الديار المصرية والممالك
الشامية، لتملك سبب، فإن في خلال كلام المقر الشهابي بعد قوله: ولا يواطى
على مولانا السلطان فلان أعداءه: «وأولم التتار»، وقد تقدم في الكلام على الممالك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٦٨) .

(٢) » » (ص ١٦٩) ومما يأتي قريبا .

(٣) بيض له في الأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٦٩) .

أن ممتلك سييس كان يما لي التتار ويميل إليهم ، ويساعدهم في حرب المسلمين ويكثر في سوادهم .



وعلى مثل ذلك يكتب لكل ملك مضعوف في مهادنة الملك القوي له .

وهذه نسخة هدية من هذا النمط ، كتب بها أبو إسحق الصابي ، عن صمصام الدولة ، بن عضد الدولة ، بن ركن الدولة ، بن بويه الديلمي ، بأمر أمير المؤمنين الطابع لله ، الخليفة العباسي ببغداد يومئذ ، لوردس المعروف بسفلاروس ملك الروم ، حين حيل بينه وبين بلاده ، وأتمس أن يفرج له طريقه إلى بلاده ، على شروط أقرتها ، وحضون يسلمها ، على ما سيأتي ذكره ، وهي :

هذا كتاب من صمصام الدولة ، وشمس الملة ، أبي كالجبار ، بن عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع ، بن ركن الدولة أبي علي ، مولى أمير المؤمنين ، كتبه لوردس ابن بنير المعروف بسفلاروس ملك الروم .

إنك سألت بسفارة أختنا وعدتنا ، وصاحب جيشنا (أبي حرب ربار بن شهر الكويه) تأمل حالك في تطاول حبسك ، واعتياقك عن مراجعة بلدك ، وبذلت - متى أفرج عنك ، وخلى طريقك ، وأذن لك في الخروج إلى وطنك ، والعود إلى مقر سلطانك - أن تكون أولينا وليا ، ولعدونا عدوا ، ولإيماننا سائما ، ولحربنا حربا : من جميع الناس كلهم ، على اختلاف أحوالهم وأديانهم ، وأجناسهم وأجياهم ، ومقارهم وأوطانهم ؛ فلا تصالح لنا ضدنا مبائنا ، ولا تواطئ علينا عدوا مخالفا ؛ وأن تكف عن تطرق الثغور والأعمال التي في أيدينا وأيدي الداخلين في طاعتنا : فلا تجهز إليها جيشا ، ولا تحاول لها غزوا ؛ ولا تبدأ أهلها بمنزاعه ، ولا تشرع لهم في مقارعه ، ولا تتناولهم بمكيدة ظاهرة ولا باطنة ، ولا تقابلهم بأذية جلية ولا خفية ؛ ولا تطلق لأحد من

ينوبُ عنك في قيادة جيوشك ، ومن يُنسبُ إلى جُمُلك ، ويتصرفُ على إرادتك -
 الاجترَاءَ على شَيْءٍ من ذلك على الوجوه والأسباب كُلِّها ؛ وأن تُفْرِجَ عن جميع
 المسلمين وأهل ذِمَّتِهِم الحاصلين في محاليس الروم ، ممن أحاطت بعُنُقِهِ رِبْقَةُ الأَسْرِ ،
 وآشَمَلَتْ عَلَيْهِ قَبْضَةُ الحَصِيرِ والقَسْرِ ، في قديم الأيام وحديثها ، وبَعِيدِ الأوقات
 وقَريبها ؛ المقيمين على أديانِهِم ، والمختارين للعودِ إلى أوطانِهِم ؛ وتُهَضِّمَهُم بما
 يُنْهَضُ بِهِ أَمْنَهُم ، ومُكَنَّهُم من البروزِ والمسيرِ بنفوسِهِم وحريمِهِم وأولادِهِم وعِيالَتِهِم
 وأتباعِهِم ، وأصنافِ أموالِهِم ؛ موقُورِينَ مَضْمُونِينَ ، مُتَبَدِّرِينَ مَحْرُوسِينَ ، غير
 ممنوعين ، ولا مُعَوَّقِينَ ، ولا مُطالِبِينَ بِمُشُونَةٍ ولا كُفَّةٍ صَغِيرَةٍ ولا كَبِيرَةٍ .

وأن تُسَلِّمَ تَيْمَةَ سَبْعَةٍ مِنَ الحُصُونِ ، وهى : حِصْنُ أَرْحَاحِ المعروف بِحِصْنِ
 الهندرس ، وحِصْنِ السَّناسَةِ ، وحِصْنِ حَوِيبِ ، وحِصْنِ أَكْلِ ، وحِصْنِ الأنديبِ ،
 وحِصْنِ حَالِي ، وحِصْنِ تَلِ حَرَمِ ، بِرِسَاتِيْقِهَا وَمَزَارِعِهَا إلى من نُكَلِّبُكَ بِتَسْلِيمِهَا إِلَيْهِ ،
 مع مَنْ بها من طبقات أهلِهَا أَجْمَعِينَ ، المُخْتَارِينَ لِسُكْنَاهَا والأَسْتِقْرَارِ فِيهَا ، بِحُرْمِهِم
 وأولادِهِم وَأَسْبَابِهِم وَمَوَاشِيَهُم وَأَصْنَافِ أَمْوَالِهِم وَغَلَاتِهِم وَأَزْوَادِهِم وَسِلَاحِهِم وآلَاتِهِم ،
 لِيَكُونَ جَمِيعُهَا حَاصِلًا فِي أَيْدِينَا وَأَيْدِي الْمَسَامِينِ ، عَلَى غَابِرِ الأَيَّامِ وَالسَّنِينَ ؛ مِنْ غَيْرِ
 أَنْ تَلْتَمَسَ عَنْهَا أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا مَالًا ، وَلَا بَدْلًا ، وَلَا عِوَضًا مِنَ الأَعْوَاضِ كُلِّهَا .
 وَعَلَى أَنْكَ تُمَضِي مَا عَقَدْتَهُ عَلَى نَفْسِكَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ بَابًا بَابًا ، وَنَفِي بِهِ أَوَّلًا أَوَّلًا ،
 مُنْذُ وَقْتِ وَصُولِكَ إِلَى أَوَائِلِ أَعْمَالِكَ ، وَإِلَى غَايَةِ أَسْتِيْلَاتِكَ عَلَيْهَا ، وَنَفَازِ أَمْرِكَ
 فِيهَا ؛ وَلَا تَرْجِعْ عَنْ ذَلِكَ وَلَا عَنْ بَعْضِهِ ، وَلَا تُؤَخَّرْ شَيْئًا مِنْهُ عَنِ الوَقْتِ الَّذِي تَقْدِرُ
 فِيهِ عَلَيْهِ ، وَلَا تُرَحِّصْ لِنَفْسِكَ فِي تَجَاوُزِ لَهْ وَلَا عُدُولِ عَنْهُ . وَمَتَى سَمِعْتَ طَائِفَةً مِنَ
 الطَّوَائِفِ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَى الرُّومِ والأَرَمَنِ وَغَيْرِهِمْ فِي أَمْرِ يَخَالِفُ شَرَايِطَ هَذَا الكِتَابِ ،

كان عليك منعهم من ذلك إن كانوا من أهل الطاعة والقبول منك ، أو مجاهدتهم
وممانعتهم إن كانوا من أهل العنود عنك ، والخلاف عليهم حتى تصرفهم عما يرومونه ،
وتحول بينهم وبين ما يحاولونه ، بمشيئة الله وإذنه ، وتوفيقه وعونه .

وأشترطت علينا بعد الذي شرطته لنا من ذلك التخليّة عن طريقك وطريق من
تصمته بجلتك ، وأشتملت عليه رفقتك : من طبقات الأصحاب والأتباع ، في جميع
أعمالنا حتى تنفذ عنها إلى ما وراءها ، غير معوق ، ولا معتقل ، ولا مؤذى ،
ولا معارض ، ولا مطالب بمشوّنة ولا كلفة ، ولا ممنوع من آتباع زائد ولا آله ،
ولا تؤثر عليك أحداً نأواك في أعمالك ، ونازعك سلطان بلادك ، ودافعك عنه
وناصبك العداوة فيه : ممن ينسب إلى الروم والأرمن والخزيرية وسائر الأمم المضادة
لك ، ولا توقع معه صلحاً عليك ، ولا موافقة على ما يعود بشمك أو قدح في أمرك ،
ولا تقبل سؤال سائل ، ولا بذل باذل ، ولا رسالة مراسيل فيما خالف شرائط هذا
الكتاب أو عاد بإعلاله ، أو إغلال وثيقة من وثائقه .

ومتى وقد إلينا رسول من جهة أحد من أضدادك ، راغباً إلينا في شيء يخالف
ما أنعقد بيننا وبينك - أمتنعنا من إجابته إلى ملتصقه ، ورددناه خائباً خالياً من
طلبته . وإذا سلمت الحصون المقدم ذكرها إلى من نكاتبك بالتسليم إليه ، كان لك
علينا أن نقر من فيما وفي رسائيقها على نعمهم ومنازلهم وضيايحهم وأملاكهم ،
وأن لا نزيهم عنها ولا عن شيء منها ، ولا نحول بينهم وبين ما تحويه أيديهم من جميع
أموالهم ، وأن نجريهم في المعاملات والحبايات على رؤسومهم الجارية الماضية التي
عوملوا عليها ، على مرّ السنين ، وإلى الوقت الذي يقع فيه التسليم ، من غير فسح
ولا تغيير ولا نقض ولا تبديل .

فأنهينا إلى مولانا أمير المؤمنين الطائيع لله ما سألت وآتمست، وضممت وشرطت وأشرت من ذلك كله؛ وأستأذناه في قبوله منك، وإيقاع المعاهدة عليه معك؛ فأذن - أدام الله تمكينه - لنا فيه، وأمرنا بأن نؤمركم ونؤمضيه؛ لما فيه من انتظام الأمور، وحياطة الثغور؛ وصلاح المسلمين، والتنفيس عن المأسورين.

فأمضيناه على شرائطه، وتراضينا جميعاً به، وعاهدناك عليه، وحلفت لنا باليمين المؤكدة التي يملف أهل شيرعيتك بها، ويتخرجون من الخيث فيها على الوفاء به؛ وأشهدنا على نفوسنا، وأشهدت على نفسك الله جل ثناؤه، وملائكته المقربين، وأنبياءه المرسلين، وأخانا وعدتنا أبا حرب ربار بن شهراكوويه مولى أمير المؤمنين، ومن حضر المجلس الذي جرى فيه ذلك، باستقرار جميعه بيننا وبينك، ولزومه لنا ولك.

ثم حضر بعد تمام هذه الموافقة واستمرارها، وثبوتها واستقرارها، قسطنطين ابن بينير أخو وردس بن بينير، وأرمانوس بن وردس بن بينير، فوقعا على هذا الكتاب، وأحاطا به علماً، وأستوعبا معرفة، وشهدا على وردس بن بينير ملك الروم بإقراره به، والتزامه إياه. ثم تبرع كل واحد منهما بأن أوجب على نفسه التمسك به والمقام عليه متى قام وردس بن بينير فيما هو موسوم به من ملك الروم، وجعل جميع الشرائط النابتة في هذا الكتاب المعقود بعضها ببعض أمانة في ذمته، وطوقاً في عنته، وعهداً يسأل عنه، وحقاً يطالب في الدنيا والآخرة به؛ وصار هذا العقد جامعاً لهم ولنا، ولأولادنا وأولادهم، وعقبنا وعقبهم؛ ماعشنا وعاشوا، يلزماً وإياهم الوفاء بما فيه علينا وعليهم، ولنا ولهم، على مرور الليالي والأيام، واختلاف الأذوار والأعوام.

أمضى وأنفذ صمصام الدولة وشمس الملة أبو كاليبجار ذلك كله على شرائطه وحدوده، وألتمه وردس بن بينير المعروف بسفلاروس ملك الروم، وأخوه

فُسْطَظِيْنُ ، وَأَبْنَهُ أَرْمَانُوْسُ بنِ وَرْدَسِ بنِ بِنْدِرِ ، وَصَمِنُوا الْوَفَاءَ بِهِ ، وَأَشْهَدُوا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِمْ بِالرِّضَا بِهِ ، طَائِعِينَ غَيْرِ مُكْرِهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، لَا عِيْلَةَ بِهِمْ مِنْ مَرِيضٍ وَلَا غَيْرِهِ ، بَعْدَ أَنْ قَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ، وَفَسَّرَهُ لَهُمْ وَخَاطَبَهُمْ بِاللُّغَةِ الرُّومِيَّةِ مِنْ وُثْقٍ بِهِ ، وَقَهَمُوا عَنْهُ ، وَقَفَّهُوا مَعْنَى لَفْظِهِ ، وَأَحَاطُوا عَلَيْهَا وَمَعَرَفَةٌ بِهِ ، بَعْدَ أَنْ مَلَكَوا نَفْسَهُمْ ، وَتَصَرَّفُوا عَلَى اخْتِيَارِهِمْ ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ إِيْنَارِهِمْ ، وَرَأَوْا أَنْ فِي ذَلِكَ حَقًّا لَهُمْ ، وَصَلَحًا لِشَأْنِهِمْ ، وَذَلِكَ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ سِتِّ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثَةَ .

وَقَدْ كُتِبَ هَذَا الْكِتَابُ عَلَى ثَلَاثِ نُسَخٍ مَتَسَاوِيَاتٍ ، خُلِّدَتْ اثْنَتَانِ مِنْهَا بِدَوَاوِينَ مَدِيْنَةِ السَّلَامِ ، وَسَلِمَتْ الثَّلَاثَةُ إِلَى وَرْدَسِ بنِ بِنْدِرِ مَلِكِ الرُّومِ وَأَخِيهِ وَأَبْنِهِ الْمَذْكُورِينَ مَعَهُ فِيهِ .



وَهَذِهِ نُسْخَةٌ هُدْنِيَّةٌ مِنْ مَلِكٍ مَضْعُوفٍ لِمَلِكِ قَوِيٍّ ، كَتَبَ بِهَا الْفَقِيهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ ^(١) أَحَدُ كُتَّابِ الْأَنْدَلُسِ ، عَنْ بَعْضِ مَلُوكِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، مِنْ أَتْبَاعِ « الْمَهْدِيِّ بْنِ تُوْمَرْتِ » الْقَائِمِ بِدَعْوَةِ الْمُوحِدِينَ ، مَعَ « دُونَ فِرَانْدَه » صَاحِبِ قَشْتَالَةَ مِنْ مَلُوكِ الْفَرَنْجِ بِعَقْدِ الصَّلَاحِ عَلَى مُرْسِيَّةٍ مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ ، وَهِيَ :

هَذَا عَقْدُنَا بَعْدَ اسْتِخَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِشْرَاحِهِ ، وَاسْتِعَانَتِهِ وَاسْتِنْبَاحِهِ ، نِيَابَةً عَنِ الْإِمَارَةِ الْعَلِيَّةِ بِحُكْمِ اسْتِنَادِنَا إِلَى أَوْامِرِهَا الْعَالِيَةِ ، وَآرَائِهَا الْهَادِيَّةِ . عَقْدَنَا - وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ - لِقَشْتَالَةَ مَعَ فُلَانِ النَّائِبِ فِي عَقْدِهِ مَعَنَا عَنْ مُرْسَلِهِ إِلَيْنَا ، الْمَلِكِ الْأَجَلِّ الْأَسْنَى الْمُبْجَلِ « دُونَ فِرَانْدَه » مَلِكِ قَشْتَالَةَ ، وَطَلِيْطَلَةَ ، وَقُرْطُبَةَ ، وَلِيُونِ ، وَبَلَنْسِيَّةِ - أَدَامَ اللَّهُ كِرَامَتَهُ وَمِيْزَتَهُ بِتَقْوَاهُ - حِينَ وَصَلْنَا مِنْ قِبَلِهِ كِتَابٌ مَخْتُومٌ بِطَائِعِهِ الْمَعْلُومِ لَهُ الْمُتَعَارِفِ عَنْهُ ، تَقْوِيْضًا مِنْهُ إِلَيْهِ ، فِي كُلِّ مَا يُعَقَّدُ لَهُ وَعَلَيْهِ . وَعَاقِدُنَا عَلَى أَنْ يَكُونَ

(١) بياض بالأصول .

السلم بيننا وبين مُرسِلِهِ المذكور لعامين آتئين ، أولها شهر المحرم الذي هو أول سنة تاريخ هذا الكتاب ، الموافق من الأشهر العجمية شهر كذا ، على جميع ما نحت نظرنا الآن من البلاد الراجعة إلى الدعوة المهدية - أسماها الله تعالى - حواصيرها وتغويرها ، مواسيطها وأطرافها ، من جزيرة شمر إلى بيرة والمنصورة وما يليها - حرس الله جميعها - سلمًا محافظًا عليها من الجهتين ، محفوظًا عهدًا عند أهل الملتين ؛ لا غدر فيها ، ولا إخلال في معنى من معانيها ؛ ولا تسنن في مدنها غارها ، ولا تدعّر سيّارها ؛ ومههما وقع اغوار ، أو حدث اقدار ؛ على جهة المجاهرة ، إذا اتصت والمساتر ؛ فإن كان من جهة النصارى ، فعلى ملك قشتالة تسريح الأمازي ، ورد الغنائم والنهب ، والإنصاف من الغنيمة إن عُدت العين ، وأعوز الطلب . وعالينا مثل ذلك سواء ، ليقابل بالوفاء ؛ هذا بعد أن يتبع الأمر ويعلم من أين كان .

ومن هذه المهادنة أن لا يتسبب إلى الحصون بالعدو ولا بالشر ، ولا يتجاوز النصارى حدود بلادهم وأرضهم بشيء من البناء ، ولا يصل من بلد قشتالة مددًا لمخالفينا ، ولا معونة لمقاتلينا . وكل ما يرجع إلى هذه الدعوة ، ويدخل في الطاعة من البلاد بعد هذا العقد فداخل في السلم ، بزيادة نسبه من المال الذي هو شرط في صحة هذا الحكم . وإذا بقي من مدة هذه المسالمة شهران آتئين ، فعلى ملك قشتالة أن يعلمنا بغيرضه في المهادنة أو سواها ، إعلامًا من مذايب الوفاء أو أياها .

وقد أترّم رسول المذكور لنا هذه الشروط ، وأحكم معنا - نيابة عنه فينا - العقود والربوط ؛ على كل ما ذكرناه . وألتمنا في هذا السلم ملك قشتالة المذكورة - مكافأة عن وفاء عهده ، وصحة عقده - مائة ألف دينار واحدة ، وأربعين ألف دينار في كل عام من عامي هذا الصلح المقدم الوصف ، مقسمًا ذلك على ثلاثة أنجم

في العام، ليتقاضاها بثقاته، ويوفى عيها على التمام والكمال، قبض منها كذا ليوصلها إلى مرسله، وألترم له تخليص باقي كذا عند انقضاء كذا على أوفى وجه وأكله؛ فإن وقي له بذلك بعد الأربعين يوما المؤقتة، فالسلم باقية وحكها ثابت، وإلا فالسلم مفسوخة ولا حكم لها إن عجز عن الوفاء له، بمحصول ما بقي من الشروط في استصحاب الحكم واتصال العمل؛ إن شاء الله تعالى.

وعلى ما تضمنه هذا الكتاب أمضى فلان - أعزّه الله - بحكم النيابة، عن الأمر العالي - أسماء الله - هذا العقد الصلحي، وأشهد بما فيه على نفسه وحضره المفضل طور (?) المذكور، فترجم له الكتاب ويثبت له معانيه، وقرر على مضامينه، فالترم ذلك كله عن مرسله ملك قشتالة حسب ما فوض إليه فيه؛ وأشهد بذلك على نفسه، في صحته وجواز أمره في كذا، والله الموفق لما يرضاه، ومقدم الخير والخيرة فيما قصاه، بئنه والسلام.

المذهب الثاني

(أن تفتتح المهادنة قبل لفظ «هذا» ببعدية)

وهذه نسخة هندية بين ملكين متكافئين دون تقرير شيء من الجانبين، كتب بها الفقيه المحدث أبو الربيع بن سالم من كتاب الأندلس، في عقد صلح على بالنسبة وغيرها من شرق الأندلس، وهي :

وبعد، فهذا كتاب موادعة أمضى عقدها وألترمه، وأبرم عهدها وتممه؛ فلان لملك أرغون، وقومط برجلونة، ويرنسب مقت بشل، حافظة (?) بن بطرة، بن أدفونش، ابن ريموند، أدام الله كرامته بتقواه له خاتما وعنوانا، المعهود صدوره في أمثالها من المراوضات الصلحية تضرعا وإعلانا؛ متضمنا من الإحالة في عقد المسألة

عليه ، والتفويض في إبرام أسبابها والترام فصولها وأبوابها إليه ؛ ما أوجب صحیح النظر ، وصريح الرأي المعتبر ، مقاربة فيه ، وموافقة منه على ما يحفظ حق المسلمين ويؤقيه ، جنوحاً منه إلى ما جرح إليه من ذلك متقاضيه ، وتحرياً للعمل على شاكلة الصواب والإيثار لما يقتضيه ، بعد محاولات بلغ منها النظر غايته من الاجتهاد ، وإراغات قرن بها من استخارة الله تعالى وأسئله ما رضى فيه من فضله العميم معهود التسديد والإنجاد ؛ فأجلى ذلك عن إمضاء عهد السلم لملك أرغون على بلنسية وكافة جهاتها أطرافاً ومواسط ، وتغوراً وبسائط ؛ وكذلك شاطبة ودانيه ، وما ينظم معهما من أحوازهما ويرجع إلى حكم بلنسية وحالها من الجهة النائية والدانية ؛ لمدة عامين آتين ، شمسين متصلين ، وأيام متصلة بهما كذلك . وهذا يحصر أمره ، ويحقق عدده ؛ أن نفتح به يوم الأحد الرابع والعشرين لشهر نوبر ، الموافق لعاشير ذى القعدة المؤرخ به هذا الكتاب ، الذى هو من عام أحد وعشرين وثمانية بتاريخ الهجرة - مسالمة تضع بها الحرب بين الجانبين أوزارها ، وتهدد للهدنة بين الطائفتين آثارها ، وترفع اللبنة (؟) عن ذكر من الملتين أذيتها وأضرارها ؛ البر والبحر فى ذلك سيان ، والمساترة فيها بالأذى والمجاهرة ممنودان ، وحقيقة اللازم من ذلك غنى ببيانه ووضوحه عن الإيضاح والتبيان ؛ لا ألتباس ولا إشكال ، ولا غائلة ولا آختيال ؛ ليس إلا الأمن الكافل لكافة من تستعمل عليه كافة المواضع المذكورة من المسلمين ، ومن تحويه بلاد ملك أرغون من الطوائف أجمعين . وكل منتم إلى خدمة هذه المملكة الأرغونية بما كان من وجوه الأئمة ، أو ناظر في جزء منها كائناً ما كان من الأجزاء ؛ فهو فى هذا الحكم داخل ، وتحت هذا الربط الصلحي واصل ؛ ولا حجة لمن كان له منهم حصن ينفرد به عن هذه المملكة ، على ما لهم فى ذلك من العوائد المتعارفة . فإن نقض بجزء منه وذهب إلى أن يكون فى حصنه منفرداً فهو

وما آختر، إذا تنكب الإضرار؛ فإن رام التطرق بشيء إلى أحد الجانبين كان على المسلمين وعلى أهل أرغون التظافر على استنزاله، والتظاهر على قتاله، حتى يكفوا ضرره، ويعفوا أثره.

والحدود الفاصلة بين الجزأين هي أوساط المسافات، على ما عرّف من مُتقدّم المسالمات؛ ويد كل فريق منهم مُطلقةً فيما وراء حده بما شاء، من إنشاء برّيم الإصلاح والانشاء؛ وكل من قصد المسلمين من رجال المملكة الأرغونية بريئاً من تبعه الفساد فقبول قصده مباح، وليس في استخدامه والإحسان إليه جناح؛ والطريق للتجار المعهود ووصولهم من بلاد أرغون إلى بلنسية في البر والبحر مباحة الأنتياب، مخموفة بالأمانة التامة في الحيثة والذهاب؛ وعلى تجار البحر منهم أن يتجنبوا ركوب الأجناف الحرّية التي يمكن بها الإضرار، ويستغنى عن^(١) التجار؛ والاسترهاب مرفوع عن هؤلاء الواصلين برّيم التجارة على اختلافهم، وتبأين أصنافهم؛ فيما لم تجبه أيديهم، ولا كان منسوباً إلى تعديهم؛ وكل مُعتقل من الطائفتين بأذن شيء يطرق إلى حكم هذه السلم خلافاً، أو يلحق بعهدتها إخلافاً؛ فعلى أهل موضعه الإنصاف ممن جناه، وصرف ماسلبته يده، وإحضاره مع ذلك ليعاقب بما أتاه. وليس لأحد من الطائفتين أن يتسبب باسترسال، إلى الإنصاف من جنسية حال؛ بل يقوم بدفع ذلك حيث يحب، ويطلبه في الموضع الذي ينبغي فيه الطلب؛ حتى يخاطب الناظر على المملكة التي نُسبت إليها هذه الإذابة، وصدرت عن أهلها [تلك] الحنايه؛ يطلب الإنصاف من عدوانها، وتعاد عليه الأعذار في شأنها؛ وعليه - ولا بد - التخليص منها عملاً بالوفاء الذي يجب العمل به، وقياماً بحق العهد الذي أكد الاعتلاق بسببه؛ ومتى غادر مغادر من أحد الملتين حصناً من حصون

(١) بياض بالأصول ولعله « عن ركوبها ».

الأخرى فله الأمان على الكمال، والرغى الحافظ للنفس والمال؛ حتى يُلحَقَ بِأَمْنِهِ،
وَيَعُودَ سَالِمًا إِلَى وَطَنِهِ .

فعلى هذه الشروط المحققة، والرُّبُوطِ الموثقة، انعقد هذا السلم، وعلى من دُكِرَ
من المساميين وأهلِ أرغون الحُكْمُ؛ وهذا الكتابُ ينطقُ في ذلك بالحقِّ اللازم
للطائفتين، ويُعربُ عن حقيقة ما انعقد بين من سُمِّيَ من أهلِ الملتين؛ وألتمَّ كُلهُ
عن ملكِ أرغونِ النائبِ عنه بتفويضه إليه، وأستنابته إياه عليه؛ الزعيم بطره
أبن فدانف بكدريش(?) على أتم وجوه الالتزام، وأبرم ذلك ملكُ أرغونِ بأوثقِ علائقِ
الإبرام، وكلُّ ذلك بعد أن بُدِّثَ له الفصولُ المتقدمةُ غايةَ التبيينِ وأفهمها حقَّ
الإفهام؛ وألزم نفسه مع ذلك وُصولَ كتابِ هذا الملكِ الذى تولى النيابةَ عنه
في هذا العقدِ، مصرحًا بالترامه وإمضائه فيه عمله، وفق ما تضمَّنه كتابه الذى
أرسله، وأشهد مع ذلك زعماءَ دولته وكبراءَ القائمين عليه، تحقيقًا لمناها، وتوثيقًا
لمبناه، إن شاء الله تعالى .

النوع الثانى

(من الهدن الواقعة بين ملكٍ مُسلمٍ وملكٍ كافرٍ - أن تكون الهدنةُ

من الجانبين جميعًا)

وفيهما للكتاب ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول

(أن تفتتح الهدنةُ بلفظ : « هذه هُدنةٌ » ونحو ذلك)

قال فى "التعريف" : وسبيلُ الكتابةِ فيها أن يُكْتَبَ بعد البسملة : هذه هُدنةٌ
استقرت بين السلطانِ فلانٍ والسلطانِ فلانٍ، هادئ كل واحدٍ منهما الآخر على الوفاءِ
عليه، وأجل له أجلًا ينتهى إليه؛ لما اقتضته المصلحةُ الجامعة، وحُسمت به موادُّ

الآمال الطامعة ؛ تاكدت بينهما أسبابها ، وتفتحت بهما أبوابها ؛ وعنيهما عهد الله على الوفاء بشرطها ، والالتزام إلى أمدها ، ومدد حبل المودعة إلى آخر مددها ؛ ضربا لها أجلا أوله ساعة تاريخه وإلى نهاية المدّة ، وهي مدّة كذا وكذا ؛ على أن كل واحد منهما يُعتمدُ بينه وبين صاحبه سيف الحرب ، ويكف ما بينهما من السهام الراشقة ، وتعلل الرماح الخطارة ، وتقر على مرابطها الخيل المغيرة . وبلاد السلطان فلان كذا وكذا ، وبلاد السلطان فلان كذا وكذا ، وما في بلاد كل منهما من الثغور والأطراف والموانئ والرستاق والجهات والأعمال : برأ وبحرا ، ومهلا وجبلا ، ونائيا ودائيا ، ومن فيها : من ماليتها المسمى وبنيه ، وأهله وأمواله ، وجنوده وعساكره ، وخاص من يتعلّق به وسائره ؛ ورواياه على اختلاف أنواعهم ، وعلى أفرادهم واجتماعهم ؛ البادية والحاضر ، والمقيم والسائر ، والتجار والسفارة ، وجميع المترددين من [سائر] الناس أجمعين . على أن يكون على فلان كذا و [على فلان] كذا [ويعين ما يعين] ^(١) : من مال ، أو بلاد ، أو مساعدة في حرب ، أو غير ذلك ، يقوم بذلك لصاحبه ، وينهض من حقه المقرر بواجبه ؛ وعليهما الوفاء المؤكّد الموثيق ، والمحافظة على العهد والتمسك بسببه الوثيق - هدنة صحيحة صريحة ، نطقا بها ، وتصادقا عليها ، وعلى ما تضمنته المواصفة [المستوعبة بينهما فيها ، وأشهدا الله عليهما بضمونها ، وتوثقا على ديونها ، وشهد من حضر مقام كل منهما على هذه الهدنة وما تضمنته من المواصفة] ^(١) ، وجرت بينهما على حكم المناصفة ، رأيا فيها سُكون الجمّاح ، وذخّ طرف الطّاح .

وعلى أن على كل منهما رعاية ما جاوره من البلاد والرعيّة ، وحملهم في قضاياهم على الوجوه الشرعيّة ؛ ومن نزح من إحدى المملكتين إلى الأخرى أُعيد ، وما أخذ منها باليد الغاصبة استُعيد ؛ وبهذا تم الإثهاد ، وقُرى على المسامح على رؤوس الأثهاد .

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٧٠ .

المذهب الثاني

(أن تُفْتَحَ الْهُدْنَةُ : بلفظ : « أَسْتَقَرَّتِ الْهُدْنَةُ بَيْنَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ »)

وَيَقْدَمُ فِيهِ ذِكْرُ الْمَلِكِ الْمُسْلِمِ)

وعلى ذلك كانت الهدن تُكتبُ بين ملوك الديار المصرية ، وبين ملوك الفرنج ،
المتغلبين على بعض البلاد الشامية .

وهذه نسخة هُدنية على هذا النمط : دون تقرير من الجانبين ؛ كُتِبَتْ بَيْنَ الْمَلِكِ
الظاهر « بيبرس البندقدارى » صاحب الديار المصرية ، وبين الاسبتار^(١) بحصن
الأكراد والمرقب ، في رابع شهر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة ، وهى :

أَسْتَقَرَّتِ الْهُدْنَةُ الْمُبَارَكَةُ الْمَيْمُونَةُ بَيْنَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ رُكْنِ الدِّينِ
أبِي الْفَتْحِ « بيبرس » الصَّالِحِي النَّجْمِيَّ ، وَبَيْنَ الْمُقَدَّمِ الْكَبِيرِ الْهَامِ فُلَانٍ مُقَدَّمِ بَيْتِ
الاسبتار الفلاني بَعَكَا ، وَالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ ، وَبَيْنَ فُلَانٍ مُقَدَّمِ حِصْنِ الْأَكْرَادِ ، وَبَيْنَ
فُلَانٍ مُقَدَّمِ حِصْنِ الْمَرْقَبِ ، وَبِجَمِيعِ الْإِخْوَةِ الْاسْبِتَارِ ، لِمُدَّةِ عَشْرِ سِنِينَ مُتَوَالِيَةٍ
وَعَشْرَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةِ أَيَّامٍ وَعَشْرِ سَاعَاتٍ : أَوَّلَهَا يَوْمُ الْاِثْنِينَ رَابِعُ رَمَضَانَ سَنَةِ
خَمْسِ وَسِتِّينَ وَسِتْمِائَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ،
الْمُوَافِقُ لِلْيَوْمِ الثَّلَاثِينَ مِنْ أَيَّامِ سَنَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ وَتِسْعَةٍ وَسَبْعِينَ سَنَةٍ

لِلْإِسْكَانْدَرِ بْنِ فِيلِبْسِ الْيُونَانِيِّ - عَلَى أَنْ جَمِيعَ الْمَمْلَكَةِ الْخَمِصِيَّةِ وَالشَّيْزُرِيَّةِ وَالْحَمَوِيَّةِ
وَبِلَادِ الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَاقِعٌ عَلَيْهَا الْإِتْفَاقُ الْمُبَارَكُ ، وَاسْتَقَرَّتْ لَهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ الْمَيْمُونَةُ
بِجَمِيعِ حُدُودِ هَذِهِ الْمَمَالِكِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَبِلَادِهَا الْمَوْصُوفَةِ ؛ وَقَرَاهَا وَضِيَاعِهَا ، وَسَهْلِهَا
وَجَبَلِهَا ؛ وَعَامِرِهَا وَغَامِرِهَا ، وَمَزْرُوعِهَا وَمَعْطَلِهَا ، وَطُرُقَاتِهَا وَمِيَاهِهَا ، وَقِلَاعِهَا

(١) الاسبتار بتقديم الموحدة على التاء هو رئيس الطائفة الدينية المعروفة في الكتب العربية بالاسبتارية .

(٢) بياض بالأصول .

وَحُصُونَهَا - عَلَى مَا يُفْصَلُ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ، وَيُنْشَرَحُ فِي هَذِهِ الْمُهْدَنَةِ الْمُبَارَكَةِ لِلذَّهَبِ الْمَعِينَةِ إِلَى آخِرِهَا .

وعلى أن المستقر بمملكة حمص المحروسة أن جميع المواضع والقري والأراضي التي من نهر العاصي، وتغرب إلى الحد المعروف من الغرب لبلد المناصفت : عامراً وداثراً، وبما فيها من الغلات صيفياً وشتوياً، والعداد وغيرها من الفوائد جميعها - تقرر أن يكون النصف من ذلك للسلطان الملك الظاهر ركن الدين والدين أبي الفتح «بيبرس»، والنصف لبيت الاسيتار .

وعلى أن كلاً من الجهتين يجتهد ويحرص في عمارة بلد المناصفت المذكورة بجهد وطاقته، ومن دخل إليها من الفلاحين بدواب، أو من التركمان، أو من العرب، أو من الأكراد، أو من غيرهم، أو الفناة - كان عليهم العداد بحاري العادة . ويكون النصف للسلطان، والنصف لبيت الاسيتار .

وعلى أن الملك الظاهر ينحى بلد المناصفت المقدم ذكرها من جميع عسكره وأتباعه، ويمن هو في حكمه وطاعته، ومن جميع المسلمين الداخلين في طاعته كافة . وكذلك مقدم بيت الاسيتار وأصحابه يجمعون بلاد مولانا السلطان الداخلة في هذه الهذنة .

وعلى أن جميع من يتعدى نهر العاصي مغرباً لرعي دوابه : سواء أقام أو لم يقم، كان عليه العداد سوى فناة البلد ودوابه، ومن يخرج من مدينة حمص ويعود إليها، ومن غرب منهم ومات كان عليه العداد .

وعلى أن يكون أمر فلاحى بلد المناصفت في الحبس والإطلاق والحياية راجعاً إلى نايب مولانا السلطان، باتفاق من نايب بيت الاسيتار، على أن يحكم فيه بشريعة الإسلام إن كان مسلماً، وإن كان نصرانياً يحكم فيه بمقتضى دولة حصن الأكراد .

وأن يكونَ الفلاحونَ الساكنونَ في بلادِ المناصِفَاتِ جميعها مُطْلَقِينَ مِنَ السُّخْرِ مِنَ الْجَانِبِينَ .

وعلى أن المَلِكَ الظَاهِرَ لا يأخذُ في بَلَدِ المناصِفَاتِ المذكُورَةِ: من تُرْكِيَانٍ ولا عَرَبٍ ولا أَكْرَادٍ ولا غَيْرِهِمْ عِدَادًا ولا حَقًّا من حقوقِ بَلَدِ المناصِفَاتِ، إلا وَيَكُونُ النِّصْفُ منه لِلْمَلِكِ الظَاهِرِ، والنِّصْفُ الآخَرُ لِبَيْتِ الأَسْبِتَارِ .

وعلى أن المَلِكَ الظَاهِرَ لا يتقدَّمُ بمنعِ أَحَدٍ مِنَ الفَلَّاحِينَ المعروفينَ بِسُكْنَى بلادِ المناصِفَاتِ مِنَ الرُّجُوعِ إليها، والسُّكْنَى فيها إِذَا أَخْتَارُوا العُودَ. وكذلك يَبْتَ الأَسْبِتَارِ لا يَمْنَعُونَ أَحَدًا مِنَ الفَلَّاحِينَ المعروفينَ بِسُكْنَى بلادِ المناصِفَاتِ مِنَ الرُّجُوعِ إليها والسُّكْنَى فيها إِذَا أَخْتَارُوا العُودَ .

وعلى أن المَلِكَ الظَاهِرَ لا يَمْنَعُ أَحَدًا مِنَ العُرْبَانِ وَالتُّرْكِيَانِ وَغَيْرِهِمْ : مِمَّنْ يُؤَدِّي العِدَادَ، مِنَ الدُّخُولِ إِلَى بَلَدِ المناصِفَاتِ، إِلا أَنْ يَكُونَ مُحَارِبًا لِبَعْضِ الفَرَجِجِ الدَّاخِلِينَ فِي هَذِهِ المُدُنَةِ، فَلهِ المَنعُ مِنْ ذَلِكَ . وَأَنْ تَكُونَ خُشَارَاتُ المَلِكِ الظَاهِرِ وَخُشَارَاتُ عَسَاكِرِهِ وَغِلْمَانِهِمْ وَأَهْلُ بَلَدِهِ تَرَعَى فِي بِلَدِ المناصِفَاتِ آمِنَةً مِنَ الفَرَجِجِ وَالتَّنْصَارِيِّ كَأَفَّةٍ . وَكَذَلِكَ خُشَارَاتُ بَيْتِ الأَسْبِتَارِ وَخُشَارَاتُ عَسَاكِرِهِمْ وَغِلْمَانِهِمْ وَأَهْلُ بَلَدِهِمْ تَرَعَى آمِنَةً مِنَ المُسَالِمِينَ كَأَفَّةٍ فِي بَلَدِ المناصِفَاتِ . وَعِنْدَ خُرُوجِ الخُشَارَاتِ مِنَ المَرَاغِي وَتَسْلِيمِهَا لِأَصْحَابِهَا، لا يُؤْخَذُ فِيهَا حَقٌّ ولا عِدَادٌ ولا تُعَارَضُ مِنَ الجِهَتَيْنِ .

وعلى أن تَكُونَ مِصِيدَةُ السَّمِكِ الرُّومِيَّةِ مَهْمَا تَحْصَلَ مِنْهَا، يَكُونُ النِّصْفُ مِنْهُ لِلْمَلِكِ الظَاهِرِ وَالنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسْبِتَارِ . وَكَذَلِكَ المِصَايِدُ الَّتِي فِي الشَّطِّ العَرَبِيِّ مِنَ العَاصِي يَكُونُ النِّصْفُ مِنْهُ لِلْمَلِكِ الظَاهِرِ وَالنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسْبِتَارِ . وَيَكُونُ لِبَيْتِ الأَسْبِتَارِ فِي كُلِّ سَنَةٍ نَحْمُسُونَ دِينَارًا صُورِيَّةً عَنِ القَشِّ، وَيَكُونُ القَشُّ جَمِيعُهُ لِلْمَلِكِ الظَاهِرِ يَتَصَرَّفُ تَوَابُهُ فِيهِ عَلَى حَسَبِ آخْتِيَارِهِمْ . وَيَكُونُ اللَّيْنُوفُ مَنَاصِفَةً: النِّصْفُ

منه للملك الظاهر والنصف لبنت الاسبتار . وتقرر أن الطاحون المستجيد المعروف
بإنشاء بيت الاسبتار، الذي كان حصل الحرب فيه، والبستان الذي هناك المعروف
بإنشاء بيت الاسبتار أيضا يكون مناصفة . وأن يكون متولى أمرهما نائب من جهة
نواب السلطان ونائب من جهة بيت الاسبتار ، يتولى أمرهما والتصرف فيهما
وقبض متحصليهما . وتقرر أن مهما يمدده بيت الاسبتار على الماء الذي تدور به
الطاحون ويسقى البستان من الطواحين والأبنية وغير ذلك ، يكون مناصفة بين الملك
الظاهر وبين بيت الاسبتار .

وأما المستقر بمملكة شيزر المحروسة ، فهي شيزر ، وأبو قبيس وأعماله ، وعينتاب
وأعمالها ، ونصف زاوية بغراس المعروفة بحماية بيت الاسبتار وأعمالها ، وجميع
أعمال المملكة الكسروية والبلاد المذكورة بحدودها المعروفة بها ، وقراها المستقرة
بها ، وسهاتها وجبلها وعامرها وغامرها .

وما استقر بمملكة الملك المنصور، ناصر الدين «محمد» بن الملك المظفر أبي الفتح
«محمود» بن الملك المنصور «محمد» بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب فهي : حماة
المحروسة وقلاعها ومدنها ، والمعرة وقراها وسهاتها وجبلها وأنهارها ، ومنافعها وثمارها
وعامرها وغامرها ، وبلاد رقية وبلاد بارين بحدودها ونحوها وعامرها ودثارها
وجميع من فيها وما فيها - على أن الملك المنصور لا يرخص للتركان ولا للعرب أن
يتزلوا بلد رقية وبارين سوى ثلاثين بيتا يحملون الغلة لقلعة بارين ، وإن أرادوا
الزيادة يكون بمراجعة الإخوة الاسبتارية والاتفاق معهم على ذلك .

وعلى أنه إن تعدى أحد من أصحابه بأذية ، أو تعدى أحد من القرابة في بلاده
بأذية ، كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوما ، فإن أنكشفت الأبخضة ،

أعيدت . وإلا تخلف الجهة المدعى عليها أنها ما علمت وما أحست ، وكما لهم ،
كذلك عليهم .

والمستقر لمملكة الصاحبين : نجم الدين وجمال الدين ، والأمير صارم الدين نايجي
الدعوة المباركة ، وولد الصاحب رضى الدين ، وهى : مصياف والرصافة وجميع
قلاع الدعوة وحصونها وسهلهما ووعرها ودامرها ودائرهما ، ومدنها وبلادها ،
وضياعها وطرقاتها ، ومباهاها ومتابعيها ، وجميع بلاد الإسماعيلية ببجلى بهرا واللكام ،
وكل ما تشتمل عليه حدود بلاد الدعوة وتحتوها - أن يكون الجميع آمنين من على
الرصيف الذى بسيزر إلى نهاية الأراضى اتى بحصون الدعوة وبلادها . وحماية
القرية المعروفة بعرطار (؟) يكون له أسوة الإسماعيلية . وإن علم الأصحاب أن أحدا
من الإسماعيلية قد عبر إلى بيت الاسبتار لأذية ، أعلموا بيت الاسبتار قبل أن تجرى
أذية ، وما لم يعلموا به عليهم اليمين أنهم ما علموا به ، وإن لم يخلفوا يردوا الأذية
التي تجرى .

وتقرر أن يكون فلاحو بيت الاسبتار رانحين وغاندين ومتصرفين فى بيعهم
وشرايهم ، مطمئنين لا يتعدى أحد عليهم . وكذلك جميع فلاحى بلاد الإسماعيلية
لا يتعدى أحد عليهم ، وأن يكونوا آمنين مطمئنين فى جميع بلاد الاسبتارية ، وإن
تعدى أحد من الجهتين فى سوق أو طريق ، فى ليل أو نهار ، تكون المهلة خمسة عشر
يوما ، فإن ردت الشكوى كلها فما يكون إلا انخير بينهم ، ومن توجهت عليه اليمين
حلف ، ومن لم يفعل يحلف وإلا يرد الأذية . وتكون الضيعة التى رهنها عبد المسيح
رئيس المرقب الاسبتار ، وهى المشيرة تكون آمنة إن كان الحال آسنتقر عليها إلى
آخر وقت عند كتابة هذه الهدنة المباركة بين الأصحاب وأصحابهم . ويحمل الأمر
فى الحقيق .

ويبطل ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع ما ليثت الاستتار على حماية
مضاياف والرصافة، وهو في كل سنة ألف ومائتا دينار قومصية، ونمسون مئدا
حنطة، ونمسون مئدا شعيرا، ولا تبقى قطعة على بلاد الدعوة جميعها، ولا يتعرض
بيت الاستتار ولا توأبهم ولا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد، ولا منكسر
ولا ماض، ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه .

وتقرر أن تكون جميع المباحات من الجهتين مطلقا مما يختص بالملكة الحمصية،
يستزقي بها الصعاليك . وأن توأب الملك الظاهر يحمونهم من اذية المسلمين من بلاده
المذكورة، وأن توأب بيت الاستتار يصونونهم ويحرسونهم ويحمونهم من النصاري
والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة . ولا يتعرض أحد من المسلمين
كافة من هذه البلاد الداخلة في [هذه] الهدنة [إلى بلاد الاستتارية] بأذية ولا إغارة،
ولا يتعرض أحد من جميع الفرنجة من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة بجذودها
الجارية في يد توأب الاستتار وفي أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغارة .

وعلى أنه متى دخل في بلاد المناصقات أحد ممن يجب عليه العداد وأمتنع من
ذلك، وكان عداد إحدى الجهتين حاضرا : إما عداد ديوان الملك الظاهر،
وإما عداد بيت الاستتار، فلنائب العداد الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ
من ذلك الشخص الممتنع عن العداد أو الخارج من بلد المناصقات رهنا بمقدار
ما يجب عليه من العداد، بحضور رئيس من رؤساء بلد المناصقات، ويترك الرهن
عند الرئيس ودبعة إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى، ويوصل إلى كل
من الجهتين حقه من العداد .

وإن خرج أحد ممن يجب عليه العداد، وعجز النائب الحاضر عن أخذ رهنه : فإن
دخل بلدا من بلاد الملك الظاهر، كان على التوأب إيصال بيت الاستتار إلى حقه

مما يجب على الخارج من العدا . وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت
الاستنار، كان عليهم أن يوصلوا إلى نواب الملك الظاهر حقهم مما يجب على الخارج
من العدا . وكذلك يعتمد ذلك في المملكة الحموية وبلاد الدعوة المحروسة .

وعلى أن التجار والسفراء والمترددین من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون
آمنين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية ، في البلاد التي
وقعت هذه الهدنة عليها - على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم ، ويمجهم
السُلطان ونوابه ، ويتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها .
الصالح وفي بلد المناصفات - من جميع المسلمين . ويمجهم بيت الاستنار في بلادهم
الواقع عليها الصالح وفي بلد المناصفات - من الفرنج والنصارى كافة .

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددین على أى طريق آخاروه
من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك
الظاهر ، وبلاد معاهده ، وبلاد المناصفات ، وخاص بيت الاستنار والمناصفات ،
يكون الساکنون والمترددون في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال ،
تحمي كل جهة الجهة الأخرى .

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات : الإسلامية ، والفرنجية
الاستنارية . لا يكون عداً على ما لها في المناصفات : من الدواب والغنم والبقر
والجمال وغيرها ، على العادة المقررة في ذلك .

وعلى أن إطلاق الرؤساء يكون باتفاق من الجهتين : الإسلامية ، والفرنجية
الاستنارية . ومتى وقعت دعوى على الجهة الأخرى ، وقف أمرها في الكشف
عنها أربعين يوماً ، فإن ظهرت أعيدت على صاحبها ، وإن لم تظهر حلف ثلاثة

نَفَرٍ مِّنْ يَخْتَارُهُمْ صَاحِبُ الدَّعْوَى عَلَى مَا يَعْلَمُونَهُ فِي تِلْكَ الدَّعْوَى، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ
الْيَمِينِ أُعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَوَّضَ عَنْهَا أُعِيدَ الْعَوَضُ .

وعلى أن يَكْشِفُوا عن الأَخِيذَةِ يُجْهِدُهُمْ وَطَاقَتَهُمْ . ومتى تحققت أُعِيدَتْ إلى
صَاحِبِهَا ؛ فَإِنْ حَلَفُوا بِبِرِّهِمْ مِنَ الدَّعْوَى ، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أُعِيدَتْ عَلَى
صَاحِبِهَا ، وَإِنْ أَمْتَنَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ مِنَ الْيَمِينِ حَلَفَ الْمُدَّعَى ، وَلَا يَسْتَحِقُّ عَوَضَ^(١)
مَا عَدِمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلَهُ . وكذلك يجرى الأمرُ في القَتْلِ : عَوَضُ الْفَارِسِ
فَارِسٌ ، وَعَوَضُ الرَّاجِلِ رَاجِلٌ ، وَعَوَضُ الْبَرْكِيِّ بَرْكِيٌّ ، وَعَوَضُ التَّاجِرِ تَاجِرٌ ،
وَعَوَضُ الْفَلَّاحِ فَلَاحٌ . وإذا انقضت الأربعون يوماً المذكورة لكشِفِ الدَّعْوَى
وَلَمْ يَحْلِفِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ لِلدَّعِي وَجِبَ عَلَيْهِ الْعَوَضُ حَتَّى يَرُدَّ، وَإِنْ رَدَّ الْيَمِينِ عَلَى الْمُدَّعَى
وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، وَلَمْ يَحْلِفِ صَاحِبُ الدَّعْوَى بَطَلَتْ دَعْوَاهُ وَحُكْمُهَا ،
وَإِنْ حَلَفَ أَخَذَ الْعَوَضُ .

ومتى هَرَبَ مِنْ إِحْدَى الْجِهَتَيْنِ إِلَى الْأُخْرَى أَحَدٌ ، وَمَعَهُ مَالٌ لغيره أُعِيدَ جَمِيعُ
مَالِهِ ، وَكَانَ الْمَهَارِبُ مَخِيرًا بَيْنَ الْمَقَامِ وَالْعُودِ . وَإِنْ هَرَبَ عَبْدٌ وَخَرَجَ عَنْ دِينِهِ ،
أُعِيدَ ثَمَنُهُ ، وَإِنْ كَانَ بَاقِيًا عَلَى دِينِهِ أُعِيدَ .

وعلى أن لا يدخل أحدٌ من الفاطميين في بلاد المناصفات : من الفلاحين والعرب
والتركمان وغيرهم ، إلى بلاد القرمج والنصارى كافة لإغارة ولا أذية بعلم الملك
الظاهر وبلاد معاھديه ، [ولا يدخل أحدٌ] بلاد المسلمين لإغارة ولا أذية بعلم
بيت الاسبتار ولا رضاهم ولا إذنبهم .

وعلى أن الدعاوى المتقدمة على هذا الصلح يحل أمرها على شرط المواصفة التي
بين الملك الظاهر وبين معاھديه وبين بيت الاسبتار .

(١) كذا في الأصل ، ولعل الصواب «ويستحق» كما هو ظاهر .

وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تُقضى بموت أحد من الجهتين، ولا وفاة ملك ولا مقدم، إلى آخر المدة المذكورة، وهي : عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها يوم تاريخه .

وعلى أن نواب الملك الظاهر ومعاهديه لا يتركون أحدا من التركان، ولا من العربان، ولا من الأكراد، يدخل بلاد المناصفات بغير اتفاق من بيت الاسبتار أو رضاه، إلا أن يكفلوه على نفوسهم في هذه الطوائف المذكورة، ويعلموا حاله، لئلا تبدؤ منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصفات وبلد النصارى . ولنواب مولانا السلطان أن تتركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الاسبتار في غد نزولهم المكان، إن كان المكان قريبا . وإن ظهر منهم فساد كان النواب يحاوبون بيت الاسبتار . وعلى أن المهادنة بحدودها يكون الحكم فيها كما في المناصفات، والحدود في هذه البلاد جميعها تكون على ما تشهد به نسخ الهدن، وما استقر الحال عليه إلى آخر وقت .

وعلى أن تخلى أمور المملكة المحصية على ما كان مستقرا في الأيام الأشرفية، على ما قرره الأمير علم الدين « سنجر » .

هذا ما وقع الاتفاق والتراضى عليه من الجهتين . وبذلك جرى القلم الشريف السلطانى الملكى الظاهرى : حجة بمقتضاه، وتأكيدا لما سُرخ أعلاه . كُتب في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هدية من هذا النمط، عُقدت بين السلطان الملك الظاهر « بيبرس » أيضا، وبين ملكة بيروت من البلاد الشامية، في شهر سنة سبع وستين وستمائة حين كانت بيدها، وهي :

استقرت الهدنة المباركة بين السطان الملك الظاهر ركن الدين «بيبرس» وبين
 الملكة الجليلة المصونة الفاهرة، فلانة أبنة فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها
 وبلادها التحتية مدة عشرين متواليه؛ أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة
 سبع وستين وستائة الموافق لتاسع إيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية -
 على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجارى عادتهم فى التصرف فيها فى أيام الملك
 العادل، أبى بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر
 صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز. والقاعدة المستقره فى زمنهم إلى آخر الأيام
 الظاهرية، بمقتضى الهدنة الظاهرية. وذلك مدينة بيروت وأما كنها المضافة إليها:
 من حد جبيل إلى حد صيدا، وهى المواضع الآتى ذكرها: جونية بحدودها، والعذب
 بحدودها، والعصفورية بحدودها، والراوق بحدودها، وسن الفيل بحدودها، والرح
 والشوف بحدودها، وانطلياس بحدودها، والحديدة بحدودها، وحسوس بحدودها،
 والبشرية بحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها، والنصرانية
 بحدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفيقه، والوطاء المعروف
 بمدينة بيروت، وجميع ما فى هذه الأماكن من الرطايا والتجار، ومن سائر أصناف
 الناس أجمعين، والصادر من منها والوارد إليها من جميع أجناس الناس، والمترددين
 إلى بلاد السلطان فلان، وهى: الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها،
 والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبله والأذقية وقلاعها وبلادها، وحمص
 المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب
 إليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، والمملكة الرحيية وما هو
 مختص بها: من قلاعها وبلادها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها: من قلاعها
 وبلادها، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها ورعاياها

ومالكها، والمملكة الشقيفية وما يختص بها من قلاعها وبلادها وريايها، والمملكة
 القديسية وما يختص بها، والمملكة الحلبية وما يختص بها، والمملكة الكركية والشوبكية
 وما يختص بها من القلاع والبلاد والرياء، والمملكة النابلسية، والمملكة الصرخدية،
 ومملكة الديار المصرية جميعها : بتغورها، وحصونها، ومالكها، وبلادها،
 وسواحلها، وبرها، وبحرها، وريايها، وما يختص بها، والساكين في جميع هذه
 الممالك : المذكورة وما لم يذكر من ممالك السلطان وبلادها، وما سيفتحه الله تعالى
 على يده ويبد توابه وغلمانه يكون داخلا في هذه الهدنة المباركة، وممتظا في جملة
 شروطها، ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمين مطمئنين على نفوسهم
 وأموالهم وبضائعهم، من المملكة فلانة وغلمانها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها :
 برا وبحرا، ليلا ونهارا، ومن مراكبها وشوانيها . وكذلك رعية المملكة فلانة وغلمانها
 يكونون آمين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع توابه وغلمانه
 ومن هوتحت حكمه وطاعته : برا وبحرا، ليلا ونهارا : في جبلته، والأذقية،
 وجميع بلاد السلطان، ومن مراكبه وشوانيه .

وعلى أن لا يحدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة، بل يجوزون
 على العوائد المستمرة، والقواعد المستقرة من الجهتين . وإن عدم لأحد من الجانبين
 مال، أو أخذت أخيدة، وصحت في الجهة الأخرى ردت إن كانت موجودة،
 أو قيمتها إن كانت مفقودة . وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يوما،
 فإن وجدت ردت، وإن لم توجد حلف وإلى تلك الولاية المدعى عليه، وحلف
 ثلاثة نفر ممن يختارهم المدعى، وبرئت جهته من تلك الدعوى . فإن أبى المدعى
 عليه عن اليمين حلف الوالى المدعى، وأخذ ما يدعيه . وإن قيل أحد من الجانبين
 خطأ كان أو عمدا، كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره : فارس بفارس،

وَبَرِيكِلُ بَيْرِيكِلِ ، وَرَاجِلُ بَرَايِلِ ، وَقَلَّاحُ بَقَلَّاحِ . وَإِنْ هَرَبَ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبِينَ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ بِمَالٍ لغيره ، رَدَّ مِنَ الْجِهَتَيْنِ هُوَ وَالْمَالُ ، وَلَا يُعْتَدَرُ بَعْدُ .

وعلى أنه إن تآجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلًا في هذه الهدنة ، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلًا في هذه الهدنة .

وعلى أن المملكة فلانة لا تمكن أحدًا من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ؛ وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء ، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين .

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين : لا ينقضها مرور زمان ، ولا يغير شروطها حين ولا أوان ؛ ولا تنقض بموت أحد من الجانبين . وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يومًا ، ولا يمنع أحد منهم من العود إلى مستقره ، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها ، والله الموفق ، في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هدنة عُقدت بين السلطان الملك الظاهر « بيبرس » وولده الملك السعيد ، وبين الفرنج الاسبتارية ، على قلعة لُد بالشام ، في سنة تسع وستين وستمائة ، وهي :
استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر رُكن الدين « بيبرس الصالح » قسيم أمير المؤمنين وولده الملك السعيد ناصر الدين « محمد برکه خاقان » خليل أمير المؤمنين ؛ وبين المباشير المتقدم الخليل افريز أولد كمال مقدم جميع بيت استبار سرجوان بالبلاد الساحلية ، وبين جميع الإخوة الاسبتارية ، لمدة عشرين سنين

كوايل متواليات متتابعات، وعشرة أشهر، أولها مُستهل رمضان سنة تسع وستين
وسمائة للهجرة النبوية المحمدية، الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وثمانمائة
وأثنين وثمانين للإسكندر بن فيلبس اليوناني - على أن تكون قلعة لُد بكلمها
وربضها وأعمالها، وما هو منسوب إليها ومحسوب منها، بحدودها المعروفة بها من
تقدم الزمان، وما استقر لها الآن، وما يتعلق بذلك : من المواضع، والمصايد،
والملاحات، والبساتين، والمعاصر، والطواحين، والجزائر : سبأها وجبأها،
وعامريها، ودائرها، وما يجرى بها من أنهار، وينبع بها من عيون، وما هو مبني بها
من عمائر، وما استجد بها من الفراج وغير ذلك؛ وكل ما عمر في أراضي المناصفت
على دورها وأنهارها، وما بحدود ذلك من نهر بدرة إلى جهة الشمال، وما استقر
لبلدة من هذه الجهات إلى آخر الأيام الناصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة
لها، وحضن برغن وما ينسب إلى ذلك من البلاد والضبياع والقرى التي كانت
مناصفة - تكون جميع بلدة وهذه الجهات خاصا إلى آخر الزائد للملك الظاهر،
ولا يكون لبيت الاستار ولا للرقب فيها حق ولا طلب بوجه ولا سبب إلى حين
انقضاء مدة الهدنة وما بعدها إلى آخر الزائد، ولا لأحد من جميع الفرنجية فيها تعلق
ولا طلب بوجه ولا سبب .

وكذلك مهما كان مناصفة، كقلعة العليقة في بلادها لبيت الاستار، يكون
ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف، ولا يكون للرقب فيها شيء
ولا لبيت الاستار .

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلعها من القرى - لا تكون
فيها مناصفة لبيت الاستار ولا للرقب، ولا حق، ولا رسم، ولا شرط، ولا طلب

في جميع بلاد الدَّعْوَةِ : مِصْيَافِ المَحْرُوسَةِ ، وَالكَهْفِ ، وَالْمِنْقَبَةِ ، وَالْقُدْمُوسِ ،
وَالْحَوَائِي ، وَالرُّصَافَةِ ، وَالْعَلِيقَةِ . وَكُلُّ مَا هُوَ فِي هَذِهِ الْقِلَاعِ وَفِي بِلَادِهَا مِنْ مُنَاصَفَةٍ ،
يَكُونُ ذَلِكَ خَاصًّا لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، وَلَيْسَ لِبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ وَلَا الْفَرَنْجَةِ فِيهِ حَدِيثٌ
وَلَا طَلَبٌ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ بِلَادُ الْمَرْقَبِ وَحُدُودُهَا مِنْ نَهْرٍ لُدٍّ وَمُقَبَّلًا وَمَغْرَبًا إِلَى حُدُودِ بِلَادِ
مَرْقَبَةَ الْمَعْرُوفَةِ بِهَا ، الدَّاخِلِ جَمِيعُهَا فِي الْفَتْوحِ الشَّرِيفِ ، وَأَسْتَقْرَارِهَا بِحُكْمِ ذَلِكَ
فِي الْخَاصِّ الْمُبَارِكِ الشَّرِيفِ ، وَحَدِّ الْبُيُوتِ الْمُحَازِيَةِ لِسُورِ الرَّيْضِ ، تَسْتَقَرُّ جَمِيعُهَا
مُنَاصَفَةً بَيْنَ السُّلْطَانِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ نِصْفَيْنِ بِالسُّوِيَّةِ ، وَمَا فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ :
مِنْ بَسَاتِينٍ ، وَطَوَاحِينٍ ، وَعِمَائِرٍ ، وَمَصَائِدٍ ، وَمَلَاخَاتٍ ، وَوُجُوهِ الْعَيْنِ ، وَالْمُسْتَفْلَاتِ
الصَّيْفِيَّةِ وَالشَّنُوبَةِ ، وَالْقَطَانِي ، وَالْحُقُوقِ الْمُسْتَخْرَجَةِ ، وَمَا هُوَ مَزْرُوعٌ مِنَ الْفَدَنِ
لِأَهْلِ الرَّيْضِ وَبِيَادِرِهَا : يَكُونُ ذَلِكَ مُنَاصَفَةً بَيْنَ السُّلْطَانِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ
سَرَجَوَانَ بِالسُّوِيَّةِ نِصْفَيْنِ .

وَمَا هُوَ دَاخِلُ الرَّيْضِ وَدَاخِلُ الْمَرْقَبِ ، فَإِنَّهُ مُطْلَقٌ مِنَ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ لِلْقَدَمِ
الْكَبِيرِ أَفْرِيزِ أَوْلَادِ كَالِ مَقْدَمِ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ سَرَجَوَانَ وَخِيَالَتِهِ ، وَرِجَالِهِ وَحِمَائِهِ
وَرِجَالَتِهِ وَرَعِيَّتِهِ ، بِرَسْمِ إِقَامَتِهِمْ وَسُكْنَاهُمْ مِنْ دَاخِلِ الْأَسْوَارِ ، وَعَنْ سُورِ الرَّيْضِ
الْمُحَازِيَةِ لِلْسُّورِ تَكُونُ مُنَاصَفَةً جَمِيعُهَا ، بِمَا فِيهِ مِنْ حَقُوقِ طُرُقَاتٍ وَأَحْكَارٍ ،
وَمَرَاعِي الْمَوَاشِي عَلَى آخْتِلَافِ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا ، وَجَمِيعِ السَّخْرِيَّاتِ ، وَكُلِّ أَرْضٍ
مَزْرُوعَةٍ أَوْ غَيْرِ مَزْرُوعَةٍ مَهْمَا أُخِذَ مِنْهُ مِنْ حَقٍّ أَوْ عِدَادٍ يَكُونُ مُنَاصَفَةً .

وَكُلُّ مَا هُوَ مِنَ الْمَوَانِي وَالْمَرَاسِي الْبَحْرِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ جَمِيعُهَا بِحِصْنِ الْمَرْقَبِ : مِنْ
مِينَاءِ بَلْدَةِ إِلَى مِينَاءِ الْقَنْطَرَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِحُدُودِ مَرْقَبَةَ - تَكُونُ هِيَ وَمَا يَتَحَصَّلُ مِنْهَا مِنْ

الحقوق المُستخرجة من الصادرين والواردين والتجار، وما ينعقد عليه ارتفاعها،
وتشهد به الحسابات - جميعه مناصفة . وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع
على اختلافها يؤخذ الحق [منه] مناصفة على العادة الجارية من غير تغيير لقاعدة من
حين أخذ بيت الأسيبار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة على العادة
الجارية، بل تجرى التجار في الحقوق على عادتهم في البضائع التي يحضرونها والمتجر
كائنا من كان .

يعتمد ذلك في كل ما يصل للمتددين والمقيمين بالقلة والريص : من عامة وغير
عامة، وخيالة وغير خيالة، على اختلاف أجناسهم، خلا ما يصل للإخوة ولعلمائهم
المعروفين بالإخوة الأسيبارية من الحبوب والمشونة والكسوة والخيل التي هي برسم
رؤسهم خاصة، لا يكون عليها حق، بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك،
وما خلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مناصفة على ما شرحناه .

وعلى أنه لا يجي أحد من الإخوة الخيالة، والوزراء، والكتاب، والثواب،
والمستخدمين شيئا على اسم بيت الأسيبار، ليستطلق الحق ويمنع من استبدائه، ولو
أنه أقرب أيج إلى المقدم أو ولد المقدم . إذا ظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط،
أخذ جميع ماله مستهلكا للجهتين : للديوان السلطاني المعمور، وليت الأسيبار،
إن كان خارجا من البحر أو نازلا إلى البحر، صادرا وواردا، وكذلك في البر صادرا
وواردا بعد المحاققة على ذلك وصحته .

وعلى أن ثواب المباشر المقدم الكبير لبيت الأسيبار، وولاته وكتابه ومستخدميه
وعلمائه، يكونون آيين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وجميع ما يتعلق بهم .
وكذلك علمائنا وولائنا وثوابنا ومستخدمونا وكتابنا ورعايا بلادنا يكونون آيين

مُطْمَئِنِّينَ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ وَأَمَّا هُمْ ، مُتَّفِقِينَ عَلَىٰ مَصَالِحِ الْبِلَادِ وَأَخِذِ الْحُقُوقِ ، وَسَائِرِ
الْمُقَاتِمَاتِ وَالطَّرْفَاتِ وَالْبَسَاتِينَ وَالطَّوَّاحِينَ ، وَالْحُقُوقِ الْمَقْرَّرَةَ عَلَى الْفَدَنِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ
أَجْنَاسِهَا . وَكَذَلِكَ الرَّأْسَةُ وَاسْتِخْرَاجُ وُجُوهِ الْعَيْنِ ، وَالْحُبُوبِ ، وَالتَّصَارِيفِ الْجَارِي
بِهَا الْعَادَةُ الْمَقْرَّرَةُ عَلَى الْفَدَنِ ، مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا .

وعلى أن جميع الضمانات يكون تَوَابُ السَّاطِنِ وَتَوَابُ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ مُتَّفِقِينَ جُمْلَةً
عَلَىٰ ذَلِكَ ، لَا يَنْفَرِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ وَتَنْزِيلٍ فِي دِفَاتِرِ الدِّيْوَانِ الْمَعْمُورِ
وَدِيْوَانِ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ ، وَلَا يُطْلَقُ وَلَا يُجْبَسُ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، وَلَا يَنْفَرِدُ
وَاحِدٌ دُونَ آخَرَ .

وعلى أن أيُّ مُسْلِمٍ تَصَدَّرَ مِنْهُ أَذِيَّةٌ يَحْكُمُ فِيهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ
فِي تَأْدِيهِهِ ، يَعْتَمَدُ ذَلِكَ فِيهِ نَائِبُنَا : مِنْ شَتَّى يَجِبُ عَلَيْهِ ، أَوْ قَطْعُ . أَوْ أَدَبٌ بِحُكْمِ
الشَّرْعِ الشَّرِيفِ : مِنْ شَتَّى ، وَقَطْعُ ، وَكَلْحُلِ أَعْيُنٍ ، بِحَيْثُ لَا يُعْمَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِحَضُورِ
نَائِبٍ مِنْ جِهَةِ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ ، حَاضِرٍ يُعَايِنُ ذَلِكَ بَعِيْنَهُ ، وَيَكُونُ قَدْ عَرَفَ الذَّنْبَ
وَتَحَقَّقَهُ . وَإِنْ كَانَ ذَنْبُهُ يَسْتَوْجِبُ جَنَايَةً أَوْ غَرَامَةً دَرَاهِمٍ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ مَوَاشٍ
أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، يَكُونُ مَا يُسْتَأْدَىٰ مُنَاصَفَةً لِلدِّيْوَانِ الْمَعْمُورِ
وَلِبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ وَصَاحِبِ الْمَرْقَبِ . ^(١) فَإِنْ كَانَ فِيهَا قِمَاشٌ وَبَضَائِعٌ عَلَى اخْتِلَافِ
أَجْنَاسِهِ ، وَصَاحِبُهُ مُسْلِمٌ ، يَأْخُذُ بِضَاعَتَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ
لِلدِّيْوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبَضَاعَةِ وَكَانَتْ لِمُسْلِمٍ ،
أَعِيدَتْ لِلخِزَانَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَلَا يَكُونُ لِبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ فِيهَا تَعَلُّقٌ . وَإِنْ كَانَ صَاحِبُ
الْبَضَاعَةِ نَصْرَانِيًّا عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ النَّصْرَانِيِّ ، تُؤْخَذُ بِضَاعَتُهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ
مِنْ جِهَتِنَا ، بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبَضَاعَةِ ، وَكَانَتْ لِنَصْرَانِيٍّ ،

(١) لعله سقط هنا شيء . يعود نفيه الضمير .

تَبَقَى تَحْتَ يَدِ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ ، خِلا مِنْ كَانَ مِنْ بِلَادِ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ عَلَى آخْتِلافِ
دِينِهِ : إِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ ذِمِّيًّا ، عَلَى آخْتِلافِ جِنْسِ دِينِهِ ، لَيْسَ لَبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ
عَلَيْهِمْ أَعْتْرَاضٌ ، وَيَجْمَلُ ذَلِكَ جَمِيعُهُ عَلَى آخْتِلافِ أَجْناسِ البِضائعِ لِلدِّيوانِ المَعْمُورِ .

وعلى أنه متى أَنْكَسَرَ مَرَكَبٌ ، وَظَهَرَ إِلَى بَرِّ المَوَانِي بِضَاعَةٌ ، وَقَصَدَ صَاحِبُهُ
شَيْلَهُ إِلَى جِهَةِ يَخْتارُهَا فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَلَا يُتَّبَعُ ، فَيُؤْخَذُ الحَقُّ مِنْهُ : إِنْ باعَ يُؤْخَذُ
الحَقُّ ، وَإِنْ حَمَلَ يُؤْخَذُ الحَقُّ ، وَيَكُونُ الحَقُّ لِلجِهَتَيْنِ : وَهُوَ الحَقُّ المَعْرُوفُ
الجَارِي بِهِ العادة .

وعلى أن التَّجَّارَ السَّفَّارَةَ والمُتَرَدِّدِينَ بالبِضائعِ مِنْ بِلَادِ المُسَامِينِ والنَّصَارَى مَتَى
مَا خَرَجُوا مِنَ المَوَانِي المَحْدُودَةِ أَعلاهِ يَتَوَجَّهُونَ بِخِفاةِ الجِهَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ :
لَا يُتَنَاولُ مِنَ الخِفاةِ شَيْءٌ مَنسُوبٌ إِلَى نَفْسِهِمْ إِلَى أَنْ يُجْرَهُمْ وَيُحْضِرَهُمْ إِلَى بَرِّ
حُدُودِ المَرْقَبِ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ تَحْتَ حِفظِ الجِهَتَيْنِ . وَمَتَى وَصَلَ التَّجَّارُ مِنْ مَمْلَكَةِ
السُّلْطَانِ إِلَى بِلَادِ المَرْقَبِ وَمَوَانِيهَا ، فَالتَّرْتِيبُ عَلَى الخِفاةِ مِنَ الجِهَتَيْنِ ، مَعَ تَدْرُكِ
الرُّؤَسَاءِ الحِفظِ للطَّرِقاتِ صادِرًا وَوَارِدًا ، بِحَيْثُ أَنَّهُمْ يَحْضُرُونَ إِلَى بِلَادِ المَرْقَبِ ،
وَإِلَى المَوَانِي بِالْمَرْقَبِ المَحْدُودَةِ أَعلاهِ ، طَيِّبِينَ آمِنِينَ عَلَى أرواحِهِمْ وَأموالِهِمْ بِالخِفاةِ
مِنَ الجِهَتَيْنِ ، عَلَى ما شَرَحْنَاهُ .

وعلى أن غُلْمَانَ المَباشِيرِ المَقَدِّمِ لَبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ وَالإِخْوَةَ وَالخِجالَةَ وَالرَّعيَّةَ المَقِيمِينَ
بِقَلْعَةِ المَرْقَبِ وَالرَّبِضِ ، يَكُونُونَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأموالِهِمْ وَمَنْ يَلُودُ
بِهِمْ وَيَتَعَلَّقُ ، فِي حَالِ صُدُورِهِمْ وَوُرُودِهِمْ إِلَى بِلادِنَا الجَارِيَةِ فِي مَمْلَكَتِنَا فِي البَرِّ ، مَنَّا
وَمَنْ نُؤانِبُ بِالمَمْلَكَةِ وَالبِلادِ الجَارِيَةِ فِي حِكمِنَا ، وَمَنْ وَلَدَنَا المَلِكُ السَّعِيدِ ، وَمَنْ أَمْرائِنَا
وَعَسَاكِرُنَا المَنْصُورَةَ . وَإِنْ قُتِلَ قَتِيلٌ أَوْ أُخِذَتْ أَخِيدَةٌ فِي حُدُودِ المَناصِفِ بِبِلادِ

المَرْقَب ، فيَقَعُ الكَشْفُ عن ذلك عِشْرِينَ يَوْمًا : فَإِن وُجِدَ فاعِلُ ذلك ، يُؤْخَذُ الفاعِلُ بِذَنْبِهِ . وَإِن لم يَظْهَرْ فاعِلُ ذلك مَدَّةَ عِشْرِينَ يَوْمًا فَيُمْسِكُ رُؤْسَاءُ مَكَانِ قَطْعِ الطَّرِيقِ وَأَخِذَ الأَخِيذَةِ ، وَقَتْلِ القَتِيلِ ، إِنْ كانَ أَخَذَ وَقَتْلُ - مَكَانَ مَنْ قَتَلَ القَتِيلَ أَوْ أَخَذَ الأَخِيذَةَ - أَقْرَبَ القُرْبَاءِ إلى الذي قَطَعَ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ أَوْ قَتَلَ قَتِيلًا . فَإِن خَفِيَ الفاعِلُ لذلك ، وَعَجِزَ عن إِحْضارِهِ بعد عِشْرِينَ يَوْمًا ، يُلْزِمُ أَهْلُ نُوَابِ الجِهَتَيْنِ مِنَ القُرْبَاءِ الأَقْرَبِ لذلك المَكَانِ بِأَلْفِ دِينَارٍ صُورِيَّةٍ : لِلدِّيوانِ السُلْطانيِّ النَّصْفُ ، وَلِتَقْيِيبِ الأَسْبَتارِ النَّصْفُ ، وَلَا تُنْكَاسِلُ الوِلايَةَ فِي طَلَبِ ذلك ، وَيَكُونُ طَلَبُهُ يَدًا وَاحِدَةً ، وَلَا يَخْتَصُ الوَاحِدُ دُونَ الأَخرِ . وَلَا يَحَابِي أَحَدٌ مِنْهُمْ لِأَخِذِ الفَلَّاحِ فِي هَذَا أَوْ غَيْرِهِ فِي مَصْلُحَةِ عِمارةِ البلادِ ، وَأَسْتِخْراجِ الحُقُوقِ ، وَمُقاسِمَةِ الغِلالِ ، وَطَلَبِ المُفْسِدِينَ لَيْلاً وَنَهَارًا .

وعلى أن لا تغيّر الهدنة المباركة بأمر من الأمور، لا من جهتنا ولا من جهة ولدنا الملك السعيد، إلى انقضاء مدتها المعينة أعلاه وفروعها. ولا تتغير بتغير المقدم المباشر لبيت الأستبار الحاكم على المرقب وغيره. وإذا جرت قضية في أمر من الأمور يعرفهم نوابنا، ويحقق الكشف إلى مدة أربعين يوماً؛ فمن يكون للبداية يخرج منها على من سب(?) ويكون قد عرف دينه الذي بدأ من جهة كل واحد. وإذا تغير النواب بالمرقب وحضر نائب مستجد يعتمد ما تضمنته هذه الهدنة، ولا يخرج عن هذه المواصفة. وإذا تسحب من المسلمين أحد على اختلاف أجناسه، إن كان مملوكاً أو غير مملوك، أو معتوقاً أو غير معتوق، أو كائناً من كان من المسلمين على اختلاف منازلهم، وإن كان غلاماً أو غير غلام - يردُّ بجميع ما يوجد معه، إن كان قليلاً أو كثيراً يرد. ولو أن المتسحب دخل الكنيسة وجلس فيها يمسك بيده ويخرج ويسلم لنوابنا بجميع ما معه، وإن كان خيلاً أو قماشاً أو دراهم أو ذهباً

وما يتعامل الناس به، يسلم بما معه إلى نوابنا على ما شرحناه . وكذلك إذا تسحب أحد من جهتهم من الفرنج أو النصارى إلى أبوابنا الشريفة ، أو وصل إلى جهة نوابنا يمسك ويسلم بما يحضر معه : من الخيل والأقمشة والعدّة وجميع ما يصل إن كان قليلاً أو كثيراً، يمسكه نوابنا ويسلمون ذلك بما معه لنائب المقدم الماستر المقيم بالمرقب ، وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه بما حضر معه .

وعلى أنهم لا يكون لهم حديث مع قلعة العليقة ، ولا الرعية الذين فيها ، ولا مع نواب ابن الرديني المقيمين فيها : لا يكاتب ، ولا بمشافهة ، ولا برسالة ، ولا بقول ، ولا يطلع أحد من جهتهم إليهم ، ولا يمكن أحد من الحضور إليهم ، [والوصول] إلى جهتهم من القلعة المذكورة ؛ ولا تسير إليهم مشونة ولا تجارة ولا جلب على اختلاف أجناسه ، ولا تكون بينهم معاملة . وإن حضر أحد من جهة قلعة العليقة إليهم يمسكون ويسلمون لنوابنا وياخذوا بذلك خطوطهم .

وعلى أنهم لا يحدون عمارة قلعة ، ولا في القلعة عمارة ، ولا في البدنة ولا في أبراجها ؛ ولا [يعتمدون] إصلاح شيء منها إلا إذا عابته نوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرمونه بعد أن يعابته نوابنا من هذا التاريخ ؛ ولا يحدون عمارة في ربضها ، ولا في سورها ، ولا في أبراجها ، ولا يحدون حفر خندق ، وعمارة خندق ، أو تجدد بناءه خندق أو قطع جبل ، أو تحصن عمارة ، أو تحصن بقطع جبل ، منسوباً لتحصين يمنع أو يدفع . ولم نأذن لهم بسوى البناءة [على] أثر الدور التي أحرقت عند دخول العساكر صحبة الملك السعيد . وقد أذنا لهم في عمارة باطن الربض على أثر الأساس القديم .

وعلى أن صهيون وأعمالها ، ورومه (؟) وأعمالها ، والقلعة وأعمالها ، وعيدوب وأعمالها ، البخارية تحت نظر الأمير سيف الدين محمد بن عثمان صاحب صهيون -

يجرى حُكْمُ هذه البلاد المختصة به حُكْمُ بلادنا في المُهادنة، بحُكْمِ أَنْ بلادَه المذكورة جاريةٌ في ممالكنا الشريفة .

وعلى أنه لا يمكنُ بَيْتُ الأَسبَاطِ من دُخُولِ رَجُلٍ غَريبَةٍ في البَرِّ ولا في البَحْرِ إلى بلادنا، بأذيةٍ ولا ضَرَرٍ يعودُ على الدَّولةِ ، وعلى بلادنا وحُصُوننا ورِعِيَّتينا ، إلا أن يكونوا يداً غالبةً ، صُحبةً مَلِكٍ مُتَوَجِّحٍ .

وعلى أن البُرْجَ الداخِلَ في المُنَاصِفَةِ ، وهو بُرْجُ مُعاوِيَةَ الذي عند المَحَاصِبِ الداخِلةِ في مَنَاصِفِ المَرَقِبِ الآن ، يُحَرَّبُ ما يُحْصِنُنا منه ، وهو النِّصْفُ من البُرْجِ المذكورِ أعلاه . وأن الحِمْسَ المعروفَ بِحِمْسِ بَلَدَةَ لم يكنُ لِبَيْتِ الأَسبَاطِ فيه شيءٌ من البَرِّين ، وأنه خالِصٌ للديوانِ المعمورِ دُونَ بَيْتِ الأَسبَاطِ . وأن الدَّارَ المُستَجَدَّةَ عمارتها بقلعةِ المَرَقِبِ برِسمِ الماسِترِ المُقَدَّمِ الكَثيرِ ، الذي هو عايزُ تَكْيِيلِ عِمارةِ سَقْفِ القَبْوِ بالمِجارةِ والكائِسِ ، لا تَمُكِّلُ عِمارتها ، ويبقى على حاله ، وهو في وَسَطِ القَلْعَةِ الظاهرِ منه قَليلٌ إلى البَرِّ الشَّرْقِيِّ وهو المذكورُ أعلاه .

وعلى أن تَوَابِ الأَسبَاطِ بِالْمَرَقِبِ لا يُخْفُونَ شيئاً من مُقاسماتِ البلادِ ولا شيئاً من حُقُوقها الجاريةِ بها العادةُ أن بَيْتِ الأَسبَاطِ يَسْتَخْرِجُونَهُ ولا يُخْفُونَ منه شيئاً ، وكلُّ ما كان يَسْتَأدِي من البلادِ في أيدي الأَسبَاطِ قَبْلَ هذه المُهدنةِ يُطْلَعُونَ تَوَابِنًا عليه ولا يُخْفُونَ منه شيئاً قَليلًا ولا كَثيرًا من ذلك .

وعلى أن السُلطانَ يَأْمُرُ نَوَابِهِ بِحِفْظِ مُنَاصِفَاتِ بلادِ المَرَقِبِ الداخِلةِ في هذه المُهدنةِ ، من المُفْسِدِينَ والمُتَلَصِّصِينَ والحِرامِيَّةِ من هو في حُكْمِهِ وطاعَتِهِ . وكذلك الماسِترِ المُقَدَّمِ افريزِ أُولدِ كَالِ يَلْزَمُ ذلكَ من الجِهَةِ الأُخرى . ومتى وَقَعَ - والعياذُ باللهِ - فَسَخٌ بسببِ من الأَسبابِ ، كان التَّجَارُ والسُّقَّارُ آمِنِينَ من الجهتين إلى

أن يعودوا بأموالهم ، ولا يمتنعون من السفر إلى أمانهم من الجهتين ، وتكون
النهاية لهم أربعين يوماً . وتكون هذه الهدنة منعقدة بشروطها المذكورة ، مُستقرّة
بقواعدها المسطورة للذمة المعينة ، وهي : عشر سنين وعشرة أشهر كوامل ، أولها
مُسْتَهْلُ رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة إلى آخرها ، متتابعة متواليّة ، لا تفسخ
بموت أحد من الجهتين ، ولا بعزل وإل وقيام غيره موضعه ، ولا زوال رجل غريبه ،
ولا حضور يد ظالمة ، بل يلزم كلاً من الجهتين حفظها إلى آخرها ، ومن تولى بعد
الآخر حفظها إلى آخرها ، بالشروط المشروطة فيها أولاً وآخرها . والخط أعلاه ، حجة
بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى . في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هدنة عُقدت بين السلطان الملك المنصور « قلاوون » الصالح
صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية وولده الملك الصالح « علي » وليّ عهده ،
وبين حكام الفرنج بعمكا وما معها من بلاد سواحل الشام ، في شهر سنة اثنتين
وثمانين وثمانمائة ، وهي يومئذ بأيديهم . وصورتها :

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدين أبي الفتح
« قلاوون » الملك الصالح وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين « علي » -
خلد الله تعالى سلطنتهما - وبين الحكام بمملكة عمكا ، وصيدا ، وعثليث ، وبلادها
التي انعقدت عليها هذه الهدنة ، وهم : الشيخان أودهيل الملكة بعمكا ، وحضرة
المقدم الجليل افريزكاسام دسا حول (?) مقدم بيت الديوية ، وحضرة المقدم الجليل
افريز سكفل لاورن (?) مقدم بيت الاسبتارية ، والمرشان الأجل افريزكورات نائب
مقدم بيت الاسبتار الآمن - لمدة عشر سنين كوامل ، وعشرة أشهر ، وعشرة أيام ،

وعَشْرَ سَاعَاتٍ : أَوْلَاهَا يَوْمُ الْخَمِيسِ خَامِسُ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ
 لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى صَاحِبِهَا وَسَلَامُهُ ، الْمُوَافِقُ لِلثَّلَاثِ مِنْ حَزْرَانَ
 سَنَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ وَأَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ لِعَلْبَةِ الْإِسْكَندَرِيِّ بْنِ فِيلِبَسِ الْيُونَانِيِّ - عَلَى جَمِيعِ
 بِلَادِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ ، وَهِيَ الَّتِي فِي مَمْلَكَتَيْهَا وَتَحْتَ حُكْمَيْهَا وَطَاعَتَيْهَا وَمَا تَحْتَوِيهِ
 أَيْدِيهِمَا يَوْمَئِذٍ : مِنْ جَمِيعِ الْأَقَالِمِ وَالْمَمَالِكِ ، وَالْقِلَاعِ ، وَالْحُصُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَتَغْرٍ
 دِمْيَاطَ ، وَتَغْرٍ الْإِسْكَندَرِيَّةِ الْمُحْرُوسَتَيْنِ ، وَتَسْتُرُو ، وَسَنْتَرِيَّةَ وَمَا يَنْسَبُ إِلَيْهَا مِنْ
 الْمَوَانِي وَالسَّوَاهِلِ ، وَتَغْرٍ فُؤَّةَ ، وَتَغْرٍ رَشِيدَ ، وَالْبِلَادِ الْحِجَازِيَّةِ ، وَتَغْرٍ غَزْرَةَ الْمُحْرُوسِ ،
 وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَوَانِي وَالْبِلَادِ ، وَالْمَمْلَكَةِ الْكَرْكِيَّةِ ، وَالشُّوْبَكِيَّةِ وَأَعْمَالِهَا ، وَالصَّلَاتِ
 وَأَعْمَالِهَا ، وَبُضْرَى وَأَعْمَالِهَا ، وَمَمْلَكَةِ بِلَادِ الْخَلِيلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ ؛
 وَمَمْلَكَةِ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ وَأَعْمَالِهَا ، وَبَيْتِ الْحَيْمِ وَأَعْمَالِهِ وَبِلَادِهِ ، وَجَمِيعِ مَا هُوَ
 دَاخِلٌ فِيهَا وَمَحْسُوبٌ مِنْهَا ، وَبَيْتِ جَبْرِيلَ ، وَمَمْلَكَةِ تَابُلُوسَ وَأَعْمَالِهَا ، وَمَمْلَكَةِ
 الْأَطْرُونِ وَأَعْمَالِهَا ، وَعَسْقَلَانَ وَأَعْمَالِهَا وَمَوَانِيهَا وَسَوَاحِلِهَا ، وَمَمْلَكَةِ يَاقَا وَالرَّمْلَةِ
 وَمِينَهَا ، وَقَيْسَارِيَّةَ وَمِينَهَا وَسَوَاحِلِهَا وَأَعْمَالِهَا ، وَأَرْسُوفَ وَأَعْمَالِهَا ، وَقَلْعَةَ قَاقُونَ
 وَأَعْمَالِهَا وَبِلَادِهَا ، وَأَعْمَالَ الْعَوْجَاءِ وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَلَاخَةِ ، وَالْفُتُوحِ السَّعِيدِ وَأَعْمَالِهَا
 وَمَزَارِعِهَا ، وَبَيْسَانَ وَأَعْمَالِهَا وَبِلَادِهَا ، وَالطُّورِ وَأَعْمَالِهِ ، وَالْبُجُودِ وَأَعْمَالِهِ ، وَجَبِينِ
 وَأَعْمَالِهَا ، وَعَيْرِ جَالُوتَ وَأَعْمَالِهَا ، وَالْقَيْمُونِ وَأَعْمَالِهِ وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ ، وَطَبْرِيَّةَ
 وَبُحَيْرَتَهَا وَأَعْمَالِهَا وَمَا مَعَهَا ، وَالْمَمْلَكَةِ الصَّفَدِيَّةِ وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهَا ، وَتَيْبِينَ وَهُونِينَ
 وَمَا مَعَهُمَا مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَعْمَالِ ، وَالشَّقِيفِ الْمُحْرُوسِ الْمَعْرُوفِ بِشَقِيفِ أَرْنُونِ
 وَمَا مَعَهُ مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَعْمَالِ وَمَا هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ، وَبِلَادِ الْفَرَنْ وَمَا مَعَهُ خَارِجًا
 عَمَّا عُنِيَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَنِصْفِ مَدِينَةِ إِسْكَندَرُونَةَ ، وَنِصْفِ ضَيْعَةِ مَارِبَ
 بِقُدْسِيهَا وَكُرُومِيهَا وَبَسَاتِينِيهَا وَحُقُوقِيهَا ؛ وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ إِسْكَندَرُونَةَ

المدكورة ، يكون جميعه بحدوده وبلاده للسلطان الملك المنصور ولولده النصف ،
والنصف الآخر للملكة عكا . والبقياع العزيزى وأعماله ، وشعرا وأعمالها ، وشقيف
تبرون وأعماله ، والعامر جميعها ولا ما غيرها (؟) ، وبانياس وأعمالها ، وقلعة الصبيبة
وأعمالها وما معها من البحيرات والأعمال ، وكوكب وأعمالها وما معها ، وقلعة عجلون
وأعمالها ، ودمشق والمملكة الدمشقية - حرمها الله تعالى - وما لها من القلاع والبلاد
والممالك والأعمال ، وقلعة بعلبك المحروسة وما معها وأعمالها ، ومملكة حمص وما لها
من الأعمال والحدود ، ومملكة حماة المحروسة ومدنتها وقلعتها وبلادها وحدودها ،
وبلاطنس وأعمالها ، وصهبون وأعمالها ، وبرزيه (١) وأعمالها ، وفتوحات حصن
الإكراد المحروس وأعماله ، وصافيتا وأعمالها ، و (٢) أعمالها ، والعريمة
وأعمالها ، وقدقيا وأعمالها ، وحلبا وأعمالها ، والقلعة وأعمالها ، وحصن عكار
وأعماله وبلاده ، وقلعة شيزر وأعمالها ، وأقامية وأعمالها ، وجبلة وأعمالها ،
وأبو قبيس وأعماله ، والمملكة الحليية وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد
والحصون ، وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتوح المبارك ، وبقراس وأعمالها ،
والدربسك وأعمالها ، والرأوندان وأعمالها ، وعينتاب وأعمالها ، وحارم وأعمالها ،
ويبرين وأعمالها ، وسح الحديد وأعماله ، وقلعة نجم وأعمالها ، وشقيف دركوش
وأعماله ، والشغر وأعماله ، وبكاس وأعماله ، والسويداء وأعمالها ، والباب وبراغا
وأعمالها ، وألبيرة وأعمالها ، والرحبة وأعمالها ، وسلمية وأعمالها ، وشميمس
وأعمالها ، وتدمر وأعمالها وما هو منسوب إليها ، وجميع ما هو منسوب لمولانا
السلطان ولولده من البلاد التي عُيِّنت في هذه الهدية المباركة ، والتي لم تُعين .

(١) أوردتها ياقوت في معجم البلدان هكذا : برزويه ، وذكر أن العامة تقول : برزیه كما هنا .

(٢) بياض بالأصل .

وعلى جميع العساكر ، وعلى جميع الرعايا من سائر الناس أجمعين : على اختلافهم ،
وتغير أنفارهم وأجناسهم وأديانهم ، للقاطنين فيها ، والمترددِينَ في البرِّ والبحرِ ،
والسهلِ والجبلِ ، في الليلِ والنهارِ ، يكونون آمنين مطمئنين في حالتى صدورهم
وورودهم - على أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، وحرَميهم ، وبضائعهم ، وغلمانهم ،
وأتباعهم ، ومواشيهم ، ودوابهم ؛ وعلى جميع ما يتعلق بهم ، وكلِّ ما تحوى أيديهم
من سائر الأشياءِ على اختلافها ، من الحُكَّامِ بمملكةِ عكا : وهم كَيفِئُ المملَكةِ بها ،
والمُقدِّمُ افريزِ كليامِ دسا حولِ (؟) مقدِّمُ بيتِ الديوية ؛ والمقدِّمُ افريزِ بيكوكِ
للورن (؟) ، وافريزِ اهدابِ نائبِ مُقدِّمِ بيتِ الاسبتارِ الآمين ، ومن جميعِ الفَرَجِ
والإخوة ، والفرسانِ الدَّاخلينِ في طاعتهم وتحويه مملكتهم السَّاحليَّةِ ، ومن جميعِ
الفَرَجِ على اختلافهم ، الذين يَسْتوطنون عكا والبلادَ السَّاحليَّةِ الداخلةَ في هذه الهدنةِ
من كلِّ واصلِ إليها في برِّ أو بحرٍ على اختلافِ أجناسهم وأنفارهم ، لا ينالُ بلادَ
السُّلطانِ وولده ، ولا حُصونَهما ، ولا قلاعَهما ، ولا بلادَهما ، ولا ضياعَهما ،
ولا عساكرَهما ، ولا جيوشَهما ، ولا عرَبَهما ، ولا تُركَهما ، ولا أكرادَهما ،
ولا رعاياهما ، على اختلافِ الأجناسِ والأنفارِ ؛ ولا ما تحويه أيديهم من الموائى
والأموالِ والغلالِ وسائرِ الأشياءِ منهم غدرٌ ولا سوءٌ ، ولا يخشونَ من جميعهم أمراً
مكروهاً ولا إغارةً ، ولا تعرُّضاً ولا أذيةً .

وكذلك ما يستفتحُه ويضيفُه السلطانُ وولده على يديهما ، وعلى يدِ توأبهما
وعساكرَهما : من بلادِ ، وحُصونِ ، وقلاعِ ، ومليكِ ، وأعمالِ ، وولاياتِ ، برِّاً
وبحرِّاً ، سهلاً ووعراً .

وكذلك جميعُ بلادِ الفَرَجِ التي استقرتِ الآنَ عليها هذه الهدنةُ : وهى مدينةُ
عكا وبساتينها ، وأراضيتها وطواحينها ؛ وما يختصُّ بها من كُروبها ، وما لها من

حُقُوقِ حَوَّلَهَا ، وما تَحْتَرُّ لَهَا من بلادٍ في هذه المَهْدَنَةِ وهي : البصَّةُ وَمَزْرَعَتُهَا ،
 مجدل ، حمصين ، رأس عبده ، المَنْوَاتُ وَمَزْرَعَتُهَا ، الكابرة ومزرعتها ، نصف ووه
 جبعون ، كَفْرُ بَرْدَى وَمَزْرَعَتُهَا ، كَوَكَبُ عَمَقَا وَمَزْرَعَتُهَا ، المونيه ، كفر ياسيف
 وَمَزْرَعَتُهَا ، تُوسيان ، مكر حرسين وَمَزْرَعَتُهَا ، الحديدية ، الغياضة ، العطوانية ، مرتوقا
 الحارثية ، ثمر الطره ، الرب ، اللابوحه وَمَزْرَعَتُهَا ، العرج وَمَزْرَعَتُهَا ، المزرعة
 السَّمِيرِيَّةُ البِيضَاءُ ، دعوق والطاحون ، كردانه والطاحون ، حدرول ، تل النحل ،
 الغار ، الرخ والمجدل ، تَلُّ كيسان ، البروه ، الرامون ، ساسا السياسية ، الشبيكة ،
 المشيرقه ، العطرائية ، المنير ، اكليل ، هربا سيف العربية ، هوشه ، الزراعة
 الجديدة الشمالية ، الرحاحيه ، قسطه ، كفر نبتل ، الدويرات ، ماصوب ، ممتاس
 العباسية ، سيعاه ، عين الملك ، المنصورة ، الرصيقة ، حاما ، سرطا ، كفرنبا ،
 أرض الزراعة ، رولس ، صغد عدى ، سفر عم . هذه البلادُ المذكورةُ [تكون]
 خاصا للفرنج . حيفا والكروم والبساتين التي لها جميعها ، والقصر وهو الحوش
 وكَفْرُ تُونَا ، وهي : الكنيسة ، والطيرة ، والسعبة ، والسعادة ، والمعرة ، واللاجور ،
 وسومرا . تكون حيفا وهذه البلادُ المذكورةُ بمحدودها وأراضيها خاصة للفرنج .
 وكذلك قرية مارسا ناره بها ، المعروفة بها وكرومها وغروبها يكون خاصا للفرنج .
 وديرُ السِيَّاحِ ، وديرُ مارلباس بأراضيها المعروفة بهما وكرومهما وبساتينهما يكون
 خاصا للفرنج .

وعلى أن يكونَ لِلسُّلْطَانِ المَلِكِ المَنْصُورِ وَلوَلَدِهِ الصَّالِحِ : من بلاد الكِرْمَلِ ، وهي :
 الدالية ، ودونه ، وضريبة الريح ، والكرك ، ومعلبا ، والرامون ، ولوسه ، وسور ،

(١) لم تقف على أكثر هذه البلاد بعد البحث عنها في معجم ياقوت وتفقيم البلدان . لذلك تبعنا الأصول
 في الإهمال والخط .

ونخربة يونس ، ونخربة نحميس ، ورشميا ، ودوايه ، يكون خاصا للفرنج في بلاد أنخري
ذكرها . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها للسلطان ولولده بكالها .

وتكون جميع هذه البلاد العكاوية وما عين في هذه الهدنة المباركة من البلاد
الساحلية آمنة من السلطان الملك المنصور وولده الملك الصالح ، وآمنة من
عساكرهما وجنودهما ومن خدماهما ، وتكون هذه البلاد المشروحة أعلاه ، الداخلة
في هذه الهدنة المباركة : الخاص بها ، وما هو مناصفة - مطمئنة هي ورعاياها ،
وسائر أجناس الناس فيها ، والقاطنين بها ، والمترددين إليها على اختلاف أجناسهم
وأديانهم ، والمترددين إليها من جميع بلاد الفرنجة والسفار ، والمترددين منها وإليها
في بر وبحر ، في ليل أو نهار ، سهل وجبل ، آمنين على النفوس والأموال والأولاد ،
والمراكب والدواب ، وجميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تخويه أيديهم من الأشياء على
اختلافها ، من السلطان ولده ، وجميع من هو تحت طاعتها : لا ينالهم ولا ينال
هذه البلاد المذكورة التي انعقدت عليها الهدنة سوء ولا ضرر ولا إغارة ، ولا ينال
إحدى الجهتين المذكورتين : الإسلامية والفرنجية من الأخرى ضرر ولا أذية ،
ويكون ما تقرّر أنه يكون خاصا للفرنج حسب ما عين أعلاه لهم ، وما تقرّر أن يكون
للسلطان ولولده خاصا لها ، والمناصفات تكون كما شرح . ولا يكون للفرنج من
البلاد والمناصفات إلا ما شرح في هذه الهدنة وعين فيها من البلاد .

وعلى أن الفرنج لا يحدّون في غير عكا وعثليت وصيدا : مما هو خارج عن أسوار
هذه الجهات الثلاث المذكورات ، لاقامة ، ولا برجا ، ولا حصنا ، ولا مستجدا .

وعلى أنه متى هرب أحد - كائنا من كان - من بلاد السلطان ولده إلى عكا
والبلاد الساحلية المعينة في هذه الهدنة ، وقصد الدخول في دين النصرانية وتنصر

بإرادته، يُردُّ جميع ما يروحُ معه ويبقى عُرباناً . وإن كان ما يقصدُ الدُخولَ في دين النصرانية ولا يتنصَّر، رُدَّ إلى أبايهما العالِيَةِ بجمع ما يروحُ معه، بشفاعةِ ثِقَةٍ بعد أن يُعطى الأمانَ . وكذلك إذا حضرَ أحدٌ من عكَّا والبلادِ السَّاحِلِيَةِ الداخِلَةِ في هذه الهُدنةِ، وقصدَ الدُخولَ في دينِ الإسلامِ وأسلمَ بإرادته، يُردُّ جميع ما معه ويبقى عُرباناً . وإن كان ما يقصدُ الدُخولَ في دينِ الإسلامِ ولا يُسلمُ، يُردُّ إلى الحُكَّامِ بعكَّا، والمقدِّمِينَ بجمع ما يروحُ معه بشفاعةِ بعد أن يُعطى له الأمانُ .

وعلى أن المنوعاتِ المعروفِ منَعُها قَدِيمًا تَسْتَقَرُّ على قَاعِدَةِ المَنعِ من الجهتين . ومتى وُجِدَ مع أحدٍ من تُجَّارِ بلادِ السُّلطانِ وولَدِه من المسامِينِ وغيرهم على اختلافِ أديانِهِم وأجناسِهِم شَيْءٌ من المنوعاتِ بعكَّا والبلادِ السَّاحِلِيَةِ الداخِلَةِ في هذه الهُدنةِ، مثلُ عَدَّةِ السُّلَّاحِ وغيره، يُعادُ على صَاحِبِهِ الذي اشْتَرَاهُ منه، ويعادُ إليه ثَمَنُهُ، ويردُّ ولا يُؤخَذُ ماله استهلاكًا، ولا يُؤذَى . وللسُّلطانِ ولولَدِه أن يفتصلا في من يخرجُ من بلادِهِما من رَعِيَّتِهِما، على اختلافِ أديانِهِم وأجناسِهِم، بَشْيءٍ من المنوعاتِ . وكذلك كَفِيلُ المَلِكَةِ بعكَّا والمقدِّمُونَ لهم أن يفتصلُوا في رَعِيَّتِهِم الذين يخرجُونَ بالمنوعاتِ من بلادِهِم الداخِلَةِ في هذه الهُدنةِ .

ومتى أخذتُ أخِيذَةً من الجانيِنِ، أو قُتِلَ قَتِيلٌ من الجانيِنِ، على أَى وَجِهٍ كانَ - والعِيادُ باللَّهِ - رُدَّتِ الأَخِيذَةُ بَعِيْنِها إن كانت مَوْجودَةً، أو قِيمَتُها إن كانت مَفقُودَةً . والقَتِيلُ يكونُ العِوضُ عنه بِنَظِيرِهِ من جَنسِهِ : فارسُ بفاريس، وبريكلُ ببريكل، وتاجرُ بتاجر، وراجلُ براجيل، وفلاحُ بفلاج . فإن خَفِيَ أمرُ القَتِيلِ والأَخِيذَةِ، كانت المَهْلَةُ في الكَشْفِ أربعين يومًا، فإن ظهرتُ الأَخِيذَةُ أو تَعَيَّنَ أمرُ المقتولِ، رُدَّتِ الأَخِيذَةُ بَعِيْنِها ويكونُ العِوضُ عن القَتِيلِ بِنَظِيرِهِ، وإن لم تَظْهَرِ

كانت اليمينُ على وَاِلى المَكَانِ المدَّعى عليه ، وثلاثةُ نَفَرٍ يَقَعُ آخْتِيَارِ المدَّعى عليهم ، من تلكِ الْوِلَايَةِ . وإنْ أَمْتَنَعَ الْوَالِي عن اليمينِ حُلْفَ من الْجِهَةِ المدَّعيةِ ثلاثةُ نَفَرٍ تختارهم الْجِهَةُ الأخرى وأخذ قيمتها . وإنْ لم يُنْصَفِ الْوَالِي ولا رَدَّ الْمَالِ ، أنهى المدَّعى أمره إلى الْحُكَّامِ من الْجِهَتَيْنِ ، وتكونُ المهلةُ بعدَ الإنهاءِ أربعينَ يوماً ، ويلزمُ الْوَلَاةُ من الْجِهَتَيْنِ بالوفاءِ بهذا الشَّرْطِ .

ومعنى أخفوا قتيلاً أو أخيدته ، أو قدروا على أخذِ حقِّ ولم يأخذه كلُّ واحدٍ في ولايته ، يتعيَّن على الذى يوليه من مُلُوكِ الْجِهَتَيْنِ إقامةُ السِّيَاسَةِ فيه : من أخذ الروحَ والمالَ والشُّقْ ، والإنكارَ التَّامَ على من يتعيَّنُ عليه الإنكارُ إذا فعل ذلك في ولايته وأرضه .

وإنْ هَرَبَ أَحَدٌ بِمَالٍ وَأَعْتَرَفَ بْبَعْضِهِ وَأَنْكَرَ بْبَعْضٍ مَا يَدَّعى به عليه ، لزمه أنْ يَحْتَلِفَ أنه لم يأخذِ سِوَى مَارَدِهِ . فإنْ لم يَقْتَعِ المدَّعى بيمينِ الْهَارِبِ ، حَلَفَ وَآلى تلكِ الْوِلَايَةِ أنه لم يَطَّلِعْ على أنه وَصَلَ معه غيرُ مَارَدِهِ . وإنْ أَنْكَرَ أنه لم يَصِلْ معه شَيْءٌ أصلاً ، استحلَفَ الْهَارِبُ أنه لم يَصِلْ معه للمدَّعى شَيْءٌ .

وعلى أنه إذا أَنْكَسَرَ مَرَكَبٌ من مَرَآكِبِ بُحَارِ السُّلْطَانِ وولَّده التى أتعقدت عليها الهدنة ، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم : على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، فى مِينَا عَكَا وَسَوَاحِلِهَا ، وَالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ التى أتعقدت عليها الهدنة ، كان كلُّ من فيها آمناً على الأَنْفُسِ والأَمْوَالِ والأَتْبَاعِ والمَتَآجِرِ . فإنْ وُجِدَ أصحابُ هذه المَرَآكِبِ التى تَنْكَسِرُ تُسَلِّمُ مَرَآكِبَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ [اليهم] . وإنْ عُدِمُوا بموتٍ أو غرقٍ أو غيبةٍ ، فُحْتَفِظَ بموجودهم ويُسَلِّمُ لِنَوَابِ السُّلْطَانِ وولَّده . وكذلك المَرَآكِبُ المتوجهةُ من هذه البلادِ السَّاحِلِيَّةِ المنعقدِ عليها الهدنةُ للفرنج ، يجرى لها مثلُ ذلكِ فى بلاد

السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ، وَيَحْتَفِظُ بِمَوْجُودِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهَا حَاضِرًا إِلَى أَنْ يُسَلَّمَ لَكَفِيلِ الْمَمْلُوكَةِ بَعَاً أَوْ الْمَقْدَمِ .

وَمَتَى تُوفِّيَ أَحَدٌ مِنَ التُّجَّارِ الصَّادِرِينَ وَالْوَارِدِينَ: عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَابِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ، مِنْ بِلَادِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ، فِي عَكَا وَصَيْدَا وَعَنْثَيْثَ، وَالْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَابِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ [فِيحْتَفِظُ عَلَى مَالِهِ حَتَّى يَسَلَّمَ لِنَوَابِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ]، وَإِذَا تُوفِّيَ أَحَدٌ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ، يَحْتَفِظُ عَلَى مَالِهِ إِلَى حِينِ يَسَلَّمُ إِلَى كَفِيلِ الْمَمْلُوكَةِ بَعَاً وَالْمَقْدَمِينَ .

وَعَلَى أَنْ شَوَانِي السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ إِذَا عَمَرَتْ وَنَحَرَتْ لَا تُتَعَرَّضُ بِأَذِيَّةٍ إِلَى الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ . وَمَتَى قَصِدَتْ الشَّوَانِي الْمَذْكُورَةُ جِهَةً غَيْرَ هَذِهِ الْجِهَاتِ، وَكَانَ صَاحِبُ تِلْكَ الْجِهَةِ مُعَاهِدًا لِلْحُكَّامِ بِمَمْلُوكَةِ عَكَا، فَلَا تَدْخُلُ إِلَى الْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةُ وَلَا تَتَرَوَّدُ مِنْهَا . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ تِلْكَ الْجِهَةِ الَّتِي تَقْصِدُهَا الشَّوَانِي الْمَنْصُورَةُ مُعَاهِدًا لِلْحُكَّامِ بِمَمْلُوكَةِ عَكَا وَالْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا الْهُدْنَةُ، فَلَهَا أَنْ تَدْخُلَ إِلَى بِلَادِهَا وَتَتَرَوَّدَ مِنْهَا . وَإِنْ أَنْكَسَرَتْ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الشَّوَانِي - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - فِي مِينَا مِنْ مَوَانِي الْبِلَادِ الَّتِي أُنْعَقِدَتْ عَلَيْهَا الْهُدْنَةُ وَسَوَاحِلِهَا: فَإِنْ كَانَتْ قَاصِدَةً مِنْ لَهَا مَعِ مَمْلُوكَةِ عَكَا وَمُقَدَّمِي بَيْوتِهَا عَهْدًا، فَيَلْزَمُ كَفِيلُ الْمَمْلُوكَةِ بَعَاً وَمُقَدَّمِي الْبُيُوتِ بِحَفِظِهَا، وَتَمَكِينِ رِجَالِهَا مِنَ الزَّوَادَةِ وَإِصْلَاحِ مَا أَنْكَسَرَ مِنْهَا، وَالْعَوْدِ إِلَى الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَ[لَا] يَبْطُلُ حَرَكَةُ مَا تَسَكَّرَ مِنْهَا - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - أَوْ يَرْمِيهِ الْبَحْرُ . هَذَا إِذَا كَانَتْ قَاصِدَةً مِنْ لَهَا مَعِ مَمْلُوكَةِ عَكَا وَمُقَدَّمِيهَا عَهْدًا . فَإِنْ [قَصِدَتْ مِنْ] لَمْ يَكُنْ لَهَا مَعَهُمْ عَهْدٌ، فَلَهَا أَنْ تَتَرَوَّدَ وَتُعَمَّرَ رِجَالُهَا مِنَ الْبِلَادِ الْمُنْعَقِدِ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدْنَةَ، وَتَتَوَجَّهَ إِلَى الْبِلَادِ الْمَرْسُومِ لَهَا بِقَصْدِهَا، وَيَعْتَمِدُ هَذَا الْفَصْلُ مِنَ الْجِهَتَيْنِ .

وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجة وغيرهم من جوار البحر لقصد الحضور لمضرة السلطان وولده في بلادها المتنفقة عليها هذه الهدنة ، فليزِم نائب المملكة والمقدمين بعكا ، أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة بمدة شهرين . وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين ، فيكون كفيل المملكة بعكا ، والمقدمون بريئين من عهدة اليمين في هذا الفصل . ومتى تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم ، فأى من سبق الخبر إليه من الجهتين يعرف الجهة الأخرى بما سبق الخبر إليه من أمرهم .

وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية - والعباد بالله - عدو من التتار وغيرهم في البر ، وانحازت العساكر الإسلامية من قدام العدو ، ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بمضرة ، فيكتب إلى [كفيل] المملكة بعكا ، والمقدمين بها أن يدرءوا عن بيوتهم ورعيّتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه . وإن حصل - والعباد بالله - جفيل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، فليزِم كفيل المملكة بعكا ، والمقدمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ، ويكونون آمينين مطمئنين بما معهم .

وعلى أن النائب بمملكة عكا ، والمقدمين بها يوصون في سائر البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليها ، أنهم لا يمتكنون حرامية البحر من الزوادة من عندهم ولا من حمل ماء . وإن ظفروا بأحد منهم يمسكونه ، وإن كانوا يبيعون عندهم بضائع فيمسكها كفيل المملكة بعكا والمقدمون حتى يظهر صاحبها وتسلم إليه . وكذلك يعتمد السلطان وولده .

وعلى أن الرهائن بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، كل من عليه منهم مبلغ أو غلة ، فيحلف وإلى ذلك المكان الذي منه الرهينة ، ويحلف المباشر والكتائب

في وقت أخذ هذا الشخص رهينة أنه عليه كذا وكذا : من دراهم أو غلة أو بقر أو غيره . فاذا حلف الوالي والمباشر والكاتب قدام نائب السلطان وولده على ذلك يقوم أهل الرهينة عنه بما للفرج عليه ويطلقونه . وأما الرهائن الذين أخذوا منسويين إلى الحفل والأختشاء أنهم لا يهربون إلى بلاد الإسلام ويمتنع الولاة والمباشر من ائمين عليهم ، فأولئك يطلقون .

وعلى أن لا يجتد على التجار المسافرين : الصادرين والواردين من الجهتين حق لم تجر به عادة ، ويحروا على عوائدهم المستمرة إلى آخر وقت ، وتؤخذ منهم الحقوق على العادة المستمرة ، ولا يجتد عليهم رسم ولا حق لم تجر به عادة . وكل مكان عُرف باستخراج الحق فيه يستخرج بذلك المكان من غير زيادة من الجهتين ، في حالتى سفرهم وإقامتهم ؛ ويكون التجار والسفار والمترددون آمنين مطمئنين مخففين من الجهتين في حالتى سفرهم وإقامتهم ، وصُدورهم وورودهم بما صُحبتهم من الأصناف والبضائع التي هي غير ممنوعة .

وعلى أنه ينادى في البلاد الإسلامية والبلاد الفرنجية الداخلة في هذه الهدنة : أنه من كان من فلاحي بلاد المسلمين يعود إلى بلاد المسلمين مسلماً كان أو نصرانياً . وكذلك من كان من فلاحي بلاد الفرنج مسلماً كان أو نصرانياً ، معروفاً قرارياً من الجهتين ، ومن لم يعد بعد المناداة يطرد من الجهتين . ولا يمكن فلاحو بلاد المسلمين من المقام في بلاد الفرنج المنعقد عليها هذه الهدنة ، ولا فلاحو بلاد الفرنج من المقام في بلاد المسلمين التي انعقدت عليها هذه الهدنة ؛ ويكون عود الفلاح من الجهة إلى الجهة الأخرى بأمان .

وعلى أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت إليها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب : كبيرهم وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأقاربهم :

من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، ويصلى بالكنيسة الاقسائية^(١) والرهبان ، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة ، ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم الى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة . وإذا نقيت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى برا ، ولا يحط حجر منها على حجر لأجل بنايته ، ولا يتعرض إلى الاقساء والرهبان ، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصليب بغير حق .

ويلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة من نفسيهما وعساكرهما وجنودهما ، ومن جميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهما وطاعتها . ويلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين بها حفظ هذه البلاد الإسلامية المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة ، من نفسيهم وعساكرهم وجنودهم ، وجميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم بالمملكة الساحلية الداخلة في هذه الهدنة . ويلزم كفيل المملكة بعكا ، ومقدمي البيوت بها الحكام بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة - القيام بما تضمنته هذه الهدنة من الشروط جميعها ، شرطا شرطا ، وقصلا فصلا ، والعمل بأحكامها ، والوقوف مع شروطها إلى انقضاء مدتها . وينبغي كل منهم بما حلف به من الأيمان المؤكدة : من أنه ينبغي بجميع ما في هذه الهدنة على ما حلفوا به . تستمر هذه الهدنة المباركة بين السلطان وولده وأولادها وأولاد أولادهم ، وبين الحكام بمملكة عكا ، وصيدا ، وعثايت ، وهم الشيخان أودرا (؟) المقدمون المذكورون فلان وفلان إلى آخرها . لا تتغير بموت ملك أحد الجهتين ، ولا بتغير مقدم وتولية غيره ، بل تستمر على حالها إلى آخرها وانقضائها ، بشرطها المحدودة ،

(١) لعل الصواب القسوس ، أو القسيون .

وقواعدها المقررة ، كاملة تامة . ومتى انقضت هذه الهدنة المباركة ، أو وقع
 - والعياد بالله - فسُخِّ ، كانت المهلة في ذلك أربعين يوماً من الجهتين . ويُنادى
 برجوع كلِّ أحدٍ إلى وطنه بعد الإسهاد ، ليعود الناس إلى مواطنهم آمينين مطمئنين ،
 ولا يمتعون من السفير من الجهتين ، ولا تبطل بعزل أحدٍ من الجهتين ، وتُسَيِّدُ
 أحكامها متتابعة متوالية ، بالسنين والشهور والأيام إلى انقضائها ؛ ويلزم المتولى
 حفظها والعمل بشروطها وفصولها ، وفروعها وأصولها ؛ ويجرى الحال فيها على
 أجمل الحالات إلى آخرها . وعلى جميع ذلك وقع الرضا والصفح والاتفاق ، وحلف
 عليها من الجهتين ، والله الموفق .



وهذه نسخة هدنة ، عُقدت بين الملك الأشرف ، صلاح الدين « خليل » ابن
 الملك المنصور سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية ؛
 وبين دون حاكم الريد أرغون ، صاحب برشلونة من بلاد الأندلس ؛ على يد رُسُلِهِ :
 أخويه وصهره الآتي ذكرهم ، في صفر سنة اثنين وتسعين وستمائة ، وهي :

استقرت المودة والمصادقة بين الملك الأشرف ، وبين حضرة الملك الحليل ،
 المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ، الضرغام ، المفخم ، المبعجل « دون » حاكم
 الريد أرغون ، وأخويه دون ولديك ، ودون بيدرو ؛ وبين صهره اللذين طلب
 الرسولان الواصلان إلى الأبواب الشريفة عن مرسلهما الملك دون حاكم أن يكونا
 داخلين في الهدنة والمصادقة ، وأن يلتزم الملك دون حاكم عنهما بكل ما ألتزم به عن
 نفسه ، ويتدرك أمرهما . وهما الملك الحليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ،
 الضرغام ، دون شانجه ، ملك قشتالة ، وطليطلة ، وليون ، وبلنسية ، وأشبيلية ،
 وقرطبة ، ومرسية ، وجيان ، والغرب ، الكفيل بمملكة أرغون وبرتغال - والملك

الجليل دون أنفونش ملك برتقال، من تاريخ يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة
 اثنتين وتسعين وثمانمائة، الموافق لثلاث بقين من جنير سنة ألف ومائتين وأثنتين
 وتسعين لمولانا السيد المسيح عليه السلام. وذلك بحضور رسول الملك دون حاكم،
 وهما: المحتشم الكبير روصوديمار موند الحاكم، عن الملك دون حاكم في بالنسية،
 ورفيقه المحتشم العمدة ديمون المان قراري برجلونه، الواصلين بكتاب الملك دون
 حاكم، المحتوم بخط الملك المذكور، المقتضى معناه أنه حملهما جميعاً أحوالهم
 ومطلوبهم، وسأل أن يقوموا فيما يقولانه عنه، فكان مضمون مشافهتهما وسؤالها تقرير
 قواعد الصلح والمودة والصداقة. والشروط التي يشترطها الملك الأشرف على الملك
 دون حاكم، وأنه يلتزم بجميع هذه الشروط الآتي ذكرها، ويخاف الملك المذكور
 عليها هو وأخواته وصهره المذكورون. ووضع الرسولان المذكوران خطوطهما بجميع
 الفصول الآتي ذكرها، بأمره ومرسومه. وأن الملك دون حاكم وأخويه وصهره
 يلتزمون بها، وهي: استقرار المودة والمصادقة من التاريخ المقدم ذكره، على ممر
 السنين والأعوام، وتعاقب الأيام والآبالي وبحراً، سهلاً ووعراً، قريباً وبعداً.
 وعلى أن تكون بلاد السلطان الملك الأشرف، وقلاعه، وحصونه، ونغوره،
 وممالكه، ومواني بلاده وسواحلها، وبرورها، وجميع أقاليمها ومدنها، وكل ما هو
 داخل في مملكته، ومحسوب منها، ومنسوب إليها: من سائر الأقاليم الرومية،
 والعراقية، والمشرقية، والشامية، والحلابة، والفرازية، واليمينية، والحجازية، والديار
 المصرية، والغرب.

وحد هذه البلاد والأقاليم وموانئها وسواحلها من البر الشامي من القسطنطينية
 والبلاد الرومية الساحلية، وهي: من طرابلس الغرب، وسواحل برقة،
 والإسكندرية، ودمياط، والطينة، وقطيا، وغزة، وعسقلان، وباقا،

وَأَرْسُوفَ ، وَقَيْسَارِيَّةَ ، وَعَنْثَلِيثَ ، وَحَيْفَا ، وَعَكَّا ، وَصُورَ ، وَصَيْدَا ، وَيَبْرُوتَ ،
وَجُبَيْلَ ، وَالْبَيْرُونَ ، وَأَنْفَسَةَ طَرَابُوسَ الشَّامِ ، وَأَنْطَرُسُوسَ ، وَمَرْقِيَةَ ، وَالْمَرْقَبَ ،
وَسَاحِلَ الْمَرْقَبِ : بَأْنِيَّاسَ وَغَيْرَهَا ، وَجَبَلَةَ ، وَاللَّاذِقِيَّةَ ، وَالسُّوَيْدِيَّةَ وَجَمِيعَ الْمَوَانِي
وَالْبُرُورِ إِلَى تَغْرِ دِمْيَاطَ وَبُحَيْرَةَ تَيْسَ .

وَحَدَّثَنَا مِنَ الْبَرِّ الْغُرَبِيِّ : مِنْ تُوَيْسَ وَإِقْلِيمَ إِفْرِيْقِيَّةَ وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَطَرَابُوسَ
الْفَرْبِ وَتُغُورَهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَبَرْقَةَ وَتُغُورَهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، إِلَى تَغْرِ
الإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَرَشِيدَ وَبُحَيْرَةَ تَيْسَ وَسَوَاحِلِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا .

وَمَا تَحْوِيهِ هَذِهِ الْبِلَادُ وَالْمَمَالِكُ الْمَذْكُورَةُ وَالَّتِي لَمْ تُذَكَّرْ ، وَالْمَدَائِنُ وَالتُّغُورُ
وَالسُّوَاحِلُ وَالْمَوَانِي وَالتُّرُقَاتُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَالصُّدُورُ وَالْوُرُودُ ، وَالْمَقَامُ وَالسَّفَرُ ،
مِنْ عَسَاكِرَ وَجُنُودَ ، وَتُرُكْمَانَ ، وَأَكْرَادَ ، وَعُرَبِيَّانَ ، وَرَعَايَا ، وَتُجَّارَ ، وَشَوَانِيَّ ،
وَمَرَاكِبَ ، وَسُفُنَ ، وَأَمْوَالَ ، وَمَوَاشِيَ ، عَلَى اخْتِلَافِ الْأَذْيَانِ وَالْأَنْفَارِ وَالْأَجْناسِ ،
وَمَا تَحْوِيهِ الْأَيْدِي مِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ الْأَمْوَالِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالْأَمْتِعَةِ وَالْبَضَائِعِ وَالْمَتَاجِرِ ،
قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا ، قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا ، بَرًّا كَانَ أَوْ بَحْرًا - آمِنَةً عَلَى الْأَنْفُسِ ،
وَالْأَرْوَاحِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالْحَرِيمِ ، وَالْأَوْلَادِ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمٍ وَمِنْ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ
الْمَذْكُورِينَ ، وَمِنْ أَوْلَادِهِمْ ، وَفُرْسَانِهِمْ ، وَخِيَالَتِهِمْ ، وَمُعَاهِدِيهِمْ ، وَعَمَّالِهِمْ ،
وَرِجَالِهِمْ ، وَكُلِّ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ الْمَلِكِ
الْأَشْرَفِ ، وَعَلَى يَدِ أَوْلَادِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ ، مِنَ الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ ، وَالْبِلَادِ
وَالْأَقَالِمِ ، فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ هَذَا الْحُكْمُ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ بِلَادُ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَبِلَادُ أَخَوَيْهِ وَصِهْرِيهِ وَمَمَالِكُهُ الْمَذْكُورَةُ
فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ ، وَهِيَ : أَرْغُونُ وَأَعْمَالُهَا وَبِلَادُهَا : صَقْلِيَّةٌ وَجَزِيرَتُهَا وَبِلَادُهَا

(١) خبر قوله : أن تكون بلاد السلطان الواردة في الصفحة قبل .

وأعمالها، برُبُولِيَّةَ وأعمالها وبلادها، جَزِيرَةُ مَالِقَةَ، وَقَوْصَرَ وبلادها وأعمالها،
مِيُورَقَةَ وَيَابَسَةَ وبلادها، وأرسويار (?) وأعمالها، وما سَيَفْتَحُهُ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمِ
مِن بِلَادِ أَعْدَائِهِ الْفَرَنْجِ الْمَجَاوِرِينَ لَهُ بِتِلْكَ الْأَقَالِمِ - آمِنِينَ مِنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ
وَأَوْلَادِهِ، وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ، وَشَوَانِيهِ وَعَمَائِرِهِ، هِيَ وَمَنْ فِيهَا مِنْ فُرْسَانٍ وَخِيَالَةٍ
وَرَطَايَا . وَأَهْلُ بِلَادِهِ آمِنِينَ مَطْمَئِنِينَ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ، وَالْحَرِيمِ وَالْأَوْلَادِ،
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالصُّدُورِ وَالْوُرُودِ .

وعلى أَنَّ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمِ هُوَ وَأَخَوَاهُ وَصِهْرَاهُ أَصْدِقَاءُ مِنْ يُصَادِقُ الْمَلِكَ الْأَشْرَفَ
وَأَوْلَادَهُ، وَأَعْدَاءُ مِنْ يُعَادِيهِمْ مِنْ سَائِرِ الْمُلُوكِ الْفَرَنْجِيَّةِ وَغَيْرِ الْمُلُوكِ الْفَرَنْجِيَّةِ . وَإِنْ
قَصَدَ الْبَابُ بَرُومِيَّةً، أَوْ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْفَرَنْجِ : مُتَوَجًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ مُتَوَجِّحًا، كَبِيرًا كَانَ
أَوْ صَغِيرًا، أَوْ مِنَ الْجَنُوبِيَّةِ، أَوْ مِنَ الْبَنَادِقَةِ، أَوْ مِنْ سَائِرِ الْأَجْناسِ عَلَى اخْتِلَافِ
الْفَرَنْجِ وَالرُّومِ، وَالْيُيُوتِ : بَيْتِ الْإِخْوَةِ الدِّيُوبِيَّةِ، وَالْإِسْبَتَارِيَّةِ، وَالرُّومِ، وَسَائِرِ
أَجْناسِ النَّصَارَى - مَضْرَبَةَ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ، بِمُحَارَبَةٍ أَوْ أَدِيَّةٍ، يَمْنَعُهُمُ الْمَلِكُ دُونَ
حَاكِمِ هُوَ وَأَخَوَاهُ وَصِهْرَاهُ وَيَرْتُدُّونَهُمْ، وَيَعْمُرُونَ شَوَانِيَهُمْ وَمَرَاكِبَهُمْ، وَيَقْصِدُونَ
بِلَادَهُمْ، وَيَسْغُلُونَهُمْ بِنُفُوسِهِمْ عَنْ قَصْدِ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَمَوَانِيهِ وَسَوَاحِلِهِ
وَنُغُورِهِ الْمَذْكُورَةِ، وَغَيْرِ الْمَذْكُورَةِ؛ وَيَقَاتِلُونَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِشَوَانِيَهُمْ وَعَمَائِرِهِمْ،
وَفُرْسَانِهِمْ وَخِيَالَتِهِمْ وَرَجَالَتِهِمْ .

وعلى أَنَّهُ مَتَى نَخْرَجُ أَحَدًا مِنْ مُعَاهِدِي الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ مِنَ الْفَرَنْجِ عَنْ شُرُوطِ
الْمُحْدَنَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَوَقَعَ مَا يُوجِبُ فسخَ الْمُحْدَنَةِ، لَا يُعِينُهُمُ الْمَلِكُ دُونَ
حَاكِمِ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَخَوِيهِ وَلَا صِهْرِيهِ، وَلَا خِيَالَتِهِمْ، وَلَا فُرْسَانِهِمْ، وَلَا أَهْلِي
بِلَادِهِمْ، بِجَيْلٍ وَلَا خِيَالَةٍ، وَلَا سِلَاحٍ وَلَا رَجَالَةٍ، وَلَا مَالٍ وَلَا تَجْدِيَّةٍ، وَلَا مِيرَةٍ،
وَلَا مَرَاكِبٍ وَلَا شَوَانٍ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ .

وعلى أنه متى طلب الباب برومية، وملوك الفرنج، والروم، والتتار، وغيرهم من الملك دون حاكم أو من أخويه أو من صهره أو من بلادهم، إنجاداً، أو معاونته : بخيالة ، أو رجالة ، أو مال ، أو مراكب ، أو شوان ، أو سلاح - لا يوافقهم على شيء من ذلك ، لا في سر ولا جهراً ؛ ولا يعين أحداً منهم ولا يوافقه على ذلك . ومتى أطلعوا على أن أحداً منهم يقصد بلاد الملك الأشرف لخارته أو لمضرته بشيء ، يعرف الملك الأشرف بخبرهم ، وبالجهة التي اتفقوا على قصيدها في أقرب وقت ، قبل حوطينهم من بلادهم ، ولا يخفيه شيئاً من ذلك .

وعلى أنه متى أنكسر مركب من المراكب الإسلامية في بلاد الملك دون حاكم ، أو بلاد أخويه أو بلاد صهره ، [فعلهم] أن يخفروهم ، ويحفظوا مراكبهم وأموالهم ، ويساعدوهم على عمارة مراكبهم ، ويجهزوهم وأموالهم وبضائعهم إلى بلاد الملك الأشرف . وكذلك إذا انكسرت مركب من بلاد دون حاكم ، وبلاد أخويه وصهره ، ومعاهديه في بلاد الملك الأشرف ، يكون لهم هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه متى مات أحد من تجار المسلمين ومن نصارى بلاد الملك الأشرف ، أو ذمة أهل بلاده ، في بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره وأولاده ومعاهديه ، لا يعارضوهم في أموالهم ولا في بضائعهم ، ويحمل ما لهم وموجودهم إلى بلاد الملك الأشرف : ليفعل فيه ما يختار . وكذلك من يموت في بلاد الملك الأشرف من أهل مملكة الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره ومعاهديهم ، فلهم هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه متى عبر على بلاد الملك دون حاكم أو بلاد أخويه أو صهره أو معاهديه رسل من بلاد الملك الأشرف قاصدين جهة من الجهات القريبة أو البعيدة ،

صَادِرِينَ أَوْ وَارِدِينَ ، أَوْ رَمَاهُمْ الرِّيحُ فِي بِلَادِهِمْ ، تَكُونُ الرُّسُلُ وَغِلْمَانُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ ،
وَمَنْ يَصِلُ مَعَهُمْ مِنْ رُسُلِ الْمُلُوكِ أَوْ غَيْرِهِمْ - آمِنِينَ مَحْفُوظِينَ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ،
وَيُجَهِّزُهُمْ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنْ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ مَتَى جَرَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِهِمْ قَضِيَّةٌ
تُوجِبُ فَسْخَ الْمُهَادَنَةِ ، كَانَ عَلَى كُلِّ مَنْ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ طَلَبُ
مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَفِعْلُ الْوَاجِبِ فِيهِ .

وَعَلَى أَنْ الْمَلِكَ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ يَفْسَحُ كُلَّ مَنْهُمْ لِأَهْلِ بِلَادِهِ وَغَيْرِهِمْ
مِنَ الْفَرِيخِ ، أَنَّهُمْ يَجْلِبُونَ إِلَى الثُّغُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ : الْحَدِيدِ وَالْبِيَاضِ وَالْحَشَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أُسِرَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ ، مِنْ مَبْدِئِ تَارِيخِ هَذِهِ الْمُهَادَنَةِ
مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ : شَرْقِيَّهَا وَغَرْبِيَّهَا ، أَقْصَاهَا وَأَدْنَاهَا ، وَوَصَلُوا بِهِ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ
حَاكِمِ وَبِلَادِ أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ لِيَبْعُوهُ بِهَا ، فَيَلْزِمُ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ
فَكَ أَسْرِهِ وَحَمْلَهُ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى كَانَ بَيْنَ تِجَّارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَيْنَ تِجَّارِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ
وَصِهْرِيهِ مُعَامَلَةٌ فِي بَضَائِعِهِمْ ، وَهُمْ فِي بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، كَانَ أَمْرُهُمْ بِمَحْوَلِ عَلَى
مُوجِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى رَكِبَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَرَآكِبِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ
وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ ، وَحَمَلَ بَضَاعَتَهُ مَعَهُمْ وَعُدِمَتِ الْبِضَاعَةُ ، كَانَ عَلَى الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ
وَعَلَى أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ رُدُّهَا إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً ، أَوْ قِيَمَتَهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى هَرَبَ أَحَدٌ مِنْ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمُهَادَنَةِ إِلَى
بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ ، أَوْ تَوَجَّهَ بِبِضَاعَةٍ لغيره وَأَقَامَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ ،

كان على الملك دون حاكم وعلى أخويه وصهره ردُّ الطارب أو المقيم ببضاعة غيره، والمال معه إلى بلاد الملك الأشرف مادام مسلماً . وإن تنصّر، ردُّ المال الذي معه خاصة . ولملكة الملك دون حاكم وأخويه وصهره فيمن يهرب من بلادهم إلى بلاد الملك الأشرف هذا الحكم المذكور أعلاه .

وعلى أنه إذا وصل من بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره ومعهديه من الفرج من يقصد زيارة القدس الشريف، وعلى يده يكتب الملك دون حاكم وختمه إلى نائب الملك الأشرف بالقدس الشريف، يُسحَّ له في الزيارة مسموحاً بالحق ليقضى زيارته ويعود إلى بلاده آمناً مطمئناً في نفسه وماله، رجلاً كان أو امرأة، بحيث إن الملك دون حاكم لا يكتب لأحد من أعدائه ولا من أعداء الملك الأشرف في أمر الزيارة بشيء .

وعلى أن الملك دون حاكم يحرم جميع بلاد الملك الأشرف هو وأخواه وصهره من كل مضرة، ويجهد كل منهم في أن أحداً من أعداء الملك الأشرف لا يصل إلى بلاد الملك الأشرف، ولا يُجسِّد عليهم على مضرة بلاد الملك الأشرف ولا رعاياه، وأنه يساعد الملك الأشرف في البر والبحر بكل ما يشتهي ويختاره .

وعلى أن الحقوق الواجبة على من يصدر ويرد ويتردد من بلاد الملك دون حاكم وأخويه وصهره، إلى تغري الإسكندرية ودمياط، والتغور الإسلامية، والمالك السلطانية، بسائر أصناف البضائع والمتاجر على اختلافها، تستمر على حكم الضرائب المستقرّة في الدوان المعمور إلى آخر وقت، ولا يُحدث عليهم فيها حادث . وكذلك يجري الحكم على من يتردد من البلاد السلطانية إلى بلاد الملك دون حاكم وأخويه وصهره .

تَسْتَمِرُّ هَذِهِ الْمَوْدَّةُ وَالْمُصَادَقَةُ عَلَى حُكْمِ هَذِهِ الشَّرْطِ الْمَشْرُوحَةِ أَعْلَاهُ مِنْ
الْجِهَاتِ عَلَى الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ، وَتَجْرِي أَحْكَامُهَا وَقَوَاعِدُهَا عَلَى أَجْمَلِ الْإِسْتِقْرَارِ،
فَإِنَّ الْمَالِكَ بِهَا قَدْ صَارَتْ مَمْلُوكَةً وَاحِدَةً وَشَيْئًا وَاحِدًا ؛ لِأَنَّ تَنْقِضَ بَمَوْتِ أَحَدٍ مِنْ
الْجَانِبَيْنِ ، وَلَا بَعْزِلِ وَآلٍ وَتَوَلِيَّةٍ غَيْرِهِ ، بَلْ تُؤَيَّدُ أَحْكَامُهَا ، وَتُدَوِّمُ أَيَّامُهَا ، وَشُهُورُهَا
وَأَعْوَامُهَا . وَعَلَى ذَلِكَ أَنْتَضَمَتْ وَأَسْتَقَرَّتْ فِي التَّارِيخِ الْمَذْكُورِ أَعْلَاهُ ، وَهُوَ كَذَا
وَكَذَا ، وَإِنَّهُ الْمَوْفِقُ بِكَرَمِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قُلْتُ : وَهَذِهِ النُّسخُ الْخَمْسُ الْمُتَقَدِّمَةُ الذِّكْرُ تَقْلُبُهَا مِنْ تَذِكْرَةِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُكْرَمِ ،
أَحَدِ كُتَّابِ الْإِنشَاءِ بِالْدَوْلَةِ الْمَنْصُورِيَّةِ «قَلَاوُونَ» الْمُسَمَّاةِ : «تَذِكْرَةُ اللَّيْبِ» ، وَزُهْرَةَ
الْأَدِيبِ « مِنْ نُسخَةٍ بَحْطَهُ ، ذَكَرَ فِيهَا أَنَّ النُّسخَةَ الْأُولَى مِنْهَا كَتَبَهَا بِحِطَّةٍ عَلَى مَدِينَةِ
صَفَدٍ . وَليْسَ مِنْهَا مَا هُوَ حَسَنُ التَّرْتِيبِ ، رَائِقُ الْأَلْفَاظِ ، بَهِجُ الْمَعَانِي ، بَلِغُ الْمَقَاصِدِ ،
غَيْرِ النُّسخَةِ الْآخِرَةِ الْمَعْقُودَةِ بَيْنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ . أَمَا سَائِرُ
النُّسخِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَإِنَّهَا مُبْتَدَلَةٌ الْأَلْفَاظِ ، غَيْرُ رَائِقَةِ التَّرْتِيبِ ، لَا يَصْدُرُ مِثْلُهَا مِنْ كَاتِبٍ
عِنْدَهُ أُذُنٌ مُمَارَسَةٌ لِصِنَاعَةِ الْكَلَامِ . وَالْعَجَبُ مِنْ صُدُورِ ذَلِكَ فِي زَمَنِ «الظَّاهِرِ
بِئْسَ» وَ«الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ» وَهُمَا مِنْهُمَا مِنْ عُظَمَاءِ الْمُلُوكِ !! وَكِتَابَةُ الْإِنشَاءِ يَوْمَئِذٍ
بِإِسْدِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ الَّذِينَ هُمْ بَيَّتُ الْفَصَاحَةَ وَرُءُوسُ أَرْبَابِ الْبَلَاغَةِ !! وَلَعَلَّ
ذَلِكَ إِنَّمَا وَقَعَ ، لِأَنَّ الْفَرَنْجِ كَانُوا مُجَاوِرِينَ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ بِلَادِ الشَّامِ ، فَيَقَعُ الْإِتِّفَاقُ
وَالْتِرَاضَى بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ عَلَى فَضْلِ فَضِيلٍ ، فَيَكْتُبُهُ كَاتِبٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنْ جِهَتِي
الْمُسْلِمِينَ وَالْفَرَنْجِ بِالْفَاظِ مُبْتَدَلَةٍ غَيْرِ رَائِقَةٍ ، طَلَبًا لِلسَّرْعَةِ ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ بِهِمُ الْحَالُ
فِي الْإِتِّفَاقِ وَالْتِرَاضَى ، إِلَى آخِرِ فُصُولِ الْمُدُنَةِ ، فَيَكْتُبُهَا كَاتِبُ الْمَلِكِ الْمُسْلِمِ عَلَى صُورَةِ
مَا جَرَى فِي الْمُسَوَّدَةِ ، لِيَطَائِقَ مَا كَتَبَ بِهِ كَاتِبُ الْفَرَنْجِ . إِذْ لَوْ عَدَّلَ فِيهَا كَاتِبٌ

السلطان إلى الترتيب ، وتحسين الألفاظ وبلاغة التركيب ، لاختل الحال فيها عما وافق عليه كاتب الفرنج أولاً ، فينكرونه حينئذ ، ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق ، لقصورهم في اللغة العربية ، فيحتاج الكاتب إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المسودة . وبالجملة فإنما ذكرت النسخ المذكورة - على سخافة لفظها ، وعدم انسجام ترتيبها - لاشتمالها على الفصول التي جرى فيها الاتفاق فيما تقدم من الزمان ، ليستمد منها الكاتب ما لعله لا يحضربأله من مقاصد المهادنات ، أغنانا الله تعالى عن الحاجة إليها .

وأعلم أنه قد جرت العادة ، أنه إذا كتبت الهدنة ، كتب قربنها يمين يحلف بها السلطان أو نائبه القائم بعقد الهدنة ، على التوبة بفصولها وشروطها ، ويمين يحلف عليها القائم عن الملك الكافر بعقد الهدنة ، ممن يأذن له في عقدها عنه ، بكاتب يصدر عنه بذلك ، أو تجهز نسختها إلى الملك الكافر ليحلف عليها ، ويكتب خطه بذلك ، وتعاد إلى الأبواب السلطانية .

المذهب الثالث

(أن تفتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ «الحمد لله»)

وعلى هذا بنى صاحب "مواد البيان" أمره في كتابة الهدنة ، حيث قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على الهداية إلى دين الإسلام الذي أدل كل دين وأعره ، وخدل كل شرع ونصره ، وأخفى كل مذهب وأظهره ، والتوغل في توحيده ، وتقديسه وتمجيدِه ، والثناء عليه بالائه ، والصلاة على خير أنبيائه ، محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : ولم يأت بصورة هُدنية مُتظمة على هذا الترتيب ، بل أشار إلى كَيْفِيَّةِ عملها . ثم قال : والبليغُ يكتفي بقريحته في ترتيب هذه المعاني إذا دُفع إلى الإنشاء فيها ، إن شاء الله تعالى . ولم أقف لغيره على صورة هُدنية مفتحة بالتحميد ، ولا يخفى أن الابتداء به في كلِّ مُهمٍّ من العهودِ وجلالِ الولايات ونحو ذلك هو المعمولُ عليه في زماننا .

الطرف الثاني

(فيما يُشارك فيه ملوك الكُفَرِ ملوك الإسلام في كتابة نُسخ من دواوينهم)

اعلم أنَّ الغالب في الهدنِ الواقعة بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الكُفَرِ أن تُكتب نسخةٌ تخلدُ بديوان الإنشاء بالديار المصرية ، ونسخةٌ تجهزُ إلى الملك المُهادن . ورُبَّما كتبت نسخةٌ من ديوانه مُفتحةٌ بيمين .

وهذه نسخة هُدنية وردت من جهة الأشركي ، صاحب القُسطنطينية في شهر رمضان سنة ثمانين وستمائة ، مؤرخة بتاريخ موافق لأواخر الحرم من السنة المذكورة ، فُعربت فكانت نُسختها على ما ذكره ابن مكرم في "تذكيره" :

إذ قد أراد السلطانُ العظيمُ ، النَّسِيبُ ، العَالِي ، العَزِيزُ ، الكَبِيرُ الجَنِيسُ ، المَلِكُ ، المَنصُورُ ، سَيِّفُ الدِّينِ « قلاوون » صاحبُ الديار المصرية ودمشق وحلب ، أن يكونَ بينه وبين مملكتي محبةً - فمملكتي تُؤثرُ ذلك ، وتختارُ أن يكونَ بينها وبين عزِّ سلطانهِ محبةً . ولهذا وجب أن يتوسطَ هذا الأمرَ يمينٌ وأتفاقٌ : لتدومَ المحبةُ التي بهذه الصورة فيما بين مملكتي وعزِّ سلطانهِ ثابتةً بلا تَسْوِيسٍ . فمملكتي هذا اليوم ، وهو يومُ الخميس الثامن من شهر إيار من التاريخ [الرومي] التابع لسنة ستة آلاف

وسبائة وتبوع وثمانين لآدم - تحلف بأناجيل الله المقدسة، والصليب المكرم المحيي،
أن مملكتي تكون حافظة للسلطان العظيم، النسيب، العالی، العزيز، الكبير الحنيس،
سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية ودمشق وحلب، ولولده ولوارث
ملك عز سلطانة: محبة مستقيمة، وصداقة كاملة نقيه، ولا تحرك ملكي أبدا على
عز سلطانة حربا، ولا على بلاده ولا على قلاعها، ولا على عساكره، ولا تحرك
ملكی أبدا على حربيه، بحيث إن هذا السلطان العظيم، النسيب، العالی، العزيز،
الكبير الحنيس، الملك المنصور سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية
ودمشق وحلب، يحفظ مثل ذلك لمملكتي ولولده مملكتي الحبيب الكينوس،
الانجالوس، الدوقس، البالاولوغس، الملك ايرلنك، ولا تحرك عز سلطانة على
مملكتنا حربا قط، ولا على بلادنا، ولا على قلاعنا، ولا على عساكرنا، ولا تحرك
أحدنا آخر أيضا على حرب مملكتنا. وأن تكون الرسل المترددون عن عز سلطانة أيضا
مطلقا [آمين، لهم] أن يعبروا في بلاد مملكتي بلا مانع ولا عائق، ويتوجهوا إلى حيث
يسيرون من عز سلطانة، وكذلك يعودون إلى عز سلطانة. وأن لا يحصل للتجار
الواردين من بلاد عز سلطانة [ضرر] من بلاد مملكتي، لا يحدرون من أحد جورا
ولا ظلما، بل يكون لهم مباحا أن يعملوا متاجرهم. ونظير هذا - التجار الواردون إلى بلاد
عز سلطانة من أهل بلاد ملكي، يقومون بالحق الواجب على بضائعهم، وليقم كذلك
التجار الواردون من بلاد عز سلطانة إلى بلاد ملكي بالحق الواجب على بضائعهم.
وإن حضر من بلاد سوداق تجار وأرادوا السفر إلى بلاد عز سلطانة، فلا ينال
هؤلاء تعويق في بلاد ملكي، بل في عبورهم وعودهم يكونون بلا مانع ولا عائق بعد
القيام بالحق الواجب. وهؤلاء التجار الذين من بلاد عز سلطانة والذين من أهل
سوداق إن حضر صحبتهم ممالك وتجار، فليعودوا بهم إلى بلاد عز سلطانة بلا عائق

ولا مانع ، ما خلا إن كانوا نصارى ، لأنَّ شرعنا وترتيب مذهبنا لا يسمح لنا في أمر
النصارى بهذا .

وأما إن كان في بلاد عِرِّ سلطانه ممالك نصارى : رُوم وغيرهم من أجناس
النصارى ، متمسكون بدين النصارى ، ويحصل لقوم منهم العتق ، فليكن للذين معهم
عتاق مباح ومطلق من عِرِّ سلطانه ، أن يفدوا في البحر إلى بلاد مملكتي . وكذلك
إن أراد أحد من أهل بلاد عِرِّ سلطانه أن يبيع مملوكاً نصرانياً هذه صورته لأحد
من رُسل مملكتي ، أو لتجار وأناس بلاد مملكتي ، أن لا يحد في هذا تعويفاً ، بل
يشتروا المذكور ويفدوا به في البحر إلى بلاد مملكتي بلا عائق . وأيضاً إن أراد
هذا السلطان العظيم النسيب ، أن يرسل إلى بلاد ملكي بضائع متجراً ، وأرادت
مملكتي أن ترسل إلى بلاد عِرِّ سلطانه بضائع متجراً ، فليكن هكذا : وهو إن أراد
عِرِّ سلطانه أن تكون بضائع متاجر في بلاد ملكي منجاة من القيام بكل الحقوق ،
فليكن أيضاً بضائع متاجر مملكتي في بلاد عِرِّ سلطانه منجاة مثل ذلك من كل
الحقوق ، وإن أراد أن تقوم متاجر ملكي في بلاده بالحقوق الواجبة [يقوم] بمثل
ذلك . وأيضاً أن يطلق عِرِّ سلطانه لملكه أن يرسل أناساً من بلاد مملكتي إلى بلاد
عِرِّ سلطانه ، فيشترون لى خيلاً جيداً ويحملونها إلى بلاد ملكي . وكذلك إن أراد
عِرِّ سلطانه شيئاً من خيرات بلاد ملكي ، فمملكتي أيضاً تطلق لعِرِّ سلطانه أن يرسل
أناسه ليشتروه ويحملوه إلى عِرِّ سلطانه .

ولما كان في البحر كرساليه من بلاد غربية ، وقد يتفق في بعض الأوقات أن
يعملوا خسارة في بلاد ملكي ، وكذلك يحدون هؤلاء الكرسالية قوماً من بلاد عِرِّ
سلطانه فيعملون لهم خسارة ، ثم إن هؤلاء الكرسالية يفعلون هذا في الآفاق في تحوم
بلاد ملكي . لأجل هذا صار : إذا حضر قوم من بلاد مملكتي إلى بلاد عِرِّ

سُلْطَانِهِ بِتَجَرِّ يُمْسِكُونَ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ وَيَغْرَمُونَ . وَلِهَذَا فَلْيَصْرُ مَرْسُومٌ
 مِنْ عِزِّ سُلْطَانِهِ فِي كُلِّ بِلَادِهِ أَنْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي لَا يَغْرَمُ بِهَذَا السَّبَبِ
 وَلَا يُمَسَّكَ ، وَإِنْ عَرَّضَ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ : إِنَّهُ غُرِّمَ أَوْ ظُلِمَ
 مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مُلْكِي فَلْيَعْرِفْ مُلْكِي بِذَلِكَ . وَإِذَا كَانَ الَّذِي وَضَعَ الْغَرَامَةَ مِنْ أَهْلِ
 بِلَادِ مُلْكِي ، مُلْكِي يَأْمُرُ ، وَتَعَادُ تِلْكَ الْحَسَارَةُ إِلَى بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ . وَكَذَلِكَ إِنْ
 قَالَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي : إِنَّهُ ظُلِمَ أَوْ غُرِّمَ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ،
 يَأْمُرُ عِزُّ سُلْطَانِهِ ، وَتَعَادُ الْغَرَامَةُ إِلَى بِلَادِ مُلْكِي . وَأَيْضًا إِذَا قَدْ أْزَمَعَتِ الْحَبَّةُ أَنْ
 تَصِيرَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَتَكُونَ الصَّدَاقَةُ بَيْنَ مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ خَالِصَةً ، حَتَّى إِنَّهُ
 أَرْسَلَ يَقُولُ لِمُلْكِي عَلَى مَعُونَةٍ وَتَجِدَةٍ مُلْكِي فِي الْبَحْرِ لِمَضْرَّةِ الْعَدُوِّ الْمَشْتَرِكِ ، فَمَمْلَكَتِي
 تَفَوِّضُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى آخْتِيَارِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ، أَنْ يَرْتَبَ فِي نَسْخَةِ الْيَمِينِ مَعَ بَقِيَّةِ
 الْفُصُولِ الْمَعِينَةِ فِيهِ ، وَتَأْتِي الصُّورَةُ كَيْفَ تَعِينُ وَتَجِدُ مَمْلَكَتِي فِي الْبَحْرِ . وَإِنْ كَانَ
 لَا يُرِيدُ تَجِدَةً وَمَعُونَةً مَمْلَكَتِي ، فَمَمْلَكَتِي تَسْمَحُ بِهَذَا الْفَصْلِ أَنْ لَا يَضَعَهُ عِزُّ سُلْطَانِهِ
 فِي نُسْخَةِ يَمِينِهِ ، وَهَذِهِ الْيَمِينُ مِمَّا يَحْفَظُ مُلْكِي لِعِزِّ سُلْطَانِهِ نَائِبَةً غَيْرَ مَرَّعِرَّةٍ إِنْ كَانَ
 هَذَا السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ يَحْلِفُ لِي يَمِينًا بِمِثْلِهَا ، وَأَنَّهُ يَحْفَظُ الْحَبَّةَ لِمَمْلَكَتِنَا ، نَائِبَةً غَيْرَ
 مَرَّعِرَّةٍ ، وَالسَّلَامُ .



وهذه نسخة اتفاق، كتبت من الأبواب السلطانية عن الملك المنصور «قلاوون»
 عن نظير الهدنة المتقدمة، الواردة من قبيل صاحب القسطنطينية، مفتوحة بيمين
 موافقة لها، وهي :

أقول وأنا فلان : إنه لما رغب حضرة الملك الجليل، كرميخائيل، الدوقس،
 الإنجالوس، الكينيوس، البالاولوغس، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى،

أكبر ملوك المسيحية ، أبقاه الله - أن يكون بين مملكته وبين عز سلطانى ، محبة وصدقة ومودة لا تتغير بتغير الأيام ، ولا تزول بزوال السنين والأعوام ، وأكد ذلك بيمين حلف عليها ، تاريخها يوم الخميس ثامن شهر إيار سنة سنة آلاف وسبعائة وتسع وثمانين لآدم ، صلوات الله عليه ، بحضور رسول عز سلطانى ، الأمير ناصر الدين ابن الجزرى ، والبطرك الحليل انباسيوس بطرك الاسكندرية ، وحضر رسوله فلان وفلان إلى عز سلطانى بنسخة اليمين ، ملتصقين أن يتوسط هذا الأمر أيضا بيمين واتفاق من عز سلطانى ، لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعز سلطانى ، وتكون ثابتة مستمرة على الدوام والاستمرار .

عز سلطانى من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين مستهل رمضان المعظم ، سنة ثمانين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، يحاف بالله العظيم ، الرحمن الرحيم ، عالم الغيب والشهادة ، والسر والعلانية وما تخفى الصدور ، والقراءان العظيم ، وبمن أنزله ، وبمن أنزل عليه ، وهو النبي الكريم ، محمد صلى الله عليه وسلم - على استمرار الصداقة ، واستقرار المودة النقية ، للملك الحليل كرميخائيل ، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى ، ولولده مملكته الحبيب الكمينيوس الانجالوس ، الدوقس ، البالاولوغس ، الملك إيراندروبنفوس ، ولوارثي مملكة ملكه . ولا يحرك عز سلطانى أبدا على مملكته حربا ، ولا على بلاده ، ولا على قلاعه ، ولا على عساكره : فى بر ولا بحر . ولا يحرك عز سلطانى أحدا آخر على حربيه ، بحيث إن الملك الحليل كرميخائيل يحفظ مثل ذلك لعز سلطانى ، وملكى ، ولبلادى ، ولقلاعى ، ولعساكرى ، ولولدى السلطان الملك الصالح علاء الدين «على» ولوارثي ملكى من أولادى ، ويستمر على هذه الصداقة والمودة النقية ، ولا يحرك ملكه على عز سلطانى حربا قط ، ولا على

بلادى ، ولا على قلاعى ، ولا على عساكرى ، ولا على مملكتى ، ولا يحرك أحدًا
آخر على حرب مملكة عزم سلطانى فى البر ولا فى البحر ، ولا يساعده أحدًا من أضداد
عزم سلطانى ، ولا أعدائى من سائر الأديان والأجناس ، ولا يوافقه على ذلك ،
ولا يفسح لهم فى العبور إلى مملكة عزم سلطانى لمضرة شئ فيها بجهد وطاقته .

وأن الرسل المسيرين من مملكة عزم سلطانى إلى بر بركة وأولاده وبلادهم
وتلك الجهات ، وبحر سوداق وبره ، يكونون أمينين مطمئنين مطلقًا : لهم أن يعبروا
فى بلاد مملكة الملك الجليل ، كميخائيل من أولها إلى آخرها ، بلا مانع ولا عائق :
أرسلوا فى بر أو بحر ، على ما تقتضيه مصلحة ذلك الوقت لمملكة عزم سلطانى ، أمينين
مطمئنين ، غير ممنوعين بجميع من يصل معهم من رسل تلك الجهات وغيرها ، وكل
من معهم من ممالك وجوار وغير ذلك . وأن لا يحصل للتجار الواردين من مملكة
الملك الجليل كميخائيل إلى بلاد عزم سلطانى جور ولا ظلم ، وبترددون أمينين
مطمئنين يعملون متاجرهم ، ولهم الرعاية فى الصدور والورود ، والمقام والسفر :
بحيث يكون لتجار مملكة عزم سلطانى فى بلاد مملكة الملك الجليل كميخائيل مثل
ذلك ، ويكونون مرميين ، لا يجدون من أحد فى بلاد مملكة الملك الجليل كميخائيل
جورًا ولا ظلمًا . ومن عليه حق واجب فى الجهتين على ما استقر عليه الحال ، يقوم به
من غير حيف ولا ظلم .

وأن من حضر من التجار : من سوداق وغيرها بممالك وجوار تمكثهم
مملكة الملك الجليل كميخائيل من الحضور بهم إلى مملكة عزم سلطانى ولا تمنعهم .
وأن الكرسالية متى تعرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين فى البحر ، وتُسببت
الكرسالية إلى رعية مملكة الملك الجليل كميخائيل ، يسير عزم سلطانى إليه فى طلبهم ،

ولا يتعرض أحدٌ من نواب مملكة عِزِّ سلطاني إلى هذا الجنس بسببهم، إلا أن يتحقق أنهم آخذون، أو تظهر عينُ المالِ معهم، على ما تضمنته نسخةُ يمينِ الملكِ الجليلِ كرميخائيل، ومملكة الملكِ الجليلِ كرميخائيل من بلاد عِزِّ سلطاني مثل ذلك .

وعلى أن الرسلَ المترددين من الجهتين : من مملكة عِزِّ سلطاني ، ومن مملكة الملكِ الجليلِ كرميخائيل ، يكونون آمينين مطمئنين في سفرهم ومقامهم : براً وبحراً ، وتكون رعيةُ بلاد عِزِّ سلطاني ، ورعيةُ بلاد الملكِ الجليلِ كرميخائيل ، في الجهتين من المسلمين وغيرهم آمينين مطمئنين ، صادقين وارينين ، محترمين مرعيين . وهذه اليمينُ لا تزالُ محفوظةً ملحوظةً ، مُستمرّةً مستقرّةً ، على الدوامِ والاستمرار .

قلتُ : وهذه النسخةُ والنسخةُ الواردةُ من صاحبِ القُسطنطينيةِ المتقدمةِ عليها ، وإن عبّرَ عنهما في خلالهما بلفظِ اليمينِ ، فإنهما بعقدِ الصلحِ أشبههُ ، واليمينُ جزءٌ من أجزاء ذلك ، ولذلك أوردتها في عقودِ الصلحِ دونِ الأيمانِ .

الباب الخامس من المقالة التاسعة

(في عقود الصلح الواقعة بين ملكين مسلمين ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصول تَعْتَمَدُ في ذلك

اعلم أن الأصل في ذلك ما ذكره أصحاب السير وأهل التاريخ ، أنه لما وقع الحرب بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ، في صيفين ، في سنة سبع وثلاثين من الهجرة - توافقا على أن يقيما حكمتين بينهما ، ويعملا بما يتفقان عليه . فأقام أمير المؤمنين علي أبو موسى الأشعري حكما عنه ، وأقام معاوية عمرو بن العاص حكما عنه . فاتفق الحكمان على أن يكتب بينهما كتاب بعقد الصلح ، واجتمعا عند علي رضي الله عنه ، وكتب كتاب القضية بينهما بحضوره ، فكتب فيه بعد البسملة :

هذا ما تقاضى أمير المؤمنين علي ، فقال عمرو : هو أميركم ، أما أميرنا فلا . فقال [الأحنف : لا تمتح أسم أمير المؤمنين فإني أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبدا . لا تمتحها وإن قتل الناس بعضهم بعضا ، فأبى ذلك علي مليا من النهار . ثم إن الأشعث^(١) ابن قيس قال : أمتح أسم أمير المؤمنين ، فأجاب علي ومعاوية . ثم قال علي : الله أكبر ! سنة بسنة . والله إني لكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، فكتبت : محمد رسول الله ، فقالوا : لست برسول الله ، ولكن آكتب أسمك وأسم أبيك .

(١) بياض في الأصل والتصحيح من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٣٨ .

فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَجْهَوِهِ ، فَقُلْتُ : لَا أَسْتَطِيعُ أَفْعَلُ ! فَقَالَ
إِذَنْ أَرِنِيهِ فَأَرَيْتُهُ فَمَجَاهَ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : « إِنَّكَ سَتُدْعَى إِلَى مِثْلِهَا فَتُجِيبُ » .



وهذه نسخة كتاب القضيّة بين أمير المؤمنين عليّ وبين معاوية ، فيما رواه
أبو عبد الله الحسين بن نصر بن مزاحم المنقري ، في "كتاب صفين والحكمين"
بسنده إلى محمد بن عليّ الشّعبيّ ، وهو :

هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما ،
فما تراضيا من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . قضيّة عليّ على
أهل العراق ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب ، وقضيّة معاوية على أهل
الشّام ومن كان من شيعته من شاهد أو غائب ، انا رضيانا أن ننزل عند حكم
كتاب الله بيننا حكما فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته ، نُحْيِي مَا أَحْيَا ، وَنُمِيتُ
مَا أَمَاتَ . على ذلك تقاضينا ، وبه تراضينا . وإنّ عليّا وشيعته رضوا أن يبعثوا
عبد الله بن قيس ناظرا ومحاكما ، ورضى معاوية وشيعته أن يبعثوا عمرو بن العاص
ناظرا ومحاكما ، على أنهم أخذوا عليهما عهد الله وميثاقه ، وأعظم ما أخذ الله على
أحد من خلقه ، لِيَتَّخِذَانَ الْكِتَابِ إِمَامًا فِيمَا بَعَثَا لَهُ ، لَا يَعْذُوَانِهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ فِي الْحُكْمِ
بِمَا وَجَدَا فِيهِ مَسْطُورًا ، وَمَا لَمْ يَجِدَاهُ مُسَمًّى فِي الْكِتَابِ رَدَّاهُ إِلَىٰ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ
الْجَامِعَةِ ، لَا يَتَّعَمِدَانِ لَهَا خِلَافًا ، وَلَا يَتَّبِعَانِ فِي ذَلِكَ لِمَا هَوَىٰ ، وَلَا يَدْخُلَانِ
فِي شُبُهَةٍ .

وأخذ عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص عليّ عليّ ومعاوية عهد الله وميثاقه
بالرضا بما حكما به من كتاب الله وسنة نبيه ، ليس لهما أن ينقضّا ذلك تخالفا إلى

غَيْرِهِ ، وَأَنْتَهُمَا آمِنَانِ فِي حُكُومَتَيْهِمَا عَلَى دِمَائِهِمَا وَأَمْوَالِهِمَا وَأَهْلِيهِمَا ، مَا لَمْ يَعْدُوا الْحَقَّ ،
رَضِيَ بِذَلِكَ رَاضٍ أَوْ أَنْكَرَ مُنْكَرًا . وَأَنَّ الْأُمَّةَ أَنْصَارُهَا عَلَى مَا قَضَى بِهِ مِنَ الْعَدْلِ .
فَإِنْ تُوَفِّي أَحَدُ الْحَكَمَيْنِ قَبْلَ أَنْقِضَاءِ الْحُكُومَةِ ، فَاِمِيرُ شِيعَتِهِ وَأَصْحَابُهُ يَخْتَارُونَ
رَجُلًا ، لَا يَأْلُوَانِ عَنْ أَهْلِ الْمَعْدِلَةِ وَالْإِفْسَاطِ ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ مِنَ الْعَهْدِ
وَالْمِيثَاقِ وَالْحُكْمِ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَلَهُ مِثْلُ شَرْطِ صَاحِبِهِ .
وَإِنْ مَاتَ وَاحِدٌ مِنَ الْأَمِيرَيْنِ قَبْلَ الْقَضَاءِ ، فَلِشِيعَتِهِ أَنْ يُؤَلُّوا مَكَانَهُ رَجُلًا
يَرْضَوْنَ عَدْلَهُ .

وَقَدْ وَقَعَتِ الْقِضِيَّةُ بَيْنَنَا وَالْأَمْنُ وَالْتِفَاوُضُ ، وَوُضِعَ السَّلَاحُ . وَعَلَى الْحَكَمَيْنِ
عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ : لِيَحْكُمَا بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، لَا يَدْخُلَانِ فِي شُبُهَةٍ وَلَا يَأْلُوَانِ
أَجْتِهَادًا ، وَلَا يَتَعَمَّدَانِ جَوْرًا ، وَلَا يَتَّبِعَانِ هَوَى ، وَلَا يَعْدُونَ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى
وَسُنَّةِ رَسُولِهِ . فَإِنْ لَمْ يَفْعَلَا بَرَّتِ الْأُمَّةُ مِنْ حُكْمِهِمَا ، وَلَا عَهْدُ لَهَا وَلَا ذِمَّةٌ .
وَقَدْ وَجِبَتِ الْقِضِيَّةُ عَلَى مَا سَمَّيْنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ مَوْقِعِ الشَّرْطِ عَلَى الْأَمِيرَيْنِ
وَالْحَكَمَيْنِ وَالْفَرِيقَيْنِ ، وَاللَّهُ أَقْرَبُ شَهِيدًا وَأَدْنَى حَفِيزًا ، وَالنَّاسُ آمِنُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
وَأَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ إِلَى أَنْقِضَاءِ مُدَّةِ الْأَجَلِ ، وَالسَّلَاحُ مَوْضُوعٌ ، وَالسَّبِيلُ مُخْتَلَى ،
وَالشَّاهِدُ وَالْغَائِبُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ سَوَاءٌ فِي الْأَمْرِ . وَلِلْحَكَمَيْنِ أَنْ يَتَرَكَمَا مَتْرَلًا عَدْلًا بَيْنَ
أَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلِ الشَّامِ ، وَلَا يَحْضُرُهُمَا فِيهِ إِلَّا مِنْ أَحْبَابٍ عَنْ مَلَأٍ مِنْهُمَا وَتَرَاضٍ .
وَأَجَلَ الْقَاضِيَيْنِ الْمُسْلِمُونَ إِلَى رَمَضَانَ : فَإِنْ رَأَى الْحَكَمَانِ تَعْجِيلَ الْحُكُومَةِ فِيمَا
وُجِّهَ لَهُ ، عَجَّلَا . وَإِنْ أَرَادَا تَأْخِيرَهُ بَعْدَ رَمَضَانَ إِلَى أَنْقِضَاءِ الْمَوْسِمِ ، فَإِنْ ذَلِكَ
إِلَيْهِمَا . فَإِنْ هُمَا لَمْ يَحْكُمَا بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ إِلَى أَنْقِضَاءِ الْمَوْسِمِ ، فَالْمُسْلِمُونَ عَلَى

(١) أَى تَشَاوُرٍ وَاجْتِمَاعٍ .

أمرهم الأول في الحرب، ولا شرط بين واحد من الفريقين . وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام على ما في هذا الكتاب . وهم يدُّ على من أراد في هذا الكتاب الحاداً أو ظملاً ، أو أراد له نقضاً .

شهد على ما في هذا الكتاب من أصحاب عليّ : الأشعث بن قيس ، وعبد الله بن عباس ، والأشتر بن الحرث ، وسعيد بن قيس الهمداني ، والحصين والطفيل ابنا الحرث بن المطلب ، وأبو أسيد بن ربيعة الأنصاري ، وخباب بن الأرت ، وسهل بن حنيف الأنصاري ، وأبو اليسر بن عمرو الأنصاري ، ورفاعة بن رافع ابن مالك الأنصاري ، وعوف بن الحرث بن المطلب القرشي ، وبريدة الأسلمي ، وعقبة بن عامر الجهني ، ورافع بن خديج الأنصاري ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، والحسن والحسين ابنا عليّ ، وعبد الله بن جعفر الهاشمي ، واليعمر بن عجلان الأنصاري ، ومجرب بن عدي الكندي ، وورقاء بن سمي البجلي ، وعبد الله بن الطفيل الأنصاري ، ويزيد بن حجة الذكرى^(١) ، ومالك بن كعب الهمداني ، وربيعة بن شرحبيل ، وأبو صفرة ، والحارث بن مالك ، ومجرب بن يزيد ، وعقبة بن حجة .

ومن أصحاب معاوية : حبيب بن مسامة الفهمي ، و[أبو] الأعور السامي ، وبسر ابن أرطاة القرشي ، ومعاوية بن خديج الكندي ، والمخارق بن الحرث الحميري ، وزميل بن عمرو السكسكي ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي ، وحمزة بن مالك الهمداني ، وسبع بن زيد الحميري ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعلقمة بن مرثد

(١) في الكامل لابن الأثير "ابن حجة التيمي" .

(٢) في خلاصة أسماء الرجال : القهري .

(٣) في الكامل : "سبع بن يزيد الأنصاري" .

الكلبي، وخالد بن الحُصَيْن السَّكْسَكِي، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، ويزيد بن الحز
العبيسي، ومسروق بن حملة العكي، ومُثِيرُ بن يَزِيدِ الجُمَيْرِي، وعبدُ الله بن عامر
القُرَشِي، ومروان بن الحَكَم، والوليد بن عَقْبَةَ القُرَشِي، وعقبَةُ بن أبي سُفْيَانَ،
ومحمد بن أبي سُفْيَانَ، ومحمد بن عمرو بن العاص، ويزيد بن عمرو الجُدَامِي، وعمَّارُ
ابن الأُخوص الكلبي، ومسنَعْدَةُ بن عمر القَيْنِي، وعاصم بن المستنير الجُدَامِي،
وعبدُ الرحمن بن ذِي كَلَّاجِ الجُمَيْرِي، والصبح بن جلهمة الجُمَيْرِي، وثمامة بن
حَوْشَب، وعلقمة بن حكيم، وحمزة بن مالك .

وإنَّ بيننا على ما في هذه الصَّحِيفَةِ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ . وَكُتِبَ عُمَيْرُ يَوْمَ الأَرْبَعَاءِ
لثَلَاثِ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ بَقِيَتْ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ .

وأُخْرِجَ أَيْضًا بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي إِسْحَاقَ الشَّيْبَانِي أَنَّ عَقْدَ الصَّلْحِ كَانَ عِنْدَ سَعِيدِ
أَبْنِ أَبِي بُرْدَةَ فِي صَحِيفَةٍ صَفْرَاءَ عَلَيْهَا خَاتَمَانِ : خَاتَمٌ فِي أَسْفَلِهَا، وَخَاتَمٌ فِي أَعْلَاهَا .
فِي خَاتَمِ عَلِيٍّ «مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ» وَفِي خَاتَمِ مُعَاوِيَةَ «مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ» .

قُلْتُ : وَذَكَرَ رَوَايَاتٍ أُخْرَى فِيهَا زِيَادَةٌ وَنَقْصٌ أَضْرَبْنَا عَنْ ذِكْرِهَا خَوْفَ
الإطالة، إذ فيما ذَكَرْنَا مَقْنَعٌ . عَلَى أَنَّ المَوْرَجِينَ لَمْ يَذْكُرُوا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا طَرَفًا بَسِيرًا .

الفصل الثاني

من الباب الخامس من المقالة التاسعة

(فيما جرت العادة بِكتابته بين الخلفاء ومُلوِك المسلمين على تعاقب الدول،

مما يُكتبُ في الطِّرةِ والمَتْنِ)

أما الطِّرةُ : فليُعلمَ أنَّ الذي ينبغي أن يُكتبَ في الطِّرةِ هنا : « هذا عقدُ صلحٍ »
ويُكَلَّ على ما تقدم في الهدنة . ولا يكتبُ فيه : « هذه هدنةٌ » لما يسبق إلى
الأذهان من أن المراد من الهدنة ما يجري بين المسلمين والكُفَّار .
وأما المَتْنُ فعلى نوعين :

النوع الأول

(ما يكون العقدُ فيه من الجانبين)

ولم أر فيه للكُتابِ إلا الاستفتاحَ بلفظ : « هذا » . وعليه كُتِبَ كتابُ القَضِيَّةِ
بين أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ ، وبين معاويةَ بن أبي سُفيانَ
رضي اللهُ عنه ، على ما تقدم ذكره .

وعلى ذلك استُكْتُبَ هُرُونُ الرَّشِيدِ ولَدَيْهِ : محمدا الأَمِينُ ، وعبدَ اللهُ المَأْمُونُ :
العَهْدَيْنِ اللَّذَيْنِ عَهِدَ فِيهِمَا بِالْخِلافةِ بعده لابنِهِ الأَمِينِ ، وولَّى خُرَاسَانَ ابْنَهُ المَأْمُونُ ،
ثم عَهِدَ بِالْخِلافةِ من إمد الأَمِينِ للمَأْمُونِ ، وأشهدَ فِيهِمَا ، وبعثَ بِهِمَا إلى مَكَّةَ فَعَلَّقَا
في بَطْنِ الكَعْبَةِ ، في جُمْلَةِ المَعْلَقَاتِ التي كانت تُعَلَّقُ فِيهَا ، على عادةِ العَرَبِ السَّابِقَةِ :
من تَعْلِيقِ القَصَائِدِ وتَحْوِهَا . وبذلك سُمِّيَتِ القَصَائِدُ السَّيِّعُ المَشهُورَةُ : بالمَعْلَقَاتِ ،
لتعليقهم إياها في جَوْفِ الكَعْبَةِ .

أما عهد الأمين، فنسخته بعد البسمة - على ما ذكره الأزرقى في أخبار مكة -
ما صورته :

هذا كتاب لعبد الله هرون أمير المؤمنين، كتبه [له] محمد بن أمير المؤمنين في صحبة
من بدنه وعقله، وجواز من أمره، طائعا غير مكره .

إن أمير المؤمنين هرون ولأني العهد من بعده، وجعل لي البيعة في رقاب
المسلمين جميعا، وولّي أئني عبد الله بن أمير المؤمنين هرون العهد والخلافة وجميع
أموار المسلمين من بعدي، برضا منّي وتسلّم، طائعا غير مكره . وولاه خراسان
بثغورها، وكورها، وجنودها، ونحراجها، وطرازيها، وبريدها، وبيوت أموالها،
وصدقاتها، وعشيرها وعشورها، وجميع أعمالها، في حياته وبعد وفاته . فشرطت
لعبد الله ابن أمير المؤمنين على الوفاء بما جعله له أمير المؤمنين هرون : من البيعة
والعهد، وولاية الخلافة وأموار المسلمين بعدي، وتسلّم ذلك له، وما جعل له
من ولاية خراسان وأعمالها، وما أقطعه أمير المؤمنين هرون من قطيعة، وجعل له
من عقدة أو ضيعة من ضياعه وعقده، أو ابتاع له من الضياع والعقد . وما أعطاه
في حياته وصحته : من مال، أو حلي، أو جوهر، أو متاع، أو كسوة، أو رقيق،
أو منزل، أو دواب، قليلا، أو كثيرا، فهو لعبد الله ابن أمير المؤمنين موقرا عليه،
مسما له . وقد عرفت ذلك كله شيئا فشيئا بأسمه وأصنافه ومواضعه، أنا وعبد الله
ابن هرون أمير المؤمنين . فإن اختلفنا في شيء منه فالقول فيه قول عبد الله بن هرون
أمير المؤمنين، لا أتبعه بشيء من ذلك، ولا أخذه منه، ولا أتقصه، صغيرا
ولا كبيرا [من ماله] ولا من ولاية خراسان ولا غيرها مما ولّاه أمير المؤمنين من
الأعمال، ولا أعزله عن شيء منها، ولا أخلعه، ولا أستبدل به غيره، ولا أقدم عليه

في العهد والخلافة أحداً من الناس جميعاً ، ولا أدخل عليه مكرهاً في نفسه ولا دمه ،
ولا شعره ولا بشره ، ولا خاص ولا عام من أموره وولايته ، ولا أمواله ، ولا قطائعه ،
ولا عقده ؛ ولا أغبر عليه شيئاً لسبب من الأسباب ، ولا أخذه ولا أحداً من عماله وكتابه
وولاية أمره - ممن صحبه وأقام معه - بحاسبة ، ولا أتبع شيئاً جرى على يديه وأيديهم
في ولاية نرسان وأعمالها وغيرها مما ولاه أمير المؤمنين في حياته وصحته : من
الجبائية ، والأموال ، والطراز ، والبريد ، والصدقات ، والعشر والعشور ، وغير ذلك ؛
ولا أمر بذلك أحداً من الناس ، ولا أرخص فيه لغيرى ، ولا أحدثت نفسى فيه بشيء
أمضيه عليه ، ولا أتمس قطيعه له ، ولا أتقص شيئاً مما جعله له هرون أمير المؤمنين
وأعطاه في حياته وخلافته وسُلطانه من جميع ما سميت في كتابى هذا . وأخذ له على
وعلى جميع الناس البيعة ، ولا أرخص لأحد - من جميع الناس كلهم في جميع ما ولاه -
في خلعه ولا مخالفته ، ولا أسمع من أحد من البرية في ذلك قولاً ، ولا أرضى بذلك
في سر ولا علانية ، ولا أغمض عليه ، ولا أتغافل عنه ، ولا أقبل من بر من العباد
ولا فاجر ، ولا صادق ولا كاذب ، ولا ناصح ولا غاش ، ولا قريب ولا بعيد ، ولا أحد
من ولد آدم عليه السلام : من ذكر ولا أنثى - مشورة ، ولا حيلة ، ولا مكيدة
في شيء من الأمور : سرها وعلانياتها ، وحقها وباطلها ، وظاهرها وباطنها ،
ولا سبب من الأسباب ، أريد بذلك إفساد شيء مما أعطيت عبد الله بن هرون
أمير المؤمنين من نفسي ، وأوجبته له على ، وشرطت وسميت في كتابى هذا .

وإن أراد به أحد من الناس أجمعين سوءاً أو مكرهاً ، أو أراد خلعه أو محاربتة ،
أو الوصول إلى نفسه ودمه ، أو حرمة ، أو ماله ، أو سلطانه أو ولايته : جميعاً
أو فرادى ، مسرراً أو مظهرين له - فإني أنصره وأحوطه ، وأدفع عنه ، كما أدفع عن
نفسى ، ومهجتي ، ودمى ، وشعرى ، وبشرى ، وحرى ، وسلطاني ؛ وأجهز الجنود

إليه ، وأعينه على كل من غشه وخالفه ، ولا أسامه [ولا أخذه] ولا أتجلى عنه ،
ويكون أمرى وأمره في ذلك واحداً [أبداً] ما كنت حياً .

وإن حدث بأمير المؤمنين هرون حدث الموت ، وأنا وعبد الله ابن أمير المؤمنين
بحضرة أمير المؤمنين ، أو أحدنا ، أو كُنا غائبين عنه جميعاً : مجتمعين كُنا أو متفرقين ،
وليس عبد الله بن هرون أمير المؤمنين في ولايته بخراسان [فعلى لعبد الله ابن
أمير المؤمنين أن أمضيه إلى خراسان] وأن أسلم له ولايتها بأعمالها كلها وجنودها ، ولا
أعوقه عنها ، ولا أحبس قبلي ، ولا في شيء من البلدان دون خراسان ، وأعجل إشخاصه
إلى خراسان وإلياً عليها مفرداً بها ، مفوضاً إليه جميع أعمالها كلها ، وأتخصص معه
من ضم إليه أمير المؤمنين : من قواده ، وجنوده ، وأصحابه ، وكُنايه ، وعماله ،
ومواليه ، وخدمه ، ومن تبعه من صنوف الناس بأهلهم وأموالهم ؛ ولا أحبس عنه
أحدًا ، ولا أشرك معه في شيء منها أحدًا ، ولا أرسل أميناً ولا كاتباً ولا بُندارا ،
ولا أضرب على يديه في قليل ولا كثير .

وأعطيت هرون أمير المؤمنين وعبد الله بن هرون على ما شرطت لهما على نفسي ،
من جميع ما سميت وكتبت في كتابي هذا - عهد الله وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين
وذمتي ، وذمة أبائي وذمم المؤمنين ، وأشد ما أخذ الله تعالى على النبيين والمرسلين
وخالقه أجمعين : من عهوده وموآثيقه ، والأيمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل
بالوفاء بها ، ونهى عن نقضها وتبديلها .

فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت لهرون أمير المؤمنين ولعبد الله بن هرون
أمير المؤمنين وسميت في كتابي هذا ، أو حدثت نفسي أن أنقض شيئاً مما أنا عليه ،

أَوْ غَيَّرْتُ أَوْ بَدَّلْتُ ، أَوْ حُلْتُ أَوْ غَدَرْتُ ، أَوْ قَبِلْتُ [ذلك] من أَحَدٍ من الناس :
صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ، بَرًّا أَوْ فَاجِرًا ، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ، وَجَمَاعَةً أَوْ فَرَادَى - فَبَرِئْتُ مِنَ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ ، وَمِنَ وِلَايَتِهِ ، وَمِنَ دِينِهِ ، وَمِنَ عَهْدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَلَقَبْتُ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَافِرًا مُشْرِكًا . وَكُلُّ أَمْرَأَةٍ هِيَ الْيَوْمَ لِي أَوْ أَتْرَوْجُهَا إِلَى
ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِقٌ ثَلَاثًا ، الْبَتَّةَ ، طَلَاقَ الْحَرَجِ ، وَعَلَى الْمَشَى إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ
ثَلَاثِينَ حَجَّةً : نَذْرًا وَاجِبًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي عُنُقِي ، حَافِيًا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَفَاءَ
بِذَلِكَ . وَكُلُّ مَالٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ ، أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَدَى بِالْبَيْعِ الْكَعْبَةِ
الْحَرَامِ . وَكُلُّ مَمْلُوكٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ ، أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً أَحْرَارًا لَوْجَهُ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ .

وَكَأَنَّ مَا جَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكَتَبْتُهُ وَشَرَطْتُهُ
لَهُمَا ، وَحَلَقْتُ عَلَيْهِ ، وَتَمَيَّتُ فِي رِكَابِي هَذَا لِأَزْمٍ لِي الْوَفَاءَ بِهِ ، لَا أَضْمُرُ غَيْرَهُ ،
وَلَا أَنْوِي إِلَّا إِيَّاهُ . فَإِنْ أَضْمُرْتُ أَوْ نَوَيْتُ غَيْرَهُ فَهَذِهِ الْعُقُودُ وَالْمَوَاقِيقُ وَالْأَيْمَانُ
كُلُّهَا لِأَزْمَةٍ لِي ، وَاجِبَةٌ عَلَيَّ . وَقُوَادُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجُنُودُهُ وَأَهْلُ الْآفَاقِ وَالْأَمْصَارِ
فِي حِلٍّ مِنْ خَلْعِي وَإِخْرَاجِي مِنْ وِلَايَتِي عَلَيْهِمْ ، حَتَّى أَكُونَ سُوقَةً مِنَ السُّوقِ ،
وَكَرْجَلٍ مِنْ عَرَضِ الْمُسْلِمِينَ ، لِأَحَقَّ لِي عَلَيْهِمْ ، وَلَا وِلَايَةَ ، وَلَا تَبِعَةَ لِي قِبَالَهُمْ ،
وَلَا تَبِعَةَ لِي فِي أَعْنَاقِهِمْ ، وَهُمْ فِي حِلٍّ مِنَ الْإَيْمَانِ الَّتِي أَعْطَوْنِي ، بَرَاءً مِنْ تَبِعَتِهَا
وَوِزْرِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

شَهِدَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورِ ، وَعِيسَى بْنُ جَعْفَرٍ ، وَجَعْفَرُ بْنُ جَعْفَرٍ ،
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَهْدِيِّ ، وَجَعْفَرُ بْنُ مُوسَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ مُوسَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ عِيسَى بْنِ عَلِيٍّ ، وَأَحْمَدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَلِيٍّ ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ

جعفر بن سليمان، وعيسى بن صالح بن علي، وداود بن عيسى بن موسى، ويحيى
 ابن عيسى بن موسى، وداود بن سليمان بن جعفر، وخرممة بن حازم، وهرثمة بن
 أعين، ويحيى بن خالد، والفضل بن يحيى، وجعفر بن يحيى، والفضل بن الربيع
 مولى أمير المؤمنين، والقاسم بن الربيع مولى أمير المؤمنين، ودمانة بن عبد العزيز
 العبسي، وسليمان بن عبد الله بن الأصم، والربيع بن عبد الله الحارثي، وعبد الرحمن
 ابن أبي الشمير الغساني، ومحمد بن عبد الرحمن قاضي مكة، وعبد الكريم بن شعيب
 الحجبي، وإبراهيم بن عبد الله الحجبي، وعبد الله بن شعيب الحجبي، ومحمد بن عبد الله
 ابن عثمان الحجبي، وإبراهيم بن عبد الرحمن بن نبيه الحجبي، وعبد الواحد بن عبد الله
 الحجبي، وإسماعيل بن عبد الرحمن بن نبيه الحجبي، وأبان مولى أمير المؤمنين، ومحمد
 ابن منصور، وإسماعيل بن صبح، والحارث مولى أمير المؤمنين، وخالد مولى
 أمير المؤمنين .

وكتب في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة .



وأما ما كتبه المأمون، فنصه بعد البسملة :

هذا كتاب لعبد الله هرون أمير المؤمنين، كتبه له عبد الله بن هرون أمير المؤمنين،
 في صحفة من عقله، وجواز من أمره، وصدق نية فيما كتب من كتابه، ومعرفة
 ما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته ولجماعة المسلمين .

إن أمير المؤمنين هرون ولأني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه
 بعد أبي محمد بن هرون أمير المؤمنين، ولأني في حياته وبعده نخراسان وكورها،
 وجميع أعمالها : من الصدقات والعشير والبريد والطراز وغير ذلك . واشترط لي علي

محمد بن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لي من الخلافة والولاية للعباد والبلاد بعده ،
 وولايته خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين ،
 أو أتباع لي من الضياع والعقد والدور والرباع ، أو أتبعته منه [لنفسى] من ذلك ،
 وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من الأموال والجواهر والكساء والمتاع والدواب
 في سبب محاسننه [الأصحابى] ، ولا يتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أثراً ، ولا يدخل
 على ولا على أحد ممن كان معي ومي ، ولا عمالي ولا كفاي ، ومن آستعت به من جميع
 الناس - مكرؤها : في ديم ، ولا نفس ، ولا شعر ، ولا بشر ، ولا مال ، ولا صغير ،
 ولا كبير .

فأجابه إلى ذلك وأقر به ، وكتب له به كتاباً كتبه على نفسه ورضى به أمير المؤمنين
 [هرون وقبله وعرف صدق نيته . فشرطت لعبد الله هرون أمير المؤمنين]
 وجعلت له على نفسى أن أسمع لمحمد بن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحه
 ولا أغشه ، وأوفى ببيعته وولايته ، ولا أغدر ولا أنكث ، وأنفذ كنبه وأموره ،
 وأحسن مؤازرته ومكافئته ، وأجاهد عدوه في ناحيتى بأحسن جهاد ما وفى لي بما
 شرط لي ولعبد الله هرون أمير المؤمنين ، وسماه فى الكتاب الذى كتبه لأمر المؤمنين
 ورضى به أمير المؤمنين ، ولم ينقض شيئاً من ذلك ، ولم ينقض أمراً من الأمور التى
 اشتراطها لي عليه هرون أمير المؤمنين .

وإن احتاج محمد بن هرون أمير المؤمنين إلى جنيد وكتب لي بأمرى
 بإشخاصهم إليه ، أو إلى ناحية من النواحي ، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد
 نقض شيء من سلطانه وسلطاني الذى أسنده هرون أمير المؤمنين إلينا وولانا -
 أن أنفذ أمره ولا أخالفه ، ولا أقصر فى شيء كتب به إلى .

وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين هرون أن يوئى رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدى ، فذلك له ما وقي لي بما جعل لي أمير المؤمنين هرون ، واشترط لي عليه ، وشرطه على نفسه في أمرى ، وعلى إنفاذ ذلك والوفاء له بذلك ، ولا أنقص ذلك ولا أغيره ، ولا أبدله ، ولا أقدم [قبله] أحداً من ولدي ، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين ، إلا أن يوئى هرون أمير المؤمنين أحداً من ولده العهد من بعدى ، فيلزمني الوفاء بذلك .

وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد بن أمير المؤمنين على الوفاء بما اشترطت وسميت في كتابي هذا ، ما وقي لي محمد بن أمير المؤمنين هرون بجميع ما اشترط لي هرون أمير المؤمنين عليه في نفسي ، وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من جميع الأشياء المسماة في الكتاب الذي كتبه له . [وعلى] عهد الله تعالى وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين ، وذمتي ، وذمة آبائي ، وذمة المؤمنين ، وأشد ما أخذ الله عز وجل على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين من عهوده وموائيقه ، والأيمان المؤكدة التي أمر الله عز وجل بالوفاء بها .

فإن أنا تقضت شيئاً مما اشترطت وسميت في كتابي هذا له ، أو غيرت ، أو بدلت ، أو نكثت ، أو غدرت - فبرئت من الله عز وجل ومن ولايته ومن دينه ، ومن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقيت الله سبحانه وتعالى يوم القيامة كافراً مشركاً . وكل امرأة لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً البتة [طلاق] الحرج . وكل مملوك لي اليوم أو أملاكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله تعالى . وعلى المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة ، نذراً وإجباً على وفي عنقي ،

حَاقِبًا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ إِلَّا الْوَفَاءَ بِهِ ، وَكُلُّ مَا لِي هُوَ الْيَوْمَ أَوْ أَمْلِكُهُ
إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَدَى بِالْبَيْعِ الْكُفْبَةِ . وَكُلَّ مَا جَعَلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
أَوْ شَرَطْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لَا زِمَ لِي ، لَا أَضْمِرُ غَيْرَهُ وَلَا أَنْوِي سِوَاهُ .

شَهَدَ فَلَانٌ وَفَلَانٌ ، بِأَسْمَاءِ الشُّهُودِ الْمَقْدَمِ ذِكْرَهُمْ فِي كِتَابِ الْأَمِينِ الْمَبْتَدِئِ بِذِكْرِهِ .
قَالَ الْأَزْرَقِيُّ : وَلَمْ يَزَلْ هَذَانِ الشَّرْطَانِ مَعْلَقَيْنِ فِي جَوْفِ الْكُفْبَةِ حَتَّى مَاتَ
هُرُونُ الرَّشِيدُ ، وَبَعْدَ مَا مَاتَ بِسِتِينَ فِي خِلَافَةِ الْأَمِينِ . فَكَلَّمَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحَجَّيِّ فِي إِتْيَانِهِ بِهِمَا ، فَتَزَعَمَا مِنَ الْكُفْبَةِ وَذَهَبَ بِهِمَا إِلَى بَغْدَادَ ،
فَأَخَذَهُمَا الْفَضْلُ نَحْرَقَهُمَا وَحَرَقَهُمَا بِالنَّارِ .

قُلْتُ : وَعَلَى نَحْوِ مَنْ ذَلِكَ كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّائِي مُوَاصِفَةً بِالصُّلْحِ بَيْنَ
شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، وَصَمَّامِ الدَّوْلَةِ وَشَمْسِ الْمِلَّةِ أَبِي كَالِيجَارَ ،
أَبْنَى عَضِدِ الدَّوْلَةِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهٍ ، فِي النِّصْفِ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ سِتِّ وَسَبْعِينَ
وثلثائة .

وَنَصَّهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

هَذَا مَا اتَّفَقَ وَأَصْطَلَحَ وَتَعَاهَدَ وَتَعَاقَدَ عَلَيْهِ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ ،
وَصَمَّامُ الدَّوْلَةِ أَبُو كَالِيجَارَ أَبْنَا عَضِدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ أَبِي شُجَاعِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ
أَبِي عَلِيٍّ ، مَوْلِيَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لِلَّهِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَأَدَامَ عِزَّهُ وَتَأَيَّدَهُ ،
وَنَصَّرَهُ وَعُلُوَّهُ وَإِذْنَهُ .

إِنْفَعَا وَتَصَالَحَا ، وَتَعَاهَدَا وَتَعَاقَدَا ، عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، وَالْإِعْتِمَادِ
بِحَبْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَالْإِتِّجَاعِ إِلَى حُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَمَعُونَتِهِ ، وَالْإِقْرَارِ بِأَنْفِرَادِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ،
لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مِثْلَ ، وَلَا ضِدَّ وَلَا نِدْبَ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى

آله وسلم تسليما؛ والطاعة لأمر المؤمنين الطائيع لله، والالتزام بوثائق بيعته، وعلائق دعوته؛ والتوازر على موالاة وليه، ومعاداة عدوه؛ وعلى أن يمسكا [ذات] بينهما بالسير الحميدة، والسُنن الرشيدة، التي سنّها لها السلف الصالح من آباؤهما وأجدادهما في التألف والتوازر، والتعاضد والتطافر؛ وتعظيم الأصغر للأكبر، وإشبال^(١) الأكبر على الأصغر؛ والاشتراك في النعم، والتفاوض في الحظوظ والقسم؛ والاتحاد بملوك الطوايا، والخفايا؛ وسلامة الخواطر، وطهارة الضمائر؛ ورفع ما خالف ذلك من أسباب المناقسة، وجرائر المضاعفة؛ وجوالب النبوه، ودواعي الفرقة؛ والإفراق لأعداء الدولة، والإرضاد لهم؛ والاجتماع على دفع كل ناجم، وقمع كل مفاوم؛ وإزغام أنف كل ضار متجبر، وإضراج خد كل متطاويل مستكبر؛ حتى يكون الموالى لأحدهم منصوراً من جماعتهم، والمعادى له مقصوداً من سائر جوانبهم؛ فلا يجد المناذ على أحدهم مفرغاً عند أحد من الباقيين ولا اعتصاماً به، ولا أنجاء إليه؛ لكن يكون مرمياً بجميع سبهم، ومضروباً بأسيايف نعتهم، وماخوذاً بكليّة بأسهم وقوتهم، ومقصوداً بغالب نجدتهم وشدتهم؛ إذ كانت هذه الآداب القويمه، والطرائق السليمه؛ جارية للدولة مجرى الجن الدافعة عنها، والمعاقيل المانعة لها؛ ويمثلها تطمين النعم وتسكن، كما أنّ باضدادها تسمثر وتنفير.

ولما وفق الله تعالى شرف الدولة وزين الملة أبا القوارس، وضمصام الدولة وتتمس الملة أبا كاليبجار أعتقاد هذه الفضائل وإيثارها، والتظاهر بها وأستشعارها؛ ودعاها مولاها الطائيع لله أمير المؤمنين إلى ما دعاها إليه من التعاطف والتألف، والتصافي والتخالص؛ وأمر ضمصام الدولة أبا كاليبجار بمراسلة شرف الدولة

(١) الاشبال العطف والمعونة .

أبي الفوارس في أحكام معاقبة الأخوة، وإبرام وثائق الألفة - أمتثل ذلك وأصغى إليه شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس: أصغى إليه شرف الدولة إصغاء المستوثق المستصيب، وتقبله وتقبل العالم اللبيب؛ وأنفذ إلى باب أمير المؤمنين رسوله أبا نصر نرشيد بن ديار بن مافنة بالمعروف من كفايته، والمشهور من أضطناج الملك السعيد عضد الدولة وتاج الملة رضوان الله عليه له، وإيداعه إياه وديعة الإحسان التي يحق عليه أن يساوي في حفظها بين الجهتين، ويوازي في رعايتها بين كلا الفريقين .

بفرت بين ضمّام الدولة وشمس الملة أبي كالجار وبينه مخاطبات استقرت على أمور أنت المفاوضة عليها، وأثبت منها في هذه المواصفة ما احتجج إلى إثباته منها [أمر] عام للفريقين، وقسمان يختص كل واحد منهما بواحد منهما .

نأما الأمر الذي يجمعهما عمومهما، ويكتنفهما شموله، فهو: أن يتخالص شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس، وضمّام الدولة وشمس الملة أبو كالجار في ذات بينهما، ويتصافيا في سرائر قلوبهما، ويرفضا ما كان جزه عليهما سفهاء الأتباع: من ترك التواصل، واستعمال التقاطع؛ ويرجعا عن وحشة الفرقة، إلى أنس الألفة؛ وعن متقصبة التنافر والتهاجر، إلى متقبية التبار والتلاطف؛ فيكون كل واحد منهما مريدا لصاحبه من الصلاح مثل الذي يريده لنفسه، ومعتقدا في الذب عن بلاده وحدوده مثل الذي يعتقده في الذب عما يختص به؛ وميسرا مثل ما يظهر: من موالاة وليه، ومعاداة عدوه؛ والمرامة لمن راماه، والمصافاة لمن صافاه؛ فان تجم على أحدهما تأجيم، أو راعمه مراغم؛ أو هم به حاسد، أو دلف إليه معاند؛ أتفقا جميعا على مقارنته: قريبا كان أو بعيدا، وترافدا على مدافعته: دانيا كان أو قاصيا؛ وسمح كل منهما لصاحبه عند الحاجة إلى المواساة في ذلك في سائر أحداث الزمان

وَنُوبِهِ ، وَتَصَارِيفِهِ وَغَيْرِهِ ؛ بِمَا يَتَّسِعُ وَيَشْتَمَلُ عَلَيْهِ طَوْقُهُ مِنْ مَالٍ وَعُدَّةٍ ، وَرِجَالٍ وَتَجْدَةٍ ، وَاجْتِهَادٍ وَقُدْرَةٍ ؛ لَا يَفْعَلُ أَحَدٌ مِنْهُمَا عَنْ أُخِيهِ ، وَلَا يَخْتَذِلُهُ وَلَا يُسَلِّمُهُ ، وَلَا يَتْرُكُ نُصْرَتَهُ ، وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْ مُؤَاوَزَتِهِ وَمُظَاهَرَتِهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَسْتَحِيلُ بِهَا النَّبَاتُ : مِنْ أُرْغَابٍ مُرْغَبٍ ، وَحِيلَةٍ مُخْتَالٍ ، وَمُحَاوَلَةٍ مُحَاوِلٍ . وَلَا يَقْبَلُ أَحَدُهُمَا مُسْتَأْمِنًا إِلَيْهِ مِنْ جِهَةٍ صَاحِبِهِ : مِنْ جُنْدِيٍّ ، وَلَا عَامِلٍ ، وَلَا كَاتِبٍ ، وَلَا صَاحِبٍ ، وَلَا مُتَصَرِّفٍ فِي وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ التَّصَرِّفَاتِ كُلِّهَا ؛ وَلَا يُجِيرُ عَلَيْهِ هَارِبًا ، وَلَا يَعْصِمُ مِنْهُ مُوَارِبًا ؛ وَلَا يَتَطَرَّفُ لَهُ حَسَدًا ، وَلَا يَتَّخِيفُهُ حَقًّا ، وَلَا يَهْتِكُ لَهُ حَرِيمًا ، وَلَا يَتَنَاوَلُ مِنْهُ طَوْقًا ، وَلَا يُخَيِّفُ لَهُ سَيْلًا ، وَلَا يَتَسَبَّبُ إِلَى ذَلِكَ بِسَبَبٍ بَاطِنٍ ، وَلَا بِأَعْتِلَالٍ ظَاهِرٍ ؛ وَلَا يَدْعُ مُوَاقَفَتَهُ ، وَمُلَاءَمَتَهُ ، وَمُعَاوَنَتَهُ وَمُظَافَرَتَهُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ، وَسِرٍّ وَجَهْرٍ ، عَلَى سَائِرِ الْجِهَاتِ ، وَتَصَرُّفِ الْحَالَاتِ ، وَوُجُوهِ التَّأْوِيلَاتِ . يَلْتَرُمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذَلِكَ لِصَاحِبِهِ آتِرَامًا عَلَى التَّمَائِلِ وَالتَّعَادُلِ ، وَالتَّوَازِيِ وَالتَّقَابُلِ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي يَخْتَصُّ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ الْمِلَّةِ بِهِ ، وَيَلْتَرِمُهُ صَّمْصَامُ الدَّوْلَةِ وَتَشْمُسُ الْمِلَّةِ لَهُ ، فَهُوَ أَنْ يُقَدِّمَهُ صَّمْصَامُ الدَّوْلَةِ وَتَشْمُسُ الْمِلَّةِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيُعْطِيَهُ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ فَضْلِ سِنِّهِ ، وَيُطِيعَهُ فِي كُلِّ مَا أَفَادَ الدَّوْلَةَ الْجَامِعَةَ لَهَا صَلَاحًا ، وَهَاضَ مِنْ عَدُوِّهَا جَنَاحًا ؛ وَعَادَ عَلَى وَلِيِّهَا بَعِزًّا ، وَعَلَى عَدُوِّهَا بِذُلًّا ؛ وَأَنْ يُقِيمَ صَّمْصَامُ الدَّوْلَةِ الدَّعْوَةَ عَلَى مَنَابِرِ مَا فِي يَدِهِ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ ، الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا حُقُوقُهُ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمَا حُدُودُهُ ، لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ لَشَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، ثُمَّ لِنَفْسِهِ . وَيُجْرَى الْأَمْرُ فِي تَقْشِيرِ سِكَكِ دُورِ الضَّرْبِ الَّتِي يُطْبَعُ بِهَا الدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ عَلَى الْمِثَالِ . وَيُوفَّى صَّمْصَامُ الدَّوْلَةِ وَتَشْمُسُ الْمِلَّةِ أَبُو كَالِبِجَارَ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ الْمِلَّةِ أَبَا الْفَوَارِسِ فِي الْمَكْتَابَاتِ

والمخاطبات حَقَّ التَّعْظِيمِ ، وَشِعَارَ التَّنْفِيحِ ، عَلَى التَّقْرِيرِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خُرَشِيدِ بْنِ دِيَارِ
ابن مَافِنَةَ فِي ذَلِكَ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي يَخْتَصُّ صَمْنَصَامُ الدَّوْلَةَ وَتَمَسُّ الْمِلَّةَ أَبُو كَالِيجَارَ بِهِ ، وَيَلْتَزِمُهُ
شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ لَهُ ، فَهُوَ تَرَكَّ التَّعْرِضِ لِسَائِرِ مَمَالِكِهِ ، وَمَا يَتَّصِلُ
بِهَا مِنْ حُدُودِهَا الْجَارِيَةِ مَعَهَا ، وَالْإِفْرَاجِ مِنْهَا عَمَّا يُوَدُّهُ وَيُسْرِعُ إِلَيْهِ أَصْحَابُ
شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ ، وَتَجَنَّبُ التَّحْفِيفَ لَهَا أَوْ لَشَيْءٍ مِنَ الْحَقُوقِ الْوَاجِبَةِ فِيهَا ،
وَمُرَاعَاتِهِ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يَخْتَاجُ فِيهَا إِلَى نَظَرِهِ وَطَوَّلِهِ ، وَإِجْمَالِهِ وَفَضْلِهِ ، وَمَا يَجِبُ
عَلَى الْأَخِ الْأَكْبَرَ مِرَاعَاةَ أَخِيهِ وَتَالِيَهُ فِيهِ ، مِمَّا ثَبَّتَتْ فِي هَذِهِ الْمُواصَفَةِ جُمْلَتَهُ ،
وَأَشْتَمَلَتْ الْمَفَاوِضَةَ مَعَ خُورَشِيدِ بْنِ دِيَارِ بْنِ مَافِنَةَ عَلَى تَفْصِيلِهِ .

أَتَّفَقَ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ ، وَصَمْنَصَامُ الدَّوْلَةَ وَتَمَسُّ الْمِلَّةَ
أَبُو كَالِيجَارَ ، بِأَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لِلَّهِ ، وَعَلَى الْأَخْتِيَارِ مِنْهُمَا ، وَالْأَنْشِرَاجِ مِنْ
صُدُورِهِمَا ، مِنْ غَيْرِ إِكْرَاهٍ وَلَا إِجْبَارٍ ، وَلَا أَضْطِرَّارٍ وَلَا أَضْطِرَّارٍ - عَلَى الرِّضَا بِذَلِكَ
كُلَّهُ ، وَالْإِتْرَامِ لَهُ ، وَيَصِيرُ جَمِيعُهُ عَهْدًا مَرْجُوعًا إِلَيْهِ ، وَعَقْدًا مَعْمُولًا عَلَيْهِ ، وَحَلْفَ
كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى مَا يَلْتَزِمُهُ مِنْ ذَلِكَ تَمَيُّنًا عَقْدَهَا بَانَ يَحْلِفُ صَاحِبُهَا بِمَثَلِهَا ، عَلَى مَا يَلْتَزِمُهُ
مِنْهُ . فَقَالَ صَمْنَصَامُ الدَّوْلَةَ : وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ (وَيَسْتَمُ الْيَمِينِ) .

النوع الثاني

(مما يجري عقْد الصلح فيه بين ملكين مسلمين -

ما يكونُ العقْد فيه من جانب واحد)

وللكتاب فيه مذهبان :

المذهب الأول

(أن يُفتحَ عقْد الصلح بلفظ : « هذا » كما في النوع السابق)

وهذه نسخةُ عقْد صلح من ذلك ، كتب بها أبو إسحق الصّابي ، بين الوزير
أبي نصر سابور بن أزدشير ، والشّريفين : أبي أحمد الحسين بن موسى ، وأبي الحسين
محمد ابنه الرضّى ، بما انعقد من الصلح والضمير بين الوزير المذكور ، وبين النقيب
أبي أحمد الحسين وولده محمد ، حين تزوج ابنه محمد المذكور بنت سابور المذكور ،
وجعله على نسختين ، لكل جانب نسخة ، بعد البسملة ماضورته :

هذا كتاب لسابور بن أزدشير ، كتبه له الحسين بن موسى الموسوي ، وولده
محمد بن الحسين الموسوي .

إنا وإياك - عند ما وصله الله بيننا من الصّبر والخلطة ، ووشّجه من الحال
والمودة - آثرنا أن ننعقد بيننا وبينك ميثاقاً مؤكداً ، وعهداً مجتهداً ؛ تسكن النفوس
إليهما ، وتطمئن القلوب معهما ؛ وترداد الألفه بهما على مرّ الأيام ، وتعاقب الأعوام ؛
ويكون ذلك أصلاً مستقراً نرجع جميعاً إليه ، ونعوّل ونعتمد عليه ؛ ونتوارثه أعقابنا ،
ونتبعنا فيه أخلاقنا .

فأعطيناك عهد الله وميثاقه ، وما أخذته على أنبيائه المرسلين ، وملائكته المقرّين ،
صلى الله عليهم أجمعين ؛ عن صدورٍ مُنشرحه ، وآمالٍ في الصّلاح مُنقّسحه - أنا

تُخْلِصُ لَكَ جَمِيعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا إِخْلَاصًا صَحِيحًا يُشَاكِلُ ظَاهِرُهُ بَاطِنَهُ ، وَيُؤَافِقُ
خَافِيَهُ عَالِنَهُ ، وَأَنَا نُؤَالِي أَوْلِيَاءَكَ ، وَنُعَادِي أَعْدَاءَكَ ، وَنِصَلُ مِنْ وَصَلِكَ ، وَنَقْطَعُ مِنْ
قَطْعِكَ ، وَنَكُونُ مَعَكَ فِي نَوَائِبِ الزَّمَانِ وَشِدَائِدِهِ ، وَفِي فَوَائِدِهِ وَعَوَائِدِهِ ؛ وَصَمِيمًا لَكَ
صَمِيمًا شَهِدَ اللَّهُ بَلْزُومِهِ لَنَا ، وَوُجُوبِهِ عَلَيْنَا . وَأَنَا نَصُونُ الْكَرِيمَةَ عَلَيْنَا ، الْأَثِيرَةَ عِنْدَنَا ،
فُلَانَةَ بِنْتِ فُلَانٍ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهَا - الْمُسْتَقَلَّةَ إِلَيْنَا ؛ كَمَا تَصَانُ الْعُيُونُ بِجُفُونِهَا ،
وَالْقُلُوبُ بِسِغَافِهَا ؛ وَتُجْرِيهَا مُجْرَى كَرَامَتِ حُرْمِنَا ، وَنَفَائِسِ بَنَاتِنَا ، وَمَنْ تَضَمَّهُ
مَنَازِلُنَا وَأَوْطَانُنَا ؛ وَتَنَاهَى فِي إِجْلَالِهَا وَإِعْظَامِهَا ، وَالتَّوَسُّعِ عَلَيْهَا فِي مَرَاغِدِ عَيْشِهَا ،
وَعَوَارِضِ أَوْطَارِهَا ، وَسَائِرِ مُمُونِهَا وَمُؤْنِ أَسْبَابِهَا ، وَالتَّهْوُوسِ وَالْوَفَاءِ بِالْحَقِّ الَّذِي أَوْجَبَهُ
اللَّهُ عَلَيْنَا لَهَا وَلَكَ فِيهَا ؛ فَلَا تُعْذِمُ شَيْئًا أَلْفَتَهُ : مِنْ إِشْبَالِ عَلَيْهَا ، وَإِحْسَانِ إِلَيْهَا ،
وَدَبِّ عَنْهَا ، وَمُحَامَاةِ دُونِهَا ، وَتَعَهُّدِ لِمَسَارِهَا ، وَتَوَخُّحِ لِمَحَابَّتِهَا ؛ وَنَكُونُ جَمِيعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ
مِنَّا مُقِيمِينَ لَكَ وَلَهَا عَلَى جَمِيعِ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ فِي حَيَاتِكَ - أَطَالَهَا اللَّهُ -
وَبَعْدَ الْوَفَاةِ إِنْ تَقَدَّمْتَنَا ، وَحُوشِيَتِ مِنَ السُّوءِ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ، وَأَحْوَالِكَ أَجْمَعِهَا .
ثُمَّ إِنَا نَقُولُ - وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا ، طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ ، غَيْرِ مُكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ،
بَعْدَ تَمَامِ هَذَا الْعَقْدِ بَيْنَنَا وَبَيْنِكَ ، وَلِزُومِهِ لَنَا وَلَكَ - : وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ الطَّالِبُ الْغَالِبُ ، الْمُدْرِكُ الْمُهْلِكُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، الْمُطْلِعُ عَلَى السَّرَائِرِ ، الْمُحِيطُ
بِمَا فِي الضَّمَائِرِ ، الَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . وَحَقَّ عَهْدُ النَّبِيِّ ،
وَعَلَى الرِّضَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ وَشَرَّفَ ذِكْرَهُمَا ، وَسَادَتْنَا الْأَيُّمَةُ الطَّيِّبِينَ ،
الطَّاهِرِينَ ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . وَحَقَّ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ، وَمَا أُنزِلَ فِيهِ مِنْ تَحْلِيلِ
وَتَحْرِيمِ ؛ وَوَعْدِ وَوَعِيدِ ، وَتَرْغِيبِ وَتَرْهيبِ ؛ لِنَفِيٍّ لَكَ يَا سَابُورُ بْنُ أَزْدِشِيرِ ،
وَالْكَرِيمَةِ الْأَثِيرَةِ أَبْنَتِكَ فُلَانَةَ - أَحْسَنَ اللَّهُ رِعَايَتَهَا - بِجَمِيعِ مَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْكِتَابُ ،
وَفَاءً صَحِيحًا ، وَلِنَلْتَرَمَنَّ لَكَ وَلَهَا شَرَائِطَهُ وَوَنَائِقَهُ ، فَلَا نَقْصَحُهَا ، وَلَا نَنْقُضُهَا ،

ولا تَتَّبِعْمَهَا ، ولا تَتَّعَبُهَا ، ولا تَأْكُلْ فِيهَا ، ولا تَزُولْ عَنْهَا ، ولا نَلْتَمِسُ مَخْرَجًا وَلَا مَخْلَصًا مِنْهَا ، حَتَّى يَجْعَمَنَا الْمَوْقِفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ، وَالْمَقْدَمُ عَلَى رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَنَحْنُ يَوْمَئِذٍ نَابِتَانِ عَلَيْهَا ، وَمُؤَدِّيَانِ لِلْأَمَانَةِ فِيهَا ، أَدَاءً يَشْهَدُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَمَلَائِكَتُهُ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، وَيُحَاسَبُ الْعِبَادُ . فَإِنْ نَحْنُ أَخْلَلْنَا بِذَلِكَ أَوْ بَشَيْءٍ مِنْهُ ، أَوْ تَأَوْلْنَا فِيهِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ، أَوْ أَضْمَرْنَا خِلَافَ مَا تُظْهِرُ ، أَوْ أَسْرَرْنَا ضِدَّ مَا نُعْلِنُ ، أَوْ أَلْتَمَسْنَا طَرِيقًا إِلَى تَقْضِيهِ ، أَوْ سَبِيلًا إِلَى فُسْخِيهِ ، أَوْ أَلْمَنَّا بِإِخْفَارِ ذِمَّةٍ مِنْ ذِمَّتِهِ ، أَوْ أَتَهَكَّ حُرْمَةً مِنْ حُرْمِهِ ، أَوْ حَلَّلَ عِصْمَةً مِنْ عِصْمِهِ ، أَوْ أَبْطَلَّ شَرْطَ مِنْ شُرُوطِهِ ، أَوْ تَجَاوَزَ حَدًّا مِنْ حَدُودِهِ - فالذي يفعل ذلك مِنَّا يَوْمَ يَفْعَلُهُ أَوْ يَعْتَقِدُهُ ، وَحِينَ يَدْخُلُ فِيهِ وَيَسْتَجِيرُهُ - بَرِيءٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ ، وَمَنْ نُبُوَّةَ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ، وَمَنْ وِلَايَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ ، وَمَنْ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ الْعَظِيمَ ، وَمَنْ دِينَ اللَّهِ الصَّحِيحَ الْقَوِيمَ ، وَلَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْعَرْضِ عَلَيْهِ ، وَالْوُقُوفَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُوَ بِهِ - سَبَّحَانَهُ - مُشْرِكٌ ، وَلرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَالِفٌ ، وَالْأَهْلَ بَيْتِهِ مُعَادٍ ، وَالْأَعْدَاءَ مِنْهُمْ مُوَالٍ ، وَعَلَيْهِ الْحَجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الْعَتِيقِ الَّذِي بِمَكَّةَ : رَاجِعًا ، حَافِيًا ، حَاسِرًا ، وَإِمَائِهِ عَوَاتِقَ ، وَنِسَائِهِ طَوَالِقَ ، طَلَّاقَ الْحَرْجِ وَالسُّنَّةِ ، لَارِجَعَةَ فِيهِ وَلَا مَثْنُوِيَّةَ ، وَأَمْوَالَهُ - عَلَى آخْتِلَافٍ أَصْنَافِهَا - مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِ ، وَخَارِجَةٌ عَنْ يَدَيْهِ ، وَحَبِيسَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَبَرَاهُ اللَّهُ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَأَبْلَاهُ إِلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ .

وهذه اليمين لازمة لنا ، وقد أطلق كل واحد منا بها لسانه ، وعقد عليها ضميره ، والنية في جميعها نية فلان بـ فلان ، لا يقبل الله من كل واحد منا إلا الوفاء بها ، والثبات عليها ، والألتزام بشروطها ، والوقوف على حدودها ، وكفى بالله شديدا ، وجازيا لعباده ومثيبا . وذلك في يوم كذا ، من شهر كذا ، من سنة كذا .

المذهب الثاني

(أن يُفْتَحَ عَقْدُ الصُّلْحِ بِمُخْطَبَةٍ مُفْتَتِحَةٍ بِـ «الْحَمْدُ لِلَّهِ» وَرُبَّمَا كُرِّرَ فِيهَا
التَّحْمِيدُ إِعْلَامًا بِعَظِيمِ مَوْجِعِ النِّعْمَةِ)

وهذه نُسخةُ عَقْدِ صُلْحِ كَتَبَ بِهَا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ بَعْضِ الْأَمْرَاءِ

(١) لمن كان

وَنَصَّهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي "كِتَابِ الْبَلَاغَةِ" فِي التَّرْسُلِ ، بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْعِبَادَ بِقُدْرَتِهِ ، وَكَوَّنَ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ ، وَصَرَّفَهَا عَلَى إِرَادَتِهِ .
لَمْ يَلْطَفْ عَنْهُ خَفِيٌّ ، وَلَا آمَتَّعَ عَنْهُ قَوِيٌّ ؛ أَبْتَدَعَ الْخَلَائِقَ عَلَى آخْتِلَافِ فِطْرَتِهَا ،
وَتَبَايُنِ صُورَتِهَا ، مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ أَحْتِزَاهُ ، وَلَا رَسْمٍ آفْتَقَاهُ ؛ وَأَيْدَهُمُ بِنِعْمَتِهِ ، فِيمَا رَكِبَهُ
فِيهِمْ مِنَ الْأَدْوَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ ، النَّاطِقَةِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ؛ وَآكْتَفَوْا بِالْمَعْرِفَةِ بِهِ
- جَلَّ جَلَالُهُ - بِحَبْرِ الْعُقُولِ ، وَشَهَادَةِ الْأَفْهَامِ . ثُمَّ اسْتَظْهَرُوا لِحُجَّتِهِ فِي التَّبَصُّرِ ، وَغَلِبَهُمْ
فِي الْحُجَّةِ ؛ بِرُسُلٍ أَرْسَلَهَا ، وَأَيَاتٍ بَيَّنَّا ؛ وَمَعَالِمٍ أَوْصَحَّهَا ، وَمَنَارَاتٍ لِمَسَالِكِ الْحَقِّ
رَفَعَهَا ؛ وَشَرَعَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا وَأَرْضِيَاءَ وَأَصْطَفَاهُ ، وَقَضَّاهُ وَأَجْتَبَاهُ ، وَشَرَّفَهُ
وَأَعْلَاهُ ؛ وَجَعَلَهُ مُهَيْمِنًا عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَقَدَّرَ الْعِزَّ لِحِزْبِهِ وَأَهْلِهِ ؛ فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ :
(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)
وَأَيْدَهُ بِأَنْبِيَائِهِ الدَّاعِينَ إِلَيْهِ ، وَالنَّاهِيينَ لَطُرُقِهِ ، وَالْمَهَادِينَ لِفَرَائِضِهِ ، وَالْمُخْبِرِينَ عَنْ
شَرَائِعِهِ ؛ قَرَنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَأُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، فِي فِتْرَةٍ بَعْدَ فِتْرَةٍ ، وَبَيْنَهُ بَعْدَ بَيْنِهِ ؛ حَتَّى
أَتَتْهُ تَقْدِيرُهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنْ بَعَثَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ، الْقَاضِلَ الزَّكِيَّ ؛ الَّذِي قَفَى بِهِ
عَلَى الرُّسُلِ ، وَنَسَخَ بِشَرِيْعَتِهِ شَرَائِعَ الْمَلَلِ ، وَبَيَّنَّه أَدْيَانَ الْأُمَمِ ؛ عَلَى حِينِ تَرَاخِي

(١) بياض بالأصل .

فتره ، وترامى حيره ؛ فأبأخ^(١) به نيران الفتن بعد اضطرامها ، وأضاء به سبيل الرشاد بعد إظلامها ؛ على علم منه - تعالى ذكره - بما وجدته عنده من النهوض بأعباء الرسالة ، والقيام بأداء الأمانة ؛ فأزاح بذلك العلة ، وقطع المغذرة ؛ ولم يبق للشاك موضع شبهة ، ولا للعائيد دعوى مموهة ؛ حتى مضى حميدا تشهد له آثاره ، وتقوم بتأييد سنته أخباره ؛ قد خلف في أمته ، ما أصارهم به إلى عطف الله ورحمته ، والنجاة من عقابه وتخطئه ؛ إلا من شقى بسوء اختياره ، وحرم الرشاد بخذلانه ؛ صلى الله عليه وعلى آله الطيبين أفضل صلاة وأتمها ، وأوفاه وأعمها .

والحمد لله الذي خص سيدنا الأمير بالتوفيق وتوحيده بالإرشاد والتسيد ؛ في جميع أبحاثه ، ومواقع آرائه ؛ وجعل همته (إذ كانت الهمم منصرفة إلى هشيم الدنيا وزخارفها ، التي يتعلل بها الأبناء وتدعوها إلى نفسها) ، مقصورة على ما يجمع له رضا ربه ، وسلامة دينه ؛ واستقامة أمور مملكته ، وصلاح أحوال رعيته ؛ وأيده في هذه الحال المعارضه ، والشبهة الواقعة ؛ التي تحار في مثلها الآراء ، وتضطرب الأهواء ؛ وتتنازع خواطر النفوس ، وتفتلج وساوس الصدور ؛ ويخفى موقع الصواب ، ويشكل منهج الصلاح - بما اختار له من السلم والمواضع ، والصالح والمواقف ؛ الذي أخبر الله تعالى في كتابه على فضله ، والخير الذي في ضمنه ، بقوله جل وعز : ﴿ والصالح خير ﴾ وقوله جل ذكره : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ حتى أصبح السيف مغمودا ، ورواق الأمن ممدودا ؛ والأهواء متفقه ، والقلوب مؤتلفه ، والكلمة مجتمعة ؛ ونيران الفتن والضلالة خامده ، وظنون بغاتها والساعين لها كاذبه ، وطبقات الاولياء والرعية - بما أعيد إليهم من

(١) أى سكنها وأطفأها .

الْأَمْنَةَ تُعَقِّبُ الْخَيْفَةَ، وَالْأَيْسَةَ مِنْ بَعْدِ الْوَحْشَةِ - مُسْتَبْشِرَةً؛ وَإِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -
 فِي إِطَالَةِ بَقَاءِ الْأَمِيرِ وَإِدَامَةِ دَوْلَتِهِ، وَحِرَاسَةِ نِعْمَتِهِ وَتَثْبِيثِ وَطْأَتِهِ - رَاغِبِينَ،
 وَفِي مُسَالَمَتِهِ مُخْلِصِينَ . وَلَوْ لَمْ يَكُنِ السَّلْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَأْمُورًا بِهِ، وَالصُّلْحُ مُخْبَرًا عَنْ
 الْخَيْرِ الَّذِي فِيهِ؛ لَكَانَ فِيهَا يَنْتَظِمُ بِهِ : مِنْ حَقَنِ الدَّمَاءِ، وَسُكُونِ الدَّهْمَاءِ؛ وَيَجْمَعُ
 مِنَ الْخِلَالِ الْمَحْمُودَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَمْدُودَةِ، الْمُقَدَّمِ ذِكْرُهَا - مَا حَادَا عَلَيْهِ، وَمَثَلٌ
 لِلْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْآرَاءِ الصَّحِيحَةِ مَوْضِعَ الْخَيْرِ فِيهِ، وَحُسْنِ الْعَائِدَةِ عَلَى الْخِصَّصِ
 وَالْعَامِّ بِهِ؛ فِيمَا يَتَجَلَّى لِلْعُيُونِ، مِنْ مَشْتَبِهَاتِ الظُّنُونِ، إِذَ الدِّينُ وَاقْبَعُ، وَالشُّكُّ جَانِحٌ
 بَيْنَ الْحَقِّ وَالْمُبْطِلِ، وَالْخَائِرِ وَالْمُقْسِطِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ تَسَاوُهُ : ﴿ وَلَوْ لَا رِجَالٌ
 مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّشُّوهُمْ فَضِيحِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ نَاطِرًا
 لِلْمَسْلُومِينَ مِنْ مَعْرَةٍ أَوْ مَضَرَّةٍ تَلْحَقُ بَعْضَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ وَمُؤَثِّرًا تَطْهِيرَهُمْ مِنْ ظَنِّ
 الْعُدْوَانِ، مَعَ رَفْعِهِ عَنْهُمْ فَرَطَاتِ النَّسِيَانِ، وَكَأَفَا أَيْدِي الْمَسْلُومِينَ عَنِ الْمَشْرُوكِينَ،
 كَمَا كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْمَسْلُومِينَ؛ تَحَنُّنًا عَلَى بَرِيَّتِهِ، وَإِبْقَاءً عَلَى أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ؛ إِلَى أَنْ
 يَتِمَّ لَهُمُ الْمِيقَاتُ الَّذِي أَدْنَاهُ، وَالْأَمْرُ الَّذِي أَمْضَاهُ، وَمَوْقِعُ الْحَمْدِ فِي عَاقِبَتِهِ، وَالسَّلَامَةُ
 فِي خَاتِمَتِهِ . وَبَلَّغَهُمْ مِنْ غَايَةِ الْبَقَاءِ أَمَدَهَا، وَمِنْ مَرَافِقِ الْعَيْشِ أَرْغَدَهَا، مَقْصُورَةً
 أَيْدِي النَّوَائِبِ عَمَّا خَوْلَهُ، وَمَعْصُومَةً أَعْيُنُ الْحَوَادِثِ عَمَّا نَوَّلَهُ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ مَاجِدٌ .

قُلْتُ : وَعَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ كُتِبَ عَتَمَدُ الصُّلْحِ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ
 أَبِي السَّعَادَاتِ «فَرَج» بْنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوق»، وَبَيْنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ
 النُّطْبِيِّ تَيْمُورْ كُورْكَانِ صَاحِبِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ، بَعْدَ طُرُوقِهِ الشَّامَ وَفَتْحِهِ دِمَشْقَ
 وَتَحْرِيقِهَا وَتَحْرِيبِهَا، وَإِرْسَالِ كِتَابِهِ فِي مَعْنَى طَلَبِ الصُّلْحِ، وَإِرْسَالِ الْأَمِيرِ أَطْلَمِشِ
 لَزِمَهُ، الْمَأْسُورِ فِي الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ «بَرْقُوق» صَحْبَةَ الْخَوَاجَا نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ
 الْكُجْجَانِي . جُهِّزَ ذَلِكَ إِلَيْهِ قَرَيْنَ كِتَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ صَحْبَةَ الْخَوَاجَا

مسعود المذكور، والأمير شهاب الدين بن أغلبك، والأمير قانبيه، في جمادى الأولى سنة خمس وثمانمائة، بإشارة المقرّ الفتحى صاحب ديوان الإنشاء الشريف، من إنشاء الشيخ زين الدين طاهر، ابن الشيخ بدر الدين حبيب الحلبي، أحد كتّاب الدست الشريف بالأبواب السلطانية، وهو مكتوب في قطع... (١) ... بقلم... (١) ... وفي طرته ما صورته :

« مرقوم شريف جليل عظيم، مبجل مكرم جميل نظيم، مشتمل على عقد صالح أفتحه المقام الشريف، العالى، القطبي، نصره الدين، تيمور كوركان، زيدت عظمته، يكون بينه وبين المقام الشريف، السلطان، المالك، الملك الناصر أبي السعادات « فرج » بن السلطان الشهيد، الملك الظاهر أبي سعيد « برفوق » خادم الحرمين الشريفين، خلد الله تعالى ملكه . انعقد بمباشرة السفير عن المقام الشريف القطبي، المشار إليه وويكله في ذلك، الخواجا نظام الدين مسعود الكججاني، بشهادة من حضر صحبته من العُدول بالتوكيل المذكور، على حكم إشارة مرسله إليه ومضمون مكاتبتيه، وقصده تجهيز الأمير أطمش لزمه . وحلف المقام القطبي على الموافاة والمصافاة، واتحاد المملكتين، وإجراء الأمور على السداد، وعمل مصالح العباد والبلاد .

والبياض ثلاثة أوصال بوصل الطرة، والبسملة في أول الوصل الرابع بهامش عن يمينها، وتحت البسملة سطر، ثم بيت العلامة، والسطر الثاني بعد بيت العلامة . والعلامة بجليل التثني بالذهب ما صورته : « الله أملي » .

وُنُسَخَةُ الْمَكْتُوبِ بَعْدَ الْبِسْمَلَةِ مَا صُورَتْهُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الصُّلْحَ خَيْرَ مَا أُنْعَمَتْ عَلَيْهِ الْمَصَالِحُ ، وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ
أَوْلَىٰ مَا أَتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الْمَنَاجِحِ ، وَأَحَقُّ مَا نَطَقَتْ بِهِ أَلْسُنُ الْحَامِدِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ
أَفْوَاهُ الْمَدَائِحِ .

تَحْمَدُهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ الَّتِي جَمَعَتْ أَشْنَاتَ الْقُلُوبِ الطَّوَانِحِ ، وَأَضَافَتْ إِلَىٰ ضِيَاءِ الشَّمْسِ
نُورَ الْقَمَرِ فَاهْتَدَىٰ بَهْمَا كُلُّ غَايِدٍ وَرَائِحٍ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
شَهَادَةً تَبْلُغُ قَائِلَهَا أَهْنَىٰ الْمَنَاجِحِ ، وَتُعَطِّرُ مَجَالِسَ الذِّكْرِ بِعَرَفِ رِوَايَحِهَا الرِّوَانِحِ ، وَنَشْهَدُ
أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ مَنْ آتَىٰ بَيْنَ الْمُتَحَاكِمِينَ فَنُصِّحَ اللَّهُ وَرَأَىٰ الصُّلْحَ مِنْ
أَعْظَمِ النَّصَائِحِ ، وَأَكْبَلُ رَسُولِ أَنْقَادَتْ لِأَخْلَاقِهِ الرُّضِيَّةِ ، وَصِفَاتِهِ الْمُرِضِيَّةِ ، جِوَانِحِ
النُّفُوسِ الْجِوَانِحِ ، وَسَلَّمٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَىٰ مَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ آرَاءُ أَوْلِي الْأَثْبَابِ ، وَرَكَعَتْ إِلَيْهِ قُلُوبُ ذَوِي
الْمَعْرِفَةِ مِنْ أَهْلِ الْمَوَدَّةِ وَالْأَحْبَابِ - آيْتِلَافُ الْقُلُوبِ بَعْدَ اخْتِلَافِهَا ، وَأَتَّصَفُهَا
بِاتِّلَافِهَا بِأَحْسَنِ أَوْصَافِهَا ؛ وَالْعَمَلُ عَلَى الصُّلْحِ الَّذِي هُوَ أَصْلَحُ لِلنَّاسِ ، وَأَرْجَحُ
مَتَاحِرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَدْفَعُ لِلْيَأْسِ وَالْبَاسِ ؛ إِذْ هُوَ مِفْتَاحُ أَبْوَابِ الْخَيْرَاتِ الشَّامِلَةِ ،
وَمِصْبَاحُ مَنَهِجِ الْفِكْرِ الصَّحِيحَةِ الْكَامِلَةِ ؛ وَالذَّاعِي إِلَى كُلِّ فِعْلٍ جَمِيلٍ ، وَالسَّاعِي
بِكُلِّ قَوْلٍ هُوَ شِفَاءُ صَدَى الْغَلِيلِ وَنَجَاةٌ مِنْ دَاءِ الْغَلِيلِ .

وَمَا كَانَ الْمَقَامُ الشَّرِيفُ ، الْعَالِي ، الْكَبِيرِيُّ ، الْعَالِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْمُؤَيَّدِيُّ ،
الْمُظْفَرِيُّ ، الْمُلْجِيُّ ، الْمَلَاذِيُّ ، الْوَالِدِيُّ ، الْقُطْبِيُّ ؛ نُصْرَةُ الدِّينِ ، مَلْجَأُ الْقَاصِدِينَ ،
مَلَأْدُ الْعَائِدِينَ ، قُطْبُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، تَيْمُورُ كُورِ كَانٍ ، زِيدَتْ عَظْمَتُهُ -
هُوَ الْبَادِي بِأَحْيَاءِ هَذِهِ السَّنَةِ الْحَسَنَةِ ، وَالْحَادِي إِلَى الْعَمَلِ بِمُقْتَضَى مُفَاوَضَتِهِ الشَّرِيفَةِ

التي هي لذلك متضمنه ، الواردة إلى حضرة عبد الله ووليه ، السلطان المالك ،
 الملك الناصر ، زين الدنيا والدين ، أبي السعادات « فرج » بن السلطان الشهيد
 الملك الظاهر ، أبي سعيد « برقوق » خادم الحرمين الشريفين - خلد الله تعالى
 ملكه - على يد سفير حضرته ، المجلس السامي ، الشيخ ، النظامي ، مسعود
 الكججاني ، المؤرخة بمسئل شهر ربيع الأول سنة تاريخه .

وجل مضمونها ، وسر مكنونها - قصد إيقاع الصلح الشريف بين المشار
 إليهما ، ونسج المودة والمحبة والمصادقة بينهما ، وإنسبال رداء محاسنها عليهما ،
 بمتنقى تفويض المقام الشريف القطبي المشار إليه الأمر في الصلح المذكور إلى
 الشيخ نظام الدين مسعود المذكور ، وتوكيله إياه فيه ، وإقامته مقام نفسه الشريفة ،
 وجعل قوله من قوله ، وأنه - عظم الله تعالى شأنه - أشهد الله العظيم عليه بذلك ،
 وأشهد عليه من يصع خطه من جماعته المجهزين صيحة الشيخ نظام الدين مسعود
 المذكور ، وهما : الشيخ بدر الدين أحمد بن الشيخ الإمام العالم شمس الدين محمد بن
 الجزري الشافعي ، والصدر الأجل كمال الدين كمال أغا ، وأن ذلك صدر عن المقام
 الشريف القطبي المشار إليه ، موافقته على الصلح الشريف ، وإجابة القصد فيه
 بإطلاق الأمير أطلش لزم المقام القطبي المشار إليه ، وتجهيزه إلى حضرته العلية ،
 وأنه عاهد الله عز وجل بحضور جم غفير من أمراء دولته وأكابرها ، ومن حضر
 مجلسه ، باليمين الشرعية الجامعة لأشتات الخلف : بالله الذي لا إله إلا هو رب البرية
 وبأرى النسم ، على ذلك جميعه ، وعلى أنه لا يدخل إلى البلاد الداخلة في مملكة
 مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه ، وأنه مهما عاهد وصالح وعاهد عليه الشيخ
 نظام الدين مسعود الوكيل المذكور يقضى به المقام القطبي المشار إليه ، ويمضيه
 ويرتضيه . وأنفصل الأمر على ذلك .

فبعد ما وقف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - على المكتبة الشريفة المشار إليها، وتفهم مضمونها، ورأى أن المصلحة في الصلح: تبرُّكاً بما ورد في كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم - استخار الله عز وجل، وأمر بتجهيز الأمير أطمش المذكور، وتسليمه للشيخ نظام الدين مسعود المذكور، وأذن لها في التوجه إلى حضرة المقام الشريف القطبي المشار إليه: بموافقة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله - أدام الله تعالى أيامه - على ذلك، وحضور الشيخ الإمام الفرد الأوحدي، شيخ الإسلام، سراج الدين، عمر البلقيني - أعاد الله تعالى على المسلمين من بركاته - وقضاة القضاة الحكام - أعز الله تعالى أحكامهم - ومشايخ العلم الشريف والصلاح، وأركان الدولة الشريفة، ومن يضع خطه في هذا الصلح الشريف بالشهادة بمضمونه .

وعقد الصلح الشريف بين مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله تعالى ملكه - وبين الشيخ نظام الدين مسعود الوكيل المذكور عن المقام الشريف القطبي المشار إليه - زيدت عظمته - على حكم مضمون مفاوضته الشريفة المقدم كرها، وما قامت به البينة الشرعية، بشهادة العدلين المذكورين الواصلين صحبة الوكيل المذكور بالتوكيل المشروح فيه، فكان صلحاً صحيحاً شرعياً، تاماً كاملاً معتبراً مرضياً، على أحسن الأمور وأجملها، وأفضل الأحوال وأكملها .

وحلف مولانا السلطان الملك الناصر المشار إليه - خلد الله ملكه - وعاهد الله عز وجل نظير ما حلف وعاهد عليه المقام الشريف القطبي المشار إليه من القول والعمل، واستقرت بمشيئة الله تعالى الخواطر، وسرت القلوب وقرت النواظر؛ بما في ذلك من حفظ ذمام العهود الشريفه، وإقامة منار الشرع الشريف وأمتداد

ظلالِ أعلامِهِ الْوَرِيْقَةِ ؛ وَإِجْرَاءِ كَلِمَةِ الصَّدِيقِ ، عَلَى لِسَانِ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَصَوْنِ
أَمَانَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَشِعَارِ دِينِهِ بَيْنَ الْخَلْقِ ؛ فَلَا يَتَغَيَّرُ عَقْدُ هَذَا الصُّلْحِ الشَّرِيفِ
عَلَى مَدَى اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، وَلَا يَنْقُضِي حُكْمُهُ وَلَا يَتَحَدَّلُ إِبْرَامُهُ عَلَى تَوَالِي السِّنِينَ
وَالْأَعْوَامِ .

هذا : عَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْ عَسَاكِرِهِمَا وَجُنْدِهِمَا وَمَمَالِكِهِمَا إِلَى حُدُودِ
مَمْلَكَةِ الْآخَرِ ، وَلَا يَتَعَرَّضَ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ مَمَالِكِ وَقِلَاعِ ، وَحُصُونِ
وَسَوَاحِلِ وَمَوَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ ؛ وَرِعَايَاهُمَا مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ
وَالْأَجْنَاسِ ، وَمَا هُوَ مَخْتَصٌّ بِسِلَادِ كُلِّ مِنْهُمَا وَمَعْرُوفٌ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ : حَاضِرِهَا
وَبَادِيهَا ، وَقَاصِيهَا وَدَانِيهَا ، وَعَامِرِهَا وَغَامِرِهَا ، وَبَاطِنِهَا وَظَاهِرِهَا ، وَلَا إِلَى مَنْ
فِيهَا مِنَ الرَّعِيَّةِ وَالتَّجَارِ وَالْمَسَافِرِينَ ، وَسَائِرِ الْغَادِيَيْنِ وَالرَّائِحِينَ فِي السَّبُلِ وَالطَّرِيقِ :
مَتَفَرِّقِينَ وَمَجْتَمِعِينَ .

هذا عَلَى أَنْ يَكُونَ كُلُّ مِنَ الْمَقَامَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ الْمُشَارِ إِلَيْهِمَا مَعَ الْآخَرِ عَلَى أَكْمَلِ
مَا يَكُونُ فِي السَّرِّ وَالضَّرِّاءِ : مِنْ حُسْنِ الْوَفَاءِ ، وَجَمِيلِ الْمَوَدَّةِ وَالصَّفَاءِ ؛ وَيَكُونَا
فِي الْإِتِّحَادِ كَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ ، وَعَلَى الْمُبَالَغَةِ فِي الْأَمْتِرَاجِ وَالْإِخْتِلَاطِ كُرُوحَيْنِ فِي جَسَدِ ؛
مَعَ مَا يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ مُصَادَقَةِ الْأَصْدِقَاءِ ، وَمُعَادَاةِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَمُسَالَمَةِ الْمُسَالِمِينَ ،
وَمُحَارَبَةِ الْمُحَارِبِينَ ؛ فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ ، وَالظُّهُورِ وَالْكِتْمَانِ ؛ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ ، وَهُوَ
الْعَالِمُ بِمَا تُبْدِي الْأَعْيُنُ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ ،
فِي الْغَيْبَةِ وَالْحُضُورِ ، وَالْوُرُودِ وَالصُّدُورِ .

الباب السادس

من المقالة التاسعة

(في الفسوخ الواردة على العقود السابقة ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

الْفَسُخُ ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون الآخر

قال في "التعريف" : وَقَلَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ إِلَّا مَا يَبْعَثُ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ .
 قال : وقد كتب عمي صاحب شرف الدين [أبو محمد] ^(١) عبد الوهاب رحمه الله ،
 سنة دخول العساكر الإسلامية ملطية ، سنة أربع عشرة وسبعائة فسخا على التكفور
 مملك سييس ، كان سببا لأن زاد قطيعته . ولم يذكر صورة ما كتبه في ذلك .

وقد جرت العادة أنه إذا كان الفسخ من الجانب الواحد أن يذكر الكاتب فيه
 موجب الفسخ الصادر عن المفسوخ عليه : من ظهور ما يوجب تقض العهد ،
 ونكث العقد ، وإقامة الحجّة على المفسوخ عليه من كل وجه .

قال في "التعريف" : والذي أقول فيه : إنه إن كتبت فيه ، كتبت بعد البسملة :

هذا ما استخار الله تعالى فيه فلان ، استخارة تبين له فيها غد الغادر ، وأظهر له بها
 سر الباطن ما حقه الظاهر ؛ فسوخ فيها على فلان ما كان بينه وبينه من المهادنة
 التي كان آخر الوقت الفلاني آخر ممتتها ، وطهر السيوف المذكور فيها من الدماء إلى
 أنقضاء عدتها ؛ وذلك حين بدا منه من موجبات التقض ، وحل المعاقدة التي كانت
 يُسَدُّ بعضها ببعض (وهي كذا وكذا ، وتذكر وتعد) مما يوجب كل ذلك إخفار

(١) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٧١) .

الذمه ، وتقتض العهود المرعية الحرمه ؛ وهـد قواعـد الهدنه ، وتخليـة ما كان قد أمـسك من الأعنه ؛ كتب إنذارا ، وقدم حذارا ؛ ومن يشهد بوجوب هذا الفسخ ، ودخول ملة تلك الهدنة في حكم هذا النسخ ؛ ما تشهد به الأيام ، ويحكم به عليه النصر المكتتب للإسلام ؛ وكتب هذا الفسخ عن فلان لفلان وقد نبذ إليه عهده ، وأنجز وعده ؛ وأنفذ إليه سهمه بعد أن صبر مليا على مآلاته ، وأقام مدة يدارى مرض وفائه ولا ينجح فيه شيء من مداواته ؛ ولينصرن الله من ينصره ، ويحذر من يأمن مكره من يحذره ؛ وأمر فلان بأن يقرأ هذا الكتاب على رؤوس الأشهاد ، لينقل مضمونه إلى البلاد ؛ أنفة من أمر لا يتأدى به الإعلان ، وينصب به لهذا الغادر لواء لا يقال إذا يقال : هذا اللواء لغدر فلان بن فلان .

الفصل الثاني

المفاسخة وهي ما يكون من الجانبين جميعا

قال في "التعريف" : وصورة ما يكتب فيها : هذا ما اختاره فلان وفلان من فسح ما كان بينهما من المهادنة التي هي إلى آخر مدة كذا . اختارا فسح بنائهما ، ونسخ أنبائهما ؛ وتقتض ما أبرم من عقودها ، وأكد من عهودها ؛ جرت بينهما على رضا من كل منهما بإيقاد نار الحرب التي كانت أطفئت ، وإتارة تلك النواتر التي كانت كفيئت ؛ نبذاه على سواء بينهما ، واعتقاد من كل منهما ؛ أن المصلحة في هذا لجهته ، وأسقط ما كان يجمله للآخر من ربقته ؛ ورضى فيه بقضاء السيوف ، وإمضاء أمر القدر والقضاء في مساقات الخوف ؛ وقد أشهدا عليهما بذلك الله وخلقه ومن حضر ، ومن سمع ونظر ؛ وكان ذلك في تاريخ كذا وكذا .

المقالة العاشرة

في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب وتنافس في عملها، ليس لها
تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

الباب الأول

في الحديات، وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في المقامات

وهي جمع مقامة بفتح الميم، وهي في أصل اللغة أسم للنجاس والجماعة من الناس .
وسميت الأحدثوة من الكلام مقامة، كأنها تذكروا في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة
من الناس لسماعها . أما المقامة بالضم، فبمعنى الإقامة، ومنه قوله تعالى حكاية
عن أهل الجنة: (الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ) .

وأعلم أن أول من فتح باب عمل المقامات، علامة الدهر، وإمام الأدب،
البيديع الهمداني: فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه، وهي في غاية من البلاغة،
وعلو الرتبة في الصنعة . ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسم الحريري، فعمل مقاماته
الخمس المشهورة، بغضت نهاية في الحسن، وأتت على الجزء الوافر من الخط،
وأقبل عليها الخاص والعام، حتى أنست مقامات البيديع وصيرتها كالمرفوضة .
على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" لم يوفه حقه، ولا عامله
بالإنصاف، ولا أجمل معه القول . فإنه قد ذكر أنه ليس له يد في غير المقامات،

حتى ذكر عن الشيخ أبي محمد أحمد بن الخشاب أنه كان يقول : إن الحريري رجل مقامات . أي أنه لم يُحسن من الكلام المنشور سواها ، فإن أتى بغيرها فلا يقول شيئاً . وذكر أنه لما حضر بغداد ، ووقف على مقاماته ، قيل : هذا يُستصح لكاتبه الإنشاء في ديوان الخلافة ، ويحسن أثره فيه ، فأحضر وكلف كتابة كتاب فأحجم ، ولم يجر لسانه في طويله ولا قصيره ، حتى قال فيه بعضهم :

شيخ لنا من ربيعة الفرس * يتنف عشونته من الهوس ،

أنطقه الله بالمشان وفي * بغداد أضحى الملقوم بالخرس !

واعتذر عنه بأن المقامات مدارها جميعها على حكاية تخرج إلى مخلص ، بخلاف المكاتبات فانها بحر لا ساحل له : من حيث إن المعاني تتجدد فيها بتجدد حوادث الأيام ، وهي متجددة على عدد الأنفاس .

وهذه المقامة التي قدمت الإشارة إليها في خطبة هذا الكتاب ، إلى أني كنت أنشأتها في حدود سنة إحدى وتسعين وسبعائة ، عند استقرارى في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة ، وأنها أشتمت - مع الأختصار - على جملة جملة من صناعة الإنشاء ، ووسمتها بـ "الكواكب الدررية" ، في المناقب البدرية ، ووجه القول فيها لتقرىظ المقر البدرى ، بن المقر العلافى ، بن المقر المحيوى ، بن فضل الله ، صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية يومئذ . جعلت مبنها على أنه لا بد للإنسان من حرفة يتعلق بها ، ومعيشة يتمسك بسببها ، وأن الكتابة هي الحرفة التي لا يلقى بطالبي العلم سواها ، ولا يجوز له العُدول عنها إلى ما عداها ، مع الجُوح فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها ، وتقديمها على كتابة الدونية وترشيحها .

وقد اشتملت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما ينبغي أن يسلكه من الجواز ، مع التنبيه على جملة من المصطلح بينت مقاصده ، ومهدت قواعده ، على ما ستقف عليه في خلال مطاوعها إن شاء الله تعالى ، وهي :

حكى الناثر ابن نظام ، قال : لم أزل من قبل أن يبلغ بر يد عمري مركز التكليف ، ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف ؛ أنصب لأقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأزته توحيد الاستغفال عن إشراك التعطيل ؛ مشمرا عن ساق الحد ذليل الاجتهاد ، مستمرا على الوحدة وملازمة الأفراد ؛ أتتهز فرصة الشباب قبل توليها ، وأغتنم حالة الصحة قبل تجا فيها ؛ قد حالف جفني الشهاد ، وحالف طيب الرقاد ؛ أمرن النفس على الاشتغال كي لا تمل فتتفرعن الطلب وتجمع ؛ ميملا جانب قصدها عن ركوب الأهواء والميل إليها ، صارفا وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركون إليها ؛ متخيرا أليق الأماكن وأوفق الأوقات ، قانعا بأذني العيش راضيا بأيسر الأفوات ؛ أونس من شوارد العقول وحشيبا ، وأشرد عن روايض المنقول حوشيبا ؛ وألتقط ضالة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبتها ؛ مقدما من العلوم أشرفها ، ومؤثرا من الفنون أظفها ؛ معتمدا من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع ، مقبلا منه على ما يستجلي حسنه النظر ويستجلي ذكره السمع ؛ متقيا من الكتب أمتعتها تصنيفا ، وأتمها تحريرا وأحسنها تأليفا ؛ متحبا من أشياخ الإفادة أوسعهم علما وأكثرهم تحقيفا ، ومن أقران المذاكرة أروضهم بحثا وأظفهم تدقيقا ؛ عارفا لكل عالم حقه ، وموفيا لكل عليم مستحقه ؛ قد استغنيت بكافي عن خلي ورفيقي ، وآثرت بيت خلوتي على شفيقي وشقيبي ؛ أجوب فيافي الفنون لتظهر لي طلائع الفوائد فأشهدها عيانا ، وأجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كائن المعاني فلا أثنى عنها عيانا ؛ وأشن غارات المطالعة على كتائب الكتب فأرجع

بالغنيمه ، وأهيمُّ على حصون الدفاتر ثم لا أولى عن هزيمه ؛ بل كلما لاحت لى فئة
من البحث تحيزت إليها ، أو ظهرت لى كتيبة من المعاني حملت عليها ؛ إلى أن أتيج
لى من الفتح ما أفاضته النعمه ، وحصلت من الغنيمه على ما اقتضته القسمة .

فبينما أنا ارتع في رياض ما نفلت ، وأجبتى ثمار ما خولت ، إذ طلع على جيش
التكليف فخصرنى ، وخرج على كمين التكليف فأسرنى ؛ فأمسيت فى أضيق خناق ،
وأشد وفاق ؛ قد عاقنى قيد الأكتساب عن الاشتغال ، وصدنى كل الكد عن
الأهتمام بالطلب والأحيفال ؛ فغشيت من القبض ما غشيت ، وأخذنى من الوحشة
ما أخذنى ؛ وتعارض فى حكم العقل بين الكسب وطلب العلم ، وتساويا فى الترجيح
فلم تجنح واحدة منهما إلى السلم ؛ فصرت مذهوشا لا أحسن صنعا ، وبقيت متحصرا
لا أدرى أى الأمرين أقرب إلى نفا ؛ : إن طلبت العلم للكسب فقد أخشت
رجوعا ، وإن تركت الكسب للعلم هلكت ضيعة ومث جوعا .

فلما علمت أن كلا منهما لا يقوم إلا بصاحبه ، ولا يتم الواجب فى أحدهما
مالم يتم فى الآخر بواجبه ؛ آلمت كسبا يكون للعلم موافقا ، وبجملته لا نفا ؛ ليكون
ذلك الكسب للعلم موضوعا والعلم عليه محمولا ، واجتمع ولو بوجه أولى ؛ فجعلت
أسبر المعاش سبر مقصد ، وأسير فى فلوات الصنائع سير متعهد ؛ لكى أجد
حرفة تطابق أربى ، أو صنعة تجانس طلبي .

فبينما أنا أسير فى معاهدها ، وأردد طرفى فى مشاهدها ؛ إذ رُفع لى صوت قرع
تمعى برنته ، وأخذ قلبى بحتته ؛ فقفوت أثره متبعا ، وملت إليه مستمعا ؛ فإذا رجل
من أحسن الناس شكلا ، وأرجحهم عقلا ؛ وهو يترنم وينشد :

إن كنت تقصدنى بظانك عامدا ، هخرمت نفع صداقة الكتاب ؛

السَّائِغِينَ إِلَى الصَّدِيقِ ثَرَى الْغِنَى • وَالنَّاعِشِينَ لَعَثْرَةَ الْأَصْحَابِ ،
وَالنَّاهِضِينَ بِكُلِّ عِبٍّ مُثْقَلٍ • وَالنَّاطِقِينَ بِفَضْلِ كُلِّ خِطَابٍ ،
وَالعَاطِفِينَ عَلَى الصَّدِيقِ بِفَضْلِهِمْ • وَالطَّيِّبِينَ رَوَائِحِ الْأَنْوَابِ .
وَأَيْنُ بَحْمَدِهِمُ التَّنَاءُ فَطَالَمَا • بَحْمَدِ الْعَيْدُ تَفْضُلَ الْأَرْبَابِ !

فلما سمعتُ منه ذلك ، وأعجبني من الوصفِ ما هنالك ؛ دَنَوْتُ مِنْهُ دُنُوَ الْوَأَجَلِ ،
وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ جُلُوسَ السَّائِلِ ؛ وَقُلْتُ : هَذِهِ وَأَيُّكَ صِفَاتُ الْمُلُوكِ بَلْ مَلُوكُ
الصِّفَاتِ ، وَأَكْرَمُ الْفَضَائِلِ بَلْ أَفْضَلُ الْمَكْرَمَاتِ ؛ وَلَمْ أَكُ أَظُنُّ أَنَّ لِلْكِتَابَةِ هَذَا
الْخَطَرَ الْجَسِيمَ ، وَلِلْكِتَابِ هَذَا الْخَطَّ الْعَظِيمَ ؛ فَأَعْرَضَ مُغْضِبًا ، ثُمَّ تَوَقَّعَ بَصَرَهُ إِلَى
مُعْجَبًا ؛ وَقَالَ : هَيْهَاتَ فَاتَكَ الْحَزْمُ ، وَأَخْطَأَكَ الْعَزْمُ ؛ إِنَّهَا لَمِنْ أَعْظَمِ الصَّنَائِعِ قَدْرًا ،
وَأَرْقَعِهَا ذِكْرًا ؛ نَطَقَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِفَضْلِهَا ، وَجَاءَتِ السَّنَةُ الْغَزَاءُ بِتَقْدِيمِ أَهْلِهَا ؛
فَقَالَ تَعَالَى جَلَّ شَأْنُهُ ، وَتَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ : ﴿ أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فَاخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، حَيْثُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْكَرَمِ ؛ إِشَارَةً
إِلَى أَنَّ تَعْلِيمَهَا مِنْ جَزِيلِ نِعْمِهِ ، وَإِبْدَانًا بِأَنَّ مَنَحَهَا مِنْ فَائِضِ دَيْمِهِ ؛ وَقَالَ جَلَّتْ
قُدْرَتُهُ : ﴿ رَبِّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ فَاقْسَمَ بِالْقَلَمِ
وَمَا سَطَّرْتَهُ الْأَقْلَامُ ، وَأَتَى بِذَلِكَ فِي آكِدِ قَسَمٍ فَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَقْسَامِ . وَقَالَ
تَقَدَّسَتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ لِجَعْلِ الْكِتَابَةِ مِنْ وَصْفِ
الْكَرَامِ ، كَمَا قَدْ جَاءَ فِعْلُهَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ وَإِنَّمَا مُنِعَهَا النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْجِزَةً قَدِ بَيَّنَّ تَعَالَى سَبَبَهَا ، حَيْثُ ذَكَرَ الْحَادِثُ بِقَوْلِهِ :
﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ آكْتَبَهَا ﴾ .

هذا : وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الكُتَابِ رَاجِعًا ، فقد رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ نَيْفٌ وَثَلَاثُونَ كَاتِبًا ، هُمْ مُنَجَّبَةٌ أَصْحَابِهِ ، وَخُلَاصَةٌ أَتْرَابِهِ ، مَنْ أَتَمَّنْتَهُمْ عَلَى أَسْرَارِ الْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ ، وَخَاطَبَ بِالسَّنَةِ أَقْلَامِهِمْ مُلُوكَ الْأَرْضِ فَأَجَابُوا بِالْإِذْعَانِ عَلَى الْبُعْدِ وَالْمَدَى الطَّوِيلِ ، وَكَتَبَ الْمُلُوكُ أَيْضًا إِلَيْهِ آبْتِدَاءً وَجَوَابًا ، وَكَتَبَ أَصْحَابَهُ وَكَاتَبُوهُ فَأَحْسَنَ اسْتِمَاعًا وَأَحْمَرَ خَطَابًا ، وَبِذَلِكَ جَرَتْ سُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فَمَنْ تَلَّاهُمْ ، وَعَلَى نَهْجِهِ مَشَتْ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ وَمِنْ ضَاهَاهُمْ .

فَالْكَاتِبَةُ قَانُونُ السِّيَاسَةِ ، وَرُتْبَتُهَا غَايَةُ رُتَبِ الرِّيَاسَةِ ، عِنْدَهَا تَقِفُ الْإِنْفَاقَةُ ، وَإِلَيْهَا تَنْتَهِي مَنَاصِبُ الدُّنْيَا بَعْدَ الْخِلَافَةِ ، وَالْكَاتِبُ عِيُونُ الْمُلُوكِ الْمُبْصِرَةِ وَأَذَانُهُمُ الْوَاعِيَةِ ، وَالسِّنْتُهُمُ النَّاطِقَةُ وَعُقُوقُهُمُ الْحَاوِيَةِ ، بَلْ مَحْضُ الْحَقِّ الَّذِي لَا تَدْخُلُهُ الشُّكُوكُ ، وَإِنَّ الْمُلُوكَ إِلَى الْكَاتِبِ أَحْوَجُ مِنَ الْمُلُوكِ إِلَى الْمُلُوكِ ، وَنَاهِيكَ بِالْكَاتِبَةِ شَرَفًا ، وَأَعْلَى بِذَلِكَ رُتْبَةً وَكَفَى ، أَنْ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ يُرَاحِمُ الْكَاتِبَ فِي قَلْبِهِ ، وَلَا يُرَاحِمُ الْكَاتِبُ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ فِي سَيْفِهِ وَعَايِهِ .

وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَهَمُ الْحَاوُونَ لِكُلِّ وَصِفٍ جَمِيلٍ ، وَشَأْنُ نَيْبِلٍ ، الْكِرْمُ شِعَارُهُمْ ، وَالْحِلْمُ دِتَارُهُمْ ، وَالْجُودُ جَادَتُهُمْ ، وَالْحَيْرَةُ عَادَتُهُمْ ، وَالْأَدَبُ مَرَكَبُهُمْ ، وَاللُّطْفُ مَذْهَبُهُمْ ، وَلِلَّهِ الْقَائِلُ :

وَيَسْمُولُ كَأَمَّا اعْتَصَرُوهَا ۝ مِنْ مَعَانِي شَمَائِلِ الْكُتَابِ !

فَلَمَّا أَنْقَضَى قَيْلُهُ ، وَبَانَتْ سَيْبِلُهُ ، قُلْتُ : لَقَدْ ذَكَرْتَ قَوْمًا رَاقِيًا وَصَفُهُمْ ، وَشَاقِيًا لُطْفُهُمْ ، وَدَعَانِي طَيْبُ حَدِيثِهِمْ ، وَحُسْنُ أَوْصَافِهِمْ ، وَجَمِيلُ نَعْوَتِهِمْ ؛ إِلَى أَنْ أَحَلَّ بِنَادِيهِمْ ، وَأَنْزَلَ بِوَادِيهِمْ ؛ فَأَجْعَلْ حِرْقَتَهُمْ كَسْنِي ، وَصَنَعَتَهُمْ دَأْبِي ؛ لِيَجْتَمِعَ بِالْعِلْمِ شَمْلِي ، وَيَتَّصِلَ بِالْإِسْتِغَالِ حَبْلِي ؛ فَأَكُونَ قَدْ ظَفِرْتُ بِمَنْبِتِي ، وَفُزْتُ بِبُغْيَتِي .

فأى قبيل من الكُتاب أردت ؟ وإلى أى نوع من الكتابة أشرت ؟ الكتابة
الأموال ؟ أم كتابة الإنشاء والخطابة ؟ ، أم غيرهما من أنواع الكتابة ؟ ؛ فنظر إلى
متبسما ، وأنشد مترنما :

قومٌ إذا أخذوا الأقلامَ من غضبٍ * ثم آسَمَدُوا بها ماءَ المنياتِ ،
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا * ما لم ينالوا بحدِّ المشرفيات !

قلتُ : كأنك تريدُ كتابةَ الإنشاءِ دونَ سائرِ الكتاباتِ ، وهى التى تقصدها
بالتصريح وتُسِيرُ إليها بالكتاباتِ ؛ فقال : وهل فى أنواعِ الكتابةِ جملةٌ نوعٌ يساويها ،
أو فى سائرِ الصنائعِ على الإطلاقِ صنعةٌ تضاهيها ؟ ؛ إنَّ لها للقدحِ المعلى ، والحدِّ
المحلى ؛ والذروةَ المنيقة ، والرتبةَ الشريفة ؛ كُتابها أشُّ الملكِ وعماده ، وأركانُ الملكِ
وأطواده ؛ ولسانُ المملكةِ الناطق ، وسهمها المفقوقُ الراشق ؛ والله حبيبُ بنِ أوسِ
الطائي حيثُ يقول :

ولضربةٍ من كاتِبِ بَنانِهِ * أمضى وأقطعُ من رقيقِ حُسامِ !
قومٌ إذا عزموا عداوةَ حاسِدٍ * سفكوا الدما بأسيئةِ الأَقلامِ !

قلَّها يبلغُ الأملُ ، ويُغنى عن البيضِ والأسل ؛ به تُصانُ المعاقِلُ ، وتُفرَّقُ
المخافِلُ :

فلكم يقبلُ الجَيْشُ وهو عرمرمٌ * والبيضُ ما سلَّتْ من الأعمادِ !

قلتُ : إن كُتابِ الأموالِ يزعمون أن لهم فى ذلك المقامِ الأعلَى ، والطريقةَ
المثلى ؛ ويستشهدون لفضلها ، وتقدِّم أهلها ؛ بقولِ الإمامِ أبى محمدِ القاسمِ الحريرى
رحمه الله ، فى مقاماته :

«إنَّ صناعةَ الحِسابِ مبنيةٌ على التحقيقِ ، وصناعةُ الإنشاءِ مبنيةٌ على التلْفِيقِ ؛
وقلمُ الحاسِبِ ضابطٌ ، وقلمُ المُنشئِ خابطٌ ؛ وبين إناوةِ توظيفِ المعاملاتِ ، وتلاوةِ

طَوَامِيرُ السَّجَلَاتِ ؛ بَوْنٌ لَا يُدْرِكُهُ قِيَاسٌ ، وَلَا يَعْتَوِرُهُ أَلْتِبَاسٌ ؛ إِذِ الْإِتَاوَةُ تَمَلُّهُ
 الْأَيْحَاسُ ، وَالسَّلَاوَةُ تُفَرِّغُ الرَّأْسَ ؛ وَخَرَّاجُ الْأَوَارِجِ ، يُغْنِي النَّاطِرَ ، وَأَسْتِخْرَاجُ
 الْمَدَارِجِ ، يُعْنَى الْخَاطِرَ ؛ وَالْحَسَبَةُ حَفَظَةُ الْأَمْوَالِ ، وَحَمَلَةُ الْأَنْقَالِ ؛ وَالنَّقْلَةُ
 الْأَثْبَاتُ ، وَالسَّفَرَةُ الثَّقَاتُ ؛ وَأَعْلَامُ الْإِنْصَافِ وَالْأَيْتِصَافِ ، وَالشُّهُودُ الْمَقَانِعُ
 فِي الْأَخْتِلَافِ ؛ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوْفِي الَّذِي هُوَ يَدُ السُّلْطَانِ ، وَقُطْبُ الدِّيَّانِ ؛ وَقِسْطَاسُ
 الْأَعْمَالِ ، وَالْمُهَيِّمُنُ عَلَى الْعَمَالِ ؛ وَإِلَيْهِ الْمَتَابُ فِي السَّلْمِ وَالْمَرْجِ ، وَعَلَيْهِ الْمَدَارُ
 فِي الدَّخِيلِ وَالْمَرْجِ ؛ وَبِهِ مَنَاطُ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَفِي يَدِهِ رِبَاطُ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ ؛ وَلَوْلَا
 قَلَمُ الْحِسَابِ ، لَأَوَدَّتْ ثَمَرَةُ الْآكْتِسَابِ ، وَلَا تَصِلَ التَّغَانُّ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ ؛ وَلَكِنْ
 نِظَامُ الْمَعَامَلَاتِ مَحْلُولًا ، وَجُرْحُ الظَّلَامَاتِ مَطْلُولًا ، [وَجَيْدُ التَّنَاصُفِ مَغْلُولًا ^(١)] ،
 وَسَيْفُ التَّنَظُّمِ مَسْلُولًا ؛ عَلَى أَنْ يَرَاعَ الْإِنْشَاءَ مُتَقَوِّلًا ، وَيَرَاعَ الْحِسَابَ مُتَأَوِّلًا ؛
 وَالْمَحَاسِبُ مَنَاقِشُ ، وَالْمُنْشَى أَبُو بَرَاقِشُ .

فوصف كتابة الأموال بأتم الصفات ، ونبه من شيم أهلها وشياتهم على أكرم
 الشيم وأحسن الشيات .

فقال : هذه المجبة معارضة بمثلها ، بل باطله من أصلها ؛ وأين ذلك من قوله
 في صدر كلامه ؟ :

« اعلموا أن صناعة الإنشاء أرفع ، وصناعة الحساب أنفع ؛ وقلم المكاتبية خاطب ،
 وقلم المحاسبة خاطب ؛ وأساطير البلاغات تُنسخ لتُدرس ، ودساتير الحسابات تُنسخ
 وتُدرس ؛ والمنشئ جهينة الأخبار ، وحقية الأشرار ؛ ونجى العطاء ، وكبير الندماء ؛
 وقلمه لسان أسرار الدولة ، وقارس الجولة ؛ ولقمان الحكمة ، وترجمان الهمة ؛ وهو

(١) الزيادة من مقامات الحريري .

البشير والذير، والشفيح والسفير، به تُستخلص الصياحي، وتملك النواصي، ويقناد العاصي، ويُسْتَدْتَنِي القاصي، وصاحبه برىء من التبعات، آمِنٌ كَيْدَ السُّعَاتِ؛ مَقْرَظٌ بَيْنَ الْجَمَاعَاتِ، غير مُعْرَضٍ لِنَظْمِ الْجَمَاعَاتِ» .

فهذه أرفع المراتب، وأشرف المناقب؛ التي لا يعتورها شين، ولا يشوبها ميين، وصدر الكلام يقتضي الترجيح، ويؤذُنُ بالترشيح، والرفع، أبلغ في الوصف من النفع؛ فقد يُنْتَفَعُ بالترزير اليسير، ولا يُرْتَفَعُ إلا بالأمر الكبير؛ على أنه لو اعتبر نفع كتابة الإنشاء لكان أبلغ، وإقامة الدليل عليه أسوغ؛ وأنى لكاتب الأموال، من التأثير في فلّ الجيوش من غير قتال، وفتح الحصون من غير نزال؛ فهذه هي الخِصِيصَى التي لا تُسَاوَى، والمتقبة التي لا تُتَاوَى :

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانَ مِنْ لَبَنِ • شَيْبًا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالًا !

فقلت: الآن قد انقطعت الحجّة، وبانت المحجّة، فما الذي يحتاج كاتب الإنشاء إلى ممارسته؟ فقال: إذا قد تعلقّت من الصنعة بأسبابها، وأتيت البيوت من أبوابها. أعلم أن كاتب الإنشاء لا تظهر فصاحته، وتبين بلاغته؛ وتقوى براعته، وتجمل براعته؛ إلا بعد تحصيل جملة من العلوم، ومعرفة الأصلاح والإحاطة بالرُسُوم؛ ثم أهم ما يبدأ بتحصيله، ويعتمد عليه في جملة الأمر وتفصيله؛ حفظ كتاب الله العزيز الذي هو معدن الفصاحة، وعنصر البلاغة؛ وإدامة قراءته وتكرير مآثيقه، مع العلم بتفسيره وتدبر معانيه؛ حتى لا يزال دائراً على لسانه حاضراً في ذكّره، ولا يبرح معناه ممثلاً في قلبه مصوراً في فكره؛ ليكون مستحضراً له في الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويضطر إلى إقامة الأدلة القاطعة عليها؛ نلّه الحجّة البالغة، ولاياته الأجوبة الدامغة؛ خصوصاً السير والأحكام، وما يتعلق بذلك من مهمات

الدين وقواعد الإسلام؛ وما أشتمل عليه كلام النبوة من الألفاظ البديعة التي أبكت
 الفصحاء، والمعاني الدقيقة التي أعيت البلغاء؛ مع النظر في معانيها ومعرفتها غريبها،
 والأطلاع على ما للعلماء في ذلك من الأقوال بعيدها وقريبها؛ لتكون أبداً حجة
 ظاهره، وأدلتها قوية متظاهرة؛ فإن الدليل إذا استند إلى النص اقتطع النزاع
 وسلم المدعى ولزم، والفصاحة والبلاغة غايتهما - بعد كتاب الله تعالى - في كلام
 من أوتي جوامع الكلم؛ والعلم بالأحكام السلطانية وفروعها، وخصوصها وشيوعها؛
 والتوغل في أشعار العرب والمولدين، وأهل الصناعة من المحدثين؛ وما ورد عن كل
 فريق منهم من الأمثال تقرأ ونظماً، وما جرى بينهم من المحاورات والمناقشات حرباً
 وسلماً؛ والتعويل من ذلك على الأشعار البديعة التي اختارها العلماء بها، فتمسكوا
 بأوتادها وتعلقوا بسببها؛ والأمثال الغريبة التي انتقوها، ودونوها ورووها؛ وأستبصاح
 القسمين وأستكشاف غوامضهما، وأستبصار النوعين وأستبصار عوارضهما؛
 والأطلاع على خطب البلغاء، ورسائل الفصحاء؛ وما وقع لهم في مخاطباتهم،
 ومكاتباتهم؛ والعلم بأيام العرب وحروبهم، وما كان من الوقائع بين قبائلهم وشعوبهم؛
 والنظر في التواريخ وأخبار الدول الماضية، والقرون الخالية؛ وسير الملوك وأحوال
 الممالك، ومعرفة مكائدهم في الحرب المنقذة من المهاوى والمنجية من المهالك .

مع سعة الباع في اللغة التي هي رأس ماله، وأُس مقالته؛ وكثرة المعد للإنتاج،
 ومعينه بل مغيثه وقت الضرورة على الإطلاق؛ والتجو الذي هو ملح كلامه، ومسك
 ختامه؛ والتصريف الذي تعرف به أصول أبنية الكلمة وأحوالها، وكيفية التصرف
 في أسمائها وأفعالها؛ وعلوم المعاني والبيان والبدع التي هي حلية لسانه، وآية بيانه؛
 ومعرفة أبوابها وفصولها، وتخييق فروعها وأصولها؛ من الفصاحة وطرائقها،
 والبلاغة ودقائقها؛ واختيار المعاني وترتيبها، ونظم الألفاظ وتركيبها؛ والفصل

والوصيل ومواقيعهما، والتقديم والتأخير ومواضعهما، ومواطن الحذف والإضمار،
وحكم الروابط والأخبار، وغير ذلك من الحقيقتة والمجاز، والبسط والإيجاز، والحل
والعقد، وتمييز الكلام جيده من رديه بصحة التقيد، مع معرفة أنواع البديع
وطرائقها، والأطلاع على غوامض أسرارها وقرائد دقائقها .

على أن أكد شيء يجب تحصيله قبل كل حاصل، ويستوى في الاحتياج إلى
معرفة المفضول من الكتاب والفاضل؛ العلم بالخط وقوانينه : من الهجاء والتقط
والشكل، والفرق بين الضاد والطاء المتخالفين في الصورة والشكل؛ مع المعرفة بالآلات
الكتابية وصفاتها، وتباين أنواعها واختلاف صفاتها .

هذه أصوله التي ينبغي عليها، وقواعده التي يرجع إليها؛ فإذا أحاط بهذه الفنون
علمها، وأتقنها فهما؛ غزرت عنده المواد، وأتضح له الجواد؛ فأخذ في الاستعداد،
وسهل عليه الاستشهاد؛ فقال عن علم وتصرف عن معرفة وأستحسن ببهان،
وأنقذ بحجة وتخير بدليل وصاغ بترتيب ونجى على أركان؛ وأتسع في العبارة
بجأله، وفتح له من باب الأوصاف أفعاله؛ وتلقى كل واقعة بما يماثلها، وقابل كل
قضية بما يساكيها؛ وعلم المحيّد فنسج على منواله، وظهر له القاصر فأعرض
عن أقواله؛ وحصل له القوة على فهم الخطاب، وأنشأ الجواب بحسب الوقائع
والأعراض، على طبق المقاصد والأعراض؛ ومتى أخل بشيء من ذلك فأنته
الفضائل، وعلقت به الرذائل؛ وقلت بضاعته، ونقصت صناعته؛ وساءت آثاره،
وقبحت أخباره؛ وخلط الغرر بالغرر، ولم يميز بين الصدف والدرر؛ فأخرج الصنعة
عن أما كنها، وطمس من الكتاب وجوه محاسنها؛ بخر اللوم إلى نفسه، وأمسى
مهزاة لأبناء جنسه .

وَرَأَى ذَلِكَ عُلُومٌ هِيَ كَالنَّسَافَةِ لِلْكَتَابِ ، وَالزِّيَادَةَ لِلرَّغَبِ :

منها ما تكمل به صناعته ، وتعظم به مكانته : كعلم الكلام ، وأصول الفقه
وسائر الأحكام ، والمنطوق والجدل ، وأحوال الفرق والنحل والملل ؛ وعلم العروض
والميزان المحكم ، وعلم القوافي وحل المترجم ، والحساب المفتوح وما يترتب عليه من
المعامله ، وما تُستخرج به المجهولات : من حساب الخطاين والدرهم والدينار والخبز
والمقابلة ؛ وحساب الدور والوصايا ، والتخت والميل وما لأعماله على غيرها من
المرايا ؛ والعلم بالفلاحة ، وأحوال المساحة ؛ وعلم عود الأبنية والمنابر المحققة ،
ومراكر الأثقال والمرايا المحرقة ؛ وعلم جر الأثقال الأبيه ، والعلم بالآلات الحريرية ؛
وعلم المواقيت والبنكومات ، والتقاويم والزيجات ؛ وعلم تسطيح الكرة والتوصل بها
إلى استخراج المطالب الفلكية ، وكيفية الأرصاد وأحكام النجوم والآلات الظلية ؛
وعلم الطب والبيطرة ، وأحوال سائر الحيوان وعلم البزرة .

ومنها ما تكمل به ذاته ، وتتم به أدواته ؛ كعلم التعبير وعلم الأخلاق وعلم السياسة ،
وعلم تدبير المنزل وعلم الفراسة . وغير ذلك من العلوم التي أضربنا عن ذكرها خشية
الإطالة ، وأعرضنا عن إيرادها خوف الملاله ؛ فهذه علوم فضلة يهضم بعلمها
أمره ، وفضيلة يرتفع بتحصيلها ذكره ؛ بل لا يستغنى عن العلم برؤوس مسائلها ،
وإشارات أربابها الآخذة من بحارها بأطراف سواحليها ؛ على أنه قد ترد عليه
أوقات لا يتسع جهل ذلك فيها ، وتمز عليه أزمان لو تُشترى فيشترىها .

قلت : قد بانت لي علومها ، فما رؤسوها؟ . قال : إن أعباءها لباهظة حملا ،
وانها لكبيرة إلا ؛ ولكن سأحدث لك مما سألت ذكرا ، وأنبئك بما لم تُحيط
به خبرا .

فمن ذلك : المعرفة بالولايات ولواحيها ، على اختلاف مقاصدها وتباين طرائقها ؛
من البيعات وأحكامها ، والمهود وأقسامها ؛ والتقاليد وصفاتها ، والتفاويض
ومضاهاتها ؛ والمراسيم وأوضاعها ، والتواقيع وأنواعها ؛ والخطب ومناسباتها ،
والوصايا ومطابقتها ؛ ثم العلم بالمناشير ومراتبها ، والمربعات الجيشية ومعانيها ؛
ومعرفة رتب المكاتب وطبقاتها ، ومن يستحق من الرتب أذناها أو يستوجب
الرفع إلى أعلى درجاتها : من المكاتب الصادرة عن الأبواب الشريفة الخليفة ،
والمكاتب الواردة عليها وعلى أرباب المناصب من سائر الآل والعشرة النبوية ؛
وملوك المسلمين والقنات ، وملوك الكفر وأرباب الديانات ؛ وأهل المملكة من
النواب والكشاف والولاء ، والأمراء والوزراء والعربان والقضاة ؛ وسائر حملة
الأقلام ، وأهل الصلاح وبقية الأعلام ؛ ونساء الملوك والخوندات ، ومكاتب
التجار وما عساه يطرأ من المكاتب المستجدات ؛ وكتب البشرى بالجلوس على
التخت والفتح والظفر ، والبشرى بوقاء النيل والقُدوم من الغزو والسفر ؛ وأستهداف
العزائم ، والبطائق المحمولة على أجنحة الحمام ، والملطقات التي يضطر إليها ، ويعول
في الأمور الباطنة عليها ؛ وأوراق الجواز في الطرقات ، والإطلاقات في التسفير
والمثالات المطلقات ؛ ومعرفة الأوصاف التي يكثر في المكاتب تكرارها ، ويتسقى
في جيد المراسلات إيرادها وإصدارها : كوصف الأنواء والكواكب ، والأفلاك
العالية المراتب ؛ والآلات الملوكية الجليلة المقدر ، والسلاح وآلات الحصار ؛
والخيل المسومة ، والحوارج المولمة ؛ وجليل الوحش وسبابه ، وطير الواجب
وأنباعه ؛ والأمكنة والرياض ، والمياه والغياض ؛ وغير ذلك مما يعز وبعثو ، ويرتفع
ويعلو ؛ وإخوانيات المكاتب وطبقاتها ، وتميز كل طبقة منها عن أخواتها ؛
وما تستعمل عليه من الابتداء والحواب ، والتشوق والعتاب ؛ والترفق والأعتذار ،

والشفاعة وطلب الصفح والعفو عند الافتدار؛ والتهانى والتعازى، وما يكتب مع الهدية ويحاطب عنها من المجازى وغير المجازى .

وغير ذلك من مقاصد المكاتبات التي يتعدّد حصرها، ويمتنع على المستقصي ذكرها؛ ومعرفة الطفرة والطرة والمنوان والتعريف، والعلامة في الكتب على ما فيها الفارقة بين انحطاط القدر والتشريف؛ وترتيب الكتاب وطيه وختمه، وتعمية ما في الكتب بضرب من الجيلة وإخفاء ذلك وكتمه؛ ونسخ الأيمان التي يستخلف بها، ويمسك للوفاء بسببها؛ كيمين البيعة العامة للوفاق والمخالف، وما يختص من ذلك بالنواب وأرباب الوظائف؛ وأيمان أصحاب البدع والأهواء، وأهل الملل والحكماء؛ وكتابة الهدن والمواصفات، والأمانات والدقن والمفاصحات؛ ومعرفة الأسماء والكنى والألقاب، وبيان المستندات ومحالها المصطلح عليه بين الكتاب؛ وكتابة التاريخ وما أخذت به كل طائفة ونابت إليه تمسكا، وما يفتح به في الكتابة تيمنا ويحتم به تبركا؛ ومعرفة قطع الورق: من كامل البغدادى والشامى والثلاثين والنصف والثلاث والمنصورى والعادة، ومن يستحق من هذه المقادير أعلاها أو يوقف به مع أدنى رتبها من غير زياده؛ والأقلام المناسبة لهذه الأقدار، من الرقاع والتواقيع والثلاث ومختصر الطومار؛ والعلم بالأوضاع وكيفية الترتيب، ومقادير البياض ومباعدة ما بين السطور والتقريب؛ ومعرفة الرزادى وقطانها، والنواحي والبلدان وسكانها؛ والأتم وممالكها، وطرق الأقاليم ومسالكها؛ ومرآة البريد ومسافاتها، وأبراج الحمام ومطاراتها؛ وهجن النلج والسفن المعدة لنقله، والمخرقات المؤدية إلى اجتياح العدو وتفريق شمله؛ والمناور وأماكنها، والقصد ومكانها .

هذه رسومها على سبيل الإجمال، والإشارة إلى مصطلحاتها بأخصر الأقوال .

وَأَعْلَمُ أَنَّ حُسْنَ الْخَطِّ مِنَ الْكِتَابَةِ وَإِسْطِطَّةَ عَقِيدِهَا، وَقُوَّةَ الْمَلَكََةِ عَلَى السَّجْعِ
وَالْأَزْدِوَجِ مَلَائِكِ حَلَّهَا وَعَقِيدِهَا؛ عَلَى أَنَّ خَيْرَ الْخَطِّ مَا أُقْرَى، وَأَحْسَنَ السَّجْعِ مَا سَلِمَ
مِنَ التَّكَلُّفِ وَبَرِيءٌ؛ وَلِلْكَتَّابِ فِي بَحْرِ الْكِتَابَةِ سَبْعٌ طَوِيلٌ، وَتَفَنُّنٌ يُسْفِرُ عَنْ كُلِّ
وَجْهِ جَمِيلٍ .

قلت: فهل لهذه الرتبة الرئيسة، والمنقبة النفسية؛ سيمط يأمها، أو سلك يضمها؛
فقال: سبحان الله: إن بيتها لأشهر من قفانك، وأظهر للعيان من شامحات جبال
التبسك؛ أيخفي من البدر ضوءه الباهر، ونوره الزاهر؛ إن ذلك لقاصر على
«آل فضل الله» حقاً، ومنحصر في المقر البدرى صدقاً؛ فهو قطبها الذي تدور
دائه، وأبن يحدتها التي ترجع في علومها ورسومها وسائر أمورها إليه؛ فلوراه
«الفاضل عبد الرحيم» لم ير لنفسه فضلاً ولا رضى لفيه مقالاً، أو عاينه «عبد الحميد
الكاتب» لقال: هكذا هكذا وإلا فلا؛ أو عاصره «قدامة» جلس قدامة،
أو أدركه «أبن قتيبة» لا تحذه في «أدب الكاتب» شيخه وإمامه؛ أو بصربه
«الصابي» لصبا إليه ومال، أو قارن زمانه «الحسن بن سهل» بل «الفضل» أخوه
لأقام ببابه وما زال؛ أو جنح «أبن العديم» إلى مناوآته لأدركه العدم، أو جرى
«الصاحب بن عباد» في مضمار فضله لكباً وزلت به القدم؛ أو أطلع «أبن مقلة»
على حسن خطه لقال: هذا هو الجوهر الثمين، أو نظر «أبن هلال» إلى بهجة
رونقه لقال: إن هذا هو الفضل الميبي؛ إن تكلمت سحراً، أو كتب خلت زهراً
أو تحليت دزاً:

يُؤَلِّفُ السُّؤْلُوَ الْمَشْتُورَ مَنْطِقُهُ، وَيُنْظِمُ الدَّرَّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ!

قد علا نسبا، وفاق حسبا، وورث الفضل لا عن كلاله، وأستحق الرتبة بنفسه
وإن كانت له بالأصالة :

خَيْرٌ مِّنَّا بِالْمَكْرَمَاتِ وَبِالْعُلَى، * وَحَيْهَلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِدِ الْمُحِضِ!

فلما سمعتُ ذلك زال عني الإلباس، وقلتُ : ذلك من فضلِ الله علينا وعلى
الناس . ثم قلتُ : أقسمتُ عليك بالذي تُشيرُ إليه ، إلا تُدليني عليه ؛ فقال : إنه
صفيُّ الملكِ ونجيبه ؛ وكاتبُ سرِّه ووليُّه ؛ والقريبُ منه إذا بعدوا ، والمخصوصُ بالمقامِ
إذا طردوا ؛ والموجهُ إليه الخطابُ إذا حضروا ، والمستأثرُ بالورودِ إذا صدرُوا ؛
والمتكلمُ بلسانِ الملكِ إذا سكتوا ، والناطقُ بفضْلِ الخطابِ إذا بهتوا ؛ والصابِلُ
بِحسامِ لسانه وخطى قلبه ، والحامِي الممالكِ بجيوشِ سُطوره وجنودِ كلمه ؛ والمُسْتَتِ
تتملُّ المدوِّ ببدیع ألفاظه ودقيقِ حكمه ؛ والحائِزُ قصبِ السبقِ بكرمِ فضله وفضلِ
كرمه ، والمُروى ظمأ الوافدين إليه بواكِفِ وبله وفائِضِ ديمه ، والمجلى غايه
الظلمِ بنيرِ بَدْرِهِ ومُضِيءِ أنجبه :

فَمَا زَالَ بَدْرًا فِي سَمَاءِ سِيَادَةٍ * يُشَارُ إِلَيْهِ فِي الْوَرَى بِالْأَنَامِلِ :

بَسِيطَ مَسَاعِيِ الْمَجْدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً * مِنْ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَدَلِ الْفَوَاضِلِ ؛

إِذَا سَأَلَ أَعْيُنُ السَّامِعِينَ جَوَابَهُ * وَإِنْ قَالَ لَمْ يَسْتُرْكَ مَقَالًا لِقَائِلِ !

قلتُ : حسبك ! قد دلّني عليه عرفه ، وأرشدني إليه وصفه ؛ وبأن لي محمده

الفائِزُ وحسبه الصِّمِيمِ ، وعرفتُ أصله الزاكيَ وفرعه الكَرِيمِ ، (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

ثم عرّجتُ إلى حمّاه ، وملتُ إلى حيه كي أراه ؛ فإذا به قد برزَ تتلألاً أنواره ،
وتشرّقَ بالجلالة أبقاره ؛ قد عاتته الهيبة وغشيتته السكينة وحفته الرياسة وجللته
السعادة ، وحكمتُ بعزّ منال قدره الأقدار كما اقتضته الإرادة .

فلما رأته آستصغرت الرتبة مع شرفها الباذخ في جانبه ، وعلمت أن ما تقدم من المدح لم يوف حقه ولم يقم ببعض واجبه ؛ فغلبت هيئته إقدامي ، وحالت حرمة بني وبين مرامي ؛ فقلت : إنا لله ! قد فالتني مآربي ، ورجعت من فوري إلى صاحبي ؛ فأظهرت له الأسف ، وقصصت عليه القصة قال : لا تخف ؛ إنها لم تقب عمريه ، وأثرة عدويه ؛ فالفأروق جده ، وبنو عدى قبيله وجنده .

هذا وإنه لألطف وأرق من النسيم السارى ، والماء الجارى ؛ وأحبي من العذراء في خدرها ، وأشفق من الوالدة إذا صمت ولدها إلى صدرها ؛ وأحلم من « معن بن زائدة » ، وإن كان أفصح من « قس بن ساعدة » :

يُغِضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ . فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَتَّيَّمُ !

بالعزائم الفأروقية فتحت الأمصار ، وبالهيبة العمرية أقر المهارجون والأنصار ؛ ويشهد لذلك قصة « ابن عباس » في العول وسكوته في خلافة عمر وصنته ، وجوابه بعد ذلك للقاتل له : هلا قلت ذلك في زمن عمر ؟ بقوله : إنه كان مهيباً فهيئته ؛ كيف ؟ وما سلك بئاً إلا وسلك الشيطان بئاً غير بئته وضافت عليه الفجاج ، ولم تمائل هيئته بهيبة غيره وإن عظمت سطوته حتى قال الشعبي : إن درة عمر لأهيب من سيف المجاج ؛ وهو مع ذلك يلطف بالأراميل والمساكين ، ويعين الفقراء والمحتاجين ؛ فقد أتضح لك القضييه ، وتحققت أنها سمات إرثيه .

فعند ذلك ذهب روعي ، وقوى روعي ؛ وقلت : فهل له أتباع من الكُتَّاب فاتعلق بعبائهم ، وأتسمى بهم في أقوالهم وأفعالهم ؛ ؛ لكى أتسم بسمه الكُتَّاب ، وأثبت في جملة غلمان الباب ؛ قال : أجل ! رأس الدست الشريف صنوه الكريم ، وقسيمه في حسبه الصميم ؛ به شد عضده ، وقوى كتده ؛ فأجتمع الفضل له

ولأخيه ، وورثنا سر أبيهما « والولد سر أبيه » ؛ ثم كتَّاب ديوان الإنشاء جُنْدُه
وأتباعه ، وأولياؤه وأشياؤه ؛ وكتَّاب الدست منهم أرفع في المقام ، وكتَّاب الدرج
أجدر بالكتابة وصنعة الكلام .

قلت : القسم الثاني أليق بمقداري ، وأقرب إلى أو طاري ؛ ثم ودعتُ صاحبي
شاكراً له على صنيعة وحامداً له على أدبه ، وتركته ومضيتُ وكان ذلك آخر العهد
به ؛ ثم عدتُ إليه هو فرغتُ إليه قصتي ، وسألته الإسعاف بإجابة دعوتي ؛
فقابلها بالقبول ، وأنعم بالمستول ؛ وقسرتني في كتابة الدرج الشريف ، وأكفني
بالعرف عن التعريف ؛ وطابق الخبر الخبر ، وأستغيتُ بالعيان عن الأثر ؛ ثم قمتُ
تجلاً ، وأنشدتُ مرَّجلاً :

إذا ما بنو الفاروق في المجد أعرفوا ، * ونالوا بفضل الله مالا كئيبه ،
وجلت دجى الظلماء أنوار بدرهم ، * وعمت بقاع الأرض أنواء فضله ،
تعالَتْ ذرى العلياء فيهم وأنشدت : * أبى الفضل إلا أن يكون لمثله !

ثم تشرفتُ بتقيل يده ، ومضيتُ إلى ما أنا بصددده ؛ قد منعتني هيبتي من اللياذ
به والقرب إليه ، وصيرتُ باطر مدحى وحالص أدعيتي وفقاً عليه ؛ وصرتُ إلى
الديوان ، فوجدتُ قوما قد حَفَّهُمُ الحُسنُ وزانهم الإحسان ؛ فقلتُ : الحمد لله !
هؤلاء فتية ذاك الكهف بلا أمراء ، وأشبال ذاك الأسد من غير آقراء ؛ بخلستُ
جُلوس الغريب ، وأطرفتُ أطراق الكئيب ؛ إذ كنتُ في هذه الصنعة عصامياً
لا عظامياً ، ومثماً لا تهايمياً ؛ غير أني تعلقتُ منها بجبال القمر ، وأستوقدتُ نارها
من أصغر الشرر ؛ فتلقوني بالرحب ، وأحلوني من ديوانهم بالمكان الرحب ؛ وقابلوني
بالجميل قبل المعرفة ، وعاملوني بالإحسان والنصفه .

فلما رأيتُ ذلك منهم حمِدْتُ مَسْرَايَ ، وشكرتُ مَسْعَايَ ؛ ودَعَوْتُ لِصَاحِبِي أَوَّلًا
إِذ حَبَبَ صَنَعَتَهُمْ إِلَيَّ وَشَاقَنِي ، ودَأَى عَلَيهِمْ وَسَاقَنِي .

ولما تحققتُ أَنِي قَدِ انْتَيْتُ فِي دِيْوَانِهِ ، وَكُنَيْتُ مِنْ جُمْلَةِ غُلَمَانِهِ ؛ رَجَعْتُ
الْقَهْقَرَى عَنْ طَلَبِ الْكَسْبِ ، وَأَسْتَوَيْتُ عِنْدِي الْمَحَلَّ وَالْحَصْبَ ؛ وَأَكْتَفَيْتُ
بِنَظَرِي إِلَيْهِ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَتَيَقَّنْتُ أَنْ نَظَرَهُ مِنْهُ إِلَى تَرْقِيئِي إِلَى السَّحَابِ ؛
وَتَلَوْتُ بِلِسَانِ الصَّدِّيقِ عَلَى الْمَلَأِ وَهُمْ يَسْمَعُونَ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَبْدَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وفيا تضمنته هذه المقامة من فضل الكفاية وشرف الكتاب مقنع من غيرها ،
ومغن عن سواها ، والحمد لله والمنة .



وهذه نسخة مقامة أنشأها أبو القاسم الخوارزمي في لفائه لأديب يعرف بالهيتي ،
وأقطعاه في البحث ، وغلبه الخوارزمي له . أوردها ابن حمدون في "تذكرته" وهي :
وَصِيَّةٌ لِكُلِّ لَيْبٍ ، مُتَبَقِّظٌ أَرِيْبٍ ، عَالِمٌ أَدِيْبٍ ؛ يَكْرَهُ مَوَاقِفَ السَّقَطَاتِ ، وَيَحْفَظُ
مِنْ مَصَادِفِ الْغَلَطَاتِ ، وَيَتَلَطَّفُ مِنْ مُخْزِيَاتِ الْفَرَطَاتِ ؛ أَنْ يَدْعَى دُونَ مَقَامِهِ ،
وَيَقْتَصِرَ مِنْ تَمَامِهِ ، وَيَغْضُ مِنْ سِهَامِهِ ؛ وَيُظْهِرُ بَعْضَ شِكِيمَتِهِ ، وَيُسَاوِمُ بِأَيْبَرِ
قِيَمَتِهِ ، وَيَسْتَرُ كَثِيرًا مِنْ بِيضَاتِهِ ، وَيَكْتُمُ دَقِيْقَ صِنَاعَتِهِ ، وَلَا يَبْلُغُ دَقِيْقَ غَايَةِ
أَسْتِطَاعَتِهِ ؛ وَأَنْ يُعَاشِرَ النَّاسَ بِصَدِّيقِ الْمُنَاصِحَةِ ، وَجَمِيْلِ الْمُسَاحَمَةِ ؛ وَأَنْ لَا يَجْمَلَهُ
الإعجاب بما يُحْسِنُهُ ، عَلَى الْأَزْدَرَاءِ بِنِ يَسْتَقْرِئُهُ ، وَالْأَقْبَرَاءَ عَلَى مَنْ يَعْتَرِضُهُ وَيُلْسِنُهُ ؛
لِيَكُونَ خُبْرُهُ أَكْثَرَ مِنْ خَبْرِهِ ، وَنَظَرُهُ أَرْوَعَ مِنْ مَنَظَرِهِ ؛ وَيَكُونَ أَقْرَبَ مِنَ الْأَعْتِدَارِ ،
وَأَبْعَدَ مِنَ التَّجْمَلَةِ وَالْأَنْكِسَارِ .

فليس الفتى من قال: إني أنا الفتى، * وليكنه من قيل: أنت كذلك.

وكم مدح ملكاً بغير شهادة * له نجيلة إن قيل: أن لست مالكا!

ولقد نصرت بالأتضاع، على ذى نباهة وأرتفاع؛ وذلك أنى أصدت في بعض
الأعوام، مع جماعة من العوام؛ بين تاجر وزائر، إلى العزلة والحائر؛ حتى آتينا
إلى قرية شارعه، أهلة زارعه؛ وما منا إلا من أملكته السمرية فأعترضته،
وأسقمته وأمرضته، وفترته فقبضته؛ وكثر منا الجوار، وأستولى علينا الدوار؛
فخرجنا منها خروج المسجون، وقد تقوسنا تقوس العرجون؛ فاسترحنا بالصعود،
من طول القعود:

كأنتا الطير من الأفقاص * ناجية من أحبل القناص،

طيبة الأنفيس بالخلاص * منفضات الريش والنواصي!

فما استتمت الراحة، ولا استقرت بنا الراحة؛ حتى وقف علينا واقف، وهتف
بنا هاتف؛ أيكم الخوارزمي؟ فقالوا له: ذلك الغلام المنفرد، والشاب المستند؛
فأقبل إلى، وسلم على؛ وقال: إن الناظر يستيرك، فليعجل إليه مصيرك؛ فقم
مع، يتقدمني وأتبعه؛ حتى آتتهى بي إلى جلة من الرجال، ذوى بهاء وجلال،
وزينة وجمال؛ من أشراف الأمصار، وأعيان ذوى الأخطار؛ من أهل واسط
وبغداد، والبصرة والسواد.

ترى كل مرهوب العمامة لا يما * على وجه بدر تحته قلب ضيعم!

فقام إلى ذو المعرفة لإكرامه، وساعده الباقون على قيامه، وأطال في سؤاله
وسلامه؛ وجذبوني إلى صدر المجلس فأبيت، ولزمت ذنابه وأحبيت؛ وأخذوا

يَسْتَخِيرُونِي عَنِ الْحَالِ ، وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَالِ ؛ وَدَاعِيَةَ الْإِرْتِحَالِ ؛ وَعَنِ النَّيَّةِ وَالْمَقْصِدِ ،
وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ ، وَالْجِيرَانِ وَالْبَلَدِ .

وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا حَفِيَّةٌ مُسَائِلٌ ، * وَوَأَصِفُ أَشْوَاقِي وَمُثْنٍ بِصَالِحِ ،
وَمُسْتَشْفِعٌ فِي أَنْ أُقِيمَ لَيْلِيًا * أَرْوِحُ وَأَعْدُو عِنْدَهُ غَيْرَ بَارِحِ !

ثم قال قائلهم : هل لقيت عين الزمان وقلبه ، ومالك الفضل وربّه ، وقليب الأدب
وغرّبه ؛ إمام العراق ، وشمس الآفاق ؟ . فقلت : ومن صاحب هذه الصفة المجهولة ،
والكناية المجهولة ؛ فقالوا : أو ما سمعت بكامل هيت ، ذي الصوت والصيت ؟ :

ذَلِكَ الَّذِي لَوْعَاشَ [دَهْرًا] إِلَى * زَمَانِهِ ذَا وَأَبْنُ صُوحَانِ ،
وَأَبْنُ دُرَيْدٍ وَأَبُو حَاتِمٍ * وَسَيَّبِيهِ وَأَبْنُ سَعْدَانَ ،
وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ وَأَبْنُ الْعَلَا * وَأَبْنُ سُكْرِيذٍ وَأَبْنُ صَفْوَانَ .
قالوا بحباب كلهم : إنه * سيدنا ، أو قال : غلمانِي .

فقلت لهم : قد قلديتم المنه ، وهيجتم الحنه ؛ إلى لقاء هذا العالم المذكور ، والسيد
المشهور ؛ وقد كانت الرياح تأتيني بنفحات هذا الطيب ، وهدير هذا الخطيب ؛
فالآن لا أثر بعد عين ، سأصبح لأجله عن سرى القين ؛ آغتنا ما للفائدة ، والنعم
البارده ، ووجدنا للضالة الشارده .

أَيْنَ أَمْضَى وَمَا الَّذِي أَنَا ابْنِي * بَعْدَ إِدْرَاكِ الْمُنَى وَالطَّلَابَا ؟
فَإِذَا مَا وَجَدْتُ عِنْدَكُمْ الْعِلْمَ قَرِيبًا فَمَا أُرِيدُ الثَّوَابَا .
إِذْهَبُوا أَتَمُّ فُزُورُوا عَلِيًّا : * لِأَزُورَ الْهَيْبَتِي وَالْآدَابَا :
لَنْ أَبَالِي إِنْ قِيلَ الْخَوَارِزُ * مَتَى أَخْطَأَ فَعْبَلَهُ أَوْ أَصَابَا !

فقال الجماعة : بل أصبت ، ووجدت ما طلبت ؛ وقديماً كنا ننشرُ أَعْلَاقَكَ ،
وَنَمْنَى أَمْتَفَاكَ ؛ وتداولُ أَوْصَافَكَ ، وَنُحِبُّ مَضَافَكَ ؛ وَنُكْبِرُ لَدَيْهِ ذِكْرَكَ ، وَنُعْظَمُ
لَدَيْهِ قَدْرَكَ ؛ فَفِيحْرُكَ مِنْكَ سَا كُنْهُ ، وَنَتَقَلُّ بِكَ أَمَا كُنْهُ ؛ وَنَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْ
يَجْمَعَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ بِحَضْرِنَا ، وَتَلَامِحَ عَيْنِكَ عَيْنَهُ بِمَنْظَرِنَا ؛ وَيُلْتَفُّ غُبَارُكَ بِغُبَارِهِ ،
وَيَمْتَرِجُ تِيَارُكَ بِتِيَارِهِ ، وَيَخْتَلِطُ مِضْمَارُكَ بِمِضْمَارِهِ ؛ فَيُعْرِفُ مِنْكَ السَّابِقُ وَالسَّكِينُ ،
وَالسُّوْدَانِيُّ وَالْكَمِيْتُ ؛ وَيَتَّبِعُنِي مِنَ الذِّي يَحْوِي الْقَصَبُ ، فَانْكَرَا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

هُمَا رُحْمَانِ خَطِيَّانِ كَانَا * مِنَ السُّمْرِ الْمُتَقَفِّ الصَّعَادِ

تُهَالِ الْأَرْضُ أَنْ يَطَّأَ عَلَيْهَا * بِمِثْلِهِمَا نُسَالِمُ أَوْ نُعَادِي !

فقال [بعض الجماعة] لقد تتكبتُم الإنصاف ، وأخطأتم الاعتراف ؛ وأبعدتم
القياس ، وأوقعتُم الالتباس ؛ أَيْنَ أَيْنُ ثَلَاثِينَ ، إِلَى أَيْنِ ثَمَانِينَ ؟ ؛ وَأَيْنُ اللَّبُونُ ،
مِنَ الْبَازِلِ الْأُمُونِ ؟ ؛ وَالرُّمْحُ الرَّازِحُ ، مِنَ الْجَوَادِ الْقَارِحِ ؟ ؛ وَالكَوْدُنُ الْمَبْرُوضُ ،
مِنَ الْمُجْرَبِ الْمَرْوُضِ .

وَأَيْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لَزَّ فِي قَرْنٍ * لَمْ يَسْتَطِيعْ صَوْلَةَ الْبُرْلِ الْقَنَاعِيْسِ !

كَمْ لَدَيْهِمْ بَطَائِحُ وَسَبَاحُ ، وَسَاكِنُ صَرَائِفُ وَأَكْوَاخُ ، بَيْنَ يَدَيْهِ سَوَادِيَةِ أَنْبَاطُ ،
وَعُلُوجُ أَشْرَاطُ ، وَرِعَاعُ أَخْلَاطُ ، وَسِفْلُ سُقَاطُ ؛ فِي بِلْدَةٍ إِنْ رَأَيْتُ سُورَهَا ،
وَعَبَرْتُ جُسُورَهَا ، صَحْتُ : وَاعْرَبْتَاهُ ، وَإِنْ رَأَيْتُ وَجْهًا غَرِيبًا نَادَيْتُ : وَابْتَاهُ ؛
لَا أَعْرِفُ غَيْرَ النَّبِطِيَّةِ كَلَامًا ، وَلَا أَلْقَى سِوَى الْوَالِدِيِّ إِمَامًا ؛ فِي مَعْشَرٍ مَا عَرَفُوا
التَّرْحَالَ ، وَلَا رَكِبُوا السَّرُوجَ وَالرَّحَالَ ، وَلَا فَارَقُوا الْحِدَارَ وَالطَّلَالَ .

أَوْلَيْكَ مَعْشَرُ كَبَنَاتِ نَعِيشٍ * خَوَالِفَ لَا تَعُورُ مَعَ النُّجُومِ !

[فأثنى له] بمصاولة رجلٍ جَوَّالٍ، رَحَّالٍ حَلَّالٍ؛ بهيتٍ وُضِعَ، وبالكُوفَةِ أُرِضِعَ؛
 وببغدادٍ أَثَغَرَ، وبواسطٍ أَحْفَرَ؛ وبالحجازِ وتِهَامَةَ فِطَامَهُ، وبمِصَرَ والمَغْرِبِ كَانَ أَحْتِلَامُهُ؛
 وببجْدِ والشَّامِ بَقَلَ عَارِضُهُ، وباليَمَنِ وعِمانَ قَوَيْتُ نَوَاهِضُهُ؛ وببِجْرَاسَانَ بَلَغَ أَشَدَّهُ،
 وببُخَّارًا وَسَمَرْقَنْدَ تَنَاهَى جِدَّهُ؛ وبغَزْنَةَ والهِندِ شَابَ وَأَكْتَهَلَ، ومن سَيَّحُونَ وَجِيحُونَ
 عَلٌّ وَنَهْلٌ؛ وبمِيسَانَ والبَصْرَةَ عَوَّدَ وَقِرِحَ، وبالجِبَالَ جَلَّهَ وَجَلِجَ؛ فهو يَعْدُ
 «المَازِنِيَّ» إمامه، وَأَبْنُ «جِنِّيَّ» ذِلامه؛ و«المُنْتَهِيَّ» من رُؤايته، و«المَعْرِيَّ» حَامِلَ
 دَوَاتِهِ؛ و«الصَّابِيَّ» بَارِيَ قَلَمِهِ، و«الصَّاحِبَ» رَافِعَ عِلْمِهِ؛ و«أَبْنُ مَقْلَةَ» من نَاقِلِ
 غَاثِيَتِهِ، و«بَنِي أَبِي حَفْصَةَ» بَعْضَ حَاشِيَتِهِ؛ وقد قرَأَ الكُتُبَ وتَلَّاهَا، وحَفِظَ العُلُومَ
 ورواها، ودرَسَ الآدابَ ووعاها؛ ودَوَّنَ الدَّوَاوِينَ وألْفَها، وأنشَأَ الحِكمَ وَصَنَفَها؛
 وفَصَّلَ المُشْكَلاتِ وَشَرَحَها، وأرْتَجَلَ الخُطَبَ وَقَصَّها؛ فهو البَحْرُ المَورُودُ، والإمامُ
 المَقْصُودُ، والعَلَمُ المَضْمُودُ، هذا بَوْنٌ ومَرْتَقٌ شَدِيدٌ .

أَتَلَقُونَ بِالْأَعْرَبِ الرَّايِحَا، * وبالأَكْشَفِ الحَاسِرِ الدَّارِعا،

وبالكُودِنِ السَّابِقِ السَّابِحَا، * وبالمُنْجِلِ الصَّارِمِ القَاطِعَا؟

فما أستم كلامه حتى أقبل : فاذا نحنُ به قد طلع مُهْرُولا، وأقبلَ مُسْتَعْجِلا؛
 فرأيتُ رجلاً أَجَلَحَ، أَهَمَّ أَفْلَحَ، أَفْطَحَ أَرْدَحَ؛ طَوِيلًا عَنطَنَطَ، يَحْكِي ذِئبًا أَمْعَطَ،
 أَجْمَعُ أَحْبَطَ؛ فَتَلَقَوْهُ مُعْظَمِينَ، وله مُفْجَمِينَ؛ فَقَصَدَ في المَجْلِسِ صَدْرَهُ، وَأَسْنَدَ
 إلى المِخْدَةَ ظَهْرَهُ؛ فما أَسْتَقْرَبَهُ المِكانَ، حتى قِيلَ له : هذا فُلانٌ؛ فَقبَضَ من أَثْفِهِ،
 ونَظَرَ إلى بَشِطِرٍ من طَرَفِهِ؛ وقالَ بِيَعِضِ فِيهِ، هَلُمُّوا ما كُنتم فِيهِ؛ تَعَسًّا للشَّوْهَاءِ
 وَجَالِييها، والقَرِءاءِ وَجَالِييها :

جاءَ زَيْدٌ مُجَرِّراً رَسَنَهُ * فخل لا يَمْنَعُه سِنَنُهُ (?)

أَحَبُّهُ قَوْمُهُ على شَوْءٍ * إن القَرَنِيَّ في عَيْنِ أُمَّها حَسَنَهُ !

كان لنا شيخ بالأنبار، كثير الأخبار؛ قد بلغ من العمر أملاه، ومن السن أعلاه؛ قرأت عليه جميع الكتاب، وعلم الأنساب؛ و"مسائل ابن السراج"، و"ديوان ابن العجاج"، و"كتاب الإصلاح"، و"مشروح الإيضاح"، و"شعر الطرماح"، و"العين" للفهرودي، و"الجمهرة" للأزدى؛ وأكثر من المصنفات، المجهولات والمعروفات؛ ينفخ في شقاشقه، ويزيد في بقايقه، ويتعاطم في مخارقه؛ وجعل القوم يقسمون بيننا الألفاظ، ويحسبون الألفاظ؛ وما منهم إلا من آغناظ لسكوتي وكلامه، وتأخري وإقدامه .

ثم هذى الشيخ إذ وُصف له رجلٌ على الغيب ثم رآه، فاحتقره وأزدراه؛ وأنشد مُمَثَّلًا :

لعمري أريك تسمع بالمعيدي * بعيد الدار خير أن تراه

فقال : هذا المعيدي هو صمرة، بن صمرة، بن جابر، بن قطن، بن نَهْشَل، بن دارم، بن مالك، بن حنظلة، بن مالك، بن زيدمناة، بن تميم، بن مرة، بن أد، ابن طابحة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان . والمعيدي تصغير معدي، وهو الذي قالت فيه نأديته :

أني الكريم النهشلي المصطفى * أكرم من خامر أو تخندفا!

فقلت : ما بعد هذا المقال، وجهٌ للاحتيال؛ وما يجب لي بعد هذه المواقفه، غير المكافه؛ ولم يبق لي بعد المغالبه، من مراقبه :

ما علي وأنا جلد نابل^(١) * والقوس فيه وتر عنابل

* تزل عن صفحته المعابل ! *

(١) كذا في اللسان في مادة - طل - وفي مادة عنبل "نخب خائل" .

ماعلى وأنا [رجل] جلد * والقوس فيه وتر عرد

• مثل ذراع البكر أو أشد •

فعطفت عليه عطف النائر العاسف ، وألثفت إليه ألثفات الطائر الخاطف ؛
 فقلت له : يا أخاهيت ، قد قلت ماشيت ، فأجب الآن إذا دُعيت ، وألزم مكانك ،
 وغض عيناك ، وقصر لسانك ؛ إن ناديت صمرة خندقته ، لما وصفته ؛ وما سمعت
 في نسبتي إياه لخندق ذكرا ، فأين عن ذلك عذرا ؛ فقال : إن خندق هي امرأة
 ألياس بن مضر ، غلبت على بنينا فنسبوا إليها ، كطهية ومزينة ، وبلعدوية وعريته ،
 والسلكة وجهينه ، ونذبة وأذينة ؛ وكشيب بن البرصاء وابن الدعماء . فقلت له :
 سئلت ، فأجبت وأصبت ؛ فأخبرني عن خندق هل هو اسم موضوع ، أو لقب
 مصنوع ؛ فوقف عند ذلك حماره ، وتحدث ناره ؛ وركد جريانه ، وسكن هديانه ،
 وقتر غليانه ، وظهر حرانه ؛ ودل وأنقمع ، وأنطوى وأجتمع ؛ فاضطره الحياء ، وأجلاه
 الاستجداء ؛ إلى أن قال وهو يخفى لفظه ، ويطرق لفظه : أظنه لقباً . فقلت : هو
 كما ظننت فما معناه وما سببه ؟ وكيف كان موجب ؟ فلم يجد بدا من أن يقول :
 لا أدري ، فقال وقد أذقته مر الإماتة ، وأحس من القوم بتظاهر الشماتة :

وودَّ يجذع الأثف لو أن صحبه • تنادوا وقالوا في المناخ له : نم !

ثم أقبلوا إلى ، وعكفوا على ؛ بأوجه مهله ، وألسنة متوسله ؛ في شرح الحال ،
 والقيام بجواب السؤال ؛ فقلت : هذا بديع عجيب ، أنا أسأل وأنا أجيب ؛ إن ألياس
 ابن مضر تزوج ليلي بنت ثعلبة^(١) ، بن حلوان ، بن الحاف ، بن قضاة ، بن معد ،
 (في بعض النسب) ، فولد له منها : عمرو وعامر وعمير . ففقدتهم ذات يوم ، فالحى

(١) صوابه بنت حلوان بن عمران .

على ليلى باللوم، فقال: أخرجى في أثرهم، وأبيني بغيرهم؛ فمعت في طلبهم، وعادت بهم؛ فقالت: ما زلت أحنف في آتباعهم، حتى ظفرت بلقائهم؛ فقال لها ألياس: أنت حنيفة. والحنيفة في الاتباع، تقارب الخطي في إسراع؛ وقال عمرو: يا أبتى أنا أدركت الصيد فلويته، فقال له: أنت مدركة إذ حويته. وقال عامر: أنا طبخته وشويته. فقال له: أنت طائخة إذ شويته. فقال عمير: أنا أنعمت في الخباء، فقال له: أنت قعمة للاختباء؛ فلصقت بها وبهم هذه الألقاب، وجرت بها إليهم الأنساب.

فقال حينئذ: هذا علم استفدته، وفضل استردته؛ وقد قال الحكيم: مذاكرة ذوي الألباب، نساء في الآداب. فقلت له ممتلا:

أقول له والريح ياطر منته * تأمل خفافا: إنني أنا ذليكا!

ثم لم يحتسب إلا قليلا، ولم يمسك طويلا؛ حتى عاد إلى هديره، وأخذ في تهديره؛ طمعا بأن يأخذ بالنار، ويعود الفيض له في القمار؛ فعدل عن العلوم النسبية، وجال في ميدان العريسة؛ ولم يحس أن بآه فيها أقصر، وطرفه دون حقائقها أحسر؛ فقال: حضرت يوما حبة من حبات العلوم، وموسما من مواسم المنثور والمنظوم؛ وقد غص بكل خطيب مصقع، وحكم مقنع، وعالم مصدع؛ وملي من كل عتيق صهال، وقتيق صوال، ومنطيق جوال؛ فأخذوا في فنون المعارضات، وصنوف المناقضات؛ وسلكوا في معاني القريض، كل طويل عريض؛ حتى أخذ السائل منهم بالمخفق، بيئت [الفرزدق] (١):

وعص زمان يا ابن مروان لم يدع * من المال إلا مسححا أو مجلف!

(١) الزيادة من اللسان مادة - من ح ت - و - ج ل ف - .

فَكَثُرَ فِيهِ الْجِدَالُ ، وَطَالَ الْمَقَالَ ؛ وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ أَجَادَ الْقِيَاسَ ، وَأَصَابَ
 الْفِرْطَاسَ ؛ وَوَقَعَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَأَتَى بِالْتَّحْقِيقِ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ فِي عَمْرِيَتِهِمْ سَاهُونَ ،
 وَفِي ضَلَالَتِهِمْ يَعْهَمُونَ ؛ فَنَادَيْتُهُمْ : إِلَى فَسَارِعُوا ، وَمِنِّي فَاسْتَمِعُوا ؛ فَإِنِّي أَنَا ابْنُ بَيْدَتِيهَا ،
 وَعَالِمُ مَا تَحْتُ جِلْدَتِيهَا ؛ ثُمَّ إِنِّي أَبَدَيْتُ لَهُمْ سِرَّارَهُ ، وَأَبْقَيْتُ نَارَهُ ؛ وَحَلَلْتُ عَقْدَهُ ،
 وَمَحَضْتُ زُبْدَهُ ، وَأَطْرَقْتُ لَبَدَهُ ؛ وَبَيَّسْتُ حَجْرَهُ ، وَأَبْتَنْتُمْ حُجْرَهُ وَبُجْرَهُ ؛ فَقَالُوا : لِلَّهِ
 أَبُوكَ ! فَإِنَّكَ أَسْبَقْنَا إِلَى غَايِهِ ، وَأَكْشَفْنَا لَغَايِيهِ ؛ وَأَجَلْنَا لَشُبْهِهِ ، وَأَضْوَأْنَا فِي بَدْهِهِ ؛
 وَمَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِهَا مَنْ يَقُومُ بِعِلْمِ مَا فِيهِ ، وَيَطْلِعُ عَلَى خَافِيهِ .

فَادْرَكْنِي الْأَمْتَمَاضَ ، وَأَخَذْنِي الْأَيْتِمَاضَ ؛ فَانْشُدْتَهُ :

مَنْ ظَنَّ أَنَّ عُقُولَ النَّاسِ نَاقِصَةٌ * وَعَقْلُهُ زَائِدٌ أَزْرَى بِهِ الطَّمَعُ !

وَقُلْتُ لَهُ : أَدَّعَيْتَ ، فَوْقَ مَا وَعَيْتَ ؛ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْبَيْتِ ، يَا مُجْرِي
 الْكُتَيْبِ ؛ وَكَيْفَ نُشِدُّهُ : وَعَضُّ بِالْفَتْحِ أَوْ وَعَضُّ بِالضَّمِّ ؟ فَقَالَ : كِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ ،
 فَقُلْتُ : تَبْتَدِئُ بِالْفِعْلِ ثُمَّ تَعُودُ إِلَى الْأَمِّ يَازَا الْإِعْجَابَ ، تَهْيَأُ لِلسَّائِلِ فِي الْجَوَابِ ؛
 وَأَخْبِرْنِي لِمَ فَتَحَتِ آخِرَ الْمَاضِي ؟ فَاسْرِعْ مِنْ غَيْرِ التَّمَاضِي ، وَقَالَ : لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ ،
 لَا يُضَافُ سِوَاهُ إِلَيْهِ . فَقُلْتُ : هَذَا جَوَابٌ نَعْلَمُهُ ، وَمِنْ صِبْيَانِ الْمَكْتَبِ لَا نَعْدِمُهُ ؛
 وَإِنَّمَا أَلْتَمِسُ مِنْكَ الْفَائِدَةَ فِيهَا ، وَأَطْلُبُ كَشْفَ خَافِيهَا . فَقَالَ : مَا جَاءَ عَنْ أُمَّةِ
 النُّحَاهِ ، وَسَائِرِ الرُّوَاهِ ؛ فِي هَذَا غَيْرُ مَا شَرَحْتُهُ ، وَلَا زَادَ عَلَيَّ مَا أَوْصَحْتُهُ . فَقُلْتُ : دَعِ
 عَنْكَ هَذَا وَأَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا الْبِنَاءِ ، أَلِغَلَّةِ أَمْ لَغَيْرِهَا ؟ فَأَقْبَلَ يَتَرَدَّدُ وَيَتَرَحَّرَجُ ، وَيَتَنَابَّ
 تَارَةً وَيَتَنَحْنَحُ . فَلَمَّا سَدَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِهِ ، وَحَصَلَ فِي مَضِيقِهِ ، وَغَضَّ بِرِيقِهِ ؛
 قَالَ : لَا أَعْلَمُ ! . فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : أَعْدَرَ إِلَيْكَ مِنَ الْوَيْ سِلَاحِهِ ، وَغَضَّ جِمَاحَهُ ؛
 وَمَنْ أَدْبَرَ بَعْدَ إِقْبَالِهِ ، عُدِلَ عَنْ قِتَالِهِ :

والحقُّ أبلجٌ لا يُحمدُ سبيلُهُ . والحقُّ يعرفهُ ذُوو الألبابِ !

والآن فقد فازتِ قَدَاحُك ، وبانتِ غُرْرُكَ وأوضَاحُك ؛ وأجَدتِ النَّضالَ ،
وأذركتِ الحِصَالِ ؛ فأوضِحْ لنا عَمَّا سَأَلتِ ، وأرشدنا إلى ما دَلَّلتِ ؛ لئلا يُقالَ : هذا
بَهتٌ ، ومُحَالٌ بَحَّتْ ؛ فقلتُ حُبًّا وكرَامَةً ، اِسْمَعُ أَنْتَ يَا طَغَامَهُ ؛ إِنَّ الفِعلَ من
فَاعِلِهِ ، كالوَلَدِ من نَاجِلِهِ ؛ لا يَخْلُو الفِعلُ من عَلامَةِ الفَاعِلِ ، في لَفِظِ كُلِّ نَائِلٍ ؛
وهي الفَتْحَةُ من مَاضِيهِ ووَاقِعِهِ ، والزَّوَائِدُ في مُسْتَقْبَلِهِ ومُضَارِعِهِ . وبيانُ ذلكَ :
أن الفَتْحَةَ لا تكونُ مع النِساءِ والنونِ ... (١) ... فثبتتِ الفَتْحَةُ ، ثم تقولُ : أَخْرَجْتُ
وأخْرَجْنَا ، قُسِّطُ ما ذَكَرنا ؛ وعلامتانِ لمعنى محالٍ ، لا يوجههما الحالُ . فإن كانتِ
النونُ التي مع الألفِ صَمِيرَ المَفْعُولِ عَادتِ الفَتْحَةُ ، فتقولُ : أَخْرَجْنَا الأَمِيرُ ، فهذا
بينُ . فَصَفَّقَتِ الجماعةُ وسمحتُ ، وحسنتُ وبجحتُ ؛ وجعلَ الأديبُ يضطَّرِبُ
أضطَّرَابَ العُصفُورِ ، ويتَقَلَّبُ تَقَلَّبَ الصُّقُورِ ؛ مُتَبَقِّناً أن أسَدَهُ صارَ جُرْدًا ،
وبَازِيَهُ عادَ صُرْدًا ؛ ودوره انقلبتِ مَحْشَلِبًا (؟) ، وزَيْتُونَهُ تحوَّلَ عَرَبِيًّا ، وقنَاهُ تَغَيَّرَ
قَصَبًا ؛ وأن مُسْتَقِيمَهُ تَعَوَّجَ ، وجَيْدَهُ تَبَهَّرَجَ ، وصَحِيحَهُ تَدَخَّرَجَ ، وجَدِيدَهُ تَكَّرَجَ ؛
فقال مُنْشِدُهُم :

تَرَى الرَّجُلَ النَّجِيفَ قَتَرَدْرِيهِ . وَتَحْتَ نَيْبِهِ أَسَدٌ مَزِيرِي ،
وَيُعِجِبُكَ الطَّرِيرُ فَنَبْتَايِهِ . فَيُخَافُ ظَنِّكَ الرَّجُلُ الطَّرِيرُ .
فما عِظَمُ الرَّجَالِ لِمَ بَفَخِرِ . وَلِئِنْ نَفَرَهُمُ كَرَمٌ وَخَيْرُ !

فأخَذَهُ الأَبْلَاسُ ، وضاقَتْ به الأَنْفَاسُ ، وسَكَنَتْ مِنْهُ الحَوَاسُ ، ورَفَضَهُ
النَّاسُ ؛ وجعلَ يَنْكُتُ الأَرْضَ ، ويُوَاصِلُ بِكَفِّهِ العَضَّ ؛ ويتَشَاءَمُ بِيوْمِهِ ،

(١) بياض بالأصول .

ويعودُ على نفسه بلومه ؛ يمسحُ جبينه ، ويكثرُ أيبته . فقامتُ فقامتُ معي الجماعة
وتركتُه ، وأستهانتُ به وفركتُه ؛ فلما بقيَ وحده ، تمنىَ لحدّه ؛ وأسبلَ دمعته ،
وودَّ أن الأرضَ بلعته :

وكان كمثل البومائين روم * تلوذُ يحقويه السراة الأكار ،
فاصبحَ مثل الأجرِبِ الحلدِ مُفردًا * طريدًا فما تدنو إليه الأباغر !

فقام فتبعني ، ووقف وودعني ؛ وأطال الاعتذار ، وأظهر التوبة والاستغفار ؛
وقال : مثلك من ستر الخلال ، وأقال العثرة والزلل ؛ فقد أقررتُ من سنك بالحدائمه ،
ومن أخلاقك بالدمائمه . فقلتُ : كلُّ ذلك مفهومٌ معلوم ، وأنت فيه معذورٌ
لا ملوم ؛ وما جرى بيننا فهو منسيٌ غير مذكور ، ومطويٌ غير منشور ، ومخفيٌ
غير مشهور :

و[جدال] أهل العلم ليس بقادح * ماين غالبهم إلى المغلوب !

ثم سكتَ فما أعاد ، ونزلتُ وطاد ؛ وكان ذلك أولَ عهدٍ به وآخره ، وباطنَ
لغائه وظاهره ، وكلَّ أجماعٍ وسائرِه .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في الرسائل)

وهي جمع رسالة ، والمرادُ فيها أمورٌ يرتبها الكاتبُ : من حكاية حالٍ من عدوِّ
أو صديق ، أو مدحٍ وثناءٍ ، أو مقانرةٍ بين شيئين ، أو غير ذلك مما يجرى هذا
المجرى . وسميتُ رسائل من حيثُ إنَّ الأديبَ المنشئَ لها رَجَمًا كَتَبَ بها إلى غيره

مُخْبِرًا فِيهَا بِصُورَةِ الْحَالِ، مُفْتَتِحَةً بِمَا تُفْتَحُ بِهِ الْمَكَاتِبَاتُ، ثُمَّ تُوسَعُ فِيهَا فَانْتَحَتْ بِالْحُطْبِ وَغَيْرِهَا .

ثم الرسائل على أصناف :

الصنف الأول

(منها الرسائلُ الملوكة ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(رسائلُ الغزو ، وهي أعظمها وأجلها)

وهذه نسخة رسالة أنشأها القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، بفتح [الملك الظاهر] لقيسارية من بلاد الروم، وأقتلاعها من أيدي التتار، وأستيلائه على ملكها، وجلوسه على تخت بنى سلجوق، ثم العود منها إلى مملكة الديار المصرية . كتب بها إلى الصاحب بهاء الدين بن حنّا، وزير السلطان الملك الظاهر، ومعرفة ما كان في تلك الغزوة، وما أشتمت عليه حال تلك السفرة، وهي :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ بِسَاحَاتِ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ السَّيِّدِيَّةِ، الصَّاحِبِيَّةِ الْبَهَائِيَّةِ؛ لِأَنَّهَا لَا زَالَتْ رُكَّابُ السَّيْرِ تَحْتُ إِلَى أَرْجَائِهَا السَّيْرِ، وَصُرُوفُ الزَّمَنِ تُسَالِمُ خُدَامَهَا وَتُحِلُّ الْغَيْرَ بِالْغَيْرِ، وَلَا بَرَحَتْ مَوْطِنَ الْبِرِّ وَمَعْدِنَ الْجُودِ وَبَحْرَ الْكَرَمِ وَعُكَاظَ الْخَيْرِ؛ وَيُنْهَى بَعْدَ رَفْعِ أَدْعِيَتِهِ الَّتِي لَا تَزَالُ مِنَ الْإِجَابَةِ مَحُوطَةً، وَلَا تَبْرَحُ يَدَاهُ بِهَا مَبْسُوطَةً؛ أَنَّ الْعَيْدَ مِنْ شَانِهِمْ إِتْحَافُ مَوَالِيهِمْ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي سَفَرَاتِهِمْ مِنْ عَجَائِبِ، وَإِطْلَاعُهُمْ عَلَى مَا يَرَوْنَهُ فِي غَزَوَاتِهِمْ مِنْ غَرَائِبِ؛ لِيَقْضُوا بِذَلِكَ حُقُوقَ الْأَسْتِرْقَاقِ، وَتَكُونَ نِعْمَ سَادَاتِهِمْ قَدْ أَحْسَنَتْ لِأَفْوَاهِهِمُ الْأَسْتِنْطَاقَ؛ وَيَتَعَرَّضُوا لِمَا عَسَاهُ يَبِينُ مِنْ مَرَاحِمِهِمُ الَّتِي مَا عِنْدَهُمْ غَيْرُهَا يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَهَا بَاقٍ .

ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد، وأصبح كم له قصيد في مدح هذا البيت الشريف كل بيت منها بقصيد بيت القصيد؛ وأن في مآثره الرسائل التي قد شاعت، وضاعت نفعاتها في الوجود وكم رسالة غيرها في غيره ضاعت - رأى أن يُخفف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بلمح يختار منها من يؤلف، ويُسند إليها من يُورخ أو يُصنف؛ وإنما قصد أن يُخفف بها أبواب مولانا مع بسط القول واتساع كلماته، لأن الله قد شرف المملوك بعبودية مولانا: والله أعلم حيث يعمل رسالته؛ فإن كان المملوك قد طوّل في المطارحة، فمولانا يتطوّل في المسامحة؛ وإن قال أحد: هذا هذئ، فما زال شرح الوقائع مطوّلاً كذا؛ وتالله ما وُرخ مثلها في التواريخ الأول، ولعمري إن خيراً من سيرة ذلك البطال سيرة هذا البطال؛ والأمر أعلى في قراءتها واستماعها، والتأمل في حجاجها حتى تُسفر حسن نقابها وترفع مسدول قناعها،

.....

قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزّات الشريفة السلطانية، وأنها استصحبت ذلك، حتى تصفحت المهالك؛ وسرنا لا يستقر بنا في شيء منها قرار، ولا يُقتدح من غير مسابك الخيل نار، ولا تمر على مدينة إلا مرور الرياح على الخمايل في الأصائل والإبكار؛ ولا نُقيم إلا بمقدار ما يتريد الزائر من الأهبه، أو يتروّد الطائر من النعبه؛ تسبق وقد الرياح من حيث نتجى، وتكاد مواطئ خيلنا بما تسحبه أذيال الصوافين تمتجى؛ تحمّل همنا الخيل العتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق، وكلّ يقول لسلطاننا نصره الله:

أين أزمعت أيها هذا الهمام؟ * نحن نبئ الربا وأنت الغمام!

ومرّ لا يفعلُ السَّيفُ أفعاله ، ولا يسيرُ في مهمه إلا عمه ولا جليل إلا طاله ؛
تساريره السَّواري والغواذي ، ولا ينفكُ الغيثُ من أنسكابٍ في كلِّ نادرٍ ووادي :
فباشروا وجهها طالما باشر القنا ، * وبلى ثيابا طالما بلها الدم !

وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بأذراعٍ لاماتٍ حرهم ،
وحمل آلاتٍ طعنهم وضرهم :

بفازله حتى على الشمس حقه ، * وبأن له حتى على البدر ميمم .
يمد يديه في المقاضاة ضيغم * وعينه من تحت التريكة أرقم !

ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثاني ذى القعدة جرائد على الأمر المعهود ،
قد خففوا كل شيء حتى البنود والعمود ؛ فسرنا في جبالٍ نشتهى فيها سلوك الأرض ،
وأودية تهلك الأشواط فيها إذا ملئت الفروج من الرخص ؛ تزور ديارا ما تحب
مغناها ، ولا تعرف أفضاها من أذناها ، وأستقبلنا الدرب فكان كما قال المتنبي :

رمى الدرب بالخيال العتاق إلى العدا ^(١) * وما علموا أن السهام خيول ،
شوائل تسوال العقارب بالقنا * لها مرح من تحته وصهيل .
[وما هي إلا خطرة عرّضت له * بحزان لبثها قنا ونصول
همام إذا ما هم أمضى همومه * بأرعن وطء الموت فيه تقيل
وخيل براها الرخص في كل بلدة * إذا عرّست فيها فليس تقيل ^(٢)
فلما تجلى من دلوك وصنجة * علت كل طود رايه ورعيل

(١) الذي في ديوان المتنبي : بالجرد الجراد .

(٢) الزيادة من ديوان المتنبي .

عَلَى طُرُقِ فِيهَا عَلَى الطَّرِيقِ رِفْعَةً * وَفِي ذِكْرِهَا عِنْدَ الْإِنْسِ نَحْوُلُ!

وَمَرَرْنَا عَلَى مَدِينَةِ دَلُوكَ وَهِيَ رُسُومُ سُكَّانِهَا ، ضَاحِكَةٌ عَنِ تَبَسُّمِ أَزْهَارِهَا
وَقَهْقَهَةِ غُدْرَانِهَا؛ ذَاتُ بَرْوِجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وَأَرْكَانٍ مَوْطَدَةٍ ، وَبِرَّانٍ تَرَاوِيقِ مَوْقَدَةٍ ،
فِي عَمِيدٍ مِنْ بَكَائِسِهَا مُمَدَّدَةٍ ؛ وَبِرْنَا مِنْهَا إِلَى مَرْجِ الدِّيَابِجِ تَتَعَادَى ، وَذَلِكَ فِي لَيْلَةٍ
ذَاتِ أُنْدِيَةٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ جُمَادَى ؛ طُلُمَاتِهَا مُدْلِمَةٌ ، وَطُرُقَاتُهَا قَدْ أَصْبَحَ أَمْرُهَا
عَلَيْنَا عُمَةً ، لَا يَثْبُتُ تَرْبُهَا تَحْتَ قَدَمِ الْمَازِ ، وَكَأَنَّهَا سَالِكُهَا يَمْشِي عَلَى شَقَا جُرْفِ
هَارٍ ؛ فَبَيْنَا هُنَاكَ لَيْلَةً نَسْتَحْقِرُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى شِدَّتِهَا لَيْلَةَ الْمَلْسُوعِ ، وَتَمَّتْ الْعَيْنُ بِهَا
هَجْمَةً هُجُوعٍ ؛ وَأَخَذْنَا فِي آخِرَاتِ غَابَاتِ أَشْجَارِ نُحْفَى الرَّفِيقِ عَنِ رَفِيقِهِ ، وَتَشَغَلَهُ عَنِ
أَقْتِفَاءِ طَرِيقِهِ ؛ يَنْبَرِي مِنْهَا كُلُّ غُصْنٍ يُرْسِلُهُ الْمَتَقَدِّمُ إِلَى وَجْهِ رَفِيقِهِ ، كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ
بِقُوَّةٍ مِنْ مَنَجْنِيقِهِ ؛ حَوْلَهَا مَعَاثِرُ أَهْجَارٍ كَأَنَّهَا قُبُورٌ بَعَثَتْ ، أَوْ جِبَالٌ تَفَطَّرَتْ ؛ بَيْنَهَا
مَخَائِضٌ ، لَا بَلَّ مَغَائِضٌ ، كَأَنَّهَا بِحَارٌ بَحَّرَتْ ؛ مَا تَخْرُجْنَا مِنْهَا إِلَّا إِلَى جِبَالٍ قَدْ تَمَنَّقَتْ
بِالْحَدَاوِلِ وَتَعَمَّمَتْ بِالنُّلُوجِ ، وَعَمَّيْتُ مَسَالِكُهَا فَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ قَائِلٌ : فَهَلْ إِلَى
خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ أَوْ إِلَى سَبِيلٍ مِنْ خُرُوجٍ ؛ تَضَيِّقُ مَنَاهِجُهَا بِمَشْيِ الْوَاحِدِ ، وَتَلْتَفُّ
شَجَرَاتِهَا الْتِفَافَ الْأَكَامِ عَلَى السَّاعِدِ ؛ ذَاتُ أَوْعَارٍ زَلْفَةٍ ، وَصُدُورٍ شَرِيقَةٍ ، وَأُودِيَةٍ
بِالْمُرْدِيمِينَ مُحْتَنِقَةٍ ؛ بَيْنَا يَقُولُ مُتَّحِيهَا : قَدْ نَلْتُ السَّمَاءَ بِسُلَيْمٍ مِنْ هَذِهِ الشَّوَاهِقِ ،
إِذَا هُوَ مُتَضَائِلٌ قَدْ هَبَّطَ فِي مَازِقِ مُتَضَائِقٍ ؛ لَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْجِبَالُ تَأْخُذُنَا وَتَرْمِينَا ،
وَتِلْكَ الْمَسَارِبُ تَضُمُّنَا وَتِلْكَ الْمَشَارِبُ تُظْمِينَا :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِنَّا بَيْضَ أَوْجِهِنَا ، * وَ [لَا] تُسَوِّدُ بَيْضَ الْعُدْرِ وَالْأَيْمِ ،
[وَكَانَ حَالُهُمَا فِي الْحَكِيمِ وَاحِدَةً . لَوْ أَحْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكِيمٍ]

وَتَرَكُ الْمَاءَ لَا يَنْفَكُ مِنْ سَفَرِي ، * مَسَارَ فِي الْغَيْمِ مِنْهُ سَارَ فِي الْأَدَمِ !

حتى وصلنا الحدت الحمراء المسماة الآن بكينوك ومعناها المحرقة ، كان الملك
قُسْطَنْطِينُ وَالِدُ صَاحِبِ سَيْسٍ قَدْ أَخَذَهَا مِنْ أَصْحَابِ الرُّومِ وَأَحْرَقَهَا ، وَمَمْلَكُهَا
وَعَمَرَهَا ، بِقَصْدِ الضَّرَرِ لِبِلَادِ الْإِسْلَامِ وَالتَّجَارِ . فلما كان في سنة اثنتين وسبعين
وسبعائة سير مولانا السلطان إليها عسكر حلب فأنتحها بالسيف وقتل من كان بها
من الرجال وسبى الحرير والذرية ، ونحرت من ذلك الحين ، وما بقي بها من يكاد
يبين ؛ فشاهدنا ما بنى سيف الدولة بن حمدان منها والقنا تفرغ القنا وموج المنايا
حولها متلاطم ، وقيل حقيقة هناك : على قدر أهل العزم تأتي العزائم ؛ وهي التي
عناها أبو الطيب بقوله :

غَصَبَ الدَّهْرَ وَالْمُلُوكَ عَلَيْهَا * فَبِنَاهَا فِي وَجَنَةِ الدَّهْرِ خَالَا

فِيهِ تَمْشِي مَشَى الْعُرُوسِ أَخْيَالَا * وَتَنْتَى عَلَى الزَّمَانِ دَلَالَا !

فبناها وأبنتنا وخيلنا مبنوثة فوق الأحيدب كما نثرت الدراهم فوق العروس ،
وجيادنا على الركوب في أعلى العين تدوس ؛ إذا زلقت مشت كالأرقام على البطون ،
وإن تكاسلت بحر بعضها بعضا بالصهيل : « والحديث شجون » ؛ وخضنا في أثناء ذلك
مخاض سواخ ، كأنها لأجل عوم الخيل بها سمي كل منها لأجل ذلك سابع ؛ كلما
قلنا : هذا بحر قد قطعناه أعترض لنا جبل ، وكلما قلنا : هذا جبل قطعناه بأن لنا واد
يُستهان دون الهوى فيه نفاذ الأجل ؛ لم نزل كذلك حتى وصلنا كوكصوا (؟) وهو النهر
الأزرق ، وهو الذي رد الملك الكامل منه سنة الدربندات لما قصد التوجه إلى
الروم . وهذا النهر بين الجبال مهوى رجامها ، ومتوى غمامها ، وملوى زمامها ، وماوى
قنামها ؛ فللوقت عبرناه ركضا ، وأعجلت الخيل فما درت هل خاضت لجة أم قطعت

أَرْضًا، وَبَاتَ النَّاسُ مِنْ بَرِّ هَذَا النَّهْرِ الْآخِرِ وَأَصْبَحُوا مُتَسَلِّينَ فِي تِلْكَ الشَّمْسِ، وَوَقَعَ
السَّيَّاتِكُ يُسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ الصُّمِّ؛ حَتَّىٰ وَصَلُوا إِلَىٰ أَبْجَادِ بَنْدٍ فَمَا ثَبَّتَتْ يَدُ فَرَسٍ
لِمَصَالِحَةٍ صَفَاها، وَلَا نَعْلُهُ لِمَكَالِفَةٍ رَحَاها، وَلَا رِجْلُهُ لِمَطَارِحَةٍ قُواها، وَتَمَزَّتْ
الْحَيْلُ عَلَىٰ الْأَقْبِحَامِ وَالْأَزْدِحَامِ فِي التَّطَرُّقِ، وَتَعَوَّدَتْ مَا تَعَوَّدَتْهُ الْأَوْعَالُ مِنَ التَّسْرِبِ
وَالسَّلَاقِ؛ فَصَارَتْ نَحْطُ أَنْحِطَاطِ الْهَيْدَبِ، وَتَرْتَفِعُ آرْتِفَاعِ الْكَوْكَبِ؛ وَتَسْرِى
سَرِيانَ الْحَيْالِ، وَتُمْكِّنُ حَوَافِرَها الْحِيَادَ فَتَرُولُ مِنْهَا الْجِبَالَ؛ حَتَّىٰ حَصَلَ الْخُرُوجُ مِنْ
مُنْتَهَىٰ أَبْجَادِ بَنْدٍ وَهُوَ خِنَاقُ ذَلِكَ الْمَازِقِ الَّذِي كَمْ أَمْسَكَ عَلَىٰ طَارِقِ، وَفَمَّ ذَلِكَ
الدَّرْبِ الَّذِي كَمْ عَضَّتْ أُنْيَابُهُ عَلَىٰ مُسَاقِيقِ وَمُسَاقِيقِ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ نَافِئِ
ذِي الْقَعْدَةِ، وَبَاتَ السُّلْطَانُ وَالنَّاسُ فِي وَطْأَةٍ هُنَاكَ، وَسَمَّحَتْ السُّحُبُ بِمَا شَاءَتْ
مِنْ بَرْدٍ وَبَرْدٍ، وَجَاءَتْ الرِّيَّاحُ بِمَا آلَمَتِ الْجِلْدَ وَأَسْتَنْفَدَتِ الْجِلْدَ؛ وَأَنْتَشَرَتِ الْعَسَاكِرُ
فِي وَطْأَةٍ هُنَاكَ حَتَّىٰ مَلَأَتِ الْمَقَاوِزَ، وَمَلَكَتِ الطُّرُقَ عَلَى الْمَسَارِّ وَأَخَذَتْهَا عَلَى الْجَائِزِ؛
وَقَدَّمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَمِيرَ شَمْسُ الدِّينِ سُنْقَرًا الْأَشْقَرُ فِي الْجَلَالِشِ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْعَسَاكِرِ،
فَوَقَعَ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافِ فَارِيسٍ مِنَ التَّنَارِ مُقَدِّمُهُمْ كَرَايَ، فَانْهَزُمُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَأَخَذَ
مِنْهُمْ مِنْ قَدَمِ السَّيْفِ السُّلْطَانِيَّ فَأَكَلَ نَهْمَتَهُ وَأَسَارَ، وَأَسْتَمَزَّتْ تِلْكَ سُنَّةٌ فِيمَنْ
يُؤْخَذُ مِنَ التَّنَارِ وَيُؤَسَّرُ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ تَاسِعِ ذِي الْقَعْدَةِ .

وَبَاتَ التَّنَارُ عَلَىٰ أَجْمَلٍ تَرْتِيبٍ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَجْمَلٍ مَنظَرٍ، وَبَاتَ الْمَسَامُونَ عَلَىٰ أْتَمِّ
تَيْقُظٍ وَأَعْظَمِ حَدَرٍ؛ وَلَمْ يَتَحَقَّقُوا قُدُومَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فِي جُيُوشِ الْإِسْلَامِ، وَلَا أَنَّهُ
حَضَرَ بِنَفْسِهِ النَّفِيسَةَ لِيَقُومَ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ هَذَا الْمَقَامَ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ
عَاشِرُ ذِي الْقَعْدَةِ تَتَابَعَ الْخَبَرُ بِإِدِّ الْخَبَرِ بِأَنَّ الْقَوْمَ قَدْ قَرُبُوا، وَأَنَّهُمْ تَأَبُّوا وَوَثَبُوا :

وَقَدْ تَمَنَّوْا غَدَاةَ الدَّرْبِ فِي لَحَبٍ * أَنْ يُبْصِرُوهُ فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ عَمَّوْا !

وشرع مولانا السلطان فوصى جنوده بالثبوت عند المصدمه ، والاجتماع عند المصدمه ؛ ورتب جيش الإسلام الحبيب ، على ما يجب ، وأراهم من نور رأيه . لا على بصير ولا بصيرة يحتجب ، فطلعت العساكر مشرفة على صحرات هوني من بلد أبلستين ، وكان العدو ليلته تلك باثنا على نهر زمان ، وهو أصل نهر جهان ، وهو نهر جيحان المذكور في الحديث النبوي ، وإنما الأرمين لا تنطق بالهاء .

فلما أقبل الناس من علو الجبل شاهدوا المغل قد ترتبوا أحد عشر طلباً كل طلب يزيد على ألف فارس حقيقة ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلباً واحداً بقرده . ولما شاهدوا سناجق مولانا السلطان المنصورة ومن حولها من الممالك الظاهرية ، وعليهم الخوذ الصفر المقترحة ، وكأنها في شعاع الشمس نيراناً مقتدحه ؛ رجعوا إلى ما كانوا عقدها من العزائم لحلوا ، وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ؛ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، وعلى الموت يرأسلون ؛ فانصببت الخيل إليهم من أعلى الجبل أنصباب السيل ، وبطلت الخيلة منهم ونفى الخيل ؛ فشمروا عن السواعد ، ووقفوا وقفة رجل واحد ؛ وهؤلاء المغل كان طاغية التتار أبغا - أهلكه الله - قد آخترهم من كل ألف مائة ، ومن كل مائة عشرة ، ومن كل عشرة واحداً لأجل هذا اليوم ، وعرفهم بسيا الشجاعة وعرضهم لهذا السوم ؛ وكان فيهم من المقدمين الجكار تدلون ، ومعنى هذا الاسم النفاذ ، يعني أنه ما كان في عسكر قط إلا نغذه ، والمقدم الآخر هو (؟) وإليه أمر بلاد الروم وعساكر المغل بها ، وأرختوا أخو تدلون ، وبهادر بخشي . ومن مقدمي الألويف دزك ، وصهر أبغا ، وقرالقي وخواصه :

بيض العوارض طعانون من لحقوا * من القوارس شلالون للنعيم !

قد بلغوا بقناهم فوق طاغينه * وليس يبلغ ما فيهم من الهمم .

في الجاهليَّةِ إِلَّا أَنْ أَنْفُسَهُمْ * من طيِّبِينَ به في الأشهر الحُرِّمِ !
 فعند ما شاهدوا تجدد الملائكة ، وتحقَّقوا أن نفوسهم هالكة ، أخذت فرقة منهم
 إلى الأرض فقاتلت ، وعاجت المنايا على نفوسهم وعاجلت ، وباعت نفوس المسلمين
 لهم وتاجرت ، وكسرت وما كاسرت ، وجاء الموت للعدو من كل مكان ، وأصبح
 ما هناك منهم وقد هان ، وللوقت خذلوا وجدُّوا ، ولبطون السباع وحواصل
 الطيور حصلوا ، وصاروا مع عدم ذكر الله بأفواههم وقلوبهم ، يقاتلون قياماً وقعوداً
 وعلى جنوبهم ، فكَّم من شجاع الصق ظهره إلى ظهر صاحبه وحامى ، وناضل ورمى ،
 وكَّم فيهم من شهم ، ما سلم قوسه حتى لم يبق في كائنه سهم ، وذى سن طارح به فما
 طرحه حتى تسلَّم ، وذى سيف حادته بالصقال فما جلى محادثته حتى تكلم ، وأبانوا
 عن نفوس في الحرب أبيه ، وقلوب كفرة ونحوه عريته ، وأشدت فرقة من العدو
 من جهة الميسرة معرجين على السناجق الشريفة من خلفها ، متقلبين بصفوفهم
 على صفها :

فلزهم الطراد إلى قتال * أخذ سلاحهم فيه الفرار !

فتاب مولانا إليهم ، ووثب عليهم ، فضحى كل منهم بكل أشمط ، وأفرى الأجساد
 فأفرط ، ولحق مولانا السلطان منهم من قصد التحصين بالجبال فأخذهم الأخذة
 الرابيه ، وقتلهم فهل ترى لهم من باقيه ؟ :

وما الفرار إلى الأجدال من أسد * تمشى النعام به في معقل الويل ؟

وأنهزمت جماعة يسيرة طمع فيها من العواتم من كان لا يدفع عن نفسه ، وأخذتهم
 المهاوى فما نجا منهم إلا آيس من حياة غده في أمسه .

مضوا متسابقى الأعضاء فيه * لأرؤسهم بأرجلهم عثار

إِذَا فَاتُوا الرِّمَاحَ تَنَاوَلْتَهُمْ • بِرِمَاحٍ مِنَ العَطِشِ الفِقَارِ!

وقصدت مئينة عسكرنا جماعة من المغل ذوو بأس شديد، فقاتلهم المسلمون حتى
صَجَرَ الحديد من الحديد ؛ وكان مولانا الصاحب زين الدين - حرس الله جلالة -
لما دُعيت نزال أول مسابق ، وأسرع راشق ، وأقرب مطاعن ، وأعظم معاون ؛
فذكر من شاهده أنه أحسن في معركته ، وأجمل في كرتيه ، وأجاد في طعنته ؛ وزار
زينير الألب ، وسابق حتى لم يبق حيث ؛ ووقف دريئة للرماح من عن يمينه وشماله ،
وحضب بما تحدر من دم عدوه أخاف سرجه وعنان لحامه ، وكانت عليه من الله
باقية واقية في تقدمه وإقدامه ؛ وشاهدناه وقد خرج من وسط المعركة وهو ساكي
السلاح ، وقد أخذ نصيبه ونصيب فرسه من سالم الحراح ؛ وأراد الله أن لا يُخليه من
إسالة دم يعظم الله الأجر بسائله ، فجعله - والمئة لله - من بعض أطراف أنامله .

ولقد ذكر الأمير عز الدين أيذمر الدوادار الظاهري ، قال : لقيتني وقد تكسر
رُحِي ، وعاد - لولا لطف الله - إلى الحسارة رنجي ؛ فأعطاني المولى الصاحب
زين الدين رُحِيه فإذا فيه نُصُول ، وبسنه من قرايع الدارعين فلول ؛ ورأيت دُبُوسَ
المولى الصاحب زين الدين وقد تسلّم ، وكان الخوف عليه في ذلك اليوم شديداً
ولكن الله سلّم ؛ ولقد بلغ مولانا السلطان خبره فسأله فما أجابه بغير أن قال :
سيف مولانا السلطان هو الذي سَفَكَ ، وعزّمه هو الذي فَتَكَ .

وَمَنْ يَكُ مَحْفُوظًا مِنَ اللَّهِ فَلْتَكُنْ • سَلَامَتُهُ مِمَّنْ يُحَادِرُهُ كَذَا ،

وَيَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ مُسَلِّمًا • وَلَا مَنْ يُبِيدُهُ وَلَا نَالَهُ أَدَى !!

وأما العدو فتقاسم الأيدي ما يمتطونه من الصواهل والصوافن ، وما يصولون به
من سيوف وقبي وكناين ، وما يلبسونه من خود ودروع وجرايشن ، وما يملأونه

من جميع أصناف المعادين ؛ فغني ما هنالك ، وتسلم من استشهد من المسلمين رضواناً
وتسلم من قتل من الكفار مالك .

وكان الذين استشهدوا في هذه الواقعة من المقدمين : شرف الدين قيران العلابي ،
وعز الدين أخو الأمير جمال الدين محمدى . ومن المالك السلطانية : شرف الدين
فلحق (؟) الجاشنكير الظاهري ، وأبيك الشقيفي الذي كان وزير الشقيف . وكان
المجروحون عدّة لطيفة لم يعلم عددها لقاتها ، بل لحقتها ؛ وأورث الله المسلمين منازلهم
فتزولها ، ووطاقتهم وتحركاتهم فتعولوها ؛ وكان مولانا السلطان وكان أعداؤه كما قيل :
فَسَاهُمْ وَيُسْطَهُمْ حَرِيرٌ ، * وَصَبَّحَهُمْ وَيُسْطَهُمْ تُرَابٌ !!

وأصبح الأعداء لا ترى إلا أشلائهم ، ولا تبصر إلا أعيانهم ؛ كأنما جزر
أجسادهم جزائر تخللها من الدماء السيل ، وكأنما رؤوسهم المجموعة لدى الدهليز
المنصور أكر تلعب بها صوالجة من الأيدي والأرجل من الخيل :

أَلَقْتُ إِلَيْنَا دِمَاءَ الْمُغَلِّ طَاعَتَهَا * فَلوَدَعَوْنَا بِلا حَرْبٍ أَجَابَ دَمٌ!

فكم شاهد مولانا السلطان منهم مهيب الهامة ، حسن الوسامه ، تفرس في جهامة
وجبه الفخامة ، قد فاض الرشح فاه فقرع السن على الحقيقة ندامه :

ووجوهاً أخافها منك وجهه * تركت حسنها له والجمالاً!

أو كما قيل :

لأرحم الله أرؤساً لهم^(١) * أطرن عن هامهن أخافاً!

وأقبل بعض الأحياء من الأسارى على الأموات يتعارفون ، ولاخبار شجاعتهم
يتواصفون ؛ فكم من قائل : هذا فلان وهذا فلان ، وهذا كان وهذا كان ؛ وهذا

(١) في ديوان المنبي "لايرحم" .

كَانَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَهْزِمُ الْأَلُوفَ ، وَهَذَا يُقَرَّرُ فِي ذِهْنِهِ أَنَّهُ لَا تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ
الصُّفُوفُ ؛ وَكَثُرَتِ الْأَسَارِيُّ مِنَ الْمُغَلِّ فَاخْتَارَ السُّلْطَانُ مِنْ كِبَرَائِهِمُ الْبَعْضَ ، وَعَلَّ
فِيهِمْ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : (مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّىٰ يُخَيَّنَ فِي الْأَرْضِ) .
بِفِعْلِهِمُ لِلسُّيُوفِ طُعْمَهُ ، وَأُحْضِرَتِ الْأَسَارِيُّ مِنَ الرُّومِ فَتَقَرَّبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
فِيهِمُ الْإِلَّ وَالذَّمَّهُ :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ ، * وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يُحْفَظُ الْيَدَا !

وَكَانَ فِي جَمَلَةِ الْأَسَارِيِّ الرُّومِيِّينَ مُهْدَبُ الدِّينِ بَكْلَارَنْكِي ، يَعْنِي أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ
وَلَدُ الْبُرْوَانَاهُ ، وَنُورُ الدِّينِ جَاغَا أَكْبَرُ الْأَمْرَاءِ ، وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَمْرَاءِ الرُّومِ
وَمُقَدِّمِي عَسَاكِرِهِ ، فَكَانَ الْبُرْوَانَاهُ أَحَقَّ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

نَجَّوْتِ بِأَحْدَىٰ مُقْلَتِكَ جَرِيحَةً * وَخَلَفْتَ إِحْدَىٰ مُهْجَتِكَ نَسِيلًا !

أَسْلِمُ لِلطَّيِّبَةِ ابْنَكَ هَارِبًا * وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلًا ؟

لِأَنَّهُ شَمَّرَ الدَّلِيلَ ، وَأَمْتَطَىٰ - هَرَبًا - أَشْهَبَ الصُّبْحِ وَأَحْمَرَ الشَّفَقِ وَأَصْفَرَ الْأُصْبُلِ
وَأَذْهَمَ اللَّيْلِ ؛ وَثُمَّ يُخَيَّرُ مِنْ خَلْفِهِ بِمَا تَمَّ ، وَهَمَّ قَلْبُهُ رَفِيقَهُ حِينَ هَمَّ :

فَتَحْنُ فِي جَدَلٍ ، وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ ، * وَالْبُرُّ فِي سُغْلٍ ، وَالْبَحْرُ فِي تَجَلٍ ! !

وَدَخَلَ الْبُرْوَانَاهُ مَدِينَةَ قَيْصَرِيَّةَ فِي تَارِيخِ يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ ،
فَأَفْهَمَ غِيَاثَ الدِّينِ سُلْطَانَهَا ، وَالصَّاحِبَ نَخْرَ الدِّينِ بْنِ عَلْمَا (؟) وَالْإتَابِكَ مَجْدَ الدِّينِ ،
وَالْأَمِيرَ جَلَالَ الدِّينِ الْمُسْتَوْفِي ، وَالْأَمِيرَ بَدْرَ الدِّينِ مِيكَائِيلَ النَّائِبِ ، وَالْأَمِيرَ فُلَانَ
الدِّينِ الطُّغْرَائِي ، وَهُوَ وَلَدُ عَزِّ الدِّينِ أُنْحَى الْبُرْوَانَاهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَكْتُبُ طُرُقَ الْمُنَاشِيرِ -
أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَسَرُوا بَعْضَ الْمُغَلِّ وَبَقِيَّتُهُمْ مُنْهَزِمُونَ ، وَيُخَشَىٰ مِنْهُمْ دُخُولُ قَيْصَرِيَّةَ
وَإِتْلَافُ مَا يَكُونُ بِهَا فِي طَرَائِفِهِمْ حَقَّقًا عَلَى الْإِسْلَامِ . فَأَخَذَهُمْ جَرَانْدٌ ، وَأَخَذَ

زَوْجَتَهُ كُرْحَى خَاتُونُ بِنْتُ غِيَاثِ الدِّينِ صَاحِبِ أَرْزَنِ الرُّومِ ، فَاسْتَصَحَبَتْ مَعَهَا
أَرْبَعًا مِائَةَ جَارِيَةٍ لَهَا ، وَكَانَ لَهَا مَالًا كَانُ لَصَاحِبِ الرُّومِ مِنَ البَخَائِيِّ وَالخِيَامِ وَالآلَاتِ ،
وَتَوَجَّهُوا كُلُّهُمْ إِلَى جَرِهِ تَوَقَّاتِ (؟) وَهُوَ مَكَانٌ حَصِينٌ مَسِيرَةُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ مِنْ
قَيْصَرِيَّةَ . وَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ قَيْصَرِيَّةَ حَمَلَهُمْ عَلَى سُرْعَةِ الحَرْبِ ، وَأَنْذَرَهُمْ عَذَابًا قَدْ
اقْتَرَبَ ؛ وَهَوَّلَ عَلَى بَقِيَّةِ أُمَرَاءِ الرُّومِ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَأَخْفَى البرواناهُ أَمْرَهُ
وَأَمَرَ مِنْ مَعَهُ حَتَّى وَلَا يُخْبِرُ يُخْبِرُ عَنْهُمْ .

وَكَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ قَدْ جَرَّدَ الأَمِيرَ شَمْسَ الدِّينِ سُنُقْرًا الأَشْقَرُ فِي عَدَدِ مُسْتَظْهِرًا
بِهِ لِإِدْرَاكِ مَنْ فَاتَ مِنَ المُنْغَلِ ، فَمَرُّوا فِي طَرِيقِهِمْ بِفِرْقَةٍ مَعَهَا بِيُوتِهِمْ فَأَخَذَ مِنْهَا جَانِبًا ؛
وَدَخَلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ فَمَرَّ كُلُّ فِي سِرِّيهِ ذَاهِلًا ذَاهِبًا . وَرَحَلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ فِي بُكْرَةِ
السَّبْتِ حَادِي عَشْرَ ذِي القَعْدَةِ مِنْ مَكَانِ المَعْرَكَةِ ، فَتَزَلَ قَرِيبَ القَرْيَةِ المَعْرُوفَةِ
بِرِيَّانَ ، وَهَذِهِ القَرْيَةُ قَرِيبُ الكَهْفِ والرَّقِيمِ حَقِيقَةً ، لَا مَا يُقَالُ : إِنَّهُ قَرِيبُ حُسْبَانَ
مِنْ بِلَادِ البَلْقَاءِ ، وَقَرِيبًا مِنْهُ صَلْدٌ مِنْ الصَّفَا عَلَيْهِ كِتَابُهُ بِالرُّومِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ الخَطِّ
القَدِيمِ . وَأَمَّا القَرْيَةُ المَذْكُورَةُ المَسْمُوءَةُ بِرِيَّانَ فَانَّ بِيُوتَهَا بُنِيَتْ حَوْلَ سِنِّ جَبَلٍ قَائِمٍ
كَالْهَرَمِ إِلَّا أَنَّهُ مَأْمُومٌ ، وَعُمِّرَتْ البِيُوتُ فِي سَفْحِهِ حَوْلَهُ بَيْتًا فَوْقَ بَيْتٍ فَسَدَّتْ كَأَنَّهَا
مَجْرَةُ النُّجُومِ ؛ وَمَا مِنْ بَيْتٍ مِنْهَا إِلَّا وَبِهِ مَقَاعِدُ ذَوَاتِ دِرَابَزِينَاتٍ مَنجُورَةٍ ،
وَرَوَاشِينَ قَدْ بَدَّتْ فِي أَكْمَلِ صُورَةٍ ؛ يَحْتَمُّهَا مِنْ أَعْلَاهَا أَحْسَنُ بُيَانٍ ، وَيَعْلُوهَا مِنْ
رَاسِهَا مَتْرَلٌ مُسَمَّى الرَّاسِ كَمَا يَعْلُو الصَّعْدَةُ السَّنَانُ ؛ وَتَطُوفُ بِهَذِهِ القَرْيَةِ جِبَالٌ كَأَنَّهَا
أَسْوَارٌ بِلِ سِوَارٍ ، وَكَأَنَّهَا فِي وَسَطِهَا إِنَاءٌ فِيهِ جَدْوَةٌ نَارٌ ؛ وَيَتَفَرَّغُ مِنْهَا أَنهَارٌ ، هِيَ
فِي تِلْكَ الأَوْدِيَةِ كَأَنَّهَا بَهْبُوطُهَا كَثِيبٌ قَدْ أَنهَارَ ؛ ذَوَاتُ قَنَاطِرٍ لَا تَسَعُ غَيْرَ رَاكِبٍ ،
وَمَضَابِقُ لَا يُأْنَفِي عَبْرَهَا لِنَاكِبٍ ؛ قَدَّرَ اللهُ أَنْ العَسَاكِرَ خَلَّصَتْ مِنْهَا وَلَكِنْ بَعْدَ
مُقَاسَاةِ الجُهْدِ ، وَخَرَجَتْ وَقَدْ رَقَّتْ لَهَا قَلْبُ كُلِّ وَهْدٍ ؛ وَزَلْنَا قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّى

تَخَلَّصَ مِنْ تَخَلَّصَ ، وَحَضَرَ مِنْ كَانَ فِي الْمَضَائِقِ قَدْ تَرَبَّصَ ، وَقَالَ : كُلُّ الْأَرْضِ
حَصَّصَ .

وَرَحَلْنَا مِنْ هُنَاكَ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ شَهْرَ ذِي الْقَعْدَةِ وَكَانَتِ السَّمَاءُ قَدْ حَيَّتِ
الْأَرْضَ بِدِيَجَانِ امْطَارِهَا ، وَأَغْرَقَتِ الْهَوَامَّ فِي أَبْحَارِهَا ، وَالْفُتُخَ فِي أَوْكَارِهَا ؛
وَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ لَا تَمَّاسَكَ حَتَّى لَا لِمُرُورِ الْأَرَامِ ، وَالْجِبَالُ لَا تَمَّاسَكَ أَنْ تَكُونَ
لِلْعَصَمِ عَوَاصِمَ ؛ تَضَعُ بِهَا مِنَ الدُّوَابِّ كُلِّ [ذَاتِ] حَمَلٍ ، وَتَزَلِقُ فِي صَقِيلِهَا أَرْجُلُ
النَّمْلِ ؛ وَسِرْنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ نَهَارًا كُلَّهُ إِلَى قَرِيبِ الْغُرُوبِ ، وَقَطَعْنَاهُ بِتَسْلِمَاتِنَا أَيْدِي
الدُّرُوبِ مِنْ أَيْدِي الدُّرُوبِ ؛ وَنَزَلْنَا عِشَاءً فِي مُتَّقِعِ أَرْضٍ تَطُوفُ بِهَا جِبَالٌ شَاهِقَةٌ ،
وَمِيَاءٌ دَافِقَةٌ ؛ تُعْرَفُ قَاعَةٌ تَلِكِ الْأَرْضِ بُوطَاةَ قَشَلَا وَسَارِ (؟) مِنْ أَعْمَالِ أَصَارُوسِ
الْعَبِيقِ . وَيَقْرَبُ مِنْ تَلِكِ الْجَهَةِ مَعْدِنُ الْفِضَّةِ .

وَبَيْنَمَا نَحْنُ قَدْ شَرَعْنَا فِي أَهْبَةِ الْمَيْتِ ، وَلَمْ نَقْضِ الشَّمْلَ الشَّيْبِ ؛ وَإِذَا بِالصَّادِحِ
قَدْ صَدَحَ ، وَالنَّذِيرِ قَدْ سَنَحَ ؛ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ بَانَ قَوْجًا مِنَ التَّسَارِ فِي بَقْوَةٍ هُنَاكَ
قَدْ أَسْتَرُوا ، وَفِي نَجْوَةٍ لَغْرَةٍ قَدْ آتَنَّاظَرُوا ؛ فَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ وَرَكِبَ النَّاسُ
فِي السَّلَاحِ ، وَعَزَمُوا عَلَى الْمَطَارِ فَعَاقَهُمْ تَتَابِعُ الْغَيْثِ وَكَيْفَ يَطِيرُ مَبْلُولُ الْجَنَاحِ ؟ ؛
ثُمَّ لَطَفَ اللَّهُ وَعَادَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ وَهُوَ يَقُولُ لِلنَّاسِ : ، لَا بَاسَ ؛ فِينَمَا نَوْمَةَ السَّلِيمِ ،
وَصَدْرَتِ أَفْكَارُنَا شَاغِرَةً فِي كُلِّ وَادِيهِمْ ؛ وَأَصْبَحْنَا فَسَلَكْنَا جِبَالًا لَا يَحِيطُ بِهَا
الْوَصْفُ ، وَتَبَسَّطَ عُدْرَاءُ الطَّرْفِ فِيهَا حِينَ يَكْبُو فِيهَا الطَّرْفُ ؛ تَنَحَّطُ مِنْهَا إِلَى جَنَادِلِ ،
يَضْعَفُ عَنِ الْهُوِيِّ إِلَيْهَا قَوِيُّ الْأَجَادِلِ ؛ بَيْنَمَا نَقُولُ : قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهَا نَفَادًا وَمِنْهَا
نَفَادًا ، وَإِذَا بَعْدَ الْأُودِيَةِ أُوْدِيَةٌ وَبَعْدَ الْجِبَالِ جِبَالٌ نَشْكُرُ عِنْدَ ذَلِكَ هَذِهِ وَذَلِكَ عِنْدَ
هَذَا ؛ وَمَرَرْنَا عَلَى قَرْيَةٍ أُوتْرَاكَ ، وَتَحْتَهَا قَنَاطِرٌ وَخَانٌ مِنْ حَجَرٍ مَنْحُوتٍ ، ثُمَّ خَانَ آخِرُ

للسَّيْلِ عَلَى رَأْسِ رَابِيَةٍ هُنَاكَ تَعْرِفُ بِأَشْيِدِي ، قَرِيبًا مِنْ حِصْنِ سَمْنَدُو ، الَّتِي
عَرَّضَ بِهَا أَبُو الطَّيِّبِ فِي قَوْلِهِ :

فَإِنْ يُقَدِّمُ فَقَدْ زُرْنَا سَمْنَدُو • وَإِنْ يُجْجِمُ فَمَوْعِدُهُ الْخَلِجُ !

وكان مولانا السلطان قد سَيرَ إليها خواصه بكتَّابٍ إلى نائبها فقَبِلَهُ وَقَبَّلَهُ ، وَأذْعَنَ
لِتَسْلِيمِ حِصْنِهَا الْمَنِيْعِ وَلِلتَّرْوِيلِ لِأَمْرِ السُّلْطَانِ عَنْهَا إِنْ أَسْتَزَلَّهُ ؛ فَشَكَرَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
لَهُ تِلْكَ الْإِجَابَةَ ، وَوَفَّاهُ مِنَ الشُّكْرِ حَسَابَهُ . وَكَذَلِكَ إِلَى قَاعَةِ دُونْدَا وَإِلَى دُوَالِوَا ،
فَكَلَّمَهُمْ أَجَابُوا وَأَطَاعُوا وَلِكَلِمَةِ الْإِذْعَانِ قَالُوا ؛ وَزَلْنَا فِي وَطْأَةٍ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَعْرِفُ
بِجَمْرَهَا ، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ فَرَعَتْ عُلوْفَاتُ خَيْلِهِمْ أَوْ كَادَتْ ، وَالخَيْلُ قَدْ بَاتَتْ لِيَالِي
بَلَا عَلِيْقٍ فَمَا أَسْتَفَادَتْ ، وَشَارَكَتْهَا خِيُولُ الْكَسُوبِ (؟) فِي عَلِيْقِهَا ، وَمَا سَاعَدَتْهَا
فِي طُرُقِهَا وَلَا فِي طَرِيقِهَا ؛ فَضَعُفَتْ عَنْ حَمْلِ نَفْسِهَا فَمَا ظَنَنْتُ بِرَاكِبِهَا ، وَكَادَ
الْفَارِطُ - لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَفْرِطَ فِيهَا ؛ فَصَادَفْنَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بَعْضَ
أَثْبَانٍ أَمْسَكَتْ أَرْمَاقَهَا ، وَأَحْسَنْتْ لِرِفَادَهَا وَإِرْفَاقَهَا .

وَأَصْبَحْنَا فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ رَابِعَ عَشْرَ ذِي الْقَعْدَةِ رَاحِلِينَ فِي جِبَالٍ كَأَنَّهَا تِلْكَ الْأَوَّلُ ،
وَهَابِطِينَ فِي أَوْدِيَةٍ يَتَمَتَّى سَالِكُهَا مِنْ شِدَّةِ مَضَائِقِهَا أَنْ لَوْ عَادَ إِلَى تَرَقَّى أَعْلَى
جَبَلٍ ؛ وَمَا زَلْنَا كَذَلِكَ حَتَّى أَشْرَفْنَا عَلَى خَانٍ هُنَاكَ يَعْرِفُ بِقَرْطَايَ يَدُلُّ عَلَى شَرَفٍ
هِمَّةٍ بَانِيَةٍ ، وَطَلَبِ ثَوَابِ اللَّهِ فِيهِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ أَكْبَرِ الْأَبْنِيَةِ سَعَةً وَأَرْتِفَاعًا ،
وَأَحْسَنِهَا شَكْلًا وَأَوْضَاعًا ؛ كُلُّهُ مَبْنِيٌّ بِالْجَمْرِ الْمَنْجُوتِ الْمَصْقُولِ الْأَحْمَرِ الَّذِي كَأَنَّهُ
رِخَامٌ ، وَمِنْ ظَاهِرِ أَسْوَارِهِ وَأَزْ كَأَنَّهُ نُقُوشٌ لَا يَتِمَّكَنُ أَنْ يَرْسُمَ مِثْلَهَا بِالْأَقْلَامِ ؛ وَهُوَ
خَارِجٌ بَابِهِ مِثْلُ الرَّبِضِ بِيَسَائِينَ بِأَسْوَارِ حَصِينَةٍ ، مُبْلَطُ الْأَرْضِ ، فِيهِ حَوَانِيَتٌ .
وَأَبْوَابُ الْخَلَانِ حَدِيدٌ مِنْ أَحْسَنِ مَا يَمَكُنُ اسْتِعْمَالَهُ . وَدَاخِلُهُ أَوْابِيْنٌ صَيْفِيَّةٌ ، وَأَمْكِنَةٌ

شَتْوِيه ، وإصْطَبَلَاتٌ عَلَى هذه الصورة لا يُحْسِنُ الإنسانُ أن يُعَبِّرَ عنها بِكَيْفٍ ،
وما منها إلا ما يَجِدُهُ الإنسانُ رِحْلَةً لِلشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ؛ وفيه الحَمَامُ وَالْبِيَارِسْتَانُ
وَالأَذْوِيَةُ وَالْفَرُشُ وَالْأَوَانِي وَالضِّيَافَةُ الكُلُّ طَارِقٌ عَلَى قَدْرِهِ ، مُحْمِلٌ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانَ
مِنْ ضِيَافَتِهِ لَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ ، وَكثُرَ النَّاسُ فَمَا وَصَلَ أَحَدٌ إِلَيْهَا وَلَا إِلَيْهِ ؛ وَعَلَيْهِ أَوْقَافٌ
عَظِيمَةٌ ، وَضِيَاعٌ كَثِيرَةٌ حَوْلَهُ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَلَهُ دَوَاوِينُ وَكُتَّابٌ وَهَبَاشِرُونَ
يَتَوَلَّوْنَ اسْتِخْرَاجَ أَمْوَالِهِ وَالإِنْفَاقَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضِ النَّتَارُ إِلَى إِبْطَالِ شَيْءٍ مِنْ
رُسُومِهِ ، وَأَبْقَوْهُ عَلَى عَوَائِدِ تَكْرِيمِهِ ، وَأَهْلُ الرُّومِ يَبَالِغُونَ فِي تَجْمِيلِ بَآئِنِهِ - رَحِمَهُ اللهُ -
وَتَعْظِيمِهِ ؛ وَنَزَلْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَقَرَّبُ مِنْ قَبْضِيَّةٍ مِنْ حُقُوقِ وَادِي
صَلْعُومَةِ شَرْقِيَّ الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِعَسِيبِ ، وَفِيهِ نَبْرُ أَمْرِي الْقَيْسِ الشَّاعِرِ

أَجَارَتَا إِنْ الْخُطُوبَ تَتُوبُ ، * وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ ،

أَجَارَتَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا * وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ !!

وهذا الجبلُ يعلوه جبلُ أَرْجَاسٍ ، وهو الذي يَضْرِبُ الرُّومُ الأَمْثَالَ بِتَسَامِيهِ ،
وَتَتَضَاءَلُ الْجِبَالُ فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا لِتَعَالِيهِ ؛ لَا تُسْحَبُ دُيُولُ السَّحَابِ إِلَّا دُونَ
سَفْحِهِ ، وَلَا يُعْرَفُ مِنْ تُلُوجِهِ شِتَاءٌ وَصَيْفًا وَمِنْ مِثَالِ الأَبْجُورَةِ الْمُتَصَعِّدَةِ مِنْهُ عِشَاؤُهُ
مِنْ صُصْبِيحِهِ .

ولما كان يومُ الأَرْبَعَاءِ مُتَصَفِّفِ ذِي القَعْدَةِ ، وهو يومُ شَرَفِ الزُّهْرَةِ رَكِبَتْ
العسائِرُ الْمَنْصُورَةَ مُتَرْتَبَةً ، وَمَسَلَتْ القَضَاءَ مُتَمَرِّبَةً ؛ وَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
فِي زُمرَتِهِ ، وَذَوِي أَمْرِهِ وَإِمْرَتِهِ ؛ يَخْتَالُ جَوَادُهُ فِي أَمْسَاحِ مِيدَانِ ، وَيَصِيحُ بِهِ قَرَحًا
وَمَرَحًا كَأَنَّهُ نَسْوَانُ دَرَى أَنَّهُ سُلْطَانُ :

تَظَلُّ مَلُوكُ الأَرْضِ خَاشِعَةً لَهُ * تُفَارِقُهُ هَلْكَى وَتَلْقَاهُ سُجْدًا !

ونخرج أهل قيصريّة وأكابرها، وعلمائها وزهادها وتجارها، ورعاياها ونسائها
 وصغارها، فأكرم مولانا السلطان ممشاهم، وشكر مسعاهم، وتلقى فضائهم وعلماءهم
 رُجباناً، وحادثهم إنساناً فأنساناً، وحصلت لجماعة من الفقراء والناس حالاتٌ وجِد
 مطرِبَه، وصدحاتٌ ذكريٌ مُعجِبَه . وكان دهلِيزُ السلطان غياثِ الدين صاحبِ الروم
 وخيّامه وشعارُ سلطنةِ الروم قد بنى جميع ذلك في وطاة قريب الجوسق والبستان
 المعروف بكبخسرو، وترجل الناس على اختلاف طبقاتهم في الركب الشريف من
 ملكٍ وأمةٍ ومأمورٍ وأمير، وأرتفعت الأصوات بالتّهليل والتكبير :

رَجَا الرُّومُ مِنْ تُرْجِي النِّوَاغِلِ كُلِّهَا • لَدَيْهِ وَلَا تُرْجِي لَدَيْهِ الطُّوَاغِلُ !

ونزل مولانا السلطان في تلك المضارب المَعْدَّة لكرم الوفاة، وضربت توبه
 سَلْجُوقَ على باب دهلِيزه على العاده، وأذن مولانا السلطان للناس في التقرب إلى
 شريف قسطاطه، وتبليهم بنظره واحتياطه، وحضر أصحاب الملاهي، فما ظفروا
 بغير النواهي، وقيل لهم : أَرَجِعُوا وَرَاءَ كُمْ فَالْتَمِسُوا ، وأذهبوا إلى وادٍ غير هذا
 الرادى فاقْتَبِسُوا ، فهذه الهناة لا تنفق هنا ، وما هذا موضع الغناء بل هذا موضع
 الغنى، وشرع مولانا السلطان في إنفاقِ اللهى، وعين لكل جهة تخفصاً وقال : أنت
 لها، وحكمٌ وحكمٌ، وعلمٌ وعلمٌ، وأعتمد على الأمير سيف الدين جاليش في النيابة،
 وأعطى كلاً بيمينه كتابه، وأقام الحجّة على من أترح بالاستعطف، وتأمين من خاف،
 فما خرج كبيرهم عن الخاتله، ولا زعيمهم عن المطاوله، فلما علم مولانا السلطان
 أنهم لا يغلحون، ولغير التبار لا يصلحون، وأنهم إن أصبحوا على الطاعة لا يمتسون
 وإن أمسوا لا يصبِحون، عاد عن تلك الوعود، وأختار أن ما بدأ إليه يعود، وأن
 يبعث نفسه إلى ما بعثه الله إليه من المقام المحمود، فركب يوم الجمعة سابع عشر

ذی القعدة مستقبلاً من الله كل الخير، ونصب جتر بنی ساجوق علی رأسه فشهد
الناس منه صاحب القبة والسبع وصاحب القبة والطير؛ ودخل قيصريّة في بكرة
هذا اليوم وكانت دار السلطنة قد فرشت لزلزله، وتحت بنی ساجوق وقد هي
لحلولة؛ وهي دار زهو، ومنازل من يتعبد أو منازه من يلهو؛ أنيقة المبتنى، تحف
بها بساين عذبة الجنى؛ جذرائها بأحسن أصناف القاشاني مصفحة، وبأجمل
نقوشه مصرحة؛ بغلس مولانا السلطان في مرتبة الملك في أسعد وقت، ونال
التخت بحلولة أسعد البخت :

وما كان هذا التخت من حين نصبه * لغير الملك الظاهر الندب يصلح .
مليك على أمم الله ما فتحت له * صوارمه البيض المواضي وتفتح .
أنته وفود الروم والكل قائل : * رأيناك تعفو عن كثير وتصفح .
فأوسعهم حماً وجاد لهم ندى * وأمسوا على من آمن وأصبحوا .
ولو أنهم لم يمنحوا المنكب * عن الحق والنهج القويم لآفلحوا ،
ولكنهم أعطوا يداً فوقها يد * تصافح كفا زندها النار قدح !!

وأقبل الناس على مولانا السلطان يهنؤونه، وعلى كفه الشريف يقبلونه؛ وبعد
ذلك حضرت القضاة والفقهاء والعلماء والصوفية وذوو المراتب من أصحاب العمام
على عادة بنی ساجوق في كل جمعة، ووقف أمير المحفل وهو كبير المقدار عندهم، له
وسامة ونظامه، وله أكبركم وأوسع عمامه؛ وأخذ في ترتيب المحفل على قدر الأقدار،
وأنصب قائماً بين يدي مولانا السلطان منتظراً ما إليه به يسار؛ وشرع القراء يقرءون
جميعاً وفرادى بأحسن تليح، وأجمل تحسين؛ فانت أصواتهم بكل عجب، وعدلوا
عن الترتيل إلى الترتيب . ولما فرغوا شرع أمير المحفل صارخاً، وبكور فيه ناخفاً،

فأُتشد وأورد بالفارسية ما يُعجب مدلوله ، ويهول مقوله ؛ وأطال وما أطاب ،
وأستصوب من يعرف مقاله قوله ، والله أعلم بالصواب .

ولما أفضى ذلك مد سباط ليس يُناسب هم الملوك ، فأكل الناس منه
للشرف لا للسرف ، ثم عاد كل منهم إلى مقامه فوقف ؛ وقام مولانا السلطان إلى
مكان الاستراحة فأقام ساعة أو ساعتين ، ثم خرج إلى محييه قير العين ؛ وكان بدار
الملك حرم السلجوقية قد أصبحوا لا ترى إلا مسكنهم ومسكنهم ، قد نبت بهم
مواطنهم ومواطنهم ؛ على أبوابهم أسوار سُور من حرير ، ومشايخ حُدام يستحق كل
منهم - لكبير سنه - أن يدعى بالكبير ؛ عليهم ذلة الانكسار ، وأماير الافتقار ؛
بخبرهم مولانا السلطان وأنسهم ، وأحسن إليهم ؛ وتوجه من توجه إلى صلاة الجمعة
في قيصرية وبها سبع جمع تُقام ، وبها خطباء إن هم إلا كالأنعام ؛ فصلينا في جامع
السلطان وهو جامع علي يدل على احتفال ملوكها بيوت عباداتهم ، ورأينا فيه من
دلائل الخير ما يقضى بحسن إراداتهم ؛ فحضر أهل المدينة وأكابرها ، وجلسوا حلقة
لا صُفوا ، وأجروا من البحث بالعجمية صُفوا ؛ واجتمعت جماعة من حفظة
الكتاب العزيز فتخارجوا القراءة آية آية ، وهي قراءة بعيدة عن الدراية ؛ بل إنها
تبرزها أصوات مترنمة ، وألحان لتفريق الكلمات مقسمة ؛ ينطقون بالحروف
كيف أتفقت ، ولا يتوقفون على مخارج الحروف أنها بها نطقت أو لا نطقت .

فلما آن وقت الأذان قام صبي عليه قباء من وسط جماعة عليهم أقبية قعود على
دكة المؤذنين ، فابتدأ بالتكبير أولاً وثانياً بمفرده من غير إعانة ولا إبانة . ولما تمهد
ساعده جميعهم بأصوات مبحجة مُتلعة ، ونغمات متنوعة ؛ يمسكون له النغم بأحسن
تلحين ، ويترنمون بالأصوات إلى آخر التأذين ؛ وفرغ الأذان وكلهم قعود ما منهم

أحد غير الصبي وقف ، وما منّا أحد لكلمة من الأذان عرف ، ولما فرغ الأذان
 طلع شيخ كبير السن يعرف بأمير محفل المنبر، فصعد إلى ذروة المنبر، وشرع في دعاء
 لا نعرفه ، وأدعاء لا نألفه ؛ كأنه مخاصم ، أو وكيل شرع أحضره لمشادة خصمه
 محاكم بين يدي حاكم ؛ وطلع الخطيب بعد ذلك نخطب ودعا مولانا السلطان بغير
 مشاركه ، ودعا الناس بما تلقته من الأقوال الملائكة ؛ وأنقضت الجمعة على هذه
 الصورة ، المسطورة ؛ وضربت السكة باسم مولانا السلطان ، وأحضرت الدراهم إليه
 في هذا اليوم ، فشاهدنا فرأى أوجهها باسمه باسمه الميمون ، وأقرت الألسنة بهذه
 النعمة وقوت العيون ؛ وشاهدت بقبسارية مدارس وخوانق وربطاً تدل على اهتمام
 بانها ، ورغبتهم في العلوم الشرعية والدينية ، مشيدة بأحسن الحجر الحمر المصقولة
 المنقوشه ، وأراضها بأجمل تلك مفروشه ؛ وأواوينها وصففها مؤزرة بالقاشاني
 الأجل صورة ، وجميعها مفروشه بالبسط الكرجية والعالية ، وفيها المياه البخارية ،
 ولها الشبايك على البساتين الحسنة ، وسوق قيصرية طائف بها من حولها ، وليس
 داخل المدينة دكان ولا سوق .

والوزير في بلاد الروم جميعها يعرف بالصاحب «نخرالدين خواجه علي» ولا يحسن
 الكتابة ولا الخط ، وخلعته من ممالكة خاصة مائتا مملوك ، ودخله في كل يوم -
 غير دخل أولاده وغير الإقطاعات التي له ولأولاده وخواصه - سبعة آلاف درهم
 سُلطانية . ولقد شاهدت في مدرسته من خيامه ونحركاواته شيئاً لا يكون لأكبر
 الملوك ، وله بر ومعروف ، وهو بالخير موصوف :

والمسمون بالوزير كثير * والوزير الذي لنا المأمول!

وعلى هذا وذاك علي * وعلى هذا له التفضيل!

الذى زُلْتُ عنه شَرْقًا وَغَرْبًا • وَنَدَاهُ مُقَابِلِي لَا يَزُولُ !
وَمَعِيَ أَيَّمَا سَاكِنَاتِ كَأَنِّي • كُلَّ وَجْهِ لَهْ بَوَجْهِ كَفِيلُ !

وَأَمَّا مُعِينُ الدِّينِ سُلَيْمَانَ البرواناه وَزَوْجَتَهُ كُرْحِي خَاتُونُ ، فَظَهَرَ لَهَا مِنَ الْمَوْجُودِ
الْبَادِي لِلْعِيُونِ كُلِّ نَفِيسٍ ، وَبِحَمْدِ اللَّهِ اسْتَوْلَى مَوْلَانَا السَّلْطَانُ وَمَمَالِكُهُ مِنْ مَوْجُودِهِ
وَدَارِ زَوْجَتِهِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَصَرَاحِ بِلَقَيْسِ .

ولما أقام مولانا السلطان بقبضيريه هذه المدة، فكفر في أمر عساكره ومصالحه
بما لا يعرفه سواه ، ونظر في حالهم بما أراه الله ؛ وذلك لأن الأفتوات قلت ،
والسيوف من المصارعة ملئت ، والسواعد من المصادمة كلت ؛ وأنه ما بقي في الروم
من الكفار من يُعزى ، ولا يجزأ السوء يُجزى ؛ ولا بقي في البلاد غير رعايا كالسوائيم
الهامله ، ولا دية - للكفر منهم - على عاقلٍ وعاقله ؛ وأنه إن أقام فالبلاد لا تنجليه ،
ومواد بلادها لا تصله ؛ وأعشاب الروم بالدوس قد أضحلت ، وعلوفاتها قد قلت ؛
وزروعها لا تُرجمي لكفائه ، ولا ترضى خيول العساكر المنصورة بما ترضى به خيول
الروم من الرعي والرعاية ؛ وأن الحسام الصقيل الذي قبيل انتار به في يد القاتل ،
وأنهم إن كان أعجبهم عامهم فيعودون إلى الروم في قابل .

ورحل في يوم الاثنين عشرين من ذي القعدة بعد أن أعطى أمراءه وخواصه
كل ما أحضر إليه من الأئنة والأزمه ، وكل ما يطلق على توليه أسم النعمة ؛ فزل
بمئزلة تعرف بعزلوا وفي هذه المئزلة ورد إلى السلطان رسول من جهة غياث الدين
سلطان الروم ، ومن جهة البرواناه والكبراء الذين معه ، يسمى ظهير الدين التبرجمان ،
وفي الحقيقة هو من عند البرواناه ، يستوقف مولانا السلطان عن الحركة وما علموا
إلى أين ، بل كان الأمر شائعا بين الناس أن الحركة إلى جهة سيواس . فعدد مولانا
السلطان عليه حُسن وقائه بعهده ، وأنه أجاب دعاهم مرة بعد مرة من أقصى

مُلْكِهِ مَعَ بَعْدِهِ ؛ وَأَنَّهُمْ مَا وَقَفُوا عِنْدَ الشَّرْطِ الْمُقَرَّرِ ، وَلَا وَفَّوْا بِمَضْمُونِ الرَّسَائِلِ
 الْمُسَيَّرِ ، وَأَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ طَلَبُوا نَظْرَةَ إِلَى مَيْسَرِهِ ؛ وَأَنْ أُعِنَّتْهُمْ
 لِلْكَفْرِ مُسَلِّمَةً ، وَأَنَّهُمْ مِنْذَ اسْتِيْلَاءِ التَّنَّارِ هُمْ أَصْحَابُ الْمَشَامَةِ ؛ وَعَلِمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
 أَنَّ بِلَادَ الرُّومِ مَا بَهَا عَسْكَرٌ يَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِهِ ، وَلَا مَنْ يُقَابِلُ الْمُغْلَ فِي غَدِهِ خَوْفًا
 مِمَّا شَاهَدَهُ كُلُّ مَنْهُمْ فِي أَمْسِهِ ؛ وَأَنَّهُمْ أَهْلُ الْتِنْدَازِ ، لَا أَهْلُ نَفَّازِ ؛ وَأَهْلُ طَرْبِ ،
 لَا أَهْلُ حَرْبِ [وَعَلَبِ] ؛ وَأَهْلُ طَيْبَةِ عَيْشِ ، لَا قَوَادُ جَيْشِ ؛ فَرَدَّ السُّلْطَانُ إِلَى سُلَيْمَانَ
 الْبَرْوَانَاهُ مَدَّ يَدَهُ ، وَقَالَ : قُلْ لَهُ : إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ الرُّومَ وَطُرُقَاتِهَا ، وَأَخَذْتُ أُمَّه
 أُسَيْرَةً وَأَبْنَ بِنْتَهُ وَوَلَدَهُ ؛ وَيَكْفِينَا مَا جَرَى مِنَ النَّصْرِ الْوَجِيحِ ، (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ
 إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) وَمَا كُلُّ مَنْ قَضَى قَرِيضَةَ الْحَجِّ تَجِبُ عَلَيْهِ الْمُجَاوَرَةَ ، وَلَا بَعْدَ
 هَذِهِ الْمُنَاصَرَةَ مُنَاصَرَهُ ، وَلَا بَعْدَ هَذِهِ الْمُجَاوَرَةَ مُجَاوَرَهُ ، وَنَحْنُ قَدْ أَبْتَغَيْنَا فِيمَا آتَانَا اللَّهُ :
 مِنْ حَقِّقِ دِمَاءِ أَهْلِ الرُّومِ وَعَدَمِ نَهَبِ أَمْوَالِهِمُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ؛ وَتَنَزَّهْنَا عَنْ أَمْوَالِ كُنْتُمْ
 لِلتَّنَّارِ تَسْتَجِبُونَهَا ، وَمَعَارِمَ كَثِيرَةً هِيَ لَهِمْ مِنَ الْجَنَّاتِ مَغَانِمٌ يَأْخُذُونَهَا حِينَ يَأْخُذُونَهَا ؛
 وَمَا كَانَ جُلُوسُنَا فِي تَحْتِ سُلْطَنَتِكُمْ لَزِيَادَةِ تَحْتِ آلِ سَلْجُوقِ ، إِلَّا لِنُعَايَمِكُمْ أَنَّهُ
 لَا عَائِقَ لَنَا عَنْ أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ يُعَوِّقُ ؛ وَأَنْ أَحَدًا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْمَنَ لَنَا سَطْوَهُ ،
 وَلِيَتَحَقَّقَ كُلُّ أَنْ كُلِّ مَسَافَةٍ جُمُعَةٍ لَنَا خَطْوَهُ ؛ وَسُرُوجُنَا - بِحَمْدِ اللَّهِ - أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ
 التَّخْتِ جَلَالًا ، وَأَرْفَعُ مَنَالًا ؛ وَكَمْ فِي مَمَالِكِ كَرَايِسِي مُلْكٍ نَحْنُ آيَةُ ذَلِكَ الْكُرْسِيِّ ،
 وَكَمْ لَنَا فَتْحٌ كُلُّهُ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - فِي الْإِنَافَةِ الْفَتْحِ الْقُدْسِيِّ .

مَنْ كَانَ قَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ * فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُ!

وَأَسْتَضْحَبَ السُّلْطَانُ مَعَهُ تَحْتِ الرِّضَا وَالْعَفْوِ مِنْ أَكْبَرِ الرُّومِيِّينَ - الْأَمِيرِ
 سَيْفِ الدِّينِ جَالِيشِ النَّائِبِ بِالرُّومِ ، وَهُوَ رَجُلٌ شَيْخٌ نَبِيَّهُ لَهُ اشْتِغَالٌ بَعْلَمٌ ، وَكَانَ لَهُ

في الرُّومِ صُورَةَ، وهو أميرُ دارِ يعني أميرَ المَظالمِ . وأستصحبَ ظهيرَ الدينِ مَوحٍ (؟) مُشرفَ المَمالكِ، ومَرتبته دُونَ الوِزارَةِ وفيه فَضْلٌ، ونَسَخَ كَثِيرًا مِنَ العُلُومِ بِحَظِّهِ، مثلُ الصَّحاحِ في مُجلِّدٍ واحدٍ، وغير ذلك . وأستصحبَ الأميرَ نِظامَ الدينِ أوحدَ ابنِ شَرفِ الدينِ بنِ الحَظيرِ، وإخوتَهُ وجماعته وجماعةَ والدِهِ، وأولادَ عمِّهِ ضِبياءِ الدينِ بنِ الحَظيرِ المُستشهدِ رحمه اللهُ .

وأستصحبَ من الأُمراءِ : الأميرَ مُظفَرَ الدينِ محافٍ (؟) والأَميرَ سَيفَ الدينِ بَركيَا الجاشنكيري، والأَميرَ نُورَ الدينِ المُنجينيقي، وأصحابَ مَاطِيَةِ أولادِ رَشيدِ الدينِ أميرِ عارضِ، وهم : كَمالُ الدينِ وإخوتُهُ، وأميرُ عليّ صَاحِبِ كَرَكِرِ .

وأستصحبَ قَاضِيَةَ التُّضَاةِ بِمَاطِيَةِ، وهو القَاضِي حُسامُ الدينِ ابنُ قَاضِي العَسكرِ، ووَالِدُهُ الَّذِي كَانَ يَرسَلُ عَنِ السُلطانِ عَلَاءِ الدينِ إِلَى المُلُوكِ، وهو رَجُلٌ عَالِمٌ فَاضِلٌ .
وأكثرُ هَؤُلاءِ حَضَرُوا بَيتوتِهِم ونِساءِهِم وغَلمانِهِم وحَفَدَتِهِم .

والَّذينَ حَضَرُوا تَحْتَ العَظْبِ - وَلَدُ البَرواناهِ المَذكُورِ، ووَلَدُ خَواجا يُونُسَ، وهو ابنُ بَنتِ البَرواناهِ، ووَالِدَةُ البَرواناهِ . والأَميرُ نُورُ الدينِ جاجا، وهو أكبرُ أَمراءِ الرُّومِ أَصحابِ النِّعمَةِ والنِّعمِ، والأَميرُ قُطبُ الدينِ أحمدُ أخُو الأتابِكِ، والأَميرُ سَيفُ الدينِ سُنُقُرُ حاهِ الرِواناسِي، والأَميرُ سِراجُ الدينِ إِسماعيلُ بنُ جاجا، والأَميرُ نُصْرَةُ الدينِ صَاحِبُ سِواسِ، والأَميرُ كَمالُ الدينِ عَارضُ الجَيشِ، والأَميرُ حُسامُ الدينِ رِكاوِكُ قَريبُ البَرواناهِ، والأَميرُ سَيفُ الدينِ الجَواوِيشِ، والأَميرُ سِراجُ الدينِ أخُو حُسامِ الدينِ، والأَميرُ شِهابِ الدينِ غَازِي بنِ عليّ شيرِ التُّركِجَانِي .

ومن المَغلِ : مَقَدِمِي الأُلُوفِ والمَآتِ - زيرِكُ وسِرطَلِقُ، وحَنوَكُهُ، وسِرِكَدُهُ

وَتَمادِيهِ (؟) .

ثم رحل السلطان في اليوم الثاني ونزل بمنزلة قريب خان السلطان علاء الدين كيقباد، ويعرف بكرواني صراى . وهذا الخان بنية عظيمة من نسبة خان قرطاي، وله أوقاف عظيمة . ومن جملة ما وجد قريبا منه أذواد كثيرة من الأغنام عبت فيها العساكر المنصورة، سألت عنها فقيل : إنها وقفت على هذا الخان يذبح نتائجها للواردين على هذا الخان، وهذه الأغنام له من جملة الوقوف، قدر الله استيفادها جملة لما كثرت على هذا الخان من الجيوش المنصورة الضيوف .

ورحلنا في اليوم الثالث وهو يوم الأربعاء ناني عشرين من الشهر، ونزلنا في وطأة عادة التتار ينزلون بها تسمى روران كودلوا، وكودلوا اسم جبال تلك الوطأة .

ورحلنا في يوم الخميس ثالث عشرين من ذي القعدة، فعارضنا بها - في وطأة خلف حصن تسمى من طريق غير الطريق التي تكا توجهنا منها - نهر يعرف بنهر قزل صو، قريب كودلوا الصغير . ومعنى قزل صو النهر الأحمر، وهذا النهر صعب الخاض، واسع الاعتراض، عالي المهبط، زلق المسقط، مرتفع المرتقى، بعيد المستقى، لا يجهد السالك من أحوال حافته إلا صعبا زلقا، فوقف مولانا السلطان بنفسه، وجرّد سيفه بيده، وبأمر العمل بنفسه هو وجميع خواصه، حتى أتيا المكان جميعه، ووقف رجلا يعبر الناس أولا فاولا : من كبير وصغير وغلّام، وهو في أثناء ذلك يكرّ على من يزدحم، ويكرّر التأديب لمن يطلب بأذية رفيقه ويتنجم، وما زال من رابعة هذا النهار إلى الساعة الثامنة حتى عبرت الناس سالمين . ولما خفت البرور، ولم يبق إلا المرور، ركب فرسه وعبر الماء والألسنة له داعيه، وعليه من الله واقية باقيه، فترل في واد هناك به مرعى ولا كالسعدان، ومرأى ولا كشعب بوآن .

ثم رحل في يوم الجمعة فزل عند صحرات قراجار حصار، وهي قرية كانت عامرة
فيما مضى، قرية من هدر رجال (؟) قبالة بازار بلو، وهذا بازار هو الذي كانت
الخلايق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويباع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم،
ويقرب من كودلوا الكبير.

وسرنا في يوم السبت سوقا طول النهار، حتى نزلنا في وطاة الأبلستين، وفي هذا
النهار عبر مولانا السلطان - نصره الله - على مكان المعركة لمشاهدة أمم التار، وكيف
تعاقبت عليهم من العقبان كواسرها، وكف بأسهم من النور مناسرها، وكيف
أصبحوا لا يندبهم إلا البوم، وتحققوا أن التي أهلكتهم زرق الأسنة لا زرق الروم؛
فراهم لمن بقي عبره، وعرضوا على ربهم صفا وجأؤوه كما خلقوا أول مره؛ وأبصر
الرياح لأشلائهم متخطفه، والهوام في أجسادهم متصرفه، وشاهدتم وقد هداهم
كل شيء، حتى الوحوش والرياح: فهذه من صديدهم متكرعة وهذه عليهم متقصفة.

قد سؤدت شجر الجبال شعورهم • فكان في مسفة الغربان!

ولما عاينهم مولانا السلطان وعانينهم الناس، أكثروا شكر الله على هذه النعم التي
أمست لكافة الكفر كافة وشالة ودارزه، وأثنوا على مننه التي سنت إليهم خيار
العساكر المنصورة حتى أصبحت تلك الأرض بهم بارزه؛ وحضرت من أهل
الأبلستين هنالك جماعة من أهل التقي والدين، واستخبرهم مولانا السلطان عن عدّة
قتلى المغل فقالوا: ((فأسأل العادين))؛ فاستفهم من كبيرهم عن عدّة المغل كم من
قتيل، فقال: ((قل الله أعلم بعستهم ما يعلمهم إلا قليل)) وقال بعضهم ممن عندهم
ومن عنده علم من الكتاب: أنا عددت ستة آلاف وسبعائة وسبعين تقرا وضاع

(١) مأخوذ من قولهم سن الإبل ساقها سوقا مريعا.

الحساب ؛ هذا : غير من آوى إلى جبل يعصمه من ماء السيوف فما عصمه ،
 وغير من اعتقد أن فرسه تسلمه فأسلمه ؛ فتركهم مولانا السلطان ومضى والغلوات
 مزرعة بسومهم ، والدود لأنها مؤمنة وهم كفار - قد أثرت كالنواسر في حومهم ؛
 فرسم مولانا السلطان بتقدم الأتقال والحراس والدهليز المنصور صجبة الأمير
 بدر الدين الخزندار ، والدخول في أبقه دربند ، وأقام مولانا السلطان في ساقية العسكر
 المنصور بقية يوم السبت ويوم الأحد :

فهو يوم الطراد أول سابق • وهو يوم القفول آخر سائق !

وآنتظر في هذين اليومين صيدا من العدويعن ، وما من دماءهم إلى السيف يحن ؛
 فلما لم يجد أحدا رحل في يوم الاثنين فنزل قريبا من الخان الذي في الدر بند ، وركب
 يوم الاثنين من طريق غير التي حضر منها ، فسلك طريقا من الأوعار يسا ، وسلك
 من قليل الجبال في هضاب كان كلاً منها ألف حملت من الأتجم قبا ؛ فقاسى العالم
 في هذا اليوم من الشدة ما لا يدخل في قياس ، وكادوا يهلكون لولا أن الله عز وجل
 تدارك الناس ؛ فتسابقوا ولكن على مثل حد السيف ، وتسللوا ولكن سل حوافر
 الخيل كيف ؟ ، وهبطوا من جبال يستصعبها كل شيء حتى طارق الطيف ؛
 يستصعب الحجر المخلق من شاحق وقوعه في عقابها ، ويستهل النجم الناقب ترفع
 شعابها ؛ بالقرب منها جبل شاق يعرف بسقر وما أدراك ما سقر ، لا يبي على شيء
 من الدواب ولا يدر له عقبه لراحة للبشر ؛ أعان الله على الهبوط منها ، وفاز بمشيئة
 الله وبسعادة مولانا السلطان من زحزح عنها ؛ وعدنا كوكصوا وهو النهر الأزرق ،
 وبات مولانا السلطان هناك ، وكان قضيم البغال تلك الليلة ورق البلوط ، إلا من
 أمست عناية الله أن يسر في شعير بخمسة عشر درهما كل مد يحوط .

ورحل مولانا السلطان في يوم الأربعاء تاسع عشر من ذي القعدة فنزل قريب
كسول (?) المقدم ذكرها، وعدل إلى طريق مرعش فزال بحمد الله الداعي، وقالوا
للشعير: ما فينا لك مخاطب ولا منّا فيك بماله مخاطر، وللخيول قد حصل لك
في مضر الربيع الأول في شعبان وفي الشام في ذي الحجة الربيع الآخر، فأرتعت
لا يرونها أصحاب الموازين في تلك المساجد، وأستمرت في مروج يتأسف عليها
أبن المساجد (?); وقدم مولانا السلطان تلك الأعشاب كما تسمت في آفاق السماء
النجوم، وأوقف كل أحد في مقام حتى قال: (وما منّا إلا له مقام معلوم)؛ فكم
هنالك من مروج أعشبت فأعجبت، وأنجابت السماء عنها فأنجبت، وأربت
على زهير النجوم فاهترت وربت:

يصد الشمس اتى واجهتنا * فيحجبها ويأذن للنسيم!

يتخللها هنالك أترع الحياض، ويأهو بها كل شيء فكم قصف العاصي بها
في تلك الرياض.

هذا كله: وخير من أرزنجان، حارة برجان، وخير من أراضى توريز، قطعة
من ايليز، وكوم من كيان سفظ ميدوم، خير من قصر في قيصريّة الروم، ونظرة
إلى المقياس، خير من سيواس، ومناظر اللوق، خير من كيقباز آل سلجوق، وتربة
من ترب القرآفة، خير من مروج العرافة، وشبر من شبرا، خير من سطا ومرأ (?)
وجلوس في باب دارك خير * من جلوس في [باب] إيوان كسرى،

وأنتماسي لنور وجهك خير * لي من أني أشاهد بدرا!

ياوليا بولي الأيادي سرا * ووزيرا فليس يكسب وزرا:

ما رأينا والله فيمن رأينا * لك مثلا من البرية طرا.

كَمْ خَبَرْنَا الرَّجَالَ فِي كُلِّ أَرْضٍ • فَإِذَا أَنْتَ أَعْظَمُ الْخَلْقِ قَدْرًا!
 كَمْ فُلَانٍ قَالُوا وَقَالُوا فُلَانًا • فَإِذَا النَّاسُ دُونَ عَلِيَّكَ حَسْرَى.
 لَكَ مَدْحٌ قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ سُبْحًا • نَ إِلَهِ بِهِ إِلَى النَّاسِ أُسْرَى!
 مَا رَأَيْنَا مِصْرًا كَمِصْرٍ وَلَا مِنْهُ * لَكَ فِينَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا!

الضرب الثاني

(من الرسائل الملوكية رسائل الصيّد)

وهذه نسخة رسالة في صيّد السلطان الشهيد الملك الناصر بن السلطان الشهيد
 الملك المنصور «قلاوون» من إنشاء القاضي تاج الدين البارباري، وهي :
 الحمد لله الذي نعم النفوس الشريفة بإدراك الظفر، وأنعم على هذه الأمة بمحمد
 الذي أثار كوكب نصره وسفر، وشرع لها على لسان نبيها صلى الله عليه وسلم الغنيمة
 في السفر، وأسعف هذه الدولة الشريفة بدوام سلطانها الذي حفت أيامه بالعزيز
 والتأييد والظفر .

نحمده على أن أقر العيون بفضله بما أقر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
 له شهادة ألانت قلب من نفر، وكزمت أسبابها فلا يتمسك بها إلا أعز فریق ونفر،
 ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أعز من آمن وأذل من كفر، صلى الله عليه
 وعلى آله وأصحابه الذين تجاوز الله عن ذنوبهم وغفر، وسلم تسليمًا .

وبعد، فإن في ابتغاء النصر ملامدًا تُذركها كل ذات شرف، وتملكها السجايا
 التي تعارفت بالفخار وأنتلفت، وتألمها النفوس التي مالت إلى العز وإلى تلقائه

صُرِّقَتْ ؛ وَمَنْشُؤُهَا مِنْ حَالَتَيْنِ : إِمَّا فِي مَوْقِفٍ عِزٍّ عِنْدَ مَا تَلْمَعُ بُرُوقُ الصَّفَاحِ ، وَتَسْيِبُ مِنْ هَوْلِ الْحَرْبِ رُءُوسَ الرَّمَاحِ ، وَتَنْسِرُحُ جَوَارِحُ النَّبَالِ لِتَجَلَّ فِي الْجَوَارِحِ وَتَصِيدَ فِي الْأَرْوَاحِ ؛ وَإِمَّا فِي مَوْطِنٍ سَلِمَ عِنْدَ مَا تَنْبَسِطُ النُّفُوسُ إِلَى أَمْتِطَاءِ صَمَوَاتِ الْجِيَادِ فِي الْأَمْنِ وَالِدَعَةِ ، وَتَنْشِرُحُ الصُّدُورُ إِلَى مَعَاظَةِ الصُّبُودِ وَالْمَسَرَّاتِ مُجْتَمِعَةً ؛ وَتُطَلِّقُ الْبُرَاةَ فَتَصِيدُ ، وَتَنْصَرِّفُ بِأَمْرِ الْمَلُوكِ الصَّيْدَ ؛ وَتُرْسَلُ الْحَوَامِي الْمُمْسَكَةَ ، وَتُلْقَى عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ الْوَحْشِ فَلَا تَرَى إِلَّا مُدْرِكَهُ ؛ وَتَقَاضُ حِينَئِذٍ النَّعْمَ السُّلْطَانِيَّةَ وَتُجَزَلُ مَوَاهِبُهَا ، وَتَلُوحُ الْعِصَابَةُ الشَّرِيفَةُ وَتَنْبَعَثُ مَوَاكِبُهَا .

وكان الله تعالى قد جمع للذواق الشريفة ، المعظمة ، السلطانية ، المالكية ، الناصرية ، خلد الله سلطانها - سعادة الخائنين حربا وسلما ، وآتاه فيهما النصر الأرفع والعز الأسمى ؛ ووسم بصدقاته وعز ماته الأمرين وسما ، ونصره نعتا وعظمه شمعة وشرفه اسما ؛ فأيام حروبه كلها رفعة وأنبصار ، وأسبلاء وأسبظهار ، وقوة تحيا بها المؤمنون وتفتي الكفار ؛ وأيام سلمه كلها عدل وهبه ، وصدقات منجية منجبه ، ورفع ظلمات متشعبه ؛ وقمع نفوس متوشبه ؛ وحسم خطوب مستداه ، وحفظ الحوزة الإسلامية من كل باس ووقايتها من كل شدة ؛ وفي خلال كل عام تصرف عزائم الشريفة إلى ابتغاء صيد الوحش والطير : لما في ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأيسد ، وحصول المسرة بكل ظفر جديد ؛ فيرسم - خلد الله سلطانها - في الوقت الذي يرسم به من مشق كل عام بإخراج الدهليز المنصور فينصب في بر الحيزة بسفح الهرم ، في ساعة مباركة آخذة في إقبال الجود والكرم ؛ فتمد بالتأيسد أطناؤه ، وترفع على عمدة النصر قبائه ، ويحاط بحراسة الملائكة الكرام رحابه ؛ ويضرب خيام الأمراء حوله وطاقا ، وتحف به [مثل] النجوم بالبدر إشراقا ؛ ويستقل الركاب الشريف - شرفه الله - بعد ذلك بقصد عبور النيل المبارك فيظهر

من القلعة المحروسة والسلامة تُحجبه من المخافة، والحراسة تصحبه فيا قُرب ونأى
 من المسافة، ولسان السعد قد خاطبه بالتحية وشافه، وماليك الأمرأء قد حَفُوا به
 أطلابا، وسنى موكبه قد بعث أمامه من الإضاءة نجابا، ولم يزل حتى يأتي النيل
 المبارك ويستوي على الكرسي في الفلك المشحون، محوطا بالنصر الميمون والجيش
 المأمون، وقد استبشر باعتلائه البحر والنون، وأضحى لظهر الفلك من الفخار
 [بحضرة] المكرمه، مالمهوات أجياده العناق المسومة، فلهذا نشر أعلام بشرها،
 وقال: ﴿ أركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ﴾؛ فسارت به في اليم، ونصر الله
 قد تم، وصعد من فلكه، على ما يسر نفوس المؤمنين في كمال سلطانه وعزرة ملكه،
 وأستقر على جواد شرفت صهوته، وقُرئت بالآناة والسكون خطوته، عربى النجار،
 يختال في سيره كأنما أنتشى من العقار:

ويختال بك الطرف • كأن الطرف تشوان.

ترى الطرف درى أو ليس يدري أنك سلطان!

وسار في زروع محضره، وتغور نبات مفتره، وقد طلعت للظفر شمسُه وبدوره،
 وأعدت للصيد بزائه وصقوره، من كل متوقد اللخط من الشهامه، محول على
 الراحة من فرط الكرامه، يتوسم فيه النجاح، قبل خفي الجناح، ويخرج من
 جوار السماء ولا حرج ولا جناح، وبازها الأثمب، يبيء بالظفر ويذهب بصدر
 مفضض وناظر مذهب، له منسر أفتى، طالما أغنى، كأنما هو شبا السنان وقد
 جباه الكفا طعنا:

وصارم في يدك منصليت • إن كان للسيف في الوغى روح،

متقصد اللخط من شهامة • فالجو من ناظره به مجروح!

قد رآش التَّجُّحُ جَنَاحَهُ ، وَقَرَنَ اللهُ بِالْيَمِينِ غُدُوهُ وَرَوَّاحَهُ ، وَنَصَرَهُ فِي حَرْبِهِ حَيْثُ
 جَعَلَ مُنْسَرَهُ رُحْمَهُ وَمَحَلَّهُ صِفَاحَهُ ؛ فِي قَوَادِمِهِ السَّعْدُ قَادِمٌ ، وَفِي خَوَافِيهِ النَّصْرُ
 ظَاهِرٌ الْمَعَالِمُ ؛ كَأَنَّهَا أُلْمَ قَوْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «بُورِكَ لَأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا» ،
 فَيَسْرُحُ وَالطَّيْرُ جَائِمَةً فِي وَكُورِهَا ؛ وَيَخْرُجُ فِي إِغْبَاشِ السَّحَرِ وَعَلَيْهِ سَوَادٌ ، فَيَهَابُهُ
 الصَّادِحُ فِي الْجَوِّ وَالْبَاغِمُ فِي الْوَادِ ؛ وَيَأْمُرُ - خَلَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ - أَمْرَاءَهُ فَيَضْرِبُونَ
 عَلَى الطَّيْرِ حَلْفَةً وَهِيَ لَاهِيَةٌ فِي الْإِنْقَاطِ حَبَّهَا ، غَافِلَةٌ عَمَّا يَرَادُ بِهَا ، فَيَذْعَرُونَ بِهَا وَيَخْفِقُ
 الطُّبُولُ وَضَرْبُهَا ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ - لَنَا فِيهَا مُتَرَقِّبٌ ، وَاطَّارِهَا
 بِالْجَارِحِ مُعَقَّبٌ ، فَمَا يَدْنُو الْكُرْكِيُّ مَقْرُورًا ، حَتَّى يَشُوبَ مَقْهُورًا ؛ سَاقِطًا مِنْ
 سَمَائِهِ إِلَى أَرْضِهِ ، وَمَنْ سَعَتَهُ إِلَى قَبْضِهِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ كُلَّ جِنْسٍ وَقَهَرَ بِعَضِهِ
 بَعْضَهُ ؛ هَذَا : وَالْجَارِحُ قَدْ أَنْشَبَ فِيهِ مَخَالِبَهُ ، وَسَدَّ عَلَيْهِ سُبُلَهُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
 وَمَذَاهِبَهُ ؛ وَلَمْ يَزَلْ - خَلَّدَ اللهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ - عَامَّةً يَوْمَهُ مُتَوَعِّلًا فِي التَّمَتُّعِ بِلَذَاتِ
 صُبُودِهِ ، وَأَوْقَاتِ سُعُودِهِ ؛ وَحُصُولِ آرِيهِ وَمَقْصُودِهِ ، وَجُنُودِ الْمَلَائِكَةِ حَافُونَ بِهِ
 وَيَجْنُونَ بِهِ ؛ حَتَّى يَنْسَخَ النَّهَارَ اللَّيْلَ بِظُلْمَانِهِ ، وَيَلْمَعَ الطَّارِقُ بِأَضْوَائِهِ ؛ فَيَعُودُ عِنْدَ
 ذَلِكَ الرَّكَّابُ الشَّرِيفُ إِلَى الْمُخَيَّمِ الْمَنْصُورِ وَالْجَوَارِحِ كَاسِبِهِ ، وَالْأَقْدَارُ وَاهِبِهِ ؛
 وَالْجَوَارِحُ مَسْرُورَةٌ ، وَالطُّيُورُ مَأْسُورَةٌ ؛ وَالنُّفُوسُ مُتَمَّتَةٌ ، وَالْمَوَاهِبُ مُنَوَّعَةٌ ، وَالْأَرْجَاءُ
 مُضَوَّعَةٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَعَ سُلْطَانِهِ بِكَلَاءَتِهِ : «وَمَنْ كَانَ مَعَ اللهِ كَانَ اللهُ مَعَهُ» ؛ فَيَرْفَعُ
 أَمَامَهُ قَانُوسَانِ تَوَعَّمَانَ ، كَأَنَّهُمَا كَوْكَبَانِ بَيْنَهُمَا أَقْتِرَانٌ ، أَوْ فَرَقْدَانِ رَفَعْتَهُمَا يَدَانِ ؛ فَيَدْنُو
 إِلَى مُخَيَّمِهِ الْمَنْصُورِ فِي سُرَادِقِ الْعِزِّ الْحَفِيْلِ ، وَعِصَابَةِ النَّصْرِ الْأَثِيْلِ ، وَتَتَرَجَّلُ الْأَنْصَارُ
 قَبْلَ قُسْطَاطِهِ الْمَعْظَمِ عَلَى قَدْرِ مِيلٍ ؛ وَيُسْمَعُ بِالشَّمُوعِ لَتَلْقِيهِ ، وَيُسَوَّى تَحْتُ الْمُلْكِ
 لَتَرَقِيهِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَطُوفُ بِالدَّهْلِيْزِ الْمَنْصُورِ أَمْرَاءُ الْحَرَسِ بِالشَّمُوعِ الْمَرْفُوعَةِ ،
 وَالْمَزَاهِرِ الْمَسْمُوعَةِ ؛ فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ مُسْتَطِيلًا ، وَجَاءَ الصُّبْحُ شَيْئًا قَلِيلًا ؛ عَمِرَتْ

عليه النعم فاعطاها ، والمهجمات الإسلامية فقضاها ، وقدمت له الحيات المسومة فامتطأها ، ويسرح إلى الصييد والحوارح التي صادت بالأمس قد استأسدت ، وبسعادته إلى ظفرها قد أرشدت ، فإذا سار ركابه الشريف فزقت على أثره عساكر الإسلام ، وقوضت تلك الخيام كأنها الأيام .

ولم يبرح ذلك ذأبه في كل يوم من أيام حركته حتى يأخذ حظه من صيد الطائر ، فعند ذلك يثني عنان السير ، إلى أقاص الوحش فيعد لإمساكها كل هيكل قيد الأوابد ، قد عقد الخير بناصيته فأصبح حسن المعاهد .

فمن أشهب : كريم المغار ، ذي إهاب من التمار ، وأديم كأنه صحيفة الأبرار ، أبيض مثل الهدى ، له في الصبح إثارة النضر وإثارة على العدا ، غلا قدرا وغلا قيمه ، وله إلى آل أعوج نسبة مستقيمة ، إذا استن في مضمار يسبق البروق الخاطفة ، ويخلف الريح حسرى وهى واقفه ، يجده الفارس بحرا ، وله عند مجرى العوالى مع السوايق مجرى .

ومن أحمز : كأنما صبغ بدم الأعداء أديمه ، وكأنما هو شقيق الشقيق وقسيمه ، كرمت غرره وحجوله ، وحسنت أعراقه وذبوله ، مكرمفر بخلمود صخر حطته من على سيوله ، حكى لونه نجر الرحيق ، وله كل يوم ظفر جديد مع أنه عتيق .

ومن أدهم : مدرك كالليل ، منصب كالسيل ، كريم الناصيه ، جواب قاصيه ، كأن غرته صبح تنفس في الدجى الحالك ، وكأنه من الليل باق بين عينيه كوكب يضيء المسالك ، وكان حجوله بروق تفرقت في جوانب النسق فحسن منظرا لذلك ، سنابكه يورى قدحها ، وغرته ينير صبحها ، وجوارحه سود جنتها ، وصوته كمن فيها العز فلا يزال ظاهرا نوحها .

ومما سَوِيَ ذلك من الجياد المُخْتَبَرَة ، والصَّافِنَاتِ المُعْتَبَرَة :

إِذَا مَا صَرَفْتَ اللَّحْظَ نَحْوَ شِبَابِهَا * وَالْوَأْنِيَا فَالْحُسْنُ عَنكَ مُغِيبٌ!

وإنما هي بصبرها على الظأ، وشدة عدوها في النور والظلمة؛ وسبقها إلى غايات رهانها، وثباتها تحت رايات فرسانها .

وتليها الفهود الحسن منظرها، الجميل ظفرها، الكاسب نابها وظفرها؛ تفرق الليل في أهلها المجتمع، وأدركت العواصم في هضابها المرتفعة؛ وجوهها كوجوه اللبوث الحادره، ووثباتها على الطريذة وثبات المؤمنة على الفئته الكافره؛ مقلصة الخواصر، عزماؤها على الوحش حواصر؛ ما أطلقت على صيد إلا قنصته سريعا، ولا بصرت بعانة من حمر إلا أخذتها جميعا .

ثم الحوامي المعلمه، والضواري التي أضحت بالنجح متوسمه؛ ما منها إلا طاوي الخاصره، وثباته طائفة غير قاصره؛ بنوب كالأسنة، وساعدين مفتولين تسبق بهما ذوات الأعنة؛ لو رآه عدى بن حاتم رضى الله عنه لضمه إلى ما لديه، وأكل مما أمسك عليه .

وتضرب العساكر حلقمة ما يلتقي طرفاها إلا إلى الليل في آتساعها، تحوى سائر الأوايد على اختلاف أنواعها .

فمن نعام : خضب ظليمها لما أكل ربيعا، وأحمرت أطراف ريشه فكانت سها م أصابت نجيعا؛ طالت أعناقها الناحلة فكانت خطيه، وأشدت قوائمها الحاملة فكانت مطيه؛ شاركت الطير في وجود الجناح، وفارقتها في كثافة الأشباح؛ وأشبهت

(١) الذي في ديوان المتنبي :

إذا لم تشاهد غير حسن شبابتها * وأعضائها فالحسن عنك مغيب .

الْوَحْشَ فِي مَسْكِنِ الْفِقَارِ، وَشِدَّةِ النَّغَارِ؛ قَدْ اجْتَمَعَ فِي ظَاهِرِهَا اللَّوْنَانِ مِنَ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ وَأَنْتَلَفَ فِي بَاطِنِهَا الضَّدَّانِ مِنْ مَاءٍ وَنَارٍ .

وَمِنْ ظَبْيٍ : مُسَوَّدَةِ الْأَحْدَاقِ، حَكَّتِ الْحَبَائِبَ فِي كُحْلِ الْمُقَلِّ وَحُسْنِ سَوَائِفِ الْأَعْنَاقِ ؛ أَيْبَضَتْ بَطُونَهَا، وَأَحْمَرَّتْ مُتُونَهَا ؛ وَرَاقَتْ أَوْرَاقُهَا، وَحَاكَّتْ آمَاقُهَا ؛ نَافِرَةٌ فِي صَحْرَائِهَا، طَيِّبٌ مَرَعَاهَا فَلِمَسْكَ مِنْ دَمَائِهَا .

وَمِنْ بَقْرِ وَحْشِيَّةٍ : عُفْرِ الْإِهَابِ، سَاكِنَةِ الْهَضَابِ ؛ لَهَا فِي حِقَافِ الرَّمْلِ مَرَايِضٌ ، حَدْرًا مِنْ قَانِيصٍ قَانِيصٌ ؛ كَمْ فِي مِنْ لَوَى يَتَهَادَى ، كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادًا .

وَمِنْ حُمْرِ إِهَابِهَا أَقْمَرٌ مَنْسُوبَةٌ إِلَى أَحَدِ (؟) وَلَمْ تُرْكَبْ مُتُونُهَا، وَقَدْ حَكَّى الْجَزَعُ الَّذِي لَمْ يُتَّقَبْ فِي دُجْحِ اللَّيْلِ عِيُونُهَا .

وَعِنْدَ مَا تَتَّقَى حَلْقَةَ الْعَسَاكِرِ يَلْحَقُهَا - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - وَمَعَهُ الْجَوَارِحُ الصَّائِدَةُ، وَالْحَوَامِي الصَّائِلَةُ ؛ وَالْأَنْسَهُمُ النَّسَافَةُ، وَالْفُهُودُ الْإِخْدَةُ ؛ فَمَوْجُ الْوَحْشِ دُغْرَا ، وَتَرَى مَسَالِكَهَا قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهَا سَهْلًا وَوَعْرًا ؛ وَضُرِبَ دُونَ نَجَاتِهَا بِسُورٍ مِنَ الْحِيَادِ وَالْفُرْسَانِ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَلَاصِهَا بِنِبَالٍ وَنُحْرُصَانٍ ؛ لِحَيْثُ تَفَرُّ النَّعَامِ عَنْ رِمَالِهَا، وَالظَّبْيَاءِ عَنْ ظِلَالِهَا ؛ وَالْبَقَرِ عَنْ جَاذِرِهَا، وَالْحُمْرِ عَنْ بُولِهَا ؛ وَيَقْبُضُ - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - مِنْ جِنْسِ الْوَحْشِ كُلِّ نَوْعٍ، وَلَوْ لَمْ يُمَسِّكْهَا بِجَارِحٍ لِأَمْسِكِهَا كَمَا تُمَسِّكُ عُدَاةُ الْإِسْلَامِ بِالرُّوعِ ؛ وَتُجَزَلُ مِنْهَا الْمَكَايِبُ، وَتُمَلَأُ مِنْهَا الْحَقَائِبُ ؛ فَإِذَا أَخَذَ حَظَّهُ مِنَ الْقَبْضِ وَالدَّيِّ أَكْتَسَبَهُ، رَسَمَ لِأَمْرَائِهِ بِالصَّيْدِ عِنْدَ صُدُورِ رِكَابِهِ ؛ فَيَصِيدُونَ وَيَقْتَنِصُونَ، زَادَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ - فَإِنَّهُمْ فِي طَاعَتِهِ مُخْلِصُونَ ؛ فَيَكْثُرُ عِنْدَ ذَلِكَ كُلِّ

قنص ذبيح، ويأتي كلُّ بما اقتنصه ليظهر الترحيح؛ فاذا استكمل أوقات الصيد من الطير والوحش نعى ركابه الشريف إلى جهة القلعة المحروسة والقفار قد شرفت بمرور مواكبه، والوحش والطير قد افتخرت بكونها أصبحت من مكاسبه .

هذا كله وإن كانت النفس تراه لهوا، وتبلغ به كل ما تهوى، ففي طيه من تمرين الجنود على الحرب ما تستد به العزمات وتقوى؛ فيؤم الركاب الشريف عائداً إلى سرير ملكه بالقلعة المحروسة، والسلامة قد قضت ما يجب عليها من حراسته، والأقدار قد وقت ما ينبغي من كلاءته؛ فلم يك إلا وهو صاعد إلى القلعة المحروسة وألينة السعادة مخاطبه، وسريه قد أهرت فرحاً بمقدمه جوانبه، والصيد المبارك قد سعدت مبادئه وحمدت عواقبه؛ فيلقى أهبة السفر، ويأخذ فيما بطن من المصالح الإسلامية وظهر، وتنبهه ألينة السلامة ما أملى عليها العز والتأييد والظفر :

ملك البسيطة أب من سفره * والنصر والتأييد في أثره،
فكانه في عز موكبه * بدر تالق في سنا حفره .
ما في البرية مثله ملك * أوتي الذي أوتيه من ظفره !
يسرى إلى أعدائه رهب * مما يدت الناس من خبره .
فالله رب الناس فاطرنا * يؤتبه ما يرني على وطره ! !

الصنف الثاني

(من الرسائل ما يرد منها مورد المدح والتقرير)

إما بأن يجعل المدح مورد الرسالة ويصدر بمدح ذلك الشخص المراد، وإما بأن يصدر بما جرى يحكيها المثنى ويتخلص منها إلى مدح من يقصد مدحه وتقريبه

وما يجرى بجري ذلك . وللكتاب وأهل الصناعة في ذلك أفانين مختلفة المقاصد ،
وطرق متباينة الموارد .

وهذه نسخة رسالة أنشأها أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ سماها "رسالة الشكر"
قصد بها تقرير فض وزير المتوكل وشكر نعمه لديه ، مُصدراً لها بذكر حقيقة الشكر
وبيان مقاصده ، وهي :

جُعِلْتُ فِدَاكَ ، أيدك الله وأكرمك وأعزك ، وأتم نعمته عليك وعنده . ليس
يكون الشكر - أبقاك الله - تاقاً ، ومن حدّ النقصان خارجاً ، حتى يستصحب أربع
خلال ، ويشتمل على أربع خصال :

أولها : العلم بموقع النعمة من المنعم عليه ، وبقدر انتفاعه بما يصل إليه من
ذلك : من سدّ خلّة ، أو مبلغ لذة وعلو في درجة ، مع المعرفة بمقدار احتمال المنعم
للشقة ، والذي حاول من المعاناة والكلفة في بذل جاه مضمون ، أو مفارقة علي
ثمين . وكيف لا يكون كذلك ؟ وقد خول من نعمه بعض ما كان حبيساً على
حوادث عدّة ، فزاد في نعم غيره بما انتقص من نعم نفسه وولده . فكلما تذكّر الشاكر
ما احتمل من مشوّنة البذل ، سهل عليه احتمال ما نهض به من ثقل الشكر .

والخصلة الثانية : الحرّية الباعثة على حبّ المكافأة واستحسان المجازاة . والشكر
من أكبر أبواب الأمانه ، وأبعده من أسباب الخيانة . ولن يبلغ أحد في ذلك غاية
المجد إلا بمعونة الطمع ، وإلا الحرب سجال بينهما ، والظفر مقسوم عليهما . كذلك
حكم الأشياء إذا تساوت في القوه ، وتقاربت في بلوغ المدّه . وقد زعم ناس أن الشاكر
والمنعم لا يستويان ، كما أن البادي بالظلم والمستصير لا يعتدلان ؛ لأنّ البادي أخذ
ما ليس له ، والمستصير لم يتجاوز حقه الذي هو له ؛ ولأنّ البادي لم يكن مهيباً على

الظلم بعلّة جناها المتّصر، والمتّصر مهيجٌ على المكافاة بعلّة جناها البادئ، والمثور للطباع المغضب، والمستخفّ المهيج أعذر من الساكن الوادع المطمئن .
 فذلك قالوا : إن البادئ أظلم، والمتّصر أعذر . وزعموا أن المنعم هو الذى أودع صدر الشاكر المحبّة بانعامه عليه، وهيجّه بذلك على مكافأته لإحسانه إليه، فقد صار المنعم شريك الشاكر فى إحسانه، وتفرد بفضله إنعامه دون مشاركة غيره، والمنعم هو الذى دقع للشاكر أداة الشكر، وأعاره آلة الوفاء، فهو من ههنا أحقّ بالتقديم، وأولى بالتفضيل .

هذا، وقد قال بعض الحكماء والأدباء والعلماء : من تمام كرم المنعم التغافل عن مجته، والإقرار بالفضيلة لشاكر نعمته ؛ لأن الحاجة مغالبه، ولا تتمّ مودة إلا مع المسامحة . ولذلك قال الربيعى لثامن من العرب يتخصمون : هل لكم فى الحقّ أو خير منه ؟ قالوا : قد عرفنا الحقّ، فما الذى هو خير منه ؟ قال : التغافل فإنّ الحقّ مرّ . ألا ترى إلى بنت هيرم بن سنان لما قالت لابنة زهير بن أبى سلمى فى بعض المناحات، أو فى بعض المزاورات : إنه ليُعجبنى ما أرى من حُسن شارتيك، وبقاء نَفْحَتِك . قالت ابنة زهير : أما والله لئن قلتِ ما قلتِ، فما ذلك إلا من فضول ما وهبتم، ومن بقايا ما أنعمتم . قالت بنت هيرم : لا بل لكم الفضل، وعلينا الشكر، أعطيناكم ما يقنى، وأعطيتُمونا ما يبقى . وقيل لعبد الله بن جعفر حين أجزل لنصيب الشاعر فى الهبة، وكثر له فى العطيّة : أتنبئ هذا العبد الأسود كلّ هذا النبل، وتحبوه بمثل هذا الحياء ؟ فقال عبد الله بن جعفر : أما والله لئن كان أسود الخلد إنه لأبيض الشعر، أعطيناك دراهم تفى، وثياباً تبلى، ورواحل تُضى، وأعطانا شاةً يبقى، وحديثاً يثنى، ومكارم لا تبلى . فلهذه الخصال تكاملت خصال المجيد فيهم، فظهر عنوان كرم الخير عليهم، فصاروا فى زمانهم منارا، ولمن بعدهم

أعلاماً . وليس تيمُّ معاني كرم المنعم ، ومعاني وفاء الشاكر ، حتى لتوافق أقوالهما ،
وتتفق أهواؤهما على تدافع الحجمة ، والإقرار بالمعجزة ، فيزداد بذلك المنعم فضلاً ،
والشاكر نبلاً .

هذا جملة القول في خصلتين من الأربع التي قدمنا ذكرها ، وشهرنا أمرها .

والخصلة الثالثة : الديانة بالشكر ، والإخلاص للمنعم في تصفية الود ، فان الدين
قائد المرءة ، كما أن المرءة خطام الحمية . وهذه الخصال وإن تسعبت في بعض
الوجوه ، وافتقدت في بعض الأماكن ، فإنها ترجع إلى نصاب يجمعها ، وإلى إناء
يحفظها ، منه نجت ، وعنه آنتت ، وإليه رجعت . ولاجتاع هذه الخصال على
مخالفة الهوى ، ومجانبة الهوى ، وعلى اتهام دواعي الشهوة ، والأمتناع من كلب
الطبيعة - وفق الأفلون بينها في جملة الأسم ، وقارنوا بينها في جملة الحكم . ولذلك
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : **اعتبر عزمه بحمته ، وحزمه بمتاع بيته .**

ومدار جميع الأحوال المحمودة على الصبر ، ولن يتكلف مرارة الصبر من يجهل
عاقبة الصبر . وقالوا : **لما صار ثقل الشكر لا يُحتمل إلا بالصبر ، صار الشكر من
نتاج الصبر .** وكما أنه لا بد للحلم - مع كرم الحلم - من الصبر ، فكذلك لا بد للشكر
- مع كرم الشكر - من الصبر . فالصبر يجرى مع جميع الأفعال المحمودة ، كما يجرى
الهوى مع جميع الأفعال المذمومة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« خلق الله عز وجل النار وحفها بالشهوات ، وخلق الجنة وحفها بالمكاره . »

والخصلة الرابعة : وصف ذلك الإحسان باللسان البين ، وتخييره بالبيان النير ،
وباللفظ العذب الشهي ، والمعنى الشريف البهي . فان الكلام إذا كان حسناً ،
جعلته الحكاء أدبا ، ووجدت الرواة إلى تشيره سبباً ، حتى يصير حديثاً مأثوراً ، ومجدداً

مَدُّ كُورًا؛ وداخِلًا في أَسْمَارِ المُلُوكِ، وَسُوقًا من أسواقِ المُتَأَدِّينَ، وَوَصْلَةً في المَجَالِسِ،
 وَزِيَادَةً في العَقْلِ، وَشَحْدًا للسانِ، وَتَرْهِيْفًا للقلْبِ، وَتَأْطِيفًا للفِكْرِ، وَعِمَارَةً للصدْرِ،
 وَسُلْمًا إلى العُظْمَاءِ، وَسَبَبًا إلى الحِلَّةِ الكُبْرَاءِ . وَإِذَا لم يَكُنِ اللَّفْظُ رَائِعًا، وَالْمَعْنَى
 بَارِعًا، وَبِالنَّوَادِرِ مُرْتَحًا، وَبِالمَلَجِ مَجْلُوبًا؛ لم تَصْغُ له الاِستماعُ، ولم تَنْشِرْ له الصُّدُورُ،
 ولم تَحْفَظْهُ النُّفُوسُ، ولم تَنْطِقْ به الأفْواهُ، ولم يُحَلِّدْ في الكُتُبِ، ولم يَقَيِّدْ بالدُّرْسِ،
 ولم يَحْدِلْ به قَائِلٌ، ولم يَلْتَدِّ به سَامِعٌ . وَمَتَى لم يَكُنْ كَذَلِكَ كان كَلَامًا كَكَلَامِ اللُّغُو،
 وَمَعَانِي السَّمَوِ؛ وَكَالهَجْرِ الذِي لا يُفْهَمُ، وَالْمُسْتَعْلَقِ الذِي لا يُعْلَمُ .

وليس - أبقاك الله - نبيُّ أَحوجَ إلى الحِذْقِ، ولا أَفقرَ إلى الرِّفْقِ؛ من الشُّكْرِ
 النَّافِعِ، وَالْمَدِيحِ النَّاجِعِ؛ الذِي يَبْقَى بقاءَ الوَثْمِ، وَيَلُوحُ كما يَلُوحُ النُّجْمُ . كما أَنَّهُ لا نَبِيَّ
 أَحوجُ إلى وَسْعِ الطَّاقَةِ، وإلى الفَضْلِ في القُوَّةِ، وإلى البَسْطَةِ في العِلْمِ، وإلى تَمَامِ
 العِزْمِ - من الصَّبْرِ . وعلى أَن الشُّكْرَ في طَبَقَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وَمَنَازِلِ مُتَبَايِنَةٍ؛ وَإِنْ جَمَعَهَا
 أَسْمٌ، فَلَيْسَ يَجْعَلُها حُكْمًا، فَرُبَّمَا كان كَلَامًا يَجِيئُ به الصُّدُورُ، وَتُجْهَ الأفْواهُ،
 وَتُجَدِّفُ به الأَلْسِنَةُ، وَيُسْتَعْمَلُ فِيهِ الرَّأْيُ المُقْتَضِبُ، وَالخَاطِرُ المُخْتَارُ، وَالكَلَامُ
 المُرتَجَلُ، فَيُرْمَى به على عَوَاهِسِهِ، وَتُبْنَى مُصَادِرُهُ على غَيْرِ مَوَارِدِهِ، لا يَتَعَدَّرُ فِيهِ
 الشَّاكِرُونَ لِانْتِفَاعِ المُنْعِمِينَ، كما تَعَدَّرَ المُنْعِمُونَ لِانْتِفَاعِ الشَّاكِرِينَ . وَليستْ غَايَةُ
 القَائِلِ إِلا أَنْ يُعَدَّ بَلِيغًا مُفَوِّهاً، أَوْ يَسْتَرِيدَ به إلى نِعْمَةِ السَّالِفَةِ نِعْمًا آتِيَةً، أَوْ لَيْسَ
 إِلا لِيُعْتَرَّ كَرِيمًا، أَوْ يَحْتَدِعَ غَنِيًّا لا يَتَفَقَّدُ سَاعَاتِ القَوْلِ، وَلا يَتَعَرَّفُ أَقْدَارَ المُسْتَمِعِينَ؟
 وَلَيْسَ غَايَتُهُ إِلا الكَسْبُ وَالتَّعَرُّضُ وَالاِنتِفَاعُ وَالتَّرْتِيحُ؛ وَعلى هَذَا يَدُورُ شُكْرُ المُسْتَأْكِلِينَ،
 وَإِحْمَادُ المُتَكَسِّبِينَ .

وهذا البابُ وَإِنْ جَعَلْتَهُ العوامُ شُكْرًا، فهو بغيرِ الشُّكْرِ أَشْبَهَهُ، وبذلك أُولَى،
 وَرُبَّمَا كان شُكْرُهُ عن تَأْتِي وَتَذَكِيرٍ، وَعَنْ تَحْيِيرٍ وَتَحْيِيرٍ، وَعَنْ تَفْقُدِ للحالاتِ،

وتَحْصِيلِ الْأُمُورِ فِي الْمَقَامَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِمُهَجَّتِهِ ، وَبِحَضْرَةِ عُدُوِّ لَا يَزَالُ مُتَرَصِّدًا
لِنِعْمَتِهِ ، فَرُبَّمَا آتَمَسَ الزِّيَادَةَ فِي غَيْظِهِ ، وَرُبَّمَا آتَمَسَ شِفَاءَ دَائِهِ وَإِصْلَاحَ
قَلْبِهِ ، وَتَقَضَّ الْمُبْرَمَ مِنْ مَعَاقِدِ حَقْدِهِ ، عَلَى قَدْرِ الرَّدِّ ، وَعَلَى قَدْرِ تَصَرُّفِ الْحَالَاتِ
فِي الْمَصْلُحَةِ ، لِأَنَّ الشَّاكِرَ كَالرَّائِدِ لِأَهْلِهِ ، وَكَرِيمِ رَهْطِهِ ، وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ عِنْدَ مَشُورَتِهِ ،
فَرُبَّمَا آخْتَارَ أَنْ يَكُونَ شُكْرُهُ شِعْرًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أَشْهَرُ ، وَرُبَّمَا آخْتَارَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا
مَنْتُورًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أُنْبَلُ ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَ الْبُسْرَ وَأَتَمَّلَ الثَّرْوَةَ ، وَجَعَلَ مِنَ الدَّلِيلِ
عَلَى ذَلِكَ كَثْرَةَ النَّفَقَةِ ، وَحُسْنَ الشَّارَةِ ، وَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ أَصْدَقُ الْمَدْحَيْنِ ، وَأُنْبَلُ
الشُّكْرَيْنِ ، وَيَجْعَلُ قَائِدَهُ إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ ، وَمَسَابِقَهُ إِلَى هَذَا التَّدْبِيرِ قَوْلَ نَضِيبٍ :
فَعَاجُوزًا فَاقْتَسَمُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * وَلَوْ سَكُنْتُمْ عَلَيَّ الْحَقَائِبُ !
وَمَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ وَليْسَ بِهِ - قَوْلُ الْعَتْرِيِّ :

يَابْنَ الْعَلَاءِ وَيَابْنَ الْقِرْمِ مِرْدَاسٍ : * إِنِّي لِأَطْرِبُكَ فِي أَهْلِي وَجُلَّاسِي .

حَتَّى إِذَا قِيلَ : مَا أَعْطَاكَ مِنْ صَفْدٍ ؟ * طَأْطَأْتُ مِنْ سُوءِ حَالٍ عِنْدَ هَارِاسِي !

أُنْبِي عَلَيْكَ وَلي حَالٌ تُكَدِّنِي * بِمَا أَقُولُ فَاسْتَجِي مِنَ النَّاسِ !

وَيَنْ هَذِينَ الشُّكْرَيْنِ طَبَقَاتٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَمَنَازِلٌ مَعْلُومَةٌ . وَمَوْضِعُ الشُّكْرِ مِنْ
قَلْبِ السَّامِعِ فِي الْقَبُولِ وَالْأَسْتِنَامَةِ ، عَلَى قَدْرِ حُسْنِ النِّيَّةِ ، وَالَّذِي يَعْرِفُ بِهِ الشَّاكِرُ
مِنْ صِدْقِ اللَّهْجَةِ ، وَمِنْ قِلَّةِ السَّرْفِ ، وَأَعْتِدَالِ الْمَذَاهِبِ ، وَالْإِقْتِصَادِ فِي الْقَوْلِ .
وَهَذَا بَابٌ سِوَى الْبَابِ الْآخَرِ مِنْ حُسْنِ الْوَصْفِ ، وَجُودَةِ الرَّصْفِ . وَلِذَلِكَ لَمَّا
أَحْسَنَ بَعْضُ الْوَاعِظِينَ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْأَعْتِبَارِ وَفِي تَرْقِيقِ الْقُلُوبِ ، وَلَمَّا لَمْ يَرَّ
أَحَدًا يَخْشَعُ ، وَلَا عَيْنًا تَدْمَعُ ، قَالَ : يَا هَؤُلَاءِ ! مَا أَنْ يَكُونَ بِي شَرٌّ ، أَوْ يَكُونَ بِكُمْ شَرٌّ .

وَقِيلَ بِالْجُلَسَاءِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ ، وَعَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ : مَا بَالُ
دُمُوعِكُمْ عِنْدَ الْفَضْلِ أَغْرَزَ ، وَعِنْدَ عَبْدِ الصَّمَدِ أَنْزَرَ ، وَكَلَامُ عَبْدِ الصَّمَدِ أَغْرَزَ ،

وَكَلَامُ الْفَضْلِ أَزْرَرُ؟ قَالُوا : لِأَنَّ قَلْبَ الْفَضْلِ أَرْقَ ، فَصَارَتْ قُلُوبُنَا أَرْقَ ،
وَالْقُلُوبُ تَتَجَارَى .

وقالوا : طُوبَى لِلْمُدُوحِ إِذَا كَانَ لِلْمُدْحِ مُسْتَحِقًّا ، وَلِلدَّاعِي إِذَا كَانَ لِلْمُسْتَجَابَةِ
أَهْلًا ، وَلِلْمُنْعِمِ إِذَا حَظِيَ بِالشُّكْرِ ، وَلِلشَّاكِرِ إِذَا حَظِيَ بِالقَبُولِ .

إِنِّي لَسْتُ أَحْتَشِمُ مِنْ مَدْحِكَ ، لِأَنِّي لَسْتُ أَتَزِيدُ فِي وَصْفِكَ ، وَلَسْتُ أَمْدُحُكَ
مِنْ جِهَةِ مَعْرُوفِكَ عِنْدِي ، وَلَا أَصِفُكَ بِتَقْدِيمِ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ؛ حَتَّى أَقْدِمَ الشُّكْرَ الَّذِي
هُوَ أَوْلَى بِالتَّقْدِيمِ ، وَأَفْضَلَ الصَّنْفِ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ بِالتَّفْضِيلِ . وَفِي الْخَبَرِ
الْمُسْتَفِيضِ ، وَالحَدِيثِ الْمَأْتُورِ : « مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَهْمَى . وَقَلِيلٌ بَاقٍ
خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فَإِنْ » .

تَذَاكَرَ النَّاسُ عِنْدَ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ طَبَقَاتِ السَّابِقِينَ فِي الْفَضْلِ ، وَتَنَزِيلَ حَالَاتِهِمْ
فِي الْبِرِّ ، وَمَنْ كَانَتْ الْخِصْلَةُ الْمَحْمُودَةُ فِيهِ أَكْثَرَ ، وَالْخِصْلَةُ الثَّانِيَةُ فِيهِ أَوْفَرَ ، فَقَالَ
ذَلِكَ الْحَكِيمُ : لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَسْبِقَ رَجُلٌ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ ، فَقَدْ سَبَقَ
إِلَى تَقْدِيمِهِ نَاسٌ وَأَبْطَأَ آخَرُونَ ؛ وَلَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَفُوقَ الرَّجُلُ أَتْرَابَهُ فِي الزُّهْدِ ،
وَأَكْفَاءَهُ فِي الْفِقْهِ ، وَأَمْثَالَهُ فِي الدَّبِّ : وَهَذَا يُوجَدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَيُصَابُ فِي كُلِّ
الْبُلْدَانِ . وَلَكِنَّ الْعَجَبَ الْعَجِيبَ ، وَالنَّادِرَ الْغَرِيبَ ، الَّذِي تَهَيَّأَ فِي عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَسْقَى لَهُ . وَذَلِكَ أَنَّهُ غَبَرَ عَشْرَ حَجَجٍ : يَفْتَحُ الْفُتُوحَ ، وَيُدْوَخُ الْبِلَادَ ،
وَيَمْتَصِرُ الْأَمْصَارَ ، وَيُدَوِّنُ الدَّوَاوِينَ ، وَيَقْرِضُ الْفُرُوضَ ، وَيُرْتَبِ الْخِصْلَةَ ، وَيُدَبِّرُ
الْعَامَةَ ، وَيُنْجِي النَّفْسَ ، وَتَرْمِي إِلَيْهِ الْأَرْضُ بِأَفْلَاحِ كَيْدِهَا ، وَأَنْوَاعِ زُنْحُرِهَا ، وَأَصْنَافِ
كُنُوزِهَا ، وَمَكُونِ جَوْهَرِهَا ، وَيَقْتُلُ مَلُوكَهَا ، وَيَلِي مَمَالِكَهَا ، وَيَحُلُّ وَيَعْقِدُ ،
وَيُؤَلِّي وَيَعْزِلُ ، وَيَضَعُ وَيَرْفَعُ ، وَبَلَّغَتْ خَيْلَهُ إِفْرِيقِيَةَ ، وَدَخَلَتْ ثُرَاسَانَ : كُلُّ ذَلِكَ
بِالتَّسْدِيرِ الصَّحِيحِ وَالضَّبْطِ ، وَالِإِتْقَانِ وَالْقُوَّةِ ، وَالِإِشْرَافِ ، وَالْبَصَرِ النَّافِذِ ، وَالْعَزْمِ

المتمكن . ثم قال : لا يجمع مصلحة الأمة ، ولا يحوشهم على حفظهم من الألفة
 واجتماع الكلمة ، وإقامتهم على المحجة ، مع ضبط الأطراف ، وأمن البيضة - إلا لين
 في غير ضعيف ، وشدة في غير عنيف . ثم خبر بعد ذلك سنيه كلها على وتيرة واحدة ،
 وطريقة مطردة ؛ لا يتحرف عنها ، ولا يغيرها ، ولا يسأمها ، ولا يزول عنها :
 من خشونة المأكل والملبس ، وغليظ المركب ، وظلف النفس عن صغيرها وكبيرها ،
 ودقيقها وجليلها ، وكل ما يناحر الناس عليه ، لم يتغير في لقاء ولا في حجاب ،
 ولا في معاملة ولا في مجالسة ، ولا في جمع ولا في منع ، ولا قبض ولا بسط :
 والدنيا تنصب عليه صبا ، وتتدفق عليه تدفقا ، والخصلة من خصاله ، والخلة من
 خلاله ، تدعو إلى الرغبة ، وتفتح باب الألفة ، وتقص المبرم ، وتفيد المروءة
 وتفسح المنة ، وتحل العقدة ، وتورث الاعتزاز بطول السلامة ، والأتكال على دوام
 الظفر ، ومواناة الأيام ، ومتابعة الزمان . وكان شبانه عشر حجج على هذه الحال
 أعجوبة ، ومن البدائع الغريبة . وبأقل من هذا يظهر العجب ، ويستعمل الكبير ،
 ويظهر الجفاء ، ويقبل التواضع .

ونحن وإن كنا لا نستجيز أن نلحق أحدا بطبايع عمر ومذهبه ، وفضل قوته ،
 وبتمام عزيمه ، فإننا لا نجد بدا من معرفة فضل كل من استقامت طريقته ، ودامت
 خليفته ، فلم يتغير عند تنابع النعم ، وتظاهر الصنع ، وإن كانت النعم مختلفة
 الأجناس ، ومتفاوتة في الطبقات . وكيف يلحق به أحد ؟ مع قوله : " لو أن
 الصبر والشكر بغيران ما باليت أيهما ركبت " وليكفا على حال لا ندع تعظيم كل من
 بان من نظرائه في المرتبة ، وأشباهه في المترله ، إذ كان أدومهم طريقه ، وأشدهم
 مريه ، وأمضاهم على الجادة الوسطى ، وأقدرهم على المحجة العظمى .

ولا بد من أن يُعطى كل رئيس قسطه، وكل زمان حظه؛ ولا يُعجبنى قول
القائل: لم يدع الأول للاخيراً شيئاً، بل لعمري لقد ترك له العريض الطويل،
والثمين الخطير، واللقم النهج، والمنهج الرطب. ولو أن الناس مُدجرت هذه الكلمة
على أفواه العوام، وأُعجِب بها الأعمار من الرجال - فلدوا هذا الحكم، وأستسلموا
لهذا المذهب، وأهملوا الروية، ويئسوا من الفائدة، لقد كان آرتفع من الدنيا نفع
كثير، وعلم غزير.

وأى زمان بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله أحق بالتفضيل، وأولى بالتقديم،
من زمان ظهرت فيه الدعوة الهاشمية، والدولة العباسية، ثم زمان المتوكل على الله،
والناصر لدين الله، والإمام الذي جَلَّ فكره، وكثر شغله بتصفية الدين وتمهيديه،
وتلخيصه وتفتيحه، وإعزازة وتأيسده، واجتماع كلمته، ورجوع ألفتيه. وقد
سمعت من يقول - ويستشهد العيان القاهر، والخبر المتظاهر - : مارأيت في زماننا
من كفاة السلطان وولائه، وأعوانه وحمايته؛ من كان يؤمل لمحكك، ويتقدم
في التأهب له، إلا وقد كان معه من البذخ والنفخ، ومن الصاف والعجب، ومن
الخيلاء، ومن إفراط التغير للأولياء، والتهمك على الخلفاء، ومن سوء اللقاء،
ملا خفاء به على كاتب ولا على عامل، ولا على خطيب ولا على أديب؛ ولا على
خاصي ولا على عامي.

بجمعت - والحمد لله على النعمة فيك - بين التواضع والتعجب، وبين الإنصاف
وقلة التزهد؛ فلا يستطيع عدو معين، ولا كاشع مسر، ولا جاهل غبي، ولا عالم
مبرز، يزعم أنه رأى في شمائلك وأعطائك - عند تتابع النعم، وتظاهر المنن - تغيراً
في لقاء ولا في بشر عند المساءلة، ولا في إنصاف عند المعاملة، وأحتال عند
المطاولة. الأمر واحد، والخلق دائم، والبشر ظاهر، والمنهج ناقبه، والأعمال

زَاجِيهِ ، وَالنَّفُوسَ رَاضِيَهُ ؛ وَالْعُيُونَ نَاطِقَةَ بِالْمَحَبَّةِ ، وَالصُّدُورَ مَأْهُولَةَ بِالمَوَدَّةِ ؛
وَالدَّاعِيَ كَثِيرَ ، وَالشَّاكِيَ قَلِيلَ ؛ وَأَنْتَ بِمُحَمَّدِ اللهِ تَزْدَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِالتَّوَاضُّعِ نُبْلًا ،
وَبِالْإِنصَافِ قُضْلًا ؛ وَبِحَسَنِ اللَّقَاءِ مَحَبَّةً ، وَبِقِلَّةِ العُجْبِ هَيِّبَةً .

وقال سهل بن هرون في دعائه لبعض من كان يعنى بشأنه : اللهم زده من
الخيرات ، وأبسط له في البركات ؛ حتى يكون كل يوم من أيامه موفياً على أمسه ،
مقتصراً عن فضيلة غده . وقال في هذا المعنى أعشى همدان ، وهو من المخضرمين :

رَأَيْتَكَ أَمْسَ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ * وَأَنْتَ اليَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أَمْسِ ،

وَبَعْدَ غَدٍ تَزِيدُ الخَيْرَ ضِعْفًا * كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ عِبْدِ شَمْسٍ !

قد والله أنعم الله عليك وأسبغ ، فاشكر الله وأخلص ؛ محبتك شريف ، وأرومتك
كريمة ، والعرق منجب ، والعدد دثر ، والأمر جميل ، والوجوه حسان ، والعقول
ريزان ؛ والعفاف ظاهر ، والذكر طيب ، والنعمة قديمة ، والصنعة جسيمة ؛
وما مثلكم إلا كما قال الشاعر :

إِنَّ المَهَالِيَةَ الكِرَامَ تَحْمَلُوا * دَفَعَ المَكَارِهِ عَن ذَوِي المَكْرُوهِ ،

زَانُوا قَدِيمَهُم بِحُسْنِ حَدِيثِهِمْ * وَكَرِيمَ أَخْلَاقٍ بِحُسْنِ وُجُوهِهِ !

النعمة محفوظة بالشكر ، والأخلاق مقومة بالأدب ، والكفاءة محفوظة بالحدق ،
والحدق مردود إلى التوكل ، والصنع من وراء الجميع إن شاء الله .

هذا إلى ما ألبسك الله من القبول ، وغشاك من المحبة ، وطوقك من الصبر .
فبقي الآن أن نستبي ما أنت فيه شهوة في وزن هذه المرتبة ، وفي مقدار هذه المتزلة ؛
فإن الرغبة وإن قويت ، والرغبة وإن آشتت ؛ فإني لا يثران من النشاط ،

وَيُنْتِجَانِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْمُبَاشَرَةِ وَالْكَدِّ ، مَا تُثْمِرُهُ الشَّهْوَةُ وَإِنْ ضَعُفَتْ ، وَالْحَرَكَةُ
مِنْ ذَاتِ النَّفْسِ وَإِنْ قَلَّتْ ، لِأَنَّ النَّفْسَ لَا تَسْمَحُ بِمَكْنُونِهَا كُلِّهَا ، وَتَجُودُ بِمُخْزُونِ
قُوَّاهَا أَجْمَعٍ ، إِلَّا بِالشَّهْوَةِ دُونَ كُلِّ عِلَّةٍ مُحَرَّكَةٍ ، وَكُلِّ سَبَبٍ مُهَيِّجٍ .

قال يحيى بن خالد الجعفر بن يحيى حين تقلد الوزارة ، وتكأف النهوض بأعباء
الخِلافة : أَيْ بُنَى ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْعَجْزَ : لِعَظِيمِ مَا تَقَلَّدْتَ ، وَجَسِيمِ مَا تَحْمَلْتُ .
إِنِّي لَسْتُ آمِنٌ أَنْ تَنْفَسِحَ تَحْتَ نِقْلِهَا تَفْسِحَ الْجَمَلِ تَحْتَ الْجَمَلِ التَّقِيلِ .
قال جعفر : لِكِنِّي أَرْجُو الْقُوَّةَ ، وَأَطْمَعُ أَنْ أَسْتَقِيلَ بِهَذَا النِّقْلِ وَأَنَا مُبْتَلٍ غَيْرِ
مَبْهُورٍ ، وَأَجِيءُ قَبْلَ السَّوَابِقِ وَأَنَا ثَانِي . يقول : وَأَنَا ثَانِي عَنَانِي ، لِأَنِّي لَمْ أَجْهَدْ
فَرَسِي رَكْضًا . قال يحيى : إِنْ لَكُلِّ رَجَاءٍ سَبَبًا ، فَمَا سَبَبُ رَجَائِكَ ؟ قال :
شَهْوَتِي لِمَا أَنَا فِيهِ ، وَالْمُشْتَهَى لِلْعَمَلِ لَا يَجِدُ مِنَ أَلْمِ الْكَدِّ مَا يَجِدُهُ الْعَسِيفُ الْأَسِيفُ .
قال يحيى : إِنْ نَهَضْتَ بِنِقْلِهَا فِيهَذَا ، وَإِلَّا فَلَآ . وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَ شَهْوَتَكَ
إِلَى حُبِّ ذَلِكَ ، وَهَوَاكَ إِلَى الْإِحْتِفَاطِ بِنِعْمَتِكَ : بِشُكْرِ الْمُصْلِحِينَ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى رَبِّ
العالمين .

وَحَقٌّ لِمَنْ كَانَ مِنْ غَرَسِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَأَبْتَدَأَهُ ، وَمِنْ صَنَائِعِهِ وَأَخْتِيَارِهِ ؛
أَنْ يُجَرِّحَ عَلَى آدَبِهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَعَلَى تَثْقِيفِهِ وَتَقْوِيمِهِ ؛ وَأَنْ يُحَقِّقَ اللَّهُ فِيهِ الْأَمَلَ ،
وَيُنْجِزَ فِيهِ الطَّمَعَ ، وَأَنْ يَمُدَّ لَهُ فِي السَّلَامَةِ ، وَيُجْزِلَ لَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ ؛ وَيُطَيِّبَ ذِكْرَهُ ،
وَيُعَلِّيَ كَعْبَهُ ؛ وَيُسَرِّ صَدِيقَهُ ، وَيَكْبِتَ عَدُوَّهُ .



وهذه نسخة رسالة تسمى الإغربية ، أرسلها أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن
سليمان المغربي التُّونِجِيّ إِلَى أَبِي الْقَاسِمِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ الْمَغْرِبِيّ ، وَهِيَ :

(١) [بسم الله الرحمن الرحيم وبه الإعانة] .

السلام عليك أيتها الحكمة المغرّبية، والألفاظ العرّبية؛ أي هواء رفاقك، وأى غيبت سقائك؛ برقه كالإخريض، وودقه مثل الإغريض؛ حللت الربوة، وجللت عن الهبوة؛ أقول لك ما قال أخو عمير، لفتاة بنى عمير:

زَكَاَ لَكَ صَاحٌ وَخَلَائِكُ ذَمٌّ * وَصَبَّحِكَ الْإِيَامُنُ وَالسُّعُودُ!

لأنا آسف على قُرْبِكَ من الغراب الجهازي، على حُسنِ الزّبي؛ لما أفقر، وركب السفر؛ فقدم جبال الروم في تو، أنزل البرس^(٢) من الجوّ؛ فألثقت إلى عطفه وقد شمط فأسي، وترك النعيب أو نسي؛ وهبط إلى الأرض فشئى في قيد، وتمثل بيت دريد:

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ، * فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ: أَبْعِد!

وأراد الإياب، في ذلك الجلباب؛ فكره الشّمت، فكبد حتى مات؛ وربّ وليّ أغرق في الإكرام، فوقع في الإبرام؛ إبرام السّام، لا إبرام السّلم؛ فخرس الله سيدنا حتى تُدغم الطاء في الهاء، ففلك حراسةً بغير انتهاء؛ وذلك أن هذين ضدّان، وعلى التّضادّ متباعدان، رخوٌ وشديد، وهادٍ وذو تصعيد؛ وهما في الجهر والهمس، بمنزلة غيد وأمس؛ وجعل الله رُبته التي كالفاعل والمبتدا، نظير الفعل في أنها لا تُخفّض أبداً؛ فقد جعلني: إن حضرتُ عَرَفَ شَانِي، وإن غيبتُ لم يجهل مكاني؛ كما في النداء، والمخذوف من الابتداء؛ إذا قلتُ: زيدٌ أقبل، والإيلُ الإيل؛ بعد ما كنتُ كهاء الوقف إن ألتقيتُ فبواجب، وإن ذكرتُ فغير لازب.

(١) الزيادة من شرح الرسالة الإغريقية الموجودة بدار الكتب السلطانية تحت نمرة ١٢٧ أدب .

(٢) البرس القطن، والمراد التلج الشبيه به .

إِنِّي وَإِنْ عَدَوْتُ [فِي زَمَانٍ] ^(١) كَثِيرَ الدَّدِ ، كِهَاءِ العَدَدِ ؛ لَزَمَتِ المَذَكَّرُ ، فَآتَتْ
بِالمُنْكَرِ ؛ مَعَ إِئْفِ يَرَانِي فِي الأَصْلِ ، كَأَيْفِ الوَصْلِ ؛ يَذَكُرُنِي بِغَيْرِ التَّنَاءِ ، وَيَطْرَحُنِي
عِنْدَ الأَسْتِغْنَاءِ ؛ وَحَالٍ كَالْمُعْزَةِ تُبَدِّلُ العَيْنَ ، وَتُجْعَلُ بَيْنَ بَيْنَ ؛ وَتَكُونُ نَارَةً حَرْفَ لَيْنَ ،
وَنَارَةً مِثْلَ الصَّامِتِ الرِّصِينِ ؛ فَهِيَ لَا تَتَّبَعُ عَلَى طَرِيقِهِ ، وَلَا تُدْرِكُ لَهَا صُورَةً
فِي الحَقِيقَةِ ؛ وَنَوَائِبُ الحَقِيقَةِ الكَبِيرِ بِالصَّغِيرِ ، كَأَنَّهَا تَرْخِيمُ التَّصْغِيرِ ؛ رَدَّتِ المُسْتَحْلِسَ
إِلَى حُلَيْسَ ، وَقَابُوسًا إِلَى قُبَيْسَ ؛ لِأَمَدَّتْ صَوْتِي بِتِلْكَ الآلَاءِ ، مَدَّ الكُوفِيُّ صَوْتَهُ
فِي هُوْلَاءِ ؛ وَأَخْفَفَ عَنِ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا [الْوَزِيرِ] ^(١) الرَّئِيسِ الحَبْرَ ، تَخْفِيفَ المَدَنِيِّ مَا قَدَّرَ
عَلَيْهِ مِنَ النَّبْرِ ؛ إِنْ كَاتَبْتُ فَلَسْتُ مُتَمَسِّسَ جَوَابَ ، وَإِنْ أَسْهَبْتُ فِي الشُّكْرِ فَلَسْتُ طَائِبَ
تَوَابَ ؛ حَسْبِي مَا لَدَيْ مِنْ أَيَادِيهِ ، وَمَا عَمَّرَ مِنْ فَضْلِ السَّيِّدِ الأَكْبَرِ أَيُّهُ ؛ أَدَامَ اللهُ
لَهَا القَدْرَ مَا دَامَ الضَّرْبُ الأَوَّلُ مِنَ الطَّوِيلِ صَحِيحًا ، وَالمُنْذِرُحُ خَفِيفًا سَرِيحًا ؛
وَقَبَضَ اللهُ يَمِينِ عَدُوِّهِمَا عَنِ كُلِّ مَعْنٍ ، قَبَضَ العَرُوضِ مِنْ أَوَّلِ وَزْنٍ ؛ وَجُمِعَ لَهُ
المَهَانَةُ إِلَى التَّقْيِيدِ ، كَمَا جُمِعَا فِي ثَانِي المَدِيدِ ؛ وَقُلِمَ قَلَمَ الفَسِيحِ ، وَخُيِّلَ كَسْبَاعِي
البَّسِيطِ ؛ وَعَصَبَ [الله] ^(١) الشَّرْبَهَامَةَ شَائِئِيهِمَا وَهُوَ مَخْزُوقٌ ، عَصَبَ الوَافِرِ النَّالِثِ وَهُوَ
مَخْزُوقٌ ؛ بَلْ أَضْمَرَنَاهُ الأَرْضُ إِضْمَارَ ثَالِثِ الكَامِلِ ، وَعَدَاهُ أَمَلُ الأَمَلِ ؛ وَسَلِمَ سَيِّدَانَا
أَعَزَّ اللهُ نَصْرَهُمَا وَمِنْ أَحِبَّاهُ وَقَرَّبَاهُ سَلَامَةً مُتَوَسِّطِ المَجْمُوعَاتِ ، فَإِنَّهُ آمِنٌ مِنْ
المُرُوعَاتِ ؛ فَقَدْ أَفْتَنَنْتُ فِي نِعْمِهِمَا الرَّائِعَةِ ، كَأَفْتِنَانِ الدَّائِرَةِ الرَّابِعَةِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا أُمَّ سِتَّةِ
مَوْجُودِينَ ، وَثَلَاثَةِ مَفْقُودِينَ .

وَأَنَا أَعِدُّ نَفْسِي مُرَاسَلَةَ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الجَلِيلَةِ عِدَّةَ ثُرَيَّا اللَّيْلِ ، وَثُرَيَّا سُهَيْلِ ؛
هَذِهِ القَمَرُ ، وَتِلْكَ عُمَرُ ؛ وَأَعْظَمُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، إِعْظَامًا فِي مِقَّةٍ وَبَعْضُ الإِعْظَامِ

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

في ممتت ؛ فقد نصّب للآداب فبة صار الشأم فيها كشامة المعيب ، والعراق كعراق
الشعيب ؛ أحسب ظللها من البردين ، وأغنت العالم عن الهندين ؛ هنيد الطيب ،
وهنيد النسيب ؛ ربة الخمار ، وأزباب قمار ؛ أخذان التجر ، وخدينة الهجر .
ما حاملة طوق من الليل ، وبريد من المرتبع مكثوف الذيل ؛ أوقت الأشاء ، فقالت
للكتيب ما شاء ؛ نسمعه غير مفهوم ، لا بالرمل ولا بالمزموم ؛ كأن سمعها قريض ،
ومراسلها الغريض ؛ فقد ماد لشجوها العود ، وفقد لها لا يعود ؛ تندب هديلا فات ،
وأتيح له بعض الآفات - بأشوق إلى هديلها من عبده إلى مناسمة أنبائه ، ولا أوجد
على إلفها منه على زيارة فنائه ؛ وليست الأشواق ، لذوات الأطواق ؛ ولا عند
الساجده ، عبرة متراجعه ؛ إنما رأت الشرطين ، قبل البطين ؛ والرشاء ، بعد
العشاء ؛ فحكّت صوت الماء في الخجير ، وأتت براء دائمة التكرير ؛ فقال جاهل
فقدت حميا ، ونككت ولدا كريما ؛ وهيات يا باكية أصبحت ، فصدحت ؛
وأمسيت ، فتناسيت ؛ لا همام لا همام ، ما رأيت أعجب من هاتيف الحمام ؛ سلم
فناح ، وصمت وهو مكسور الجناح ؛ إنما الشوق لمن يدرك في كل حين ، ولا يذهله
مضي السنين .

وسيدنا الوزير أطل الله بقاءه الفائل النظم في أدكاء مثل الزهر ، وفي النقاء مثل
الجوهر ؛ تحسب بإدرته التاج ، أرتفع عن الججاج ؛ وغارته الجمل ، في الرجل ؛ يجمع
بين اللفظ القليل ، والمعنى الجليل ؛ جمع الأفعوان في لعابه بين القلابة ، وفقد البسلة ؛
خسن ، فحسن ؛ ولان ، فما هان ؛ لين الشكير ، يدل على عنق المحضير ، وحرش
الدينار ، آية كرم النجار ؛ فصنوف الأشعار بعده كألف السلام ، يلفظ بها في الكلام ،
ولا تثبت لها هيئة بعد اللام ؛ خلص من سبك النقد خلوص الذهب ، من اللهب ؛
والبحين ، من يد القين ؛ كأنه لآل ، في أعناق حوال ؛ وسواه لظ ، في عنق نط ؛

مَا خَانَتْهُ قُوَّةُ الْخَاطِرِ الْأَمِينِ ، وَلَا عَيْبَ بَسْنَادٍ وَلَا تَضْمِينَ ، وَأَيْنَ النَّثْرَةُ ، مَنْ
الْعَثْرَةُ ، وَالْفَرْقَدُ ، مَنْ الْفَرْقَدُ ؟ ، فَالسَّاعِي فِي أَثَرِهِ فَارِسٌ عَصَا بَصِيرٍ ، لَا فَارِسُ
عَصَا قَصِيرٍ .

وَأَنَا نَائِتٌ عَلَى هَذِهِ الطَّوِيلَةِ ثَبَاتَ حَرَكَةِ الْبِنَاءِ ، مُقِيمٌ تِلْكَ الشَّهَادَةَ بِغَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ ،
غَنِيٌّ عَنِ الْأَيْمَانِ فَلَا عَدَمَ ، مُقْسِمٌ عَلَى مَا قَلْتُ فَلَا حِثَّ وَلَا تَدَمَّ ، وَإِنَّمَا نُحِبُّ الدَّرَّةَ ،
لِحَسَنَاءِ الْحَزْهِ ، وَيُجَادُّ بِالْيَمِينِ ، فِي الْعَلَقِ الثَّمِينِ ، مَا أَنْفَسَهُ خَاطِرًا أَمْتَرَى الْفِضَّةَ ،
مَنْ الْقِضَّةُ ، وَالْوَصَاءُ ، مِنْ مِثْلِ الْحَصَاءِ ، وَرُبَّمَا تَزَعَّتِ الْأَشْبَاهُ ، وَلَمْ يُشْبِهْ الْمَرْءُ
أَبَاهُ ، وَلَا غَرَّوْ لَدُنْكَ : الْخُضْرَةُ أُمُّ الْأَلْهَبِ ، وَالنَّخْمَةُ يَنْتُ الْغَرِيبُ .

وَكذَلِكَ سَيِّدُنَا وَلَدٌ مِنْ سِحْرِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، حِكْمَةٌ لِحُفْمَاءِ الْمُتَدَبِّرِينَ ، كَمْ لَهُ مِنْ قَافِيَةٍ
تَبَيُّ السُّودِ ، وَتَثْنِي الْحُسُودِ ، كَالْمَيْتِ ، مَنْ شُرِبَ الْعَاتِقَةُ الْكُحَيْتِ ، نُشُورُهُ قَرِيبٌ ،
وَحِسَابُهُ تَثْرِيْبٌ ، أَيْنَ مُشَبَّهُو النَّسَاقَةِ بِالْقَدَنِ ، وَالصَّخْصِجِ بِرِدَائِ الرَّدَنِ ، وَجَبَّ
الرَّحِيلُ ، عَنْ الرَّبْعِ الْمُحِيلِ ، نَسَأَ بَعْدَهُمْ وَأَصِفَ ، غُودِرَ رَأُّهُ كَالْمَنَاصِفِ ، إِذَا سَمِعَ
الْخَافِضُ صِفَتَهُ لِسَهْبِ الْفَسِيحِ ، وَالرَّهْبِ الطَّلِيحِ ، وَدَّ أَنْ حَشِيَّتَهُ بَيْنَ الْأَخْنَاءِ ،
وَخَلُوقِهِ عَصِيمِ الْهِنَاءِ ، وَحَلَّمَ بِالْقُودِ ، فِي الرُّقُودِ ، وَصَاعَ بُرَى ذَوَاتِ الْأُرْسَانِ ، مِنْ
بُرَى الْبَيْضِ الْحِسَانِ ، شَسَفَا لُدْرَ النُّحُورِ ، وَعُيُونِ الْحُورِ ، وَشَغَفَا بَدْرَ بَكِي ، وَعَيْنِ
مِثْلِ الرَّكِيِّ ، وَإِعْرَاضًا عَنْ بُدُورِ ، سَكَنَ فِي الْخُدُورِ ، إِلَى مُحْوَلٍ ، كَأَهْلَةِ الْمُحْوَلِ ،
فَهُنَّ أَشْبَاهُ الْقَيْسِيِّ ، وَنَعَامِ النَّسِيِّ ، وَإِنْ أَخَذَ فِي نَعْتِ [الْخَيْلِ] ^(١) فَيَاخِيئَةُ مِنْ سَبَبِهِ ^(٢)
الْأَوَايِدَ بِالتَّقْيِيدِ ، وَشَبَّهَ الْخَافِرَ بِقَعْبِ الْوَلِيدِ ، نَعْنَا غَبَطَ بِهِ الْهَجِينَ الْمُنْسُوبِ ، وَالْبَازِيَّ

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

(٢) أى أذهب حوائجها . وفى الأصل شَبَّهَ بِالنَّسِيِّ .

الْبَعْسُوبُ ؛ إِذْ رُزِقَ مِنَ الْخَيْرِ ، مَا لَيْسَ لِكَثِيرٍ مِنْ سِبَاعِ الطَّيْرِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى الصَّغَرِ ، سَمِيَ بِعِضِ الْغُرِّ ؛ وَقَدْ مَضَى حَرَسٌ ، وَخَفَّتْ جَرَسٌ ؛ وَلِلْقَالِعِ ، أَبْغَضُ طَالِعٍ ؛ وَالْأَزْرَقِ ، يُحَنِّبُكَ عَنْهُ الْفَرَقُ .

فَالآنَ سَأَمِتَ الْجَهَّةَ مِنَ الْمَعِضِ ، وَشَمِلَ بَعْضَهَا بَرَكَاتُ بَعْضٍ ؛ فَأَيُّقِنِ النَّطِيجَ ، أَنَّ رَبَّهُ لَا يَطِيعُ ؛ وَالْمَهْهُوعَ ، نَجَاءُ رَاكِبِهِ مِنَ الْوُقُوعِ ؛ فَلَنْ يُحْرَبَ ، قَائِدُ الْمُقْرَبِ ؛ وَلَنْ يُرَجَلَ ، سَائِسُ الْأَرْجَلِ ؛ وَالْعَابَ ، وَإِنْ لَحِقَ الْكِعَابَ ؛ فَإِنَّهُ نَاكِبٌ ، عَنْ نَاقِلَاتِ الْمَرَآكِبِ . وَقَالَتْ خَيْفَانَةُ أَمْرِي الْقَيْسُ : الدِّبَاءُ ، لِرَأْيِ الْمَبَاءِ ؛ وَالْأَنْفِيَّةُ ، لِلْقَدْرِ الْكَفِيَّةِ ؛ تَقْمَاعِي جَاعِلٌ غُدْرَهَا كَقُرُونِ الْعُرُوسِ ، وَجِبْهَتَهَا كَمُحَدِّفِ الثَّرُوسِ ؛ وَأَنَّى لِلْيَكْنُدِيِّ ، قَوَافٍ كَهَجْمَةِ السَّعْدِيِّ :

إِذَا أَصْطَكْتُ بِضَيْقِ حَجْرَتَاهَا * تَلَاقَى الْعَسْجَدِيَّةُ وَاللَّطِيمُ !

فَالْقَيْسِيُّ ، فِي تَضَاعِيفِ النَّسِيبِ ، وَالشَّبَابُ فِي ذَلِكَ التَّشْبِيبِ ؛ لَيْسَ رَوِيَّهُ بِمَقْلُوبٍ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ إِرْوَاءِ الْقُلُوبِ ؛ قَدْ جَمَعَ أَيْلَ مَاءِ الصَّبَا ، وَصَلِيلَ ظِمَاءِ الطَّبَا ؛ فَاَلْمِصْرَاعُ كَوَذِيلَةِ الْغَرِيْبِيِّ ، حَكَّتِ الزَّيْنَةَ وَالرَّيْبِيَّةَ ؛ وَأَرَتِ الْحَسَنَاءُ سَنَاهَا ، وَالسَّمَجَةَ مَا عَنَاهَا ؛ فَأَمَّا الرَّأْحُ فَلَوْ ذَكَرَهَا لَشَفَّتْ مِنَ الْمَهْرَمِ ، وَأَنْتَفَتْ مِنَ الْكَرَمِ إِلَى الْبَكْرَمِ ؛ وَلَمْ تَرْضَ دِنَانُ الْعُقَارِ ، بِلِبَاسِ الْقَارِ ؛ وَتَسْجَعُ الْعِنَاكِبِ ، عَلَى الْمَنَاكِبِ ؛ وَلَكِنْ تُكْمَى مِنْ وَثِي ثِيَابَا ، وَيُجْعَلُ طِلَاؤُهَا زُرِّيَابَا ؛ وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ ذَكَرَ خَيْمَةً يَغْبِطُ الْمِسْكَ جَارَهَا مِنَ الشِّيَامِ ، وَيُودُّ سَعْدُ الْأَخْيِيَّةِ أَنَّهُ سَعْدُ الْخِيَامِ .

وَوَقَفْتُ عَلَى "مُخْتَصَرِ إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ" الَّذِي كَادَ بِسِوَاةِ الْأَبْوَابِ ، يُغْنِي عَنْ سَائِرِ الْحِجَابِ ؛ فَعَجِبْتُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ تَقْيِيدِ الْأَجْمَالِ ، بِطِلَاءِ الْأَحْمَالِ ؛ وَقَلْبِ الْبَحْرِ ،

إلى قَلتِ النَّحْرُ؛ وإجْرَاءِ الْفُرَاتِ، في مِثْلِ الْأَنْحَرَاتِ؛ شَرَفًا لَهُ تَصْنِيفًا شَفَى الرَّيْبِ،
وَكَفَى من آبنِ قُرَيْبٍ؛ ودَلَّ على جَوَامِيعِ اللُّغَةِ بالإيماءِ، كما دَلَّ الْمُضْمَرُ على ما طَالَ
من الأسماءِ .

أقولُ في الإخبارِ : أَمَرْتُ أبا عَبْدِ الْجَبَّارِ؛ فإذا أَضْمَرْتُهُ، عُرِفَ مَتَى قُلْتُ :
أَمَرْتُهُ؛ وأَبْلُ من المَرِضِ والتَّمْرِ يَضُ، بما أُسْقِطُ من سُهودِ القَرِيضِ؛ كأنَّهُمْ
في تِلْكَ الحَالِ، شَهِدُوا بِالْحَالِ؛ عِنْدَ قَاضٍ، عَرَفَ أمانَتَهُم بِالانْتِقَاضِ؛ على حَقِّ
عَلِمِهِ بِالْعِيَانِ، فَاسْتَغْنَى فيه عن كُلِّ بَيَانٍ .

وقد تَأَمَّلْتُ شواهِدَ "إِصْلَاحِ الْمُنْطِقِ" فوجدتُهَا عَشْرَةَ أَنْواعٍ في عِدَّةِ إِخْوَةِ
الصَّدِيقِ، لَمَّا تَظَاهَرُوا على غيرِ حَقِيقٍ؛ وتَزَيَّدُوا على العَشْرَةِ بواحِدٍ، كَخِجِ لِيُوسُفَ
لَمْ يَكُنْ بالشَّاهِدِ . والشَّعْرُ الأَوَّلُ وإنْ كان سَبَبَ الأَثَرِ، وَصَحِيفَةُ المَأْثَرِ؛ فإنه كَذُوبُ
القَالَةِ، تَمُومُ الإِطالَةَ؛ وإنْ قَفَا نَبْكَ [على حُسْنِهَا]، وَقَدِمَ سِنِّهَا؛ لِنُقْرُ بِمَا يُبْطِلُ
شَهَادَةَ العَدْلِ الرِّضَا، فَكَيْفَ بالبَغْيِ الأَثْمِي؛ قاتَلَهَا اللهُ عَجُوزًا لو كانت بَشْرِيَّةً،
كانت من أَعْوَى البَرِيَّةِ . وقد تَمَّادى أبى يُوْسُفَ رَحِمَهُ اللهُ الأَجْهَادَ، في إِقامَةَ
الأَشْهادِ؛ حتى أَتَسَدَّ رَجَزَ الضَّبِّ، وإنْ مَعَدًّا من ذلك لِحُدِّ مُغْضَبٍ؛ أَعْلَى فصاحتِهِ
يُسْتَعْمَانُ بالقَرَضِ، وَيُسْتَشْهَدُ بأَحْشاشِ الأَرْضِ؟؛ ما رُوِّبُهُ عِنْدَهُ في نَفِيرٍ، فما قَوْلُكَ
في ضَبِّ دَامِي الأُظْفافِ؟؛ وَمَنْ نَظَرَ في كِتابِ يَعْقُوبَ وَجَدَهُ كالمُهْمَلِ، إلا بابَ فَعَلٍ
وَفَعَلٍ؛ فإنه مُؤَلَّفٌ على عَشْرِينَ حَرْفًا : سِتَّةَ مُدَلِّقَةٍ، وَثَلَاثَةَ مُطَبِّقَةٍ؛ وأربَعَةَ من
الحُرُوفِ الشَّدِيدَةِ، وواحِدٌ من المَزِيدَةِ؛ وَنَفِيقَتَيْنِ : النَّاءِ وَالذَّالِ، وَأَخْرَمْتَعَالَ؛
وَالأُخْتَيْنِ العَيْنِ وَالْحَاءِ، وَالشَّيْنِ مُضَافَةً إلى حَيْرِ الرِّاءِ . فَرَحِمَ اللهُ أبا يُوْسُفَ لو عَاشَ
لَفَاطَ كَمَدًا، أو أَحْفَاطَ حَسَدًا، سَبَقَ آبنِ السَّكَيْتِ ثم صَارَ السَّكَيْتِ، وَسَمَقَ ثم حَارَ
وَبَدَا لِلبَيْتِ؛ كان الكَلْبُ تَبْرًا في تُرابِ مَعِينِ، بَيْنَ الحُثِّ وَبَيْنَ المُتَدَّنِ؛ فَاسْتَخْرَجَهُ

سَيِّدَنَا وَأَسْتَوْشَاهُ، وَصَقَلَهُ فِكْرَهُ وَوَشَّاهُ؛ فَعَبَطَهُ النَّيِّرَاتُ عَلَى التَّرْقِيشِ، وَالْأَلِ النَّقِيشِ؛
فَهُوَ مَحْبُوبٌ لَيْسَ بِهَيِّنٍ، عَلَى أَنَّهُ ذُو وَجْهَيْنِ؛ مَا تَمَّ قَطُّ وَلَا هَمَّ، وَلَا نَطَقَ وَلَا أَرَمَ؛
فَقَدْ نَابَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الصِّمِيمِ، مَنَابَ مِرْآةِ الْمُتَنَجِّمِ فِي عِلْمِ التَّنَجِيمِ؛ شَخْصُهَا ضَيْلٌ
مَأْمُومٌ، وَفِيهَا الْقَمَرَانِ وَالنُّجُومُ.

وأقولُ بعدُ في إعادة اللفظ : إنَّ حُكْمَ التَّأْلِيفِ فِي ذِكْرِ الْكَلِمَةِ مَرَّتَيْنِ، كَالجَمْعِ
فِي النِّكَاحِ بَيْنِ الْأَخْتَيْنِ؛ الْأُولَى حِلُّ يُرَامُ، وَالثَّانِيَةُ بَسَلُ حَرَامٌ؛ كَيْفَ يَكُونُ
فِي الْهُودَجِ لِمَيْسَانَ، وَفِي السَّبَّةِ تَحْيِيسَانَ؛ يَا أُمَّ الْفَنَيَاتِ حَسْبُكَ مِنَ الْهُودِ، وَيَا أَبَا
الْفَيْثَانَ شَرَعَكَ مِنَ السُّعُودِ؛ عَلَيْكَ أَنْتِ بَزَيْنَبَ وَدَعْدُ، وَسَمَّ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِسُؤَى سَعْدُ؛
مَا قَلَّ أُنْبَرُ، وَالْأَسْمَاءُ كَثِيرٌ.

مثَلُ يَعْقُوبَ مَثَلُ خَوْدِ كَثِيرَةِ الْحُلِيِّ ضَاعَفْتَهُ عَلَى التَّرَاقِ، وَعَطَلَتِ الْخَصْرَ وَالسَّاقِ؛
كَانَ يَوْمَ قُدُومِ تِلْكَ النُّسْخَةِ يَوْمَ ضَرِيبِ حَشْرِ الْوَحْشِ مَعَ الْإِنْسِ، وَأَضَافَ
الْجِنْسَ إِلَى غَيْرِ الْجِنْسِ؛ وَلَمْ يَحْكَمْ عَلَى الطَّبَاءِ، بِالسَّبَاءِ؛ وَلَا رَمَى الْآجَالَ، بِالْأَوْجَالَ؛
وَلَكِنَّ الْأَضْدَادَ تَجْتَمِعُ، فَتَسْتَمِعُ؛ وَتَتَصَرَّفُ بِلَذَاتِ، مِنْ غَيْرِ أَدَاةٍ؛ وَإِنْ عَبَدَهُ
مُوسَى لَقَيْنِي تَقَابَا، فَقَالَ : هَلُمَّ كِتَابَا؛ يَكُونُ لَكَ شَرَفَا، وَبِمُؤَالَاتِكَ فِي حَضْرَةِ سَيِّدِنَا
- أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - مُعْتَرِفَا؛ فَتَلَوْتُ عَلَيْهِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ : ﴿إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا
وَلَا تَعْرَى وَأَنْتَ لَا تَنْظَمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾. وَأَحْسَبُهُ رَأَى نُورَ السُّؤُودِ فَقَالَ لِحَلْفِيهِ،
مَا قَالَهُ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِأَهْلِيهِ؛ : ﴿إِنِّي آتَيْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾. فَلَيْتَ شِعْرِي : مَا يَطْلُبُ؟ أَقَبَسَ ذَهَبٌ؟ أَمْ قَبَسَ
لُحْبٌ؟ بَلْ يَتَشَرَّفُ بِالْأَخْلَاقِ الْبَاهِرَةِ، وَيَتَبَرَّكُ بِالْأَحْسَابِ الطَّاهِرَةِ.

(١) السَّبَّةُ الزَّمَنُ مِنَ التَّهْمِ، وَلَعَلَّهُ يَرِيدُ بِهَا الْأَسْبُوعَ كَمَا جَاءَ فِي شَرْحِ رِسَالَتِ الْمَعْرَى الْمَوْجُودَةِ
بِدَارِ الْكُتُبِ السُّلْطَانِيَّةِ.

بَاتَ حَوَاطِبُ لَيْلِي يَتَّبِيسُنْ لَهَا ٥ جَزَلُ الْإِحْدَا غَيْرُ حَوَارٍ وَلَا دَعْرٍ!

وقد آب من سَفَرِهِ الأُولَى ومعه جَدْوَةٌ من نَارٍ قَدِيمَةٍ : إن لُمِسْتُ فَنَارُ إِبْرَاهِيمَ ،
أَوْ أُونِسْتُ فَنَارُ الْكَلِيمِ ؛ وَأَجْتَنَى بِهَارًا حَبَّتْ بِهِ الْمِرَازِبَةُ كَسْرِي ، وَمَحَلٌ فِي فَكَاكِ
الْأَسْرَى ؛ وَأَدْرَكَ نُوحًا مَعَ الْقَوْمِ ، وَبَقِيَ غَضًّا إِلَى الْيَوْمِ ؛ وَمَا أَتَجَمَّعُ مُوسَى إِلَّا الرُّوضِ
الْعَمِيمِ ، وَلَا أَتَّبِعُ إِلَّا أَصْدَقَ مُقِيمٍ ؛ وَوَرَدَ عَبْدُهُ الرَّهْيَرِيُّ مِنْ حَضْرَتِهِ الْمُطَهَّرَةِ وَكَأَنَّهُ
زَهْرَةٌ بِقَبِيعٍ ، أَوْ وَرْدَةٌ رَيْبِعٍ ؛ كَثِيرَةُ الْوَرَقِ ، طَيِّبَةُ الْعَرَقِ ؛ وَلَيْسَ هُوَ فِي نِعْمَتِهِ كَالرَّيْمِ ،
فِي ظِلَالِ الصَّرِيمِ ؛ وَالجَّابِ ، فِي السَّحَابِ الْمُتَجَابِ ؛ لِأَنَّ الظَّلَامَ يَسْفِرُ ، وَالغَمَّامَ
يَنْسِفِرُ ؛ وَلَكِنَّهُ مِثْلُ النَّوْنِ فِي الْجُفَّةِ ، وَالْأَعْفَرِ تَحْتِ جَرِيهِ .

وقد كُنْتُ عَرَفْتُ سَيِّدَنَا فِي مَا سَلَفَ أَنَّ الأَدَبَ كَعُهودٍ فِي غَيْبِ عُهُودٍ ، أَرَوْتُ
النَّجَادَ فَمَا ظَنُّكَ بِالوُهودِ ؟ ؛ وَأَنَّى نَزَلْتُ مِنْ ذَلِكَ الْغَيْثِ بَبَلِيهِ طَسْمٌ ، كَأَثَرِ الوَسْمِ ؛
مَنْعَهُ الْفِرَاعُ ، مِنْ الإِمْرَاعِ ؛ يَا بُوَسٌ ، بَنِي سُدُوسٍ ؛ الْعَدُوُّ حَازِبٌ ، وَالكَلاُّ
عَازِبٌ ؛ يَا حِصْبَ بَنِي عَبْدِ الْمَدَانِ ، ضَانٌّ فِي الْحَرْبِ وَإِيْلٌ فِي السَّعْدَانِ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ
ذَلِكَ أَتَعَبْتُ الأَظْلَمَ ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا الْحَنْظَلَ ؛ فَلَيْسَ فِي اللَّيْدِ ، إِلَّا الْهَيْدِ ؛ جَنِيتهُ مِنْ
شَجَرَةٍ أَجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . لَبَنُ الإِيْلِ عَنِ الْمُرَارِ مُرٌّ ، وَعَنِ
الأَرَاكِ طَيِّبٌ حُرٌّ .

هَذَا مِثْلِي فِي الأَدَبِ . فَأَمَّا فِي النَّشْبِ ؛ فَلَمْ تَزَلْ لِي بِمَجْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَبِقَاءِ سَيِّدِنَا
بُلْغَتَانِ : بُلْغَةُ صَبْرٍ ، وَبُلْغَةُ وَقْرٍ ؛ أَنَا مِنْهُمَا بَيْنَ اللَّيْلَةِ الْمُرْعِيَّةِ ، وَاللُّقُوجِ الرَّبِيعِيَّةِ ؛ هَذِهِ
عَامٌ ، وَتِلْكَ مَالٌ وَطَعَامٌ ؛ وَالْقَلِيلُ ؛ سَلَّمَ إِلَى الْجَلِيلِ ؛ كَالْمُصَلِّيِ رُبَيْعُ الضُّوءِ ، بِإِسْبَاحِ
الْوُضُوءِ ؛ وَالتَّكْفِيرِ ، بِإِدَامَةِ التَّعْفِيرِ ؛ وَقَاصِدُ بَيْتِ اللَّهِ يَغْسِلُ الحُوبَ ، بِطُولِ الشُّحُوبِ .

وأنا في مكاتبه حَضْرَةَ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ، وَالْمَيْلِ عَنْ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْأَجَلِّ وَالِدِهِ
 - أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُ - كَسْبِيَا بْنِ يَعْرُبٍ، لَمَّا أَتَاهُ فِي التَّقَرُّبِ؛ إِلَى خَالِقِ النُّورِ، وَمُصَرِّفِ
 الْأُمُورِ، نَظَرَ فَلَمْ يَرَّ اشْتَرَقَ مِنَ الشَّمْسِ يَدًا، فَسَجَدَ لَهَا تَعْبُدًا . وَغَيْرُ مَلُومٍ سَيِّدِنَا
 لَوْ أَعْرَضَ عَنْ شَقَائِقِ الثَّمَانِ الرَّبِيعِيِّ، وَمَدَائِحِ الْيَرْبُوعِيِّ؛ مَلًّا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلَدِ
 الْمُضَافِ إِلَى هَذَا الْأَسْمِ، فَغَيْرُ مُعْتَدِرٍ، مَنْ أَبْغَضَ لِأَجْلِهِمْ بَنِي الْمُنْذَرِ؛ وَهُمْ إِلَى
 حَضْرَتِهِ السَّنِيَّةِ رَجُلَانِ : سَائِلٌ، وَقَائِلٌ؛ فَأَمَّا السَّائِلُ فَالْحُ، وَأَمَّا الْقَائِلُ فَغَيْرُ
 مُسْتَمْلِحٍ؛ وَقَدْ سَتَرَتْ نَفْسِي عَنْهَا سِتْرَ الْخَمِيصِ، بِالْقَمِيصِ؛ وَأَيْحَى الْهَيْتَرِ، بِسُجُوفِ
 السِّتْرِ؛ فَظَهَرَ لِي فَضْلُهُ الَّذِي مَثَلُهُ مَثَلُ الصُّبْحِ إِذَا لَمَعَ تَصَرَّفَ الْحَيَوَانُ فِي شُؤُونِهِ
 وَنَحَرَاجَ مِنْ بَيْتِهِ الْيَرْبُوعِ، وَبَرَزَ الْمَلِكُ مِنْ أَجْلِ الرَّبُوعِ، وَقَدْ يُوَلِّعُ الْهَيْجِرِسَ؛ بِأَنْ
 يَحْرِيسَ؛ فِي الْبَلَدِ الْجَرْدِ، قُدَّامَ الْأَسَدِ الْوَرْدِ . وَإِنِّي خُبِرْتُ أَنَّ تِلْكَ الرَّسَالَةَ الْأُولَى
 عُرِضَتْ بِالْمَعْرِضِ الْكَرِيمِ : فَأَوْجَبَ ذَلِكَ رَحِيلَ أُخْتِهَا، مُتَعَرِّضَةً لِمِثْلِ بَحْتِهَا؛
 وَكَيْفَ لَا تَنْفَعُ، وَفِي الْيَمِّ تَقَعُ؛ وَهِيَ بِمَقْصِدِ سَيِّدِنَا فَانْحَرَهُ، وَلَوْ نُهِيتِ الْأُولَى
 لِأَتَمَّتِ الْآخِرَةَ :

كَلِمَاتُ الرَّسَالَةِ .



قُلْتُ : وَهَذِهِ رِسَالَةٌ أَنْشَأْتُهَا فِي تَقْرِيبِضِ الْمَقْتَرِ الْكَرِيمِ الْفَتْحِيِّ، أَبِي الْمَعَالِي فَتْحِ اللَّهِ،
 صَاحِبِ دَوَاوِينِ الْإِنْسَاءِ الشَّرِيفِ بِالْديَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أَدَامَ اللَّهُ
 تَعَالَى مَعَالِيَهُ، فِي شَهْرِ سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةَ وَتَمَانِمِائَةٍ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْفَتْحَ مَحَطَّ رِحَالِ الْقَرَائِمِ الْجَائِدَةِ، وَمُسْتَقَرَّ نَوَاهَا، وَمُحِيطَ
 دَائِرَةِ الْأَفْكَارِ الْوَارِدَةِ، وَمَرْكَزَ شُعَاعِ كَوَاہَا، وَمَادَّةَ عَنَاصِرِ الْأَفْهَامِ الْجَائِلَةِ، وَعِتَادَ
 شِكِيمَةِ قَوَاهَا .

تحمده على أن خص المملكة المصرية من إبداع سرها المصون بأوسع صدر رحيب، وأنهض بتدبير مصالحتها من إذا سررت كتاب كُتِبَ إلى عدو أنشد من شدة الفرق : فقا نبيك من ذكري حبيب، وأقام لنصرتها بأسل الأعلام ووصفاج المهاري من إذا طرقها على البعد طارق تلا لسان يراعيه : (نصر من الله وفتح قريب) . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تسييرها برؤ الهداية إلى آفاق الأخلاق فتشيد لفلاج الإيمان بأقطار القلوب أركانها، وترقم أسرار شعائرها بنفس القبول في صحف الإقبال فتبدل داعيها بإذاعة خبرها من الإسرار إعلانا، وتدين بطاعتها ملوك الممالك النائية خضوعا فتتخذ كتب رسائلها على المقاري بعد اللثم يجانا ؛ وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أفضل نبي سن المعروف وندب إليه ، وأكرم رسول جعل خير بطاتي الملك التي تأمره بالخير وتحثه عليه ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين سلكوا في السير سبيله وأتبعوا في السيرة سننه وأقتفوا فيه سننه ، وأتبعوا في المعروف آثاره فتلا عليهم تالي الإخلاص : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) . صلاة تتناقل على مر الزمان أخبارها، ويتصدى لروايتها من الأمة على تمادي الدهر أخبارها ؛ وسلم تسليما كبيرا .

وبعد، فان رياسة أهل الدول تتفاوت باعتبار قرب الرئيس من ملكه في مخاطبته ومناجاته، واعتياد تصرفه في أمور دولته وتنفيذ مهماته، والاستناد على رأيه في جليل خطوبه وعظيم ملماته :

فقال تماردت في العلو كأنما . تحاول نارا عند بعض الكواكب !

ولا خفاء أن صاحب ديوان الإنشاء من هذه الرتبة بالمحل الإرفع، والمتزلة التي لا تدافع ولا تدفع، والمقام الذي تفرد بصمدارته فكان كالمصدر لا يثنى ولا يجمع ؛

إذ هو كليم الملك ونجيسه ، ومقرب حضرته وحظيه ؛ بل عميد المملكة وعمادها ،
وركنها الأعظم وسنادها ، حامي حومتها وسدادها ؛ وعقدتها المنسق ونظامها ، ورأس
ذروتها العليا وسنامها ؛ وجهينة خبرها ، وحقبة وزدها وصدرها ؛ ومبلغ أنبائها
وسفيرها ، وزند رأيها المورى ومشيرها .

خَيْبَلًا بِالْمَكْرُمَاتِ وَبِالْعُلَى • وَحَيْبَلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِدِ الْمُحِضِّ !

هذا . وهو الوساطة بين الملك ورعيته ، والمتكفل لقصبيهم بدرك قصده وبلوغ
بغيته ، والمُسعد للظلم من عزائم توقيعاته بما يقضى بنصرته ؛ وحينئذ فلا يصلح
لها إلا من كان مع كرم الخيم بارز الخيام لأصطناع المعروف ، ومع سمو الرتبة سامي
الهمة لإغاثة الملهوف ؛ ومع عز الجنب لدى ملكه لين الجنب لدى المساله ، ومع
قربه بحضرة سلطانه قريبا من الرعية حتى من المسكين والأرمله .

وغير خاف أن كل وصف من هذه الأوصاف مع مقابله كالضدين اللذين
لا يجتمعان بحال ، والنقيضين اللذين قضى العقل بأن الجمع بينهما محال ؛ وأنى يجتمع
العالي والهابط ، والمُرتفع والساقط ؛ أم كيف تتصل الأرض بالسماء ، أو يقع
أمتراج عنصر النار بعنصر الماء ؛ ومن ثم عز هذا المطلب لهذه الوظيفة حتى إنه
لأعز من الجوهر الفرد ، وقيل وجوده حتى لم يوجد إلا في الواحد القدد فلا تراه
إن تراه إلا في حيز النادر ، ولا تظفر به إلا ظفرك بيض الأنوق إن كان يظفر به
ظافر ؛ إلا أنه ربما سمح الدهر فأتى بالقدد من هذا النوع في الزمن المتباعد ، أو أسعد
الدهر فأسعف بالواحد بعد ألف واحد .

ثم قد مضت برهة من الأيام وجيد ديوان الانشاء من نظر من هو متصف ببعض
هذه الأوصاف عاقل ، والدهر يعد بمن يقوم فيه بتفريح كربة الملهوفين ولكنه
يماطل :

يُرفّه ما يُرفّه في التّقاضى • وليس لَدَيْهِ غيرُ المَطْلِ نَقْدًا!

إلى أن طَلَعَ نَيْرُ الزَّمانِ وتَوَضَّحَ شُرُوقُهُ ، وظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ صَبَاحِهِ وأَقْلَ بَطْلُوعِ السَّعدِ عِيُوقُهُ ؛ فأقْبَلَتِ الدَّولَةُ الظَّاهِرِيَّةُ بِسَعَادَتِهَا ، وتَلَقَّتْهَا الأَيَّامُ النَّاصِرِيَّةُ جَارِيَةً مِنْهَا عَلَى وَفَى عَادَتِهَا ؛ وَوَفَّرَ لِلدَّولَتَيْنِ مِنْ أانتِخابِ الأَصْفِيَاءِ قِسْمَتُهَا ، وَمَحَضَتْ لَهَا الرُّأْيَى الصَّائِبَ حَتَّى ظَهَرَتْ فِي الوُجُودِ زُبْدَتُهَا ؛ فَكانَ خُلَاصَةَ أَصْطِفَائِهُمَا ، وَزُبْدَةَ أانتِقاؤِهُمَا ؛ المَقَرُّ الأَشْرَفُ ، العَالِي ، المَوَلِيُّ ، القَاضِي ، الكَبِيرِيُّ ، السِّفِيرِيُّ ، المُشِيرِيُّ ، الفَتْحِيُّ ، نِظامُ المَمالِكِ الإِسلامِيَّةِ وَزِمَامُ سِياسَتِهَا ، وَمُنَقِّدُ أُمُورِهَا ، وَجامِعُ رَأْسِهَا ؛ أَبُو المَعالي قَتُّحُ اللهُ صَاحِبُ دِواوِينِ الإِنشاءِ الشَّرِيفِ بِالمَمالِكِ الإِسلامِيَّةِ ، زادَ اللهُ تَعَالَى فِي أَرْتِقائِهِ عَلَى تَعاقِبِ الدَّولِ ، وَأَجْرَاهُ مِنْ خَفِيِّ اللُّطْفِ عَلَى أَجْمَلِ العِوانِدِ وَقَدِ فَعَلَ ؛ فَأُلْقِيَ إِلَيْهِ مِنْ أَسْرارِ المَمْلَكَةِ مَقالِيدُهَا ، وَأَتَمَّقَتْ بِحُسْنِ سِفارَتِهِ بِاتِّفاقِ الرُّواةِ أَسانِيدُهَا ؛ فَتَفَدَّتْ بِتَنْفِيذِهِ أُمُورُهَا ، وَكَلَّتْ بِصَحِيحِ رَأْيِهِ كُسُورُهَا ؛ بِغَرَبِ الأُمُورِ بِحُسْنِ تَدْيِيرِهِ عَلَى السَّدادِ ، وَمَشَتْ الأَحْوالُ بِلُطْفِ سِفارَتِهِ عَلَى أُمَّ المُرادِ ؛ وَأَعترَفَتْ لَهُ الكَافَّةُ بِالسِّيادةِ فَاطاعَتْ ، وَعَرَفَتْ لَهُ الرِّعيَةَ تُقَدِّمُهُ فِي الرِّاسَةِ فَراعَتْ حُرْمَتَهُ وَراعَتْ .

وَإِنَّ أُمُورَ المَلِكِ أَضحَى مَدارُها • عَلَيْهِ كِادَارَتْ عَلَى قُطْبِها الرِّحَى!

قَدِ اسْتَعْبَدَ الخَطُّ فَاصْبَحَ لَهُ كالأَحْدِيمِ ، وَأَتَى مِنَ المَعروفِ بِكُلِّ غَرِيبٍ فأنسى مِنْ أثيرِ عَنه ذلِكَ فِي الزَّمانِ القَدِيمِ ؛ فَلو رآه « خالِدُ بْنُ بَرْمَكٍ » لأخجَمَ عَن مَلاقائِهِ عَظَما ، أَوْ ناوَأَهُ « يَحْيَى بْنُ خالِدٍ » لَماتَ مِنْ مُناوَأَتِهِ عَدَمًا ، أَوْ سابَقَهُ « الفَضلُ وَجَعْفَرٌ » أبناهُ لَسَبَقَهُما كَرَمًا :

مَنابِقُ لو أُنِّي تَكَلَّفْتُ نَسَخَها ، • لأَقْلَسْتُ فِي أَقلامِها وَمِدادِها!

أو سمع به "الحسن بن سهل" لقطع إليه الحزن والسمل، أو بصر به "الفضل" أخوه، لما رأى أنه للفضل أهل، أو عينه "أبو علي بن مقله" لعلم أنه فاقه حظاً وخطاً، أو نظره "أبن هلال" إلى أهله نوناته لتتحقق أنه سبقه إلى تحرير هندسة الحروف وما أخطأ :

إِذَا أَحَدَ الْفِرطَاسِ حَلَّتْ يَمِينُهُ • تَفْتَحُ نُورًا أَوْ تُنْظِمُ جَوْهَرًا !

فإن تكلم أتى من بيانه بالسحر الحلال، أو حاور أتى من البلاغة بما يقصر عن رتبته "سبحان" في المقال، أو ترسل أعني "عبد الحميد" في رسائله، أو كتب رتعت من روض خطه في زهر نمانه :

يُؤَلِّفُ اللَّوْلُوَ الْمُنْتَوِرَ مَنْطِقُهُ • وَيَنْظِمُ الدَّرَّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ !

فرايه السيف لما صنع الهند، وعقله الصارم لما استودع الغمد :

فَفِي رَأْيِهِ نُجْحُ الْأُمُورِ وَلَمْ يَزَلْ • كَفَيْلًا بِإِرْشَادِ الْحَيَارِيِّ مُوَفَّقًا !

أفلامه تزيى بالصوارم وتهزأ بالأسل، وتجري بصلة الأرزاق فتريد على الأمانى وتربو على الأمل :

بِتْ جَارَهُ فَالْعَيْشُ نَحْتِ ظِلَالِهِ • وَأَسْتَسْقِهِ فَالْبَحْرُ مِنْ أَنْوَانِهِ !

فكارمه تفتي من الإملاق، وبواكره بالإسعاد تبادر الغدو والإشراق، وعطاياه تسير سير السحاب فتعطر الغيث على الآفاق :

كَرِيمٌ مَسَاعِي الْمَجْدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً • مِنْ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَدَلِ الْفَوَاضِلِ !

قد خدمته الحظوظ وأسعدته الجدود، وقسمت المنازل السنية فكان له منها سعد السعود :

لوعَدَدَ النَّاسِ مَا فِيهِ لِمَا بَرِحَتْ * تَثْنِي الْخَاصِرَ حَتَّى يَنْفَدَ الْعَدَدُ!

فلو غرس الشوك أثمر العنباء أنى أرادها ، أو حاول العنقاء في الجو لصادها ؛
أو زرع في السباح لكان ذلك العام العام والسنة الحصبه ، ولضوعفت مضاعفة
حسناته فأنبتت كل حبة سبع سنابل في كل سنبلة مائه حبه :

وإذا السعادة لاحظنك عيونها ، * تم فالمخاوف كلهن أمان ،

وأضطد بها العنقاء فهي حبايل * وأقصد بها الجوزاء فهي عنان!

قد ليس شرفاً لا تطمع الأيام في خالعه ، وتعمص من الفضل جالباً لا تتطلع
الأيام إلى ترعه ؛ وآتهى إليه المجد فوقف ، وعرف الكرم مكانه فانحاز إليه وعطف .

فقصرت عنه خطاً من يجاريه ، وضاق عنه باع من يباريه :

نالت يده أقاصي الكرم الذي * مد الحسود إليه باعاً ضيقاً!

فمناقبه تسبق أقلام الكتّاب ، وتستغرق طاقة الحاسب ؛ ليس لارتفاعها غايه ،
ولا لتداولها نهايه ؛ فلا توفى جامعه بشرطها ، ولا تقوم جريدة بسطها :

وقد وجدت مكان القول ذاسعة * فإن وجدت لساناً قائلاً فقل!

قد هتف بمدحه خطباء الأعلام على منابر الطروس ، ونطقت بفضله أفواه المخابر
فنگست لرفعة قدره شوايح الرئوس ؛ وطلعت في أفق المهارق سعود إبلته السعيدة
فأفلت لوجوده النحوس ؛ ورقت محاسنه بنفس الليل على صفحات النهار فأرسمت ،
وحملت أخبار معروفه فتراحت الآفاق على أتشاق أرج ريحه العبقه وأستممت :

لقد كرمت في المكرمات صفاته * فما دخلت لاء عليها ولا إلا!

انْفَقَتِ الْأَلْسِنَةُ عَلَى تَقْرِيبِهِ فَمُدِحَ بِكُلِّ لِسَانٍ، وَتَوَافَقَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّهِ فَكَانَ لَهُ بِكُلِّ قَلْبٍ مَكَانٌ، وَاسْتَفْرَقَتْ تَمَادِحُهُ الْأَزِمَنَةَ وَالْأَمَكِنَةَ فَاسْتَوَى شُكْرُهُ عَلَى الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ :

وَلَمْ يَخُلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَفْظٌ مُخْبِرٌ * وَلَمْ يَخُلْ مِنْ تَقْرِيبِهِ بَطْنٌ دَفْتَرٍ!

عَلَى أَنِّي أَسْتَقِيلُ عَثْرَتِي مِنَ التَّقْصِيرِ فِي إِطْرَائِهِ، وَالتَّعَرُّضِ مِنْ مَدْحِهِ لِمَا لَا أَنْهَضُ بِأَعْيَانِهِ؛ فَلَوْ أَنَّ «الْجَاهِظَ» نَصِيرِي، وَ«أَبْنَ الْمُتَقَفِّعَ» ظَهِيرِي، وَ«قُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ» يُسْعِدُنِي، وَ«تَحَبَّانَ وَائِلَ» يُخَجِدُنِي، وَ«عَمْرَو بْنَ الْأَهَمِّ» يُرَشِدُنِي؛ لَكَانَ أَعْرَافِي بِالْعَجْزِ فِي مَدْحِهِ أَبْلَغَ مِمَّا آتَيْهِ، وَإِقْرَارِي بِالتَّقْصِيرِ فِي شُكْرِهِ أَوْلَى مِمَّا أَصِفُهُ مِنْ تَوَالِي طَوْلِهِ وَأَيَادِيهِ :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنِيَّةٍ شَعْرَةٌ * لِسَانًا يُطِيلُ الشُّكْرَ فِيهِ لَقَصَّرَا!



وهذه نسخة رسالة للشيخ الإمام العالم معين الدين تاج العلماء، خطيب الخطباء، زين الأئمة، قُدوة الشريعة، الصدر أبي الفضل يحيى بن جعفر بن الحسين بن محمد الحمصكفي رحمه الله، سماها: «عَتَابَ الْكُتَّابِ، وَعِقَابَ الْأَلْقَابِ، الْمُشْتَمَلَةَ عَلَى أَصُولِ الْغَرِيبِ وَالْإِغْرَابِ» وهي:

عَذِيرِي مِنْ وَزَرَاءِ النَّصْبَةِ وَكُتَّابِهَا، وَكِبْرَاءِ الدُّسُوتِ وَأَرْبَابِهَا، وَأَوَائِحِي الدُّوَلِ وَأَطْنَابِهَا، وَنَوَابِ الدَّوَاوِينِ وَأَنْبِيَاءِهَا^(١)؛ وَجُبَابِ بِيُوتِ الْأَمْوَالِ، وَالسُّعَاةِ فِي زَمِّ نُسْرِ الْأَحْوَالِ؛ وَسَاسَةِ الْمَمَالِكِ، وَصُحُفِ أَسْرَارِ الْمَالِكِ؛ الشَّائِخِينَ بِأَنْوْفِ التِّيهِ وَالْكِبْرِيَاءِ، وَالسَّاحِيِينَ دُيُولِ الْعُجْبِ وَالْحَيَلَاءِ، الرَّافِلِينَ فِي حُلِيِّ الْبَهَاءِ، وَالغَافِلِينَ عَنِ فُرُوضِ الْعِلَاءِ؛ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا السُّؤْدَدَ مِنْ غَيْرِ سَدَادٍ، وَتَسَمَّوْا الرَّتَبَ بِلا إِعْدَادٍ؛

(١) الأنياب جمع ناب وهو سيد القوم وكبيرهم.

فكانهم الحاصب ، وعدوا لله المناصب ؛ شغلهم الأثر والفجور ، وكل على بسطته يجور ؛ همهم محج الأخرح ، وتنج الرياح بالماء القراح ؛ وأمنتطأ المرد ، والعناق الجرد ؛ أملهم تنجيد الأفيبه ، وتشييد الأبيبه ؛ والزيادة في الرقيق والكراع ، والحول والاتباع ؛ وليس بغال ، كثرة خيل وبغال ؛ بما باعوه من الورع والديانه ، وأضاعوه من العفة والصيانه :

قَدْ مَلَكُوا الدُّنْيَا عَلَى غَيْرَةٍ • وَنَافَسُوا فِيهَا السَّلَاطِينَا !
 تَوَزَّعُوا الدَّوْلَةَ وَالْمُلْكَ وَالْحَضْرَةَ وَالْإِسْلَامَ وَالدِّينَا ،
 شَادُوا بِأَعْمَالِهِمْ دُورَهُمْ • وَأَخْرَبُوا فِيهَا الدَّوَاوِينَا ،
 عَفُوا وَمَا عَفُوا بِأَقْلَامِهِمْ • مَسَاكِنًا تَحْوِي مَسَاكِينَا ،
 غَرَّتْهُمْ الدُّنْيَا بَانَ أَظْهَرَتْ • عَنْ غِلْظَةٍ تُضْمِرُهَا لِينَا ،
 وَالذَّهْرُ كَمْ جَرَّعَ فِي مَرَّةٍ • مُرًّا وَحِينًا سَاقَهُ حِينَا .
 يَا أَنْفُسَا دَلَّتْ بِإِتْيَانِهِمْ • وَبِكَ أَتَانِينَ الْأَتَانِينَا .
 لَا تَرْغَبِي فِي رِسَالِهِمْ إِنَّمَا • تَمْرِينَ فِي الْقَعْبِ الْأَمْرِينَا !
 وَكَانَ يُجِدِي الْقَصْدُ لَوْ أَنَّهُمْ • يَدْرُونَ شَيْئًا أَوْ يَدْرُونََا .
 مَوْتِي هُوَ فَلَيْكَ تَقْرِيطُهُمْ • إِنْ كُنْتَ لَا تَأْيِينَ ، تَأْيِينَا ،
 لَا يَبْتَغِي الْفَضْلُ بِإِطْرَاءٍ مِنْ • يَكُونُ فِيهِ الْهَجْوُ مَغْبُونَا ،
 لَوْ رَمَتْ شَيْئًا دُونَ أَقْدَارِهِمْ • لَهَجْوِهِمْ لَمْ تَجِدِ الدُّونَا !!!

قد أخذوا إلى الوضاعة ، عن تحصيل البضاعة ، وكفاهم من البراعة ، برى البراعة ،
 وعنوا بأسوداد اللبقة ، عن سُودِدِ الخليقة ؛ وأحالوا على الرمم ، عند قُصُورِ الهمم ؛
 ومن أعظم الآفات ، نخرهم بالعظيم الرفات .

وَكَاثِمٍ لِّصَمِيمِ هَاشِمٍ • أَوْ مِنْ لَهَامِ الْعَبَّاسِمْ ،
عَشِمُوا فَمَا يَغْشَاهُمْ • بِالطُّوْعِ إِلَّا كُلُّ غَاشِمٍ :

لا يُعِينُ أَحَدُهُمْ عَلَى مُرُوقِهِ ، وَلَا يُنْعِشُ ذَا أَخُوهِ ، وَلَا يَرَعِيْ أُبُوهُ ، وَلَوْ
أَعْتَرَى إِلَى بُنُوهِ ؛ فَهُوَ غَيْرَ آسٍ بِجُودِهِ ، وَلَا مُوَاسٍ بِمُجُودِهِ ؛ يَرُوقُكَ كَيْسُهُ وَالغُلَامُ ،
وَتَرُوعُكَ دُويُّهُ وَالْأَقْلَامُ ؛ فَإِذَا اسْتَنْطَقَ قَلَمَهُ الصَّامِتُ ، أَجْدَلَ عَدُوَّهُ الشَّامِتُ ؛
فَزَادَ أُدْرَاجَهُ نَاقِصًا ، وَعَادَ عَلَى أُدْرَاجِهِ نَاكِصًا .

فَهُوَ الَّذِي أَمَلَى لَهُمْ حِلْمُهُ • مَعَ الْخَنَا وَالنَّكِدِ الْبَاهِضِ :
لَوْ أَنِّي وُلِّيتُ تَأْدِيبَهُمْ • شَفَيْتُ صَدْرَ النَّقْهِ النَّاهِضِ !
مَنْ نَاطِرٍ يُضْحِي بِلا نَاطِرٍ ، • وَعَارِضٍ يُمَسِي بِلا عَارِضٍ ،
وَمُشْرِيفٍ لِلدِّينِ مَا قَصَّدَهُ • فِي الْوَطْبِ إِلَّا زُبْدًا مَآخِضِ ،
وَخَازِنِ إِنْ لَفَّ مَرَضَاتَهُ • مِنْ حُلُومِهِ عَفَّ عَنِ الْحَامِضِ ،
وَمَنْ خَبِيثٌ جَاءَنَا ذِكْرُهُ • فِي الذِّكْرِ بَيْنَ الْبِكْرِ وَالْفَارِضِ ،
وَكَاثِمٍ لَوْ أَنْصَفُوا مُهْرَهُ • لَكَانَ أَوْلَى مِنْهُ بِالرَّائِضِ !! !

إِنْ وَقَعَ ، رَأَيْتَ اللَّفْظَ الْمُرْقِعَ ؛ وَإِنْ أَطَالَ وَأَسْهَبَ ، أَذَالَ عِرْضَهُ وَأَنْهَبَ ؛
وَكَانَ أَحَقَّ بِتَقْلِيدِ الْفُهُودِ ، عِنْدَ تَقْلِيدِ الْعُهُودِ ؛ وَأَوْلَى بِسَطْرِ الْمَنَاشِيرِ ، عَنِ سَطْرِ
الْمَنَاشِيرِ ؛ وَأَجْدَرَ بِقَبْضِ الرُّوحِ ، إِذَا أَنْبَسَطَ لِلشُّرُوحِ ، وَأَخَذَ فِي ذِكْرِ الْوَقَائِعِ وَالْفُتُوحِ ؛
كَفَّهُ بِالْحَلْمِ ، أَوْلَى مِنْهَا بِالْقَلَمِ ؛ وَأَخْلَقُ بِالْمَسْحَاهِ ، مِنَ السَّحَاهِ ؛ وَالْيَقُّ بِالْفُؤُوسِ ،
مِنَ الطُّرُوسِ ؛ يَبْرِي وَيَقْطُ ، وَلَا يَدْرِي مَا يَحْطُ ؛ إِذْ لَيْسَ فِي السَّفْطِ ، غَيْرَ السَّقْطِ ؛
إِنْ فَاتَحْتَهُ ، أَوْ طَارَحْتَهُ ؛ ظَفِرَتْ بِقِصَّةِ الْمَاسِحِ ؛ وَخَشِرَ الْمَفَاتِحِ ، إِنْ خَطَّ : فَنُونُهُ
كَلَامِهِ ، وَخَلَطَ فُنُونَهُ فِي كَلَامِهِ .

إِنْ وَقَعُوا وَقَعُوا فِي ذَمِّ كُلِّ قَوْمٍ ، * أَوْ أَنْفَعُوا أَنْفَعَتْهُمْ أَنْسَهُمُ الْكَلِمَ ،
 أَوْ قَلَدُوا قُلَدُوا خِزْيًا يُجَلِّلُهُمْ ، * أَوْ أَقْطَعُوا قَطَّعُوا شَتْمًا يَجْهَلُهُمْ .
 أَرَأَيْتُمُ الْمَالَ وَالْأَعْمَالَ إِنْ رَقُوا ؟ * جَاؤَا مِنَ الرَّقْمِ وَالْأَلْفَاظِ بِالرَّقْمِ ،
 فَاللَّهُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ لِلدَّوَاةِ وَاللَّاتِقَاسِ بِالْحَقِّ وَالْقِرطَاسِ وَالْقَلَمِ ! !

فَالجَدِيدُ بِهِمْ سَمَلٌ ، وَالسَّوَامُ بَيْنَهُمْ هَمَلٌ ، وَلَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ وَلَا عَمَلٌ ؛ لَهْنِي عَلَى
 الْفَضْلِ الْمُدَّالِ ، بِرَفْعَةِ الْأَنْدَالِ ؛ وَضِياعِ الْحُقُوقِ ، وَأَنْصِياعِ الْبَيْضَةِ عَنِ الْعُقُوقِ .

ثُمَّ مَا عَلَى سَيِّدِنَا الْوَزِيرِ ، مَعَ أَصْطَحَابِ الْبَيْمِ وَالزَّرِيرِ ؛ وَتَفَاقِ سُوقِهِ ، وَأَنْفَاسِهِ
 فِي فُسُوقِهِ ، وَأَتِّصَالَ صُبُوحِهِ بِغُبُوقِهِ ؛ وَتَحَلِّيهِ فِي الْبَهْوِ ، لِلْعَيْبِ وَاللَّهُوِ ؛ مِنْ ظَهْرِ غَيِّ
 يُرْتَكَبُ ، وَذِي يَسَارِيْنِكَبُ ؛ وَسَاعِ يَسْنِي ، وَرَاجِ يَرْتَسِي ؛ وَرُسُومِ حَيْفِ تُجَدَّدُ ،
 وَسَوَاتِ تَعْتَدُ ؛ مَا يَضُرُّهُ مِنْ شَكْوَى الْجَارِحِ الْبَغَاثِ ، وَصَرِيخِ لَا يُغَاثُ ؛ وَوَالِ
 يَعْسِفُ بِأَهْلِ مِصْرِهِ ، وَإِنْ شَرِكُهُ فِي إِصْرِهِ ؛ وَقَاضٍ لَا يُنْصِفُ الرَّعِيْدَةَ ، وَلَا يَنْتَبِعُ
 الْفَضَايَا الشَّرْعِيَّةَ ؛ وَقَفِيهِ يَسِفُ إِلَى تَحْصِيلِ عَرَضِ زَائِلٍ ، وَتَعْجِيلِ عَرَضِ مَنْ
 سَائِلٍ ؛ مَا لَهُ وَلِحْفِظِ الْمَالِ ، وَمُحَاسَبَةِ الْعَمَالِ ؟ :

أَمْ مَا عَلَى الْعَامِلِ نَمِيسِ الدَّجَاجِ * إِنْ نَقَصَ الْكَرْمُ وَزَادَ الْخِرَاجُ ؟
 عَلَيْهِ أَنْ يَحْصُلَ فِي كَمِّهِ * شَيْءٌ وَإِنْ أَخْلَى جَمِيعُ الْخِرَاجِ .
 وَهُوَ خِرَاجٌ عِنْدَ مَا يَنْتَهِي * يُبْطِطُ بِالْمَبْضِعِ مَا فِي الْخِرَاجِ !!!

سُغْلَهُمْ بِالشَّهْدِ الْمَشُورِ ، لَا بِمَشْهَدِ يَوْمِ النُّشُورِ ، وَقَصْدَهُمُ الْجَمْعُ وَالْاِكْتِسَابُ ،
 وَمَتَى الْجَمْعُ وَالْحِسَابُ ؛ إِنَّمَا هُوَ مَالٌ يُحْتَقَبُ ، لَا مَالٌ يُرْتَقَبُ ؛ وَفَسَادٌ فِي الْأَرْضِ ،
 لَا إِعْدَادَ لِيَوْمِ الْعَرَضِ :

وَإِنِّي لَأَرْتِي لِلرَّائِبِ تَحْوِي * عَلَيْهَا قُرُودٌ فَوْقَهُنَّ رُودُ،
 سِرَاعٌ إِلَى السَّوَاتِ فِيمَا يَسِينُهُمْ * وَلِكِنَّهُمْ عَمَّا يَزِينُ رُكُودُ،
 يَقَاطُ إِذَا مَا تَوَبَّ الْأَوْثُمُ دَاعِيَا * وَعِنْدَ نِدَاءِ الْمَكْرَمَاتِ رُقُودُ،
 وَمَا غَرَّنِي إِلَّا جَلَّالِيزَ حَوْلَهُمْ * وَإِلَّا قِيَامٌ بَيْنَهُمْ وَقُعُودُ.
 لَقَدْ حَسِدُوا ظُلْمًا عَلَى مَا أَنَاهُمْ * وَهَلْ لِأَخِي نَقِصٌ يَسُودُ حَسُودُ؟
 وَلِلسَّيِّدِ الْمُحْسُودِ كَفٌّ عَنِ الْعُلَى * تَدُودٌ وَأُخْرَى بِالنَّوَالِ تَجُودُ.
 لِحَا اللَّهُ دُنْيَانَا الَّتِي ضَلَّ سَعْيُهَا * وَفِيهَا عَلَيْنَا بِالضَّلَالِ شُهُودُ.
 إِذَا صَغُرَتْ كَأَسْمِ الْحُسَيْنِ مَحَلَّةٌ * عَلَتْ وَعَلَا فِيهَا يَزِيدُ يَزِيدُ.

إنما الصدر من صدره كماله ، وحسنت أعماله ، وجرّد العزمات ، فشرّد
 الأزمت ؛ وتقى بذبه الكربات ، وأصطفى لربه القربات ؛ فسهل الغنى ، وأفعم الإنا ،
 ووضع مواضع الثقب الهنا ؛ فهو يهش للنوال ، وينش عند السؤال ؛ لا يشوب
 ورده القذا ، ولا يبطل منه بالمن والأذى ؛ يبشر بشره بمجاسين الأخلاق ، وينشر نشره
 الطيب في الآفاق ؛ ويحسم بدواته داء الإملاق ، ويحز بقصبتها قصب السباق :

يُجَرِّدُهَا مِنْ مِثْلِ وَفُضَّةِ نَائِلٍ * أَجْنَتْهَا مِنْ نَائِدَاتِ الْمَعَايِلِ ،
 وَفِي خَطِّهِ الْمُنْسُوبِ تُرْرِي شَبَابُهَا * بِلَهْدَمٍ مَنَسُوبٍ إِلَى الْخَطِّ ذَائِلِ ،
 وَإِنْ بَذَرْتَ عَنْ حَبَّةِ الْقَلْبِ أَنْبَتَ * مِنْ الْبِرِّ قَبْلَ الْبُرِّ سَبْعَ سَنَائِلِ !!

دؤوبه لإقالة العائر ، وعمارة الدائر ، وإشاعة المآثر ؛ همه في مفضلة تراض ،
 ومعدلة تفاض ؛ وخلل يسد ، وجلل يصد ؛ وعان بظهره يعان ، وعات بقهره يهان ؛
 بابه مفتوح ، وخيره ممنوح ؛ وما أقل اللائم ، لمن أكثر الولائم ؛ وأغفل الجادب ،

لمن صَنَعَ المَادِبَ ؛ وَأَخْلَصَ الإِخَاءَ ، لمن أَسْتَخْلَصَ السَّخَاءَ ؛ فَبَدَّلَ الرِّغْوَةَ وَالصَّرِيحَ ،
وَالسَّنَامَ الإِطْرِيحَ ؛ لَا كَمَنْ يَسُحُّ بِالْقَتَارِ ، لَقَرَطِ الإِقْتَارِ ؛ وَيَضُنُّ بِالْوَضْرِ ، عَلَى
المُحَضَّرِ ؛ وَيَخَلُّ بِالْعِرَاقِ ، عَمَّنْ رُوْحُهُ فِي التَّرَاقِ ، وَيُسِرُّ الغَمِيرَةَ ، لمن يَبْتَنِي المِيرَةَ ؛
وَيُطِنُّ الدَّاءَ ؛ لمن يَنْتَظِرُ الغَدَاءَ ؛ وَيُسْعِرُ الأَحْشَاءَ ، لمن تَرَقَّبَ العَشَاءَ :

مسلط سيرته نعمة * وجائر قسمته ضيرى ،

ليس بذى لب يملئ التأي * ولا لباب يملأ الشيزى !

يَحْقُدُ عَلَى الإِخْوَانِ ، عِنْدَ ظَهْوَرِ الخَوَانِ ؛ فَتَرَاهُ يُحَدِّقُ ، إِلَى مَنْ يُشَدِّقُ ؛ وَيَتَّقِمُ ،
مَنْ يَلْتَقِمُ ؛ وَيُنْدُلُ الأَيْكِلَ ، وَيُجِلُّ بِهِ التَّنِيكِلَ ؛ وَيُبَغِضُ الشَّرِيْبَ ، وَإِنْ كَانَ الإِخْدَانَ
القَرِيْبَ ؛ فَالْحَائِنِ مِنْ يَرِدُ ، فَيَزْدِرِدُ ؛ وَالْحَائِنِ مِنْ يَنْبَسِطُ ، فَيَسْتَرِطُ ؛ يَسْتَأْ مِنْ
الأَبْرَاسِ ، صَوْتِ الأَضْرَاسِ ؛ وَحَشْرَجَةِ البَلَاغِمِ ، بِدَحْرَجَةِ المَطَاعِمِ ؛ وَهَرَهْرَةَ
الشُّدُوقِ ، وَجَرَجَرَةَ الخُلُوقِ ؛ وَقَدْ صَدَّتْ حَوَاجِزُ بِلَوَاهِ ، أَفْوَاهَا تَصَدَّتْ لِحَلَوَاهِ ؛
وَحَكَّتْ بِلْجَامِهِ ، بِحِكْمَةِ بِلْجَامِهِ ؛ وَعَدَّتْ بِكِيَوَانِهِ ، لَهَى وَعَدَّتْ بِأَلْوَانِهِ ؛ رَغِيْفُهُ أَعْرَزُ^(١)
مِنَ الغَرِيْفِ ، وَأَعْرَبُ مِنَ الشَّيْءِ الطَّرِيْفِ ؛ صَرِيْفُ بَابِهِ ، دُونَ صَرِيْفِ نَابِهِ ؛
وَيُحِكِّمُ صَكَّ بَابِهِ ، عَنِ كَبَابِهِ ؛ وَيُعِدُّ سَدِيْفَ جِفَانِهِ ، مِنْ سَدِيْفِ أَجْفَانِهِ ؛ يُمَانِعُ
بِلْدِيْدِهِ ، عَنِ سَفُودِ قَدِيْدِهِ ؛ وَيُصَافِحُ بِصَفْحَةِ وَرِيْدِهِ ، عَنِ صَخْفَةِ تَرِيْدِهِ ؛ حَمَلُهُ مِنْ
مُجُومِ الحَمَلِ ، وَسَمَكُهُ فَوْقَ السَّمَكِ الأَعْرَازِلِ ؛ وَخُوْتُهُ بَيْنَ الحُوْتِ والأَسَدِ ، وَجَدِيْهُ
عِنْدَ جَدِيِ الفَرَقْدِ ؛ دُونَ مُجَبِّهِ آرْتِفَاعِ العِبَاجِهِ ، وَتَحْتِ دَجَاجَتِهِ ذَنْبُ الدَّجَاجَةِ :

يدرج في القدر دراجه * ليلقط الحب وطيهوجه

ففي السموات سمائاته * وعندك العرش فروجه

(١) من عرزه يعرزه انترعه انتراما عنيفا والغريف الدلو .

يَحْرُسُ مَا نَدَتْهُ الدَّلُو وَالْعَقْرِبُ ، وَهُمَا مَنَا أَدْنَى وَأَقْرَبُ ؛ يُعْجِبُهُ التَّشْمِيرُ وَالْأَحْبِجَانُ ،
وَيَلْذُلُهُ التَّوْفِيرُ وَالْأَخْتِرَانُ ؛ وَقَصْرُ مَفَاجَاةِ أَحْوَالِ ، تُصْرِحُ عَنْ أَهْوَالِ ؛ وَكَأَنَّكَ
بِالْأَيَامِ بَعْدَ الْإَيْتِسَامِ ، شَاهِرَةٌ لِلْحُسَامِ ؛ قَدْ كَثُرَتْ عَنْ أَنْبِيَائِهَا الْعُصَلُ ، فِي بُكْرَاهَا
وَالْأُصْلُ ؛ وَأَجَلَتْ عَنْ سَلِيْبٍ مَسْحُوبٍ ، لَتَنْتَكِرُ مَصْحُوبٌ ؛ وَأَخْرَجَتْ رَدْدُ فِي الْبُوسِ ،
وَيُخَلِّدُ فِي الْجُبُوسِ ؛ قَدْ حَصَلَ عَلَى سَلَةِ الْحَاوِي ، مِنْ سَلَةِ الْحَلَاوِي ؛ وَمَنْ طَعِمَ
الْعَسَلَ ، عَلَى طَعْنِ الْأَسَلِ ؛ وَمَنْ الْعَذْبِ الْبَارِدِ ، عَلَى حَرِّ الْمَبَارِدِ :

تَقْبِضُ مِنْ خَطْوِهِ الْكُجُولُ * فَهُوَ عَلَى قَبْدِهِ يَبُولُ ،
خَلَا مِنَ الْخَيْرِ فَهُوَ طَبْلُ * وَهَكَذَا تَضْرِبُ الطُّبُولُ ،
يَسْكُو إِلَى اللَّهِ مُسْتَفِينًا * وَمَا لَهُ عِنْدَهُ قَبُولُ ،
ذَلِكَ بِمَا كَانَ مُسْتَطِيلًا * تُرْدِي دَوَاهِيهِ وَالْمِيُولُ !

فَهْمُ بَيْنَ حَصَى تَعَصْرٍ ، وَفَقَا يَقْصُرُ ؛ وَكَعَابٍ مَثْقُوبَةٍ ، وَأَنْوَاعِ عُقُوبَةٍ ؛ أَوْ يُقَالُ
فَلَانُ أَنْارَتِهِ شَعُوبٌ ، وَوَارَتُهُ الْجُبُوبُ ، وَأَكْتَفَى بِسُلْفَةِ الْمَمَاتِ ، مِنْ الْمُقَدَّمَاتِ ؛
وَمَا ظَنَنْتُكَ بِالشَّلْوِ الطَّرِيحِ ، فِي صَنْكِ الضَّرِيحِ ؛ نَحْتَهُ الْبَرْزُخُ الْمَوْصُودُ ، وَفَوْقَهُ الْجَبَلُ
الْمَنْصُودُ ، أَنْظَرَ كَيْفَ هُجْرَ بَابِهِ الْمَقْصُودُ ، وَجَانِبَتْ جَنَابَهُ الْوُفُودُ ؛ وَأَخْلَقْتَ رَبَاعَهُ ،
وَتَفَرَّقْتَ أَتْبَاعَهُ ؛ ثُمَّ تَسْوِيهِ الْحُوبُ ، أَبْشَعُ مِنْ تَسْوِيهِ الشُّحُوبِ (؟) ؛ وَوَيْلٌ لِلْقَوْمِ
الْبُورِ ، مِنْ بَعْرَةِ الْقُبُورِ :

وَيَا خَسَارَ الْأَنْفُسِ الْغَاوِيَةِ * مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْحَقْرِ الْهَاوِيَةِ ،
وَكُلُّ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأَمُّهُ فِي بَيْتِهِ هَاوِيَةٌ ،
وَلَيْسَ يَدْرِي وَيَجْهٌ مَا هِيَ * نَارٌ عَلَى سُكَّانِهَا حَامِيَةٌ !

أعازنا الله من خلال يقضى جهلها بالشنار، وأفعال تُغضى بأهلها إلى النار، بكرمه وإحسانه، وطوله وأمتنانه .

الصنف الثالث

(من الرسائل المفاخرات ، وهي على أنواع)

منها : المفاخرة بين العلوم .

وهذه نسخة رسالة في المفاخرة بين العلوم ، أنشأتها في شهر سنة ثمان وتسعين وسبعائة ، لقاضي القضاة شيخ الإسلام ، علامة الزمان ، جلال الدين ، عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام ، بقية المجتهدين ، أبي حفص عمر البلقيني الكافي ، الشافعي ، أمتع الله تعالى المسلمين ببقائه ، ذكرت فيها نيفا وسبعين علما ، ابتدأتها بعلم اللغة ، وختمتها بقرن التاريخ ، ذا كرا نخر كل علم على الذي قبله ، محتجا عليه بفوائده موجودة فيه دون الآخر ، وجعلت مصب القول فيها إلى اشتماله على جميعها ، وإحاطته بكلها ، مع الإشارة إلى فضل والده ، شيخ الإسلام ، ومساهمته له في الفضل ، على ما ستقف عليه إن شاء الله تعالى ، وهي :

الحمد لله الذي جعل للعلم جلالا تودُّ جلائل الفضائل أن تكون له أتباعا ، وأطلق ألسنة الأقلام من جميل شأنه بما أنطق به ألسنة العالم ليكون الحكم بما ثبت من مآثور فضله إجماعا ، وأجرى من قاموس فكره جداول أنهار العلوم الزكية فتعش قلوبا ونزه أبصارا وسنف أسماعا .

أحمدُه على أن أفاض نتایج الأفكار على الأذهان السليمة لذي النظر الصحيح ، وبث جياذ الألسنة في ميدان الجدال فحاز قصب السبق منها كل لسان ذليق فصيح .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي قهرت بينات دلائله المُنحَدَ المعانِد، وبهرت قواطع براهينه الألدَّ الخِصيمَ والجِدَلِ المُكَيِّدِ؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أظهر من واضح الحجج الجلية ما سقط بحجته دعوى المعارض، وأتى من فصل الخطاب بما ألغم به الخصوم فلم يستطع أشدهم في البلاغة شكيمة أن يأتي له بمناقض؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فازوا من جليل المناقب بكل وصيف جميل، وأشهرت في الوجود مفاخرهم فلم يُحتج في إثباتها إلى إقامة دليل؛ صلاة يُتمسك في دعوى الشرف بمتين حبلها، وتتفق أدلة العقل والنقل على القطع بعلو شأنها وتوفر فضلها .

وبعد ، فلما كانت العلوم مشتركة في أصل التفضيل ، متفقة الفضل في الجملة وإن تفاوتت في التفصيل ؛ مسلماً أصل الشرف فيها من غير منازع ، مجبهاً على أنه لا شيء من العلم من حيث هو علم بضر ولا شيء من الجهل من حيث هو جهل بنافع ؛ مع اختلافها في التفاضل باختلاف موضوعاتها ، وتفاوتها في الشرف بحسب الحاجة إليها أو وثاقه مُحججها أو نفاسة غاياتها ؛ عطس كلُّ منها بأنف شايخ غير مُسلمٍ للآخر ولا مُسلم ، ومدد إلى العلياء يد المطاولة فتناول الثريا قاعداً غير قائم ؛ وأدعى كلُّ منها أن بحره الطامى ، وفضله النامي ؛ وجواده الطامح ، وسمكه الرَّامح ؛ زاعماً أن حسامه القاطع وعضبه القاضب ، وقده المعلى وسهمه الصائب ، ونجمه الساري وشهابه الشاقب ؛ وأن نشر الشاء على مجاميره موقوف ، وخطيب المحامد بمناره معروف ؛ وفلك الفضل على قطبه دائر ، وكل شرف عليه مُحبس وكل نحر عليه قاصر ؛ فأس بعطفه ومال ، وبسط في الكلام لسانه فقال وطال .

هذا : وإنما اجتمعت يوماً اجتماع معنى لا صورته ، وقامت لها سوق بالبحث معروفة وعلى الحدال مقصوره ؛ وتفاوضت بلسان الحال وتخطبت ، ومحاورت

في دَعْوَى الشَّرَفِ وتَجَاوَبَتْ ؛ وَأَلَدَتْ بِالْمُنَافَرَةِ فتنافرت ، وتسابقت في ميدان
الانتِخَارِ فتفانرت ؛ وأخذ كلُّ منها في نُصْرَةِ مَذْهَبِهِ ، وتَحْقِيقِ مَطْلَبِهِ ؛ بأنواعِ المُجَجِّجِ
والاستدلالات ، وإقامة البراهين والأمارات ، وما يتَّوَجَّه على ذلك من الأسئلة
والاعتراضات . فكان أولُّ باديِّ بدأ منها بالكلام ، وفتح بابَ الجدالِ والخصام : -

علمُ اللُّغَةِ فقال :

قد عَلِمْتُمْ مَعَشَرَ الْعُلُومِ أَنِّي أَعْمَمُكُمْ نَفْعًا ، وَأَوْسَعُكُمْ مَجَالًا وَأَكْثَرُكُمْ جَمْعًا ؛ عَلَى قُطْبِ
فَلَكَي تَدْوِيرِ الدَّوَائِرِ ، وَبِوَاسِطَتِي تُدْرِكُ الْمَقَاصِدَ وَيَسْتَعْلَمُ مَا فِي الضَّمَائِرِ ؛ وَبِدَلَالَتِي تُعَلِّمُ
الْمَعَانِي الْمَفْرَدَاتِ ، وَيَتَمَيَّزُ مَا يَدُلُّ عَلَى الذَّوَاتِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْأَدْوَاتِ ؛ وَتَبَيَّنُ دِلَالَاتُ
الْعَامِّ وَالْخَاصِّ ، وَيَتَعَرَّفُ مَا يُرْشِدُ إِلَى الْأَنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ وَمَا يَخْتَصُّ بِالِاتِّخَاصِ ؛
عَلَى أَنْ كَلِّمُكُمْ كُلَّ عَلِيٍّ ، وَتُحْتَاجُ فِي تَرْجُمَةٍ مَقْصُودِهِ إِلَيَّ ؛ فَلَفِظِي " الْمُحْكَمُ " وَأَقْوَالِي
" الصَّحَاحُ " ، وَكَلَامِي " الْجَامِعُ " وَمِثْفِيسَانِي " الْمُجَرَّدُ " نَاهِيكَ مِنْ سِلَاحٍ ؛ وَفَضْلِي
" الْمُجَمَّلُ " لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ . اسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِتَعْلِيمِي لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَآثَرَهُ بِ
مَعْرِفَةِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَكَانَ خِصِيصَةً لَهُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ .^(١)

فَلَمَّا أَنْقَضَى قِيلَهُ ، وَبَانَتْ لِلسَّيْبِرِ سَبِيلُهُ ؛ تَابَ إِلَيْهِ عِلْمُ التَّصْرِيفِ مُبْتَدِرًا ،
وَلتَنْفِيسِهِ وَلسائرِ الْعُلُومِ مُتَّصِرًا ؛ فَقَالَ : رُوِيَكَ أَيُّهَا الْمُسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْمِكَ يَا ذَا
الْمُنَاضِلِ ؛ فَقَدْ ذَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ ، وَحُطِّ قَدْرٌ مِنْ تَرَفُّعِ عَلَى أَبْنَاءِ جِنْسِهِ وَلَوْ عُقِدَتْ
عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ ؛ وَمَا يُجِدِّي الْبَازِي بغيرِ جَنَاحٍ ، أَوْ يُغْنِي السَّاعِي إِلَى الْحَرْبِ بغيرِ
سِلَاحٍ ؛ وَأَنْتَ يَطْمُنُ رُوحٌ بغيرِ سِنَانٍ ، أَوْ يَقْطَعُ سَيْفٌ لَمْ يُؤَيِّدْ بِقَائِمٍ وَلَمْ تَقْبِضْ عَلَيْهِ
بِنَانٌ ؛ إِنَّكَ وَإِنْ حَوَيْتَ فَضْلًا ، وَأَعْرَقْتَ أَصْلًا ؛ وَكُنْتَ لِلْكَلامِ نِظَامًا ، وَإِلَى

(١) الذي في كتب اللغة «خصيصة» ويمد .

بيان المقاصد إماماً ؛ فانت غير مُستقلّ بنفسك ، ولا قائم برأسك ؛ بل أنا المتكفل بتأسيس مبانيك ، والملتزم بتحرير ألفاظك وتقرير معانيك ؛ بي تُعرف أصول أبنية الكلمة في جميع أحوالها ، وكيفية التصرف في أسمائها وأفعالها ؛ وما يتصل بذلك من أحوال الحروف البسيطة وترتيبها ، واختلاف مخارجها وبيان تركيبها ؛ والأصليّ منها والمزيد ، والمهموس والرخو والشديد ؛ و ^(١) تقديره ، والصحيح والمعتلّ وتحريره ؛ وكيفية التننية والجمع ، والفصل والوصل والابتداء والقطع ؛ وأنواع الأبنية وتغييرها عند اللواحق ، وكيفية تصرف الفعل عند تجرّده عن العوائق ؛ وأمثلة الألفاظ المفردة في الزنة والهيئة وما يختصّ من ذلك بالأسماء والأفعال ، وتمييز الجامد منها والمشتقّ وأصناف الاشتقاق ؛ وكيف هو على التفصيل والإجمال .

على أنك لو خليت ومجرد التعريف ، وبيان المقاصد بالأصطلاح أو التوقيف ؛ لكان علم الخطّ يقوم مقامك في الدلالة الحالية لدى المتقّي ، ويترجّح عليك ببعد المسافة مع طول البقاء ؛ مع ما فيه من زيادة ترتيب الأحوال ، وضبط الأموال ؛ وحفظ العلوم في الأدوار ، واستمرارها على الأكوار ؛ وانتقال الأخبار من زمان إلى زمان ، وحملها سرا من مكان إلى مكان ؛ بل ربما آكتفي عنك بالإشارة والتلويح ، وقامت الكفاية منها مقام التصريح .

فَعِنْدَهَا غَضَبٌ عِلْمُ النَّحْوِ وَآكْفَهَرُ ، وَزَجْرٌ وَأَشْمَخَرُ ؛ وَقَالَ : يَا لَلَّهِ ! "أَسْتَنْتِ الْفِصَالُ حَتَّى الْفَرَعَا" ، وَ"أَسْتَنْسَرَتِ الْبُعَاثُ" فَكَانَ أَشَدَّ نُؤْمَةً وَأَعْظَمَ صَدْعًا ؛ لَقَدْ أَدْعَيْتَ مَا لَيْسَ لَكَ فَفَاتَكَ الْحُبُورُ ، وَ"مَنْ تَسَّعَ بِمَا لَمْ يَنْلُ فَهُوَ كَلَابِيسُ تَوْبَى زُور" ؛ وَهَلْ أَنْتِ إِلَّا بَضْعَةٌ مِثِّي ؟ ، تُسْنَدُ إِلَيَّ وَتَنْقُلُ عَنِّي ؛ لَمْ يَزَلْ عَامِلُكَ أَبَاً مِنْ أَبَوَائِي ،

(١) يابض بالأصول .

وَجُمِّلَتْ دَاخِلَةً فِي حِسَابِي ؛ حَتَّى مَيَّزَكَ " الْمَازِنِي " فَافْرَدَكَ بِالتَّصْنِيفِ ، وَتَلَاهُ
 "أَبْنُ جَنِّي" فَتَبِعَهُ فِي التَّالِيفِ ؛ وَأَقْتَصَرَ "أَبْنُ مَالِكٍ" مِنْكَ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَى الضَّرُورِيِّ
 الْوَاجِبِ ، وَأَحْسَنَ بِكَ "أَبْنُ الْحَاجِبِ" فِي شَافِيَتِهِ فَرَفَعَ عَنْكَ الْحَاجِبَ ؛ وَأَنْتَ
 مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَطْوِيُّ ضَمْنِ كُتُبِي ، نِسْبَتُكَ مُتَّصِلَةٌ بِنِسْبَتِي وَحَسَبُكَ لِاحِقٌ بِحَسَبِي ؛
 أَنَا مَلِحُ الْكَلَامِ ، وَمِسْكُ الْخِتَامِ ؛ لَا يَسْتَعْفِنِي عَنِّي مَتَكَلَّمٌ ، وَلَا يَلِيقُ جَهْلِي بِعَالِمٍ
 وَلَا مُتَعَلِّمٍ ، بِي نَتَبِينَ أَحْوَالُ الْأَلْفَاظِ الْمُرَكَّبَةِ فِي دِلَالَتِهَا عَلَى الْمَقَاصِدِ ، وَيَرْتَفِعُ الْأَلْبَسُ
 عَنِ سَامِعِهَا فَيَرْجِعُ مِنْ فَهْمِهَا بِالصَّلَاةِ وَالْعَائِدِ ؛ فَلَوْ أَنَّي الْمَتَكَلِّمُ فِي لَفْظِهِ بِأَجَلٍ مَعْنَى
 وَلَحْنٍ لَدَهَبَتْ حَالَاؤُهُ ، وَزَالَتْ طَلَاؤُهُ ، وَعِيبَ عَلَى قَائِلِهِ وَتَغَيَّرَتْ دِلَالَتُهُ . وَقَدْ كَانَتْ
 الْخُلَفَاءُ تَحْتُّ عَلَى النَّحْوِ وَتَرْشُدُ إِلَيْهِ ، وَتَحْتَدِرُ الْخَنَ وَتُعَاقِبُ عَلَيْهِ :

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَهَا • فَاجْلِئْهَا عِنْدِي مُقِيمُ الْأَلْسِنِ !

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَرَزَتْ عُلُومُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانَ وَالْبَدِيعِ جُمْلَةً ، وَحَمَلَتْ عَلَيْهِ
 بِصَدْقِ الْعَزْمِ فِي اللَّقَاءِ حَمْلَهُ ؛ وَقَالَتْ : جَعَجَعَةٌ رَحًا مِنْ غَيْرِ طَخْنٍ ، وَتَصْوِيئُ
 رَعْدٍ مِنْ غَيْرِ مُزْنٍ ؛ لَقَدْ أَتَيْتَ بِغَيْرِ مُعْرَبٍ ، وَأَعْرَبْتَ عَنِّي لَيْسَ بِمُطْرَبٍ ؛
 الْحَقُّ أَبْلَجُ ، وَالْبَاطِلُ جَلِجَلٌ ؛ إِنْ الْقَوَزَ لَقَدْ حَنَّا ، وَالْوَزَى لَقَدْ حَنَّا ؛ نَحْنُ لُبُّ
 الْعَرَبِيَّةِ وَخُلَاصَتُهَا ، وَالْمُعْتَرِفُ لَنَا بِالْفَضْلِ عَامَّتُهَا وَخَاصَّتُهَا ؛ وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا شَيْءٌ
 جَرَى عَلَيْكَ الْأَصْطِلَاحُ ، وَسَاعَدَكَ الْأَسْتِعْمَالُ فَا مَنِتَّ الْأَطْرَاحُ ؛ فَلَوْ أَصْطَلِحَ عَلَى
 نَصَبِ الْفَاعِلِ وَرَفَعِ الْمَفْعُولِ لَمْ يَخْلُ بِالتَّفَاهِمِ فِي الْمَقَاصِدِ ، وَهَذَا كَلَامُ الْعَامَّةِ لِذَلِكَ أَقْوَمُ
 دَائِلٍ وَأَعْظَمُ شَاهِدٍ .

فَقَالَ عِلْمُ الشَّعْرِ : أَرَأَيْتُمْ قَدْ نَسِيتُمْ فَضْلِي الَّذِي بِهِ فَضَلْتُمْ ، وَصَرَّمْتُمْ حَبْلِي الَّذِي
 مِنْ أَجَلِهِ وَصَلْتُمْ ؛ أَنَا حُجَّةُ الْأَدَبِ ، وَدِيْوَانُ الْعَرَبِ ؛ عَلَى تَرْدُونٍ ، وَعَنِّي تَصْدُرُونَ ؛

والى تَنَسُّبُونَ، وبى تَشْتَهَرُونَ، مع ما أَشْتَمَلْتُ عليه من المَدْحِ الذى كم رَفَعَ وَضَعًا، وجَلَبَ نَفْعًا، ووَصَلَ قَطْعًا، وجَبَرَ صَدْعًا؛ والهَجْوُ الذى كم حَطَّ قَدْرًا، وأُتِمِدَ ذِكْرًا، وجَعَلَ بين الرِّفِيعِ والوَضِيعِ فى حَظِيطَةِ القَدْرِ نَسَبًا وَصِهْرًا؛ الى غير ذلك من أنواعِ الشَّعْرِيَةِ التى شاع ذِكْرُهَا، وَأَضْوَاعِ العِطْرِيَةِ التى فاح نَشْرُهَا؛ بل لا يكاد عِلْمٌ من العلوم الأَدْبِيَّةِ يَسْتَغْنِي عن شَوَاهِدِى، ولا يَخْرُجُ فى أَصُولِهِ عن قَوَائِنِى وَقَوَاعِدِى؛ حَتَّى عِلْمُ النَثْرِ الذى هو شَقِيقِى فى النِّسَبِ، وَعَدِىلى فى لسانِ العَرَبِ؛ لم يَزَلْ أَهْلُهُ يَتَطَفَّلُونَ عَلَيَّ فى بَيْتِ يَحْلُونَهُ، وَيَقْفُونَ من بَدِيعِ محاسنى عند حَدِّ لا يَتَعَدُّونَهُ .

فقال عِلْمُ القَافِيَةِ : إِنَّكَ وَإِنْ تَأَلَّقَى بَرَقُ مَبَاسِمِكَ، وَطَابَتْ أَيَّامُ مَوَاسِمِكَ؛ فانتَ مَوْقُوفٌ عَلَيَّ مَقَاصِدِي، وَمُعْتَرِفٌ من رَوَى مَوَارِدِي؛ أَنَا عُدَّةُ الشَّاعِرِ، وَعُمْدَةُ النَّاثِرِ؛ لا يَسْتَغْنِي عَنى شِعْرٌ ولا خَطَابُهُ، ولا يَسْتَنكِفُ عن الوُقُوفِ عَلَيَّ أَبُوَابِي ذُو تَرَسِيلٍ ولا كِتَابُهُ؛ طَلَمَّا عَثَرَ الفُحُولُ فى مِيدَانِي، وَتَشَعَّبَتْ عَلَيْهِمُ طُرُقِي فَضَلُّوا السَّبِيلَ وَأَخْتَلَقَتْ عَلَيْهِمُ المَبَانِي؛ فلم يَفْرُقُوا بين التَّكَاوُسِ والتَّرَاكُيبِ فى التَّعَارُفِ، ولم يُمَيِّزُوا بين التَّدَارُكِ والتَّوَاتُرِ والتَّرَادُفِ .

فقال عِلْمُ العَرُوضِ : لقد أَشْمَعْتَ القَوْلَ فى الدَّعْوَى من غير تَوَجُّهِهِ فَدَخَلَ عَلَيْكَ الدَّخِيلُ، وَأَوْقَعَكَ الوَصْلُ دُونَ تَأْسِيسِ فى هُوَّةِ النِّقِصِ : فَهَلْ إِلى خُرُوجِ من سَبِيلِ؟؛ أَنَا مَعْيَارُ الفَرِيضِ وَمِيزَانُهُ، وَعَلَى تَبْنِي قَوَاعِدُهُ وَأَرْكَانُهُ؛ لم يَزَلْ الشَّعْرُ فى عُلُوِّ رُبُوبِيَّةِ بِفَضْلِي مَعْتَرَفًا وَلِحَقِّي مَتَحَقِّقًا، ومن بُحُورِي مُعْتَرِفًا، وبِأَسْبَابِي مَتَعَلِّقًا؛ فَأَيَّانُهُ بِمِيزَانِي مُحَرَّرُهُ، وَأَجْزَاؤُهُ بِقِسْطَائِي تَفَاعِيلِي مُقَدَّرُهُ؛ وبِقَوَاصِلِي مُتَّصِلُهُ، وبِأَوْتَادِي مُرْتَبِطُهُ غير مُتَفَصِّلُهُ .

فقال عِلْمُ المَوْسِيقَى : لَفَسَدَ أَشْرَفَتِ فى الأَفْتِخَارِ فَضَلَّمَتِ الطَّرِيقَ وَبَنَتَ عَنْهَا، وَوَرَّطَتِ نَفْسَكَ فِيمَا لا فَائِدَةَ فِيهِ فَلَزِمْتَ دَائِرَةَ لا تَنْفَكُ عَنْهَا؛ وَأَتَيْتَ من طَوِيلِ

الكلام بما لا طائل تحته فنثقل قولاً، وجئت من بسيط القول بما لو اقتصرته منه على المتقارب لكان بك أولى؛ فانت بين ذى طبع وزان لا يحتاج إلى معيارك في نظم قريضه، وأخر نبت طباعه عن الوزن فلم ينتفع من علمك بضره ولا عمروضه؛ فإذا لا فائدة فيك ولا حاجة إليك، ولا عبرة بك ولا معول عليك، وكفى بك هضماً، وتقبصةً وذمماً؛ وأستدللاً على دحس حجتك، وضعف أدلتك؛ قول ابن حجاج:

مُسْتَفْعِلُنْ فاعِلُنْ فَعُولٌ * مَسَائِلُ كُلِّهَا فُضُولٌ،

قد كان شعر الورى صحيحاً * من قبل أن يُخلق الخليل!

على أنه إن ثبتت لك فائده، وعاد منك على الشعر أو الشعراء عائده؛ فأنما تفاعيلك مقدمة لألحاني، وأوزانك وسيلة إلى أوزاني؛ نعم أنا غذاء الأرواح، وقاعدة عمود الأفرح؛ والمتكفل بسيط النفوس وقبضها، والقائم من تعديلها وتهويتها بنقلها وفرضها؛ أحرك النفس عن مبدئها فيحدث لها السرور وتظهر عنها الشجاعة والكرم، وأبعثها إلى مبدئها فيحدث لها الفكر في العواقب وتزايد الموم والندم؛ فتارة أستمحل في الأفرح وزوال الكروب، وتارة في علاج المرضى وأخرى في ميادين الحروب؛ وآونة في محمل الأخران واجتماع المآتم، ومرة يستعماني قوم في بيوت العبادات فابعثهم على طلب الطاعات واجتنب المحارم؛ وآتى من غريب الألحان، بما يتبع به الجائع ويروى به الظمان، ويأنس به المستوحش وينشط به الكسلان؛ وتدنو لسماعه السباع، ويعنوله بعد الشدة الشجاع.

مع ما يتفزع عنى من علم الآلات الروحانية التي تُعش الأرواح، وتجلب الأفرح؛ وتنفى الأتراح، وتؤثر في البخيل السماح، وتعمل في الأبواب ما لا تفعل في اللبائ بيض الصفاح.

فقال علم الطب : لقد أضعت الزمان في اللهو، وملت مع الأريحية فمأس بك العجب وزاد بك الزهو؛ وداحلك الطيش فقنعت بالإطراب؛ وعنيت بمعرفة الخن ففأتك الإعراب؛ تذكرك العشاق أحوال النوى فيسلمها الهوى إلى الهوان، وتنتقل في نواحي الإيقاع تنقل الهائم فتمسي في حجاز وتصبح في أصفهان؛ وأنت وإن ادعيت أنك العلم الروحاني، والمستولي بتحرك الطبائع الأزيع على النوع الإنساني وغير الإنساني؛ فانت غير مستغني عني، ولا فنك في الحقيقة منك عن قتي؛ بل قواعذك مرتبة على قواعدي، وفوائذك مستفادة من فوائدي، وأهل صناعتك يتطفلون في معرفة الملائم والمنافي على ساقط لباب موائد؛ وأنى تبسط بك الروح مع وجود السقم، أو يستريح إليك القلب مع شدة مقاساة الألم؟ بل أنا قوام الأبدان، وغاية ملاك الإنسان؛ بي تحفظ صحة الأجسام، وتمكن النفس من استكمال قوتها النظرية والعملية بواسطة زوال الأسقام وانتفاء الآلام؛ مع ما يوضح بالنظر في التشریح الذي هو أحد أنواع من سر قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. وما يظهر من حال الصحة والمرض وسر الموت من أنه تعالى بدأ الخلق أول مرة وإليه يحشرون.

مع ما يتحقق بي من علم خواص العقاقير الغريبة، والأشجار التي تؤثر بتجزئتها الصناعات التآثير العجيبة، وتأني من نوادر الأفعال بالأعمال الغريبة؛ على أنني لست مختص في الحقيقة ببدن الإنسان، ولا قاصر على نوع من أنواع الحيوان، وإنما أفردت بنوع البشر اهتماماً بشانه، وتنبهاً على جلالة قدره وعلو مكانه.

ثم ألحق بالإنسان في الاعتناء به الخيول فاشتق لها مني علم البيطرة، وتلاها في الاعتناء بجوارح الطيور لاهتمام الملوك بشانها فاستنبط لها من أجزائي علم البيزره؛ وأهمل ما سوى ذلك من جنس الحيوان، فلم يعتن بأمره ولم يهتم له بشان.

فقال علم القافّة : لقد ارتقيت مرتقى صعبا ، ووبلت موبجا صلبا ؛ وأتيت
من مشكلات الفضاءا بما ضاقت مطالبه ، وعرضت نفسك لمغالبة الموت والموت
لا شيء يُغالبه ؛ واقتصررت في تثيريكم الأعضاء على ذكر منافعها وصفاتها ،
وأضربت عما تدل عليه بصورها وكميياتها ؛ أين أنت من الحاق الأبن بالأب بالصفات
المتماثلة ، والحكم بثبوت النسب بدلائل الأعضاء كما يحكم بالبينة العادلة ؟ ؛ فهذه هي
الفضيلة التي لا تُساوى ، والمتقبة التي لا تُعادل ولا تُتاوى ؛ وكفالك لذلك شاهدا ،
وعلى ثبوته في الشريعة المطهرة مُساعدا ؛ وأنه لا يتصور ذلك معارضة ولا نقض ،
استبشار النبي صلى الله عليه وسلم بقول مذجح المدلحي : « إن هذه الأقدام بعضها
من بعض » .

فقال علم قص الأثر : نعم إن شأنك لغريب ، وإن أجهادك لمُصيب ؛ غير أنني
أنا أغرب منك شأنا ، وأدق في الإدراك معنى ؛ إذ أنت إنما تُحقق المحقق بالمشاهدة
بمثله ، وتقيس فرعا على أصل ثم تُحقق الفرع بأصله ؛ وأنا فأدرك المؤثر من الأثر ،
وأستدل على الغائب بما يظهر من اللوائح في الرمل والمدرب ؛ وربما ميزت أثر البعير
الشارد من المراتع ، وفرفت بالنظر فيه بين الصحيح والظالم ؛ فادركت من الأمر
الخفي ما تُدركه أنت من الظاهر ، وقضيت على الغائب بما تقضي به على الحاضر .

فقال علم غضون الكف والحبّة : ما الذي أتيت به من الغريب ، أو أظهرته
بعلمك من العجيب ؟ ؛ فلو أتيت بأرض صلبة لوقفت أمالك ، أو محت الرياح معالم
الأثر لبطلت أعمالك ؛ أو وجز من تُفنى أثره الماء لفات حدسك الصائب ، أو جعل
الماشي مقدم نعله مؤخره لقلت : إن الذاهب قادم والقادم ذاهب ؛ لكن أنا كاشف
الأسرار الخفية ، والمستدل على لوازم الإنسان بما رُكب فيه من الدلائل الخلقية ؛

أَسْتَخْرِجُ مِنْ أَسَارِيرِ الْجَبْهَةِ وَغُضُونِ الْكَفِّ أُمُورًا قَدْ أُرْشَدَتِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَيْهَا ، وَجُعِلَتْ تِلْكَ الْعَلَامَةُ فِي الْإِنْسَانِ دَلَالَةً عَلَيْهَا .

فَقَالَ عِلْمُ الْكَتِفِ : إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَسْتِدْلَالِ عَلَى الشَّيْءِ بِإِلْزَامِهِ أَمْرٌ مُسْتَغْرَبٌ ، وَلَا مَا يُقَالُ فِيهِ : هَذَا مِنْ ذَلِكَ أَعْجَبٌ ، وَإِنَّمَا الشَّانُ أَنْ يَقَعَ الْأَسْتِدْلَالُ عَلَى الشَّيْءِ بِمَا هُوَ أَجْنَبِيٌّ مِنْهُ ، وَخَارِجٌ عَنْهُ ، كَمَا أَسْتَدِلُّ أَنَا بِالْخَطُوطِ الْمَوْجُودَةِ فِي كَتِفِ الذَّبِيحَةِ عَلَى الْحَوَادِثِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْأَسْرَارِ الْعَجِيبَةِ ، مِمَّا أَجْرَى اللَّهُ بِهِ الْعَادَةَ فِي ذَلِكَ ، وَجَعَلَهُ عِلَامَةً دَالَّةً عَلَى مَا هُنَاكَ .

فَقَالَ عِلْمُ خِطِّ الرَّمْلِ : لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَسْتَ بِمُحَقِّقٍ لِمَا أَنْتَ لَهُ مُتَوَسِّمٌ ، وَلَا وَائِقٍ بِالْإِصَابَةِ فِيمَا أَنْتَ تَتَرَجَّمُ ، وَغَايَتُكَ الْوُقُوفُ مَعَ التَّجَارِبِ ، وَالرُّجُوعُ فِيمَا تُحَاوِلُهُ إِلَى التَّقَارُبِ ، مَعَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّفْضِ وَالْإِهْمَالِ ، وَمَا رُمِيَتْ بِهِ مِنَ الْقَطِيعَةِ وَقِلَّةِ الْأَسْتِمَالِ ، أَمَا أَنَا فَفَارِسُ هَذَا الْمَيْدَانِ ، وَمَالِكُ زِمَامِ هَذَا الشَّانِ ، فَكَمْ مِنْ صَمِيرٍ أَبْرَزْتُهُ ، وَأَمْرٍ خَفِيَ أَظْهَرْتُهُ ، وَمَكَانٍ عَيَّنْتُهُ فَوَافِقٌ ، وَأَمِدٍ قَدَّرْتُهُ فَطَائِقٌ ، عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ أَصْلٌ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَا دَلِيلٌ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ، فَأَنَا أَنْبَتُ مِنْكَ قَوَاعِدَ ، وَأَوْضَحُ عِنْدَ الْأَعْتِبَارِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ ، فَإِنَّ عَدَوْتَ طَوْرَكَ ، أَوْ جُرْتَ فِي الْأَحْتِجَاجِ خِصْمَكَ ، فَمَدَّكَ ، أَنَّهُ كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ فَمِنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَكَ .

فَقَالَ عِلْمُ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا : إِنَّكَ وَإِنِ أَظْهَرْتَ السَّرَائِرَ ، وَأَبْرَزْتَ الضَّمَائِرَ ، فَإِنَّ أَمْرَكَ مَوْقُوفٌ فِي حَدْسِكَ عَلَى الدَّلَالَةِ الْحَالِيَةِ ، وَمَقْصُورٌ فِي تَحْمِينِكَ عَلَى الْأُمُورِ الْإِحْتِمَالِيَةِ ، أَيْنَ أَنْتَ مِنِّي حِينَ أُعَبَّرَ عَمَّا شَاهَدْتَهُ النَّفْسُ فِي النَّوْمِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ؟ وَكَيْفَ أَكْشِفُ عَنْهُ الْمُجُوبَ بِالتَّأْوِيلِ فَيَقَعُ كَفَلَقِي الصُّبْحِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ ، فَأَخْبِرْ بِحَوَادِثِ تَقَعُ فِي الْعَالَمِ قَبْلَ وَجُودِهَا ، وَآتِي مِنْ حَقَائِقِ النَّدَارَةِ وَالْبَشَارَةِ بِمَا يُنْبَهُ عَلَى التَّحْذِيرِ مِنْ نُحُوسِهَا وَالتَّرَقُّبِ لِمَوَافَاتِ سَعُودِهَا .

فقال علم أَحْكَامِ النُّجُومِ : حَقِيقٌ مَا أَوْلَتْ ، وَصَحِيحٌ مَا عَنَّهُ عَبَّرَتْ وَعَلَيْهِ
عَوَّلَتْ ؛ إِلَّا أَنْكَ قَاصِرٌ عَلَى وَقَائِعِ مَخْصُوصَةٍ تُرْشِدُ إِلَيْهَا ، وَأُمُورٍ مَحْدُودَةٍ تُنَبِّئُهُ عَلَيْهَا ؛
عَلَى أَنَّهُ رُبَّمَا تَنَسَّاتِ الرُّؤْيَا عَنْ فِكْرَةٍ وَقَعَتْ فِي الْيَقِظَةِ فَانْتَصَلَتْ بِالْمَنَامِ ، أَوْ حَدَثَتْ
عَنْ سُوءِ مِرَاجٍ أَوْ رَدَاءَةٍ مَطْعَمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَكَانَتْ أَضْفَاثَ أَحْلَامٍ ؛ أَمَا أَنَا فَإِنِّي أَدُلُّ
بِمَا أَجْرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْعَادَةِ ، عَلَى الْحَوَادِثِ الْعَامَّةِ مَصَابِحًا لِمَقْتَضِيَاتِ الْإِرَادَةِ ؛
لِيُظْهِرَ مَا فِي الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ قَضَايَا التَّدْيِيرِ ، وَيَبَيِّنَ مَا أَشْمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَفْلَاكُ
الْعُلُوبِيَّةُ مِنْ تَقْدِيرِ التَّرْتِيبِ وَتَرْتِيبِ التَّقْدِيرِ ؛ مَعَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَعْمَالِ
الْعَجِيبَةِ ، وَالْأَحْوَالِ الْغَرِيبَةِ ؛ الَّتِي تَبْهَرُ الْعُقُولَ ، وَيَمْتَنِعُ إِلَيْهَا مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ
الْوُصُولِ :

مِنْ عِلْمِ السِّحْرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَعِلْمِ الطَّلَسِمَاتِ الْغَرِيبَةِ وَعِلْمِ الْأَوْفَاقِ ،
وَكَذَلِكَ عِلْمِ النِّيْرِنَجِيَّاتِ وَعِلْمِ السِّيمِيَا الْآخِذِ بِالْأَحْدَاقِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْهَيْئَةِ : مَا لَكَ وَلَا بَاطِلٌ تُسَمِّقُهَا ، وَأَكَاذِبٌ تُرْخِرُهَا وَتُرَبِّقُهَا ؛
وَأَمَّا نَيْلُ يَتَعَمَّدُهَا الْمُعْتَمِدُ فَتَخِيبُ ، وَأَقَاوِيلُ تَارَةٌ تُخْطِئُ وَتَارَةٌ تَصِيبُ ؛ وَلَقَدْ وَرَدَتْ
الشَّرِيعَةُ الْمَطْهُرَةُ بِالنُّهْيِ عَنْ أَعْتِبَارِكَ ، وَجَاءَتِ السُّنَّةُ الْغَرَاءُ بِمَجْهُولِ أَخْبَارِكَ وَإِعْفَاءِ
آثَارِكَ ؛ وَنَاهَيْكَ بِفَسَادِ هَذَا الْأَعْتِقَادِ وَرَدَّ هَذَا الْمَذْهَبِ ، مَا تَبَّتْ فِي الصَّحِيحِ مِنْ
أَنَّهُ مِنْ قَالَ : مُطْرُنَا بِنُوءٍ كَذَا فَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ ؛ عَلَى أَنَّكَ فِي الْحَقِيقَةِ
نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ ، مَعْدُودٌ مِنْ جُنْدِيٍّ وَمَحْسُوبٌ مِنْ أَتْبَاعِي ؛ نَعَمْ أَنَا الْقَائِمُ مِنْ دَلِيلِ
الْأَعْتِبَارِ فِي الْقُدْرَةِ بِتَمَامِ الْفَرْضِ ، وَالْقَائِدُ بِرِمَامِ الْعَقْلِ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ؛ عَنِّي يَتَفَرَّعُ عِلْمُ الزِّيْجَاتِ وَالتَّقَاوِيمِ الَّذِي بِهِ يُعْرَفُ مَوْضِعُ كُلِّ وَاحِدٍ
مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ وَمَدَّةُ إِقَامَتِهَا ، وَزَمَنُ تَشْرِيقِهَا وَتَغْرِبِهَا وَمِقْدَارُ رُجُوعِهَا

وَأَسْتَقَامَتَهَا ؛ وحال ظهورها وأختفائها في كلِّ زمان ، وما يتَّصلُ بذلك من الأتصال
والانفصال والحسُوف والكسُوف واختصاص ذلك بمكانٍ دونَ مكان .

فقال علم كَيْفِيَّةِ الأَرْضَادِ : ما علمُ الزَّيْجَاتِ والتَّقَاوِيمِ الذي تُقَدِّمُهُ في الذِّكْرِ عَلَى ،
وَتَوَثُّرُهُ من الفضل بما لَدَى ؛ إذ بي تُتَعَرَّفُ كَيْفِيَّةُ تحصيل مقادير الحركات الفلكية ،
والتوصلُ إليها بالآلات الرصدية ؛ التي عليها يترتب علمُ الزَّيْجَاتِ ، ويُعرف في التقويم
الاتصالات والانفصالات والامتراجات .

مع ما يَلْتَحِقُ بي من علمِ الكُرَّةِ الذي منه تُعرف كَيْفِيَّةُ آتِخَاذِ الآلاتِ الشُّعَاعِيَّةِ ،
ويتوصلُ به إلى استخراج المطالب الفلكية .

فقال علم المَوَاقِيْتِ : كيف وأنا سيدُّ علومِ الهيئةِ وزَعِيمُهَا ، وشَرِيْفُهَا في الشريعة
وَكَرِيمُهَا ؛ بي تُعرف أوقاتُ العبادات ، وتُستخرجُ جهةُ القبلةِ بل سائرُ الجهاتِ ؛
وتُعلمُ أحوالُ البُلْدَانِ ومَحَلُّهَا من المعمور في الطولِ والعرضِ ، ومقاديرُ أبعادها
وأنحرافُ بعضها عن بعض ؛ مع ما يُخْرِطُ في هذا السُّلُكِ من معرفة السُّمُوتِ
وَأرتفاع الكواكب ، ومطالعها من أجزاء البروج والطالع منها والغارب ؛ وغير ذلك
من الشعاعات المخروطة ، والظلال القائمة والمبسوطه ؛ إلى غير ذلك مما يلحق بي ،
ويُنسَبُ إلى ويتعلق بسببي :

من علم الآلاتِ الظَلِّيَّةِ التي تُعرفُ بها ساعاتُ النهار ، ويظهر منها الماضي
والباقي بأقرب مُلتَمِسٍ وألطفِ اعتبارٍ ، من نحو الرخامات القائمة ، والمبسوطات
منها والمائلات .

فقال علم الهندسة : إن فضلك لمشهور ، ومقامك في الشرف غير منكور ؛ إلا أن
آلاتك بي مُقدَّره ، وأشكالك بأوضاعي مُحَرَّره ؛ فإنا إمامك الذي به تقندي ، وتجتك

الذي به تهتدي ؛ بل جميع علوم الهيئة في الحقيقة موقوفة على ، وراجعة في قواعدها إلى ؛ لولاى لم يعرف السطح والكوة ، ولم يميز بين الخطوط والقيسي والدوائر المقدره ، مع ما ينشأ عنى ، ويستعمل من صحابي ويقتبس منى ؛ من أحوال المقادير ولو أحققها ، ومعرفة ظواهرها الواضحة ودقائقها ؛ وأوضاع بعضها عند بعض ونسبها ، وخواص أشكالها والطرق إلى عمل ما سيبله أن يعمل لها ؛ واستخراج ما يحتاج إلى استخراجها بالبراهين البينية القاطعه ، وإظهارها إلى الحس بالأشكال البينة والحدود الجامعة المانعه .

فقال علم عقود الأبنية : نعم ، إلا أنى أنا أجل مقاصدك ، وأعذب مواردك ؛ ونور عيونك ، وعمروس فنونك ؛ منى يستفاد بناء الحصون والأسوار ، ويتعرف شق الأبنية وحفر الأنهار ؛ وعمارة المدن وعقد القواصر ، وسد البثوق وبناء القناطر ؛ وتنضيد المساكن ووضع المنازل ، ونصب الأشجار وترتيب الرياض ذوات الخمانل .
فقال علم بحر الأثقال : صدقت ولكنى أنا أساس مبانيك وقاعدة سنالك ، وحامل أثقالك وعمود اعتمادك ؛ بى تعرف كيفية نقل الثقل العظيم بالقوة اليسيره ، حتى تنقل مائة ألف رطل بقوة خمسمائة وذلك من الأسرار النفيسة والأعمال الخطيره .

فقال علم مرآة الأثقال : إلا أنك محتاج إلى فى أعمالك ، وموقف على فى جميع أحوالك ؛ من حيث استخراج مرآة الأجسام المحموله ، وبيان معادلة الجسم العظيم بما هو دونه لتوسط المسافة بالآلات المعموله .

فقال علم المساحة : أراك قد غفلت عن معرفة المقادير والمسافات التى هى مقدمة عليك فى وضع المباني ، ومنفردة عنك بكثير من المعانى ؛ من أخرج الزراعات ،

وتقدير الرساتيق والبياعات ، وكيفية ذرع المثلثات ، والمربعات ، والمدورات ،
والمسططيلات ؛ وغير ذلك من دقائق الأعمال ، وإدراك كميات المقادير على التفصيل
والإجمال .

فقال علم الفلاحة : فإذا قد اعترنت أنك من جملة أواحي ، مندرج في حُقوق
وداخل تحت مرافق ؛ فإنا في الحقيقة المقصود منك في الوضع بالقياس ، والمنجأ .
بك دون غيري من غير آنباس ؛ مع ما أنا عليه من معرفة كيفية تدبير النبات من بدء
كونه إلى تمام تدييره ، وتسمية الحبوب والثمار بإصلاح الأرض وما تجللتها
من المعفونات كالسماد وغيره وما أيديه من اللطائف في إيجاد بعض الفواكه في غير
فصله ، وتركيب بعض الأشجار على بعض وأستخراج بعضها من غير أصله .

فقال علم إنباط المياه : إلا أنني أنا يداية عمك ، وغاية منتهى أمك ؛ لا يتم لك
أمر يدوني ، ولا تثبت لك خضراء ما لم تُسقى من ينارى وعيوني ؛ فإنا الكفيل
باحياء الأرض الميتة وإفلاحها ، والقائم بتلطيف مزاجها وإصلاحها .

فقال علم المناظر : ما أذى مجدى أنت وطرفى عنك مرتد ، ونظرى إليك غير
ممتد ؛ وأنى تستطيع مياهك الترقى من الأغوار إلى النجود ، وتتنقل عيونك وأنبارك
بين الهبوط والصعود ؛ إذا لم أكن لك ملاحظا ، وعلى الاعتناء بأمرك مخافظا ؛
مع ما أشتمل عليه غير ذلك من تحقيق المبصرات في القرب والبعد على اختلاف معانيها ،
وما يغلط فيه البصر كالأشجار القائمة على شطوط المياه حيث ترى وأسافؤها أعاليها .

فقال علم المرايا المحرقة^(١) : إنك وإن دقت النظر ، وحققت كل ما وقع عليه
حاسة البصر ؛ فإنا مقصدك الأعظم ، ومهمك المقدم ؛ طالما أحرقت القلاع

(١) ذكر في لسان العرب أن المرأة جمعها مراة كمرع وأن العوام يقولون في جمعها : مرايا .

بُشَاعِي، وَحَصَّنَتْ الْجِيُوشَ بِدِفَاعِي، وَقَمْتُ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ الْجَيْشُ الْعَرَمَرَمَ وَالْعَسْكَرَ
الْجَزَارَ، وَأَغْنَيْتُ مَعَ أَنْفِرَادِي عَنِ كَثْرَةِ الْأَعْوَانِ وَمُعَاوَدَةِ الْأَنْصَارِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْآلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ : وَإِنْ حَدَّكَ لِكَيْلٍ، وَإِنْ جَدَّكَ لِقَلِيلٍ، وَإِنْ
الْمُسْتَنْصِرُ بِكَ لِدَلِيلٍ، وَمَاذَا عَسَى تَصِلُ فِي الْإِحْرَاقِ إِلَيْهِ، أَوْ تُسَلِّطُ فِي الْحُرُوبِ عَلَيْهِ؟
أَنَا بَاعُ الْحَرْبِ الْمَدِيدِ، وَالْمُحَصَّنِ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَالتَّالِي بِلِسَانِ الصَّدْقِ عَلَى
الْأَعْدَاءِ : (قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) . فَأَنَا نَفْسُ الْمَقْصُودِ وَعَيْنُ
الْمُرَادِ، وَعُمُودُ الْحَقِّ وَقَاعِدَةُ الْجِهَادِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْكِيمِيَا : مَا أَنْتَ وَالْقِتَالُ، وَمُؤَاقَعَةُ الْحُرُوبِ وَقَوَارِعُ التَّرَالِ، وَهَلْ
أَنْتَ إِلَّا آلَةٌ مِنَ الْآلَاتِ، لَا تَسْتَقِيلُ بِنَفْسِكَ فِي حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ، وَأَنْتَى يُعْنَى
السَّلَاحُ عَنِ الْجَبَانَ مَعَ خَوَرِ الطَّبَاعِ، أَوْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَطْلُ الصَّنِيدُ وَالْمُجْرِبُ الشُّجَاعُ،
فَالعِبْرَةُ بِالْمُقَاتِلِ، لَا بِالذَّوَابِلِ، وَالْعُمْدَةُ عَلَى الرَّجَالِ، لَا بِبِوَارِقِ السُّيُوفِ عِنْدَ التَّرَالِ،
وَبِكُلِّ حَالٍ فَالْعُمْدَةُ فِي الْحُرُوبِ وَجَمْعُ الْعَسَاكِرِ عَلَى التَّقْدِيرِ دُونَ مَاعِدَاهُمَا،
وَالْأَسْتِنَادُ إِلَى الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِخِلَافِ مَا سِوَاهُمَا، وَإِلَى هَذَا الْحَدِيثِ يُسَاقُ وَعَلَى
فِيهِ يُعْتَمَدُ، وَعَنَى يُؤْخَذُ وَإِلَى فِي مِثْلِهِ يُسْتَنْدُ، أَحْوَالُ يُحْسِنُ التَّدِيرَ، مَا طَبَّخْتَهُ
الطَّبِيعَةُ عَلَى مَمَرِ الدُّهُورِ، فَآتَى بِمِثْلِهِ فِي الزَّمَنِ الْقَرِيبِ، وَأُجَانِسُ بَيْنَ الْمَعَادِنِ فِي مُمَازَجَتِهَا
فِيظْهَرُ عَنْهَا كُلُّ مَعْنَى غَرِيبٍ، وَأُبْرَزُ مِنْ خِصَائِصِ الْإِسْكَيرِ مَا يَقْلِبُ الْمَرِيخَ قَرَأً
مِنْ غَيْرِ لَبْسٍ، وَيُجِيلُ الزُّهْرَةَ شَمْسًا وَنَاهِيكَ بِإِحَالَةِ الزُّهْرَةِ إِلَى الشَّمْسِ، فَصَاحِبِي
أَبْدًا عَزِيزُ الْمَنَالِ، شَرِيفُ النَّفْسِ عَنِ الطَّلَبِ عَفِيفُ اللِّسَانِ عَنِ السُّؤَالِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْحِسَابِ الْمَفْتُوحِ : إِنَّكَ وَإِنْ دَقَعْتَ عَنَّا، وَجَلَبْتَ غَنِيَّ، فَأَمْوَالُكَ
الْجَمَّةُ، وَحَوَاصِلُكَ الضَّخْمَةُ، مَحْتَاجَةٌ إِلَى حُسَابِي، غَيْرَ غَنِيَّةٍ عَنِ كُنْأِي، أَنَا جَائِعُ

الأموال وضابط أصولها ، والمتكفل بحفظ جملتها وتفصيلها ؛ مع احتياج كثير من العلوم إلى الضرب والقسمة والإسقاط .

قد أخذت من علم الارتماطيقى الذى هو أصل علوم الحساب بجوانبه ، وتعلقت منه بأسهل طرقه وأقرب مذاهبه ؛ ونأهيك بشرف قدرى ، ورفعته ذكرى ؛ قول أبي محمد الحريرى فى بعض مقاماته ، منها على شرف قلبي وسنى حالاته : « ولولا قلم الحساب لاؤدت ثمرة الأكتساب ، ولاتصل التغابن إلى يوم الحساب » .

فقال علم حساب التخت والميل : مه ! فما أنت إلا علم العامة فى الأسواق ، تدور بين الكافة على العموم وتتداول بينهم على الإطلاق ؛ تكاد أن تكون بديها حتى للأطفال ، وضروريا للنساء والعبيد فى جميع الأحوال ؛ يتسع عليك مجال الضرب فتقصر عنه همتك المقصره ، وتتسع عليك مدارك القسمة فتأني بها على التقريب غير محوره ؛ أين أنت من سعة باعى ، وأمتداد ذراعى ، وتحرير أوضاعى ؟ ؛ لا يعتمد أهل الهيئة فى مساحه الأفلاك والكواكب غير حقائق أمورى ، ولا يعولون فيها - على سعة فضائها - إلا على صحاحى وكسورى .

فقال علم حساب الخطأين : مالى ولعلم لا يوصل إلى المقصود إلا بعد عمل طويل ؟ ، ويحتاج صاحبه مع زيادة العناء إلى استصحاب تحت وميل ، وقد قيل : كل علم لا يدخل مع صاحبه الجمالم بخداه قاصر ونفعه قليل ؛ على أن غيرك يُساركك فيما أنت فيه ، ويوصل إلى مقصودك بطريق لا يدخله الغلط ولا يعتريه ؛ وإنما الشأن فى استكشاف غامض أو إظهار غريب ، ولا أعجب من أن تُصيب إخراج المجهول من الأعداد بخطأين فيقال : أتى بخطأين وهو مُصيب .

فقال علم الجبر والمقابلة : حَسْبُكَ فَإِنَّمَا أَنْتَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولَاتِ كَنُقْطَةِ
 مِنْ قَطْرٍ ، أَوْ نُقْبَةٍ مِنْ بَحْرٍ ؛ تَقْتَصِرُ مِنْهَا بِطَرَفِكَ الْقَاصِرَةَ وَأَعْمَالِكَ النَّائِبَةَ ،
 عَلَى مَا أَمْكَنَ صَيْرُورَتَهُ مِنَ الْعَدَدِ فِي أَرْبَعَةِ أَعْدَادٍ مُتَنَاسِبَةٍ ؛ نَعَمْ أَنَا أَبُو عُدْرَتِهَا ،
 وَأَبْنُ بِيحْدَتِهَا ، وَأَخُو نَجْدَتِهَا ؛ اسْتَخْرِجْ جَمِيعَ الْمَجْهُولَاتِ ، مِنْ مَسَائِلِ الْمُعَامَلَاتِ ،
 وَالْوَصَايَا وَالتَّرِكَاتِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى ، وَيَخُوضُ هَذَا النُّحُو وَيَسْرَى
 هَذَا الْمَسْرَى ؛ مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ الْأُمُوالِ وَالْجُدُورِ ، وَالْأَعْدَادِ الْمُطْلَقَةِ مِنَ الصَّحَاحِ
 وَالْكُسُورِ .

فقال علم حساب الدرهم والدينار : مَالِكَ وَإِدْعَاءِ التَّعْمِيمِ فِي اسْتِخْرَاجِ
 الْمَجْهُولَاتِ وَكَشْفِ الْغُوامِضِ ؛ وَإِنَّمَا أَنْتَ قَاصِرٌ عَلَى اسْتِعْلَامِ الْمَجْهُولَاتِ الْعَدَدِيَّةِ
 الْمَعْلُومَةِ الْعَوَارِضِ ؛ دُونَ مَا تَزِيدُ عِدَّتُهُ عَلَى الْمَعَادِلَاتِ الْجَبْرِيَّةِ ، فَقَدْ فَاتَكَ حَيْثُ يَذُ
 الدَّعَاوَى الْحَصْرِيَّةِ ؛ لِكِنِّي أَنَا كَاشِفٌ هَذِهِ الْحَقَائِقَ ، وَمُبَيِّنٌ سُبُلَهَا بِالطَّفِ الطَّرَائِقِ ؛
 فَبِي إِلَيْهَا يُتَوَصَّلُ ، وَعَلَى قِوَاعِدِي لِاسْتِخْرَاجِ مَقَاصِدِهَا يُجْمَلُ وَيُفَصَّلُ .

فقال علم حساب الدَّورِ وَالْوَصَايَا : إِنَّ اسْتِخْرَاجَ الْمَجْهُولَاتِ وَإِنْ عَظُمَ نَفْعُهَا ،
 وَحَسُنَ وَضْعُهَا ؛ فَإِنَّا أَعْظَمُ مِنْهُ فَإِنَّدَهُ ، وَأَجَلُّ مِنْهُ عَائِدَهُ ؛ أُبَيِّنُ مِقْدَارَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدَّورِ
 مِنَ الْوَصَايَا ، حَتَّى يَتَّضِحَ لِمَنْ يَتَأَمَّلُ ، وَأَقْطَعُ الدَّورَ فَتَعُودُ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أَظْهَرِ الْقَضَايَا ،
 وَلَوْلَا ذَلِكَ لَدَارَ أَوْ تَسَلَّلَ .

فقال علم الفقه : وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نُبْدَةٌ مِنَ الْوَصَايَا الَّتِي هِيَ بَارِقَةٌ مِنْ بَوَارِقِي ،
 تَتَعَلَّقُ بِأَطْنَابِي وَتَدْخُلُ تَحْتَ سُرَادِي ؛ بِي تَمَيِّزِ مَعَالِمِ الْأَحْكَامِ ، وَيَتَبَيَّنُ الْوَأَجِبِ
 وَالْمَنْدُوبِ وَالْمُبَاحِ وَالْمَكْرُوهِ وَالْحَرَامِ ؛ وَيُتَعَرَّفُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ
 الْعِبَادَاتِ ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الضَّرُورَاتِ

وتجربى به العادات ؛ فأنا إمام العلوم الذى به يقتدى ، وعميدها الذى عليه يعتمد
وتجربها الذى به يهتدى ؛ فلولا إرشادى لضل سعى المكلفين ، ولأمسوا فى دنياء
مُدَلِّمَةٍ فأصبحوا عن ركائب الخير مخلفين .

وتأهيك أن من جملة أفرادى ، وآحاد أعداى : -

علم الفرائض الذى حصّ الشارع على تعلمه وتعليمه ، وأخبر بأنه نصف العلم
منبها على تعظيم شأنه وتفخيمه ؛ وبالغ فى إثبات قواعده وإحكام أسسه ، فقال :
« إن الله لم يكمل قسمة موارثكم إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل بل تولاها
فقسما بنفسه » .

فقال علم أصول الفقه : إن مقالك لعال ، وإن جيدك لحال ؛ غير أنى أنا
المتكفل بتقرير أصولك ، وتوجيه المسائل الواقعة فى خلال أبوابك وفصولك ؛
بى تعرف مطالب الأحكام الشرعية العمالية وطرق استنباطها ، ومواد حججها
وأستخراجها بدقيق النظر وتحقيق منابها ؛ فبأصولي فروغك مفسره ، وبجاسين
أستدلالى حججك منقحة محزرة ؛ قد مهدت طرقك حتى زال عنها الإلباس ، وبنيت
على أعظم الأصول فروغك فأسندتها للحكاتب والسنة والإجماع والقياس .

فقال علم الحدال : قد علمت أن الدليل لا يقوم برأيه ، ولا يستقل بنفسه ؛
بل لا بد فى تقريره من النظر فى معرفة كيفية الاستدلال ، والطريق الموصول إلى
المطلوب على التفصيل والإجمال ؛ وأنا المتكفل بذلك ، والموصول بكشف حقائق
البحث إلى هذه المدارك ؛ بى تعرف كيفية تقرير الحجج الشرعية ، وقوادح
الأدلة وترتيب النكت الخلافية ؛ فموضوعك على محمول ، ونظرك إلى نظارى بكل
حال مؤكول .

فقال علم المنطق : خَفَضَ عَلَيْكَ ! فَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ قِيَاسَاتِي الْمُنْطِقِيَّةِ
 أَفْرَدْتَ بِالتَّصْدِيفِ ، وَخُصِّصْتَ بِالْمَبَاحِثِ الدِّينِيَّةِ نَخَالَطَتِ أَصُولَ الْفِقْهِ فِي التَّالِيفِ ؟ ؛
 فَانْتَ إِذَا فَرَدُّ مِنْ أَفْرَادِي ، وَوَاحِدٌ مِنْ أَعْدَادِي ؛ مَعَ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ سِوَاكَ مِنْ
 الْقِيَاسَاتِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْقَاطِعَةِ فِي الْمُنَاطَرَاتِ ، وَالْقِيَاسَاتِ الْخَطَّائِيَّةِ وَالْبَلَاغَاتِ النَّافِعَةِ
 فِي مَخَاطِبَاتِ الْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ الْمُخَاصِمَاتِ وَالْمَسَاوِرَاتِ ؛ وَكَذَلِكَ حَالُ الْقِيَاسَاتِ
 الشُّعْرِيَّةِ ، وَكَيْفَ يُسْتَعْمَلُ التَّشْبِيهِ الْمُقِيدَ لِلتَّخْيِيلِ الْمَوْجِبِ لِلانْفِعَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ ؛
 كَالإِعْرَاءِ وَالتَّحْذِيرِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّحْقِيقِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ
 الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ عَامَةٌ كُلِّيَّةٌ ، وَتَرْكِيبِ الْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ بِالنَّسْبَةِ
 إِلَى الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ ؛ تَعَصُّمُ مَرَاعَاتِي الْفِكْرَ عَنِ الْخَطَايَا فَلَا يَزِلُّ ، وَتَهْدِيهِ سِوَاءَ السَّبِيلِ
 فَلَا يَجِيدُ عَنِ الصَّرَاطِ السَّوِيِّ وَلَا يَضِلُّ ، وَأَسْرَى فِي جَمِيعِ الْمَعْقُولَاتِ فَاتَّصَرَّفُ فِيهَا
 يَدُقُّ مِنْهَا وَيَجَلُّ .

فقال علم دَارِيَةِ الْحَدِيثِ : قَدْ عَلِمْتَ بِمَا ثَبَّتَ بِهِ الْأَدْلَةُ بِالتَّلْوِيحِ وَالتَّضْرِيحِ ،
 أَنَّهُ لَا جَمَالَ لِلْعَقْلِ فِي تَحْسِينِ وَلَا تَقْضِيحِ ؛ وَحِينَئِذٍ فَلَا بُدَّ مِنْ نَصِّ شَرْعِيٍّ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ،
 وَتَسْتَنْدُ فِي مَقْدَمَاتِكَ إِلَيْهِ ؛ وَلَا أَقْوَى حُجَّةً ، وَأَوْضَحَ حُجَّةً ؛ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِذَا تَكَلَّمَ ؛ فَإِذَا اسْتَنْدْتَ إِلَى نُصُوصِهِ ،
 وَأَعْتَمَدْتَ عَلَيْهِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ ؛ فَقَدْ حَسُنَ مِنْكَ الْمَقْدَمُ وَالتَّالِي ، وَكَانَتْ
 مَقْدَمَاتُكَ فِي الْبَحْثِ أَمْضَى مِنَ الْمُرْهَفَاتِ وَنَتَائِجِكَ أَنْفَعُ مِنَ الْعَوَالِي ؛ وَقَدْ تَحَقَّقَتْ
 أَنِّي إِمَامُ هَذَا الْمَقَامِ ، وَمَالِكُ قِيَادِ هَذَا الزَّمَانِ .

فقال علم رِوَايَةِ الْحَدِيثِ : لَقَدْ ذَكَرْتَ مِنَ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بِمَا لَا طَعْنَ
 فِيهِ لِمُرِيبٍ ، وَتَعَلَّقْتَ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ بِأَوْثَقِ سَبَبٍ فَاتَّيْتِ بِكُلِّ لَفْظٍ حَسَنٍ وَمَعْنَى

غريب؛ إلا أن الدراية، موقوفة على الرواية؛ وكيف يقع نظر الناظر في حديث قبل وصوله إليه، أو يتأتى العلم بمعناه قبل الوقوف عليه؟؛ وهل يثبت فرع على غير أصل في مقتضى القياس، أو يرقى من غير سلم أو يبنى على غير أساس؟؛ فعلى المحدث تقديم العلم بالرواية بشرطها، ومعرفة أقواله صلى الله عليه وسلم بالسماع المتصل وتحريرها وضبطها.

فقال علم التفسير: قد تبين لدى العلماء بالسرعة أن حكم الكتاب والسنة واحد، وإن اختلفت في الأسماء فلم تختلف في المقاصد؛ إلا أنهما وإن انفقا في الدلالة والإرشاد، فقد اختلفت في النقل بالتواتر وجاء أكثر السنة بالآحاد.

فقال علم القرآت: إلا أنه لا ينبغي للتفسير أن يقدم على التفسير ما لم يكن بقراءة السبع والشاذ على، وبلغاتها عارفاً وللنظر في معانيها ملازماً؛ مع ما يلتحق بذلك من علم قوانين القراءة المتعلقة من المصاحف بخطها، والأشكال والعلامات المنكفلة بتحريرها وضبطها.

فقال علم النواميس: (وهو العلم بمتعلقات النبوة): إنك لفرع من فروع الكتاب المبين، وما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين؛ وإلى النظر في أحوال النبوة وحقيقتها، ومسيس الحاجة إليها في بيان الشريعة وطريقتها؛ والفرق بين النبوة الحقة، والدعوى الباطلة غير المحقة؛ ومعرفة المعجزات المختصة بالأنبياء والرسل عليهم السلام، والكرامات الصادرة عن الصديقين الأبرار والأولياء الكرام؛ فإنا المقدم على سائر العلوم الشرعية، وإمام الأصلية منها والفرعية.

فقال علم الإلهي: لقد تحققت أن اللازم المحتم، والواجب تقديمه على كل مقدم؛ العلم بمعرفة الله تعالى والطريق الموصول إليها، وإثبات صفاته المقدسة

وما يجب لها ويستحيل عليها؛ وأنه الواجب الوجود لذاته، وبعث الرسل لإقامة الحجّة على خلقه بحكم آياته؛ وأنا الزعيم بإقامة الأدلة على ذلك من المعقول والمنقول، والمتكفل بتصحيح مقدماته البرهانية بتحرير المقدم والتألي والموضوع والمحمول .

فقال علم أصول الدين : حينئذ قد فُزْتُ من جمعكما بالشرقيين ، وجمع لي منكما الفضل بطرفيه فصرتُ بكما معلّم الطرفين ؛ وميزتُ بين صحيح الاعتقاد وفاسده فكان لي منهما أحسن الاختيارين ، وبيّنتُ طريق الحق لسالكها فكنتُ سبباً للفوز والنجاة في الدارين ؛ فانا المقصود للإنسان بالذات في كمال ذاته ، وكلُّ علم يستمدُّ مني في مبادئه ويفتقر إلى في مقدماته .

فقال علم التصوف : لو كشف الغطاء ما أزددتُ يقيناً ، إذ كان كلُّ أمرئٍ بما عمل مجازي وبما كسب رهيناً ؛ إنه يجب على كلِّ من كان بمعتقد الحق جازماً ، أن يكونَ عن دار الغرور متجافياً ولاعمال البرملازماً ؛ فأنما الدنيا مزرعة للآخرة ، إن حصلتِ النجاة فتلك التجارة الرابحة وإن كانت الأخرى فتلك إذا كرة خاسره ؛ فمن لزم طريقتي في الإعراض عن الدنيا والزهد فيها سلم ، ومن آغتر بزخرفها القاني فقد خاب في القيامة وندم .

فلما كثرتِ الدعاوى والمعارضات ، وتنابتِ الحججُ والمنساقصات ؛ نهض علم السياسة قائماً ، وقصد حتم مادة الحدال وطالما ؛ وقال : أنا جديها المحكك وعديقها المرجب ، وسائسها الكافي وحاكمها المهذب ؛ لقد ذكر كلُّ منكم من فضله ما يشوق السامع ، وأظهر من جليل قدره ما تنقطع دونه المطامع ، وأتى من وأضح كلامه بما لا يحتاج في إثباته إلى دليل ظني ولا برهان قاطع ؛ غير أنه لا يلبق بالمنصف أن يتخطى قدره المحدود ولا يتعدى جزئه المقسوم ، ولكلِّ أحدٍ حدٌ يقف عنده

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ؛ فَلَوْ سَلَكَ كُلُّ مِنْكُمْ سَبِيلَ الْمَعْدَلَةِ ، وَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ
فَوَقَفَ عِنْدَ مَا حُدِّدَ لَهُ ؛ لَكَانَ بِهِ أَلْيَقٌ ، وَلِمَقَامِ الْعِلْمِ أَرْفَقُ .

فقال علم تَدِيرُ الْمَنْزِلَ : لَقَدْ تَحَرَّيْتُ الصَّوَابَ ، وَنَطَقْتُ بِالْحِكْمَةِ وَفَضَّلِ
الْخَطَابَ ؛ لِكِنَّهُ لَا بُدَّ لَكُمْ مِنْ حَبِيرِ عَالِمٍ ، وَإِمَامٍ حَاكِمٍ ؛ يَكُونُ لَشَمْلِكُمْ جَامِعًا ،
وَلِمَوَاقِعِ الشُّكِّ فِي مَحَلِّ التَّفَاضُلِ بَيْنَكُمْ رَافِعًا ؛ مُحِيطٌ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ بِمَقْصُودِهِ وَمُرَادِهِ ،
عَارِفٌ بِمَا تَشْتَمَلُ عَلَيْهِ مَبَادِيهِ مِنْ حُدِّهِ وَمَوْضُوعِهِ وَفَائِدَتِهِ وَأَسْتِمْدَادِهِ ؛ لِيَبْلُغَ بِهِ مِنْ
الْفَضْلِ مُنْتَهَاهُ ، وَيَقِفَ بِهِ مِنَ الشَّرَفِ عِنْدَ حَدِّ لَا يَتَعَدَّاهُ ؛ فَلَا يَدَّعِي مُدَّعٍ بغير
مُسْتَحَقٍّ ، وَلَا يَطَالِبُ طَالِبٌ مَا لَيْسَ لَهُ بِحَقٍّ ؛ إِلَّا أَنَّ الْحَيْطُ بِكُلِّكُمْ عَلِيمًا ، وَالْقَائِمُ
بِجَمِيعِكُمْ فَهَمًّا ؛ أَعَزُّ مِنَ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَالْكِبْرِيَةِ الْأَحْمَرِ ، وَأَقْلُّ وَجُودًا مِنْ بَيْضِ
الْأُنُوقِ بَلْ بَيْضِ الْأُنُوقِ فِي الْوُجُودَانِ أَكْثَرُ .

فقال علم الْفِرَاسَةِ : عَلَى الْخَيْرِ سَقَطَتْ ، وَبَابِنِ يَجِدُّهَا حَطَطَتْ ؛ أَنَا بِذَلِكَ
زَعِيمٌ ، وَبِمِطْنَتِهِ عَالِمٌ ؛ فَلِلْعِلْمِ عَرَفُ بَيْنِ عَلَى صَاحِبِهِ ، وَتَلَوُّحٌ عَلَيْهِ بِوَارِقِهِ وَإِنْ أَكْنَتْهُ
بَيْنَ جِوَانِيهِ ؛ غَامِلُ الْمِسْكِ لَا تَخْفَى رِيحُهُ عَلَى غَيْرِ ذِي زُكَامٍ ، وَالنَّهَارُ لَا يَخْفَى ضَوْؤُهُ
عَلَى ذِي بَصِيرَةٍ وَإِنْ تَسْتَرَتْ شَمْسُهُ بِأَذْيَالِ الْغَمَامِ ؛ وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ وَجُوهَ الْعُلَمَاءِ الْكَلَمَةِ ،
الَّذِينَ طَوَّأِيَاهُمْ عَلَى أَجْمَلِ الْعُلُومِ مُنْطَوِيَةً وَعَلَى تَفَاصِيلِهَا مُشْتَمَلَةً ؛ وَسَبَرْتُ وَقَسَمْتُ ،
وَتَفَرَّسْتُ وَتَوَسَّمْتُ ؛ فَلَمْ أَجِدْ مِنْ يَلِيقُ لِهَذَا الْمَقَامِ ، وَيَصْلِحُ لِقَطْعِ الْحِدَالِ وَالْإِلْحِصَامِ ؛
وَيَعْرِفُ بُلْغَةَ كُلِّ عِلْمٍ فَيُجِيبُ بِلِسَانِهِ ، وَيَحْكُمُ فَلَا يَنْقُصُ حُكْمَهُ غَيْرُهُ لِأَنْحِطَاطِهِ عَنِ
بُلُوغِ مَكَانِهِ ؛ إِلَّا الْبَحْرَ الزَّائِحَ ، وَ ^(١) الَّذِي لَا يُعْلَمُ لِفَضْلِهِ أَوْلُّ وَلَا يُدْرِكُ لِمَدَّاهِ
أَحْرَ ؛ حَبِيرُ الْأَقْمَةِ ، وَعَلَامَةُ الْأَيْمَةِ ؛ وَنَاصِرُ السَّنَةِ وَحَامِيهَا ، وَقَامِعُ الْبِدْعَةِ وَقَامِيهَا ؛ نَجَلُ

(١) بياض بالأصل ولعله : الفاضل أو نحوه .

(٢) أصله وقامتها بالهدم تخففه من قاه كمنه قاه .

شَيْخُ الْإِسْلَامِ ، وَخُلَاصَةُ غُرَرِ الْأَيَّامِ ، جَلالُ الدِّينِ ، بَقِيَّةُ الْمُجْتَهِدِينَ ؛ أَبُو الْفَضْلِ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْبُلْقِينِيُّ الشَّافِعِيُّ ، النَّاطِرُ فِي الْحُكْمِ الْعَزِيزُ بِالْديَارِ الْمُصْرِيَةِ ، وَسَائِرُ
المَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَةِ وَمَا أُضِيفَ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الوَطَائِفِ الدِّينِيَةِ ؛ لَا زَالَتْ فَوَاضِلُ
الْفَضَائِلِ مَعْرُوفَةٌ : فَهُوَ الْعَالِمُ الَّذِي إِذَا قَالَ لَا يُعَارِضُ ، وَالْحَاكِمُ الَّذِي إِذَا حَكَّمَ
لَا يُنَاقِضُ ، وَالْإِمَامُ الَّذِي لَا يَتَخَالَفُ أَجْتِهَادَهُ خَلَّلَ ، وَالْمُنَاطِرُ الَّذِي مَا حَاوَلَ قَطَعَ خَصِيمَ
إِلَّا كَانَ لِسَانُهُ أَمْضَى مِنْ السَّيْفِ إِذَا يُقَالُ : « سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ » :

إِذَا قَالَ بَدُّ الْقَائِلِينَ وَلَمْ يَدَّعِ « لِمُتَمِّسٍ فِي الْقَوْلِ جِدًّا وَلَا هَزْلًا !

إِنْ تَكَلَّمَ فِي الْفِقْهِ فَكَأَنَّمَا بِلِسَانِ « الشَّافِعِيِّ » تَكَلَّمَ ، وَ « الرَّبِيعِ » عَنْهُ يَرُوى
وَ « الْمُزَنِيِّ » مِنْهُ يَتَعَلَّمُ ؛ أَوْ خَاصٌّ فِي أَصُولِ الْفِقْهِ . قَالَ « الْغَزَالِيُّ » : هَذَا هُوَ الْإِمَامُ
بِاتِّفَاقٍ ، وَقَطَعَ السَّيْفُ « الْأَمِيدِيُّ » بِأَنَّهُ الْمُقَدَّمُ فِي هَذَا الْفَنِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ أَوْ جَرَى
فِي التَّفْسِيرِ . قَالَ « الْوَاحِدِيُّ » : هَذَا هُوَ الْعَالِمُ الْأَوْحَدُ ، وَأَعْطَاهُ « أَبُو عَطِيَّةَ »
صَفْقَةً يَدِهِ بِأَن مِثْلَهُ فِي التَّفْسِيرِ لَا يُوجَدُ ؛ وَأَعْتَرَفَ لَهُ « صَاحِبُ الْكَشَافِ » بِالْكَشْفِ
عَنِ الْغَوَامِضِ ، وَقَالَ الْإِمَامُ « نَحْرُ الدِّينِ » : « هَذِهِ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ وَأَسْرَارُ التَّزْوِيلِ »
فَارْتَفَعَ انْخِلَافٌ وَأَنْدَفَعَ الْمُعَارِضُ ؛ أَوْ أَخَذَ فِي الْقِرَآئَاتِ وَالرِّسْمِ أَرْزَى بِأَبِي « عَمْرُو
الدَّانِي » ، وَعَدَا شَأُو « الشَّاطِئِي » فِي « الرَّأْيِيَّةِ » وَتَقَدَّمَ فِي « حِرْزِ الْأَمَانِي » ؛
أَوْ تَحَدَّثَ فِي الْحَدِيثِ شَهِدَ لَهُ « السُّفْيَانَانِ » بِعُلُوِّ الرَّبِّيَّةِ فِي الرَّوَايَةِ ، وَأَعْتَرَفَ لَهُ
« أَبُو مَعِينٍ » بِالتَّبَرُّيزِ وَالتَّقَدُّمِ فِي الدَّرَايَةِ ؛ وَهَتَفَ « الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ » بِذِكْرِهِ
عَلَى الْمَنَابِرِ ، وَقَالَ « أَبُو الصَّلَاحِ » : لِمِثْلِ هَذِهِ الْفَوَائِدِ تَتَعَيَّنُ الرَّحْلَةُ وَفِي تَحْصِيلِهَا
تَتَفَدُّ الْمَخَآبِرُ ؛ أَوْ أَبْدَى فِي أَصُولِ الدِّينِ نَظْرًا تَعَلَّقَ مِنْهُ « أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ » بِأَوْفَى
زَمَامٍ ، وَسَدَّ بَابَ الْكَلَامِ عَلَى الْمُعْتَرِلَةِ حَتَّى يَقُولَ « عَمْرُو بْنُ عَبِيدٍ » وَ « وَأَصِلُ بْنُ

عطاءً : لَيْتَنَا لَمْ نَفْتَحْ بَابًا فِي الْكَلَامِ ؛ أَوْ دَقَّقَ النَّظَرَ فِي الْمَنْطِقِ بِهَرِّ « الْأَبْهَرِيِّ »
 فِي مَنَاطِرِهِ ، وَكَتَبَ « الْكَاتِبِيُّ » عَلَى نَفْسِهِ وَثِيقَةً بِالْعَجَزِ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ ؛ أَوْ أَلَمَ بِالْجَدَلِ
 رَمَى « الْأَرْمَوِيُّ » نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَعَلَ « الْعَمِيدِيُّ » عُمْدَتَهُ فِي آدَابِ الْبَحْثِ
 عَلَيْهِ ؛ أَوْ بَسَطَ فِي اللُّغَةِ لِسَانَهُ أَعْتَرَفَ لَهُ أَبُو « سَيْدَةَ » بِالسِّيَادَةِ ، وَأَقْرَبَ بِالْعَجَزِ لَدَيْهِ
 « الْجَوْهَرِيُّ » وَجَلَسَ « أَبُو فَارِسٍ » بَيْنَ يَدَيْهِ بِمَجْلَسِ الْأَسْتِفَادَةِ ؛ أَوْ نَحَا إِلَى النَّحْوِ
 وَالتَّصْرِيفِ أَرْبَى فِيهِ عَلَى « سَبْيَوِيَّةٍ » ، وَصَرَفَ « الْكِسَائِيُّ » لَهُ عَزْمَهُ فَسَارَ مِنْ
 الْبُعْدِ إِلَيْهِ ؛ أَوْ وَضَعَ أُتْمُودَجًا فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ وَقَفَ عِنْدَهُ « الْجُرْجَانِيُّ » ، وَلَمْ يَتَعَدَّ
 حُدُودَهُ « أَبُو أَبِي الْإِصْبَعِ » وَلَمْ يُجَاوِزْ وَضْعَهُ « الرُّمَائِيُّ » ؛ أَوْ رَوَى أَشْعَارَ الْعَرَبِ أَرْزَى
 « الْأَضْمِيُّ » فِي حِفْظِهِ ، وَفَاقَ « أَبَا عُبَيْدَةَ » فِي كَثْرَةِ رِوَايَتِهِ وَغَزِيرِ لَفِظِهِ ؛ أَوْ تَعَرَّضَ
 لِلْعُرُوضِ وَالْقَوَافِي أَسْتَحَقَّهُمَا عَلَى « الْخَلِيلِ » ، وَقَالَ « الْأَخْفَشُ » عَنْهُ : أَخَذْتُ
 الْمُنْتَدَارَكَ وَأَعْتَرَفَ « الْجَوْهَرِيُّ » بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي هَذَا الْفَنِّ مِثِيلٌ ؛ أَوْ أَصَلَ
 فِي الطَّبِّ أَصْلًا قَالَ « أَبُو سَيْنَا » : هَذَا هُوَ الْقَانُونُ الْمُعْتَبَرُ فِي الْأُصُولِ ، وَأَقْسَمَ
 « الرَّازِيُّ » بِجُحِيِّ الْمَوْتَى إِنْ « يَقْرَأَ » لَوْ سَمِعَهُ لِمَا صَنَّفَ « الْفُصُولُ » ؛ أَوْ جَنَحَ
 إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ فَكَأَنَّهَا طَبِيعٌ عَلَيْهِ ، أَوْ جَدَّبَ لَهُ ذَلِكَ الْعِلْمَ بِزِمَامٍ
 فَانْقَادَ إِلَيْهِ ؛ أَوْ سَلَكَ فِي عُلُومِ الْمَهَنْدِسَةِ طَرِيقًا لِقَالَ « أَوْفَلِيدِسَ » : هَذَا هُوَ الْخَطُّ
 الْمُسْتَقِيمُ ، وَأَعْرَضَ « أَبُو الْهَيْثَمِ » عَنْ حَلِّ الشُّكُوكِ وَوَلَّى وَهُوَ كَظِيمٌ ، وَحَمِدَ
 « الْمُؤْتَمِنُ بْنُ هُوَيْدٍ » عَدَمَ إِكْجَالِ كِتَابِهِ « الْأَسْتِكْمَالُ » وَقَالَ : عَرَفْتُ قَدْرَ نَفْسِي : وَفَوْقَ
 كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ؛ أَوْ عَرَّجَ عَلَى عُلُومِ الْهَيْئَةِ لِأَعْتَرَفَ « أَبُو الرِّيحَانِ الْبَيْرُونِيُّ » أَنَّهُ الْأَعْجُوبَةُ
 النَّادِرَةُ ، وَقَالَ أَبُو أَلْفَلَحٍ : هَذَا الْعَالَمُ قُطْبُ هَذِهِ الدَّائِرَةِ ، أَوْ صَرَفَ إِلَى عِلْمِ الْحِسَابِ نَظَرَهُ
 لِقَالَ « السَّمَوِيُّ بْنُ يَحْيَى » لَقَدْ أَحْيَا هَذَا الْفَنَّ الدَّارِسَ ، وَنَادَى « أَبُو بَجَلِ الْمَوْصِلِيُّ »
 قَدْ أَنْجَلْتُ عَنْ هَذَا الْعِلْمِ غَيَابَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ عَمَّهُ لِعَامِيهِ وَلَا عُمَّةً عَلَى مُمَارِسِ .

وَقَدْ وَجَدَتْ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ • فَإِنَّ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ !

وكيف لا تأتي إليه العلوم مقاليدها، وتصل به الفضائل أسانيدها؛ وهو ابن شيخ الإسلام وإمامه، ووَاحِدُ الدَّهْرِ وَعَلَامِيهِ؛ وَجَامِعُ الْعُلُومِ الْمُنْفَرِدِ، وَمَنْ حَقَّقَ وُجُودَهُ فِي أَوَانِ الْأَعْصَارِ أَنْ الزَّمَانَ لَا يَخْلُو مِنْ مُجْتَهِدٍ؛ وَمَنْ لَمْ يَزَلْ مَوْضِعَ الْأَوْضَاعِ الْمَعْتَبَرَةِ عَلَيْهِ تَحْمُولًا، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْسِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ مُضَاهِيًا لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى رَأْسِ الْمِائَةِ الْأُولَى؛ فَالْحَنَاصِرُ عَلَيْهِ وَعَلَى وَلَدِهِ تُعْتَقَدُ، وَلَا غَرَوَ إِنْ قَامَ مُشَدُّهُمَا فَانْتَشَدَ :

إِنَّ الْمِائَةَ الْأُولَى عَلَى رَأْسِهَا أَتَى • لَهَا عُمَرُ النَّابِي لَذَا الدِّينِ صَائِنَهُ،
وَوَالِي رِجَالٍ بَعْدَ ذَلِكَ كَمِثْلِهِ • فَهَا عُمَرُ وَاقِيَ عَلَى رَأْسِ تَامَنَهُ
يُظَاهِرُهُ تَجَلُّ سَعِيدٌ غَدَّتْ بِهِ • مَعَاقِلُ عِلْمٍ فِي ذُرَا الْحَقِّ آمِنَهُ .
إِذَا شَيْخُ إِسْلَامٍ أَضَاءَ سِرَاجَهُ • رَأَيْتَ جَلَالًا مِنْ سَنَا الْفَضْلِ قَارَنَهُ !
فَلَا يَعْدَمُ الْإِسْلَامُ جَمْعَ عُلَاهُمَا • وَلَنْ يَبْرِحَا لِلدِّينِ دَابَا مِيَامِنَهُ !

فقال علم الأخلاق : أصبت سواء الثغرة وجئت بالرأي الأكل، وعرفت من أين تؤكل الكتف فطبقت المفصل بالمفصل؛ إلا أن من محاسن الأخلاق، ومعالم الإرفاق؛ أن تعودوا بفضلكم، وترجعوا بمعروفكم وبرؤمكم؛ إلى من جرى بكم في التفاجر مجرى الإنصاف، وبسط لسان كلمه بما أشتمل عليه كل منكم من جميل الأوصاف؛ ثم كان من شأنه أن وصل بالاتفاق والائتنام حبلكم، وجمع بالمحلل الكريم بعد التباعد شملكم؛ وذكركم بحسب المصافاة أصل الوداد القديم، وتلا بلسان الألفة فيكم :

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) • بَانَ يَنْصِبُ كُلُّ مَنْكُمْ لَهُ شَفِيعًا إِلَى هَذَا السَّيِّدِ الْجَلِيلِ ، وَيَكُونُ لَهُ وَسِيلَةً إِلَى هَذَا الْإِمَامِ الْحَقِيلِ ؛ أَنْ يَصْرِفَ إِلَيْهِ وَجْهَ الْعِنَايَةِ ، وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ بَعَيْنِ الْإِقْبَالِ وَالرَّعَايَةِ ؛ لِيَعِزَّ فِي النَّاسِ جَانِبُهُ ، وَيَطْلُعَ

في أفق السعد بعد الأقول غار به ؛ ويبلغ من منتهى أمليه ماله جهده ، ويسعد
بالنظر السعيد جده فتمد قيل : « من وقع عليه نظر السعيد سعد » .

على أنه - امتع الله الإسلام ببقائه وبقاء والده ، وجمع بينهما في دار الكرامة
كما جمع لها بين طاريف المجد وتالده ؛ - قد فتح له من الترقى أول باب ، ولا شك
أن نظرة منه إليه بعد ذلك ترقيه إلى السحاب .

فأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه • وأقول الغيث قطر ثم ينسكب !

فقال علم التاريخ : أهبطوا مضرا فإن لكم ما سألتهم ، وقرؤا عينا إلى القصد
الجليل وصلتم ، وعلى غاية الأمل - والله الحمد - حصلتم ؛ فقد بلوت الأوائل والأواخر ،
وخبرت حال المتقدم والمعاصر ؛ فلم أر فيمن مضى وغبر ، وشاع ذكره واشتهر ؛ من
ذوى المراتب العلية ، والمناصب السنية ؛ من يساوى هذا السيد الجليل فضلا ،
أو يدانيه في المعروف قولاً وفعلًا ؛ قد ليس شرفاً لا تطمع الأيام في خالعه ، ولا يتطلع
الزمان إلى نزعته ؛ وانهى إليه المجد فوقف ، وعرف الكرم مكانه فأنجاز إليه وعطف ؛
وحلت الرأسه بفنائيه فاستغنت به عن السوى ، وأناخت السيادة بأفنائيه فالتقت
عصاها واستقرت بها النوى ؛ فقضرت عنه خطا من يجاريه ، وضاق عنه باع من
ينأويه ؛ واجتمعت الألسن على تقريره فمدح بكل لسان ، وتوافق القلوب على
حبه فكان له بكل قلب مكان :

ولم يحل من إحسانه لفظ محبر ، • ولم يحل من تقريره بطن دقير !

فهو الحري بأن يكتب بأقلام الذهب جميل مناقبه ، وأن يرقم على صفحات
الايام حميد مطالبه ؛ فلا يذهب على ممر الزمان ذكرها ، ولا يزول على توالي
الدهور نحرها .

ولما تمَّ للعلوم هذا الاجتماع الذي قَارَن السَّعْدُ جَلَالَهُ ، وَتَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الْفَضْلِ
 خِلَالَهُ ؛ أَقْبَلُوا بِوَجْهِهِمْ عَلَى الشُّعْرِ مُعَاتِبِينَ ، وَبِمَا يَلْزِمُهُ مِنْ تَقْرِيبِ هَذَا الْحَبْرِ
 وَمَدْحِهِ مُطَالِبِينَ ؛ وَقَالُوا : قَدْ أَتَى النَّثْرُ مِنْ مَدْحِهِ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُوفِّ بِجَلِيلِ
 قَدْرِهِ وَرَفِيعِ مَكَاتِبِهِ ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَنْحَتِمَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ بِأَبْيَاتِ الْمَقَامِ لِاتِّمَامِهِ ، وَلِمَا نَحْنُ
 فِيهِ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْوَاقِعَةِ مُطَابِقَهُ ؛ قَائِمَةٌ مِنْ مَدْحِهِ بِالْوَاجِبِ ، سَالِكَةٌ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ
 الْمَسَالِكِ وَأَجْمَلَ الْمَذَاهِبِ ؛ لِتَكْمُلَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ نَظْمًا وَنَثْرًا ، وَتَفْتَنَ فِي صِنَاعَةِ الْأَدَبِ
 خَطَابَةً وَشِعْرًا ؛ فَقَالَ : سَمِعًا وَطَاعَةً ، وَأَسْتِكَانَةً وَضَرَاعَةً ؛ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَامَ بِحِجْلٍ ،
 وَأَنْشَدَ مَرَّيْحَلًا :

بُشْرَا كُمْ مَعَايِرَ الْعُلُومِ أَنْ * جُمِعَتْ بَصْدِرِ حَبْرٍ كَامِلِ !
 فُنُونُهُ لَمْ تَجْتَمِعْ لِعَالِمِ * وَفَضْلُهُ لَمْ يَكْتَمِلْ لِفَاضِلِ !
 يَشْفِي الصُّدُورَ إِنْ غَدَا مُنَاطِرًا ، * وَبِحُجَّتِهِ قَرِينَةُ الْحَافِلِ !
 كَمْ تَعَمَّرَتْ دَرُوسُهُ مِنْ دَارِسِ ، * وَزَيَّنَتْ بِحُلِيِّهَا مِنْ حَاطِلِ !
 وَأَوْصَحَتْ أَقْوَالُهُ مِنْ مُشْكِلِ * لَمَّا أَتَى بِأَوْضَحِ الدَّلَائِلِ !
 وَكَمْ غَدَتْ آرَآؤُهُ حَمِيدَةً ، * وَنَبَهَتْ بِجِدِّهَا مِنْ خَامِلِ .
 وَحُكْمُهُ فَكَّكُمْ أَقَالَ عَثْرَةَ * وَجُودُهُ قَفَّوَقَ قَصْدِ الْآمِلِ !
 هَذَا : وَقَدْ فَاقَ الْوَرَى رَاسَةً * مَحْفُوفَةً بِالطَّيْفِ الشَّمَائِلِ !
 مَنْ ذَا يَرُومُ أَنْ يَنَالَ شَأُوهُ ؟ * أَتَى لَهُ بِأَمْثَلِ الْأَمْثَلِ ؟
 مَوْلَى عَلَا فَوْقَ السَّمَاءِ رُبَّةً * قَدْ زُيِّنَتْ بِأَفْضَلِ الْقَوَاضِلِ !
 فَمَا لَهُ فِي فَضْلِهِ مِنْ مُشْبِهِ ، * وَمَا لَبَّحِرِ جُودِهِ مِنْ سَاحِلِ !
 حَاشَى لِرَاجٍ فَضْلَهُ أَنْ يَنْتَنِي * صِفْرَ الْيَدَيْنِ أَوْ مُمْنَى الْآجِلِ !

قلت : ولم أر من تعرّض للمُفَاخَرَة بين العلوم سوى القاضي الرّشيد أبي الحسين ابن الزبير في مقالته المقدم ذكرها على أنّها لم تكن جارية على هذا النمط ، ولا مرتبة على هذا الترتيب ، مع الاقتصار فيها على علوم قليلة ، أشار إلى المفاضلة بينها على ما تقدم ذكره . ولكن الله تعالى قد هدى بفضلها إلى وجوه الترجيح التي يربح بها كل علم على خصمه ، ويفلج به على غيره ، والمُنصف يعرف لذلك حقه . والذي أعانني على ذلك جلاله قدر من صنفت له وعلورتبه ، وآتساع فضله ، وكثرة علومه ، وتعداد فنونه ، إذ صفات المددوح تهدي المادح وتُرشدُه .



ومنها المفاخرة بين السيف والقلم ، وقد أكثر الناس منها : فمن عالٍ وهابط ، وصاعد وساقط .

وهذه رسالة في المفاخرة بين السيف والقلم ، أنشأها للقرّ الزيّني أبي يزيد الدوادار الظاهري ، في شهور سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، وسميتها : "حلية الفضل وزينة الكرم ، في المفاخرة بين السيف والقلم" وهي :

الحمد لله الذي أعزّ السيف وشرف القلم ، وأقردهما برتب العلياء فقرن لهما بين المجيد والكرم ، وساوى بينهما في القسمة فهذا للحكم وهذا للحكم .

أحمده على أن جمع بحير أمير بعد التفرق شملهما ، ووصل بأعزّ مليك بعد التقاطع حبّلهما ، وأزغب إليه بشكر يكاثر النجوم في عديدها ، ويكون للنعمة على ممر الزمان أباً يزيد لها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ياتم الإخلاص بمدّهما ، ولا يتجو من سيفها إلا من أجاب داعيتها وأقرّبها ، وأن محمداً عبده ورسوله

(١) لم تذكر هذه المقالة فيما مضى فلعلها سقطت من قلم النساخ .

الذي حُصَّ بأشرف المناقب وأفضل المآثر، وأستأثر بالسؤدد في الدارين لحاز أنحر المعالي ونال أعلى المفانير؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قامت بنصرتهم دولة الإسلام فسمت بهم على سائر الدول، وكرعت في دماء الكفر سيوفهم فعادت بخلوq النصر لاجمرة الخجل؛ صلاة ينقضى دون أنقضائها تعاقب الأيام، وتكمل السنة الأقاليم عن وصفها ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام .

وبعد، فإنه ما تقارب اثنين في الرتبة إلا تحاسدا، ولا اجتمعا في مقام رفعة إلا أزدحما على المجيد وتواردًا؛ ورأى كل منهما أن يكون هو الفائز بالفدح المعلى، وأن يكون مفرقه هو المتوجح وجيده هو المحلى؛ وأدعى كل منهما أن جواده هو السابق في حلبة السباق، والفائز بقصب السبق بالاتفاق؛ وأن نجمة هو الطالع الذي لا ياقل، وسؤدده هو الحاكم الذي لا يعزل؛ وأن المسك دون غيره، والبحر لا ينجى نقطة في غديره؛ والذر لا يصلح له صدفا، ونفيس الجوهر لا يعادله شرفا؛ وأن منابر المعالي موقوفة على قدمه، ومجامر المفانير فاحمة بنشر كرمه .

ولما كان السيف والقلم قد تدانيا في المجيد وتقاربا، وأخذتا بطرفي الشرف وتجاذبا؛ إذ كانا قطينين تدور عليهما دوائر الكمال، وسعدتين يجتمعان في دائرة الاعتدال؛ وتجبين يهديان إلى المعالي، ومضباحين يستضاء بهما في حنادس اللبالي؛ وقاعدتين تبنى الدول على أركانها، وتجتريين يجتنى العزم من أغصانها؛ جر كل منهما ثوب الخيلاء نغرا فشي وتجتتر، وأسبل رداء العجب تيمها فما تخجل ولا تتعثر؛ وآتسع له المجال في الدعوى بجال، وطاوعته يد المقال فقال وطال؛ وتطرقتا إليهما عقارب الشحنة ودبت، وتوقدت بينهما نار المناقسة وشبت؛ وأظهر كل منهما ما كان يخفيه فكتب وأمل، وباح بما يكتنه صدره والمؤمن لا يكون حبل؛ وبدأ القلم فتكلم، ومضى في الكلام بصدق عزم فما توقف ولا تلثم؛ فقال :

باسم الله تعالى أستفتح ، وبحمده أتمنن وأستنجح ؛ إذ من شأنى الكفاية ، ومن
 فى الخطابه ؛ وكل أمرى ذى بال لا يبدأ فيه باسم الله تعالى فهو أجذم ، وكل كلام
 لا يفتح بحمده فأساسه غير محكم ورداؤه غير معلم ؛ والعاقل من أتى الأمر من فصح ،
 وأخذ الحديث بنصه ؛ والحق أحق أن يتبع ، والباطل أجدر أن يترك فلا يصغى إليه
 ولا يستمع ؛ إني لأقول مخلوق بالنص الثابت والمجبة القاطعه ، والمستحق لفضل
 السبق من غير منازعه ؛ أقسم الله تعالى بي فى كتابه ، وشرفني بالذكر فى كلامه لرسوله
 وخطابه ، فقال جل من قائل : ﴿ تَوَالَّقَ وَوَأَسْطَرُونِ مَا أَنْتَ بِبِعِزَّةِ رَبِّكَ
 يُخْتَنُونَ ﴾ . وقال جلت قدرته : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
 مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . فكان لى من الفضل وأفر القسمة ، وخصصت بكالم المعرفة بجمعت
 شوارد العلوم وكنت قيم الحكمة .

فقال السيف : بسم الله والله أكبر : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ . لكل باغ
 مضرع ، وللصائل بالعدوان مهلك لا ينجو منه ولا يتجبع ؛ وفتح باب الشرىغلق به ،
 وقادح زند الحرب يحرق بلهيه ؛ أقول بموجب أسبندلاك ، وأوجب الاعتراض
 عليك فى مقالك :

نعم أقسم الله تعالى بالقلم ولست بذلك ، وكان أول مخلوق ولست المعنى بما
 هنالك ؛ إن ذلك لمعنى يكمل فهمك عن إدراكه ، ويضلل تجمك أن يسرى فى أفلاكه ؛
 وأنت وإن ذكرت فى التنزيل ، وتمسكت من الأمتنان بك فى قوله : ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾
 بشبهة التفضيل ؛ فقد حرم الله تعالى تعلم خطك على رسوله ، وحرمك من مس
 أنامله الشريفة ما يؤسى على قومه ويسر بحصوله ؛ لكنتى قد نلت من هذه الرتبة
 أسنى المقاصد ، فشهدت معه من الوقائع مالم تشهد ؛ وحلانى من كفه شرقالانزول

حَلِيهِ أَبَدًا، وَوُتُّ بِنَصْرِهِ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ : وَسَلَّ حُنَيْنًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أَحُدًا !!! ؛
ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ جِنْسِي الَّذِي أَنَا نَوْعُهُ الْأَكْبَرُ ، وَنَبَّهَ عَلَيَّ مَا فِيهِ مِنَ
الْمَنَافِعِ الَّتِي هِيَ مِنَ نَفْعِكَ أَعْمٌ وَأَشْهَرُ؛ وَمَا اجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ عَظِيمِي الشَّدَةِ وَالْبَاسِ ،
فَقَالَ تَقَدَّسَتْ عَظْمَتُهُ : ((وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) . عَلَيَّ أَنْكَ
لَوْ أَعْتَبَرْتَ جِنْسِي الْقَصَبِ وَالْحَدِيدِ ، وَعَرَفْتَ الْكَيْلَ مِنْهُمَا وَالْحَلِيدَ ؛ لَنَحَقَّقْتَ
تَسْلُطَ الْحَدِيدِ عَلَيْكَ قَطًّا وَبَرًّا ، وَتَحَكَّمَ فِيكَ أَمْرًا وَنَهْيًا .

فَقَالَ الْقَلَمُ : فَرَرْتَ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَعَدَلْتَهَا ، وَعَوَّلْتَ عَلَى الطَّبِيعَةِ وَجَهَلْتَهَا ؛ فَانْتَحَرْتَ
بِحَيْفِكَ وَعُدْوَانِكَ ، وَأَعْتَمَدْتَ فِي الْفَضْلِ عَلَى تَعَدِّيكَ وَطُغْيَانِكَ ؛ فَمَلْتَ إِلَى الظُّلْمِ
الَّذِي هُوَ إِلَيْكَ أَقْرَبُ ، وَغَلَبَ عَلَيْكَ طَبْعُكَ فِي الْخَوَرِ : وَ «الطَّبْعُ أَغْلَبُ» ؛ فَلَا فِتْنَةَ
إِلَّا وَأَنْتَ أَسَاسُهَا ، وَلَا غَاةَ إِلَّا وَأَنْتَ رَأْسُهَا ؛ وَلَا شَرًّا إِلَّا وَأَنْتَ فَاتِحُ بَابِهِ ، وَلَا حَرْبَ
إِلَّا وَأَنْتَ وَاصِلُ أَسْبَابِهِ ؛ تُؤَكِّدُ مَوَاقِعَ الْخَفَاءِ ، وَتُتَكَدَّرُ أَوْقَاتُ الصَّفَاءِ ؛ وَتُؤَثِّرُ
الْقَسَاوَةَ ، وَتُؤَثِّرُ الْعَدَاوَةَ ؛ أَمَا أَنَا فَالْحَقُّ مَذْهَبِي ، وَالصِّدْقُ مَرْكَبِي ؛ وَالْعَدْلُ سَيْمِي ،
وَحِلْيَةُ الْفَضْلِ زِينَتِي ؛ إِنْ حَكَمْتُ أَقْسَطْتُ ، وَإِنْ أَسْتَحْفِظْتُ حَفِظْتُ وَمَا فَرَطْتُ ؛
لَا أَفْشِي سِرًّا يَرِيدُ صَاحِبُهُ كَتْمَهُ ، وَلَا أَكْتُمُ عَلِيمًا يَبْتغِي مُتَعَلِّمُهُ عِلْمَهُ ؛ مَعَ عَمُومِ
الْحَاجَةِ إِلَى ، وَالْإِفْتِقَارِ إِلَى عِلْمِي وَالْإِكْتِسَابِ مِمَّا لَدَيْ ، أُدِيرُ فِي الْقِرطَاسِ كَاسَاتِ
نَحْمَرِي فَأُزْرِي بِالْمَزَامِيرِ وَأَهْزَأُ بِالْمَزَاهِرِ ، وَأَنْفُثُ فِيهِ سَحَرًا بَيَانِي فَأَلْعَبُ بِالْأَلْبَابِ
وَأَسْتَجَلِبُ الْخَوَاطِرَ ، وَأُنْفِذُ جِيُوشَ سُطُورِي عَلَى بُعْدِ فَأَهْزِمُ الْعَسَاكِرَ :

فَلَكُمْ يَفْلُ الْجَيْشُ وَهُوَ عَرْمَرَمٌ * وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ!

فَقَالَ السَّيْفُ : أَطَلَّتِ الْعَيْنُ ، وَجِثَّتْ بِالْحَيْبَةِ ؛ وَسَكَتَ الْفَأُ ، وَنَطَقَتْ خَلْفًا .

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ * فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجَدِّ وَاللَّيْبِ

إِنَّ نِجَادِي لِحِلِيَّةٍ لِّلْعَوَاتِقِ ، وَمُصَاحِبَتِي آمِنَةٌ مِنَ الْبَوَاقِ ؛ مَا تَقَلَّدَنِي عَاتِقٌ إِلَّا بَاتَ
عَزِيْزًا ، وَلَا تَوَسَّدَنِي سَاعِدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ حِرْزًا حَرِيْزًا ؛ أَمْرِي الْمَطَاعُ وَقَوْلِي الْمُسْتَمَعُ ،
وَرَأْيِي الْمَصُوْبُ وَحُكْمِي الْمُسْتَبَعُ ؛ لَمْ أَزَلْ لِلنَّصْرِ مِفْتَاحًا ، وَلِلظَّلَامِ مِصْبَاحًا ؛ وَلِلْعِزِّ قَائِدًا ،
وَلِلْعُدَاةِ دَائِدًا ؛ فَأَنَّى لَكَ بِمَسَاجِلَتِي ، وَمَقَاوِمَتِي فِي الْفَخْرِ وَمُنَافَرَتِي ؟ ؛ مَعَ عُرِّي جِسْمِي
وَنَحَافَةِ بَدَنِي ، وَإِسْرَاحِ تَلَافِكِ وَقِصْرِ زَمَنِي ، وَبُخْسِ أَيْمَانِكَ عَلَى بُعْدِ وَطَنِي ،
وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ جَرِي دَمْعِكَ ، وَضَيْقِ ذَرْعِكَ ، وَتَفْرِقِ جَمْعِكَ ؛ وَقِصْرِ بَاعِكَ ،
وَقِلَّةِ أَتْبَاعِكَ .

فَقَالَ الْقَلَمُ : مَهَلًا أَيُّهَا الْمَسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ أَيُّهَا الْمَغَالِبُ وَالْمُنَاصِلُ ؛ لَقَدْ
أَخْشَتَ مَقَالًا ، وَتَمَقَّتْ مَحَالًا ؛ فَفَادَرْتِكَ سُبُلُ الْإِصَابَةِ ، وَخَرَجْتَ عَنِ جَادَةِ الْإِنَابَةِ ،
وَسُوَّتَ تَمَعًا فَاسَاتُ جَابَهُ ؛ إِنِّي لِمَبَارِكِ الطَّلَعَةِ وَسَمِيحِهَا ، شَرِيْفِ النَّفْسِ كَرِيْمِهَا ؛
أَخَذْتُ بِالْفَضَائِلِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا ، مُسْتَوِيْفٌ لِّلْمَادِحِ بِسَائِرِ صِفَاتِهَا ؛ فَطَائِرِي مَيْمُونُ ،
وَعُوْلِي مَأْمُونُ ، وَعَطَائِي غَيْرُ مَمْنُونُ ؛ أَصْلُ وَتَقَطَّعُ ، وَأُعْطِي وَتَمْنَعُ ، وَتُفَرِّقُ وَاجْتَمَعُ ؛
وَإِنْ أَزِيدْرَأَكَ بِي مِنَ الْكِبْرِ الْمُنْهَبِيِّ عَنْهُ ، وَغَضَّكَ عَنِّي مِنَ الْعُجْبِ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ ؛
وَمِنْ حَقَّرَ شَيْئًا قَتَلَهُ ، وَمَنْ أَسْتَهَانَ بِفَاضِلٍ فَضَلَّهُ ؛ وَإِنِّي وَإِنْ صَغُرَ حَرْمِي فَإِنِّي لَكَبِيرُ
الْفِعَالِ ، وَإِنْ نَحِفَ بَدَنِي فَإِنِّي لَشَدِيدُ الْبَاسِ عِنْدَ التَّرَالِ ؛ وَإِنْ عَرِيَ جِسْمِي فَكَمْ
كَسَوْتُ عَارِيَا ، وَإِنْ جَرَى دَمْعِي فَكَمْ أَرَوَيْتُ ظَامِيَا ؛ وَإِنْ ضَاقَ ذَرْعِي فَإِنِّي بِسَعَةِ
الْمَجَالِ مَشْهُورُ ، وَإِنْ قَصُرَ بَاعِي فَكَمْ أَطَلَقْتُ أُسِيرًا وَأَنَا فِي سِجْنِ الدَّوَاةِ مَأْسُورُ ؛ إِذَا
أَمْتَطَيْتُ طَرْسِي ، وَتَدَرَعْتُ نَفْسِي ، وَتَقَلَّدْتُ نَحْمِي ، وَجَاشَتْ عَلَى الْأَعْدَاءِ نَفْسِي :-

رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنُهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ * ضَنْيَ وَسَمِينًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلٌ !

أَنْسَيْتَ إِذْ أَنْتَ فِي الْمَعْدِنِ تُرَابٌ تُدَاسُ بِالْأَقْدَامِ ؟ ، وَتَنْسِفُكَ الرِّيحُ وَتُزْرِئِي بِكَ
الْأَيَّامَ ؟ ؛ ثُمَّ صَرْتَ إِلَى الْقَيْنِ تَقَعْدُ لَكَ السَّنَادِينَ بِالْمِرَاصِدِ ، وَتَدْمَغُكَ الْمَقَامِعُ وَتَسْطُو

بك المبارد ؛ ثم لولا صقالك لأذهبك الحرب وأكلك الصدى ، مع قلة صبرك على
المطر والندى .

فقال السيف : إنا لله ! لقد استأمدت الثعالب ، واستنشرت البغاث فعدت
العصفور نفسه من طير الواجب ؛ وجاء الغراب إلى البازي يهدده ، ورجع ابن آوى
على الأسد يترده ؛ فلو عرفت قدر نفسك ، ولزمت في السكينة طريق أبناء
جنسك ؛ ووقفت عند ما حدثك ، وذكرت عجزك وكسلك ؛ لكان أجدربك ،
وأحمد لعاقبتك ، وأليق بأدبك .

إن الملوك لتعدني لمهماتي ، وتسنجدني في مهماتي ؛ وتعالى في نسبي ، وتعالى
في حسبي ؛ وتنافس في فنيقي وتحاسد ، وتجعلني عرضة لأيمانها فتعاقد بالحلف
على وتعاهد ؛ وتدخرنى في خزائنها أدخار الأغلاق ، وتعدني أنفس ذخايرها على
الإطلاق ؛ فتكلمني الجواهر ، وتعلمني العقود فأظهر في أحسن المظاهر ؛ أبرز
للشجعان خدى الأسيل فأنسيهم الخدود ذوات السوائف ، وأزهو بقدى فاسلهم
هيف القدود مع لين المعاطف ؛ وأوهم الظمان من قرب أن بأنهارى ماء يسيل ،
وأخيل للقرور من بعد أنى جدوة نار فيطلبنى على المدى الطويل ؛ ويخالي متوقع
الغيث برقاً لامعا ، ويظننى الجائر فى الشرق نجماً طالعا ؛ فالشمس من شعاعى فى نجل ،
والليل من ضوى فى وجل ، وما أسرع فى طلب نار إلا قيسل : « قات ماذبح »
و « سبق السيف العدل » .

فقال القلم : برق لمن لاعرفك ، وروج على غير الجوهري صدقك ؛ فما أنت
من بزى ولا عطري ، ولست بمساو حدك القاطع بقلامه ظفري ؛ إن برقك خللب ،
وإن ريحك لأزيب ؛ وإن ماءك لجامد ، وإن نارك لخامد ؛ ومن أدعى ما ليس له
فقد باء بالفجور ، ومن تشعب بما لم يعط فهو كلابس ثوبى زور .

وَمَنْ قَالَ : إِنَّ النَّجْمَ أَكْبَرُهَا السَّمَى * بغيرِ دَلِيلٍ كَذَّبَتْهُ ذُكَاةُ !

أنا جُدَيْلُهَا الْمُحَكِّكُ ، وَعُدَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ ، وَكَرِيمُهَا الْمُبَجَّلُ وَعَالِمُهَا الْمُهْدَّبُ ؛ يَخْتَلِفُ حَالِي فِي الْأَفْعَالِ السَّنِيَّةِ بِاخْتِلَافِ الْأَعْرَاضِ ، وَأَمْتِي مَعَ الْمَقَاصِدِ الشَّرِيفَةِ بِحَسَبِ الْأَعْرَاضِ ؛ وَأَتْرَبِيَا بِكُلِّ زِيٍّ جَمِيلٍ ، فَأَنْزَلُ فِي كُلِّ حَيٍّ وَأَسِيرُ فِي كُلِّ قَبِيلٍ ؛ فَتَارَةً أَرَى إِمَامًا عَالِمًا ، وَتَارَةً لُدْرَ الْكَلَامِ نَائِرًا وَأَنْحَرِي لِعُقُودِ الشَّعْرِ نَاطِلًا ؛ وَطَوْرًا تُلْفِنِي جَوَادًا سَابِقًا ، وَمَرَّةً تَجِدُنِي رُحْمًا طَاعِنًا وَسَهْمًا رَاشِقًا ؛ وَأَوْنَةً تَخَالِنِي نَجْمًا مُشْرِقًا ، وَحِينًا تَحْسِبُنِي أَفْعُوَانًا مُطْرِفًا ؛ قَدْ فُقْتُ الشَّبَابَةَ فِي الطَّرَبِ ، وَبَرَزْتُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ مَعْنَى وَإِنْ جَمَعَ بَيْنَنَا جِنْسُ الْقَصَبِ ؛ فَكَانَتْ لِلْأَغَانِي ، وَكُنْتُ لِلْعَانِي ؛ وَجَاءَتْ بِغَرِيبِ النَّعْمِ ، وَجِئْتُ بِبَيْدِيعِ الْحِكْمِ ؛ وَلَعِبْتُ بِالْأَسْمَاعِ طَرَبًا ، وَوَلَعْتُ بِالْأَلْبَابِ فَأَتَّجِدْتُ لَدَهْرِهَا مِمَّا عَرَاهَا عَجَبًا .

فَقَالَ السَّيْفُ : ذَكَرْتَنِي الطَّمَنُ وَكُنْتُ نَاسِيَا ، وَطَلَبْتَ التَّكْثُرَ فَازْدَدْتَ قَلَّةً وَعُدْتَ خَاسِيَا ؛ فَكُنْتَ كَطَالِبِ الصَّيْدِ فِي عَرِيْسَةِ الْأَسَدِ إِنْ لَقِيَهِ أَهْلَكَ ، وَخَالَفْتَ النَّصَّ فَالْقَيْتَ بِيَدَيْكَ إِلَى التَّهْلُوكِ ؛ فَاقْتَنَعْتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ، وَعُدَّ الْهَزِيمَةَ مَعَ السَّلَامَةِ مِنْ أَرْبَاحِ الْأَكْسَابِ ؛ فَلَسْتَ مِمَّنْ يَسْقُ غُبَارِي ، وَلَا يُقَابِلُ فِي الْهَيْجَاءِ ضَرَمِي وَلَا يَصْطَلِي بِنَارِي ؛ فَكَمْ مِنْ بَطَلٍ أَبْطَلَتْ حِرَاكَهُ ، وَكَمْ مِنْ شُجَاعٍ عَجَلَتْ هَلَاكَهُ ؛ وَكَمْ صِنْدِيدٍ أَرْقَتْ دَمَهُ ، وَكَمْ نَابِتِ الْجِبَالِ زَلْزَلَتْ قَدَمَهُ .

وَأَرَادَ الْقَلَمُ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْكَلَامِ ، وَيَرْجِعَ إِلَى الْجِدَالِ وَالْحِصَامِ ؛ فَغَلَبَ عَلَيْهِ رِقَّةٌ طَبِعَهُ وَحَسُنُ مَوَارِدِهِ ، وَسَلَّاسَةٌ قِيَادِهِ وَجَمِيلٌ مَقَاصِدِهِ ؛ فَسَالَ إِلَى الصُّلْحِ وَجَنَّحَ إِلَى السَّلْمِ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِ وَتَمَسَّكَ بِالْحِلْمِ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَى السَّيْفِ بِقَلْبِ صَافٍ ، وَلِسَانِ رَطْبٍ غَيْرِ جَافٍ ؛ فَقَالَ : قَدْ طَالَتْ بَيْنَنَا الْمُجَادَلَةُ ، وَكَثُرَتْ الْمُرَاجَعَةُ وَالْمُقَاوَلَةُ ؛

مع ما بيننا من قرابة الشرف ، وأخذ كل منا من الفضل بطرف ؛ فنحن في الكرم شقيقان ، وفي المجد رفيقان ؛ لا يستقل أحدنا بنفسه ، ولا يأنس بغير صاحبه وإن كان من غير جنسه ؛ وقد حلت الدهر أشطره ، وعلمت أصفاه وأكدره ؛ وقلبت ظهرها وبطنها ، وجبت فيا فيه سهلا وحزنا ؛ وإن معادة الرقيق ، ومباينة الشقيق ؛ توجب شماتة العدو وتعم الصديق ؛ فهل لك أن تعقد للصلح عقدا لا يتعدى حده ، ولا يحل على طول الزمان عقده ؟ ؛ لنكون أبدا متالفين ، وعلى السراء والضراء متصاحبين ؛ حتى لا يضرب بنديمي جديمة مع أصطحابنا مثل ، ولا يتشبه بنا الفرقدان إلا بآءا بالخطل .

ولست بمستيق أخا لا تأمسه • على شعث ، أي الرجال المهذب ؟

فقال السيف : لقد رأيت صوابا ، ورفعت عن وجه المحجة نقابا ؛ وسريت أحسن مسرى وسرت أجمل سير ، وصحبت التوفيق فأشرت بالصلح ؛ والصلح خير .

وقد يجمع الله الشيتين بعد ما • يظنان كل الظن أن لا تلاقيا !

ثم قال : لا بد من حكم يكون الصلح على يديه ، وحاكم يرجع في ذلك إليه ؛ لنحظى بزيادة الشرف ، ونظفر من كمال الرقعة بعرف من فوقها عرف ؛ ولسنا بفائزين بطلبتنا ، وظافرين ببغيتنا ؛ إلا لدى السيد الأكل ، والمالك الأفضل ؛ الماجد المرى ، والبطل الكمي ؛ والبحر الخضم ، والغيث الأعم ؛ مولى المعالي ومولى النعم ، وممتطي جواد العز ورافع أعلام الكرم ؛ جامع أشنات الفضائل ومالك زمامها ، وضابط أمر الدولة الظاهرية وحافظ نظامها ؛ المقر الكريم ، العالی ، المولوى ، الزينى ، أبو يزيد الدوادار الظاهرى ؛ ضاعف الله تعالى حسناته المتكاثرة ، وزاده رفعة في الدارين ليجمع له الارتقاء بين منازل الدنيا والآخرة ؛ فهو قطب

المملكة الذي عليه تدور، وفارسها الأروع وأسدّها المصّور؛ وبطلها السّميدع وليّتها
الشهير، وأبو عدّرتها حقاً من غير نكحٍ وابنٌ يجديتها السّاقطة منه على الخبير؛ ومعقلها
الأمّنع وحرزها الحصين، وعقدّها الأنفس وجوهرها الثمين؛ وتلاذدّها العليم
بأحوالها، والجدير بمعرفة أقوالها وأفعالها؛ وترجمانها المتكلم بلسانها، وعالمها المتفنّن
في أفنانها؛ وطبيبها العارف بطبها، ومنجّدها الكاشف لكرّها .

هذا : وإنّه لسالك أمرنا ، ورافع قدرنا ؛ والصّائل منا بالحدّين ، والجامع منا
بين الضّدين ؛ فلو لقبه «فارس عبّس» لولّى عابسا، أو طرّق حمى «كليب» لبات من
حمّاه آيسا ؛ أو قارعه «ربيعة بن مكدّم» لعلا بالسيف مفرّقه، أو نازله «بسّطام»
لبدّد جمعه وفرّقه ؛ كما أنه لو قرّن خطه بنفيس الجوهر لعلاه قيمه، أو فاسمه
«أبن مقلّة» في الكتابة لما رضى أن يكون قسيمه ، أو فآخره «أبن هلال» لرأى
أنه سبقه إلى كلّ كريمه .

وبالجملّة فعزّه الظاهر وفضله الأكل ، وسمّاكهُ الرّاحُ وسمّاكُ غيره الأعزّل ؛
فلا يسمّح الزمان أن يأتي له بنظير، ولا أراد مدّج بلوغ شأوه إلا قيل : أتتدّ فلقد
حاولت الأتّهاض بجنّاح كبير :

فخيّلاً بالمكرّمات وبالعلّى * وحيّلاً بالفضل والسؤدد المحض !

فالحمد لله الذي جمعنا بأكرم محلّ وأفضل، وأحسن مقامٍ وأجمل ؛ فهلمّ إليه يعقد
بيننا عقد الصّلح، ونبايعه على ملازمة الخدمة والنّصح .

ثم لم يلبثنا أن كتبنا بينهما كتاباً بالصّلح والمصافاه، وتعاهدنا على الودّ والمؤافاه ؛
وأعلننّ بعقد الصّلح مناديهما، وحدّا بذكر التّعاضد والتناصر حاديهما ؛ وراح يُنشد :

حسم الصّلح ما أشتهته الأعادي ، * وأذاعته السُّنُ الحساد !

وَزَالَتْ عَنْهُمَا الْأَحْقَادُ وَالْإِخْنَ ، وَبَاتَا فِي أَعَزِّ مَكَانٍ وَأَشْرَفِ وَطْنٍ ؛ وَتَلَّتْ
قِرَانَهُمَا فَاسْعُدْ ، ثُمَّ قَامَ مُنْشِدُهُمَا فَأَنْشَدَ :

لَا يُنْكَرُ الصُّلْحُ بَيْنَ السَّيْفِ وَالْقَلَمِ • فَعَاقِدُ الصُّلْحِ عَلَى الْقَدْرِ وَالْهَمِيمِ !

أَبُو يَزِيدَ نِظَامُ الْمُسْلِكِ مَا لِكُنَا • وَوَأَصِلُ الْعِلْمِ فِي عَلَيْهِ بِالْعَلَمِ .

فَهُوَ الْمُرَادُ بِمَا أَبْيَدِيهِ مِنْ مِدَجٍ • وَغَايَةُ الْقَصْدِ مِنْ تَرْتِيبِ ذَا الْكَلِمِ !

وَإِنْ جَرَى مَدْحُ سَيْفٍ أَوْ عِلَاقَلَمٍ ، • فَذَلِكَ وَصْفٌ لِمَا قَدْ حَازَ مِنْ كَرَمِ !

قلتُ : وَسَبَبُ إِنْشَائِي لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ أَنَّ الْأَمِيرَ أَبَا يَزِيدَ الْمَوْضُوعَةَ لَهُ ، تَعَمَّدَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ ، كَانَ مِنْ جَوْدَةِ الْخَطِّ وَتَحْرِيرِ قَوَاعِيدِهِ فِي الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا ،
وَعَظُمَتْ مَكَانَتُهُ عِنْدَ سُلْطَانِهِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ « بَرْقُوقِ » وَعَلَتْ رُتْبَتُهُ حَتَّى وُلَّاهُ وَظِيْفَةَ
الدَّوَالِيَّةِ بِإِمْرَةِ تَقْدِيمَةِ أَلْفِ ، وَلَمْ يَزَلْ مُقَدِّمًا عِنْدَهُ حَتَّى مَاتَ وَهُوَ مُتَوَلِّيًا ، وَأَوْلَايَ
عِنْدَ عَمَلِهَا لَهُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْبِرِّ الْمُتَوَالِي مَا يَقْضُرُ عَنْهُ الْوَصْفُ ، وَيَكُلُّ عَنْهُ اللِّسَانُ .

الصَّنْفُ الْخَامِسُ

(من الرسائل - الأسئلة والأجوبة ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الأسئلة الامتحانية)

قَدْ جَرَتْ عَادَةُ مَشَائِخِ الْأَدَبِ وَفُضَلَاءِ الْكُتُبِ أَنَّهُمْ يَكْتُبُونَ إِلَى الْأَفْضَلِ
بِالْمَسَائِلِ يَسْأَلُونَ عَنْهَا : إِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْأَسْتِفْهَامِ وَأَسْتِمَاحَةِ مَا عِنْدَ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ
فِي ذَلِكَ ، وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْأَمْتِحَانِ وَالتَّعْجِيزِ . ثُمَّ تَارَةً يُجَابُ عَنْ تِلْكَ الْأَسْئَلَةِ بِأَجْوِبَةٍ
فَتُكْتَبُ ، وَتَارَةً لَا يُجَابُ عَنْهَا ، بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ .

وهذه رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري إلى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بالمملكة الشامية ، وقد بلغه أن بعض أهل الديوان نال منه ، وأن الشيخ شهاب الدين المذكور ناضل عنه ودافع ، فكتب إليه يشكره على ذلك ويسأل مكاتب الديوان عن أسئلة بعضها يرجع إلى صنعة الإنشاء ، وأكثرها يرجع إلى فن التاريخ . وقد بينت بعضها ونهت عليه في مواضعه في خلال هذا الكتاب ، وهي :

لا يُخْرِجُ الكُورَةَ مَنِّي غَيْرُ نَائِبَةٍ ^(١) • وَلَا أَلِينُ لِمَنْ لَا يَتَنَبَّأُ لِيَنِي !

الاستفتاح بـ «ملا» تيمناً بركة الشهادة ، وهي ههنا مقراض يقطع من العيب المدّة ويحسم المادّة ؛ لحسم الله عن سيدنا الإمام العلامة القدوة ، شهاب الدين ، مكمل الآداب ، ومليك الشعراء والكُتاب ؛ شر كل عين حاسد ولو أنها عين الشمس ، وحماء عن مدّ ألسنة ذوى الأغتياب والأزتياب من الهمج والهمس ؛ وهياً له أسباب الخير حتى يكون يومه فيه مقصراً عن الغد زائداً على الأيس ، وأستخدم له الأقدار حتى تكون فرائض تقبيل أنامله العشر عندهم كفرائض الخمس ، وجعل ما يردُّ عنه العين من العيب بعد شأنه عن المتناول ووقايته عن اللس ، حتى يكون المعنى بقول القائل :

وَلَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنَّ عِلَاءَهُ • إِذَا حَدَّدُوهُ كَانَ قَدْ جَاوَزَ الْحَدَّ ،
وَلَا عَيْبَ أَيْضًا فِي مَا يَرِي بِبَيْتِهِ • سِوَى أَنَّهُ تُرْوَى بِاللِّسَانِ الْأَعْدَا !
وَحَتَّى يُؤْمَنَ عَلَيْهِ الْقَائِلُ :

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَمَالِ إِلَى • عَيْبِ يُوقِيهِ مِنَ الْعَيْبِ !

(١) هذا الشطر من صناعة ابن نباتة غيره لما يريد وانما هو . لا يُخْرِجُ الْقَمَرُ مَنِّي غَيْرُ مَائِبَةٍ • الْقَمَرُ الْقَهْرُ وَالْمَائِبَةُ مَصْدَرٌ كَالْحَيْبَةِ مَعْنَاهَا الْإِبَاءُ وَالْبَيْتُ مِنْ كَلِمَةِ لَدَى الْإِصْبَعِ الْعَدْوَانِي .

وَيُقْبَلُ مِنَ الْآخِرِ قَوْلُهُ :

شَخَّصَ الْأَنَامُ إِلَى كَيْلِكَ فَاسْتَعَدَّ * مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بَعِيْبٍ وَاحِدٍ!
 الْعَبْدُ يَخْدُمُ بِسَلَامٍ مَارَوْضَةً تَقَطَّهَا الْجَوْ بَدْرٌ سَحَابِيهِ ، وَأَفْرَغَ عَلَيْهَا الْأَفُقُ سَفَطَ
 كَوَاكِبِهِ ، وَأَمْتَدَ نَوَى الذَّرَاعِ لَتَدْيِيجِ سَمَائِهَا ، وَتَأْرِيحِ أَرْجَائِهَا ، وَتَحْمِيْشِ مَعَاصِمِ أَنْهَارِهَا
 الْمُنْشَقَّةِ بِأَفْنَانِهَا ؛ وَصِقَالَ نَسَمَاتِهَا السَّحْرِيَّةِ ، وَمُغَازَلَةَ عُيُونِهَا السَّحْرِيَّةِ ، وَهَوَايَ
 الْعَالِيَةِ بِنَفْحَاتِهَا الشَّجْرِيَّةِ ؛ تَصْرِفُ دَنَائِرَ أَزْهَارِهَا الصُّرُوفِ ، وَيَسْئَلُ جَدْوُلَهَا عَلَى
 الْهَمُومِ السُّيُوفِ ؛ وَتَجْدُبُ حَمَائِمَهَا الْقُلُوبَ بِالْأَطْوَاقِ ، وَيَتَشَفَّعُ دَوْحُهَا إِلَى النُّوَاطِرِ
 بِالْأُورَاقِ ؛ قَدْ تَرَفَّقَ فِي وَجَنَاتِهَا مَاءُ الشَّبَابِ ، وَغَيَّيَ مُطْرِبُ حَمَائِمِهَا وَعَنْتَرَهُ فِي حَكِّ
 مِنَ الذَّبَابِ ، وَبَحَّرَهَا رَوْقُ السَّيْفِ فِي قَلْبِ رَوْضَتِهِ الذَّبَابِ .^(١)

فَمَا كُلُّ أَرْضٍ مِثْلَ أَرْضِ هِيَ الْجَمَى ، * وَمَا كُلُّ نَبْتٍ مِثْلَ نَبْتِ هُوَ الْبَانُ !
 يَوْمًا بِأَبْهَجٍ مِنْهُ أَشْوَاقًا ، وَأَطْيَبَ مِنْهُ أَنْشَاقًا وَأَنْسَاقًا ، وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ،
 وَلِكُلِّ غَيْثٍ نَبَاتٌ ، وَمَا لِذَلِكَ الْغَيْثِ إِلَّا هَذَا النَّبَاتُ .

وَتَعُودُ فَتَقُولُ : لَا أَدْرِي أَتَعْجَبُ :

عَلَى أَنَّهُمَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا * عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ !!
 مِنْ قَوْمٍ هُمْ مَا هُمْ : شَرِبُ مُنَاسِبٍ ، وَطِيْبُ مَكَاسِبٍ ؛ قَدْ أَمَكَّنْتَهُمُ الْمَعَالِي ،
 وَطَاوَعْتَهُمُ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي ؛ وَخَدَمْتَهُمْ جَوَارِي السُّعُودِ ، وَتَطَامَنَتْ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَرَاقِي
 الصُّعُودِ ، كَابِرٌ بِسُكُونِ الْجَاشِ مَنْحَدِرٍ (؟) وَكَنْتُ قَدْ اسْتَجَدَيْتُ كُلًّا مِنْهُمْ وَلَكِنْ
 بِالْكَلامِ ، وَاسْتَسْقَيْتُ وَلَكِنْ قَطْرَةً مِنْ غَمَامِ الْأَقْلَامِ :

وَأَيْسَرُ مَا يُعْطَى الصَّدِيقُ صَدِيقَهُ * مِنَ الْهَيِّزِ الْمَوْجُودِ أَنْ يَتَكَلَّمَ !

(١) العنتر الذباب أو صوته . (٢) ذباب السيف حده أو طرفه المنظرف .

”وَلْيُسَعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ يُسَعِدِ الْحَالُ“ فَضَنَّ وَظَنَّ مَاظَنَّ ، وَأَسْتَعِطَفَ بِنَسِيمِ الْكَلَامِ
غُضْنُ يَرَاعِهِ فَمَا عَطَفَ وَلَا حَنَّ ؛ وَبَحَلْ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ فَإِنَّ الْفَضِيلَةَ مِنَ الرَّزْقِ ،
وَحَرَمْنِي لَذَّةَ الْفَاطِظَةِ فَإِنَّمَا التَّيُّ إِذَا أُدْخِلْتَ فِي رَقٍّ دَخَلَ حُرَّ الْبَلَاغَةِ نَحْتُ ذَلِكَ الرَّقِّ ؛
وَهَلْ هُوَ الْبَحْرُ فَكَيْفَ نَحَّجَّ بِمَدَّةٍ مِنْ مَدَّةٍ ، وَالغَيْثُ وَلَا أَقُولُ : إِنْ الَّذِي حَبَسَهُ
إِلَّا مَا قَسَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحَظِّ عِنْدَ عَبْدِهِ :

وَإِذَا الزَّمَانُ جَفَاكَ وَهُوَ أَبُو الْوَرَى * طَرًّا فَلَا تَعْتَبُ عَلَى أَوْلَادِهِ!

فَاعَلَى اللَّهِ كَلِمَةَ سَيِّدِنَا الْعَلَامَةِ فِي الدَّارَيْنِ ، وَشَكَرْتَنِي جُودِ كَرَمِهِ وَكَلِمَةَ الدَّارَيْنِ ،
[فَهُوَ] صَاحِبُ دِيْوَانِهِمْ ، وَحُجَّةُ زَمَانِهِمْ ؛ فَلَقَدْ وَصَفَنِي بِمَا يَزِيدُ عَلَى الْجَوَابِ ، وَشَافَهَنِي
مِنَ الشُّكْرِ بِمَا لَا يَتَوَارَى مِنَ الرَّزْقِ بِحِجَابِ ، وَأَمَّنِي الْعِزَّ وَالزَّمَانَ حَرْبَ ، وَنَصَرَنِي
وَالْأَيَّامُ سُيُوفٌ تَنْتَوِعُ مِنَ الضَّرْبِ فِي كُلِّ ضَرْبٍ ؛ وَأَعْطَانِي كَرَمَهُ وَالْمَحَلُّ مَحَلُّ ،
وَفِي قَلْبِ الزَّمَانِ دَحَلُ ، وَنَحَلْتَنِي شُهَدَاءَ إِحْسَانِهِ وَالْأَوْقَاتُ كِبَارَ النَّحْلِ ؛ حَتَّى عَدَرْتَنِي
فِي حُبِّهِ مِنْ كَانَ مِنَ اللَّائِمِينَ ، وَأَهْتَدَيْتُ مِنْ لَفِظِهِ وَفَضْلِهِ بِقَمَرَيْنِ لَا يَمِيلُ أَحَدُهُمَا
وَلَا يَمِينُ ، وَصُلْتُ مِنْ جَاهِهِ وَمَالِهِ بِيَدَيْنِ إِلَّا أَنْ كَلَّمْتَهُمَا فِي الْإِعْرَاضِ يَمِينِ :
وَيَلُومُنِي فِي حُبِّ عُلُوِّ نِسْوَةٍ * جَعَلَ الْإِلَهَ خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا!

وَحَرَسَ اللَّهُ سَيِّدَنَا شَهَابَ زَمَانِهِمْ ، كَمَا حَرَسَ بِهِ سَمَاءَ دِيْوَانِهِمْ ؛ فَلَقَدْ أَسْمَعَنِي
مِنَ الشُّكْرِ مَا أَرَبْنِي عَلَى الْأَرَبِ ، وَجَعَلْتَنِي كَحَاجِبٍ حِينَ دَخَلَ عَلَى كَسْرِي وَهُوَ وَاحِدٌ
مِنَ الْعَرَبِ نَحْرَجَ وَهُوَ سَيِّدُ الْعَرَبِ ، وَهَدَيْتَنِي أَنْوَارَهُ وَأَنَا أَخِيطُ مِنْ لَيْلِ الْقَرِيحَةِ
فِي عَشْوَاءَ ، وَجَادَتْ عَلَى أَنْوَارِهِ وَنَاهِيكَ بِتِلْكَ الْأَنْوَارِ مِنَ الْأَنْوَاءِ ، وَرَفَعْتَنِي الْفَاطِظَةَ
وَلَكِنِ عَلَى السَّمَاءِ بَرِّغِيمَ حَسُودِي الْعَوَاءِ ؛ وَهَذِهِ قَصَائِدُهُ فِي تَنْدَارِ سِنَةِ الْأَقْلَامِ ،
وَتُكْتَبُ بِأَنْقَاسِ اللَّيَالِي عَلَى صَفْحَاتِ الْأَيَّامِ ؛ مِنْ كُلِّ بَيْتٍ هُوَ بَيْتٌ مَالٍ لَا يَنْقُصُهُ
الْإِنْفَاقُ ، وَلَوْلَا التَّقِيُّ لَقَلْتُ : إِنَّهُ الْبَيْتُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِحُجَّةِ الرَّفَاقِ مِنَ الْآفَاقِ ؛

فَتَى أَنْفَرُغُ لَطَلِبِ مَدْحِهِ ، وَقَدْ شَغَلَنِي بِمَنْحِهِ ؟ ، وَمَتَى أَجَارِيهِ بِأَمْتَدَاحِ وَإِنَّمَا مَدْحِي
له من فوائد مدحه :

وما هو إلا من نَدَاهُ وَإِنَّمَا * مَعَالِيهِ تُمَلِّينِي الَّذِي أَنَا كَاتِبُهُ !

أَمْ أَتَعْجَبُ مِنْ شَيْتِ عِنَانِ الثَّنَاءِ إِلَيْهِ ، وَجَلَوْتُ عَرَائِسَ الْمَدَائِحِ عَلَيْهِ ؛ وَعَادَيْتُ
فِي تَنْضِيدِ أَوْصَافِهِ الْكَرَى ، وَأَنْضَيْتُ بِالْقَلَمِ لَهُ فِي نَهَارِ الطَّرْسِ وَلَيْلِ النَّفْسِ مِنَ السَّيْرِ
وَالسَّرَى ؛ وَمَدَحْتُهُ بِمَلْءِ فِيٍّ وَأَجْتَهَدْتُ فِي وَصْفِهِ وَكَانَ سِوَاءَ عَلِيٍّ أَنْ أَجْهَدْتُ ،
فِي وَصْفِهِ أَوْ أَجْتَهَدْتُ ؛ بِخَازَانِي مُجَازَاةَ السَّنَارِ ، وَأَوْقَعَنِي مِنْ عَنَتِ عَيْتِهِ فِي النَّارِ ،
وَجَعَلَ مَحَاسِنِي الَّتِي أُدَلِّي بِهَا ذُنُوبًا فَكَيْفَ يَكُونُ الْإِعْتِدَارُ ؟ :

وَكَانَ كَذِئْبِ السُّوءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً : * لَعَمْرُوسَةَ وَالذُّئْبُ عَرَّثَانُ مُرْمِلُ :

أَأَنْتِ الَّتِي مِنْ غَيْرِ سُوءٍ شَتَمْتَنِي ؟ * فَقَالَتْ : مَتَى ذَا ؟ قَالَ : ذَا عَامٍ أَوَّلُ

فَقَالَتْ : وُلِدْتُ الْآنَ بَلْ رُمْتُ غَدْرَةَ * فَدُونَكَ كُنْفِي لَا هَنَّا لَكَ مَا كُلُّ !

وَحَلَّ هَذَا الْمُتَرْجِمُ ، وَتَحْقِيقِي هَذَا الظَّنَّ الْمُرْجَمَ ؛ أَنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الَّذِينَ
اسْتَفْتَيْتُهُمْ اسْتِنْبَاطًا لِقَوَائِدِهِمْ ، وَالنِّقَاطًا لِقَرَائِدِهِمْ ؛ لَا تَكْلِيْفًا لِمَنْ فِيهَا لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا
الْأَقْوَى مِنَ الْأَقْوَامِ ، وَلَا يُسْتَنْجَدُ بِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا بَارِبَابِ صَفْحَاتِ السُّيُوفِ
لَا أَرْبَابِ قَصَبَاتِ الْأَقْلَامِ ؛ أَرَادُوا الْفَضْلَ مِنِّي ، وَفَقِيَ الْإِحْسَانَ عَنِّي ؛ وَهَيْهَاتَ !

* أَنَا أَبُو النُّجَيْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي *

هَآنَا وَبِضَاعَتِي ، وَهَذِهِ يَدِي لَا أُنِّي الْقَيْتُ بِهَا إِلَى السَّلْمِ وَلَكِنْ لِأَعْرِضَ

صِنَاعَتِي : * هُوَ الْجَمَى وَمَعَانِيهِ مَعَانِيهِ *

وَإِنِّهِمْ أَجْتَمَعُوا بِالْمِيدَانِ عَلَى حَدِيثِي ، وَذَكَرُوا قَدِيمِي وَحَدِيثِي ؛ وَتَسَابَقُوا فِي الْغَيْبَةِ
أَفْرَاسَ رِهَانَ ، وَأَعْجَبَ كَلًّا مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ : هَذِهِ الشُّقْرَاءُ فِي يَدِي وَهَذَا الْمِيدَانُ ؛

وَلَا مَوْأ وَعَدَلُوا، وَهَمُّوا بِالسَّبِّ وَقَعَلُوا، وَأَسْتَطَابُوا لَحْمَ أَخِيهِمْ فَسَلَقُوهُ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ
وَأَكَلُوا؛ حَتَّى تَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى مَنْ جَادَ عَلَى الْجَوَابِ، وَفِعْلُهُ إِمَّا جَزَاءً لِلدَّجِّ وَإِمَّا
لِلشَّوَابِ :

فَقُلْتُ لَهَا عَيْشِي جَعَارٍ وَجَرِّى * بَلَحِمِ أَمْرِي لَمْ يَشْهَدِ الْيَوْمَ نَاصِرُهُ!

وما كان المليلح أن يُغري بي من سبق مدحه إلى ، ومن أنتصر بعزّه لنفسه فما
أنتصر لدى "وهذا لعمري جهد من لآله جهد" وما تخلو هذه الأفعال : إما أن تكون
مجازاةً على مدحهم ، فإِنَّ الكِرَامَ وَقَضَلُهُمْ ، وَالْمُنْصِفُونَ وَعَدْلُهُمْ ؟ ، أَوْ ظَنًّا أَنِّي
عَرَّضْتُ بِهِمْ فِيمَنْ عَرَّضْتُ ، فَإِنَّ ذَكَاءَ الْأَلْبَاءِ وَإِنْ عَقَلُهُمْ ؟ ؛ وَهَلْ تَظُنُّ السَّمَاءَ
أَنْ يَدَا تَصِلَ إِلَيْهَا ، وَالنَّجُومُ أَنْ خَلَقًا تَحْكُمَ عَلَيْهَا ؟ ؛ وَالذَّهَبُ مَحْرُوسٌ لَا يَصْدَا
حِرْمُهُ ، وَالْجَوْهَرُ مَعْرُوفٌ لَا يُجْهَلُ حِكْمُهُ ؛ وَمَنْ الَّذِي تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ أَنْ يَجْحَدَ الشَّمْسَ
فَضْلَهَا الطَّائِلَ ، أَوْ يُحَسِّنَ لَهُ عَقْلَهُ أَنْ يَقُولَ : سَحْبَانُ وَإِئِيلُ كَجَاقِلِ ؟ ؛
أَدْرِكُنِي ذَلِكَ الْيَوْمَ وَمَا أَمْرُكَ ، وَأَنْجِدْنِي بِكُلِّ لَفْظَةٍ هِيَ أَمْضَى مِنَ السَّمِّ وَأَرْشَقُ ،
وَأَضْوَأُ مِنَ النَّجْمِ وَأَشْرَقُ ؛ وَمَا أَعْرِفُ كَيْفَ صَبْرِي عَلَى هَذَا الْحَرْبِ فِي صُورَةِ
السَّلْمِ ؟ ، وَمَا أَظُنُّهُ أَرَادَ إِلَّا أَنْ يُعَلِّمَ قَلْبِي الَّذِي فِي يَدِهِ الْحُكْمَ ، كَمَا عَلَّمَهُ لِلْقَلَمِ ؛ وَحَيْثُ
قَضَى الْحَدِيثُ مَا قَضَى ، وَمَضَى الْوَقْتُ وَمَا كَانَ إِلَّا سَيْفًا فِي عَرْضِ الْعَبْدِ مَضَى :

فَكَرَّتْ تَبْتِغِيهِ فَصَادَقَتْهُ * عَلَى دَمِهِ وَمَضَرَعِهِ السَّبَاعَا

فَأَنَا أَنْشُدُ اللَّهَ تَعَالَى هَؤُلَاءِ السَّادَةَ الْغَائِبِينَ ، أَوْ الْقَوْمَ الْعَاتِبِينَ ؛ هَلْ يَعْرِفُونَ أَنَّ
الَّذِي عَرَّضْتُ بِهِ مِنْهُمْ قَوْمٌ قَدْ اسْتَوَى عَلَيْهِمُ الْعِيُّ بِجَرِيضِهِ ، وَتَزَلَّ فِيهِمُ الْجِهَادُ
بِقَضِّهِ وَقَضِيضِهِ ؛ وَأَصْبَحَ بِأَبْهَمِ لَهْمِ كِبْشْتَانِ بِلَا نِمَارٍ ، وَدِيَوَانُهُمْ عَلَى رَأْيِ أَبِي الْعَلَاءِ
كَدِيْوَانِ أَبِي مِهْيَارٍ ؛ لَا يُحْسِنُ أَحَدُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ غَيْرَ الْعَامَةِ الْمَدْرَجَةِ ، وَالْعَدْبَةَ الْمُعَوَّجَةَ ،

(١) يياض بالأصل بمقدار كلمة .

والعباءة الضيقة والثواب المفرجة ؛ ويتناول السلم باليمين وتكابه إن شاء الله تعالى بالشمال، ومشي هذا على هذا ولكن على الضلال ؛ لو سُئِلَ أحدهم عن «البديع» في الكتابة لم يعرف من السؤال غير الترييد، وعن «عبد الحميد» ل زاد في الفكر وقصص : وعبد الحميد عبد الحميد ؛ و«الصاحب» لقال : إنه تبرقع بجعلسي، و«الحوارزمي» لقال : سرج فرسي، «والفاضل» لقال : ها هو ذا ذيل ملبسي . فإن كان الأمر كذلك ففي الملام والتنفيذ :

(١)
عَلَّقُوا النَّعْمَ لِلْبُرَا * عِ عَلَى ذِرْوَتِي حَصْن،
ثُمَّ لَامُوا الْبُرَاةَ أَنْ * قَطَعْتُ نَحْوَهَا الرَّسْنَ،
لَوْ أَرَادُوا صِيَاتِي * حَجَّبُوا وَجْهَكَ الْحَسْنَ!

والوجه الحسن ههنا وجه المنصب وحجابه عن شين تلك الآثار، وتحميش تلك الألفاظ .

وإن كان غير ذلك فما مثلي مع من ذكركي إلا قول القائل :

سَافِرٌ بَطْرَفِكَ حَيْثُ سَنَنْتَ فَلَنْ تَرَى إِلَّا بَيْحِلًا!

فقبيل له : بخلت الناس، فقال : كذبوني بواحد . وهأنا فلتكذبوني بواحد ممن عرّضت، وصحیح ممن أمرضت ؛ وليبرز إلى مضجعه، وليكن على يقين من مصرعه ؛ ولا يترك شيئا من أدواته، ولا يأتي إلا ومعه نادبته من حمايم همزاته .

وأنا أقترح عليه من مسائل الكتابة بعض ما أقترحه الفضلاء، ونبه عليه العلماء ؛ وإلا فما أنا أبو عذرتيه، ومالك إمرته ؛ ولا يلوم إلا القائل :

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ * فَضَحَّتْهُ شَوَاهِدُ الْإِمْتِحَانِ!

(١) حزن جبل بأعال نجد .

فانه الذى نبهني عليه وإن لم أكن ساهيا، وذكري الطعن وما كنت ناسيا؛ حتى ربيته من هذه المسائل، في مجاهل؛ لا يهتدى فيها بغير الذهن الواقد، واقتحمت به في بحار لا يعصم منها جبل الفكر الجامد؛ على أنها فيما أغفلت كالتمدد من البحار، والألحة من النهار؛ ولولا الاختصار، لأثبتت منها بالجمع الجمم فلنحمد الله والاختصار، فأقول :

من كتب في الورق وأستنبطه؟ ومن ختم الكتاب بالطين وربطه؟ ومن غير طين الكتاب بالنشا وضبطه؟؛ ومن قال: أما بعد في كتابه؟ ومن جعلها في الخطب وأسقطها في ابتدائه في المكتبة وجوابه؟؛ ومن كره الاستشهاد في مكاتبات الملوك بالأشعار؟؛ وكيف تركها على ما فيها من الآثار؟؛ ومن الذى أراد أن يكتب تراثا بقاء شعرا؟؛ ومن وضع هذه الطرة في التقاليد وأخترعها؟؛ وما حجته إذ قدمها على أمم الله ورفعها؟؛ ومن الذى باعد بين السطور ووسعها؟؛ وكيف ترك بالتعاضد في كتبه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسعه من التواضع ما وسعها؟؛ ومن استغنى بكتابة آية من كتاب الله عن الجواب؟؛ ومن اكتفى بيت من الشعر عما يحتاج من تطويله الكتاب؟؛ ومن الذى عانى المترجمات وربها؟ وأخفى ملطقات الجواسيس وغيبها؟؛ ومن الذى سن البرد وبعثها في الملمات؟؛ ومن حاك شيئا من ملك سليمان فأستخدم الطيور في بعض المهمات؟؛ وما أوجز مكتبة كتبت بها عن خليفة في معنى؟؛ وما أبلغ جواب وأوجزه أجاب به عن خليفة من لا سمى ولا كنى؟؛ ولم أرخ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم؟ وكيف لم يؤرخ بمولده أو غير ذلك من الأيام؟؛ ومن الذى أمره الخليفة بكتابة معنى فأرئخ عليه الكلام ولقنه في المنام؟؛ ومن الذى وصف برسالة طويلة شيئا لم يصفه ببنار ولا نظام؟؛ وكيف جاز للكاتب أن يكتب آية من الكتاب في لفظة يحسبها من لا يحفظ أنها من عنده

لَا مِنْ حِفْظِهِ؟ ، مِثْلُ قَوْلِهِ مَعَ الرَّسُولِ: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ . وَقَوْلِ الْآخَرِ فِي كِتَابِهِ: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ . وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا؟ وَهَلْ يُؤْخَذُ عَلَيْهِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ كَمَا أُخِذَ عَلَى الْحَجَّاجِ فِي أَسْمَاءِ الْمُسْتَعِينِينَ بِهِ مِنْ أَهْلِ السَّجْنِ: ﴿اِحْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ ؟ . وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا؟

وَعَلَامَ يُطَوَّلُ الْكَاتِبُ بَاءَ الْبَسْمَلَةِ؟ ، وَلَا يُثَبِّتُ إِلَّا قَلِيلًا وَأَوَّ الْحَسْبَلَةَ؟ ؛ وَلَا يُجَدِّدُ وَلَا يُسَمِّلُ عَلَى مَا أَلْفَ ، وَكَيْفَ يُعَلِّمُ فِي بَعْضِ السَّجَعَاتِ عَلَى الْأَسْمَاءِ الْمَقْصُورَةِ بِالْيَاءِ وَالْأَصْلُ فِيهَا الْأَلِفُ؟ ؛ وَأَسْأَلُهُ كَيْفَ يَصِفُ الْقَرَاتِيسَ وَالْأَقْلَامَ وَيَسْتَدْعِيهَا؟ ، وَالسَّكِينِ وَالذَّوَاةَ وَيَسْتَهْدِيهَا ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ مَلِكٌ طَلَبَ مِنْهُ عَدُوُّ قَطِيعَةٍ عَنْ جَيْشِهِ يُعْطِيهَا؟ ؛ وَكَيْفَ يَكْتُبُ عَنْ خَلِيفَةٍ آمَسَقَى وَلَمْ يُمَطَّرْ؟ ، وَخَلِيفَةٍ صَارَعَ فَصْرَعَ كَالْمُعْتَصِمِ وَكَيْفَ يُعْتَذِرُ؟ ؛ وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ فِي نَارٍ وَقَعَتْ فِي حَرَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ عَنِ الْمَهْزُومِ إِلَى مَنْ هَزَمَهُ فِي مَعْنَى رُكُونِهِ إِلَى الْإِحْجَامِ؟ ؛ وَكَيْفَ يُبَيِّنُ خَلِيفَةٌ خُلِعَ فَرَجَعُ ، وَغَرَّبَ عَنِ السَّجْنِ وَطَلَعَ؟ ؛ وَأَسْرَهُ الْعَدُوُّ ثُمَّ تَخَلَّصَ وَأَسْتَقَامَ بَعْدَ مَا نَهَضَهُ الدَّهْرُ بِمَرَضٍ ، أَوْ تَمَرَّضَ فَانْتَهَضَ؟ ؛ وَكَيْفَ يُبَيِّنُ مِنْ زَوْجٍ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ أُمَّهُ ، وَيُعْزِي وَالِدًا قَتَلَ وَلَدَهُ وَوَلِدًا قَتَلَ وَالِدَهُ وَيُصَوِّبُ حُكْمَهُ؟ ؛ وَيَكْتُبُ عَمَّنْ حَاصَرَ حِصْنًَا وَتَرَكَهُ بَعْدَ تَسْهِيلِ الْمَسَالِكِ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ فِي نَيْلٍ لَمْ يُؤْفَ لَا أَحْوَجَ اللَّهُ لَذَلِكَ؟ ؛ وَيُعْزِي كَافِرًا عَنْ بَعْضِ الْأَعْرَاءِ الْأَزْرَامِ ، وَيُنْشِئُ عَهْدَ يَهُودِيٍّ بِوِزَارَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ ؛ وَيَكْتُبُ تَقْلِيدًا لثَلَاثَةٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ مِنَ الْحُكَّامِ ، وَيَسْتَنْجِدُ بِأَمْوَالٍ أَوْ مَسَاكِينِ (؟) مِنْ عَدُوِّ كَافِرٍ عَلَى كَافِرٍ؟ وَيُبَشِّرُ عَدُوًّا بِأَخْذِ بِلَادِهِ مِنْهُ ، وَيَعْتَذِرُ عَنِ مَلِكٍ أَخَذَتْ شَوَانِيهِ وَحُجِرَتْ عَنْهُ؟ ؛ وَيُهَيِّئُ خَصِيصًا بِرَوَاجِهِ ، وَيَعْتَذِرُ عَمَّنْ فَرَّ وَتَرَكَ وَلَدَهُ مُحَكَّمًا الظُّبَا فِي أَوْدَاجِهِ؟ ؛

وَيَكْتُبُ لِمَلِكِ بَنِي مَبَانِي فَأَحْتَرَقَتْ أَوْ وَقَعَتْ ، أَوْ أَجْرِي خِيُولَ رَهَانٍ فَسَيَقَتْ خَيْلَهُ
وَأَتَقَطَعَتْ ؟ ؛ أَوْ نَخْرَجَ لَصَيْدٍ فَلَمْ يَجِدْ مَا يُصَادُ ، أَوْ لِبُرْزَةِ بَنْدُقٍ أَحْتَفَلُ فِيهَا وَلَمْ يَصْرَعْ
شَيْئًا مِنَ الْوَأَجِبِ الْمُعْتَادِ ؟ ؛ أَوْ رَكِبَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ تَمَلُّكِهِ فَتَقَطَّرَ بِهِ الْجَوَادُ ،
أَوْ وُضِعَتْ لَهُ أَتَى فَضَّلَهَا بِكَلَامٍ عَلَى مَا يَرْجُوهُ مِنْ ذُكُورِ الْأَوْلَادِ .

وَمِنْ هُنَا أَكُفُّ الْقَلَمِ عَنْ شَوْطِهِ ، وَأَرْفَعُ عَنْهُ مَا وَضَعَهُ اللِّسَانُ مِنْ سَوْطِهِ ؛
خَوْفًا مِنَ الْمَلَالِ وَالصَّخَبِ ، وَكَيْفَى بِالْعُرْفَةِ عَنِ مَعْرِفَةِ النَّهْرِ .

فَإِذَا تَسَيَّطَ هَذَا الْكَاتِبُ مِنَ هَذَا الْعِقَالِ ، وَتَصَرَّفَ فِي فُنُونِ هَذَا الْمَقَالِ ، وَنَخْرَجَ
مِنْ هَذِهِ الْأَسْئِلَةِ نُخْرُوجَ السَّيْفِ مِنَ الصَّقَالِ ؛ أَمْتَدَّتْ كَفُّ الثَّرِيَّا فِي هَذَا النَّسِيَانِ
بِمَسْحِ جَبْهَتِهِ ، وَجَاءَ بِجَوَابِ هَذَا النِّكَتِ كَمَا يُقَالُ : بَرَمْتَهُ ؛ (؟) وَأَمَاطَ لِئَامَهَا ،
وَشَمَّرَ عَنْ أَزْهَارِهَا أَكْثَامَهَا - أَتَقَطَعْتَ الْأَطْمَاعُ دُونَ غَايَتِهِ ، وَبُسِطَتْ أَيْدِي رِسَالِي
الْبُلَغَاءِ لِمُبَايَعَةِ رِسَالَتِهِ ، بَلْ أَتَتْهُ وَحَمَلَتْ قَلْمَهُ عَلَى أَقْلَامِ فُرْسَانَ الْكَلَامِ سَوْدَاءَ رَأْيَتِهِ ؛
وَبَانَ هُنَاكَ ظُلْمُ الْعَائِبِ وَحَيْفُهُ ، فَكَانَ كَمَنْ سَأَلَ لِنَحْرِهِ سَيْفَهُ ؛ وَعُدِرَ عَلَى تَوَالِي
التَّائِيْبِ مُؤَنَّبُهُ ، وَكَانَ يَوْمئِذٍ لَهُ الْوَيْلُ لِأَمِنْ يُكْذِبُهُ ، وَأَمْتَازَ هَذَا الْفَاضِلُ بِمَا تُحْدِثُهُ
هَذِهِ الْوَاقِعَةُ مِنَ الْفَخْرِ وَتَجَلُّهُ :

فَعَاجُوا فَاتَّسَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ • وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ !

وَالْمَسْئُولُ مِنْ إِحْسَانِ سَيِّدِنَا أَنْ يُسَدَّ الْخَلَالَ كَيْفَ مَا وَجَدَهُ ، وَيُصْلِحَ الْخَطَأَ وَالْخَطْلَ
كَمَا عَوَّدَتْهُ مِنْهُ وَكَمَا عَوَّدَهُ ؛ فَإِنَّهُ أَمِيرُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَنَحْنُ الرِّعَايَا ، وَشَيْخُ الْفَصَاحَةِ
وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ كُنَّا وَجَدْنَا فِي زَوَايَاهُ مِنْهَا خَبَايَا ؛ وَمَا هَذِهِ الرِّسَالَةُ إِلَّا يَدٌ
أَمْتَدَّتْ تَسْأَلُ مِنَ الْحِلْمِ مَا يَسْعُهَا ، وَهَذِهِ السُّطُورُ إِلَّا حَبَائِلُ لِنَتَّصِدُّ مِنْ عَوَائِدِهِ
مَا يَنْفَعُهَا وَيَرْفَعُهَا :

فَارْخِ عَلَيْهَا مِزْمَرًا مَعْرُوفًا الَّذِي • سَتَرْتَ بِهِ قَدَمًا عَلَى عَوَارِي !

والله تعالى العالم أنها وردت عن قلب مدهول عن حُسن الإيقان، مُعَدِّد عليه
نوابِ الدهر بأنامل الخفقان؛ مَرْمِيَّ بِسِهَامِ الأَعَادِي فِي قَيْسِي الضُّلُوعِ، غَائِصٌ فِي بَحْرِ
الْهَمِّ وَكَلِمَا رُمْتُ أَنْ يُلْقَى إِلَيَّ دُرُّ الْكَلَامِ أَلْقَى دُرَّ الدَّمُوعِ :

أَبْكِي فَتَجْرِي مُهَجَّتِي فِي عَبْرَتِي • وَكَأَنَّ مَا أَبْكَيْتَهُ أَبْكَانِي!

لَا يَدَّعِي لِي الْفِكْرُ فِي قِلَّةٍ ... (١) ... الإِخْوَانُ وَقَدْ أَسْتَنْبَطُ فِيهِ مَعْنَى، وَلَا يُفْسِحُ لِي
التَّعَجُّبُ مِنْ أُنْبَاءِ الزَّمَانِ لِنَقْصِهِمْ أَنْ أُصَحَّحَ نَقْدًا وَلَا وَزْنَ؛ أَجْنَحَ لِسْمِ الأَيَّامِ فَكَأَنِّي
لِحَرْبِهَا جَنَحْتُ، وَأَقْدَحَ فِكْرَتِي فِي أَسْتَعْطَافِ الزَّمَانِ فَكَأَنِّي فِيهِ قَدْ قَدَحْتُ، فَلَوْ قَضَى
اللهُ لِي بِالْمُنِيَّةِ مِنَ الْمُنِيَّةِ لَأَرَحْتُ الزَّمَانَ وَأَسْرَحْتُ :

فَالْأَرْضُ تَعْلَمُ أَنَّي مُتَّصِرٌ • مِنْ فَوْقِهَا وَكَأَنِّي مِنْ تَحْتِهَا!

وَلَا فَرْقَ فِيمَا بَيْنَنَا غَيْرَ أَنَّنَا • بِمَسِّ الأَذَى نَدْرِي وَمِنْ مَاتَ لَا يَدْرِي!

وَلَا بَدَلِي أَنْ أَطْلُقَ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ طَلَاقًا قَطْعِيًّا، لَا طَلَاقًا رَجْعِيًّا؛ وَأَجَاهِرُهَا
جِهَارًا حَرْبِيًّا لَا جِهَارًا عَيْنِيًّا؛ وَأَضَعُ صَعْدَةَ حَمَلِهَا مِنْ أَدْبٍ عَنِ بَدَنِ، وَأَتَوَلَّى قَوْسَ
دَالِهِ مَعَ سَهْمِهَا فَمَا أَصَبْتُ غَيْرَ كَيْدِي؛ "كَأَنَّما الْقَوْسُ مِنْهَا مَوْضِعُ الْوَتْرِ"، وَقُلْتُ
أَذْهَبِي بِأَصْبُورِي بِسَلَامٍ" فَمَاذَا لَقِيْتِ مِنْ آفَاتِهَا، وَمُنِيَّتِ بِهِ مِنَ الْخَوْفِ فِي عَرَافَاتِهَا،
وَمُطِرْتِ لَأَنْ عَوَارِضَ قَطْرِهَا وَلَكِنْ مِنْ عَوَارِضِ مُرْجَفَاتِهَا :

وَإِنِّي رَأَيْتُ الْحُبَّ فِي الْقَلْبِ وَالْأَذَى • إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبِثِ الْحُبُّ يَذْهَبُ!

وَمَعَ هَذَا الْحَدِيثِ لَمْ أَشْكُ أَنَّ أَحَدًا سَيَنْتَقِدُ عَلَيَّ تَسْبِيحِي، وَطَرَفَهُ قَدِيمَةٌ فِي اسْتِفْتَاكِ
المُكَاتِبَةِ، وَأَسْتَنْجِاحِ الْمُخَاطَبَةِ؛ وَيَقُولُ: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَّتْ، وَدَوْلَةٌ فَاضِلَةٌ أَدْبَرَتْ
مِثْلَ مَا أَقْبَلَتْ؛ فَكَيْفَ تَبِعَهَا وَتَرَكَ طَرِيقَةَ فَضْلَاءِ عَصْرِهِ، وَأَبْنَاءَ مِصْرِهِ؛ فَالجَوَابُ

(١) بياض بالأصل ولعله: «مصافاة الإخوان» أو نحوه.

ما قاله القاضي السعيد بن سناء الملك رحمه الله تعالى ، فما كان أسعدَ خاطره ! ،
وأكثرَ ذهبَ لفظه وجواهره !! :

إني رأيت الشمس ثم رأيتها • ما ذا علي إذا عشقت الأحسناء ؟ !

وذكرت أن الاس عدرة ونسبت أن الاس أفعالها^(١) .

اتتهت إلى هذا الموضع ، والديك قد نعى بعيد الظلام ، وبلغ عن الصبح السلام ،
والأزهار قد سلبته عينه فقام من كراه يصبغ ، وميدان الغصون قد أصحبت بمغنى
الأطيار وشغب الريح ، ونسر السماء قد قر من الغداة وبازيها ، والنجوم قد حملت
إلى ملتحدا من الغرب على نعوش دياجيبها ، والمجرة من الجوزاء عاطلة الخصر ،
وخافان الصبح قد حمل على تجاشي الظلام راية النصر .

لا برح سيدنا معصوم الروية والأرتجال ، مسجلا بشجاعة اليراعة والحرب مجال ،
محمود الموافق والمساعي "والنفس نفع والطروس مجال" ، والسلام .

الصفحة السادسة

(من الرسائل ما كتبت به الحوادث والمآثر)

ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع : فإذا وقعت للأديب ما جريه وأراد
الكتابة بها إلى بعض إخوانه ، حكى له تلك المآثرية في كتابه مع تميم الكلام
في ذلك ، إما ابتداءً وإما جواباً ، عند مصادفة ورود كتابه إذ ذلك إليه .

وهذه نسخة رسالة أنشأها الإمام قاضي قضاة المسلمين محيي الدين ، أبو الفضل
يحيى ، بن قاضي القضاة الإمام محيي الدين أبي المعالي محمد ، بن علي ، بن محمد ،

(١) وردت هذه الجملة في الأصل هكذا ولا معنى لها .

ابن الحسين ، بن علي ، بن عبد العزيز ، بن علي ، بن الحسين ، بن محمد ، بن عبد الرحمن ،
 ابن القاسم ، بن الوليد ، بن القاسم ، بن عبد الرحمن ، بن أبان ، بن عثمان ، بن عفان
 رضى الله عنه ، لما ورد إلى القاهرة المحروسة في التاسع من جمادى الأولى من سنة
 تسع وعشرين وثمانمائة ، وتُعرف "برسالة التمس" وهي :

وَرَدَتْ رُقْعَةً سَيِّدِنَا أَسْعَدَهُ اللهُ بِتَوْفِيقِهِ ، وَأَوْصَحَ فِي آكْتِسَابِ الْخَيْرَاتِ سُبُلَ
 طَرِيقِهِ ؛ فَوَقَفْتُ عَلَيْهَا وَقُوفَ السَّارِّ بُوْرُوْدَهَا ، الْمُسْتَسْعِدِ بُوْفُوْدَهَا ، الْمُبْتَهِلِ إِلَى اللهِ
 فِي إِبْقَاءِ مُهْجَتِهِ الَّتِي يَتَشَرَّفُ الْوُجُودُ بِوُجُودِهَا :

وَلَيْسَ بِتَرْوِيقِ اللِّسَانِ وَصَوَغِهِ * وَلَكِنَّهُ قَدْ مَازَجَ اللَّحْمَ وَاللِّدْمَا!

وَفَضَضْتُهَا عَنْ مِثْلِ النُّورِ تَفْتَحُهُ الصَّبَا ، وَبُرُودِ الرِّيَاضِ تَسَاهَمَتْ فِي آكْتِسَاءِ
 وَشِبَاهِ الْأَهْضَابِ وَالرَّبَا ؛ يَكْبُو جَوَادُ الْبَلِغِ فِي مِضْهَارِ وَصْفِهَا ، وَيَبْئُو عَضْبُ لِسَانِهِ
 عَنْ مُجَارَاتِهَا فِي رَضْفِهَا ؛ يُجْجِلُ مُحْيَا النَّهَارِ بِيَاضِ طَرْسِهَا ، وَيُوْدُّ اللَّيْلُ لَوْ تَفَضَّتْ عَلَيْهِ
 صِبْغَةَ نَفْسِهَا ؛ وَتَحْسُدُ الْكَوَاكِبُ رَائِقَ مَعَانِيهَا ، وَتَمْنَى لَوْ أُعِيرَتْ فَضْلَ إِشْرَاقِهَا
 وَتَلَالِيهَا ؛ فِي كُلِّ فِقْرَةٍ رَوْضَةٌ وَكُلُّ مَعْنَى كَأْسٌ مُدَام ، وَكُلُّ أَلِفٍ سَاقٌ وَكُلُّ سِيْنٍ
 طُرَّةٌ غَلَام ؛ وَكُلُّ وَاوٍ عَطْفَةٌ صُدُغٌ وَكُلُّ نُونٍ تَقْوِيْسٌ حَاجِبٌ ، وَكُلُّ لَامٍ مَشَقَّةٌ
 عِذَارٌ وَكُلُّ صَادٍ خَطَّةٌ شَارِبٌ ؛ يُصِيبُ مِنْ سَامِعِهَا أَفْصَى مَا يُرَادُ بِالنَّفْثِ فِي الْعَقْدِ ،
 وَتَسْتَوِي بَلْفِظِهَا عَلَى لُبِّهِ آسْتِيْلَاءُ الْجَوَادِ عَلَى الْأَمْدِ .

فَلَمَّا آجَتَلَيْتُ مِنْهَا الْمَعَانِي الْمُسْتَهْبَةِ فِي الْأَلْفِظِ الْمَوْجِزِ ، وَأَجَلْتُ طَرْفِي مِنْهَا مَا بَيْنَ
 زُهْمَةِ الْمُطْمَئِنِّ وَعُقْلَةِ الْمُسْتَوْفِزِ ، وَأَسَلَمْتُ قِيَادِي إِلَى سِحْرِهَا الْمُحَلَّلِ وَإِنْ جَنَى قَتْلَ
 الْعَاشِقِ الْمُتَحَرِّزِ - عَلِمْتُ أَنَّ سَيِّدَنَا أَجْرَى فِي حَلْبَةِ السَّبَاقِ فَحَازَ قَصَبَ سَبْقِهَا ،

(١) كذا في الأصل ولعله المسرور .

وَدَلَّتْ لَهُ الْبَلَاغَةُ فَوَوَّغَلْ فِي شِعَابِهَا وَطُرُقِهَا؛ وَحُكِّمَتْ يَدُهُ فِي أَعْنَةِ الْفَضَائِلِ فَسَأَمَتْ
 الْقَوْمَ إِلَى بَارِيهَا، وَدَرَجَاتِ الْعُلَى إِلَى مُسْتَحَقِّهَا؛ فَمَنْ وَائِلٌ؟ وَمَنْ سَخْبَانٌ؟ ، وَمَنْ
 عَبْدُ الْحَمِيدِ؟ وَأَبْنُ صُوحَانَ ، وَأَيُّ خَيْرٍ يُقَابِلُ الْعِيَانَ؟ وَمَنْ يُقَاوِمُ مَا هُوَ كَائِنٌ بِمَا
 كَانَ؟ . فَسَأَلْتُ خَاطِرِي الْجَامِدَ أَنْ يُعَارِضَ بَوَائِلَهُ طَلَّهَا ، وَأَنْ يُقَابِلَ بِجُثْمَانِهِ ظِلَّهَا؛
 وَأَنْ يُجَارِيَهَا فِي حَلْبَةِ الْمَسَاجِلَةِ وَإِنْ دُعِيَ بِالسُّكَيْتِ ، وَلَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا
 وَكَيْفَ بِنُطْقِي مِنْ مَيِّتٍ؛ وَأَنْ يُطْمَعُ فِي مُجَارَاةِ الْبَحْرِ وَلَا تَ حِينَ لَعَلَّ أَوْلَيْتَ؛
 فَوَجَدْتُهُ أَصْلَدَ مِنَ الصَّخْرَةِ مَسَا ، وَالْفَيْتُ بِأَقْلًا لَدَيْهِ قُسَا ، فَمَا كُلُّ مَنْ طُرِقَ قَرَى ،
 وَلَا مَنْ إِذَا خَلَقَ قَرَى؛ وَهَذَا الْمَعْهُودُ مِنْ خَاطِرِي إِذَا كَانَ جَامًا فَكَيْفَ وَقَدْ نَضَبَ
 مَائُهُ وَكَدَّرَتْ الْحَوَادِثُ بَحْرَ عِلْمِهِ وَالغَيْرَ ، فَمِنْ دُونَ أَنْ تُسْتَخْرَجَ مِنْهُ الدَّرُّ أَنْ يَلِينَ
 لِضَرْسِ الْمَاضِعِ الْحَجَرِ؛ فَبَدَّلَ جُهْدَهُ لِمَا شَعَبَتْ الْهُمُومُ سُبُلَهُ ، وَتَقَنَّعَ بِالْخَلْقِ مَنْ
 لَا جَدِيدَ لَهُ .

هَذَا مَعَ وَاقِعَةٍ وَقَعَتْ لَهُ فَاصْبِحْ مُنْشِدَنَا ، وَتَحَى عِنَانَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهَا مُتَلَفَّتًا؛
 وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي بَارِحَتِهِ آسْتَوَى عَلَيْهِ التَّلَقُّ بِسُلْطَانِهِ ، وَأَسْتَلَبَتْ يَدُ الْأَرْقِ كَرَاهٍ مِنْ بَيْنِ
 أَجْفَانِهِ؛ كَأَنَّهُ سَاوَرْتَهُ ضَبِيلَةَ سُمِّهَا نَاقِعٍ ، أَوْ مَدَّتْ إِلَيْهِ خَطَايِفُ حُجْنٍ لَهَا أَيْدِي
 الْخَطُوبِ نَوَازِعِ :

إِذَا اللَّيْلُ الْبَسَنِي نُوْبَهُ • تَقَلَّبَ فِيهِ فَنِي مَوْجَعٍ

فِتَارَةٌ فِكْرَتُهُ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ قَلْبِهِ حَظَّهُ ، وَأَوْنَهُ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى مَا يَقْدِفُهُ طَارِفُ لَحْظِهِ؛
 وَإِنْ يَدَ الْخُمُولِ قَدْ آسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ ، وَأَزِمَةٌ الْمَطَالِبِ صُرِفَتْ عَنْهُ وَحَقُّهَا أَنْ تُصْرَفَ
 إِلَيْهِ ، وَالسَّعَادَةُ شَارِدَةٌ عَنْهُ وَمَا أَجْدَرَهَا أَنْ تُطَيِّفَ بِبَابِهِ وَتَسْتَقِرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ :
 لَنْ كَانَ أَذْلَى حَائِلٌ فَتَعَدَّرَتْ • عَلَيْهِ وَكَانَتْ رَادَّةً فَتَخَطَّتْ ،

لَمَّا تَرَكَتْهُ رَغْبَةً عَنِ حِبَالِهِ * وَلَكِنَّهَا كَانَتْ لَا تَحْرُخُطُ !!

ولقد جهد في سلم الدهر وهو يُحَارِبُهُ، "وكيف تُوفِّيَ ظَهَرَ مَا أَنْتَ رَاكِبُهُ؟" فما شامَ بَارِقَةَ آمَلٍ إِلَّا أَخْفَقَتْ وَرَجَعَ بِجُحْفَى حُنَيْنٍ، وَقَرَّتْ أَعْيُنُ أَعَادِيهِ كَمَا سَخِنَتْ مِنْهُ الْعَيْنُ، فَلَقَدْ أَصْبَحَ أَفْرَغَ مِنْ سَجَامِ سَابَاطٍ وَإِنْ كَانَ "أَشْغَلَ مِنْ ذَاتِ النَّحْيَيْنِ".

وكلمة تأمل جَدَّهُ الْعَائِرِ النَّائِكِصِ، وَنَظَرَ رِزْقَهُ النَّاضِبِ النَّاقِصِ؛ وَقَابَلَهُ الدَّهْرُ بِالْوَجْهِ الْعَابِسِ الْكَالِحِ، وَمَنَى نَفْسَهُ عُقْبَى يَوْمِ صَالِحٍ، رَجَعَ عَلَيْهَا فَمَنَى لِي بِالسَّائِحِ بَعْدَ الْبَارِحِ؟؛ وَنَابَحَى نَفْسَهُ بِإِعْمَالِ الرَّاكِبِ، وَالْأَضْطِرَابِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَأَنْ يَرَى بِالْجُودِ طَلْعَةَ نَائِرٍ وَبِالْعَرْمِيسِ غُرَّةَ آئِبٍ؛ وَيَصِلُ التَّهْجِيرَ بِالسَّرِيِّ، وَيَبُتُّ مِنْ قَيْدِ الْأَوْطَانِ مُوْتَقَاتِ الْعُرَى؛ وَإِنْ كَسَدَتْ فِضِيلَةٌ مِنْ فِضَائِلِهِ، أَوْ رَثَّتْ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسَائِلِهِ؛ اِكْتَسَبَ بِأُخْرَى مِنْ أَخَوَاتِهَا، وَنَفَتْ فِي عُقْدِهَا وَمَتَّ بِهَا وَقَالَ: أَنَا ابْنُ بِيْعَدِيَّتِهَا؛ فَلَا أَمَّ وَعَلَّامَ وَحَتَّى مَتَى، أَجَاوِرُ مِنْ أَنَا فِيهِمْ أَضْبَعُ مِنْ قَمَرِ الشَّنَاءِ؟؛ وَحَالِي أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُقَامَ عَلَيْهِ دَلِيلٌ، وَ"إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلٌ":

وَمَا أَنَا كَالْعَيْرِ الْمُقِيمِ بِأَهْلِهِ * عَلَى الْقَيْدِ فِي بُجْبُوحَةِ الدَّارِ يَرْتَعُ!

ثُمَّ اسْتَهْوَلَ تَفَحُّمَ الْإِعْوَارِ وَالْإِنْجَادِ، وَأَسْتَفْتَحَ لِقَادِحِ زِنَادِ الْحِطِّ الْإِسْكَاءِ وَالْإِصْلَادِ، وَأَقُولُ: أَخْطَأَ مُسْتَعْجِلٌ أَوْكَادَ؛ فَأَتُوبُ مَتَابَ مِنْ حَلَبِ الدَّهْرِ أَشْطَرَهُ، وَأَخَذَ إِذَا أَرْتَفَعَ عَنِ الدُّنْيَا مِنْ حَظِّهِ أَيْسَرَهُ، وَبَنَى كَمَا بَنَى سَلْفُهُ وَقَرَّرَ مَا قَرَّرَهُ؛ فَأَقُولُ: أَرْفُضُ الدُّنْيَا وَلَا تُتْلُو عَلَيْهَا، فَتَكُونَ "أَحْمَقَ مِنْ أُمَّهُورَةٍ إِحْدَى خَدَمَتَيْهَا"، "فَالْحُرَّةُ تَجُوعُ وَلَا تَأْكُلُ بِتَدْيِيَّتِهَا":

وَلَسْنَا بِأَوَّلِ مَنْ فَاتَهُ * عَلَى رِفْقِهِ بَعْضُ مَا يَطْلُبُ.

وَقَدْ يَدْرِكُ الْأَمْرَ غَيْرَ الْأَرِيْبِ * وَقَدْ يُصْرَعُ الْحَوْلُ الْقُلْبُ!

وتارة يُخَطَّرُ أَنْ لَوْ شَكَّوْتُ حَالِي إِلَى أصدقائي من دَوِي الجاه، وسألنهم بالحقاق
 بهم في الابتغاء من فضل الله ؛ وأحضهم على آتِهازِ فُرْصَةِ الإحسانِ قَبْلَ النَّوْتِ ،
 وَأَضْرَبُ لَهُمْ : "أَعِنَ أَخَاكَ وَلَوْ بِالصَّوْتِ" فليس على مثلي من يُحْيِفُهُ الدَّهْرُ في ذلك
 من جُنَاحٍ ، "وَهَلْ يَنْهَضُ البَازِي بِغَيْرِ جَنَاحٍ" ؛ ثم أرى أنهم لو فَضَّلَ عَنْهُمْ شَيْءٌ لَجَادُوا ،
 بل لو زُوِيَتْ الأَرْضُ لَهُمْ لَأَزْدَادُوا ؛ ولو مُلِكُوا ظَلَّ اللهُ لِأَصْبَحَتْ لَدَيْهِمْ ضَاحِيَا ،
 وما حَالِي بِخَافٍ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بُرْغَانِهَا مُنَادِيَا ، وَقَبْلِي بَنِي عَلِيٍّ الأَمْرَ فَقَاتَهُ وَأَدْرَكَ الْجَدَّ
 السَّعِيدَ مُعَاوِيَا ، وَإِلَى كَمْ أَعْلَلُ تَعْلِيلَ الفَطِيمِ بِالْحِضَابِ :

سَمِئْتُ العَيْشَ حِينَ رَأَيْتُ دَهْرِي • يُكَلِّفُنِي التَّدَلُّلَ لِلرِّجَالِ !

وَأُخْرَى يُسَلِّي نَفْسَهُ عَنْ مُصَابِهَا وَمَصَائِبِهَا ، وَمِنْهَا كَرُّ الأَيَّامِ بِتَعاقُفِهَا ، وَيَقْصُ
 عَلَيْهَا تَقَلُّبَ اللَّيَالِي بِالْأَنْمِ المَاضِيَةِ فِي قَوَالِيهَا ، وَأَنَا مَا قَدَّمْتُ لِأَحَدٍ سَعَادَةً إِلَّا عَقَّبَتْهَا
 بِتَغْيِيرٍ ، وَمَا سَقَّتْ صَفْوَةَ الأَمَانِي بَشْرًا إِلَّا شَابَتْ كَأْسُهُ بِتَكْدِيرٍ ، وَأَنْ سَبِيلَ كُلِّ أَحَدٍ
 مِنْهَا سَبِيلٌ ذِي الأَعْوَادِ ، وَقُصَارَايَ وَلَوْ آتَخَذْتُ الأَرْضَ مَسْكًا وَأَهْلَهَا خَوْلًا سَبِيلُ
 رَبِّ القَصْرِ مِنْ سَنَدَادٍ ، وَلَوْ عَمَّرْتُ عُمرَ نُوحٍ كُنْتُ كَأَنِّي وَأَدَمَ وَقَتَ الوَفَاةِ عَلَى
 مِيعَادٍ ؛ فَانْ شِئْتَ فَارْفَعْ عَصَا التَّسْيَارِ أَوْضِعْ ، فَمَا هُوَ إِلَّا : "حَارِبٌ بِجِدِّ أَوْدَعُ" .

فَبِينَا أَنَا أَعُومُ فِي هَذِهِ الخَوَاطِرِ مُتَفَكِّرًا ، وَأَقْرَعُ سِنَّ النَّدَمِ عَلَى تَقْضِي عُمرِي فِي غَيْرِ
 مَآرِي مُتَحَسِّرًا ، وَأَتَسَلَّى بِمَصَارِعِ الأَوَّلِينَ أُخْرَى مُعْتَبَرًا ؛ وَلَوْ أَنْجَزْتَنِي الأَيَّامُ مَوَاعِيدَ
 عُرُقُوبٍ ، لَأَنْضَيْتُ بِي إِلَى أَحَلِّي مِنْ مِيرَاثِ العَمَّةِ الرُّقُوبِ ، وَلَقَدْ تَقَاعَسَ أَمَلِي حَتَّى
 قَنَعْتُ بِحَالِي "وَشَرُّ مَا أَلْحَاكَ إِلَى مُحَّةِ عُرُقُوبٍ" ، ثُمَّ يُحَاطِبُنِي حِجَايَ بَانَ تَثَبَّتْ وَأَصْبُرُ ،
 فَالليلُ طَوِيلٌ وَأَنْتَ مُقَمَّرٌ ، فَسَتَبْلُغُ بِكَ الأَسْبَابُ ، وَيَتَّهِي بِكَ إِلَى المَقْدُورِ الكِتَابِ ،
 فَلَا تَعْجَلْ بِجُرَى المَذِيكَاتِ غَلَابِ .

فاسترَوحتُ إلى فتح بابٍ كان مُرتجبا ، وأرتدتُ باستجلاء مُجيا السماء من بعض
 همى فرجا ، وانتشقتُ من نسيم السَّحَرِ ما وجدتُ به من ضيقِ فِكْرِى مُخرجا ؛
 ففتحته عن سُبالِكِ كتنخيطِ الأوقاق ، أو كزُفاعةِ شطرنجٍ وضعتُ بين الرقاق ؛
 أليس من صبغة الليل شعارا ، وأتخذُ لاستجلاء وجه الغزاة نهارا ؛ جلد على القيام
 والكد ، صبور على الحالتين في الحرِّ والبرد ؛ يحولُ جُثانَ المرءِ عما وراه ، ويبيحُ
 إنسانَ الطرفِ رعى حماءه ؛ يُدِيلُ من ظلمة الليل ضوءَ النهار ، وينم بما استودعتهُ
 من الأسرار ؛ يُشِيرُ إلى غِيضةٍ قد ألتفتُ أشجارها ، وتهدلتُ ثمارها ، ورقصتُ
 اغصانها إذ غنت أطيَّارها ، وأطردت بصافي الزلال أنهارها ، وتمت بعرف العنبر
 الشحري أزهارها ؛ وقد قامت عرائسُ النَّارِجِ على أرجلها ، تحتالُ في حلبيها وحلبيها ؛
 قد أليست من أوراقها خلعًا خضرا ، وحللت من ثمارها تيرا ؛ ونظمت قداحها
 في جياها لؤلؤًا رطبًا ، ورثعها نسيمُ السَّحَرِ فالت عُجبا ؛ وقد مدت في أرضها
 من البنفسج مفارشُ سُندسٍ فروزت بالحدأول ، كبساطٍ أخضر سلَّتْ أيدي القيون
 عليه صقيلات المعاول ؛ وقد حدثت عيونُ الرُّقباء من النرجس قائمة على ساق ،
 ولعبت بها يدُ النَّسيمِ فتمايلت كعناق المحين عند الفراق ، فأجلتتُ مُجيا وسيمًا تَبَلَّج
 أسرته ، ومنظرًا جسيما تروق بهجته ؛ قد مدَّ السَّماطُ بساطًا أزرقا ، بزهر الكواكب
 مشرقا ؛ وطرزه بالشفق طرازًا مُذهبا ، وأبدى تحته للاصباح مفرقا أشيا :

وَرثَ قَمِيصُ اللَّيْلِ حَتَّى كَانَهُ * سَالِبٌ بِأَنْفَاسِ الصَّبَا مُتَوَشِّعٌ ،

وَرَقَعَ مِنْهُ الدَّيْلُ صُبْحُ كَانَهُ * وَقَد لَاحَ تَخَنُّصُ أَشْقَرِ اللَّوْنِ أَجْلَعُ ،

وَلَا حَتَّ بَقِيَّاتُ النُّجُومِ كَانَهَا * عَلَى كَبِدِ الْخَضْرَاءِ نَوْرٌ يُفْتَحُ !

وجنح البدر للغروب فنداعت الكواكبُ تذبذبه كوكبا فكوكبا ، فكانه ملكٌ أخذ

الحجرة عليه مضربا ؛ وتوج بالثريا إكليلًا ، وخنست الكواكبُ بين يديه توقيرا له

وتجّيلاً ؛ وأصطفت حوله خدماً وجنوداً ، ونسّرت من أشعتها ألويةً وبنوداً ؛
وأخذت مقاماتها في مرّاكرها بجيوش عبّئت للقاء مناجزها ، ومسايقها أخذت فرصة
النصر ومناهرها :

ولاح سهيلٌ من بعيدٍ كأنه • شهابٌ ينجيه عن الریح قانس!

وأنبرى نسيم السحر عليلاً ، وجرّ على أعطاف الأزهار ذبلاً بليلاً ؛ وروى أحاديث
الرياض بلسان نثره ، مديعاً لأسرار خزاماه وزهره ؛ وغرّدت خطباء الطير على منابر
الأغصان ، وأستنبطت من قلوب المحبين دقات الأشجان ؛ وحثّ داعي الفلاح ،
طائفة التقي والصّلاح ؛ على أن تؤدّي فرضها ونفلها ، وترتقي بحضوعها بين يدي
مولاه دَرَجَاتِ السَّعَادَةِ التي كانت أحقّ بها وأهلها ؛ وهتف بشير الشجج بمن أحيا
ليلته لما تمزق قميص الليل وأنفري : "عند الصّباح يحدّ القوم السرى" .

فبينما أنا أتفكّر في أن جملة ما عاينته سيصبح زائلاً ، وعن تلك الصبغة العجيبة
حائلاً ، وأتدبر : ((ويتفكّرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً))
إذ أهدت إلى الأيام إحدى طرفيها وغرائبها ، وكبرى أوايدها وعجائبها ؛ فطرق سمي
من الشباك نباه ، وتلتها وجبة تتبعها وثبه ؛ فاستعدت من كيد الشيطان المرید ،
وقلت : أسعد أم سعيد ؛ وإذا بنمس قد فارق وجاره إلى وجارى ، وأختارني على
الصّحراء جاراً فأرتضيت له جوارى ؛ فوجب مستأنسا ، ومرح بين يدي أنسا ، وأراني
أحد كتيفيه في الأسترسال لينا والآخر بالتمتع شامسا ؛ فدلّ له الحرص على جوره حبانل
مكره وشباك ، ويد الغبش تحول دون قنصه وإنسا كه ؛ وبقايا الظلام تقضى
بتمنعه ، وتصد عن جعله من الوثاق في موضعه ؛ وأنا ملأزمه ملازمة المعسر رب
الدين ، حتى يتبين الصبح لذي عينين .

فلما خَشِيتُ على صَلَاتِي الفَوْتَ عَدَلْتُ إلى تَأْدِيَةِ قَرِيضِهَا ، وَتَوَجَّيْتُهَا بَيْنَ يَدَيَّ
مُوجِبَهَا وَعَرَضِهَا ؛ فلما انْفَلَتْتُ من مُصَلَّي ، وَأَنْصَرَفْتُ عن مُنَاجَاةِ مَوْلَايَ ؛
بَرَقَتْ لِي بَارِقَةٌ ، خِيلَ لِي أَنَّهَا صَاعِقَةٌ ؛ فقلتُ : أَدْرَقَرُنَّ الغَزَالَهَ ؟ ، وإلا فَلَاتَ
حِينَ ذُبَالَهَ ؛ فَيَقِيلُ : إِنَّ الغُلَامَ نَظَرَ إِلَيْهِ شَرًّا ، وَهَزَّلَه المُهَنَّدَ فَشَقَّ لَه من الظُّلَمَاءِ
بِحُرِّهَا ، وَأَبْدَى لَه وَجْهًا مُكْفَهَرًا ، وَرَامَ أَنْ يُمِطِيَه من المِنِيَّةِ مَرَجَبًا وَعِزًّا ، كَأَنَّهُ قَد لَاقَى
أَسَدًا هَزَبْرًا ؛ وَأَتَرَعَ لَه كَأَسَ الحِمَامِ بِالوَاقِي ، وَرَمَاه بِثَالِثَةِ الأَثَافِي ؛ فَعَطَفْتُ عَلَيَه
بِاللَّائِمَةِ مُنْكَرًا لِحَالِهِ ، وَهَتَفْتُ بِهِ زَاحِرًا عن قُبْحِ فِعْلِهِ ، ثُمَّ عَدَّرْتُهُ : ” وَمَنْ لَكَ بِأَخِيكَ
كَلَهَ “ ؛ وَقُلْتُ لَه : مَاذَا تَرَكَ تَصْنَعُ لَوْلَاقِيَتِ أَسَدًا أَغْلِبَا ؟ ، لَقَدْ خَلْتُ أَنَّكَ تَرْتَدُّ - وَإِنْ
كُنْتَ وِلِيدًا - أَشْيَا ؛ أَمِنْ هَذَا بَادَرْتَ إلى السَّيْفِ مُحْتَرِطًا ؟ ، ” إِنَّكَ لَأَجْبِنٌ من
الْمُتْرُوفِ ضَرِطًا “ لَقَدْ أَظْهَرْتَ من الفَشْلِ مَا جَاوَزَ قَدْرَ الحَدِّ ، وَوَضَعْتَ المِزَاحَ
فِي مَحَلِّ الحَدِّ وَقَابَلْتَ الأَسْهَلَ بِالأَشَدِّ ؛ فَسُحِقًا لَكَ وَبُعْدًا ، لَقَدْ قَدَحَ مَرَجِيكَ
بِعِدَا زَنَادًا صَلْدًا ، وَأَسْتَنْبِعَ المَاءَ جَلْمَدًا جَلْدًا .

فَصَوَّبَ طَرَفَه فِي وَهْتَفٍ مُنَادِيًا ، وَأَظْهَرَ وَفَاءَ أَرْزِي بِالسَّمَوَمَلِ بْنِ عَادِيَا : أُنْجُ
هَرَبًا وَلَا إِخَالِكَ نَاجِيَا ؛ إِنِّي رُمِيْتُ من الخُطُوبِ بِأُصْعَمِيَا ، وَلَا يُبْنِتُكَ بِالحُرُوبِ
كُجْرِيهَا ، وَالعَاصُ بِاللُّقْمَةِ أَخْبَرِيهَا ؛ فَلَقَدْ أَوْطَأَنِي مَا لَا أَسْتَقْبِلُ مِنْهُ العَثْرَهَ ، وَمَا لَاقِيْتُ
فِي حَرْبٍ كَهَيْذِهِ المَرَّةِ ، ” وَالْعَوَانُ لَا تُعَلِّمُ الخِمْرَهَ “ ؛ لَقَدْ صَرَّحَ لِي بِالشَّرِّ وَلَمْ يُجِجْ ، وَكَشَرَ
عَنْ أُنْيَايَه غَيْرَ مُتَبَمِّمٍ ؛ ” وَحَسْبُكَ من شَرِّ سَمَاعِهَ “ ، ” أَسْتُ البَائِنِ أَعْلَمُ “ ؛ تَاللَّهِ إِنَّه لَأَجْرَأُ
من حَاصِي الأَسَدِ ، وَلَئِنْ سَبَرْتَه لَتَعَلَّمَنَّ مَا يَبِينُ الذَّنْبِ وَالتَّقَدُّ ؛ وَلَقَدْ رَضِيْتُ نَفْسِي من
الغَنِيمَةِ أَنْ تُؤَوِّبَ بِدَمَائِيَا ، لَمَّا تَسَبَّتْ بِخَنْصَرِي تَخَضُّبَهَا بِدَمَائِيَا ، فَقُلْتُ : ” أَجْفَلُ عن
جَنَابِكَ الخَيْرُ وَأَجْلِي “ ، ” أَضَرِّطًا وَأَنْتَ الأَعْلَى “ ؛ ثُمَّ تَضَاحَكْتُ إِلَيْهِ لَمَّا شَاهَدْتُ
أَسْتِعْبَارَه ، وَأَوَيْتُ لَه إِذْ رَأَيْتُ أَسْتِكَارَه الخُطْبَ وَأَسْتِكَارَه ؛ وَقُلْتُ : من ضَافَ الأَسَدَ

قَرَاهُ أَظْفَارَهُ، وَمِنْ حَرَكِ الدَّهْرِ أَرَاهُ أَفْتِدَارَهُ، وَعَدَلْتُ إِلَى الذُّلُولِ الشَّامِسِ، الْمُسْتَأْسِدِ
الْمُسْتَأْسِسِ، وَمَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهِ فَأَنْقَادَ لَهَا طَائِعًا، وَخَضَعَ لِإِجَابَةِ دَعْوَتِي سَامِعًا.

فَلَمَّا حَاذَهُ فِي الْقَبْضَةِ الْإِسَارَ، وَبَطَلَ الْإِقْلَالَ مِنْ ذَلِكَ اللَّفْظِ وَالِإِكْثَارِ، وَقَدْ
كَانَ أَعَزَّ مِنَ الْأَبْلَقِ الْعُقُوقِ، وَأَبْعَدَ مِنْ بَيْضِ الْأُنُوقِ، أَسْتَجَلَيْتُ صُورَتَهُ مُتَأَمِّلًا،
إِذْ لَمْ يَبْقَ لَهُ سِوَى قَبْضَتِي مَوْلَا، فَرَأَيْتُ هَامَةً نَحْمَهُ، وَجُنَّةً صَحْمَهُ، وَشِدْقًا أَهْرَتَا
رَحْبًا، ذَا مِرَّةٍ عَلَى اخْتِلَافِ الْحَوَادِثِ صَعْبًا، وَأَنْبِيَابًا مُحَدَّدَةً عُصَلًا كَالنَّصَالِ، وَطَرْفًا
مُحَالِسًا غَيْرِ غَرٍّ بِالْمَكْرِ وَالْحِتَالِ، كَأَنَّهُ شِهَابٌ يَتَوَقَّدُ، أَوْ شُعْلَةٌ نَارٌ لَمْ تَحْمَدْ، وَسَامِعَتَيْنِ
تَتَوَجَّسَانِ مَادَارَ فِي الْأَوْهَامِ، وَتُدْرِكَانِ مَا يَنْجِي بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَلَوْ فِي الْأَحْلَامِ، قَدْ
نَيْطَتْ بَعْنُقٍ صَغُرَتْ هَامَتُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، إِنْ أَسْتَدْبَرْتَهُ قَلْتَ: هُوَ مُشْرِفٌ عَلَيْهَا
أَوْ أَسْتَقْبَلْتَهُ قَلْتَ: هِيَ مُشْرِفَةٌ عَلَيْهِ، يَسْتَمِلُ عَلَى تَحْرِخِ خَصِيْبٍ، وَصَدْرِ رَحِيْبٍ،
فِيهِ نَزَعَاتُ بِيَاضِ كِهْلَالَيْنِ قُرْنَا فِي نَسَقٍ، أَوْ نَجْمَتِي ذُوَابَةَ ظَهْرًا فِي غَسَقٍ، تُسَرُّ نَفْسُ
النَّاظِرِ إِلَيْهَا، وَيُعْقَدُ خَنْصِرَ الْأَخْتِيَارِ فِي حُسْنِ الشِّيَاتِ عَلَيْهَا، أَتَّصِلُ ذَلِكَ بِمَنْكِبِ
عَيْدٍ، وَسَاعِدِ شَدِيدٍ، وَرُبُّنِ شَتْنٍ وَمِخْلَبِ حَدِيدٍ:

ذَوَاتِ أَشَافٍ رُكِبَتْ فِي أَكْفِهَا * تَوَافِدَ فِي صَمِّ الصُّخُورِ نَوَاشِبِ،

مُعَقَّقَةِ التَّرْهِيفِ عُوِجَ كَأَنَّهَا * تَعَقَّرُبُ أَصْدَاغَ الْحِسَانِ الْكَوَاعِبِ!!

قَدْ جَاوَرَ جُوجُوجًا نَهْدًا، وَقَابَلَ كَاهِلًا مُتَمَدًّا، يَكَادُ خَصْرُهُ يَنْعَقِدُ أَضْطِرَارًا،
وَهَمَّتْهُ تَسَعَّرَ نَارًا، بِرِجْلَيْنِ تَسْبِقُ فِي الْحُضْرِ يَدَيْهِ، وَتَقْدُّ بِأَظْفَارِهَا أُذُنَيْهِ، وَذَنْبٍ
كَالرِّدَاءِ الْمُسْبَلِ يَجْرُهُ آخْتِيَالًا وَمَرَحًا، وَيَدِيَهُ عُجْبًا وَفَرَحًا، إِنْ أَنْسَابَ قَلْتَ: أَنْسَابُ
أَفْعُوَانِ، أَوْ صَالَ قَلْتَ: أَسَدُ خَفَّانٍ، أَوْ وَثَبَ سَبَقَ الْوَهْمِ فِي أَنْحِطَاتِهِ، أَوْ طَلَبَ
أَدْرَكَ الْبَرِّقَ مِنْ نَشَاطِهِ، أَوْ طَلَبَ فَاتَ الطَّرْفِ فِي أَنْحِرَاتِهِ، أَنْعَمَ مَسًّا مِنْ أَرْنَبِ،

وأزهي من تَعَلَّبَ ؛ قد كَسَاهُ الظَّلَامُ خَلَعَتَهُ ، وَقَبْلَ الصَّبَاحِ طَلَعَتَهُ ؛ حَازَ مِنَ الْقَنْدِيسِ
صِقَالَهُ وَبَهَجَتَهُ ، وَمِنَ الْفَنَكِ لِينَهُ وَنَعَمَتَهُ ؛ أَلَيْسَ رِذَاءَ الشَّبَابِ ، وَنُزَّهُ عَنْ تَزْوِيرِ
الْخِضَابِ ؛ إِنْ أَخْتَلَسَ فَمَا تَأْبَطُ شَرًّا ، أَوْ خَاتَلُ أَزْرَى بِالشَّنْفَرَى مُكْرَاهًا ؛ أَحَدٌ نَفْسًا
مِنَ عَمْرُو بْنِ مَعْدَى ، لَا يُصَلِّدُ قَادِحَ زِنَادٍ بَطِيشَهُ وَلَا يُكْدِي ؛ أَرْزُقُ مِنْ أَبِي عَبَّادٍ ،
وَأَصُولٍ مِنْ عَنَتَرَةَ بْنِ شَدَّادٍ ؛ أَفَنُكُ مِنَ الْحَرِيثِ بْنِ ظَالِمٍ ، وَأَنْهَرَ فُضْدًا لِلدَّمِ مِنْ حَاتِمٍ ؛
لَا يَلِينُ وَلَا يَشْكُو إِلَى ذِي تَضَمِيمٍ ، " كَأَنَّهُ كَوَكَبٌ فِي إِثْرِ عَفْرِيتٍ " ؛ يَكَادُ عِنْدَ
الْمُخَاتَلَةِ فِي أَنْسِيَابِهِ ، يَفُوتُ الْخَاطِرَ أَوْ يُخْرِجُ مِنْ إِهَابِهِ ؛ إِنْ قَارَنَ طَيْرًا أَبَاحَهُ مِنْسَرًّا
كَمَنْسِيرِ الْأَسَدِ ، أَغْلَبَ فِيهِ شَعًّا كَأَنَّهُ عِقْدُ تَمَّازِينِ فِي الْعَدَدِ ؛ فَيُنْشِدُهُ : أَلَا عِمَّ صَبَاحًا
أَيْهَا الطَّلُّ الْبَالِي ، فَلَا يُحْسُ لَهُ بَعِيْنٌ وَلَا أَثَرٌ سَجَّيسَ اللَّيَالِي ، فَكَأَنَّ قُلُوبَهَا رَطْبًا
وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهِ الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي ؛ أَعْتَادَ قَنْصَ السَّايِحِ وَالْبَارِحِ ، فَمَا فَاتَ
وَرَدَ الْمَنِيَّةَ مِنْهُ غَايِدٌ وَلَا رَائِحٌ ؛ طَوِيلُ الْقَرَأِ مُدْمَجُ الْأَعْظَمِ ، لَهُ مُخَاتَلَةٌ سِرْحَانٍ وَهَجْمَةٌ
ضَيْعَمٌ ؛ أَحْنُ مِنْ نَقْبِهِ (؟) ، وَأَظْلَمُ مِنْ حِيَّةٍ ، أَطْيَشُ مِنْ فَرَّاشَةٍ ، وَأَسْبِقُ إِلَى الْغَايَاتِ
مِنْ عُكَّاشَةٍ ؛ أَخْطَفُ مِنْ عُقَابٍ ، وَأَنْتَجِعُ مِنْ سَاكِنِ غَابٍ ؛ أَسْرَقُ مِنْ جُرَيْدٍ وَأَتَوْمُ
مِنْ فَهْدٍ ، وَأَلِينُ مِنْ عَيْنٍ وَأَخْشَنُ مِنْ قِدِّ ؛ بَأْسُهُ قَضَاءٌ عَلَى الطَّيْرِ مُزَلٌّ ، وَبَطِيشُهُ
مَلَكٌ بِأَجَالِهَا مُرْسَلٌ .

فلما تأملت خلقه ، وسبرت بتجربة الفراسة خلقه ؛ عجبت له جرياً مستحصد
المرّة لوثاقه ، وأحكمت شده في محل خناقه ؛ وقلت له : إني مجربك سخابة هذا
النهار ، "ومن سلك الجدد آمن من العثار" ؛ فعل ذي خبرة بمكره ، وعلى ثقة من غديره ؛
فإن اللئيم ذو صولة بعد الخضوع ، وفضح التطبع شيمة المطبوع ؛ وكيف النعمة به
وإن استقر ولم ينيس ؛ وأنى الطمأنينة إليه وهو الأزرق المتأمس ؟ .

ثم أنصرفتُ إلى البلدِ لبعْضِ شأني ، والأجتماعِ بأخْلَائي وأخْداني ؛ وأسْتغرقتُ
أديمَ النهارِ فيما توجَّهْتُ له ، وقطعتُ عُمرَ يومٍ ما كان أطولَه ! .

فلما قضيتُ نَهْجِي ، من مُجْعِي ، وحانت معُ وجُوبِ الشَّمْسِ رَجْعِي ، أَلْفَيْتُهُ
عَمَدَ إلى الوَثاقِ فقرَضَه ، ووفَّاه بالِكَيْلِ الوَافِي ما اقْتَرَضَه ؛ وصالَ على شَيْخَةٍ نَسْتَسْعِدُ
بُدْعَائِهَا ، ونَفَزَعُ إن دَهَمْنَا هَمَّ قَبْلَ نِدَاءِ أُولِي البَطْشِ إلى نِدَائِهَا ؛ ذاتِ خُلُقٍ عَظِيمٍ ،
ومَنْطِقٍ رَخِيمٍ ، وَقَلْبٍ رَحِيمٍ ، ووجْهِ ذِي نُضْرَةٍ وَنَعِيمٍ ؛ إن قامتُ أُحْيَتِ اللَّيْلَ بالسَّهَرِ ،
أو قرأتُ رأيتُنا حَوْلَها زُمرًا بعدُ زُمرًا ؛ إن حَدَّثَتْها نَطَقَتْ بالسَّحَرِ مُحَلَّلًا ، أو تَارَكَتْها
رَأَتْ الصَّمْتَ على كَثِيرٍ من النُّطْقِ مُفَضَّلًا ؛ تَسْرُ نَفْسَكَ في حَالَةِ الصَّخَبِ ، وتُريكَ
وجْهَ الرِّضَا في صُورَةِ الغَضَبِ ؛ فمَدَّ إليها يَدَ العُدْوَانِ ، وأطاعَ بأذاها أَمْرَ الشَّيْطَانِ ؛
ولم يَرْقُبْ فيها إلَّا ولا ذِمَّةً ، وحملَها حَمَلْنَا من أذاها عُمَّةً ؛ ومزَّقَ قَشِيبَ أنوَابِهَا ،
وحكَّ مَخَالِيهَ الحَديدَةَ في إهابِهَا ، فعَظُمَ مُصَابُ من حَوَتْ دَارِي بِمُصَابِهَا .

فلما وصلتُ رأيتها باِكِيَّةَ ذاتِ قَلْبٍ مَرِيضٍ ، وجَنَاحِ مَهِيضٍ ؛ فسَلَّيْتُهَا بأنَّ
المَصَابِيبَ تُلقَاها الأبرارَ ، وترَفَّقَتْ بها إلى أن رَقَاتِ تلك الأدمعِ الغِزارِ ، وأوردتُ :
« إنَّ جَرَحَ العَجَاءِ جُبَارٌ » ؛ وقلتُ : إِيهاً لكِ وآها ، لقد أَرْتَكِبْتِ خُطَّةً ما أَلِيقَها بِعُدْرِكَ
وأولَها !! ؛ « فلقد أنصَفَ القَارَةَ من رَامَها » ثم آلَيْتُ إِلَيْهَ برَهَ ، لأُوطِئَنَّهُ من الوَثاقِ
بِجَمْرِهِ ، ولأَقْتَصِنَ بِهِ المَرَّةَ تلكَ المَرَّةَ ؛ وأتَيْتُهُ بِسِلْسِلَةٍ تَنْبُو أنيَابُهُ عَنِ عَجْمِهَا ،
ولا تَثْبُتُ شَيَاطِينُ مَكْرِهِ بِرَجْمِهَا ؛ قد أبدعَ قَيْنِهَا الصَّنْعَةَ بإحْكامِهَا ، وأتَى بالعَجَبِ
في نِظامِهَا ؛ فإِنَّهُ هُوَ مَن تَحْكَمُ فِيمَا يَقْطَعُ الجَلَمَدَ ، بفعَلِهِ من اللُّطَافَةِ يُحِلُّ وَيُعْقِدُ ؛
فاسْتَوَدَعْتُ عُنُقَهُ مِنْهَا أَمِينًا لا يُخْفِرُ وَثِيقَ ذِمَّتِهِ ، ولا تَنْطَرِقُ الاوهامُ إلى تُهْمَتِهِ ؛
مُسْتَحْكَمِ القُوَّةِ في الشَّدِّ ، فَتَغِيظُ تَغِيظُ الأَسِيرِ على القِدِّ ؛ ونَظَرَ إلى بَطْرِفِ حَديدِ ،

وتذلل بعد بأس شديد، وبصَبَصَ بذَنبِهِ فقلتُ : "أمكراً وأنتَ في الحديد" . فلما
أيس من الخِلاص ، تلوتُ : (وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ) .

فلما تم ما ذكرته ، وأبدأته وأعدته ؛ وردت رُفْعَةً سَيِّدَنَا على عَقَابِيلِ ^(١) هذه الوقعة
التي وقعت ، وصَدَّتْ عن الجَوَابِ ومنعت ؛ وأقنضتُ بي الحالُ كَتَبَ هذه الخُرَافَةَ
وإن تَشَبَّهْتُ بأذيالِ الحدِّ ، فانحرجتُها مخرجَ الهُزُوِّ وإن دَلَّتْ على حَوَازِ قَصَبَاتِ
المجد ؛ ليعلم أن في الرِّوَايَا خَبَايَا ، وإذا صحَّ أن الأَصُولَ عليها تَبَّتْ الشَّجَرُ "فأنا ابنُ جَلَا
وطَلَّعُ الثَّنَائِيَا" .

هذا : وإن أبقَى قِرَاعُ الخُطُوبِ في حَدِّي فُلُولًا ، "فالفحل ينجي شَوْله معقولاً" ؛
ولقد تَجَمَّعَتِ الخُطُوبِ على من كلِّ وَجْهَةٍ وَأَوْبٍ ، وطَرَقَتِ الرِّزَايَا جَنَابِي من كلِّ
صَوْبٍ ؛ وجَرِيْتُ مع الخُطُوبِ كقَرَسِي الرِّهَانِ ، وما هَمَمْتُ بِمَقْصِدٍ إلا سَقَطَ بي
العِشَاءُ على سِرْحَانٍ ؛ وبكلِّ حَبْلِ يَحْتَنِقُ الشَّقِي ، ولعمرك ما يندري أمرُ كَيْفَ يَتَّقِي ؛
والجلدُ يَرَى عَوَاقِبَ الأُمُورِ فيحمدُ عند النَّجَاحِ عُنُقِي السَّيْرِ ، (ولو كنتُ أعلمُ الغَيْبَ
لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ) .

تُجُوزُ المِصْبِيَّاتُ الفَسَى وهو عَاجِزٌ * وَيَلْعَبُ صَرْفُ الدَّهْرِ بِالْحَازِمِ الجَلْدِ!

فَسَطَّرْتُ هذه الأَحْرَفَ إلى سَيِّدِنَا ليُوَافِقَ خَبْرِي عند أصحابه خُبْرُهُ ، و"من يَشْتَرِي
سَيْنِي وهذا أثرُهُ" وأعلم أنها سَيُضْرَبُ بها في بَابِهَا المَثَلُ ، وقد "أوردَها سَعْدٌ وسَعْدٌ
مُشْتَمِلٌ" .

(١) العقابيل جمع عقبولة وعقبول بالضم . وهي الشدايد .



وهذه رسالة في الشكر على نزول الغيث ، من إنشاء أبي عبد الله محمد بن أبي
الخصال الغافقي الأندلسي ، نقلتها من خط الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد
أبن سيد الناس اليعمرى المصرى ، وهى :

الحمد لله الذى لا يكشفُ السوءَ سواه ، ولا يدعُو المضطرَّ إلا إياه ، نُزِلَ قَفَرْنَا بِغَنَاهُ ،
وَنَعُوذُ مِنْ مِحْطِهِ بِرِضَاهُ ، وَنَسْتَغْفِرُهُ مِنْ ذُنُوبِنَا : (وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) .

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له إلهًا عَلا فاقْتَدَرَ ، وأوردَ عِبَادَهُ
وأصدرَ ، وبَسَطَ الرِّزْقَ وَقَدَّرَ ؛ وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله الذى بَشَّرَ وَأَنْذَرَ ،
وَرَعَّبَ وَحَدَّرَ ؛ وَعَلَّبَ الْبُشْرَى عَلَى الْإِقْنَاطِ ، وَدَلَّ عَلَى الصَّرَاطِ ، وَأَشَارَ إِلَى السَّاعَةِ
بِالْأَشْرَاطِ ، وَلَمْ يَأَلُ أُمَّتَهُ فِي الدَّبِّ وَالْإِحْتِيَاظِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوُزَرَاءِ الْخُلَفَاءِ ،
وَالْبَرَّةِ الْإِنْقِيَا ، وَالْأَشْدَاءِ الرَّحْمَا ، وَالْأَصْحَابِ الرَّحْمَا ، صَلَاةً تَمَلُّ مَا بَيْنَ الْأَرْضِ
وَالسَّمَاءِ ، وَتُوَافِقُهُمْ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ وَالْآنَا ، وَتَضَعُ الثَّنَاءَ مَوْضِعَ الثَّنَا .

ولما لَقِحَتْ حَرْبُ الْجَدْبِ عَنْ حِيَالِ ، وَأَشْفَقَ رَبُّ الصَّرِيحَةِ وَالْعِيَالِ ، وَتَنَادَى
الْحَيْرَانُ لِلتَّفَرُّقِ وَالزِّيَالِ ، وَتَنَاطَوَحَتْ فِي الْهُبُوبِ رِيحُهَا الْجَنُوبُ وَالشَّمَالُ ، وَتَرَاطَوَحَتْ
عَلَى الْقُلُوبِ رَاحَتَا الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ ؛ وَأَحْضِرَتْ أَنْفُسُ الْأَغْنِيَاءِ الشَّحَّ ، وَوَدَّوْا أَنْ
لَا تَنْشَأَ مُزْنَةٌ وَلَا تَسِيحَ ؛ وَتَوَهَّمْ خَازِنُ الْبُرِّ ، أَنْ صَاعَهُ يَعْدِلُ صَاعَ الذَّرِّ ؛ وَخَفَّتْ
الْأَزْوَادُ ، وَمَاجَتْ الْأَرْضُ وَأَتَتْ الرُّوَادُ ؛ وَأَتَرَعَتِ الْعَاذِبُ الْقَيْصَى ، فَأَلْقَيْتِ الْعَيْصَى ،
وَصَدَّرْتَ بِحَسْرَاتِهَا ، وَقَدْ أَسَلَمَتْ حَزْرَاتِهَا ؛ وَأَصْبَحَتْ كُلُّ قَنَّةٍ فِدْعَاءً ، وَهَضْبَةٌ دَرَطًا ،
(١) (؟) ؛ وَالصَّبْحُ فِي كُلِّ أَفْقٍ قَطْرٌ أَوْ قِطْعٌ ، وَالْأَرْضُ كُلُّهَا سَيْفٌ
وَيَنْطَعُ ؛ وَالشَّعْرُ يَشْمُرُ ذَيْلَهُ لِلتَّفَاقِ ، وَيُضَمَّرُ خَيْلَهُ لِلسَّبَاقِ ؛ وَجَاءَ الْجَدُّ وَرَاحَ الْهَزْلُ ،

(١) كذا في الأصل ، ولم فصل إلى حله مع البحث والتنقيب .

وقُلْنَا : هَذِهِ الشَّيْءُ هَذَا الْأَزْلُ ؛ وَلِلرُّجْفَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ عَجَاجَةٌ ظَنُّوْهَا لَا تَلْبَدُ ،
وَقِيْسِيُّ نَحْوِ الْغُيُوبِ تُعْطَفُ وَتَلْبَدُ ؛ فَمَا يَسْقُطُ السَّائِلُ مِنْهُمْ إِلَّا عَلَى نَابٍ يَحْرُقُ ،
وَشِهَابٍ يَبْرُقُ ؛ حَتَّى إِذَا عَقَدُوا الْإِيْمَانَ ، وَأَخَذُوا بِرِجْمِهِمُ الْإِيْمَانَ ، وَقَالُوا : لَا يُطْمَعُ
فِي الْغَيْثِ ، وَزُحَلُ فِي اللَّيْلِ ؛ فَإِذَا فَارَقَ الْأَسَدُ ، لَكَدَّ مَا أُنْفَسَدُ :

تَحَرُّصًا وَأَحَادِيثًا مُلْفَقَةً * لَيْسَتْ بِنَيْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرَبٍ !

أَنْشَأَ اللَّهُ الْعَنَانَ ، وَقَالَ لَهُ : كُنْ فَكَانَ ؛ فَبَيْنَمَا النُّجُومُ دَرَارِيهَا الْأَعْلَامُ ، وَأَغْفَالُهَا
الَّتِي لَا تُنْمَدُ عِنْدَهُمْ وَلَا تَلَامُ ؛ قَدْ آخَلَطَ مَرَعَاهَا بِالْهَمَلِ ، وَلَمْ تَدْرِ السَّدَةَ بِالْحَمَلِ ؛
وَلَا عِلْمَ الْحَدْيُ بِالرُّثْبَالِ ، وَلَا أَحْسَّ الثَّوْرُ بِالرَّامِي ذِي الشِّمَالِ ؛ إِذْ غَشِيَتْهَا ظُلُّ الْغَمَامِ ،
وَحَجَبَتْهَا أَسْتَارُ كَأَجْنِحَةِ الْحَمَامِ ؛ وَأَخَذَتْ عَلَيْهَا فِي الطُّرُوقِ ، مَصَادِرَ الْغُرُوبِ وَالشَّرُوقِ ؛
فَمَا مِنْهَا إِلَّا مُقَنَّعٌ بِنَصِيفٍ ، أَوْ مَزْمَلٌ فِي نِجَادٍ خَصِيفٍ ؛ لَمْ تُتْرَكْ لَهُ عَيْنٌ تَطْرِيفُ ،
وَلَا ثِقْبَةٌ يَطْلَعُ مِنْهَا أَوْ يُشْرِفُ ؛ فَبَاتَتْ بَيْنَ دُورٍ مُتَدَارِكَةِ السَّقُوطِ ، وَدُرَرٍ مُتَنَائِرَةِ
السَّمُوطِ ، وَدِيمٍ مُنْحَلَّةِ الْخَيْوُطِ ؛ وَجَبُوشَ مَنصُورَةِ الْأَعْلَامِ ، نَابِتَةَ الْأَقْدَامِ ؛ وَكَتَابَ
صَادِقَةَ الْمُهْجُومِ ، صَائِبَةَ الرَّجُومِ ، تَطْلُبُ الْمَحَلَّ مَا بَيْنَ النُّجُومِ وَالنُّجُومِ ؛ وَمَا زَالَتْ
تَرْمِيهِ بِأَحْجَارِهِ ، وَتَحْتَرِشُهُ فِي أَحْجَارِهِ ؛ وَتَغْزُوهُ فِي عُقْرِ دَارِهِ ، حَتَّى عَفَّتْ عَلَى آثَارِهِ ،
وَأَخَذَتْ لِلْعَزْنِ وَالسَّمَلِ بِثَارِهِ .

فِي أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ بِالْكَوَاكِبِ ، أَنْظُرْ إِلَى الدَّيْمِ السَّوَاكِبِ ؛ وَأَسْبِغْ فِي لُحْجِ سُبُوحِهَا ،
وَارْتَحْ فِي مَمَرِّ ذُبُوحِهَا ؛ وَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ الَّذِي قَدَّفَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَأَعَادَ
الْحَلَى إِلَى الْعَاطِلِ ؛ فَبُرُودُ الظُّوَاهِرِ مُحْضَرَهُ ، وَتَغُورُ الْأَزَاهِرِ مُفْتَرَهُ ؛ وَمَسَرَّاتِ النَّفُوسِ
مُنْتَشِرَهُ ، وَاللُّدُنْيَا ضَاحِكَةً مُسْتَبْشِرَهُ ؛ وَأَرْوَاحُ الْأَدْوَاغِ حَامِلَهُ ، وَأَعْطَافُ الْأَعْصَانِ
مَائِلَهُ ؛ وَأُورَاقُ الْأُورَاقِ تُفْصَلُ ، وَأَجْنِحَةُ الظَّلَالِ تُرَاشُ وَتُوصَلُ ؛ وَخُطْبَاءُ الطَّيْرِ

تُرْوَى وَتُخْبِرُ ، وَشِيُوخُ الْحَارِبِ تُهَلَّلُ وَتُكَبَّرُ ؛ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَنْخَضِعُ لِحَبْرُوتِهِ ،
وَيَسْتَهْدُ لِلْمَكُوتِهِ ، وَتَلُوحُ الْحِكْمَةُ مَا بَيْنَ مَنْطِقِهِ وَسُكُوتِهِ .

فَأَمَّا الْخَطَّاطِيُّفُ فَقَدْ سَبَقَ هَا يَهَا ، وَنَطَقَ شَادِيهَا ، وَتَرَاجَعَ شُكْرًا لِلَّهِ نَادِيهَا ؛
فَعُشُّ يُرَمُّ ، وَلَبِنَةٌ إِلَى أُخْرَى تُرَمُّ ، وَشَعَثٌ يُلَمُّ ، وَبَدَأَةٌ تُوفَى وَتَمُّ ؛ وَكَأَنَّهَا حَنْتُ
نَحْوَ الْمَشَاهِدِ ، وَسَابَقَتِ اللَّقَائِقُ إِلَى الْمَعَاهِدِ ؛ فَظَلَّتِ اللَّقَائِقُ بَعْدَهَا زُرَاعًا ، وَسَقَطَتْ
عَلَى أَطَامِهَا أَوْزَاعًا ، وَأَجَدَّتْ إِفْطَاعًا ، وَأَجَابَتْ مِنَ الْخِصْبِ أَمْرًا مُطَاعًا ؛ وَحَازَتْ
مِنَ الْحَدَائِقِ وَالْبَسَاتِينِ إِفْطَاعًا ؛ وَسِيغَرْدٌ فِي رَوْضَتِهِ الْمَكَاءُ ، وَيُضْحِكُهُ هَذَا الْوَابِلُ
الْبَكَاءُ ، وَتُرُومُهُ فَلَا تَلْحَظُهُ ذُكَاةٌ ؛ تَحْتَهُ مِنَ الْأَفْنَانِ النَّاعِمَةُ قِلَاصٌ ، وَأَحْصَتُهُ مِنْ
الْحَضْرَاءِ التَّبَعِيَّةِ دِلَاصٌ ؛ فَالْوَيْلُ لِأَهْلِ الْأَقْوَالِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَالنَيْلُ لِأَهْلِ الشَّنَاءِ
وَالْخَيْرَاتِ ؛ وَالْمَرْعَى وَالسَّعْدَانِ ، وَأَرْضٌ بَكَوَا كِبِ النُّورِ تَزْدَانُ ، وَبِقَاعٌ تَدِينُ الْغَيْثَ
كَأُتْدَانٍ ؛ أَذْكَرَهَا فَذَكَرَتْ ، وَسَكِرَتْ مِنْ أَخْلَاقِهِ فَشَكَرَتْ ، وَعَرَفَهَا مَا أَنْكَرَتْ ؛
كَأَنَّهَا أَعْدَاؤُهَا مِنْ أُمِّ خَارِجَةَ نَسَبٍ أَوْ مَلِحَ ، قَالَتْ لَهَا : خِطْبُ فَقَالَ : نَجَحَ ،
فَمَثَلَتْ الْأَزْهَارُ بِسَبِيلِهِ ، وَنَبَتَتْ فِي مَسِيلِهِ ، وَنَبَتَتْ كَاللَّحْظَةِ فِي شَطْطَى تَجْمِيلِهِ .

فِي نَرْجِسٍ تَرْتُو الرُّوَانِي بِأَحْدَاقِهِ ، وَتَسْتَعِيرُ الشَّمْسُ بِهَجَّةٍ إِشْرَاقَهُ ؛ وَيُودُّ الْمِسْكَ
نَفْحَةَ آتِنَشَاقِهِ ، يَحْسُدُ السُّنْدُسُ حُضْرَةَ سَاقِهِ ، وَيَتَمَنَّى الْهَمَامُ بَدَلًا مِنْ أَطْوَاقِهِ ؛ كُحْلَةٌ
نَدَى تَتَرَقَّرُ ، أَوْ عُصْنٌ بَانَ لَا يَزَالُ يُورِقُ .

وَمِنْ عَرَّارٍ تَغْنَى مُطَالِعُهُ عَلَى عَرَّارٍ ، وَكَفَّتْ بِهِ السَّوَارِي وَالغَوَادِي كَلَّفَ عَمْرٍو
بِعَرَّارٍ ؛ بَغَاءُ كَسَوَالِفِ الْغَيْدِ تَرْفُ ، وَكَوْمِيضِ الشُّغُورِ يَعْبِقُ وَيَسْفُ .

وَمِنْ أَلْحَوَانٍ جَرَى عَلَى النَّبَايَا الْغُرَّ ، وَسِيكَ مِنْ نَاصِيعِ الدُّرِّ ؛ يُقْبَلُهُ النَّسِيمُ فَيَعْبِقُ ،
وَيَصْبِحُ الْجَوْ بِمَا ^(١) وَيَغْبِقُ ، وَيَسْتَقْبِلُهُ نَاطِرُ الشَّمْسِ فَيُشْرِقُ .

(١) بياض بالأصل .

ومن بَنَفَسِجٍ كَطَوَاقِ الْوُرُقِ ، أَوْ كَالْيَوَاقِيَةِ الزُّرْقِ ؛ تَشْرَفَ بِأَبْدِعِ الْخَلْقِ ،
وَتَأَلَّفَ مِنَ الْعَسَقِ وَالْخَلْقِ ؛ تَلْحَظُهُ مِنْ بَيْنِ أَوْرَاقِهِ نَوَاطِرُ دُجَجٍ بِالْأَجْفَانِ وَقِيَّتِ ،
وَبَدْمُوعِ الْكُحْلِ سُقِيَّتِ ؛ نَسِيْمُهُ أَلْيَنُ مِنَ الْحَرِيرِ ، وَنَفْسُهُ أَعْطَرُ مِنَ الْعَيْبِرِ ؛ يُفَاحِرُهُ
كَأَنَّهُ الْبَرْدُ ، مُفَاحِرَةٌ تَيْسَانُ بِالْوَرْدِ .

وَكُلَّ رَبْوَةٍ قَدْ أَخَذَتْ زُخْرُفَهَا وَأَزَيَّنَتْ ، وَبَيَّنَتْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَا بَيَّنَتْ ؛ كَمَا نَتَوَجَّحُ
فِي إِيوَانِهِ كَسْرِي ، وَأَسْتَقْبَلْتَهُ وَفُودَهُ تَتْرَى ، وَأَتَقَلَّبْتَ عَنْ حُسْنِ نَادِيهِ النَّوَاطِرُ حَسْرِي ،
وَكُلَّ تَلْعَةٍ مَذَائِبُ نَصُولِهَا تُسَلُّ وَمَضَارِبُ فُصُولِهَا لَا تُثْنِي ؛ وَأَرَأَيْتَ تَسَابَ ، وَبُحَيْنَ
يُدَابُّ وَيُدَابُّ ؛ عَلَى حَافَاتِهَا يُجُومُ مِنَ النُّورِ مُسْتَبِكُهُ ، وَجُيُوبٌ عَنْ لَبَاتِ الْغَوَافِي
مُنْتَهِكُهُ ؛ فَلَوْ أَفْتَبِحْتَ الظُّهُورُ وَالْبُطُونُ ، وَنَطَقْتَ السُّهُولُ وَالْحُزُونُ ، لَقَالَتْ :
(قَاتِلِ الْخِرَاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ) .

فَشُكْرًا لِرَبِّنَا شُكْرًا ، وَشُحْقًا لِلَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ؛ اللَّهُمَّ بَارِي النَّسَمِ ،
وَدَارِي الْقَسَمِ ، وَنَاشِرِ الرَّحْمَةِ وَالنِّعَمِ ، وَمُنْزِلِ الدِّيمِ ، وَبَاعِثِ الرِّمِّ ، وَمُحْيِي الْأُمَمِ ؛
فَإِنَّا نُوْمِنُ بِقُدْرِكَ : خَيْرُهُ وَشَرُّهُ ، وَنَطْوِي غَيْشَكَ عَلَى غِرِّهِ ، وَلَا تَتَعَرَّضُ لِنَشِيرِهِ
حَتَّى تَأْذَنَ بِنَشِيرِهِ ؛ وَنَعْتَقِدُ رَبُّو بِتَسْكِ كُلِّ الْإِعْتِقَادِ ، وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوقِ
وَالْإِلْحَادِ ؛ وَنَسْتَرِيدُكَ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَمَنَافِعِ الْإِسْلَامِ ؛ رِزْقَنَا لَدَيْكَ ، وَنَوَاصِينَا
بِيَدَيْكَ ، وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ ، وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْكَ ؛ وَلَا نُشْرِكُ بِكَ فِي غَيْبِكَ أَحَدًا ، وَلَا يَجِدُ عَبْدٌ
مِنْ دُونِكَ مُتَّحِدًا ؛ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، وَأَمَّتْ الْحَيَّ وَأُحْيَيْتَ الْمَيِّتَ ؛ لَا هَادِيَ
لِمَنْ أَضَلَّاتَ وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ ، فَكَيْفَا فِيمَنْ كَفَيْتَ ، وَتَوَلَّانَا فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ،
إِنَّكَ تَمَضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، وَتَقْرَأُ : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ
الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) الْآيَةَ .



وهذه نسخة رسالة ، كتبت بها الصاحب نحر الدين عبد الرحمن بن مكناس ،
تعمده الله برحمته ، إلى الشيخ بدر الدين البشتكي عند ما زاد النيل الزيادة المفرطة ،
سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وهي :

ربنا اجعلنا في هذا الطوفان من الآمين ، وسلام على نوح في العالمين .
ما تأخير مولانا بحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء ؟ ، وما فعاذه عن زرقه
هذا النيل الذي جعل الناس فيه بالتوبة كالملائكة لما غدا هو أيضا كالسما ؟ ،
وكيف لم يره هذا الطوفان الذي استحال للزيادة فما أشبه زيادته بالظما ؛ فهي كزيادة
الأصابع الدالة في الكف على نقصه ، وأولى أن نُسند بيت المثل بنصه :

طَفَحَ السُّرُورُ عَلَى حَتَّى إِنَّهُ * مِنْ عَظِيمِ مَا قَدَّ سَرَّنِي أَبْكَائِي !

فإنه قارب أن يمتزج بنهر المجره بل وصل وأمتزج ، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه
المعنى [بقول الفائل] : "حدثت عن البحر ولا حرج" ، وتجاوز في عشر الثلاثين
الحد ، وأرانا بالمعينة في كل ساحل منه ما سمعناه عن الجزر والمد ، وأساء في دفعه
فلم يدفع بالتي هي أحسن ، وأقعد الماشي عن التسبب والحركة حتى شكك إلى الله
في الحالين جور الزمن ؛ وسقى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت
أصعب كأس ، وسئل ابن أبي الرداد عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ؛
أمتلا اليباب ، وهال العباب ، وضاع العد وأختلط الحساب ؛ كأل فطفف ، وزار
فأخفف ؛ غسل الجسور ، وأعاد الإملاق بعزمه إلى البحور ، وبرع فكان أولى
بقول الحلي من ابن منصور :

بمكارم تذر السباسب أبحراً • وعزائم تذر البحار سباسباً !

جمع في صُعودِهِ إلى الجبال بين الحادِي والمَلَّاح، ودَخَلَ النَّاسُ إلى أسواقِ مِصرَ
 وُخْصُوصًا سُوقَ الرِّقِيقِ على كَلِّ جَارِيَةٍ ذَاتِ أَلْوَاحٍ، وَغَدَا التَّيَّارُ يَنْسَابُ في كُلِّ يَمٍّ
 كَالْأَيْمِ، وَأَصْبَحَتْ هِضَابُ المَوْجِ في سَمَاءِ البَحْرِ وَكَأَنَّهَا هِيَ قِطْعُ الغَيْمِ؛ وَأَسْتَحَالَتْ
 الأَفْلاكُ فَكُلُّ بُرْجٍ مَائِي، وَتَغَيَّرَتِ الأَلْوَانُ فَكُلُّ مَا في الأَرْضِ سَمَائِي؛ وَحَكَى ماؤُهُ
 حُكَاكَةَ الصَّنَدَلِ لَمَّا مَسَّهُ شَيْطَانُ الرِّيحِ فَتَخَبَّطَ، وَزَادَ فَاسْتَحَالَ نَفْعُهُ فَتَحَقَّقَ
 مَا يُنْسَبُ إلى الصَّنَدَلِ مِنَ الاستِحالةِ إِذَا أَفْرَطَ؛ فَلَقَدْ حَكَتْ أَمْواجُهُ ودَوَّارُهُ
 الأَعْكَانَ والسَّرَرَ، وَغَدَا كُلُّ حَيٍّ مَيْتًا مِنْ زِيادَتِهِ لا كَمَا قَالَ المَعْرِيُّ: حَيًّا مِنْ بَنِي مَطَرٍ؛
 وَتَحَالَى إلى أَنْ أَقْرَفَ اللَّيْمُونَ الأَخْضَرَ، وَأَحْمَرَّتْ عَيْنُهُ على النَّاسِ فَأَذاقَهُمُ المَوْتَ
 الأَحْمَرَ؛ وَلَقَدْ صَعَبَ سُلُوكُهُ وَكَيْفَ لا؟ وَهُوَ البَحْرُ المَدِيدُ، وَأَصْبَحَ كُلُّ جَدُولٍ مِنْهُ
 جَعْفَرًا وَيَزِيدَ:

فَلَسْتُ أَرَى إِلا إِفاضةَ شَاحِصٍ * إليه بَعينٍ أو مُشِيرًا بأُصْبُعٍ!

فَلَمَّ قال المَرَمَ للسَّارِينَ بِسارِيَةِ الجَبَلِ، وَأُنْشِدَ وَقَدْ شَمَّرَ ساقَهُ لِلخَوْضِ: أَنَا الغَرِيقُ
 فَمَا خَوْفِي مِنَ البَلَلِ؟ وَكَمْ قال أبو الهَوَلِ: لا هَوْلَ إِلا هَوْلُ هذا البَحْرِ، وقال
 المَسافِرُونَ: ما رَأينا مِثْلَ هذا النَّيلِ مِنْ هُنَا إلى ماوراءَ النَّهْرِ، وقال المُوَرَّخُونَ: لَمْ نَنْقُلْ
 كَهذِهِ الزيادةَ مِنْ عَهْدِ النَّهروانِ وَإلى هَذَا الدَّهْرِ.

وَكَيفَ يَسُوعُ لِمولانا في هذه الأَيامِ غَيْرَ آرتشافِ فَمِ الخُمُورِ؟ وَلِمَ لا يُغَيِّرُ مَذَهَبَهُ
 وَيُطَيِّبُ على هذه الخُلُجِ بالسَّلْسِلِ والدُّورِ؟؛ وَكَيفَ وَكَيفَ؟!، وَلِمَ لا يَتَّخِذُ
 مولانا حَمَو النَّيْلِ وَبَرَدَةَ رِحْلَةِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ؟؛ وَهُوَ في المِبادِرَةِ إلى عُلُوِّ المَعاليِ
 وَغُلُوِّ المَعانيِ، وَأَتَهَازَ الفُرْصِ في بَلاغِ الأَمالِ وَبُلُوغِ الأُمانيِ:

(١) بِشِيرِ إلى بَيْتِ المَعْرِيِّ في قَوْلِهِ:

وَإِنِ بَحَلَّتْ عَنِ الأَحْياءِ كَلِمَهُمُ * فَاسْقِ المِواطِرَ حَبًّا مِنْ بَنِي مَطَرٍ

أَنْظُرْ مِسْقَطَ الزَّيْتِ (ج ١ ص ٣٠).

عَجَبٌ مِنْ عَجَائِبِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَنَوْعِ فُرْدٍ وَشَكْلِ غَرِيبٍ!

نَعَمْ :

مَنْ قَاسَكُمُ بِسِوَاكُمْ * قَاسَ الْبَحَارَ إِلَى التَّمَادِ!

أَعْلَى الْأَنَامِ فِي الْعُلُومِ قَدْرًا ، وَإِمَامِ النُّحَاةِ مِنْ عَهْدِ سَيُوبِيهِ وَهَلْمِ جَرًا ، وَشَيْخِ
الْعَرُوضِيِّ عَلَى الْحَقِيقَةِ بَرًّا وَبَحْرًا :

وَشَيْخِ سَيْحُونَ وَالنَّيْلِ وَالْفُرَاتِ وَدِجْلَهَ ،

وَشَيْخِ جَيْحُونَ أَيْضًا ، * وَشَيْخِ نَهْرِ الْأُبُلَّةِ!

إِى وَاللَّهِ :

أَقُولُهَا لَوْ بَلَغَتْ مَا عَمَى : * الطُّبْلُ لَا يُضْرَبُ تَحْتَ الْكُفَا!

لَا نَجْبًا لِعَطْرِ بَعْدِ عَرُوسٍ ، أَنْتِ أَعْوَمُ فِي بُحُورِ الشَّعْرِ مِنْ آبِنِ قَادُوسٍ ، وَأَصْلَحُ
إِذَا حَدَّثْتَ مِنْ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ الْقُدُوسِ ، وَأَثْمَهَى إِذَا هَزَلْتِ مِنْ آبِنِ حِجَّاجِ إِلَى
النُّفُوسِ :

وَلَوْ أَنَّ بَحْرَ النَّيْلِ جَارَكَ مَا زَحَا * وَحَقَّقَ مَا اسْتَحَلَّى لَهُ النَّاسُ زَانِدًا!

نَعُودُ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ وَصْفِ النَّيْلِ ، وَذِكْرِ حَالِهِ الَّذِي أَصْبَحَ كَمَا قَالَ آبِنُ
عَبْدِ الظَّاهِرِ : كَوَجْهِ جَمِيلٍ ؛ : فَلُورَاهُ مَوْلَانَا وَقَدْ هَجَمَ عَلَى مِصْرٍ بِخَاسِ خِلَالِ الدِّيَارِ ،
وَدَخَلَ إِلَى الْمَعْشُوقِ فَتَرَكَهَ كَالْعَاشِقِ الْمَهْجُورِ لَمْ يَرْمَنْهُ غَيْرُ الْأَنَارِ ؛ لَبَكَّى بَعْنِي عُرُوهَ ،
وَأَوَى مِنَ الرِّصْدِ وَقَدْ تَفَجَّرَتْ مِنْ صِلْدِهِ عَيُونَ التَّرِّ إِلَى رَبْوِهِ ؛ أَوْرَانَا لِرُوضِ الْجَزِيرَةِ
وَقَدْ خَلَعَ حِلَاهُ ، وَتَخَالَفَتْ عَرَائِيسُ أَشْجَارِهِ عَلَى الْحَالِينَ بِالْمِيَاهِ . وَالنَّخِيلِ وَقَدْ قَتَأَتْ
مَلَأَ كُنْهَا - حِينَ فَنَكَ - بِالْأَسْفِ ، وَجَفَّ أَحْمَرُ تَمْرِهَا وَأَصْفَرُّهُ فَارَانَا الْعُنَابِ وَالْحَشْفِ .
وَالْحَيْرَةِ وَقَدْ قَلْتُ لَهَا : تَبًّا لِحَارِكِ النَّيْلِ إِذْ أَفْسَدَكَ صُورَةٌ وَمَعْنَى ، وَسَكَنَ مَعَانِيكَ فَسَقَى

دِيَارَكَ بغيرِ اسْتِثْنَا . وَقُرَاهَا الْغَرَبِيَّةُ وَقَدْ قَلْتُ لَهَا حِينَ أَوْتِ إِلَى أَعَالِي الْأَرْضِ هَرَبًا
 مِنَ الْمِيَاهِ ، وَأَعْتَصَمْتُ بِالْحَبْلِ الْغُرْبِيِّ : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . وَكُلَّ سَفِينَةٍ
 وَقَدْ عَلَتْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَأَزْتَقَّتْ لِارْتِقَاءِ الْبَحْرِ إِلَى أَنْ اأَخْتَلَطَتْ بِالسَّمَاءِ ، وَقَدْ
 قَالَتْ لَهَا أَثْرَاهُهَا عِنْدَ الْفِرَاقِ : إِلَّا تَرْجِعِي ، وَقُلْنَا لَهَا نَحْنُ عَلَى سَبِيلِ التَّنَاقُلِ : بِاسْمَاءِ
 أَقْدِيمِي ، وَالنَّيْلُ تَبْدُو عَلَيْهِ الْقُلُوعُ خَافِيَةً لِبُعْدِهَا فَكَانَهَا الْخِيَامُ بَدَى طُلُوحٌ ^(١) ، وَجَارَ عَلَى
 النَّاسِ بَطْغِيَانِهِ فَكَانَتْهَا هُوَ أَخُو فِرْعَوْنَ مِصْرَ أَوْ ابْنُ طُوفَانَ نُوحٍ .

فلقد طَارَ النَّسْرُ مَبْلُولُ الْجَنَاحِ ، وَدَنَا نَهْرَ الْمَجْرَةِ مِنَ السَّكَارَى بِالشَّخَايِثِ إِلَى أَنْ
 كَادَ يَدْفَعُهُ مِنْ قَامٍ بِالرَّاحِ . وَنَزَجِسَ الْبَسَاتِينَ وَقَدْ أَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحَزَنِ فَهُوَ
 كَطِيمٍ ، وَفَارَقَ أَحْبَابَهُ مِنَ الرِّيَاحِينَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ غَيْرَ الْقَلَانِسِ صَدِيقٍ وَغَيْرِ الْمَاءِ حَمِيمٍ .
 وَالْوَرْدِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : مَا لَكَ مِنْ آسٍ ، وَغُصْنِ الْبَابِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : طُوبَى لِمَنْ عَانَقَكَ
 وَلَا بَاسَ . وَالْأَسْمَاكَ وَقَدْ أَلْجَمَهُمُ الْعَرَقُ ، وَالْقُلُقَاسِ وَقَدْ شَكَا شَكْوَى ابْنِ فَلَاقِسِ
 وَأَبْنِهِ مِنَ الْعَرَقِ . وَالْقَصَبِ بِالْحِيْزَةِ وَقَدْ شَرِبَ مَاءَ التَّرِّ فَهُوَ بِئْسَ الشَّرَابُ ، وَالْقَصَبِ
 بِبُولَاقٍ لَمْ يُنْجِجْهُ مِنْ مُشَاهَدَةِ الْعَرَقِ إِلَّا كَوْنُهُ غَآبٍ ، وَالْفَارِسِيِّ بِالْبَسَاتِينَ وَقَدْ تَرَجَّلَ
 وَوَقَعَ فَارَانًا كَيْفَ تَكْسِيرِ الْأَقْصَابِ ، وَقِيلَ لِلآسِ : عَالِجُ جِيرَانِكَ بِالْغَيْطَانِ فَالنَّاسُ
 بِالنَّاسِ ، وَبَادِرٌ إِلَى جَبْرِ مَا كُسِرَ فَالْحَاجَةُ تَدْعُو الْمَكْسُورَ فِي الْحَالِينِ إِلَى الْآسِ .

هذا وأنا مُقِيمٌ بِالرُّوْضَةِ إِذْ زَهَتْ عَلَى سَائِرِ الرِّيَاضِ ، وَسَلِمَ جَوْهَرُ حَصْبَاتِهَا مِنْ
 أَكْثَرِ هَذِهِ الْأَعْرَاضِ ، وَإِنْ أَعْتَلَّتْ بِالْأَسْتِسْقَاءِ فَهُوَ عَيْنُ الصَّحَّةِ كَمَا يُنْسَبُ السَّقَمُ
 إِلَى الْعْيُونِ الْمَرِاضِ ، أَوْ كَمَا قَالَ الْمَلُوكُ قَدِيمًا مِنْ قَصِيدَةٍ فِي بَعْضِ الْأَعْرَاضِ :
 وَقَائِلٌ : فِي لِحَاطِ الْغَيْدِ بِأَقْيَسَةٍ * مِنْ السَّقَامِ وَمَا صَمَّتْ حُصُورُهُمْ ،

وفي النَّسِيمِ فَقُلْتُ : الأَمْرُ مُشْتَبِهٌ * عَلَيْكَ فَالْزَمِ فَانْتَ الحَاذِقُ الفَهِيمُ .

قُلْتُ الصَّحِيحَ وَلَكِنِّي بِمُوجِبِهِ * أَقُولُ : تِلْكَ دَوَاةٌ بَرُوها السَّقَمُ !

قد أحاط بها النَّبِيلُ إحاطة المَرَّاشِفِ بِاللَّآ ، فأشْرَقَتْ ضِيَاءَ بَيْنِ زُرْقَتِهِ فَكَانَهَا
البَدْرُ فِي كَيْدِ السَّمَا :

بَصَحْنِ خَدَّ لَمْ يَغْضُ مَاؤُهُ * وَلَمْ تَخْضُهُ أَعْيُنُ النَّاسِ !

مَتَعَطَّشَ مَعَ هَذَا الطُّوفَانِ لِرِيَاكُ ، مُتَشَوِّفٌ وَإِنْ كُنْتُ مُعَازِلَ النُّجُومِ الأَرْضِيَّةِ
وَالسَّمَائِيَّةِ يَا بَدْرُ لِرُؤْيَاكَ ، لِكِنِّي يُسَلِّبُنِي أُنَى مَا نَظَرْتُ إِلَى النَّبِيلِ إِلا رَأَيْتُكَ مِنْ سَائِرِ
الجِهَاتِ ، وَلَا تَحْتُ بِيوتِ البَحْرِ بِلِ البُحُورِ إِلا رَأَيْتُكَ عِمَارَةَ الأَبْيَاتِ :

وَلَا هَمَمْتُ بِشُرْبِ المَاءِ مِنْ عَطَشٍ * إِلا رَأَيْتُ خَيْالًا مِنْكَ فِي المَاءِ !

وَلَكِنِ لِلعِيَانِ لَطِيفٌ مَعْنَى * لَهُ طَلَبَ المُشَاهَدَةَ الكَلِيمُ !

فَهَلُمَّ إِلَى التَّمَتُّعِ بِرُؤْيَا هَذَا النَّبِيلِ الَّذِي لَمْ تَرَمَثْهُ العُيُونُ ، وَالنَّظَرَ إِلَى سَائِرِ المَخْلُوقَاتِ
لِعُمُومِهِ وَكُلِّ فِي فَلَكَ يَسْبَحُونَ ؛ فَلَيْسَ يَطِيبُ لِلتَّلَامِيذِ رُؤْيَا هَذَا البَحْرِ بِغَيْرِ رُؤْيَا
شَيْخِهِ ، وَلَا يَلِدُّ لَهُ التَّمَلُّ بِمُشَاهَدَةِ هَذَا الفُلْكِ مَا لَمْ يُشْرِقْ وَجْهُهُ وَذَهَبَتْهُ بِيَدْرِهِ وَمَرَّيخُهُ ؛
فَمَا هَذَا الإِهْمَالُ ؟ ، وَلَيْتَ شِعْرِي يَا أَدِيبُ كَسَاغُوكَ بِأَيِّ الأَعْمَالِ ؟ ، أَمَا لِكِتَابَةِ ؟
فَلْتَكُنْ فِي هَذَا النَّبِيلِ الَّذِي هُوَ كَالطَّلُحِيَّةِ بِغَيْرِ مِثَالِ ، أَوْ بِالنَّثْرِ وَالنَّظْمِ ؟ ففِي هَذَا البَحْرِ
الَّذِي مِنْهُ تُؤْخَذُ الدَّرَرُ وَفِيهِ تُضْرَبُ الأَمْثَالُ ؛ وَلَقَدْ وُلِدَ فِيهِ الفِكْرُ لِلْمَمْلُوكِ ، كَيْفَ
تَصَادُمُ الأَكْفَاءِ وَقَهْرُ المُلُوكِ لِلْمُلُوكِ ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُسْمَعْ فِي مَمْلَكَةِ الإِسْلَامِ ، وَلَا أُورَخَ
فِي عَامٍ مِنَ الأَعْوَامِ ؛ بِمِثْلِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ الزَّائِدَةِ ، وَالجُرْحِيِّ عَلَى نَحْرِ العَادَةِ الَّتِي لِاجْعَلِ

الله بها صلة ولا منها عائدة ؛ وغاية ما وصل إليه في الماضي من عشرين : قضيق
بسعته المسالك ، وأوجب المهالك ، وتطرق تطرق أهل الجرائم والفساد فقطع
الطريق على السالك ، وأحوج مرات إلى الاستضحاء لا أحوج الله لذلك .

ودليل ما شمل به من الفساد ، وما عامل به البلاد وأهل البلاد ؛ ما قاله أدباء كل
عصر ، عند ما أبيع للسافر في مدّ عرضة القصر .

فن ذلك ما قاله مولانا القاضي الفاضل ، وما هو رحمه الله إلا بحر طمح دُرّه ،
فله دُرّه ، من رسالة :

ورود مثاله يتضمن نبأ سطوره العظيمة أمر طوفان النيل التي كانت جدأوله ،
وأنه جاد لمؤمله بنفسه التي ليس في يده غيرها فليتيق الله سائله

ومنها : ولم يزل يجري مستقره ، ويضمه شيئاً فشيئاً إلى أن أدرك آخره قوله ؛
حتى إذا تكامل سمواً مواجيه حالاً على حال ، وتثور أقاصي الأرض من بنية المقياس
فادناها النظر العال ؛ فلم يترك بقعة كانت من قبل فارغة إلا وكلها عند نظره ماق ،
وليت هواه المعتل كان عدلاً فحمل كل غدير ما أطاق ؛ وطالما جرى بالصفاء ولكن
كدر صفاه بهذا المسمى ، والمرجو من الله أن يتلو ما أفسده هذا الماء ما يصابحه
خروج المرعى .

وما قاله القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، سقى الله تلك الألقاظ النبيلة
صوب المساطر :

ويُنهي إليه أمر النيل الذي سرفى أوائله الأنفس بأنفس بشرى ، ويقص عليه
نبأه العظيم الذي مايرينا من آية إلا هي أكبر من الأخرى ، ويصف له ما ساقه
إلى الأرض من كل طليعة إذا تنفس الليل تفرق صبوحها وتفرى ؛ فهو وإن كان

خَصَّ اللهُ البلادَ المصريةَ بوفوره ووفائه ، وأغنى به قُطْرَها عن القَطْرِ فلم يحتج إلى مدِّ كَافِه وفائه ، ونَزَّهه عن مِنة الغام الذي هو إن جاد فلا بُدَّ من شَهَقَة رعدِه ودَفْعَة بُكائِه ؛ فقد وَطِئَ بِإِلَادِها بِعَسْكَرِه العَجَّاجِ ، وزَاخَمَ ساحتَها بِأفواجِ الأمواجِ ؛ فَعَمِلَ فيها بِدِرَاعِه ، ودارَ عليها بِخِناقِه وتَحَلَّلَها بِنِزاعِه ، وحَمَلَهَا على سَوَارِي الصُّواري تحت قُلُوعِه وما هي إلا عُمُدُ قِلاعِه ؛ وزارَ زَرابِي الدُّورِ المَبْتُوثَةِ ، وجاسَ خِلالَ الحَنَايا كأنَّ له فيها خَبايا مَوروثِه ؛ ومَرَّقَ كَالسَّهْمِ من قَنَاطِرِه المُنكُوسِه ، وعلا زَبْدَ حَرَكيه ولولاه ظَهَرَتْ في بَاطِنِه من الأَقْمارِ والنُّجومِ أشِعَّتْها المَعكُوسَه ؛ وحملَ على بِرْكةِ الفِيلِ حَمَلِ الأَسودِ على الأبطالِ ، وجَعَلَ المَجْتُونَةَ من تيارِه المُنحَدِرِ في السَّلاسلِ والأغلالِ ؛ والمَرجُوُّ من الله أن يُزِيلَ أذاهُ ، ويُعيدَ علينا منه ما عَهِدَناهُ ؛ فإنَّ له الإيابَ الأَكْبَرَ ، وفيه العَجائبُ والعِبرُ ؛ فيها وُجُودُ الوفاءِ ، عندَ عَدَمِ الصِّفاءِ ؛ وبُلُوغُ الهَرَمِ ، إذا أَحْتَدَمَ وأضطَّرمَ ؛ وأمنَ كلِّ فَرِيقِ ، إذا قَطَعَ الطَّرِيقَ ؛ وفَرِحَ قُطانُ الأوطانِ ، إذا كَسَرَ وهو كما يقالُ : سُلطانُ ؛ إلى غير ذلك من خِصائِصِه ، وبرائِته مع الزيادة من تقائِصِه ؛ طالما فتح أبوابَ الرَّحمةِ بِتَعَلُّيقِه ، وفازَ كلُّ أحدٍ عندَ رُؤيةِ ما نِه المَعْصَمِ بِتَخَلُّيقِه .

وما قاله المولى زين الدين عمر الصفدي تَعَمُّدَه اللهُ بِعَفْوِه ، وجمَع له بين حلاوة الكَوثرِ وصَفْوِه :

وأما النَّيْلُ فقد أخذَ الدَّارَ والسُّكَّانَ ، وقالَ ابنُ الحَاملِ كما قالَ ابنُ النَّبِيِّ : الأمانُ الأمانُ ، وبكى الناسُ عندَ ما رَأَوْه مُقْبِلًا عليهم بالطُوفانِ ؛ وأنسابُ أراقِمِ عُدرانِه في الإقليمِ فابْتَلَعَتْ عُدرانَ أراقِمِه ، ومَحَا سَيْلُه المندَفِقُ مَعالِمَه المَجْهُولَةَ فاستعملَ الأفلامَ في إثباتِ مَعالِمِه ؛ وأحاطَ بالفَرَى كالمُحاصِرِ فَضَرَبَ بينها وبين السماءِ بِسُورِ ، وأخَذَ الطَّرِيقَ على السَّالِكِينَ فلا مَرَكَبَ إلا المَرَاكِبُ ولا عاصِمَ إلا البُحُورُ .

وما قاله السيد ابن كاتب المرح ، نُصْرَةُ الأقباط ، وأحد عمُدِ الشَّعرِ المشهورة
بالفُسْطاط ؛ فما أَطْيَبَ مَدَائِحِهِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي جَعَلَهَا سُورًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ، وَمَا أَعْجَبَ
رِثَاءَهُ : جَعَلَ اللهُ قَبْرَهُ بِالرَّحْمَةِ كَالرُّوْضِ غَيْبِ القِطَارِ !!! :

يَا نَيْلُ يَا مَلِكَ الأَنْهَارِ قَدْ شَرِبْتَ * مِنْكَ الْبِرَايَا شَرَابًا طَيِّبًا وَغَدَا ،
وَقَدْ دَخَلْتَ القُرَى تَبْنِي مَنْافِعَهَا * فَعَمَّهَا بَعْدَ فَرْطِ النَّفْعِ مِنْكَ أَدَى .
فَقَالَ : يُذَكِّرُ عَنِّي أَنِّي مَلِكٌ * وَتَعْتَدِي نَاسِيًا : إِنَّ المُلُوكَ إِذَا !

وما قاله شيخنا الشَّيخُ جمال الدين بن نَبَاتَةَ الذي أظاعته من الآدابِ جَوَانِحُ
نَظْمِهَا وَتَثْرِيهَا ، وَخَفَّتْ لَهُ بِحُورِ الشَّعْرِ فَقَالَتْ لَهُ الآدَابُ : أَحْتَرَمُ مِنْ دُرِّهَا ؛ فَسُبْحَانَ
مَنْ يَسِّرُ لَهُ مُتَّبِعَ الكَلَامِ وَهَوْنَهُ ، وَجَعَلَهُ مِنَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ؛
فَمَا أَشَفَّ دَقِيقَ فِكْرِهِ الجَلِيلِ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يَضْحَكُ زَهْرُ تَقَاطِيعِهِ عَلَى زَهْرِ مُقَطَّعَاتِ
النَّيْلِ ؛ فَمَا كَانَ إِلَّا مُخْصِوَصًا فِي الأَدَبِ بِحُورِ الهِبَاتِ ، وَكَلَامُهُ فِي العُدُوبَةِ وَالبَلَاغَةِ
يُزْرِي بِالقُرَاتِ وَأَبْنِ القُرَاتِ ؛ وَإِنْ قِيلَ أَيْ أَصْدَقَ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ بَعْدَ لَيْدٍ ، يُقَالُ
قَوْلُ ابْنِ نَبَاتَةَ .

فَلَا عَجَبٌ لِلْفِطْيِ حِينَ يَحْلُو * فَهَذَا القَطْرُ مِنْ ذَلِكَ النَّبَاتِ ! :

وَأَمَّا النَّيْلُ فَقَدْ آسَتَوَى عَلَى الأَرْضِ فَثَبَّتَ فِيهَا قَدَمَهُ ، وَأَمْتَدَّ نَصْلُ تِيَّارِهِ كَالسَّيْفِ
الصَّغِيلِ فَقَتَلَ الإقْلِيمَ وَهَذَا الأَحْمِرَارُ إِنَّمَا هُوَ دَمُهُ :

مُحْمَرَّتْهَا مِنْ دِمَاءِ مَا قَتَلَتْ * وَالدَّمُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ !

فَلَمْ يَتْرِكْ وَعْدًا بَلْ وَعِيدًا إِلَّا وَقَاهُ ، وَلَا وَهَدًا بَلْ جَبَلًا إِلَّا أَخْفَاهُ ؛ أَقْبَلَ كَالأَسَدِ
المُصُورِ إِذَا أَحْتَسَدَ وَأَضْطَرَمَ ، وَجَاءَ مِنْ سِنِّ الجَنَادِلِ فَتَحَدَّرَ وَعَلَا حَتَّى بَلَغَ أَفْصَى
المَهِرَمِ ؛ وَعَامَلِ البَلَادَ بِالنَّجِيلِ ، وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ سُلْطَانٌ جَائِرٌ أَيْدٍ بِالنَّصْرِ ، قَائِلًا :

إِنْ كُنْتُ بُلَيْتُ بِالْأَحْتِرَاقِ فِي أَرْضِكُمْ فَنَا أَيْضُ بَانَ أَرْضِي مِنْ بُرُوقِ تَيَّارِي
بشراً كالتقصر .

هذا وطالما قابلنا قبلها بوجه جميل، وسمعنا عنه كل خبر خير ثابت ويزيد كما قال
جميل، وكل بديع من آثار جود يصبغ الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن صبغة
الليل، وطالما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كقياسه ذات بسطه، وتمنازل
الخصب بقدمه المبارك ذات غبطه، ومنحناه بولاء وثناء هذا يدور من الإخلاص
بفلك وهذا يعذب من البحار بنقطة، ثم ورد إلى البلاد ضيفاً ومعه القرى، وتم أنى
مرسلاً بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى؛ فهو جواد قد خلع الرسن، ساهر
في مصالح الخلق وقد ملأ الأمن أجفانهم بالوسن، جامع لأهل مصر من سقياه
ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن، ثم بات سير مقياسه يشمل
بظله الغائبين والحاضرين، وتم رقع على الوفاء راية صفراء فاقع لونها تسر الناظرين؛
وبلغ وبلغ بحري التبار سلامه، وبات الناس بوقائه من حذار الغلاء تحت الستر
والسلامه؛ وخلق صدر العمود وكيف لا يخلق بشير العباد والبلاد، ودعا مصر لأخذ
زخرفها فسواء قيل: ذات العمود أو ذات العماد؛ وبسط يده ببركة الماء فقيل:
سلام لك من أصحاب اليمن، وخضب بنانه وأقسم بحصول الخير فقيل لمخضوب
البنان يمن؛ وأشار إلى وصول المد المتتابع، وقبض يده المخلقة على الماء فوقت
وما خابت فروج الأصابع؛ ونادى رائد الوفاء ولكن كم حياة في الأرض لمن ينادى،
وتمت أصابع الزيادة وتمت حتى قال الناس: ما ذى أصابع ذى أيادي .

هذا وقد قرنت زرايى الدور المبتوية بالتمارق، وقال المقياس: تغطت منها
الدرج فنال الرجاء وظهرت الدقائق؛ فهو جم المنافع، عذب المتابع، يسار في الحقيقة
والمجاز إليه بالأصابع .

فأعاده الله إلى ذلك النفع المعهود ، وأرانا منه الأمان من الطوفان إلى أن ترد
 الحوض المورود ، وكفى أهل مضر هذه المصيبة التي إذا أصابتهم قالوا :
 إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولا ابتلاهم بمثل ما ابتلى به قوما جعلوا أصابعهم
 في آذانهم واستغشوا ثيابهم وإنما يستغشوا ثيابهم الفقراء في المطر ويجعل
 أصابعهم في آذانهم المؤذنون ؛ اللهم إنك ولي النعمة ، وأولى برحمة خالقك من
 فيض هذه الرحمة .

وما قاله صاحبنا الشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة الذي كان أغرب من زرقاء
 اليمامة ، وأعجب إذا ركب بعقله وزروره من أبي دلامة ؛ الأديب الذي كان حجة
 العرب ، والنائر الذي كان ينسبته إلى الطيور محرك المناطق وإلى الشعر صناجة
 الأدب ، والناظم الذي كان إذا أنشد مقاطيعه في التشبيب فاق على المواويل ذوات
 الطرب ؛ والصديق الذي كانت منه عوائد الوفاء مألوفة ، وشيخ الصوفية الذي
 لا عجب إذا كانت له المقامات الموصوفة ؛ أسكنه الله فسيح الجنان ، وخص ذلك
 الوجه الجميل بالعارض الهتان ؛ من مقامته الزعفرانية عن أبي الرياش :

فأعتنقته لدى السلام ، وقلت : ما وراءك يا عصام ؛ فقد بلغتنا أن النيل ترأيد
 دفعه ، وأدى إلى الضرر نفعه ؛ فقال : خذ العفو ، ولا تُكدر بذكر النيل الصفو ؛
 فقد أمترج بالمعصرات ثجأه ، وأعيى طيبب الغيطان علاجه :

وشرق حتى ليس للشرق مشرق * وغرب حتى ليس للغرب مغرب !

قلت : فما فعل التنير ، بجزيرة الطير ؛ قال : لم يبق بها هانف يشرب بالصباح ،
 ولا ساج يسعى برجل ولا طائر يطير بجناح ؛ إلا اتخذ نفقا في الأرض أو سلما في السماء ،
 أو أوى إلى جبل يعصمه من المساء ؛ فذاق بها الحمام الحمام في المروج ، وترك أرضها

كسماه ما لها من فُروج، وتلا على الحمام : ((أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ) . وَكَمْ فِي سَمَاءِ مَائِهَا مِنْ نَسِيرٍ وَاقِعٍ ، وَبُومَةٍ تُصَفِّرُ عَلَى دِيَارِهَا الْبَلَّاقِعِ :
وَمَنْهَلٍ فِيهِ الْغُرَابُ مَيْتٌ * سَقَيْتُ مِنْهُ الْقَوْمَ وَأَسْتَقَيْتُ !

قلتُ : فِمَصْرٍ؟ قال : زَحَفَ عَلَيْهَا بَعْسُكَرِهِ الْجُرَّارُ ، وَنَفِطَ مَائِهِ الطَّيَّارُ .

قلتُ : فَالْحِيزَةَ؟ قال : طَغَى الْمَاءُ حَتَّى عَلَا عَلَى قَنَاطِرِهَا وَتَجَسَّرَ ، وَوَقَعَ بِهَا
الْقَصَبُ مِنْ قَامَتِهِ حِينَ عَلَا عَلَيْهِ الْمَاءُ وَتَكَسَّرَ ؛ فَاصْبَحَ بَعْدَ أَخْضِرَارِ بَزَّتِهِ شَاخِبَ
الإِهَابِ ، نَاصِلَ الْخِضَابِ ، غَارِقًا فِي قَعْرِ بَحْرِ يَفْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ
سَحَابٌ ؛ وَقَطَعَ طَرِيقَ زَاوِيَتَيْهَا عَلَى مَنْبَاطِهَا مِنَ الْمُتَقَطِّعِينَ وَالْفُقَرَاءِ ، وَتَرَكَ الطَّلَاحَ
كَالصَّالِحِ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ ؛ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ، أَلَّا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٍ ؛
وَأَذْرَكَهُمُ الْغَرَقُ فَأَيْسُوا مِنَ الْخِلَاصِ ، وَعَشِيهِمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَلَاتَ حِينَ
مَنَاصٍ ؛ وَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ فَهَدَّتْ قُوَاهُمْ ، وَأَسْتَغَاثُوا مِنْ كَثْرَةِ الْمَاءِ
بِالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَالُوا مَا هُمْ .

قلتُ : فَالرَّوْضَةَ؟ قال : أَحَاطَ بِهَا إِحَاطَةَ الْكَيْلِ بِزَهْرِهِ ، وَالْكَأْسِ بِجُبَابِ نَعْمِهِ :

فَكَانَهَا فِيهِ بِسَاطٌ أَخْضَرَ * وَكَانَتْ فِيهَا طِرَارٌ مُدْهَبٌ !

فَلَمْ يَكُنْ لَهَا بَدْفَعُ أَصَابِعِهِ يَدَانِ ، وَكَمْ أَنْشَدَ مَرَّجُهَا حِينَ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ :

أَعْيَنِي كُفًّا عَنِ فُؤَادِي فَإِنَّهُ * مِنَ الْبَغِيِّ سَعَى اثْنَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ !

قلتُ : فَذَاكَ النَّحَاسُ؟ قال : انْحَسَّ حَالُهَا ، وَأَفْسَدَ مَا عَلَيْهَا وَمَا لَهَا ؛ فَدَخَلَ مِنْ

سَمَامِهَا الطُّهْرُ ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ بِالْجَامِعِ الطُّهْرِ ؛ فَالْحَقَّ بِجَزَّازِ بَابِهِ بِالْحَقِيقَةِ ، وَرَقِيَ

مِنْهُ عَلَى دَرَجَتَيْنِ فِي دَقِيقَةٍ ؛ كَمْ أَضْرَفَ مَا جَاوَرَهُ مِنَ الْغُرْفِ غُرْفًا ، وَأَطْلَقَ مِنْ مَائِهِ

الْأَحْمَرِ النَّارَ بِمُورِدَةِ الْخُلْفَا .

قلتُ : فالخليج الحاربيُّ؟ قال : خرج عَسْكَرٌ مَوْجِهَ بعد الكَسْرِ على حِمِيَّةٍ ،
ومَرَّقَ من قِيَمِي قَنَاطِرِهِ مَرُوقَ السَّهْمِ من الرَّمِيَّةِ .

قلتُ : فالمنشأة؟ قال : أصبحت للبحر مَقَرَّهُ ، بعد أن كانت للعيون قُرَّةً ، وقيل
للمنشأة : أتى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بعد مَوْتِهَا قال : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ؛ قَدْ مَالَ
عَلَى مَا فِيهَا من سُوءِ الْغِلَالِ كُلِّ الْمَيْلِ ، وَتَرَكَهَا تَتَلَوُّ بِغَمِّهَا الَّذِي شَفَقْتَاهِ مِصْرَاعَا
بَابِهَا : (يَا بَابَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ) .

قلتُ : بغزيرة أروى؟ قال : قد أَفْسَدَ جُلَّ ثَمَارِهَا ، وَأَتَى عَلَى مَعَانِيهَا فلم يَدَعِ
شَيْئًا من رَدِيئِهَا وَخِيَارِهَا ؛ أَخْلَقَ دِيبَاجَةَ رَوْضِهَا الْأُنْفُ ، وَتَرَكَ قُلُقَاسَهَا فِي الْجُرُوفِ
عَلَى شَفَا جُرْفٍ :

بَعَيْتِي رَأَيْتُ الْمَاءَ يَوْمًا وَقَدْ جَرَى * عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شَاهِقِي فَتَكَسَّرَا!

طالما تَضَرَّعَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى رَبِّهِ ، وَلَطَمَ بِرُؤُوسِهِ الْحَيْطَانَ مِمَّا جَرَى مِنَ الْمَاءِ
عَلَى قَلْبِهِ ؛ وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْأَوَّلِ :

وَأِنْ سَأَلُوكَ عَنِ قَلْبِي وَمَا قَاسَى * فَقُلْ : قَاسَى ، وَقُلْ : قَاسَى ، وَقُلْ : قَاسَى !!!
لم يُفِده تَحْصِنُهُ من وَرَقِهِ بِالذَّرْقِ وَالسَّتَائِرِ ، وَلَا حَنَّنَ عَلَيْهِ حِينَ تَضَرَّعَ بِأَصَابِعِهِ
فَصَحَّ أَنْ الْمَاءَ سُلْطَانٌ جَائِرٌ .

قلتُ : فحِكْرُ ابْنِ الْأَثِيرِ؟ قال : لم يَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ الثُّلُثِ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ ؛ قَدْ أَنْجَمَلَ
مِنْ دُورِهِ تَحَايَلُهَا ، وَجَعَلَ عَلَيْهَا سَاقِلَهَا ؛ فَكَمْ دَارٍ أَعْدَمَ صَاحِبُهَا قَرَارَهُ ، وَنَادَى
فِي عَرَصَاتِهَا الْمُتَدَاعِيَةِ : إِلَيْكَ أَعْنِي فَاتَمَمِي يَا جَارَهُ ؛ فَأَصْبَحَتْ بعد نَعْمِهَا قَائِلَةً
الْجَدَا ، مُسْتَوَلِيَّةً عَلَيْهَا يَدُ الرَّدَى ، شَيْبَةً بَدَارَ الدُّنْيَا لِأَنَّهَا دَارٌ مَتَى أَصْحَكْتُ فِي يَوْمِهَا
أَبْكْتَ غَدًا .

قلت : فبولاق ؟ قال : إملاق ، قد ألتفت بها من الزلق الساق بالساق ؛ فاتى من التوتية على الصغير والكبير ، ومن المرآكب وممرها على التغير والقطمير .
هذا بعد أن ترك جامع الخطيرى على خطر ، وحيطانه يانعة الثمر ؛ قد دنا قطفها ، وحان تلافها ؛ فكأنى به وقد منع رفده ، وتلا على محرابه سورة السجده .
قلت : بغزيرة الفيصل ؟ قال : أقتلع أشجارها بشروشها ، وترك سواقبها خاوية على عروشها .

قلت : فالتاج والسبعة وجوه ؟ قال : هجم على حرمة ، وعم الوجوه من فرقها إلى قدمها ؛ قبل ترى الموتى فى التخوم ، وعنت الوجوه لئى القيوم ؛ قلت : فما الحيلة ؟ ، قال : ترك الحيلة :

دعها سماوية تجرى على قدر * لا تفسدنها برأى منك راضى (?)

طال الكتاب ، وخرجنا عن فصل الخطاب :

ولربما ساق المحدث بعض ما * ليس الندى إليه بالمحتاج !

وكأنى بقائل يقول : أليس من الكبر أن يستخيم هذا فى رسالته ملوك الكلام ، ومن الحق أن يحلى عرائس أفكاره بما للناس من حلى النار والنظام ؛ فأقول : مسلم أن كل ما أوردته درر وجواهر ، وعقود كزهر الربيع عيون وجوهها النواضر نواظر ؛ وليكنها هاهنا أمثل ، وجمع شملها على هذى العروس أجمل :

* وفى عنق الحسناء يستحسن العقد ! *

وعلى الجملة فيرجع المملوك إلى التواضع وهو الأليق بالأدب ، فيقول : لا عيب على الفقيرة إذا تجملت بحلى الغني ، ولا عار على الجوهري إذا نظم سلكا كانت درره على الطرق مرمية ؛ ونرجع إلى ما ولده الفكر من عجب البحر ، وما ظهر من دفع

الملوك لأمثالها عن جريها إلى غاياتها بصور القمر، فأقول : إنما قالت الأدباء ذلك لما جرى من جور النيل على الأرض، ولما عم الناس من الإرجاف بطول أذاه وهرجه فكأنما هم في يوم العرض ؛ وكل ذلك وما وصل إلى هذا الارتفاع ، وربما كان أنقص من هذه الزيادة بقريب الذراع .

وعلى هذا القياس إنما دفع ضرره، وجمل في البلاد أثره، وحسن في السماء خبره وفي الأرض مخبره ؛ السرى الذي أهتيمه بالمعروف معروف ، وسيف الدين الذي سهر في مصالح الرعايا لما تنام ملء أجفانها السيوف ؛ أتاك العساكر، والمملك الذي هو بالإسلام وله منصور وناصر ؛ حصن سائر الكوى بالجسور، وركز على أفواه البحر والخليج الأمراء كما يركز المجاهدون على الثغور ؛ وقابل البحر من سطواته بما ليس له به قبل ، ورد دفعه بكل دفع من الرأي والتدبير يُغني عن البيض والأسل ؛ وحاربه بجيش عزم إلى أن وثى هارباً مع التراع والقناطر، وجاهدته بجند ركزهم على جوانبه لما تحقق أن البحر سلطان جائر ؛ وحصره بالتضييق عليه كما تُحصر البرك والتراع ، وغل يده عن التصرف فسقاه الموت كما سقى الناس أنواع التراع ؛ فما هو إلا أن تضائل نيران سطواته وأحترق ، وذلل خاضعاً وكفى به تضرعاً بالأصابع وتوسلاً بالملق ، وأطاع لما لم تُجبه مجاهرته من تياره بالسيوف ولا تحصنه من داراته بالدرق .

على أنه تطاول ليضاهي بأصابه جود أيديه فقصر، وتحمس فركب خيل خيلانه ليحاكي بأسه فوق من جسور تجبه وتقطر، وسمت نفسه كبيراً لأن يبلغ قدره فقيل : يا بحر هذا خليفة الله في أرضه والله أكبر ؛ نعم :

رأى البحر الخضم نداء طام * يفيض على الورى منه بحار،

فصار البحر ملتطماً وأضحى * على الحالين ليس له قرار!

فلوزدت في أيام غيره من الملوك المترفين ، وفيمن يؤثر بلاذ نفسه على مصالح
المسلمين ؛ كنت أيها الملك بلغت قصدك ، وفعلت في أبناء مصر كجهدك ؛ وكنت
من الملوك الذين إذا دخلوا قرية آتعلوا فيها الأهله ، وأفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها
أذله ؛ لكن هب قبولك إذبارا ، ولاقت ربحك إعصارا ؛ فليس لك به قبيل ،
”والسبل أدرى بالجبل“ ؛ فمالك سبيل إلى بلاده ، ولا طاقة بإياب الخير على عناه ؛
فانه خادم الحرمين ، والمدعو له حتى في مواقف الحرب بين العلمين ؛ حامى السواحل
والتغور ، والتخديم بأيدى السحائب وأصابع البحور ، وإن كنت يا أبا خالد أبا جعفر
فلست بمنصور ؛ والرأى أن تقف مستغفرا ، وتقول متندرا ؛ : لم أفرط بالزيادة
في أيامه ، ولم أفض على طرف الميدان إلا لأفوز بتقيل آثار جواد خيله ومواطئ
أقدامه ؛ وتبّع نواحيه وتمتثل أوامره ، وتدعو له كالرعايا بطول البقاء في الدنيا
وحسن الثواب في الآخرة .

ونحن نسأل الله كما بلغ بك المنافع ، أن يرينا كوكب نورك عن قريب راجع ؛
وكما أغنى زيادتك عن الاستسقاء ، لا يمجونا في قصصك إلى الاستضحاء ، إنه سميع
مجيب الدعاء ؛ بمنه وكرمه .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في قدمات البندق)

جمع قَدَمَةٌ بكسر القاف وسكون الدال المهملة، وهي رَسَائِلُ تشتعل على حال الرمي بالبندق، وأحوال الرماة، وأسماء طَيْرِ الواجب، وأصطلاح الرماة وشروطهم. وهذه نسخة قَدَمَةٌ، كتب بها شيخنا الشيخ شمس الدين محمد بن الصائغ الحنفي الأديب رحمه الله، لصلاح الدين بن المقر المحيوي بن فضل الله، ونصها: الحمد لله الذي سَدَّدَ لصلاح الدين سهام الواجب، وشَدَّدَ بِتَجَاجِجِ المَطْلُوبِ مَرَامَ الطالب، وجعل حصول الرزق الشارد بالسعي في المناكب، وسهَّلَ المُنْتَبِعَ على القاصدين فما منهم إلا من رَجَعَ وهو صَائِبٌ .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ولد ولا صاحب، شهادة تزجر طير الإشرار بهذه الأشرار من كل جانب؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي قرَّبه فكان قاب قوسين أو أدنى، وهذه أعلى المراتب، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين رَقَوْا في العلباء لمراق لم يسم إليها طير مراقب، صلاة يسبق بها المصلّي إلى بقاع شرف يُشْرِقُ سنأه في المشارق والمغارب، ويرجع طائراً بالشور ولا رجوع الطائر الشارد إلى المشارب .

وبعد، فإن الصيد من أحل الأشياء وأحلالها، وأجلها وأجلها، وأبهرها وأبهاها، وأبهرها وأبهاها؛ وانغريها قيمه، وأغزرها ديمه؛ بورود الطير فيه إلى المناهل تنشرح الصدور، وبوقوعه في شُرور الشرك يتم السرور؛ يُحصَلُ عند مُتَعَاطِيهِ نَسَاطًا، وَيَزِيدُهُ أَنبَسَاطًا؛ وَيُشْرِحُ خَاطِرَهُ، وَيُشْرِحُ نَاطِرَهُ؛ وَيَمْلَأُ عَيْنَهُ قُرَّةً،

وَقَلْبَهُ مَسْرَهُ، يُسَجِّعُ الْجَبَانَ، وَيُثَبِّتُ الْجَنَانَ، وَيُقَوِّى الشُّهُوهَ، وَيُسَوِّى الخَطُوهَ؛
وَيَسُوِّقُ الظَّفَرَ، وَيَسُوِّقُ النَّظَرَ، وَيُرْوِقُ مِنَ الْوَرْدِ وَالصَّدْرِ، وَيَفُوقُ فِيهِ الخُبْرَ عَلَى
الخَبْرِ. قَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: قَلَمًا يَغْمَشُ نَاطِرُ زَهْرَةٍ، أَوْ يَزِمُنُ مُرْبِعُ طَرِيدَةٍ، يَعْنِي
بِذَلِكَ مَنْ أَدْمَنَ الحِرْكََةَ فِي الصَّيْدِ وَنَظَرَ إِلَى البَسَاتِينِ، فَاسْتَمَعَ طَرْفَهُ بِنُضْرَتِهَا،
وَأَنبَقَ مَنْظَرُهَا.

وَمَنْ ذَا الَّذِي يُنْكِرُ لَذَّةَ الْأَصْطِيَادِ، وَالطَّرَبَ بِالقَنَاصِ عَلَى الإِطْرَادِ؟ وَفِيهِ دَرُ القَائِلِ:
لَوْلَا طِرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَذَّةٌ * فَتَطَارِدِي لِي بِالْوِصَالِ قَلِيلًا.
هَذَا الشَّرَابُ أَخُو الحَيَاةِ وَمَالِهِ * مِنْ لَذَّةٍ حَتَّى يُصِيبَ عَلِيلًا!
يَا حُسْنَهُ مِنْ فِعْلٍ آعْتَلَّتْ بِالنَّسِيمِ مَوَارِدُهُ وَمَصَادِرُهُ، وَفَاقَتْ أَوَائِلَهُ فِي اللَّذَاذَةِ
أَوَاخِرُهُ؛ وَفِيهِ القَائِلُ:

إِنَّمَا الصَّيْدُ هِمَّةٌ وَنَشَاطٌ * يُعْقِبُ الجِسْمَ صِحَّةً وَصَلَاحًا،
وَرَجَاءٌ يُنَالُ فِيهِ سُورٌ * حِينَ يَلْقَى إِصَابَةً وَنَجَاحًا!
وَمَا أَطْيَبَ الاقْتِنَاصَ بَعْدَ الشُّرُودِ، وَكَيْفَ يُرَى مَوْقِعَ الوِصْلِ بَعْدَ الصُّدُودِ:
وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الحُبِّ أَنْ مَنَعْتَ. * أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الإِنْسَانِ مَا مَنَعَا!

تَقْضِي رِيَاضَاتُ النُّفُوسِ السَّامِيَةَ بِمَعَاوَاةِ كَاسِهِ، وَمُصَافَاةِ نَاسِهِ؛ لَمَّا فِيهِمْ مِنْ
القُوَّةِ، وَكَيْلِ المُرُوءَةِ؛ وَصِدْقِ اللِّسَانِ، وَثَبَاتِ الجَنَانِ؛ وَطِيبِ الأَخْلَاقِ، وَحِفْظِ
المِيثَاقِ؛ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الصَّدَقِ وَإِنْ كَانُوا يَمِيلُونَ إِلَى المَلَقِ، وَلَا يَبْغُونَ بِصَاحِبِهِمْ
بَدِيلًا يَعْطِفُونَ عَلَيْهِ عَطْفَ النَّسَقِ؛ لَا سِوَمَا تَعَاطَى صَيْدِ طُيُورِ الوَاجِبِ، الَّذِي سَنَّهُ
الأَكَابِرُ وَجَعَلُوا أَمْرَهُ مِنَ الوَاجِبِ؛ وَتَشَرَّفَتْ بِهِ هِمَمُهُمُ العَالِيَةُ: تَارَةً إِلَى السَّمَاءِ،
وَأَوْتَةً إِلَى مَشَارِعِ المَاءِ.

لا يَتَمُّ سرورهم إلا برؤية تم كبدِ التمام، ومصباح الظلام، يفر من ظله فرارا،
 ويريك بياض لونه وسواد منقاره شيئا ووقارا، ولا يداوى هُموم لغهم مثل كى،
 لأجنحته الخوافي في الخافقين نشر وطى؛ ولا تبتهج نفوسهم النفيسة إلا باوزره،
 يزدرى دلالها بالكاعب المعتزه؛ ولا يطرب أسماعهم غير لغات اللغغه، حين تمتد
 كأنها مدامة في الزجاجه مفرغه؛ ولا يؤنسهم إلا الأنيسه الأنيسه، والدره النفيسه؛
 ولا يذهب حرجهم غير الخبرج الصادح، المستوفى بحسنه كل غاد ورائح؛ تكاد
 قلوبهم تطير بالفرح عند رؤية النسر الطائر، وتخبّر خواطرهم بكسر ذلك الكاسر؛
 إذا عابوا عقباناً أعقبهم الفرح، وتزح عنهم الترح؛ وإن كركركى فر عنهم البوس،
 وراوا على رأسه ذلك التاج الذى لم يعل مثله على الرؤوس؛ وإن عراض غرنوق
 غرقوا في بحار أفكارهم، وجدوا إلى أن يقع بجدول أوتارهم؛ وإن لاح ضوع
 كالذهب المصوغ، ألقوه في الحبال وهو بدمه مصبوغ؛ وإن مر مرزم كالخودة
 الحسناء، ضربوا له الآلة الحذباء؛ وإن مر السبيطر أجنحته كالسحاب، جاءت
 المرأى من كل جانب؛ وإن عن عتر عمدوا إليه، حتى يسقط في يديه؛ قد تعالوا
 في رتبها، وتعالوا في وصف وشيها.

وجعلوا كل آله صنيعه، وربه جمال منيعه، وبعيده الرمي بديعه :-

من كل قوس هي في العين كالحجاب، أو النون التي أجادها الكاتب؛ تدور
 الطائر عند الرمي وتذيبه، وتين أينا أولى به من نصيبه. وبندق جيلت طينته
 على صوب الصواب، يستنزل الطير ولو استتر بذيل السحاب؛ كأنه النجم الثاقب،
 والشهاب الصائب؛ يرى الطير كالسحاب الواكف، فيتقض عليه انقضاض البرق
 الخاطف؛ ويرجع النسر من حنقه راتعا، ويغدو بعد أن كان طائرا واقعا؛ ويصير
 بعد أن كان كامرا مكسورا، وفي سوار القسي مأسورا؛ فهناك يلقى الغالب

وهو مغلوب ، والطير الواجب وهو مندوب ؛ فحينئذ تنشرح النفوس ، وتطرب ولا طربها بالكؤوس .

ولما كان بهذه المنزلة العظيمة ، والمرتبة الجسيمة ؛ تعاطته الملوك وأبناء الملوك ، ونظّموا عقده بحسن السلوك ؛ وأرتاضت به النفوس الطاهرة ، واعتاضت به عن الكؤوس الدائرة ؛ ورأت به تكميل الأدوات ، وسامت به فعل الواجب وإن قيل : إن ذلك من الهفوات ؛ فهو تعب تنشأ الراحة عنه ، ولعب لم يكن شئ أشبه بالجد منه .

فلذلك قصد الجناب الكريم ، العالى ، الصالحى ، صلاح الدنيا والدين ، ونجاح الطالبيين ؛ سليل الوزراء ، ونجل الكبراء ، وصدر الرؤساء ، وعين العظام ؛ ابن المقر المحيوى بن فضل الله ، أدام الله تعالى علاه ، وكبت عداه ؛ وأعلى معاليه ، وشكر مساعيه ؛ وأطال حياته ، وأطاب ذاته - أن يسلك تلك المسالك ، ويريض نفسه الكريمة بذلك ، ويتحيل على تحصيل اللذات بالتحوّل ، عملاً بقول الشاعر :

« تتقل فلذات الهوى فى التثقل ! »

وعمد إلى تحصيل آياته ، سائراً كالبدنر فى هالاته ؛ فسار مع سرايا كالأجرام ، يتفاه كهمون فى الحديث بالمتنور والمنظوم ؛ ويخطون جد القول بهزله ، كلما خلط لهم ظل الجود بوبله ؛ وأتحدروا فى النيل بجمعهم الصحيح ، وقصدوا المرآمى العالية ولم يقنعوا من الأيام بالريح ؛ وظلوا يسرون فى تلك المرآب ، التى كأنها قطع السحاب .

هذا وهم يتشوفون إلى المصايد ، ويشرفون إلى الشوارد ؛ فيطلبون أحياناً إلى البر متفرجين ، وبطيب ذلك النسيم متارجين :

نَسِيمٌ قَدْ سَرَى فِيهِمْ بَنَشِيرٌ • فَأَذْكَرَهُمْ بِمَسْرَاهِ السَّرِيَا!

كَرَامَتُهُ اسْتَقَرَّتْ حِينَ وَافَى • لَهُ نَفْسٌ يُعِيدُ الْمَيِّتَ حَيًّا!

وَيَحْتَنُونَ مِنَ الْغُصْنِ الزَّاهِي قَدَا ، وَيَحْتَلُونَ مِنَ الْوَرْدِ الزَّاهِرِ خَدَا ، وَيَتَأَمَّلُونَ
صُحُوكَ الْأَرْضِ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ ، وَشِمَاخَةَ الْقُضْبِ عِنْدَ نَحْرِ الْمَاءِ ، لَا تَذُوقُ أَجْفَانَهُمْ
طَعْمَ الْكَرَى ، وَلَا يَمِيلُونَ عَنِ السَّيْرِ وَلَا يَمْلُونَ السَّرَى ، مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ إِذَا رَأَى الطَّيْرَ
جَانِئًا ، عَادَ مِنْ وَقْتِهِ لَهُ حَانِئًا ، بَيْنَمَا هُمْ يَسِيرُونَ مُتَفَرِّقِينَ ، حَتَّى إِذَا لَاحَ لَمْ طَيْرٌ
تَدَاعَوْا إِلَيْهِ غَيْرَ مُقَصِّرِينَ وَأَلْتَفُوا مُحَلِّقِينَ ، وَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ يَنْهَمُونَ الْعَيْشَ ، بِالذِّعَةِ
وَالطَّيْشِ ، حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ الْيَوْمُ الْمُبَارِكُ الثَّامِنُ وَالْعَشْرُونَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ
تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي عَزَمَ فِيهِ الْجَنَابُ الصَّلَاحِيُّ عَلَى الْأَصْطِيَادِ ،
بِالْبِنَادِقِ الْحِدَادِ ، فَتَبَاثُرَتْ بِهِ الطُّيُورُ ، وَسَدَّتْ بِأَجْنِحَتِهَا الثُّغُورَ ، وَسَهَّلَ عِنْدَهَا
فِيهِ نُزُولَ الرَّيْسِ ، بِخَادَتِ لَهُ بِالنَّفِيسِ ، وَنَحَرَجَتْ مِنْ قَشْرِهَا ، وَسَمَّحَتْ عِنْدَ
مَدِّ الْقَوْسِ بِحَزِّ نَحْرِهَا ، وَرَغَبَ كُلُّ مَنْهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ بِذَلِكَ أَوْفَرُ الْقِسَمِ ، وَتَرَجَّى أَنْ
يَكُونَ هُوَ الْمَكْتُوبُ لَهُ فِي الْقَدَمِ .

وَمَدَّ يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ ، فَأَصَابَ مِرْزَمًا ، فَيَالَهُ مِنْ صَيْدٍ فَاقَ بِهِ عَلَى الْأَكْبَرِ الصَّيْدِ!
وَيَالَهُ مِنْ يَوْمٍ صَارَ يَحْمِرُ الطَّيْرَ يَوْمَ الْعِيدِ! قَامَ فِيهِ بِوَأَجِبٍ مَا شَرَعَهُ الرَّمَاءُ مِنَ الشَّرْعِ ،
وَذَكَّرْنَا بِهَذَا الصَّرْعِ يَوْمَ ذَلِكَ الصَّرْعِ ، فَلَا زَالَ سَهْمُهُ مَسْدَدَ الْأَعْرَاضِ ، وَجَوْهَرُهُ
يَحْمِي مِنَ الْأَعْرَاضِ ، يَحْمِي بِمِرَادِهِ الْمَقْدُورِ ، وَيُطِيعُهُ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ .

وَقَدْ نَظَمْتُ مُحْتَسِمًا مُشْتَمَلًا عَلَى ذِكْرِ طُيُورِ الْوَأَجِبِ ، وَطَرَزْتُهُ بِأَسْمِهِ ، لِأَنَّ هَذِهِ
الْقِدْمَةَ قَدْ قُدِّمَتْ لَهُ وَجُعِلَتْ بِرَسْمِهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَعْتَذَرُ عَنْهَا ، لِغَدَمِ مَادَّةِ عِنْدِي
أَسْتَمِدُّ مِنْهَا :

جَلَّ كُؤُوسًا عَطَّلَتْ بِالرَّاحِ، * وَلَا تُطْعَمُ فِيهَا كَلَامَ لَاحِي،
وَأَشْرَبَ هَيْنًا وَأَسْقِنِي يَاصْحَاحُ، * وَأَذْكَرْ زَمَانًا مَرًّا بِالْأَفْرَاحِ،
* هَبَّتْ بِهِ فِيمَا مَضَى رِيَّاحِي ! *

أَيَّامَ كُنْتُ أَصْحَبُ الْأَكْبَرَاءِ، * وَأَغْتَدِي مَعَ الرَّمَاةِ سَائِرًا،
وَلَا أَزَالُ بِالغِيَارِ غَائِرًا، * إِذَا رَأَيْتُ فِي الْمِيَاهِ طَائِرًا،
* نَحْوَتُهُ مِنْ سَائِرِ النَّوَاحِي ! *

فَنَارَةٌ كُنْتُ أَصِيدُ النَّسْرَا، * وَبَعْدَهُ الْعُقَابُ يَحْكِي الْجَمْرَا،
وَالْكِيَّ وَالْكُرْكِيَّ صَدْتُ جَهْرًا، * وَصَدْتُ غَيْرَ نَوْقًا وَعَتْرًا قَهْرًا،
* وَكُنْتُ بِالْإَوْزِ فِي أَنْشِرَاحِ ! *

وَنَارَةٌ تَمَّا كَبَدْرِ السَّمِّ * تَتَّبِعُهُ أَيْسَةً كَالنَّجْمِ،
وَلِغَلْغِ أَسْوَدُ مِسْكَ الْهَمِّ، * وَحَبْرٌ عَنِ الرَّمَاةِ تَحْمِي،
* وَالضُّوْعُ مَعَ سَبِيطِ سَيَّاحِ ! *

وَكَمْ وَكَمْ قَدْ صَدْتُ يَوْمًا مِرْزَمًا * أَنْزَلْتُهُ بِالْقَوْسِ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ،
جَنَاحَهُ يَحْكِي طِرَازًا مُعَلَّمًا * عَلَى بِيَاضِ شِيَةِ شِبْهِ الدَّمَاءِ،
* كَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَى صَبَاحِ ! *

حَيْثُ الصَّبَا تُسْفَعُ بِالْقَبُولِ، * وَشَمَلْنَا يُجْمَعُ بِالشُّمُولِ،
فِي مَجْلِسٍ لَيْسَ بِهِ فُضُولِي، * وَجَاءَنَا التَّوْقِيعُ فِي الْوُصُولِ :
* فَسَادُكُمْ يُغْفَرُ بِالصَّلَاحِ ! *

(١) ورد في (ص ٦٧ ج ٢) من هذا الكتاب : بالثين المعجمة مضمومة .

السَّيِّدِ الْفَائِقِ فِي أَعْمَالِهِ ، * وَالْمُزْدَرِيَّ بِالْبَدْرِ فِي كَلَامِهِ ،
وَالْمُشْتَرِيَّ حُسْنِ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ ، * لَا أَحَدٌ يَمْحِكُهُ فِي نَوَالِهِ :
* إِلَّا أَخُوهُ مَعْدِنُ السَّمَاكِ ! *

مَنْ سَادَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُتَابِ ، * وَصَانَ سِرَّ الْمُلْكِ فِي حِجَابِ ،
عَلَى الْعَالِي عَلَى السَّحَابِ ، * الْبَاذِلِ الْمَالَ بِلَا حِسَابِ !
زاده الله نِعْمًا ، وَأَجْرِي لَهُ فِي النَّدَى يَدًا وَثَبَّتْ لَهُ فِي الْعُلَى قَدَمًا ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمٍ .



وهذه نسخة رسالة في صيد البندق ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين أبي الثناء محمود بن سلمان الحلبي رحمه الله ، وهي :

الرِّيَاضَةُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْجَنَابِ الْفُلَانِيَّ ، وَجَعَلَ حُبَّهُ كَقَلْبِ عُدُوِّهِ وَأَجَابًا ، وَسَعَدَهُ
كَوَصْفِ عَبْدِهِ لِمَسَارِ جَالِيَا ، وَلِلْبَصَارِ حَاجِبًا - تَبَعْتُ النَّفْسَ عَلَى مُجَانِبَةِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ ،
وَتَصَوَّنُهَا عَنْ مُشَابَهَةِ الْحَمَائِمِ فِي الرُّكُونِ إِلَى الْوُكُونِ ؛ وَتَحَضُّهَا عَلَى اخْتِذِ حَظِّهَا مِنْ كُلِّ
فَنٍّ حَسَنٍ ، وَتَحْتُمُهَا عَلَى إِضَافَةِ الْأَدْوَاتِ الْكَامِلَةِ إِلَى فَصَاحَةِ الْأَسْنِ ، وَتَأْخُذُ بِهَا طَوْرًا
فِي الْخِدِّ وَطَوْرًا فِي الْأَعْبِ ، وَتَصْرِفُهَا مِنْ مَلَاذِّ السُّمُوفِ فِي الْمَشَاقِّ الَّتِي يَسْتَرْوِحُ إِلَيْهَا
التَّعَبُ . فَنَارَةٌ تَجْمَلُ الْأَكَابِرَ وَالْعُظَمَاءَ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّرِيِّ ، وَمُقَاطَعَةِ
الْكُرِيِّ ؛ وَمُهَاجِرَةِ الْأَوْطَارِ ، وَمُهَاجِمَةِ الْأَخْطَارِ ؛ وَمُكَابِدَةِ الْمَوَاجِرِ ، وَمُبَادِرَةِ الْأَوَابِدِ
الَّتِي لَا تُدْرِكُ حَتَّى تَبْلُغَ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ؛ وَذَلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ أَوْصَافِهِمُ الَّتِي يُدْمُ الْمُعْرِضُ
عَنْهَا ، وَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ مَيْلِهِمْ جِدَّ الْجَرْبِ فَهَذِهِ صُورَةٌ لَعِبٍ يُخْرَجُ إِلَيْهَا مِنْهَا .
وَتَارَةً يَدْعُوهُمْ إِلَى الْبُرُوزِ إِلَى الْمَلَقِ ، وَيَحْدُوهُمْ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهَا مَعَ مَنْ هُوَ دُونَهُمْ

(١) سقطت الشطره الخامسة من قلم الناصح .

على ملازمة الصّدق ومجانبة الملق؛ فيعتسِفون إليها الدجى، إذا سَجى؛ ويقتحمون
في بلوغها حرق النهار، إذا أنهار؛ ويتنعمون بوعثاء السفر، في بلوغ الظفر؛
ويستصغرون ركوب الخطر، في إدراك الوطر؛ ويؤثرون السهر على النوم، والليلة
على اليوم؛ والبندق على السهام، والوحدة على الأثنام.

ولما عدنا من الصيد الذى أتصل به حديثه، وشرح له قديم أمره وحديثه؛ تقنا
إلى أن تشفع صيد السواخ، برمي الصوادح؛ وأن تفعل في الطير الجواخ، بأهلة القيسى
ما تفعل الجوارح؛ تفضيلاً لملازمة الأرتحال، على الإقامة في الرّحال؛ وأخذاً بقولهم:

لا يصلح النفس إذ كانت مُدبرة * إلا التّقلُّ من حالٍ إلى حالٍ!

فبرزنا ونتمس الأصيل نجود بنفسها، ونسير من الأفق النّزبى إلى موضع رمسها؛
وتغازل عيون النور بمقلة أرمدا، وتتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه
المؤدب؛ فكانها كئيب أضحى من الفراق على فرق، أو عليل يقضى بين صحبه بقايا مدة
الرمق؛ وقد أخضلت عيون النور لوداعها، وهم الروض بخلج حلتبه الموهة بذهب
شعاعها:

والطلّ في أعين النوار تحسبه * دمعاً تحير لم يرقاً ولم يكف:

كلؤلؤ ظلّ عطف الغصن متشعاً * بعقده وتبدى منه في شنيف.

يضم من سندس الأوزاق في صرير * خضير ويحنى من الأزهار في صدف!

والشمس في طقل الإنساء تنظر من * طرف غدا وهو من خوف الفراق خفي:

كعاشق سار عن أحبابه وهفاً * به الهوى فتراهم على شرف.

إلى أن نضى المغرب عن الأفق حلى فلائدها، وعوضه عنها من النجوم بجدها
وللائدها؛ فليتنا بعد أداء الفرض لبث الأهله، ومنعنا جفوننا أن ترد النوم

إِلَّا تَحِلَّهُ ، وَنَهَضْنَا وَبُرْدَ اللَّيْلِ مُوشِعٌ ، وَعِقْدُهُ مُرْصِعٌ ، وَإِكْلِيلُهُ مُجَوَّهَرٌ ، وَأَدِيمُهُ
مُعَنْبَرٌ ، وَبَدْرُهُ فِي خِذْرِ سِرَارِهِ مُسْتَكِنٌ ، وَبِخْرُهُ فِي حَشَا مَطَالِعِهِ مُسْتَجِنٌ ، كَأَن
أَمْتَرَجَ لَوْنَهُ بِشَفَقِ الْكَوَاكِبِ خَلِيطًا مَسِيكًا وَصَنْدَلًا ، وَكَأَنُّ ثُرَيَّا لَأَمْتَدَادَهُ مُعَلَّقَةٌ
بِأَمْرَاسٍ كَأَنَّ إِلَى صَمِّ جَنْدَلٍ :

وَلَا حَتَّ مُجُومُ اللَّيْلِ زُهْرًا كَأَنَّهَا * عُقُودٌ عَلَى خَوْدٍ مِنَ الزَّبْحِ تُنْظَمُ ،

مُحَلَّقَةٌ فِي الْجَوِّ وَمُحَسَّبٌ أَنَّهُا * [طَبُورٌ] عَلَى نَهْرِ الْمَجْرَةِ حَوْمٌ

إِذَا لَاحَ بَازِي الصُّبْحِ وَتَتْ يَوْمَهَا * إِلَى الْغَرْبِ خَوْفًا مِنْهُ نَسْرٌ وَمِرْزَمٌ !

إِلَى حَدَائِقِ مُلْتَفَّةً ، وَجَدَاوِلَ مُحْتَفَّةً ، إِذَا تَحَمَّشَ النَّسِيمُ غُصُونَهَا أَعْتَنَقَتْ أَعْتِنَاقَ
الْأَحْبَابِ ، وَإِذَا فَرَّكَ مَرُّ الْمِيَاهِ مُتُونَهَا أَنْسَابَتْ فِي الْجَدَاوِلِ أَنْسِيَابَ الْحَبَابِ ،
وَرَقَصَتْ فِي الْمَنَاهِلِ رَقِصَ الْحَبَابِ ، وَإِنْ لَمْ تُغُورْ نُورَهَا حَيْثُهَا بِأَنْفَاسِ الْمُعْشُوقِ ،
وَإِنْ أَيْقَظَ نَوَاعِيسَ وَرُقَيْهَا غَتَّتْهُ بِالْحَانَ الْمَشُوقِ ، فَنَسِيمُهَا وَأَنْ ، وَشَمِيمُهَا لَعْرِفَ الْحَنَانِ
عُنْوَانًا ، وَوَرْدُهَا مِنْ سَهَرٍ تَرَجِسُهَا غَيْرَانًا :

وَطَلُّهَا فِي خُدُودِ الْوَرْدِ مُنْبِعَثٌ * طَوْرًا وَفِي طُرَرِ الرَّيْحَانِ حَيْرَانٌ !

وَطَائِرُهَا غَرْدٌ ، وَمَأْوَاهَا مُطْرِدٌ ، وَغُصْنُهَا تَارَةٌ يَعْطِفُهَا النَّسِيمُ إِلَيْهِ فَيَنْعَطِفُ ، وَتَارَةٌ
يُعَلِّلُ تَحْتَهَا وَرُقَائِيهَا فَتُحَسَّبُ أَنَّهَا هَمْزَةٌ عَلَى الْإِفِّ ، مَعَ مَا فِي تِلْكَ الرِّيَاضِ مِنْ تَوَافِقِ
الْمَحَاسِنِ وَتَبَايُنِ التَّرْتِيبِ ، إِذْ كَلَّمَا أَعْتَلَّ النَّسِيمُ صَحَّ الْأَرْجُ وَكَلَّمَا نَحَرَ الْمَاءُ شَمَخَ الْقَضِيبُ :

فَكَأَنَّهَا تِلْكَ الْغُصُونُ إِذَا تَنَّتْ * أَعْطَافُهَا رِيحُ الصَّبَا أَحْبَابُ :

فَلَهَا إِذَا أَفْتَرَقَتْ مِنْ أَسْتَعْطَافِهَا * صُلْحٌ وَمِنْ سَبْجِ الْمَمَامِ عِتَابُ .

وَكَأَنَّهَا حَوْلَ الْعُيُونِ مَوَائِسًا * شَرِبُ وَهَاتِيكَ الْمِيَاهُ شَرَابُ !

فَقَدِيرُهَا كَأَنَّ وَعَدْبُ نِظَافِهَا * رَاحٌ وَأَضْوَاءُ النَّجُومِ حُبَابُ !

يحيط بمآقي نطقها صاف، وظلال دوحها صاف، وحصاها لصفاء ماها في نفس
الأمير راكد وفي رأي العين طاف؛ إذا دغدغها النسيم حسبت ماءها بتأيل الظلال
فيه يتبرج ويميل، وإذا أطردت عليه أنفاس الصبا ظننت أفياء تلك الغصون تارة
تموج وتارة تسيل :

فكانه محب هام بالغصون هوى قتلها في قلبه، وكان النسيم كلّف بها غار من
دونها إليه فبيلها عن قرّبه :

والنور مثل عرائس • لفت عليهن الملاء،

ثمّرن فضل الأزر عن • سوق خلاخلهن ماء،

والنهر كالمرآة تظن وجهها فيه السماء !!

وكان صوائف الطيور المتسقة بتلك الأرض خيام، أو ظباء بأعلى الرقتين قيام،
أو أباريق فضة رؤوسها لها أقدام، ومناقيرها المحمرة أوائل ما أنسكب من المدام؛
وكانت رقابها رماح أسنتها من ذهب، أو شموع أسود رؤوسها ما أنظفت وأحمره
ما ألتهب؛ وكذا كالطير الجليل عدّه، وكطراز العمر الأول جدّه :

من كل أبلج كالنسيم لطافة • عف الضمير مهذب الأخلاق،

مثل البذور ملاحه، وكعمرها • عددا، ومثل الشمس في الإشراق!

ومعهم قسي كالغصون في لطافتها ولينها، والأهلة في تحافتها وتكوينها، والأزاهر
في ترافتها وتلويها؛ بطونها مدبجه، ومثونها مدرجه؛ كأنها كواكب الشولة في أنعطافها،
أو أرواق الظباء في أنثافها؛ لأوتارها عند القوائد أوتار، ولبناديقها الحواصل
أو كارب؛ إذا أنضيت لصيد ذهب من الحياة نصيبه، وإن أنصت لرمي بدا لها
أنها أحق به ممن يصيبه؛ ولعل ذلك الصوت زجر لبندقها أن يبطئ في سيره،

أَوْ يَخْطَى الْغَرَضَ إِلَى غَيْرِهِ ، أَوْ وَحْشَةً لِمُفَارَقَةِ أَفْلَاحِ كَيْدِهَا ، أَوْ أَسْفَ عَلَى
خُرُوجِ بَيْنِهَا مِنْ يَدِهَا ؛ عَلَى أَنَّهَا طَالَمَا نَبَذَتْ بَيْنَهَا بِالْعَرَاءِ ، وَشَفَعَتْ لِحَصْمِهَا
التَّحْذِيرَ بِالْإِغْرَاءِ :

مِثْلُ الْعَقَارِبِ أَذْنَابًا مُعَقَّدَةً • لِمَنْ تَأَمَّلَهَا أَوْ حَقَّقَ النَّظْرَ !

إِنْ مَدَّهَا قَمَرٌ مِنْهُمْ وَعَايَنَهُ • مُسَافِرُ الطَّيْرِ فِيهَا أَوْ نَوَى سَفَرًا ،

فَهُوَ الْمُسَيِّءُ آخِيَارًا إِذْ نَوَى سَفَرًا • وَقَدْرَأَى طَالِعًا فِي الْعَقْرَبِ الْقَمَرَا !

وَمِنَ الْبِنَادِقِ كُرَاتٌ مُتَّفِقَةٌ السَّرْدُ ، مُتَّحِدَةٌ الْعَكْسُ وَالطَّرْدُ ، كَأَنَّهَا نُحِرِطَتْ مِنْ
الْمَثَلِ الرُّطْبِ أَوْ عُجِنَتْ مِنَ الْعَنْبَرِ الْوَرْدُ ؛ تَسْرِي كَالشَّهْبِ فِي الظَّلَامِ ، وَتَسْبِقُ إِلَى
مَقَاتِلِ الطَّيْرِ مُسَدِّدَاتِ السَّهَامِ :

مِثْلُ النُّجُومِ إِذَا مَا سَرْنَ فِي أَفْقٍ • عَنِ الْأَهْلَةِ لَكِنْ نُؤْنِسُ رَأَى .

مَا فَاتَهَا مِنْ نُجُومِ اللَّيْلِ إِنْ رُمِئَتْ • إِلَّا تَبَاتُ يُرَى فِيهَا وَأَضْوَاءُ ،

تَسْرِي وَلَا يَشْعُرُ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ بِهَا • كَأَنَّهَا فِي جُفُونِ اللَّيْلِ إِغْفَاءُ ،

وَتَسْمَعُ الطَّيْرُ إِذْ تَهْفُو قَوَادِمُهُ • خَوَافِقًا فِي الدِّيَابِجِي وَهِيَ صَمَاءُ !!!

يَصُونُهَا جِرَاوَةٌ كَأَنَّهَا دُرُجٌ دُرٌّ ، أَوْ دُرُجٌ غُرَّرٌ ، أَوْ كَامَةٌ ثَمَرٌ ؛ أَوْ كَأَنَّهَا تَبَلٌ ،
أَوْ عِمَامَةٌ وَبَلٌ ؛ حَالِكَةُ الْأَدِيمِ ، كَأَنَّهَا رُمِئَتْ بِالشَّفَقِ حُلَّةٌ لَيْلِهَا الْبَهِيمُ :

كَأَنَّهَا فِي وَضْعِهَا مَشْرِقٌ • تَبَّتْ مِنْهُ فِي الدُّجَى الْأَنْجِيمُ ،

أَوْ دِيمَةٌ قَدْ أَطْلَعَتْ قَوْسَهَا • مَلُونًا وَأَنْبَشَقَتْ تَسْجِيمُ !

فَاتَّخَذَ كُلُّ لَهٍ مَرْكَرًا ، وَتَقَضَّى مِنَ الْإِصَابَةِ وَعَدَا مُنْجَزًا ، وَضَمَّنَ لَهُ السَّعْدُ أَنْ
يُصْبِحَ لِمُرَادِهِ مُحْرَزًا :

كَأَنَّهُمْ فِي يُمْنٍ أَوْعَالِهِمْ * فِي نَظَرِ الْمُتَّصِفِ وَالْجَاهِدِ :

قَدْ وُلِدُوا فِي طَالِعٍ وَاحِدٍ ، * وَأَشْرَقُوا مِنْ مَطْلَعٍ وَاحِدٍ !

فَسَرَتْ عَلَيْنَا مِنَ الطَّيْرِ عَصَابَهُ ، أَظَلَّتْنَا مِنْ أَجْنِحَتِهَا سَحَابَهُ ، مِنْ كُلِّ طَائِرٍ أَفْلَحَ
يَرْتَادُ مَرْتَعًا ، فَوَجَدَ وَلَكِنْ مَضْرَعًا ، وَأَسْفَ يَبْتَغِي مَاءَ جَمًّا فَوَجَدَ وَلَكِنْ السَّمَّ مُتَقَعًا ،
وَحَلَّقَ فِي الْفَضَاءِ يَبْنِي مَلْعَبًا فَبَاتَ هُوَ وَأَشْيَاعُهُ مُتَّجِدًا مُحَارِبِيبَ الْقَيْسِيِّ وَرُكَّعًا ؛ فَتَبَرَّكْنَا
بِذَلِكَ الْوَجْهِ الْجَمِيلِ ، وَتَدَارَكْنَا أَوَائِلَ ذَلِكَ الْقَبِيلِ .

فَاسْتَقْبَلْ أَوْلَانَا تَمَامَ بَدْرِهِ ، وَعَظَمِ فِي نَوْعِهِ وَقَدْرِهِ ؛ كَأَنَّهُ بَرُّقٌ كَرَعٌ فِي غَسَقٍ ،
أَوْ صُبْحٌ عَطَفَ عَلَى بَقِيَّةِ الدُّجَى عَطَفَ النَّسَقِ ؛ تَحْسِبُهُ فِي أَسْدَافِ الْمَنَى غُرَّةً تُنْجِحُ ،
وَتَمَّالُهُ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى طُرَّةً صُبْحٍ ؛ عَلَيْهِ مِنَ الْبِيَاضِ حُلَّةٌ وَقَارٌ ، وَلَهُ كُدْهِنٌ عَنَبِرٌ
فَوْقَ مِنتَقَارٍ مِنْ قَارٍ ، لَهُ عُنُقٌ ظَلِيمٌ ، وَأَلْتِفَاتَةٌ رِيمٌ ، وَسُرَى غَيْمٍ يُصَرِّفُهُ نَسِيمٌ :

كَأَوْنَ الْمَشِيبِ ، وَعَصْرِ الشَّبَابِ ، * وَوَقْتِ الْوِصَالِ ، وَيَوْمِ الظَّفَرِ !

كَأَنَّ الدُّجَى غَارَ مِنْ لَوْنِهِ * فَأَمْسَكَ مِنتَقَارَهُ ثُمَّ فَارَ !

فَارْسَلْ إِلَيْهِ عَنِ الْهَلَالِ نَجْمًا ، فَسَقَطَ مِنْهُ مَا كَبُرَ بِمَا صَغُرَ حِجْمًا ؛ فَاسْتَبْشَرَ بِجَنَاحِهِ ،
وَكَبُرَ عِنْدَ صِيَابِحِهِ ، وَحَصَّلَهُ مِنْ وَسَطِ الْمَاءِ بِجَنَاحِهِ .

وَتَلَاهُ كُنَى نَفِيِّ اللِّبَاسِ ، مُشْتَعِلُ شَيْبِ الرَّأْسِ ، كَأَنَّهُ فِي عَرَائِينِ شَيْبِهِ لَا وَبَلَهُ كَبِيرُ
أُنَاسٍ ؛ إِنْ أَسْفَ فِي طَيْرَانِهِ فَمَامٌ ، وَإِنْ خَفَقَ بِجَنَاحِهِ فَقَلْعٌ لَهُ بِيَدِ النَّسِيمِ زِمَامٌ ؛
ذُو عَيْنِيَّةٍ كَالْحِرَابِ ، وَمِنتَقَارٍ كَالْحِرَابِ ، وَلَوْنٍ يَغْرُ فِي الدُّجَى كَالنَّجْمِ وَيَخْتَدِعُ فِي الضُّحَى
كَالسَّرَابِ ؛ ظَاهِرُ الْهَرَمِ ، كَأَنَّمَا يُخْبِرُ عَنْ عَادٍ وَيُحَدِّثُ عَنْ إِرَمِ :

إِنْ عَامَ فِي زُرْقِ الْغَدِيرِ حَسِبْتَهُ * مُبَيِّضُ غَيْمٍ فِي أَدِيمِ سَمَاءِ ،

أَوْ طَارَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ ظَنَنْتَهُ * فِي الْجَوِّ شَيْخًا عَائِمًا فِي مَاءِ ،

مُتَنَاقِضِ الْأَوْصَافِ فِيهِ خِفَّةُ السَّجْهَالِ تَحْتَ رِزَانَةِ الْعُلَمَاءِ!

فَنَنَى الثَّانِي إِلَيْهِ عِنَانَ بِنْدُقِهِ ، وَتَوَخَّاهُ فِيمَا بَيْنَ رَأْسِهِ وَعُنُقِهِ ، نَفْزَ كَارِدٍ أَنْقَضَ
عَلَيْهِ نَجْمٌ مِنْ أَفْقِهِ ؛ فَتَلَقَّاهُ الْكَبِيرَ بِالتَّكْبِيرِ ، وَأَخْتَنَفَهُ قَبْلَ مَصَاحِفَةِ الْمَاءِ مِنْ
وَجْهِ الْغَدِيرِ .

وَقَارَنَتْهُ إِوْرَةَ حَلْبَاءِ دُكَّاءَ ، وَحَلَّتْهَا حَسَنَاءَ ؛ لَهَا فِي الْفَضَاءِ مَجَالٌ ، وَعَلَى طَيْرَانِهَا خِفَّةٌ
ذَوَاتِ التَّبْرِجِ وَخَفَرُ رَبَاتِ الْمَجَالِ ؛ كَأَمَّا عَبَّتْ فِي ذَهَبٍ ، أَوْ خَاصَّتْ فِي لَهَبٍ ؛
تَحْتَالُ فِي مِشْيَتِهَا كَالْكَاعِبِ ، وَتَنَاقَى فِي خَطْوِهَا كَاللَّاعِبِ ؛ وَتَعَطَّفَ بِجِيدِهَا كَالظُّبِيِّ
الْغَرِيرِ ، وَتَنَدَفَعُ فِي سَيْرِهَا مَشَى الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ :

إِذَا أَقْبَلَتْ تَمَشِي نَفْطَرَةَ كَعَابٍ • رَدَّاجٌ ، وَإِنْ صَاحَتْ فَصَوْلَةٌ حَازِمٍ ،
وَإِنْ أَقْلَعَتْ قَالَتْ لَهَا الرِّيحُ : لَيْتَ لِي • خَفَا ذِي الْخَوَافِي أَوْ قُوَى ذِي الْقَوَادِمِ .
فَأَنْعِمَ بِهَا فِي الْبُعْدِ زَادُ مَسَافِرٍ ، • وَأَحْسِنُ بِهَا فِي الْقُرْبِ تُحْفَةٌ قَادِمٍ !
فَلَوَى الثَّلَاثُ جِيدَهُ إِلَيْهَا ، وَعَطَّفَ بِوَجْهِ إِقْبَالِهِ عَلَيْهَا ؛ فَلَجَّتْ فِي تَرْفَعِهَا مُعْنَهُ ، ثُمَّ نَزَلَتْ
عَلَى حُكْمِهِ مُدْعِنَهُ ؛ فَأَعْجَلَهَا عَنْ اسْتِكْمَالِ الْمُبُوطِ ، وَأَسْتَوَى عَلَيْهَا بَعْدَ اسْتِمْرَارِ الْقُنُوطِ .
وَحَادَتْهَا لَعْلَعَةً تُحْكِي لَوْنَ وَشَمِيهَا ، وَتَصِفُ حُسْنَ مَشِيهَا ؛ وَتُرِي عَلَيْهَا بَغْوَتَهَا ،
وَتُنَافِسُهَا فِي الْمَحَاسِنِ كَضَرَّتِهَا ؛ كَأَنَّهَا مُدَامَةٌ قُطِبَتْ بِمَآئِهَا ، أَوْ عِمَامَةٌ شَفَّتْ عَنْ بَعْضِ
نُجُومِ سَمَائِهَا :

بُعْرَةٌ بَيْضَاءَ مَيْمُونَةٍ • تُشْرِقُ فِي اللَّيْلِ كَبَدْرِ النَّهَامِ !

وَإِنْ تَبَدَّتْ فِي الضُّحَى خَلَّتْهَا • فِي الْحَلَّةِ الدُّكَّاءِ بَرَقَ النَّهَامِ !

فَنَهَضَ الرَّابِعُ لِاسْتِقْبَالِهَا ، وَرَمَاهَا عَنْ فَلَكَ سَعْدِهِ بِنَجْمٍ وَبَالِهَا ؛ بَغَدَّتْ فِي الْعُلُوِّ
مُبْتَدَأَهُ ، وَتَطَارَدَتْ أَمَامَ بِنْدُقِهِ وَلَوْلَا طِرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَدَّهُ ؛ وَأَنْقَضَ عَلَيْهَا مِنْ يَدِهِ

شهاب حنفيها، وأدركها الأجل لحفة طيراتها من خلفها؛ فوعدت من الأفق في كفه،
ونقر ما في بقايا صفها عن صفه .

واتت في إثرها أنيسة أنسه، كأنها العذراء العائسه، أو الأذماء الكائسه؛ عليها
خفر الأبقار، وخفة ذوات الأوكار، وحلاوة المعاني التي تجلي على الأفكار؛ ولها
أنس الريب، وإدلال الحبيب، وتلفت الزائر المريب من خوف الرقيب؛ ذات عنق
كالبريق، أو الغصن الوريق، قد جمع صفرة البهار إلى حمرة الشقيق؛ وصدر بهي
الملبوس، شهى إلى النفوس، كأنما رقم فيه النهار بالليل أو نقش فيه العاج بالآبنوس؛
وجناح ينجيها من العطب، يحكي لوها المنديل الرطب لولا أنه حطب :

مُدِيحَةُ الصِّدْرِ تَفْوِيضُهُ • أَضَافَ إِلَى اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ!

لَهَا عُنُقٌ خَالَهَ مِنْ رَأَاهُ • شَقَائِقُ قَدْ سَجَّتْ بِالْبَهَارِ!

فوثب الخامس منها إلى الغنيمه، ونظم في سلك رميه تلك الدرّة البيتمه، وحصل
بتحصيلها بين الرماة على الرتبة الجسيمه .

وأنى على صوتها حبرج تسبق همته جناحه، ويغلب خفق قوادمه صياحه؛ مدبج
المطا، كأنما خلع حلة منكبته على القطا؛ ينظر من لهب، ويخطو على رجلين من ذهب:

يَزُورُ الرَّيَاضَ، وَيَجْفُو الْحِيَاضَ • وَيُشِبُّ فِي اللَّوْنِ كُدْرَ الْقَطَا،

وَيَعْوِي الزُّرُوعَ وَيَلْهُو بِهَا، • وَلَا يَرِدُ الْمَاءَ إِلَّا خَطَا!

فبدره السادس قبل ارتفاعه، وأعان قوسه بامتداد باعه، نخر على الآلاء كسطام
أبن قيس^(١)، وأنقص عليه راميه فحمله بجذق وحمله بكيس .

(١) يشير إلى قول الشاعر في بسطام :

نَخَّرَ عَلَى الْآلَاءِ لَمْ يُوسَدَ • كَأَنَّ جَبِيهَ سَيْفٍ صَقِيلٍ:

الآلاء. بوزن العلاء. شجر والآلاءة أخص منه .

وتعدّر على السَّابِجِ مَرَامُهُ، وَنَبَاً عَنِ بُلُوغِ الأَرَبِ مَقَامُهُ؛ فَصَعِدَ هُوَ وَتَرَبَّ لَهُ
إِلَى جَبَلٍ، وَتَبَّتْ فِي مَوْقِفِهِ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِرَافِقَتِهِمَا قَبْلَ .

فَعَنَّ لَهُ تَسْرُدُو قَوَائِمَ شِدَادٍ، وَمَنَاسِرَ حَدَادٍ . كَأَنَّهُ مِنْ نُسُورِ لُقْمَانَ بْنِ عَادٍ؛ تَحْسِبُهُ
فِي السَّمَاءِ تَالِيَتِ أَخْوِيهِ، وَتَخَالُهُ فِي الفَضَاءِ قُبَّتَهُ الْمُنْسُوبَةَ إِلَيْهِ؛ قَدْ حَلَّقَ كَالْفُقَرَاءِ
رَأْسَهُ، وَجَعَلَ مِمَّا قَصَرَ مِنَ الدُّلُوقِ الدُّكْنِ لِبَاسَهُ؛ وَأَشْتَمَلَ مِنَ الرِّيشِ العَسَلِيِّ
إِزَارًا، وَأَلْفَ العَزَلَةَ فَلَا تَجِدُ لَهُ إِلَّا فِي قَنَنِ الجِبَالِ الشَّوَاهِقِ مَزَارًا؛ قَدْ شَابَتْ نَوَاصِي
الذَّيْلِ وَهُوَ لَمْ يَتَسَبَّ، وَمَضَّتِ الدُّهُورُ وَهُوَ مِنَ الحَوَادِثِ فِي مَعْقِلِ أَشْبِ :

مَلِيكَ طُيُورِ الأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا * وَفِي الأَفْقِ الأَعْلَى لَهُ أَخَوَانِ!

لَهُ حَالٌ فَتَاكِ، وَحِلْيَةٌ نَاسِيكِ، * وَإِسْرَاعٌ مِقْدَامِ، وَفِتْرَةٌ وَأَنْ!

فَدَنَا مِنْ مَطَّارِهِ، وَتَوَسَّحَى بِبُنْدُقِهِ عُنُقَهُ فَوْقَ فِي مِتْقَارِهِ؛ فَكَأَنَّمَا هَدَمَ مِنْهُ صَخْرًا،
أَوْ هَدَمَ بِهِ بِنَاءَ مُشْمِخَرَا؛ وَنَظَرَ إِلَى رَفِيقِهِ، مُبَشِّرًا لَهُ بِمَا أَمْتَازَ بِهِ عَنِ فَرِيقِهِ .

وَإِذَا بِهِ قَدْ أَظْلَنَهُ عُقَابٌ كَاسِرٌ، كَأَنَّمَا أَضَلَّتْ صَيِّدًا أَفَلَّتْ مِنَ المَنَاسِرِ؛ إِنْ
حَطَّتْ فَسَحَابٌ أَنْكَشَفَ، وَإِنْ أَقَامَتْ فَكَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى
وَكْرِهِهَا العُنَابُ وَالحَشْفُ، بَعِيدَةٌ مَا بَيْنَ المَنَازِكِ :

إِذَا أَفَلَّتْ بَلَّتْ عُسُلًا كَأَنَّمَا * مُتَحَاوِلٌ نَارًا عِنْدَ بَعْضِ الكَوَاكِبِ!

يُرَى الطَّيْرُ وَالوَحْشُ فِي كَفِّهَا * وَمِتْقَارِهَا ذَا عِظَامٍ مُزَالَهُ .

فَلَوْ أَمَكَنَّ الشَّمْسُ مِنْ خَوْفِهَا * إِذَا طَلَعَتْ مَا تَسَمَّتْ عَزَالَهُ!

فَوَشِبَ إِلَيْهَا التَّامِنُ وَثَبَةً لَيْثٌ قَدْ وَتِقَ مِنْ حَرَكَاتِهِ بِنَجَاحِهَا، وَرَمَاهَا بِأَوَّلِ بُنْدُقَةٍ فَمَا
أَخْطَأَ قَادِمَةَ جَنَاحِهَا؛ فَأَهْوَتْ كَعُودٍ صُرْعَ، أَوْ طَوَدٍ صُدْعَ؛ قَدْ ذَهَبَ بِأَسْهَا،

وتذهب بدمها لبأسها ، وكذلك القدر يُخادع الجوّ عن عقابه ، ويستترّل الأعصم من
عقابه ؛ فحملها بجنّاحها المهبّض ، ورفعها بعد الترفّع في أوج جوّها من الحضيض ،
ونزل إلى الرفقه ، جدلاً بريخ الصّفقه .

فوجد التأيّع قد مرّ به كركي طويل الشّفار ، بريع النّفار ؛ ثمهيّ الفراق ،
كثير الاغتراب يستو بمصر ويصيف بالعراق ؛ لقوادمه في الجوّ حفيف ، ولأديمه
لون سماء طراً عليها غيم خفيف ؛ تبحن إلى صوتيه الجوارح ، وتعجب من قوته
الرياح البوارح ؛ له أثر حمرة في رأسه كوميض جمر تحت رماد ، أو بقية جرح تحت
ضمد ، أو فصّ عقيق سفت عنه بقايا ثمد ؛ ذو منقار كسنان ، وعنق كعنان ؛
كأما ينوس ، على عودين من أبنوس :

إذا بدا في أفق مقلماً • والجوّ كالماء تفأويفه :

حسبته في لحية مرّجاً • رجلاه في الأفق مجاديفه !

فصبر له حتى جازه مجلياً ، وعطف عليه مصلياً ؛ نخر مضرّجاً بدمه ، وسقط مشرفاً
على عذمه ؛ وطالم أفلت لدى الكواسر من أظفار المدون ، وأصابه القدر بحجة من
حمي مسنون ؛ فكثرت التكبير من أجله ، وحمله على وجه المساء برجله .

وحاذاه غرنوق حكاة في زيه وقدره ، وأمتاز عنه بسواد رأسه وصدره ؛ له
ريستان ممدودتان من رأسه إلى خلفه ، معقودتان من أذنيه مكان شنفه :

له من الكركي أوصافه • سوى سواد الصدر والرأس .

إن شال رجلا وأنبرى قائماً • ألفتيه هيئة برجاس !

فاضغى العاشر له منصتا ، ورماه متلفتا ؛ نخر كأنه صريع الألمان ، أو زريف بنت
الحان ؛ فاهوى إلى رجله بيده ، وأنقص عليه أنقص الكاسر على صيده .

وَتَبِعَهُ فِي الْمَطَارِ ضُوعٌ^(١)، كَأَنَّهُ مِنَ النَّضَارِ مَصْنُوعٌ، تَحْسَبُهُ طَائِفًا قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ،
أَوْ بَارِقًا قَدْ بَثَّ لَفْحَتَهُ :

طَوِيلَةٌ رِجْلَاهُ مُسْوَدَةٌ * كَأَنَّهَا مِنْقَارُهُ خَنْجَرٌ :

مِثْلُ عَجُوزٍ رَأْسُهَا أَشْمَطٌ * جَاءَتْ وَفِي رَقَبَتِهَا مِعْجَرٌ !

فاستقبله الحادي عشر ووثب، ورماه حين حاذاه من كَثَبٍ، فسقط كفارسٍ تَقَطَّرَ
عن جواده، أو واميقٍ أُصِيبَتْ حَبَّةُ فُؤَادِهِ، خَمَلَهُ بِسَاقِهِ، وَعَدَّلَ بِهِ إِلَى رِفَاقِهِ .

وَأَقْتَرَنَ بِهِ مِرْزَمٌ لَهُ فِي السَّمَاءِ مِثْلُ مَعْرُوفٍ، ذُو مِثْقَالٍ كَصُدُغٍ مَعْطُوفٍ، كَأَنَّ
رِيَاشَهُ فَلَقَّ أَتَّصَلَ بِهِ شَفَقٌ، أَوْ مَاءٌ صَافٍ عَلِقَ بِأَطْرَافِهِ عَلَقٌ :

لَهُ جِسْمٌ مِنَ التَّلْجِ * عَلَى رِجْلَيْهِ مِنْ نَارٍ :

إِذَا أَقْلَعَ لَيْلًا قُلَّتْ بَرْقٌ فِي الدُّجَى سَارِي !

فاتعاه الثاني عشر ميمًا، ورماه مُصَمَّمًا، فأصابه في زَوْرِهِ، وَحَصَلَهُ مِنْ قَوْرِهِ،
وَحَصَلَ لَهُ مِنَ السُّرُورِ مَا نَحَرَ بِهِ عَنِ طَوْرِهِ .

وَأَلْتَحَقَ بِهِ سَبِيطٌ، كَأَنَّهُ مِدْبَةٌ مُبِيطٌ، يَتَحَطُّ كَالسَّيْلِ، وَيَكُرُّ عَلَى الْكَوَاسِرِ كَالْحَيْلِ،
وَيَجْمَعُ مِنْ لَوْنَيْهِ بَيْنَ ضِدَّيْنِ يُقْبَلُ مِنْهُمَا بِالنَّهَارِ وَيُدْبِرُ بِاللَّيْلِ، يَتَلَوَّى فِي مِثْقَارِهِ الْأَيْمِ،
تَلَوَّى التَّيْنِ فِي النَّعِيمِ :

تَرَاهُ فِي الْجَوِّ مُتَمَدًّا وَفِي فَمِهِ * مِنَ الْأَفَاعِي شَجَاعٌ أَرْقَمٌ ذَكَرٌ :

كَأَنَّهُ قَوْسٌ رَأَمَ عُنُقَهُ يَدُّهَا * وَرِجْلُهُ رِجْلُهَا وَالْحَيَّةُ الْوَتْرُ !

(١) هو يضم الضاد المعجمة وكسرهما مع فتح الواو. وورد في الجزء الثاني (ص ٦٤) من هذا الكتاب :
"ضوع" وأنظر ما كتبناه إليه في الحاشية الثانية هناك .

فصوب الثالث عشر إليه بندقه ، فقطع لحية وعنقه ؛ فوقع كالصرح الممرد ،
أو الطراف الممدد .

وأتبعه عناز أصبح في اللون ضده ، وفي الشكل نده ؛ كأنه ليل ضم الصبح إلى
صدره ، أو انطوى على هالة بديره :

ترآه في الجوّ عند الصبح حين بدأ * مسودّ أجنحة مبيض حيزوم :

كأنه حبشي عام في نهر * وضم في صدره طفلاً من الروم !

فنهض تمام القوم إلى التيمه ، وأسفرت عن نوح الجماعة تلك الليلة المدهمة ؛
وغدا ذلك الطير الواجب واجباً ، وكل العدد به قبل أن تطلع الشمس عيناً أو تبرز
حاجباً ؛ فيألف ليلة حضرنا بها الصادح في الفضاء المتسع ، ولقيت فيها الطير ما طارت به
من قبل على كل شمل مجتميع ؛ وأصبحت أشلاؤها على وجه الأرض كقرايد خانها
النظام ، أو شرب كأن رقابهم من اللين لم يخلق لمن عظام ، وأصبحنا مثنين على
مقامنا ، مثنين بالظفر إلى مستقرنا ومقامنا ؛ داعين لولئ جهدنا ، مدعين له قبلنا
أوردنا ؛ حاملين ما صرنا إلى بين يديه ، عاملين على التشرّف بخدمته والاتباء إليه :

فأنت الذي لم يلف من لا يؤده * ويدعى له في السر أو يدعى له :

فإن كان رمي ، أنت توضح طرفه ، * وإن كان جيس : أنت تحمي قبيله !

والله تعالى يجعل الآمال منوطة به وقد فعل ، ويعمله كهفًا للأولياء وقد جعل ؛

بمنه وكرمه :

الفصل الرابع

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في الصدقات ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في الصدقات الملوكية وما في معناها)

قد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن تُكتب له خطبة صدق تكون في الطول والقصر بحسب صاحب العقد، فتطال للوك وتقصّر لمن دونهم بحسب الحال .

وهذه نسخة صدق، كُتِبَ به لللك السعيد بركة ، ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، علي بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالح الأثني قبل سلطنته ، بالقلعة المحروسة ، من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهي :
الحمد لله موفق الآمال لأُسعيدِ حركه ، ومصدق الفأل لمن جعل عنده أعظم بركه ،
ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانَه وصهره ملكه ؛ الذي جعل للأولياء من
لذنه سلطاناً نصيراً ، وميز أقدارهم باصطفاء تاهله حتى حازوا نعيماً وملكاً كبيراً ؛
وأفرد فخارهم بتقريبه حتى أفاد شمس آمالم ضياءً وزاد قمرها نورا ، وشرف به واصلتهم
حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيماً وإنعامه كثيراً ؛ مهياً أسباب التوفيق العاجلة
والآجلة ، وجاعل رُبوع كل إملاك من الأملاك بالشموس والبُدور والأهله آهله ،
جامع أطراف الفخار لذوى الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة وحلت عندهم
البركة الكاملة .

تحمده على أن أحسن عند الأولياء بالنعمة الاستيداع، وأجمل لتأجيلهم الاستطلاع،
وكل لأخبارهم الأجناس من العز والأنواع، وأتى آمالهم بما لم يكن في حساب
أحسابهم من الأبتداء بالتخويل والأبتداع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة حسنة الأوضاع، ملية بتشريف الأئسنة وتكريم الأسماع، ونصلى على
سيدنا محمد الذى أعلى الله به الأقدار، وشرف به الموالى والأصهار، وجعل كرمه
داراً لهم فى كل دار، وبقره على من استطلع من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار،
صلى الله عليه وعليهم صلاة زاهية الأزهار، يأنعة الثمار.

وبعد، فلو كان اتصال كل شىء بحسب المتصل به فى تفضيله، لما استصلح
البدر شيئاً من المنازل لتزوله، ولا الغيث شيئاً من الرياض لهطوله، ولا الذكر
الحكيم لساناً من الأئسنة لترتيبه، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله، لكن
ليتشرف به يحل به القمر، وتبت يزوره المطر، ولسان يتعود بالآيات والسور،
ونثار يجمل باللالى والدرر، ولذلك تجملت برسول الله صلى الله عليه وسلم أضهاره
وأصحابه، وتشرفت أنسابهم بأنسابه، وتروج صلى الله عليه وسلم منهم، وتمت لهم
مزية الفخار حتى رضوا عن الله ورضى عنهم.

والمرتب على هذه القاعدة الفاضلة نور يستمدده الوجود، وتقرير أمر يقارن سعد
الأخبية منه سعد السعد، وإظهار خطبة تقول للثريا لانتظام عقودها: كيف،
وإبراز وصلة تجمل بترصيع جوهرها متن السيف الذى يغيطه على إبداع هذا
الجوهر به كل سيف، ونسج صهارة يتم بها - إن شاء الله - كل أمر سيد،
ويتفق بها كل توفيق تخلق الأيام وهو جديد، ويختار لها أرك طالع: وكيف لا تكون
البركة فى ذلك الطالع وهو السعيد؟

وذلك بأن المَرَّاحِمَ الشريفةَ السلطانيةَ أرادت أن تُحَصِّنَ المجلسَ السامى بالإحسان المُبتَكِرَ ، وتُفَرِّدَهُ بِالْمَوَاهِبِ التي يُرَهِّفُ بِهَا الحَدُّ المُتَّضِيَّ وَيَعْظُمُ الحَدَّ المُنتَظِرَ ، وأن تَرَفِّعَ من قَدْرِهِ بِالصَّهَارَةِ مِثْلَ ما رَفَعَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَدْرِ صَاحِبِيهِ : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، نَخَطَبَ إِلَيْهِ أَسْعَدَ الْبَرِيَّةِ ، وَأَمْنَعَ من تَحْمِيهَا السُّيُوفُ الْمَشْرِفِيَّةَ ، وَأَعَزَّ من تُسْبِلَ عَلَيْهَا سُتُورَ الصُّونِ الْخَفِيَّةِ ، وَتُضْرَبُ دُونَهَا خُدُورُ الْجَلَالِ الرِّضِيَّةِ ، وَتُجَمَّلُ بِنِعْوَتِهَا الْعُقُودُ : وَكَيْفَ لَا ؟ وَهِيَ الدَّرَّةُ الْأَلْفِيَّةُ ؛ فَقالَ وَالِدُهَا وَهُوَ الْأَمِيرُ الْمَذْكُورُ : هَكَذَا تُرَفِّعُ الْأَقْدَارُ وَتُرْزَنُ ، وَكَذَا يَكُونُ قِرَانُ السَّعْدِ وَسَعْدُ الْقِرَانِ !!! ؛ وَمَا أَسْعَدَ رَوْضًا أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَرَّاحِمُ الشَّرِيفَةُ السُّلْطَانِيَّةُ لَهُ حَمِيلَهُ ! ، وَأَشْرَفَ سَيْفًا غَدَّتْ مِنْطَقَتَهُ بُرُوجُ سَمَائِهَا لَهُ حَمِيلَهُ ! ؛ وَمَا أَعْظَمَهَا مُعْجِزَةُ آتِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ لَدُنْهَا سُلْطَانًا ! ، وَزَادَتْهُمْ مَعَ إِيْمَانِهِمْ إِيْمَانًا ! ؛ وَمَا أَخْفَرَهَا صَهَارَةٌ يَقُولُ التَّوْفِيقُ لِإِبْرَاهِمَ : لَيْتَ ! ، وَأَشْرَفَهَا عُبُودِيَّةٌ كَرَّمَتْ سَمَائِهَا بِأَنْ جَعَلْتَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ! .

وَإِذْ قَدْ حَصَلَتْ الْأَسْتِخَارَةُ فِي رَفْعِ قَدْرِ الْمَمْلُوكِ ، وَخَصَّصْتَهُ بِهَذِهِ الْمَرْيَةِ الَّتِي تَقَاصَرَتْ عَنْهَا آمَالُ أَكْبَرِ الْمَمْلُوكِ ؛ فَالْأَمْرُ لِمَلِكِ الْبَسِيطَةِ فِي رَفْعِ دَرَجَاتِ عَيْبِهِ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَالتَّصَدُّقُ بِمَا يَتَفَوَّهُ بِهِ هَذَا الْإِنْسَاءُ ؛ وَهُوَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا كِتَابٌ مُبَارَكٌ تَحَاسَدَتْ رِمَاحُ الْخَطِّ وَأَقْلَامُ الْخَطِّ عَلَى تَحْرِيرِهِ ، وَتَنَافَسَتْ مَطَالِيعُ النُّوَّارِ وَمَشَارِقُ الْأَنْوَارِ عَلَى نَظْمِ سَطُورِهِ ؛ فَأَضَاءَ نُورُهُ بِالْجَلَالَةِ وَأَشْرَقَ ، وَهَطَلَ نَوَّءُهُ بِالْإِحْسَانِ فَأَغْدَقَ ، وَتَنَاسَبَتْ فِيهِ أَجْنَاسُ تَجْنِيسِ لَفِظِ الْفَضْلِ فَقالَ الْإِعْتِرَافُ : هَذَا مَا تَصَدَّقَ ، وَقَالَ الْعُرْفُ : هَذَا مَا أَصَدَّقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ : أَصَدَّقَهَا مَا مَلَأَ خَزَائِنَ الْأَحْسَابِ نَخَارًا ، وَتَجَجَّرَ الْأَنْسَابَ ثِمَارًا ، وَمِشْكَاتَةَ الْجَلَالَةِ أَنْوَارًا ، وَأَضَافَ إِلَى

ذلك ما لولا أدب الشَّرع لكان أقاليم ومدائن وأمصارا؛ فبدل لها من العينِ المِصرى ما هو باسم والدها قد تشرف ، وبنوعيته قد تعرف ، وبين يدي هباته وصدقائه قد تصرف .



وهذه نسخة صدقِ المقام الشريف العالى السيفى أنوك ، ولد السلطان الشهيد الملك الناصر «محمد بن قلاوون» على بنت المقر المرحوم السيفى «بكتمر الساقى» . وكان العاقِد قاضى القضاة جلال الدين القزوينى ، والقابل السلطان الملك الناصر والد الزوج ، وهى :

الحمد لله مسير الشمس والقمر ، وميسر حياة كل شىء ، باتصال الروض بالمطر ، ومبشر المتقين من درارى الدرارى بأسعد كوكب ينتظر ، وأحمد عاقبة تهتر لها أعطاف عطاء الملوك على كبر ، وتنجاب عن الأنجاب كما تفتح الأكام عن الثمر ، الذى مد من الشجرة المباركة الملوكية فروعا ألتفت بعضها على بعض ، ورفقت على من استظل بها فراقب السماء على الأرض .

نحمده على نعيمه التى أطابت لنا جنى الغروس ، وأطالت منا منى النفوس ، وأطافت بملوكنا حتى مدت لسؤالهم الأيدي وخضعت لأمرهم الرؤوس ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نتخذها عصمة نافعته ، ونعمة لحسن العاقبة جامعته ، ورحمة تبارك على أئمتنا وعلى أبنائهم البدور الطالعة ، والأنوار الساطعة ، والبروق اللامعة ، والغيوث الهامعة ، والسيول الدافعة ، والسيوف القاطعة ، والأسود التى هى عن حرم حضرتها مانعة ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أزان من تمسك له بحسب ، وشرف من آعترى إليه بالقربى أو آعتر منه بصهر أو نسب ؛

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين أرضاهم ورضى عنهم ، وكرمهم بصلته الشريفة
لما زوجهم وتزوج منهم ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإن من عادة الغمام أن يتفقد الأرض بمطيره ، والبحر أن يسقى الزروع
بما فاض من نهره ؛ والمصاييح أن تمتد بانوارها ما يتوقد ، والسماء أن لا تخلو أفقها
من اتصال فرقيد بفرقد ؛ ولو توقفت القرى على مقارنة كبير ، أو مقارنة نظير ،
لما صلحت الأعماد لمضاجع السيوف ولا دنت الكواكب من الشمس والقمر ،
المئير ؛ ولا صلحت يمين شمالا ، ولا جاورت جنوب شمالا ؛ ولا حوت الكائن
سهما ، ولا جمع السلك للجواهر نظاما ؛ ولا طمح طرف إلى غاية ، ولا قدر لسان
إنسان على تلاوة سورة ولا آية ؛ وإما الصدقات الشريفة الملوكة لها في البر
عوائد ، وفي الخير سجايا يقتدى فيها الولد بالوالد .

ولم يزل من المقام الشريف ، الأعظم ، العالى ، المولوى ، السلطاني ، المالكى ،
الناصرى ، أعز الله سلطانته على من لاذ به تسبيل ذيول الفخار ، وتودع في هالات
أقمارهم ودائع الأنوار ، وتوهل أهلهم لأن يكون منها أحد الأبوين لذريته الأطهار ،
وتحطب من محبهم كل مصونة يغور بها بدر الدجى وتغار منها شمس النهار .

وكان من تمام النعمة الشريفة السلطانية ، الناصرية ، على من تعرض لسحابها
الماطر ، ووقف للاعتراف من بحرها الزائر - ما رفعت به ذكره إلى آخر الأبد ،
وأتمت له السعادة إذ كان يعد في جود من ينسب إليه من ولد ؛ وأكدت له
بالقربى مزية مزيد ، وأستخرجت من بحره جوهرة لا يطمع في التطوق بها كل
جيد ؛ وقالت : نحن أحق بتكامل ما بيننا ، وتحويل الخولة من أولينا ؛ وتأهيل من قر
بنا عيننا وقربناه إلينا ، وتفضيل غرس نعمة نحن غرسناه وأجنتنا ثمراته بيدنا .

فاقتضى حُسن الاختيار الشريف المَلِكِي الناصري ، لولده المقام العالی السيفي ؛
أحسن الله لها الاختيار ، وأجرى بارادتهما آقندار الأقدار أن تُرَفَّ أتمُّ الشموس إلى
سُتُورِه الرفيعه ، وتُصَانَ أَكُلَّ مَعَاوِلِ الْعَقَائِلِ بِحُجْبِهِ الْمَنِيَعَةِ ؛ وَتُحَاطَ أَشْرَفُ الدَّرَرِ
فِي مُسْتَوْدَعِهِ ، وَتُحَاطَ أَشْرَفُ الدَّرَارِيِّ بِمَطْلَعِهِ ؛ وَتُسَاقَ إِلَيْهِ الْكَرِيمَةُ حَسَبًا ، الْعَظِيمَةُ
بَأَيْسِهِ - عَظَّمَ اللهُ سُلْطَانَهُ - أَبَا ، الَّذِي كَمَّ لَهُ فِي خِدْمَةِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ مِنْ مَنَاقِبَ
كَالنَّجُومِ ، وَمَذَاهِبَ تَسَبَّهَ بِهَا الْبَرْقُ فَتَشَبَّهَتْ بِأَذْيَالِ الْغَيُْومِ ، وَمَرَاتِبَ تَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى
كُلِّ نَظِيرٍ قَالَ : وَمَا مِنَّا إِلَّا مَنْ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ؛ مَنْ قَدْرُهُ لَا يُسَامَى وَلَا يُسَامُ ، وَرَأْيُهُ
لَا يُرَامَى وَلَا يُرَامُ ، وَسَيْفُهُ فِي غَيْرِ طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ لَا يُسِيمُ وَلَا يُسَامُ ، وَهُوَ «سَيْفُ
الدَّوْلَةِ» لَا كَمَا يُسَمَّى بِهِ مَنْ آسْتَعَارَ هَذَا اللَّقَبَ فِي سَالِفِ الْأَيَّامِ ؛ كَمَّ لَهُ فِي مَرَاضِي
سُلْطَانِهِ مِنْ رَغْبَةٍ بَدَّلَ بِهَا مَا لَدَيْهِ ، وَسَمَحَ فِيهَا بَوْلَدِهِ وَهُوَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهِ ، وَجَادَ
بِرُوحِهِ أَوْ بِمَا هُوَ أَعَزُّ عَلَيْهِ ؛ كَمَّ تَهَبَّتْ بِعَزَائِمِهِ السُّيُوفُ مِنْ سِنَانِيهَا ، كَمَّ وَهَبَّتْ مِنْ
مَكَارِمِهِ الْأَيَّامُ مَا يُعَدُّ مِنْ حَسَنَاتِهَا ؛ كَمَّ أَلْتَهَبَّتْ صَوَارِمُهُ نَارًا بَخَّرَتْ أَنْهَارًا بَخَّرَتْ
مِنْ جَنَابَاتِهَا ؛ كَمَّ لِسَاءِ الْمُلْكِ بُسْمِيهِ مِنْ حَرَسِ ، وَبِقُضْضِيهِ مِنْ قَبَسِ ، وَكَمَّ قَامَ وَقَعَدَ
فِي مَصْلَحَةِ وَكَانَ أَدْنَاهُمْ مِنْ مَلِكِهِ مَقَامًا لَمَّا قَامَ وَأَعْلَاهُمْ مَجْلِسًا لَمَّا جَلَسَ ؛ فَسَمِعَ
المَقَامَ الْعَالِي السَّيْفِيُّ وَأَطَاعَ ، وَأَتَهَى إِلَى مَا بَرَزَتْ بِهِ مَرَامِسُ وَالِدِهِ - أَنْفَذَهَا اللهُ -
وَأَمْتَلَّ أَمْرَهُ الْمُطَاعَ ، وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ الشَّرِيفِ وَهُوَ نَاصِرُ السُّنَّةِ فَقَدَّمَ فِيهَا مَا اسْتَطَاعَ ،
وَسَارَعَ إِلَى مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ الْأَلْفَةِ وَالْأَجْتِمَاعِ ، وَأَتَّبَعَ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ فِي تَكْثِيرِ الْأُمَّةِ
بِرِّيَّةِ أُمَّةٍ مُلُوكِيَّةٍ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا لَهُ الْأُمَّةُ اتِّبَاعَ ؛ لِعَلِمِهِ الْيَقِينِ أَنَّهُ لَوْ خَطَبَ لَهُ
وَالِدُهُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ الْمُلُوكِ ، لَمْ يَجِدْ مِنْهُمْ إِلَّا كَلَّ مَلِكٌ عَظِيمٌ وَهُوَ لَهُ
عَبْدٌ مَمْلُوكٌ ؛ فَاحْيَى سُنَّةَ شَرِيفَةِ مُلُوكِيَّةٍ مَا بَرِحَتْ الْخُلَفَاءُ وَالْمُلُوكُ تَحْفَظُ بِهَا قُلُوبَ
أَوْلِيَائِهَا عَلَى أُمْدَادِ الْمَدَى ، وَيَكْفِي مِنْ هَذَا مَيِّمُونَ فَعِلِ « الْمَأْمُونِ » لَمَّا تَزَوَّجَ

« بُورَان » من أبيها « آبن سَهْل » وخطب « المعتضد » إلى « آبن طُولُون » آبتَه
« قَطْر النَّدى » .

ورأى والدها أعزّه الله تعالى قدراً هاله مهابةً فسلم وقال : لَمَّا لِكِ النَّصْرُ
وَلَمَّا لِدِ التَّصْرِيفِ ، وَإِذَا أَقْتَضَى حُسْنَ النَّظَرِ الشَّرِيفِ تَشْرِيفَ عَبْدٍ فَيَا حَبَّذَا
التَّشْرِيفِ ؛ وَيَا حَبَّذَا السَّبَبُ الَّذِي آتَصَلْتُ لَهُ بِالْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْأَسْبَابِ ، وَأَحْتَفَلْتُ
دِيمَ النَّعْمِ وَأَحْتَفَلْتُ لِلْإِجْتِمَاعِ عَلَى سُنَّةِ وَكِتَابِ ، بِفَتْحَاسِدْتُ عَلَى إِثْبَاتِهِ صُفْرُ الْأَصَائِلِ
وَحُمْرُ النَّعْمِ ، وَتَنَافَسْتُ عَلَى رَقِيمِ سَطُورِهِ صَحَائِفُ السَّحَابِ وَصَفِيحُ الْمَاءِ وَصَلِيلُ
السَّيْفِ وَصَرِيرُ الْقَلَمِ ؛ وَتَمَنَّتْ الْكَوَاكِبُ لَوْ آجْتَمَعَتْ مَوَاكِبُ فِي يَوْمِهِ الْمَشْهُودِ ،
وَالْمُنَاقِبُ لَوْ أَنَّهَا حَوْلَهُ بِمَقَانِبِ خَافِقَةِ الْبُنُودِ ؛ وَوَدَّتْ نَسَمَاتُ الْأَشْمَارِ لَوْ كَانَتْ هِيَ
الَّتِي سَعَتْ بِالْإِتْفَاقِ ، وَالْحَمَائِمُ لَوْ أُبِيحَ لَهَا أَنْ تُغَرَّدَ وَتَحْلَعُ مَا فِي أَعْنَاقِهَا مِنَ الْأَطْوَاقِ ؛
بَلِ السُّيُوفُ لَمَّا رَأَتْ مَقَامَ الْجَلَالَةِ أَغْضَتْ وَغَضَّتِ الْأَحْدَاقِ ، وَالرَّمَاحُ لَمَّا بَدَا لَهَا
سِرِيرُ الْمَلِكِ مَائِلًا وَقَفَّتْ عَلَى سَاقِ .

فبرزت المراسم الشريفه - زادها الله شرفاً - بتحرير هذا الكتاب الكريم ، وتنصيد
ما يصلح من الدرر لهذا العقيد العظيم ؛ ونقد المرسوم العالى المولوى السلطانى ما أمر
به وصدق ، وتادب إجلالاً لمقام أبيه الشريف فأطرق ، وتواضع لله فلم يقل : هذا
ما تصدق ؛ بل قال : هذا ما أصدق المقام العالى السيفى أنوك آبن مولانا السلطان
الأعظم ، مالك رقاب الأيم ؛ الملك الناصر ، السيد الأجل ، العالم ، العادل ، الغازى ،
المجاهد ، المؤيد ، المرابط ، المناخير ، المظفر ، المنصور ، الشاهنشاه ، ناصر الدنيا
والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيى العدل فى العالمين ، منصف المظلومين
من الظالمين ، مملد البسيطة ، ناصر السنة ، ركن الشريعة ؛ ظل الله فى أرضه ،

القائم بسنته وفرضه ؛ وأرث الملك ، ملك العرب والعجم والترك ، خداوند عالم بادشاه بنى آدم ، بهلوان جهان ، شهریار ایران ، اسکندر الزمان ، مُملک أصحاب المنابر والأيسرة والتخوت والتيجان ؛ فاتح الأقطار ، وأهب الممالك والأقاليم والأمصار ، مُبيد البغاة والطغاة والكفار ؛ صاحب البحرين ، حامى الحرمين ، خادم القبليتين ؛ كفيل العباد والعباد ، مُقيم شعائر الحج والجهاد ؛ إمام المتقين ، قسيم أمير المؤمنين ، أبى المعالى محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور ، السيد ، الأجل ، العالم ، العادل ، المجاهد ، المؤيد ، سيف الدين ، والد الملوك والسلاطين ، أبى الفتح «قلاوون» خلد الله سلطانه ، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه - : الحجاب الكريم ، الرفيع ، المنيع ، المصون ، المكنون ، الجهة المكرمة ، المفخمة ، المعظمة ، بنت الحجاب الكريم ، العالى ، الأميرى ، الأجل ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المهدى ، المشيدى ، الزعيمى ، المقدمى ، الغياثى ، الغوثى ، الذخرى ، الأوحدي ، الظهيرى ، الكافى ، السيفى ، ركن الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين ، نصير الغزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، عون الأمة ، غياث الملّة ، مهّد الدول ، مُشيد الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين ، بكتمر الساقى الناصرى ، ضاعف الله نعمته .

أصدقها ما تلقّت به أنسابها إجلالا ، وبلغت به أحسابها جمالا ، وطلعت فى سماء الملك هلالا ؛ وليست نخارا ، وقبست أنوارا ؛ وأوت إلى حصن حصين ، ووصلت إلى مقام أمين ، وادب(?) بأموال وبنين ؛ مالولا أدب الشرف ، وتجنب السرف ؛ والعمل بالشرع فى تعيين معلوم ، وتبين مقدار مفهوم ؛ نخرج عن كل وصف محدود ، وقدير معدود ؛ ولما قام به موجود ، وكان مما تقل له الممالك ولا يُستكثر لأجله الوجود .

قَدَّمَ لَهَا مِنْ الذَّهَبِ الْعَيْنِ الْمِصْرِيَّ الْمَسْكُوكِ مَا هُوَ بِنَقْدِ مَمْلُوكٍ وَالِدِهِ مَعْرُوفٍ ،
وَمِنْ حُقُوقِهِ مَقْبُوضٌ وَفِي هِبَاتِهِ مَصْرُوفٌ ؛ مَا يُجْمَدُ مَالًا ، وَيُمْتَلَأُ مَالًا ، وَيَأْتِي كُلُّ
دِينَارٍ مِنْهُ وَوَجْهَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ يَتَلَا .

أَصْدَقَهَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ كَذَا وَكَذَا ، نَجَّلَ لَهَا كَذَا وَكَذَا ؛ قَبَضَهُ
وَكَيْلٌ وَالِدُهَا مِنْ وَكَيْلِهِ ، قَبَضَهَا تَامًا كَامِلًا ، وَتَأَثَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا حَالًا ؛
عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ إِمْسَاكِ مَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيجِ بِيَا حَسَانٍ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ
اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

وَوَلَّى تَرْوِيحَهَا مِنْهُ عَلَى الصَّدَاقِ الْمُعَيَّنِ بِإِذْنِ وَالِدِهَا - أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى - الْمَقْدَمِ
ذِكْرُهُ : - الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، قَاضِي الْقَضَاةِ ، حَاكِمُ الْحُكَّامِ ، خَطِيبُ خُطَبَاءِ
الْمُسْلِمِينَ ، جَلَالُ الدِّينِ ، خَالِصَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَبُو الْمَعَالِي ، مُحَمَّدُ بْنُ قَاضِي الْقَضَاةِ
سَعِيدِ الدِّينِ أَبِي الْقَاسِمِ ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ الْعَلَامَةِ إِمَامِ الدِّينِ ،
أَبِي حَفِصِ عُمَرَ بْنِ أَحْمَدَ الْقَزْوِينِيَّ الشَّافِعِيَّ ، الْحَاكِمِ بِالْأَمِيرِ الْمَصْرِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ وَأَعْمَالِهَا
وَبِلَادِهَا ، وَجُنْدِهَا وَضَوَائِحِهَا ، وَسَائِرِ الْمَمَالِكِ الْمُضَافَةِ إِلَيْهَا ، بِالْوَالَايَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، أَدَامَ
اللَّهُ أَيَّامَهُ ، وَأَعَزَّهُ أَقْضِيَّتَهُ وَأَحْكَامَهُ . فَقَبِيلُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - لَوْلَدِهِ
الْمُسَمَّى - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ - ذَلِكَ مِنْهُ قَبُولًا شَرْعِيًّا ، يَخَاطَبُ عَلَيْهِ شِفَاةً بِحُضُورِ
مَنْ تَمَّ الْعَقْدُ بِحُضُورِهِ ، فِي دَارِ الْمُلْكِ بِالْقَصْرِ الْأَبْلَقِ ، بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ ، حَرَسَهَا اللَّهُ
تَعَالَى ، بُكْرَةَ يَوْمِ السَّبْتِ حَادِي عَشْرِينَ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ أَلْفَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ .



وهذه نسخة صدق المقر الشريف إبراهيم بن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد
ابن قلاوون ، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله ، وهي :

الحمد لله مغني الملوك بالمظافره ، ومكثر زينة الأسماء بجمومهم الزاهره ، ومكبر أقدار الأولياء بما تمت النعمة به من شرف المصاهرة .

نحمده على نعمه التي شرفت قدرا ، وصرفت أمرا ، وأطلعت من هالة البدر المنير شمسا لا تتخذ غير الأفق خذرا ، ولا تمتلئ الليالي والأيام إلا أن تقلدها من الأشعة ياقوتا ومن الكواكب دُرًا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تجمع من حمة الدين نسبا وصهرا ، وترفع في أبناء الأبناء لها حسبا وذكرا ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي عصم به ، وخص صفوة الخلق في المصاهرة باختلاط نسبهم بنسبه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تستوثق بها الأسباب ، وتستوسق الأنساب ، وتبقى أنوارها بملك أبناء الملوك كلمة باقية في الأعقاب ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فلما جمع الله بملوك البيت الشريف المنصوري - كثر الله عددهم - شتات الإسلام ، ومحاربيوهم ما امتد من ظلام ، حتى انتهت التوبة إلى من أصبحت به الدولة القاهرة وكل أوقاتها أنوار صباح ، وتوار أقاح ، وسما سمح ، وأسمى نعم لا تعد إلا معاقدة تيجان الملوك على كل جبين وضاح ، المقام الشريف العالي المولوي ، السطاني ، الملكي ، الناصري ، زاد الله شرفه ، وأعلى على شرفات بروج السماء عرفه ، فأحب - لما أجراه الله به وبمن سلف من ملوك بيته الشريف من تأييد هذه الأمة ، وتأيد ما شملها بفتوحاتهم المذهبات الفتح من سوانع النعمه ؛ - أن يعمل بقول نبيه المشرف بمواقفة آئمه ومتابعة حكمه في الترويح ، وأن تقع مواقع أمطاره على كل أرض حرة فتنبت كل زوج بهيج . وكان من بينه - أدام الله سعودهم - من يطيع في كل أمر أمره العالي أدام الله تمكينه ، ولولا هذا لما رضى سوى أقران الفرسان له قرينه ، وكان من نجباتهم إذا

عَدَّتْ الأَوْلَادَ ، وَأَحْبَبَتْهُمْ إِذَا كَانَ كَمَا يُقَالُ : الْوَالِدُ ثَمَرَةُ الْفُؤَادِ ؛ وَمَنْ هُوَ لِحَبْلِهِمْ
جَمَالٌ ، وَلِدَوْلَتِهِمْ دَلَالٌ ، وَلِعَائِهِمْ أَسَدُ الْأَشْبَالِ - مَنْ يَعْتَرِفُ كُلَّ مَنْ عَرَفَهُ بِفَضْلِهِ ،
وَيُؤَقِلُ فِي أَبْنَائِهِ مَا لِأَبْنَاءِ سَمِيئِهِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَرَكَاتِهِ نَسَلِهِ .

بَرَزَ الْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ الْعَالِي ، الْمَوْلِيُّ ، السُّلْطَانِي ، الْمَلِكِي ، النَّاصِرِيُّ ، أَنْفَذَهُ
اللَّهُ فِي الْأَقْطَارِ - بَانَ يُخَيَّرُ لِمَغْرِبِهِ الْكَرِيمِ ، وَنَسَبِهِ الصَّحِيمِ ؛ وَصَبَّاحِهِ الْمَشْرِقِ ،
وَسَمَّاحِهِ الْمُنْفِقِ ؛ فَصَادَفَ الْإِحْسَانَ مَوْضِعَهُ ، وَأَتَّخِذَ لَهُ مِنْ مَشْرِقِ الْبَدْرِ التَّمَامِ
مَطَّلَعَهُ ؛ وَمَنْ هُوَ مِنْ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالْيَمِينِ ، وَمَنْ هُوَ الْبَحْرُ الزَّائِرُ
وَمِنْ مَكُونِهِ يُسْتَخْرَجُ أَنْفَرُ الثَّمِينِ ؛ فَبَادَرَ الْخَطِيبُ إِلَيْهِ إِلَى آغْتِنَامِ هَذَا الشَّرَفِ
الَّذِي لَا يُطَاوَلُ ، وَعَاجَلَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ وَصَدَقَاتُ سُلْطَانِهِ - خَلَّدَ اللَّهُ
مُلْكَهُ - مَا كَانَتْ مِمَّا تُحَاوَلُ ؛ وَقَالَ : إِنْ رَضِيَتْ تِلْكَ السُّتُورُ بِهَذِهِ الْمَخْطُوبَةِ ،
أَوْ أَهَلَّتْ تِلْكَ السَّمَاءُ الْعَلِيَاءُ هَذِهِ الْمَحْجُوبَةَ ؛ فَهِيَ لِمَا أَهَلَّتْ لَهُ فِي خِدْمَةِ ذَلِكَ الْمَقَامِ
الْأَمِينِ ، وَهِيَ كَمَا شَاءَ مَالِكُهَا الْمُتَصَدِّقُ مِنْ ذَوَاتِ الْعِفَّةِ وَإِلَّا فَهِيَ مِمَّا مَلَكَتِ
الْيَمِينِ ؛ فَأَتَمَّتِ الصَّدَقَةُ الشَّرِيفَةَ عَوَارِفَهَا بِمَا هُوَ أَشْرَفُ مَقَامًا ، وَأَعْظَمُ لَهَا فِي رِيبَةِ
الْفَخَّارِ فَهِيَ تَسْمُو بِهَذَا وَلَا تُسَامَى ؛ وَشَرَّفَتْهُ بِمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ عِنْدَ الْمَقَرِّ الشَّرِيفِ
مِنَ الْمَقَامِ الْكَرِيمِ ، وَلَمْ تَكُنْ إِلَّا مِنْ ذَوَاتِ الْعُقُودِ وَلَا كَيْدٍ وَلَا كِرَامَةٍ لِمَا يَنْجَلِي بِهِ
اللَّيْلُ الْبَيْمِ ، وَلَا لِمَا يَحْتَلِّي فِي جِيدِ الْجَوْزَاءِ مِنْ عَقْدِ دُرِّهَا النَّظِيمِ ؛ وَلَوْلَا إِجْلَالُ
الْمَقَامِ عَنِ التَّطْوِيلِ لِمَا آخَنَصَرَ الْقَائِلُ فَقَالَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا مَا أَصْدَقُ
.....
.....

الطرف الثاني

(في صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم)

وهي على نحو من الصدقات الملوكية في الترتيب، إلا أنها أخصر، ومن الألقاب بحسب أحوال أصحابها من أرباب السيوف والأقلام .

(١) وهذه نسخة صدق جمال الدين عبد الله [بن سيف الدين أبي سعيد أمير حاجب] على بنت بيدمر العمري، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله، وهي :

الحمد لله مبلغ كل آميل ما يرجوه، ورأى ذمم من لم ينسوا عهده ولم يخلفوه،
ومكّل الخير لكل ذي ^(١) يصد من يخفوه، ومجيب كل منيب يدعوه قائماً
وقاعدا : (ولما قام عبد الله يدعوه) .

نحمده حمداً نكرر فضله وتلوه، ونحل معضله ونجلوه؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يتظافر عليها الأمر المسلم وبنوه، وتبيض بها وجوه الأوداء، وتسود وجوه الأعداء، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي سجد به ذوهه، وصعد قدر صهره وحموه، وشرف نسباً ما ألتقى فيه على سقاج هو ولا أولوه؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يزال بها الروض الأرج يقوه، والسحر يبلغها ولو سكت وختم بالبرق فوه؛ وسلم تسليماً .

وبعد، فإن أزهى زهر طاب مجتنوه، وطال باعاً في الفخار مجتنوه؛ زهر كرامة جرت عنها لامة كمي، وأبرزتها سنة الإسلام من حجاب ذي أنف حمي؛ وطلعت من أفق بدرى طالما سنع مجتلوه، وحمي سيف أمين في كلته بكلاءته مجتلوه .

(١) بياض بالأصول والتصحيح من الصفحة التالية .

وكان الجَنَابُ الْجَمَالِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْمَرْحُومِ سَيْفِ الدِّينِ أَبِي سَعِيدِ أَمِيرِ حَاجِبٍ ،
 أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى عُلاَّهُ ، وَرَحِمَ أَبَاهُ ؛ هُوَ وَلَدَ ذَلِكَ الْوَالِدِ ، وَطَارِفَ ذَلِكَ التَّالِدِ ؛ وَنَشَوَ
 هَذِهِ الدَّوْلَةَ الشَّرِيفَةَ الْكَامِلِيَّةَ الَّتِي أَخَذَ مِنْهَا حَظَّهُ بِالتَّمَامِ وَالْكَامِلِ ، وَأَصْبَحَتْ بِهِ
 كَالْعَادَةِ الْحَسَنَاءِ ذَاتِ الْحُسْنِ وَالْجَمَالِ ؛ وَلَمْ يَمُتْ أَبُوهُ فِي أَيَّامِ سُلْطَانِهَا - خَلَّدَ اللَّهُ
 مُلْكَهُ - حَتَّى قَرَّتْ بِهِ عَيْنُهُ ، وَسَاوَاهُ فِي الْإِمْرَةِ لَوْلَا تَفَاوُتِ الْعِدَّةِ وَقِدْمُ الْمُدَّةِ بَيْنَهُ
 وَبَيْنَهُ ؛ وَجَاءَ مِنْهُ وَلَدٌ نَجِيبٌ ، وَأَبْنٌ شَاعٍ وَذَاعَ سِرُّ أَبِيهِ وَحُمِدَ وَهَذَا عَجِيبٌ !!! .
 وَلَمَّا انْتَقَلَ وَالِدُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ ، وَشَرِبَ بِالكَأْسِ الَّذِي لَا بُدَّ لِكُلِّ
 حَيٍّ مِنْ شُرْبِهِ - تَطَلَّبَ مِثْلَ ذَلِكَ الْأَبِ وَلَمْ يَزَلْ يَجِدُهُ حَتَّى وَجَدَ ، وَظَفِرَ بِوَالِدِهِ إِنْ
 لَمْ يَكُنْ وَلَدَهُ حَقِيقَةً فَإِنَّهُ عِنْدَهُ مِثْلُ الْوَالِدِ ؛ وَهُوَ الْمَقْتَرِبِيدِمِرُ ، وَهُوَ الْوَالِدُ الَّذِي لَمْ يَفْقِدْ
 مَعَهُ مِنْ وَالِدِهِ ذَرَّةً ، وَالْأَبُ الَّذِي هُوَ أَرَأْفُ مِنْ كُلِّ أُمَّ بَرَّةً ؛ وَالنَّيِّرُ الْبَسْدِرِيُّ الَّذِي
 سَعَدَ قِرَانًا ، وَصَعِدَ وَدَاسَ بِقَدَمِهِ أَقْرَانًا ، وَقَسَمَ دَهْرَهُ شَطْرَيْنِ : نَهَارَهُ لِلضُّيُوفِ قَرِي
 وَلَيْلَهُ لِلَّهِ قُرَانًا .

هَذَا إِلَى أَنَّهُ طَالَمَا طَيَّبَ لِرِزْقِهِ أَمْوَالَهُ وَتَمَرَّهَا ، وَزَيَّنَ فِي أَعْمَالِهِ بِمَدْرَسَةِ عَمَّرَهَا ،
 وَقَبَدَ شَوَارِدَ حَسَنَاتِهِ وَتَقَفَّهَا ؛ مَعَ أَنَّهُ شَيَّدَ الْمَالِكَ وَسَدَّدَ أُمُورَهَا ، وَسَدَّدَ تُفُورَهَا ؛
 وَحَمَى بِيضَ سُيُوفِهِ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ ، وَرَمَى بِصَوَابِ سِهَامِهِ النَّوَابِغَ وَلَمْ تُسْتَعْظَمْ ؛
 وَلَمْ تَزَلْ تُؤَبُّ الْأَيَّامَ مُجَرَّبٌ مِنْهُ مِسُورِيًّا ، وَتُجَرَّدُ حُرًّا كَرِيمًا جَاءَ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ صَقْرًا
 بَدْرِيًّا ؛ فَكَانَ مِنْ تَمَامِ رِيهِ بِمَنْ سَلَفَ إِجَابَةُ وَلَدِهِ ، وَإِجَالَةُ الرَّأْيِ فِيمَا يَكُونُ سَبَبًا
 لِصِبَابَةِ عَزْمَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ ؛ فَانْعَمَ لَهُ بِعَقِيلَتِهِ الْمُنْتَعَمَةِ ، وَرَبِيبَتِهِ الَّتِي غَدَّتِ الشَّمْسُ مِنْهَا
 سَافِرَةٌ مُقْتَنَمَةٌ ؛ وَقَالَ : عَلَى الْخَيْرِ وَالْخَيْرَةِ ، وَأَبْنُ أَخِي كَرِيمٌ وَجَدَعَ الْحَلَالَ أَنْفَ الْغَيْرِ ؛
 وَمَا أَسْنَى عَقْدًا يَكُونُ مُتَوَلِّيهُ ، وَمُنْشِئُهُ إِحْسَانًا مِنْهُ وَمُسْنِيهِ ؛ مَوْلَى بِهِ نُظِمَتْ عَقُودُ
 اللَّالِي ، وَرُقِمَتْ بِعَلَمِهِ أَعْلَامُ الْأَيَّامِ وَذَوَائِبُ اللَّيَالِي ؛ وَسُلِّمَتْ الْقَضَايَا بِهِ إِلَى مُنْقَدِّ

أحكامها، ومَنِيْلَ الْفَضْلِ لِحُكْمِهَا، الْبَحْرِ الزَّائِرِ، وَالنَّجْمِ الَّذِي كَمَّ تَرَكَ الْأَوَّلَ مِنْهُ
لِلْأَحْرَبِ، وَالنَّهْمِ إِلَّا أَنَّهُ قَضَتْ صَوَاعِقُهُ عَلَى الْخُصُومِ، وَالْإِمَامِ الَّذِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ
السُّنَّةُ وَلَمْ تُشْكِرْ الشَّيْعَةُ أَنَّهُ الْإِمَامُ الْمَعْصُومُ، وَالْعَالِمِ الَّذِي مَا بَرَحَتْ بُرُوقُهُ نُشَامًا، وَحُقُوقَهُ
عَلَى أَهْلِ مِصْرَ وَالشَّامِ، وَالَّذِي وَلَّى الظُّلْمَ مُنْذُ وَلَّى، وَأَعْتَرَفَ ذُووُ الْفَضْلِ وَالْفَضْلُ
فِي الْقَضَاءِ أَنَّ أَنْقَامَهُ تَقَى الدِّينَ وَأَقْضَاهُمْ :

قَاضِيَ الْقَضَاةِ أَبُو الْحَسَنِ * بَبَقَانِهِ يُجَلِّي الْحَزْنَ،
و [هُوَ] الَّذِي فِي حُكْمِهِ * يَجْرِي عَلَى أَقْوَى [سِنِّ]!^(١)
طَوْدٌ إِذَا وَازَنَتْهُ * بِالطَّوْدِ فِي حُكْمٍ وَزَنَ!
وَالْبَحْرُ طَلَى رِدَائِهِ * قَلَدَ الْعُقُودِ بِلَا تَمَنَ!^(٢)

فَأَضَاءَ الْمُخْفِلَ بِهِ وَبِالْحَاضِرِينَ، وَقَامَ شِعَارَ الدِّينِ حَتَّى قَالَ الْقَائِلُ : هَذِهِ سِيُوفُ
الْمُجَاهِدِينَ وَهَذَا سَيْفُ الْمُنَاطِرِينَ ؛ وَقِيلَ : هَذَا وَقْتُ جُودٍ قَدْ حَضَرَ، وَمَوْضِعُ
سُرُورٍ يَنْبَغِي أَنْ يُعَجَّلَ مِنْهُ مَا يُنْتَظَرُ ؛ فَبَتَدَا السَّعْدُ مِجَاهِ الْوَسِيمِ، وَأَفْتَحَ فَقَالَ :
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَذَا *



وَهَذِهِ نَسْخَةُ صَدَاقِ نَاصِرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ الْخَطِيرِيِّ، مِنْ إِنْشَاءِ الْمَقَرِّ الشَّهَابِيِّ بْنِ
فَضْلِ اللَّهِ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي زَادَ الْأَصُولَ الطَّيِّبَةَ قُرْبًا، وَزَانَ الْأَنْسَابَ الطَّاهِرَةَ بِصِلَةٍ نَتَأَكَّدُ
حُبًّا، وَصَانَ كَرَامَتِ الْبُيُوتِ الْقَدِيمَةِ الْفَخَّارِ بَيْنَ يُنَاضِلُ عَنْ حَسْبِهِ ذَبَا، وَيُنَاطِرُ الْعَالِيَاءَ
فَلَمْ يَبْنِ إِلَّا بَيْنَ مَنَازِلِ النُّجُومِ بِيُوتًا وَلَمْ يُسْبِلْ سِوَى السُّمْرِ سُمْرَ الْقَنَا حُجْبًا .

(١) بياض بالأصول، والتصحيح من المقام .

(٢) بمعنى جمع .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا مِنْ دَعَاؤِ قَبْلِ بَيْتِ النَّسِيمِ فَلْيَبِ ، وَأَسْتَدْعَاهُ لِأَخْذِ الْعَهْدِ عَلَيْهِ أَمَامَ
تَفْرِيقِ الْقِسَمِ فَمَا تَأْتِي ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَسْتَنْطِقُ
الْسِّنَةَ وَتَشْكُرُ قَلْبًا ، وَتَسْتَفِدُّ أَنْوَاءَ السُّرُورِ فَتُنْضِي الْبَشَائِرَ بَرُوقًا وَتُمْطِرُ الرَّحْمَةَ سَحَابًا ،
وَنَشْهَدُ أَنْ عَمِدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي قَامَ فِي تَكْثِيرِ الْأُمَّةِ حَتَّى زَادَ عَدْدَهَا عَلَى مَوَاقِعِ
الْقَطْرِ وَأَرْبَى ، وَقَالَ مِمَّا أَمَرَ بِهِ : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَعَلَى أَقْرَبَانِهِ صَلَاةً تَضُمُّ آلًا وَصَحْبًا ، مَا سَارَتْ الشُّهْبُ
تَقَطُّعَ الْآفَاقِ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَا أَشْتَبَكَ وَشِجْهَهُ ، وَأَشْتَبَهُ فِي مَنَابِتِ الْإِيكِ بَهِيْجُهُ ، وَأَنْتَبَهُ
فِي أَرَائِكِ الْجَمَائِلِ أَرِيْجُهُ ، وَأَنْتَدَبَ لِإِتْيَانِهِ الْأَفُقَ وَظَهَرَ عَلَيْهِ مِنْ ذَهَبِ الْعِشَاءِ تَمْوِيْهُ
وَمِنْ لَمَعِ الصَّبَاحِ تَدْيِيْجُهُ - مَا أَتْبَعَتْ فِيهِ الشَّرِيْعَةُ الْمَطْهَرَةَ حَيْثُ لَا تَخْتَلِفُ الْأُمَّةُ ،
وَالسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ عَلَى مَنْ سَنَّهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ فِيمَا تَأْتَلَفُ بِهِ الْبُعْدَاءُ وَتَكْتُمُ
لِمَبَاهَاتِهِ الْأُمَّمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذِهِ الْأُمَّةُ ، وَتَدْنُو بِهِ الْأَجَانِبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَيَجْعَلُ
بَيْنَهُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، وَتَعَدُّ بِهِ أَيَادِي جَمَّةٍ لَا تُحْصَرُ وَيُحْلَدُ بِهِ فِي الْعَاقِبَةِ شَرَفُ الذِّكْرِ
وَيَتَعَجَّلُ بِهِ شَرَفُ النَّعْمَةِ ، وَهُوَ النَّكَاحُ الَّذِي تَسْتَدُّ بِهِ الْأَوَاصِرُ ، وَتَعْتَدُّ بِهِ الْمَوَارِدُ
لِتَمْتِيلَ أَكْثَرَ الصُّوَرِ مِنْ أَرْزَى الْعَنَاصِرِ ، وَتَمْتَدُّ بِهِ هِمُّ الْأَبْطَالِ لِمَا يَسْتَخْرِجُهُ بِحَفْدَةِ
أَبْنَائِهِ مِنْ أُمَّمٍ قُوَّةٍ وَنَاصِرٍ . وَأَكْلُهُ مَا تَمَانَلَتْ فِي أَشْرَفِ الْبُيُوتِ الْعَرَبِيَّةِ وَجُوهُ
نَخَّارِهِ ، وَتَقَابَلَتْ فِي مَطَالِعِ السُّعُودِ - حَيْثُ الْبَسْدُ الْمُنِيرُ وَالشَّرْفُ الْخَطِيرُ - مَشَارِقُ
شُمُوهِ وَمَطَالِعُ أَقْمَارِهِ .

وَكَانَ الْأَبْوَانُ فِي أَهْلِ النَّخَّارِ مِنْ جُرْثُومَةٍ بَسَقًا ، وَأَرْوَمَةٍ تَفَرَّقَتْ فُرُوعُهَا
فَمِ تَلَاقَى مِنْهَا غُصْنَانُ وَأَعْتَقْنَا ، مِنْ بَيْتٍ مَا حُجِّبُهُ إِلَّا مَوَاضِي الصَّفَاحِ ، وَلَا شُبهُهُ

إلا طلائع الأيسنة في رؤوس الرماح، ولا شجبه إلا ما يفيض على جنباته من النفوس
 أو يفيض من السماح، ولا شجفه إلا المناقب لولا أن الثريا جاذبت ما يعرض
 في السماء أثناء الوشاح، وكان هو الراغب إلى عمه، انخاطب إليه ما لم يكن يُجأ
 إلا لقسمه؛ الطامح بنظره إلى عقيلة الفخار في عرفها، الطامع بخطبة الشمس شميس
 النهار إلا أنها في بيت شرفها؛ المتوقع من كرم عمه الإجابة التي لحظها بأمله، وتولية
 يد كريمة لا يعتدل الزمان إلا إذا حملت شمسها في بيت حمليه؛ توقعا لنسب لا يزال به
 شرف هذا البيت الكريم موجودا، ونسب إذا عدّ ولد منه الآباء عدّ جدّين سعيدين
 هذا مسعودا وهذا محمودا؛ فتلق قصده باكرام بواه أكتاف الشرف، وأوطاه
 فرش الكرامة ممّعا بنعيم الترف، أبتدعا للكرم المألوف، وأتباعا للسنة الشريفة
 إذ كان الأقربون أولى بالمعروف .

فباريا جودا سارع كل منهما في أداء حقه إلى الواجب، وتجاريا إليه ليلتحقا
 شواؤا بويهما وكل منهما يعلم أنه العين والعين لا ترتفع على الحاجب؛ وأتمّ الجنب
 الشرف محمود - أدام الله نعمته بحسن إجابته، ويمن رغبته في أهل عصبته، وأهل
 جنوده إلى أن ساروا إلى الهيجاء تحت عصابته - بأن فوض هذا الأمر إلى أخيه
 الكبير والد الخاطب، وسكت وقال: هو في التصرف وعنى الخاطب؛ وله الأمر
 ولولا الشرف بنسبة الأخوة إليه لما قلنا: إلا أننا ملك يده، وإذا كان العم صنو
 الأب فأى فرق بين ولدي وولده؟، ولئن آختص في نسبة هذه الزوجة في يومه هذا
 فإن أولادها لا تعرف إلا به في غده؛ فكل هذا العقد، وأشرق به السعد الطالع
 أضوا ممّا قدّم وأحر من النقد؛ وكان من تمام التكرم، أن قال قائله:

بسم الله الرحمن الرحيم



وهذه نسخةُ صداقِ القاضي تقيِّ الدين، وهي :

الحمد لله الذي رَفَعَ إلى المَنَازِلِ العَليَّةِ من كان تَقِيًّا ، وجمَعَ شَمَلٍ من لم يبرحَ لِسَنَ السُّنَنِ تَابِعًا وبها حَفِيًّا ؛ وَخَلَعَ أَثوابَ الثَّوابِ عَلَيَّ من سَرَحَ طَرْفَ طَرْفِهِ في رَوْضِ التَّاهُلِ وجعلهُ وَضِيًّا .

نَحْمَدُهُ عَلَيَّ نَعِيمِهِ التي من هَرَجَ جِدْعُ نَحْلِهَا تَساقَطَ عَلَيَّ رُطْبًا جَنِيًّا ، وَنَشْكُرُهُ عَلَيَّ فَضْلِهِ الذي كَمَّ أَجْرِي لِقَاصِدِهِ من بَحْرِهِ المَعروفِ سَرِيًّا ، وَنَشهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحَدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ شهادَةً تَمْنَحُ قائلِها في غُرَفِ الجَنَّةِ مَكانًا عَلِيًّا ، وَنَشهَدُ أَن سَيِّدَنَا عَبدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ الذي آتاه اللهُ الكِتابَ وجعلهُ نَبِيًّا ، الأَمْرَ أُمَّتَهُ بِالنِّكاحِ لِيُكاثِرَ بِهِمُ الأَئِمَّةَ يَوْمَ يُقَرَّبُهُ اللهُ نَجِيًّا ، صَلَّى اللهُ عَلَيَّ وَعَلى آلِهِ وَأَصحابِهِ الذين كان يُحَلُّ مِنْهُمُ في حَالاتِ الكَرَمِ وَالكَراماتِ وَليًّا ، ما أَطْلَعَ التَّوفيقُ في آفاقِ الأَتصالِ مِنَ الأَنسابِ الكَرِيمَةِ كَوَجا دُرِّيًّا ؛ وَسَلَّمٌ تَسْلِيمًا كَثيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوَّلِي السُّنَنِ بِالأَتِّباعِ سُنَّةُ النِّكاحِ ، التي أَخْفَى نُورُ مُصباحِها شَمْسَ الصُّباحِ ، وَخَفَقَتْ عَلَيَّ مَعالمِها أَعلامُ النِّجاةِ وَالنِّجاحِ ، وَحَمِدَ المِيسِرِ إلى رُبُوعِها الأَهْلَةِ بِأَهْلَةِ العِصْمَةِ في الغُدُوِّ وَالرَّواحِ ؛ يالها سُنَّةٌ وَجْهِها بِجَميلِهِ ، وَأَصابعُ نَيْلِ نَيْلِها بِأَياديهِ جَزِيلِهِ ؛ بِها تُعْمَى أَشجارُ النَّسَبِ وَيَطيبُ جَنانُها ؛ وَتَبْلُغُ النَفوسُ مِنَ الصِّيانَةِ أَقصى مُناها ؛ وَيظفرُ أُولُو الرِّغْبَةِ فيما أَحَلَّ اللهُ بِمَطْلُوبِهِمُ ، وَتُؤَلَّفُ بَيْنَ مَنْ لَوِ أَنْفَقَتْ ما في الأَرْضِ جَميعًا ما أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمُ ؛ وَهي الوَسيلَةُ التي تُكثِّرُ سَوادَ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وَالذَّرِيعَةُ إلى [بَقاءِ] النُّوعِ الذي أَظهِرَ اللهُ في سَماءِ التَّكريمِ نَجْمَهُ ؛ وَإِلَيْها الإِشارةُ في قولِهِ تَعالَى : (وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْواجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةَ وَرَحْمَةً) .

ولما كان كذلك رَغِبَ في آفِتْناءِ آتَارِها ، وأَهْتَدَى بالضوءِ اللامعِ من أفتارها ؛ مَنْ
 يتشرفُ المَكَانُ بِذِكْرِ وَصِفِهِ ، وَيَتَعَطَّرُ ما أَنْتَشَرَ في طِيبِهِ من طِيبِ عَرَفِهِ ؛ ما جَدُّ
 عَمَرَ البلادَ السَّاحِلِيَّةَ بِدوامِ دِيَمِهِ ، وَجَوادُ ما جاوره البَحْرُ إِلا لِيَقْتِيسَ من كَرَمِهِ ؛
 وَرئيسُ أَمْطَلَى ذِرْوَةَ العَلِياءِ بِحُسْنِ السُّلوكِ ، وَأَزْيَجِي لَوْ لم يَكُن صَدْرًا لِمَا أُودِعَ سِرُّ
 الملوِكِ ؛ إِنْ تَكَلَّمَ أَبْرَزَكَ الجَوْهرِ المَصُونِ ، وَإِنْ كَتَبَ صَحَّكَتْ لِبُكاءِ قَلْبِهِ نُغُورُ
 النُّغُورِ والحُصُونِ ؛ لِيَهَّ نَسَبَهُ المَشهورُ بين الأَكابرِ الأَعْيانِ ، وَيَهَّ المَعْمُورُ بِالعيُنِ
 المَرْفُوعِ خَبْرُها إلى فِتْيانِ ؛ نَخَطِبُ من عَلا قَدْرُها ، وَأَشْتَهَرُ بِالْحُسْنِ الجَميلِ ذِكْرُها ؛
 وَجَلَّتْ عَن أن تَرى العُيُونُ لها في الصُّونِ شَيْبَها ، وَعَمَّتِ البِقاعُ مَحَبُّ بَرَكةِ أَيْبِها ؛
 أَكْرَمَ بِهِ عَالِمًا عَامِلًا ، وَإِمامًا لَمْ يَزَلْ يُبْدِي فَضْلا وَيُسْدى نائِلا ؛ كَمْ لَهُ من آتارِ
 مَشْهُورِهِ ، وَمَناقِبِ ما نُورِهِ ، وَصَدَقاتِ مَبْرورِهِ ، وَمَواطِنِ بِذِكْرِ اللهِ مَعْمُورِهِ .

فَقُوِيلَ بِالِيشْرِ قَوْلُ رَسولِهِ ، وَرُدَّ رَأيدُهُ مُخبرًا بِبُلُوغِ سُوْلِهِ ؛ وَقِيلَ لَهُ بِلِسانِ الحَلا ، :
 هَذا ما كانَتِ تَنْتَظِرُ الأَمالَ ؛ يا لَهْ عَقْدا عَلاَتِ جَواهِرُ عُقودِهِ ، وَأَنارتِ في آفاقِ
 الأَنْفاقِ أَنجمُ سَعودِهِ ؛ وَنَمائِلَتِ قُدودُ أَغصانِ الأَفْراحِ ، وَزَهَّتْ بِمجالِسِ السُّرورِ
 بِالأنْشِراحِ ؛ وَهَبَّتْ قَبولِ الإِقبالِ ، وَقامَ القَلَمُ حَطيْبًا على مَنبَرِ الطَّرْسِ فقال :

هذا ما أصدق... ..



وهذه نسخةُ صَداقِ من إنشاءِ الشَيْخِ صلاحِ الدينِ الصَّفْدى ، لِلقاضيِ بَدْرِ الدينِ
 حَطيْبِ بَيْتِ الأتارِ ، على بَيْتِ شَمسِ الدينِ الحَطيْبِ من بَيْتِ الأتارِ ، تُسَمَّى
 سُوْلِي ، في مُستَهلِ جُمادى الآخرةِ سَنَةِ ثلاثِ وَخَمسينِ وَسَبعمائةَ ، في مَجْلَسِ مولانا
 قاضيِ الفَضاةِ تَقِيَّ الدينِ السُّبكيِّ الشافعيِّ ، أدام اللهُ أَيْامَهُ ، وَهِيَ :

الحمد لله الذي زين سماء المعالي ببدرها ، وأثبت في رياض السعادة يانع زهرها ،
وألهم ذوي الهمم أن يبذلوا في الكرائم غوالي مهريها .

نحمده على نعمة التي حلت ما صفا من لباسها ، وسوغت ما صفا من رصاب
كاسها ، وخصنا بما عمت به من أنواع اجناسها ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، أعلمنا في الإيمان نصها بالأداء ، وبتى آتمها على الفتح كما فتح
المضائف في النداء ، ورفق خبرها : إما على رأي الرواة للشهرة وإما على رأي النحاة
بالابتداء ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي شرع النكاح لهذه الأمة ،
ومنع السفاح فلم يكن أمرنا علينا عمه ، ونهج الصواب فما ظنك بالصباح إذا ابتلع
عقيب الليلة المدلهمه ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تلقوا أوامره بالطاعة ،
وأجتنبوا نواهيه حتى بلغوا جهد الاستطاعة ، وفهموا مراده بمكاثرة الأمم فكان
البضاع عندهم خير بضاعه ؛ صلاة رضوانها يضيء إضاءة الكواكب في أبراجها ،
وغفرانها يكائر البحار في أعداد موجها ؛ ما اتصل سبب بالنكاح ، وانفصل نسب
بالسفاح ؛ وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن النكاح من محاسن هذا الدين القيم ، وفضائل هذا الشرع الذي
لا زال شرفه بدرًا بين مشرقات النجوم وهو محم ؛ به يحفظ النسب الشرود ، ويرعى
عهد القرينة الولود الودود .

وكان فلان ممن أشبه أباه ، وأبين ما أودعه من نفائس العلوم وحباه ؛ تصدّر
في المجالس ، ودرّس في المدارس ، وأورد ما عنده من النفائس ؛ كيف لا ؟ وهو
سبط شيخ الإسلام وإمام المسلمين ، وقاضي قضاة الشافعية وأوحد المجتهدين ؛
وقد أراد الآن إحصان فرجه ، وأن تنزل الزهرة مع بذرته في برجه .

فلذلك رَغِبَ إلى المجلس العالى (المسمى) وخطب الجهة المصونة المحجبة ،
النقية، النقية، العفيفة ، الخاتون ، غُصن الإسلام ، شرف الخواتين ، جمال ذوات
الستور ، قرة عين الملوك والسلاطين ، السيِّدة "سولى" بنت فلان ، صان الله
حجابها - فأكرم موارد قصيده ، وحباه أنفس ذرية في عقده .

فلذلك قام خطيب هذا الحفل الكريم ، والنجم الذى لم يزل نجمه بالطالع المستقيم ،
وقال :

بسم الله الرحمن الرحيم



قلت : وهذه نسخة صداق زين الدين صدقة السيفى - أزدمر ، على بنت أمير
المؤمنين «المتوكل على الله» . أنشأته له في خلافة أخيها المستعين بالله العباسى ، وهى :
الحمد لله مُستخرج الدوحة الهاشمية من أطيّب العناصر ، ومُفرج النبعة العباسية
من أكرم صنو أنعدت على فضله الخناصر ، ومُحصص بنت الخلافة منها بأعز
جانب ذلت لعزه عظماء الملوك ما بين مُتقدم ومُعاصر .

نحمده على أن صان عقائل الخلفاء بمعاقل الحسب ، وحصر كفاءتها في العلم والدين
حيث لم يكافأ بحرفية ولا نسب ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى
سنّ النكاح وشرعه ، وأرغم بالحل أنف الغيرة لدى الإباء وقمعه ؛ شهادة يستشق
من رياً غيرها كل شدى أريج ، ومُجتنى ثمار ينعمها بشريف التاج من كل زوج
بيج ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفضل نبي وقر في الفضل سهمه حتى لم
يسأهم ، وأكرم رسول رخص في تزويج بناته من صحابه وإلا فإن كفى رسول الله
من العالم ؟ ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين شرفهم بقربه ، وقرن الصهر

بالنسب فيهم نخص مصاهرته أخصهم به ؛ صلاة تصل سبب قائلها بسببه ،
وتجعل الفخار بها كلمة باقية في عقبه ؛ وسلم تسلياً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى ما أطل فيه المطيل ، وشيخ في وصفه الذهن الكليل ، ورقت
محاسن ذكره على صفحة النهار بذائب ذهب الأصيل - ما توأصت به الأنساب ،
وتوصل بواسطته في درارى الدرارى إلى شرف الأحساب ؛ وتوفرت عليه الدواعى
فاشتدت به الأواصر ، وحسنت في طريق قصيده المساعى فتأكدت به المودة
في البواطن والظواهر . وهو النكاح الذى ندب الله تعالى إلى معاطاته ، وحض
على التحلى بحله حتى ألحقه بالعبادة في بعض حالاته ؛ طلباً للتحصين الكافل بسلوك
نهج الاستقامة ، ورغبة في تكثير النسل الواقع [به] مكثرة الأمم يوم القيامة .

هذا وكرائم بيت الخلافه ، وربائب محمد المجيد والإنافة ؛ في حيز لو طلب مناو
مكافاتها لطلب معوزا ، أو رام مقاوم مضاهاتها في علو الرتبة لرام معجزا ؛ لما
أختصت به من السيادة التى لا يرقى إلى منزلتها ، والمعالي التى لا تسمو النفوس
وإن شمتحت إلى رتبها ؛ إذ كان النظر لشرف أرومتها ممتنعاً ، والنقيض بما ثبت من
طيب جرئومتها مرتفعاً ؛ فبرق معاليها فى التطاول لا يسام ، وجوهه نغارها فى المآثر
لا يسامى ولا يسام ؛ فعز ذلك فى الوجود مكافياً ، وأمتنع - خوف الهجوم بالاختطاب -
موايها ؛ إلا أن المواقف الشريفة المقدسة المتوكلية - زاد الله تعالى فى شرفها ،
وأدام رعايتها بحلة الملوك وجمائيتها وكنتفها - مع ما انفردت به من العز الشاىخ الذى
لا يساوى ، والشرف الباذخ الذى لا يناوى ؛ قد رغب تفضلها فى أهل الفضل فال
إلهم ، وأختص بأقباله أهل الدين فأقبل بكليته عليهم ؛ محلاً لهم من شريف مقامه
العلى محل الأصفاء ، ومقدماً لهم فى المصاهرة على أبناء الملوك والخلفاء ؛ فوافق

في الفضل شَنْ طَبَقَهُ ، وَحَاوَلَ سَارَةَ النَّعْمِ مِنْهَا خَيْرُ خَاطِبٍ فَلَقِيَ بِقَبُولٍ : إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِصَدَقَتِهِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَبْتَدَرَ الْقَلَمَ مِنْبَرِ الطَّرْسِ نَخَطَبَ ، وَخَطَبَ بِالْحَمَامِدِ لِسَانَهُ اللَّسِنُ فَكَتَبَ :

هَذَا مَا أَصْدَقَ الْعَبْدَ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الْجَنَابُ الْعَالِي ، الْأَمِيرِيُّ ، الْكَبِيرِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْعَابِدِيُّ ، الْخَاشِعِيُّ ، النَّاسِكِيُّ ، الْبَلِيغِيُّ ، الْمُقَوِّهِيُّ ، الصَّادِرِيُّ ، الرَّبِيعِيُّ ، الْأَصِيلِيُّ ، الْعَرِيقِيُّ ، الزَّيْنِيُّ ، أَبُو الْمَعَالِي صَدَقَةٌ - الْجِهَةُ الشَّرِيفَةُ الْعَالِيَةُ ، الْكُبْرَى ، الْمَعْظَمَةُ ، الْمُحَجَّجَةُ ، الْمَصُونَةُ ، سَلِيلَةُ الْخِلَافَةِ ، فَرْعُ الشَّجَرَةِ الزَّيْكَةِ ، جَلِيلَةُ الْمَصُونَاتِ ، جَمِيلَةُ الْمُحَجَّجَاتِ ، سَارَةُ ، الْبِكْرُ الْبَالِغُ ، ابْنَةُ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ ، الْمَقْدَسِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ، السَّيِّدِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، النَّبِيُّ ، الْمُتَوَكَّلِيُّ عَلَى اللَّهِ "أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ" أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، ابْنُ الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، الْمُعْتَصِدُ بِاللَّهِ "أَبِي الْفَتْحِ أَبِي بَكْرٌ" بِنِ الْإِمَامِ الْمُسْتَكْفِيِّ بِاللَّهِ "أَبِي الرَّبِيعِ سُلَيْمَانَ" ، ابْنُ الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ "أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدٌ" لَا زَالَ شَرَفُهُ بِإِذْنِهَا ، وَعِزُّ نَيْبُهُ الشَّرِيفُ شَاغِحًا ، وَذِكْرُ مَنَاقِبِهِ الْعَالِيَةِ لِكُلِّ مَنْقَبَةٍ نَاسِحًا - صَدَاقًا جُمْلَتُهُ كَذَا وَكَذَا ، زَوْجَهَا مِنْهُ بِذَلِكَ فَلَانٌ ، وَقِيلَهُ فَلَانٌ ؛ وَتَمَّ عَلَى بَرَكَتِهِ اللَّهُ تَعَالَى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، كَامِلَةٌ شُرُوطُهُ وَلَوَازِمُهُ ، مُبَارَكَةٌ عَوْدُهُ وَتَمَامُهُ ، مَيِّمُونَةٌ فَوَاتِحُهُ وَخَوَاتِمُهُ ؛ مُفْتَتِحَةٌ بِطَيْبِ الْعَيْشِ أَزَاهِرُهُ مُفْتَرَّةٌ عَنْ [نُورِهِ] إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى كَمَا أَمَّهُ .

الفصل الخامس

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب مما جرت العادة بمراعاة النثر المسجوع فيه ،
ومحاولة الفصاحة والبلاغة ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فيما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ، ثم هو على صنفين)

الصنف الأول

(الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعروض الكتب ونحوها)

أما الإجازة بالفتيا ، فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس -
أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس ، ويكتب له بذلك . وجرت العادة أن يكون
ما يكتب في الغالب في قطع عريض ، إما في فرخة الشامي أو نحوها من البلدي ،
وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطوا متواليه ، بين كل سطرين نحو أضع عريض .

وهذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه
وأرضاه ، كتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن
أبي الحسن الشهير بأبن الملقن ، سقى الله تعالى عهده ، عند قدومه نجر الإسكندرية ،
وأنا مقيم به في شهر سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، وكتب لي بذلك القاضي تاج
الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بالإسكندرية في درج ورق شامي في قطع الشامي
الكاميل ، وسني يومئذ إحدى وعشرون سنة ، فضلا من الله ونعمة .

وُسُخَّتْهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَعَ لِلْعُلَمَاءِ مِقْدَارًا ، وَأَجْرَلَ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ إِذْ أَعْلَى لَهُمْ مَنَارًا ، وَوَفَّقَ
بِسَوَاءِ الطَّرِيقِ مَنْ أَقْتَدَى بِهِمْ إِرَادًا وَإِصْدَارًا ؛ أَشْرَعَتْ هِمْمُهُمُ الْعَلِيَّةُ فِي حَابَةِ
السَّبَاقِ فَهِيَ لَا تُجَارَى ، وَتَحَلَّوْا بِالْمَفَاحِرِ جَهْرًا وَقَدْ عَجَزَ غَيْرُهُمْ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا إِسْرَارًا ؛
أَبْرَزَهُمْ فِي هَالَاتِ الْمَفَاحِرِ أَقَارًا ، وَأَزَالَ بِضْيَاءَ عُلُومِهِمْ رَيْبَ الشَّكِّ حَتَّىٰ عَادَ لَيْلُ
الْجَهَالَةِ نَهَارًا ؛ جَعَلَهُمْ لِدِينِهِ أَنْصَارًا ، وَصَيَّرَهُمْ نُجَبَةَ أَصْفِيَانِهِ إِذْ أَوْدَعَهُمْ مِنَ الْمَعَارِفِ
إِسْرَارًا ، وَأَخْتَصَّصَهُمْ بِكُونِهِمْ وَرَثَةَ أَنْبِيَائِهِ : وَنَاهَيْكَ بِهَا نَحَارًا .

أَحْمَدُهُ حَمْدًا مِنْ هُدَىٰ إِلَى الْحَقِّ بِجَعْلِهِ شِعَارًا ، وَأَسْتَضَاءُ بِنُورِ الْهُدَىٰ فَلَجًّا إِلَى
مَوْلَاهُ فِي حَالَتِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ أَفْتِقَارًا ، وَعَجَزَ عَنِ شُكْرٍ مَا أَسْدَىٰ إِلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ لَمَّا تَوَالَىٰ
عَلَيْهِ وَبَلَّهَا مِذْرَابًا ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ تَصَدِيقًا وَإِقْرَارًا ،
وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَالْأَصْنَامُ قَدْ عُدَّتْ جِهَارًا ، وَالْكَفَّارُ قَدْ أَعْرَضُوا
عَنِ الْحَقِّ أَسْتِجَابًا ؛ فِقَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَنْتِصَارًا ، وَقَهَرَ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ أَفْتِرَارًا ،
وَأَحْمَدُ بِضْيَاءِ نُورِهِ الْبَاطِلَ وَأَهْدِرُهُ إِهْدَارًا ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَّىٰ
تَزِيدُنَا فِي دِينِنَا أَسْتِجَابًا ، وَتَحُطُّ عَنَّا مِنْ ثِقَلِ الذُّنُوبِ أَوْزَارًا ، وَتُبَوِّؤُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَىٰ فِي دَارِ الْخُلُودِ قَرَارًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ وَضَعَ لِدَوَى الْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ ، وَأَتَضَّحَّ عِنْدَ دَوَى الْأَسْرَارِ وَالسَّرَائِرِ ؛
وَأَسْتَقَرَّ عِنْدَ دَوَى الْقُلُوبِ السَّالِمَةِ ، وَالْعُقُولِ الرَّاجِحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ؛ أَنْ مِثْرَلَةَ عِلْمِ
الشَّرِيعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَعْلَى الْمَنَازِلِ ، وَفَضْلُهُ أَفْضَلُ الْمَائِرِ وَأَثَرُ الْفَضَائِلِ ؛ وَخُصُوصًا
مَعْرِفَةُ تَفَاصِيلِ أَحْكَامِ أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِينَ بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، الَّتِي مَنْ عَالَمَهَا وَعَمِلَ بِهَا
وَعَالَمَهَا فَقَدْ سَعَدَ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ ؛ إِذْ هِيَ الشَّرِيعَةُ الْجَامِعَةُ لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،

النَّاسِحَةُ لِمَا خَالَفَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ الْغَايِرَةِ ، الْبَاقِيَةُ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ وَعَيْدُ اللَّهِ وَكُلُّ شَرِيْعَةٍ سِوَاهَا دَائِرَةٌ ، فَقَدْ أَعْظَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ مَنْ حَفِظَهَا عَلَى عِبَادَةِ الْمَنَّةِ ، إِذْ جَعَلَهُ وَقَايَةً لِمَنْ مِنْ مَهَالِكِ الْجَهْلِ وَجُنَّةً ، وَوَعَدَهُ أَنْ يَنْزِلَ فِي أَعْلَى مَنَازِلِ الْجَنَّةِ ، لِمَا شَهِدْتُ بِهِ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ . فَتَبَّهَ عَلَيَّ أَنَّ الْعِلْمَ أَقْوَى أَسْبَابِ الْعِبَادَةِ ، إِذْ خَصَّهُ بِهِ وَحَصَّهُ عَلَيَّ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الزِّيَادَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ . فَغَنَى بِذِكْرِهِمْ بَعْدَهُ ، لِكَوْنِهِمْ أَفْضَلَ الْخَلَائِقِ عِنْدَهُ . وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَسْمُهُ ، وَتَقَدَّسَ عِلْمُهُ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . فَأَوْضَحَ بِذَلِكَ أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ خَلْقِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِذْ وَصَفَهُمْ وَخَصَّهُمْ بِأَنَّهُمْ الْخَائِفُونَ مِنْهُ الْأَتْقِيَاءُ . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ” مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ “ . وَقَالَ أَيْضًا : ” مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَتَمَسَّكُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ “ . وَقَالَ أَيْضًا : ” أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَاعُونَةٌ مَلْعُونَةٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا وَالَّاهِ ، وَعَالِمٌ وَمُتَعَلِّمٌ “ .

وَمَا كَانَ فُلَانٌ - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى تَسْئِدِيدهَ وَتَوْفِيقَهُ ، وَيَسَّرَ إِلَى الْخَيْرَاتِ طَرِيقَهُ - مِمَّنْ شَبَّ وَنَسَأَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَالْفَضِيلَةِ ، وَتَحَلَّقَ بِالْأَخْلَاقِ الْمَرْضِيَّةِ الْجَمِيلَةِ الْجَلِيلَةِ ، وَصَحِبَ السَّادَةَ مِنَ الْمَشَائِخِ وَالْفُقَهَاءِ ، وَالْقَادَةَ مِنَ الْأَكْبَرِ وَالْفُضَّلَاءِ ، وَاشْتَمَلَ عَلَيْهِم بِالْعِلْمِ الشَّرِيفِ اشْتِغَالًا يُرِضِي ، وَإِلَى نَيْلِ السَّعَادَةِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - يُفِضِي -

أَسْتَخَارَ اللَّهُ تَعَالَى سَيِّدَنَا وَشَيْخُنَا وَبَرَكَتُنَا الْعَبِيدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ ، الْحَبْرُ الْفَهَامَةُ ، فَرِيدُ دَهْرِهِ ، وَنَسِيجُ وَحْدِهِ ، جَمَالُ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحَدُ الْفُضَّلَاءِ ، عَمُدَةُ الْفُقَهَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، سِرَاجُ الدِّينِ ، مُفْتَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، أَبُو حَفِصِ عَمْرُ بْنُ سَيِّدِنَا الْعَبِيدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ ، الْعَامِلُ ، الْأَوْحَدُ ، الْكَامِلُ ، الْقُدْوَةُ ، الْمَرْحُومُ نُورُ الدِّينِ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيٍّ ، أَيْبُنُ سَيِّدِنَا الْعَبِيدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ،

الشيخ الصالح، الزاهد، العابد، الخاشع، الناسك، القدوة، المرحوم شهاب الدين،
بركة الصالحين، أبي العباس أحمد، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ
الصالح، القدوة، العارف، المرحوم، شمس الدين، أبي عبد الله محمد الأنصاري
الشافعي، أدام الله تعالى النفع به وبيركته، وأشركنا والمسلمين في صالح أذعيتيه،
بمحمد وآله وصحبه وعترته .

وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه، أدام الله تعالى معاليه؛ أن يدرس مذهب
الإمام المجتهد المطلق العالم الرباني، أبي عبد الله محمد بن إدريس المظلي، الشافعي،
رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة متقلبه ومثواه؛ وأن يقرأ ما شاء من الكتب
المصنفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبه؛ حيث حل وأقام، كيف ما شاء متى شاء
وأين شاء، وأن يفني من قصد استغناؤه خطأ ولفظا، على مقتضى مذهبه الشريف
المشار إليه: لعلمه بديانته وأمانته، ومعرفته ودرأته، وأهليته لذلك وكفايته .

فليتلق أيدى الله تعالى هذه الحلة الشريفة، وليترق بفضل الله تعالى ذروة هذه
المرتبة المنيفة؛ وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه، وأسدى من الإحسان الوافر إليه؛
وليراقبه مراقبة من يعلم أطلعه على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وليعامله معاملة
من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يئديه في الورود والصدور؛ ولا يستنكف
أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم: فذاك قول سعيد قائله. وقد جاء: "جنة العالم لا أدري
فإن أخطأها أصيبت مقاتله" فالله تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق، ويسلك بنا
وبه أقرب طريق؛ ويهديننا إلى سواء السبيل، فهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكتب في تاريخ كذا .

وكتب شيخنا الشيخ سراج الدين المشار إليه تحت ذلك بعد حمد الله تعالى
ما صورته :

ما نُسِبَ إلى في هذه الإجازة المباركة من الإذن لفلان - أدام الله تعالى النفع به ، وأجرى كل خير بسببه ؛ بتدريس مذهب الإمام المظلي ، محمد بن إدريس الشافعي ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه ؛ والإفتاء به لفظاً وخطاً - صحيح . فإنه ممن فاق أقران عصره بذكائه ، وبرع عليهم بالاستحضار وتحرير المنقول ووقائه .

وقد أعتنى وفقه الله تعالى وإيأى من جملة محفوظاته بـ "مختصر الجوامع" للشيخنا العلامة كمال الدين النشائي نعمة الله تعالى بفقرانه ، فاستحضر بحضرتي مواضع منه جمه ، وأزال ببدیع فصاحتہ جملة مدغمه ؛ وأظهر من مشكلاته ما يعجز عنه اللبيب ، ومن أغاربه ما يقف عنده البارع الأريب .

فلتقى الله حينئذ فيما يُبديه ، ولتحرر الصواب في لفظه وخطه وإبراق الله فيه ؛ فإنه موقع عن الله تعالى فليحذر الزلل ، ومحاولة الخطأ والخطل ؛ ويستحضر ما أشتمت عليه من الجلاله ، فإن الله تعالى تولأها بنفسه حيث قال : (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) .

وأجزت له مع ذلك أن يروي عنى ما لي من التأليف ، ومنها "جامع الجوامع" أعان الله على إكماله ، وكذا شرح "صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري" . ومنها "البدر المنير" ، في تخریج الأحاديث والآثار الواقعية في الشرح الكبير" للإمام أبي القاسم الرافعي . وبه تكمل معرفة الفقيه وبصير محدثنا فقيها .

وأجزت له مع ذلك ما جاز لي وعن رواية بشرطه عند أهله ، زاده الله وإيأى من فضله . ومنها الكتب الستة : "البخاري" و "مسلم" و "أبو داود" و "الترمذي" و "النسائي" و "ابن ماجه" . والمسانيد : "مسند أحمد" و "مسند الشافعي" وغير ذلك .

وكان ذلك في تاريخ كذا . وكتب عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي ،
غفر الله لهم : حامدا ومصليا ومسالما ، وأشهد عليه جماعة من أهل العلم بآخره .

قلت : وتكون ألقاب المجاز على قدر رتبته ، مثل أن يكتب له : «الفقير إلى الله
تعالى ، الشيخ ، الإمام ، العالم ، العامل ، الأوحده ، الفاضل ، المقيد ، البارع ، علم
المقيد ، رحلة القاصدين ، فلان الدين ، أبو فلان فلان بن فلان» (بحسب رتب
آبائه) . وإنما أهملت ذكر الألقاب في هذه الإجازة ، من حيث إنه لا يليق بأحد
أن يذكر ألقاب نفسه في مصنف له ، لأنه يصير كأنه أخى على نفسه .

وأما الإجازة بعراضة الكتب ، فقد جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتابا
في الفقه ، أو أصول الفقه ، أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يعرضه على مشايخ
العصر ، فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبوابا ومواضع ،
يستقرئها إياها من أى مكان أتفق ، فإن مضى فيها من غير توقف ولا تلثم ، استدلل
بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب ، وكتب له بذلك كل من عرض
عليه ، في ورق مربع صغير ، يأتى كل منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء ،
وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها : فمن عال ، ومن هابط . وربما
خفف بعضهم فكتب : «وكذلك عرض على فلان» ، أو : «عرض على وكتبه
فلان» . إما رياسة وتأبيا عن شغل فكره وكد نفسه فيما يكتبه ، وإما عجزا عن
مضاهاة من يكتب معه .

وقد اخترت أن أضع في هذا المحل ما وافق الصنعة ، وجرى على أسلوب البلاغة .
فمن ذلك ما كتب به الشيخ الإمام العلامة ، لسان العرب ، ومجبة الأدب ، بدر
الدين محمد بن أبي بكر الخزومي المسالكي ، للنجل النبيل الذى تنهى الألقاب ولا نهية

لمناقبه، شهاب الدين أبي العباس أحمد بن سيدنا الفقير إلى الله تعالى، ذي الأوصاف التي تكفل شبا الأئسن عن حدّها، شمس الدين أبي عبد الله محمد العمري الشافعي، حين عرض عليه "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني، و"شذور الذهب" للشيخ جمال الدين بن هشام، في رمضان سنة سبع عشرة وثمانمائة، وهو:

أما بعد حمد الله على كرمه الذي هو عمدة في النجاة يوم العرض ونأهيك بها عمده، وسندنا الذي لا يزال لسان الذوق يروي حديث حلاوته عن صفوان بن عسال من طريق شهده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا بروح سنته الشريفة كل من جاء ومن ذهب، وأغربت كلماته النفيسة عن عقود الجوهر و"شذور الذهب" وعلى آله وصحبه الذين أحسنوا الرواية والدراية، وبنوا الأمر على أساس التقوى وأغربوا عن طرق الهداية؛ ما أنهل من أفق الكرم المحمدي كل عارض صيب، وتخلت الأسماع والأفواه من أخباره بنفائس الشذور البديعة وحلاوة الكلم الطيب - فقد عرض على الجناب العالي البارعي، الأوحدي، الألمعي، اللوذعي، الشهابي، شهاب الدين، نخبه النجباء، أوجد الألياء، تجل السادة العظام، سلاة الأعيان العلماء، أبو العباس أحمد بن سيدنا المقرّ الكريم العالي، المولوي، العالمي، الفاضلي، البليغي، المفيدي، الفريدي، الموهبي، الشمسي، العمري، أطاب الله حديثه، وجمع له بالإعراب عن علو الهمة قديم الفضل وحديثه - طائفة متفرقة من "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني المقدسي، و"شذور الذهب" للعلامة جمال الدين بن هشام رحمة الله عليهما - عرضا قصرت دونه القرائح على طول جهدها، وكانت الألفاظ الموردة فيه لامة حرب الفئة الباغية عليه فأحسن عند العرض في سردها؛ وزين أبقاه الله تلك الأما كن بطيب لحنه وإعراب لفظه، وأذن امتحانه فيها بأن جواهر الكائين قد حصلت بمجموعها في خزانه حفظه.

حَبِّدًا هو من حافظ روى حديث فضله عاليًا ، وتلا على الأسماع ما أقتضى
تقديمه على الأقران فيلته دره مُقَدَّمًا وتاليا ؛ وسار في حُكْمِ العَرَضِ على أعدل طَرِيقٍ
وتأهيك بالسيرة العمريه ، وصان منطقه عن خال المعاني وكيف لا ؟ وقد تمسك
بطريقة والده وهي "المقدمة الشمسيه" ؛ وسابق أقرانه فكانت له زبده التفصيل
في حلبة السباق ، وطابق بين رفيع شأنه وخفص شأنه ولا ينكر لمن هو من هذا
البيت حسن الطباق ؛ وأشتغل فلم يقع التنازع في حُسن دُخوله من باب
الاشتغال ، ونصب فكره لتحصيل العلم فتعين تميزه على كل حال ؛ وتوقدت نار ذهنه
فتلظى حاسده بالالتهاب ، ورويت أحاديثه بالغة في العلو إلى سماء الفضل ولا يدع
إذا رويت أحاديث الشهاب ؛ وانتخر من والده بالفاضل الذي ارتفع في ديوان
الإنشاء خبره ، وهز المعاطف بتوقعه الذي لا يزال يحرره ويحرره ؛ ووثنى المهارق
فكأنما هي رياض قد غرد فيها بسجعه ، ونحأها بإنشائه الذي هو عمدة المتأدين
فلا عجب في رفيعه ؛ ونظم بديانه تقائس الدرر فقدتها بالعين "صحاح الجوهرى" ،
وفتح بجيش بلاغته معاقل المدانى الممتعة وحسبك بالفتح العمري :

بيانه السحر قد أخفى معاقده * لكن أرانا لیسر الفضل إنشاء

إذا أراد أدار الراح منطه * نظما ويظربنا بالنثر إن شاء!

والله تعالى يهب نفسه بما يصبح به الحاسد وهو مُكَمِّد ، ويُقر عينه بهذا الولد

النجيب حتى لا يبرح يقول : أشكر الله وأحمد ؛ بحمد وآله .



ومن ذلك ما كتب به الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الدائم ، لولدي نجم الدين

أبي الفتح محمد ، حين عرض عليه "المنهاج" في الفقه للنووي ، في سنة ثلاث عشرة

وثمانمائة ، وهو :

الحمد لله الذي أَوْضَحَ بِنَجْمِ الدِّينِ مِنْهَاجَ الْفِقْهِ وَأَنَارَهُ ، وَأَفْصَحَ لِسَانَهُ بِكَلَامٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَنَارَهُ ، فَسَطَعَتْ أَنْوَارُ شِهَابِهِ لِمَنْ أَسْتَنْبَطَهُ وَأَنَارَهُ ، مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهَهُ فِي الدِّينِ وَيَرْفَعُ مَنَارَهُ ؛ وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمَخْصُوصِ بِعَمُومِ الرِّسَالَةِ ، وَالْمَنْصُوصِ فَضْلُهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الدَّلَالَةِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ نَجُومِ الْهُدَى ، وَشُهَبِ النَّبِيِّ وَالْآقِبَةِ .

وبعد ، فقد عَرَضَ عَلَى الْفَقِيهِ الْفَاضِلِ نَجْمِ الْأَفَاضِلِ ، وَسَلِيلِ الْأَمَائِلِ ؛ ذُو الْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ ، وَالْفِطْنَةِ الدِّكِيَّةِ ، وَالْفِطْرَةِ الزُّرِّيَّةِ ؛ نَجْمِ الدِّينِ ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ فُلَانٍ : نَفَعَ اللَّهُ بِهِ كَمَا نَفَعَ بِوَالِدِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ طَارِفِ الْعِلْمِ وَتَالِدِهِ - مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ "الْمِنْهَاجِ" فِي فِقْهِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ الْمُطَّلِبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ ، تَأَلَّفَ الْخَبْرُ الْعَلَّامَةُ وَلِيُّ اللَّهِ أَبِي زَكَرِيَّا بْنِ شَرَفِ بْنِ مَرِي النَّوَوِيِّ ، سَقَى اللَّهُ تَعَالَى ثَرَاهُ ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ مَأْوَاهُ ؛ دَلَّ حِفْظُهُ لَهَا عَلَى حِفْظِ الْكِتَابِ ، كَمَا فَتَحَ اللَّهُ لَهُ مَنَاجِحَ الْخَيْرِ دَقَّةً وَجِلَّةً ، وَكَانَ الْعَرَضُ فِي يَوْمِ كَذَا .



وكتب علامة العصر الشيخ عز الدين بن جماعة ما صورته :

كذلك عَرَضَ عَلَى الْمَذْكُورِ بَاطِنَهَا عَرَضًا حَسَنًا ، مُحَرَّرًا مُهَدَّبًا مُجَادًّا مُتَقَنًا ؛ عَرَضَ مِنْ أَتَمِّ حِفْظِهِ ، وَزَيْنِ بَحْسِنِ الْأَدَاءِ لَفْظُهُ ، وَأَجْزَلِ لَهُ مِنْ عَيْنِ الْعَنَاءِ حَفْظُهُ ؛ مَرَّ فِيهِ مُرُورُ الْهَمْلَاجِ الْوَسَاعِ ، فِي فَسِيحِ ذِي السَّبَاعِ . وَقَدْ دَلَّنِي ذَلِكَ مِنْهُ - نَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَفَعَ بِهِ ، وَوَصَلَ أَسْبَابَ الْخَيْرِ بِسَبَبِهِ ؛ عَلَى عُلُوِّ هِمَّتِهِ ، وَوُقُورِ أَرْيَحِيَّتِهِ ، وَتَوْقُدِ فِكْرِهِ ، وَأَتَّقَادِ فِطْنَتِهِ ؛ وَأَصْلُهُ فِي ذَلِكَ كَلَّةٌ عَرِيْقُ :

بِحَيْثُ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَمَّدِيَّةٍ * إِنَّ الْخَلَائِقَ فَاعْلَمَ - شَرَّهَا الْبِدْعُ !

وقد أذنت له أن يروي عنى الكتاب المذكور، وجميع ما يجوز لي وعنّي روايته من مصنفاتي وغيرها من منظوم ومنتثور، ومنقول ومعقول ومأثور؛ بشرطه المعبر، عند أهل الأثر. وكتب فلان في تاريخ كذا .



ومن ذلك ما كتبه لمن أسمه «محمد» ولقبه «شمس الدين» من أبناء بعض الإخوان: وقد عرّض عليّ «الأربعين حديثاً» للشيخ محيي الدين النووي رحمه الله، و«الورقات» في الأصول لإمام الحرمين، و«اللمحة البدرية» في النحو للشيخ أمير الدين أبي حيان دفعةً واحدة، وهو لدون عشر سنين، وهو :

الحمد لله الذي أطلع من دراري الأفاضل في أفق النجاة شمساً، وأظهر من أفاضل الدراري ما يغض به المخالف طرفاً ويرفع به المخالف رأساً، وألحق بالأصل الكريم فرعه في النجاة فطاب جنّي وأعرق أصلاً وزكاً غرساً؛ وأبرز من ذوى الفطر السليمة من فاق بكائه الأقران فأدرّك العريّة في لمحّه، وسما بفهمه الناقب على الأمثال فأمسى وفهم «الورقات» لديه كالصفحة، ونحرق بكرم بدايته العادة بفاز الأربعين لدون العشر وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي عمّت بركة أسميه الشريف سميّه ففاز منها بأوفر نصيب، وخصّ بالهام التسمية به أولو الفضل والنهى؛ فاسمى به إلا كريم ولا سمي به إلا نجيب؛ وعلى آله وصحبه الذين أبتعت بهم روضة العلم وأزهرت، وأورقت شجرة المعارف وأثمرت .

وبعد، فقد عرّض عليّ فلان مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا، فتر فيها مرور الصبا، وجرى في ميدانها جرى الجواد فما حاد عن سنن الطريق ولا بكأ^(١).

ينظر أن بقية هذه النسخة سقطت من قلم الناصح كما ترى .

وأما الإجازة بالمروريات على الاستدعآت : -

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله على استدعاء كتب له به القاضي شهاب الدين أحمد الحنبلي خطيب بيت الآلهة ، وكتب الدست بالشأم ، يطلب منه فيه الإجازة لنفسه ، وهو :

الحمد لله الذي إذا دُعِيَ أجاب ، وإذا أُنعم على الأديب بذوق أتى في نظمه وثره بالعجاب ، وإذا وهب البليغ فطرة سايمة لم يكن على حجاج حجاب .

نحمده على نعمه التي منها البلاغة ، وإتقان ما لصناعة الإنشاء من حُسن الصياغة ، وصيد أواميد المعاني التي من أعمل فكره في أقتناصها أو روى [أمن] رواغته ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة فطر الضمير على إخلاصها ، وجبل الفكر على أقتناء أدلتها الفاطمية وأقتناصها ، وجعلت وقاية لقائلها يوم يضيق على الخلائق فسبح عراصها ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفصح من نطق بهذا اللسان ، وجاء من هذه اللغة العربية بالنكت الحسان ، وحث على الخير وحض على الإحسان ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين رَوَوْا أقواله ، وبلغوا لمن لم يره سُننه وأفعاله ، وعلموا أن هذه الشريعة المظهرة أذخرها الله تعالى له فلم تكن تصلح إلا له ، صلاة هامية القرآن ، نامية الرضوان ، ما أجاب مجيب لمن استدعى ، وعملت إن في المبتدأ نصبا ولم تغير على الخبر رفعا ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن [علم] الرواية من محاسن الإسلام ، وخصائص الفضلاء الذين تحقق لهم ذوائب الطروس وتتصب رماح الأقلام ، ولم تزل رغبة السلف لتوفر عليه ، وتسير أنامل إرشادهم للانام بالحث إليه . قيل للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ما تشتهي؟ فقال : سند عال ، وبيت حال . وما برح الأئمة الكبار يرمحون إلى أفاصي

الأقاليم في طلبه، ويتحملون المشاق والمتاعب فيه ويتجملون بسببه؛ فقد ارتحل الإمام الشافعي رضي الله عنه وغيره إلى عبد الرزاق باليمن، وكان فيمن أخذ عنه ممن هو أحق بالترفضيل عليه قمن؛ ولكنه فن يحتاج إلى ذوق يعاضد من لا يعانده، وأمر لا يصبر عنه من ألقه وما يعلم الشوق إلا من يكأيده؛ فما عند من طلب الرواية أجل من أبناء جنسه، ولا عند المفيد المفيد أحلى من قوله: حدثنا فلان أو أنشدنا فلان لنفسه، ولكن:

مَا كُلُّ مَنْ طَلَبَ الْمَعَالِيَ نَافِذًا * فِيهَا وَلَا كُلُّ الرِّجَالِ حُجُولًا!

ولما كان الشيخ الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ... ممن نظم
فَوَدَّتْ الدَّرَرُ فِي أَفْلَاكِهِ لَوْ أَسْقَتْ، وَكَتَبَ فَرَقَمَ الطُّرُوسَ وَوَشَّاهَا، وَغَشَّاهَا مِنْ
زَهْرَاتِ الرِّيَاضِ مَاغَشَّاهَا؛ وَحَلَّ الْمَتْرَجَمَ فَسَجَرَ عَقْلَ كُلِّ لَيْبٍ وَخَبَّ لُبَّهُ، وَوَقَعَ عَلَى
الْقَصْدِ فِيهِ فَكَانَتْ شَيْءٌ مِنَ الْغَيْبِ خَصَّ اللهُ بِهِ قَلْبَهُ، وَأَتَى فِيهِ بِيَدَائِعَ مَا تَسَاوَى
أَبْنُ الصَّبْرِ فِي وَلَا أَبْنِ عِنْدَهَا بِحَبِّهِ؛ وَخَطَبَ فَصَدَعَ الْقُلُوبَ، وَأَجْرَى
ذُنُوبَ الْمَدَامِعِ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ، وَحَدَّرَ فَكَانَتْ أَسْبَابَهُ كَالْحَيَانِ إِسْتَحَقَّ وَسَامِعُهُ
يَبْكِي بِأَجْفَانٍ يَعْقُوبُ؛ كَأَنَّهَا هُوَ فِي حُلَّةِ الْخَطَّابَةِ بَدْرٌ فِي عَمَامَةٍ، أَوْ مِنْبَرُهُ غُصْنٌ
وَهُوَ فَوْقَهُ حَمَامَةٌ، أَوْ بَحْرٌ وَفَضَائِلُهُ مِثْلُ أَمْوَاجِهِ وَدُرُّهُ يَحْكِي كَلَامَهُ؛ لَوْ رَأَى "أَبْنُ نَبَاتَةَ"
مَا أَوْرَقَتْ بِالْفَصَاحَةِ أَعْوَادُهُ، أَوْ "أَبْنُ الْمُنِيرِ" مَا رُقِمَتْ بِالْبَلَاغَةِ أَبْرَادُهُ، أَوْ "أَبْنُ تَيْمِيَّةَ"
مَا حَطَّيْتُ بِالْجُدُودِ أَجْدَادُهُ؛ فَارَادَ أَنْ يُشَرَّفَ قَدْرِي، وَيُعَرَّفَ نُكْرِي؛ فَطَلَبَ
الإِجَازَةَ مِنِّي وَأَنَا أَحَقُّ بِالْأَخْذِ عِنْدَهُ، وَأَسْتَدْعِي ذَلِكَ مِنِّي: وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِ إِلَى مَنْ
هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ.

(١) بياض الأصول ولعله: ولا ابن نباتة.

فَنَعَمَ قَدْ اسْتَحْرَتْ اللهُ تَعَالَى وَأَجْرَتْ لَهْ مَا يَجُوزُ لِي تَسْمِيْعُهُ ، وَذَكَرْتُ هُنَا شَيْئًا
 مِنْ مَرْوِيَّاتِي وَأَشْيَائِي رَحِمَهُمُ اللهُ وَذَكَرْتُ مُصَنَّفَاتِي :
 إِجَازَةٌ قَاصِرَةٌ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ • يَسِيرٌ مِنَ الرَّوَايَةِ فِي مَفَازِهِ :
 لِمَنْ مَلَكَ الْقَضَائِلَ وَأَقْتَنَاهَا • وَجَازَ مَدَى الْعُلَى سَبَقًا وَحَازَهُ !



ومن ذلك ما كتب به الشيخ العلامة شمس الدين محمد بن الصانع على استدعاء
 لبعض من سألته الإجازة .

أقول بعد حمد الله الذي لا يُحَيَّبُ مِنْ اسْتَجْدَائِي كَرَمَهُ ، وَلَا يَحْيَبُ مِنْ اسْتَدْعَائِي
 نَعَمَهُ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَخَدَمِهِ وَمَا أَسْوَدَ مَدْمَهُ : (؟)
 أَثَرَتِ الْجَوَى بِي إِذْ أَرَدْتَ جَوَائِي • وَعَظَّمْتَ خَطِي إِذْ قَصَدْتَ خَطَائِي :
 وَمَنْ أَنَا فِي الدُّنْيَا أُجِيبُ وَمَنْ أَنَا ! • أُجِيزُ ؟ مَضَى الْأَشْيَاخُ تَحْتَ تُرَابِ !
 عَجِيبٌ لَطْلَابٌ لَدَيْنَا تَخَلَّفُوا • وَكَمْ قَدْ أَنَا نَا دَهْرُنَا بَعْجَابِ !
 نَحْنُ إِلَى الْمَوْلَاهِ أَمْرٌ نَائٍ • عَرَبِنَاهُ بِالْعَذِيبِ عَذَابِ (١)

يا أخانا : إِنَّ بِيضَاءَنَا فِي الْعِلْمِ مُرْجَاهُ ، وَصِنَاءَنَا فِي الْوَقْتِ مُرْجَاهُ ، وَتَسْمِيْعُ أَخْبَارِهِ
 عَلِيلٌ ، وَأَدَبُ إِخْبَارِهِ قَلِيلٌ ، وَتَصَانِيْفِي وَجُوهٌ أَكْثَرُهَا مُسَوَّدَةٌ ، وَأَمَالِي فِي تَبْيِيضِهَا
 لِقِصْرِ الْهَمِيمِ مَمْتَدَةٌ ، سُئِلْتُ قَدِيمًا مِنْ بَعْضِ الْفَضْلَاءِ أَنْ أُعِدَّهَا ، فَكَتَبْتُ فِيهَا رِسَالَةً
 لَا أُعْرِفُ لَصَقْلِ الْأَذْهَانِ حَدَّهَا ، وَمَنْ اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَصَانِيْفِ أَنْحَرٍ ، وَمَقَاطِيعِ إِنْ لَمْ
 تَكُنْ كَالزُّهْرِ فَهِيَ كَالزُّهْرِ ، ثُمَّ عَدَّدْتُ نَيْفًا وَثَلَاثِينَ مُصَنَّفًا ، مِنْهَا "تَجْمَعُ الْفَرَايِدُ"
 فِي سِتِّ عَشْرَةَ مَجْلَدًا • ثُمَّ أَنْشُدُ فِي آخِرِ ذَلِكَ :

(١) كذا في الأصل ، ولم تهتد إليه مع دقة البحث .

(٢) في كشف الظنون : تسعة عشر مجلدا .

ولقد شرفت قذرى • بنفيس من هدايا:
 بنظام شنف السمع يدرك الثنايا.
 فارومنى وآزوعنى • وأغن عن شد المطايا،
 وأنتق الفضل وحصل، • وأحظ منى بمزايا،
 ونحر الصدق وأعلم • أنه خير الوصايا!!!

أجزت لك أن تروى هذه وغيرها عنى ، ولك الفضل في قبول ذلك منى .

الصنف الثانى

(التقریضات التى تكتب على المصنفات المصنفة والقصائد المنظومة)

قد جرت العادة أنه إذا صنّف فى فنّ من الفنون أو نظّم شاعراً قصيدةً فأجاد فيها أو نحو ذلك ، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقریض والمدح ، ويأتى كلّ منهم بما فى وسعه من البلاغة فى ذلك .

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدى على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين على بن الدرهم الموصلى الشافعى فى الاستدلال على أن البسمة من أول الفاتحة ، وهى :

وقفت على هذا التصنيف الذى وضعه هذا العلامة ، ونسرت به فى المذهب الشافعى أعلامه ، وأصبح ونسبته إليه أشهر علم وأبهر علامة ، فأقسم ما سأم الروض حدائقه ، ولا شام أبو شامة بوارقه ؛ كل الأئمة تعترف بما فيه من الأدلة ، وكلّ التصانيف تقول أمامه : بسم الله ؛ كم فيه من دليل لا يعارض بما ينقضه ، وكم فيه من حجة يكفل عنها الخصم لأن عقله على محك النقد يعرضه ؛ قد أيد ما ادعاه بالحديث والأثر ، ونقل مذهب كلّ إمام سبق وما عثر ؛ لقد سر الشافعى بنص

قوله الذي هدّبه ، وجعل أعلام مذهبه مُنْهَبَه ؛ وأتى فيه بُنْكَتِ تُطْرِب من
أسرار الحَرْف ، وفوائد عُرِفَ بها ما بين ابن الدَّرْهَمِ وبين البُونِي من البَوْنِ
في تَفَاوُتِ الصَّرْفِ :

أَكْرِمَ بِهِ مُصَنَّفًا • فَاقَ تَصَانِيفَ الْوَرَى !
لَيْلُ الْمِدَادِ فِيهِ بِالْمَعْنَى الْمُنِيرِ أَقْرَأ !
كَمْ فِيهِ بُرْدٌ حُجَّةٌ • قَدْ حَاكَهُ مُحَرَّرًا ،
وَكَمْ دَلِيلٌ مَسِيفُهُ • إِذَا اتَّقَى خَصْمًا فَرَى .
فَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْدِهِ • مُخَالَفٌ قَطُّ يَرَى !!



ومن ذلك ما كتب به المقرّ الشهابي بن فضّل الله على قصيدة ميمية ، للشيخ
عُرس الدين خليل الصَّفْدِيّ المعروف بالصِّلَاحِ الصَّفْدِيّ ، مدح بها الأمير سيِّف
الدين أبلحاي الدَّوَادَارِ النَّاصِرِيّ ، في شهر سنة تسع وعشرين وسبعائة ، وهي :

وقفت على هذه القصيدة التي أشرقت معانيها فكادت تُرى ، وتمعنت قوافيها
فاستمسك بها الأدب لما كانت الميآت فيها كالعُرا ؛ فوجدتها مشتملة من البلاغة
بوزنها على البحر المحيط ، لطيفة لا تُقَامُ بأمثالها من الكلام المركب لأنها من البسيط ؛
فنظرت إليها مكتسباً من بيانها سحر الحدق ، متعجباً من منشئها لغرس يسرع
الإثمار في الورق ؛ ثم فطنت إلى أنّ المدوح بها أعزّه الله تعالى سحت ديمه فروضت
الطروس ، وبرحت مناقبه بما كان مصوناً في أخبية النفوس ؛ وقد أستوجب هذا
المادح عطف الله تعالى قلبه عليه من مناقحه حظاً جزيلاً ، وحُباً يقول به لمن قصد
المساواة به : لو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذتُ فلاناً خليلاً :

مَدَبَّرَ الْمُلْكَ لَهُ • عَلَى الْعُلَى مَقَاعِدُ،
تَهْوِي إِلَى جَنَابِهِ الْقُصَادُ وَالْقَصَائِدُ!



قلتُ : وكتبتُ على قَصِيدَةٍ نظمها شَرَفُ الدِّينِ عَيْسَى بنِ حِجَّاجِ الشَّاعِرِ المعروفِ
بالعَالِيَةِ ، مَدَحَ بها النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَمَّنَهَا أَنْوَاعَ الْبَدِيعِ ، ضَاهَى بها بَدِيعَةَ
الصَّنِيِّ الْحَلِيِّ ، فِي شَهْرِ سَنَةِ آثْنَيْنِ وَتَسْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، مَا صُوِّرَتْهُ :

أما بعد حمد الله الذي أحلَّ سِحْرَ الْبَيَانِ ، وَأَقْدَرَ أَهْلَ الْبَلَاغَةِ مِنْ بَدِيعِ التَّخْيِيلِ عَلَى
مَا يَشْهَدُ بِصِحَّتِهِ الْعِيَانُ ؛ وَذَلَّلَ بِرَأْيِضِ أَفْكَارِهِمْ صِعَابَ الْأَفْظَاطِ فَأَمْتَطَوْا مِنْ مُتُونِ
أَحْسَنِهَا الْحِيَادَ ، وَأَوْضَحَ لَهُمْ طُرُقَ الْفَصَاحَةِ فَغَدَّتْ لَدَيْهِمْ - بِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى - سَهْلَةٌ
الْقِيَادِ ؛ وَأَحْيَى مَيِّتَ الْأَدَبِ بِرُوحِ الْأَنْفَاسِ الْعَيْسَوِيَّةِ وَعَمَّرَ بِأَنْبِيهَا رُبُوعَهُ الْخَالِيَةَ ،
وَحَمَى نَفْسَ الْفَضْلِ فِي رُقْعَةِ الْمُسَاجَلَةِ أَنْ تَصِلَ إِلَيْهَا فِرَازِنَةُ الدَّعَاوَى وَلَا غَرَوَانَ
حَمَاهَا الْعَالِيَةَ ؛ وَالصَّلَاةَ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْصَحَ مِنْ تَطَقُّقِ الْبُضَادِ ،
وَأَوْبَى جَوَامِعَ الْكَلِمِ فَلَنْ تَحْضُرَ مَعَانِي كَلَامِهِ الْأَعْدَادُ - فَإِنِّي وَقَفْتُ عَلَى الْبَدِيعِيَّةِ
الْبَدِيعِيَّةِ الَّتِي نَظَمَهَا الْفَاضِلُ الْأَرْفَعُ ، وَاللَّوْذَعِيُّ الْمِصْقَعُ ؛ أَدِيبُ الزَّمَانِ ، وَشَاعِرُ
الْأَوَانِ ؛ شَرَفُ الدِّينِ أَبُو الرُّوحِ عَيْسَى الْعَالِيَةَ - أَعْلَى اللهُ تَعَالَى مَنْارَ أَدَبِهِ وَرَفَعَهُ عَلَى
مَنَازِلِهِ ، وَبَلَّغَ بِهِ مِنْ قَصَبِ السَّبْقِ مَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَرَاهُ عَلَى الْبُعْدِ مُضَاهِيَهُ - فَالْفَيْتُهَا
الدَّرَّةَ الثَّمِينَةَ غَيْرَ أَنَّهَا لَا تُسَامُ ، وَانْخَرِيدَةَ الْمُخَدَّرَةِ إِلَّا أَنَّهَا لَا يَلِيقُ بِهَا الْأَحْتِشَامُ :

تُرُومُ أَحْتِشَامًا سَتْرًا لِأَلَاءِ وَجْهِهَا ! • وَمَنْ ذَا لِدَاتِ الْحُسْنِ يُخْفِي وَيَسْتُرُّ !

قَدْ أَحْتَدَتْ مِنَ الْأَحْتِشَامِ مَعْقَلًا وَحِصْنًا لَا يُغْتَى ، وَأَنْبَدَتْ مِنْ حُسَادِهَا مَكَانًا
قَصِيًّا فَلَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى :

وَلَمْ أَدْرِ - وَالْأَنْفَاطُ مِنْهَا شَرِيفَةٌ - * إِلَى الْبَدْرِ تَسْمُو أُمُّ إِلَى الشَّمْسِ تَرْتَقِي؟!
أراد المَدْعَى بلوغَ شَأْوِهَا الجُرَى فِي مِضَارِهَا فِقِيلٌ : كَلًّا ، وَرَأَمَ الْمُلْحِدُ فِي آيَاتِهَا
الْفَضُّ مِنْهَا عِنَادًا فَا بِي اللهُ إِلَّا :

مَا إِنْ لَهَا فِي الْفَضْلِ مِثْلُ كَاتِنٍ! * وَبَيَانُهَا أَحْلَى الْبَيَانِ وَأَمْثَلُ!
فَأَسَوْا فِي مُعَارَضَتِهَا غَيْرَ طَامِعِينَ ، وَتَلَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ بِلَاغَتِهَا : (فَقَالَتْ أَعْنَاقُهُمْ
لَهَا خَاضِعِينَ) :

كَمْ جَدَلْتُ يَوْمَ الْوَعْيِ مِنْ جَنْدِلٍ * صَاحَتْ بِهِ فَمَا أَطَاقَ تَصَبُّرًا!
وَكَيْفَ لَا تَخْضَعُ لَهَا الْأَعْنَاقُ ، وَتَنْدُلُ لَهَا رِقَابُ الشُّعْرَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَهِيَ
الْيَقِيمَةُ الَّتِي أُعْجِمَتِ الْأَفْهَامُ عَنْ مِثْلِهَا ، وَالْقَرِيدَةُ الَّتِي أَعْتَرَفَ كُلُّ طَوِيلِ النَّجَادِ
بِالْقُصُورِ عَنْ وَصْلِهَا :

زَادَتْ عَلَيَّ ، مَنْ ذَا يُطِيقُ وَصَالَهَا؟ * وَمَحَلُّهَا مِنْهُ الثَّرِيًّا أَقْرَبُ!
وَأَتَى بِذَلِكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنَ الْحَاسِنِ بِزِمَامِهَا ، وَأَحَاطَتْ مِنَ الطَّلَاوَةِ بِكَمَامِهَا ،
وَأَحْدَقَتْ رِيَاضَ الْأَدَبِ بِحَدَائِقِهَا ، وَأَقْتَطَفَتْ مِنْ أَفْنَانِ الْفُنُونِ ثِمَارَ مَعَانٍ تَلَذُّ
لِنَاطِرِهَا وَتَحْلُو لَذَائِقِهَا؟ :

وَلَا تُعْرِغْ غَيْرَهَا سَمْعًا وَلَا نَظْرًا * فِي طَالِعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلٍ!
وَتَصَرَّفَتْ فِي جَمِيعِ الْعُلُومِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الْبَدِيعِ مَقْصُورَةً ، وَشَرُفَتْ بِشَرَفِ
مُتَعَلِّقِهَا فَاصْبَحَتْ بِالشَّرَفِ مَشْهُورَةً :

أَهَانَتِ الدَّرَّ حَتَّى مَالَهُ تَمَرٌ ، * وَأَرْخَصَتْ قِيَمَةَ الْأَمْثَالِ وَالْخَطْبَاءِ!
لَا جَرَمَ أَضْحَتْ أُمُّ الْقَصَائِدِ وَكَمْبَةُ الْقُصَادِ ، وَمَحَطَّ الرَّحَالِ وَمَنْهَلِ الْوُرَادِ ، فَارْبَتْ
فِي الشُّهْرَةِ عَلَى "الْمَثَلِ السَّائِرِ" ، وَأَعْتَرَفَ بِفَضْلِهَا جَرَّالَةَ الْبَادِي وَسُهُولَةَ الْحَاضِرِ :

فَلَا فَاضِلْ فِي عَلَيَّهَا سَمْرٌ * إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْعَلِيَاءِ أَسْمَارُ!
فَأَعْجِبْ بِهَا مِنْ بَادِرَةِ جَمَعَتْ بَيْنَ مُتَضَادِّينِ سَمْرٍ وَسَمْرٍ، وَقَوَّنتَ بَيْنَ مُتَبَاعِدَيْنِ زُهْرٍ
وَزَهْرٍ، وَجَادَتْ بِمُسْتَرْهِنِ رَوْضٍ وَنَهْرٍ، وَتَفَنَّنَتْ فِي أَسَالِيبِ الْكَلَامِ وَجَالَتْ،
وَطَاوَعَتْهَا يَدُ الْمَقَالِ فَقَالَتْ وَطَالَتْ؛ وَدَعَتْ فُرْسَانَ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى الْمُبَارَاةِ فَكَسُّوا،
وَتَحَقَّقَ الْمُفَلِّقُونَ الْعَجْزَ عَنْ مُوَاخَاتِهَا وَلَوْ حَرَّصُوا :

فَأَعْرَبَ عَنْ كُلِّ الْمَعَانِي فَصِيحُهَا * بِمَا عَجَزَتْ عَنْهُ زَرَارٌ وَيَعْرُبُ!
إِنْ ذِكْرَتْ أَلْفَاظُهَا فَمَا الدَّرُّ الْمَنْشُورُ؟ أَوْ جَلِيَتْ مَعَانِيهَا أَنْجَلِيَتْ الرُّوضُ الْمَطْطُورُ،
أَوْ أَعْتَبِرْ تَحْرِيرُوزِنِهَا فَاقِ الذَّهَبَ تَحْرِيرًا، أَوْ قُوِّبَلَتْ قَوَائِمِهَا بِغَيْرِهَا زَكَّتْ تَوْفِيرًا وَسَمَّتْ
تَوْفِيرًا؛ أَوْ تَفَزَّلَتْ أَسَكَّتِ الْوُرُقُ فِي الْأَغْصَانِ، أَوْ أَمْتَدَحَتْ قَفَّتْ إِثْرَ «كَعْبٍ»
وَسَلَكْتَ سَبِيلَ «حَسَّانٍ»؛ فِإِطْنَابُهَا - لِفَصَاحَتِهَا - لَا يَعْدُ إِطْنَابًا، وَإِيجَازُهَا
- لِبِلَاغَتِهَا - يُمَدُّ عَلَى الْمَعَانِي مِنْ حُسْنِ السَّبْكِ أَطْنَابًا :

أَبْنِي لِي مَغْزَاهَا أَحَا الْفَهْمِ إِنَّهَا * إِلَى الْفَضْلِ تُعْزَى أَوْ إِلَى الْمَجْدِ تُنْسَبُ؟
هَذَا وَبَرَاةٌ مَطْلَعِهَا تَحْتُ عَلَى سَمَاعِ بَاقِيهَا شَغْفًا، وَبَدِيعُ مَخْلَصِهَا يَسْتَرِقُ الْأَسْمَاعَ
لَطَافَةً وَيَسْتَرِقُ الْقُلُوبَ كَلْفًا، وَحُسْنُ آخِتَامِهَا تَكَادُ النُّفُوسُ حِلَاوَةَ مَقْطَعِهِ تَدُوبُ
عَلَيْهَا أَسْفَا :

لَهَا مِنْ بَرَاهِينِ الْبَيَانِ شَوَاهِدُ : * إِذِ الْفَضْلُ وُردُ وَالْمَعَالَى مَوَارِدُ!
وَبِالْجَمَلَةِ فَمَا ثَرَهَا الْجَمِيلَةَ لِأَتْحُصِي، وَجَمَائِلُهَا الْمَانُورَةَ لِأَنْتَعَدُ وَلَا تُسْتَقْصَى؛ فَكَأَنَّما
« قُسْ بِنِ سَاعِدَةَ » يَأْتِمُّ بِفَصَاحَتِهَا، وَ« أَبْنُ الْمُقَفِّعِ » يَهْتَدِي بِهَدْيِهَا وَيُرْوِي عَنْ
بِلَاغَتِهَا؛ « وَأَمْرُؤُ الْقَيْسِ » يَقْتَبِسُ مِنْ صَنِيعَةِ شِعْرِهَا، وَ« الْأَعْشَى » يَسْتَنْضِيءُ
بِطَلْعَةِ بَدْرِهَا؛ فَلَوْ رَأَاهَا « جَرِيرٌ » لَرَأَى أَنَّ نَظْمَهُ جَرِيرَةٌ أَقْتَرَفَهَا، أَوْ سَمِعَهَا « الْفَرَزْدَقُ »

لعرف فضلها وتحقق شرفها ؛ أو بصبرها « حبيب بن أوس » لأحب أن يكون من روايتها، أو أطلع عليها « المتنبى » لتحرير بين جميل ذاتها وحسن أدواتها :
 فللبصائر هادي من فضائلها * يهدي أولي الفضل إن ضلوا وإن حاروا!
 ولا تطيل فبلغ القول فيها أن آيتها المحكمة ناسخة لما قبلها، وبرهانها القاطع قاض
 بأن لا تسمح قريحة أن تنسج على منوالها ولا تطمع شاعر أن يسلك سبيلها :
 وآيتها الكبرى التي دلّ فضلها * على أن من لم يشهد الفضل جاحدا!

الطرف الثاني

(فيما يكتب عن القضاة، وهو على أربعة أصناف)

الصنف الأول

(التقاليد الحكيمية ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(أن تفتح بخطبة مفتحة بـ « الحمد لله »)

ثم يقال : « أما بعد » ثم يقال : « ولما علمنا من حال فلان الفلاني كذا وكذا ،
 استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا ، فلبيا شر ذلك » ويوص بما يناسب .
 ثم يقال : « هذا عهدنا إليك ، ومجتنا عند الله عليك ، فأعلم هذا وأعمل به ، وكتب
 ذلك عن الإذن الفلاني » .

وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله الولي الحميد ، الفعال لما يريد ، نحمده على ما أولانا من إحسانه فهو
 المولى ونحن العبيد ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توصلنا إلى

جَنَّةٍ نَعِيمًا مُقِيمٍ ، وَتَقِينَا مِنْ نَارٍ عَذَابُهَا شَدِيدٌ أَلِيمٌ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْمَشْتَمَلِينَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْقَلْبِ السَّلِيمِ ؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعد ، فإن مرتبة الحكم لا تعطى إلا لأهلها ، والأفضية لا ينتصب لها إلا من
هو كفو لها ؛ ومن هو متصف بصفات الأمانة والصيانة ، والعفة والديانة ؛ فمن
هذه صفته استحق أن يوجه ويستخدم ، ويرقى ويتقدم .

ولما علمنا من حال فلان الفلاني الأوصاف الحميدة ، والأفعال السديده ؛ فإنه
قد حوى المعرفة والعلوم ، والأصطلاح والرُسوم ، وجمعت فيه خصال حملتنا على
استنابته ، وقوتنا على نيابته ؛ - استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا .

فليباشر ذلك متمسكا بحبل الله المتين ، (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ) وليجتهد في إقامة الدين وقصبل الخصومات ، وفي النظر في ذوى العدالات
والتلبس بالشهادات وإقامة البيئات ؛ فمن كان من أهل العدالة تزها ، وإلى الحق
متوجها ؛ فليأمره ويقدمه على أقرانه ، ومن كان منهم خلاف ذلك فليقصه ويطلبنا
بجأله . ولينظر في أمر الجوامع والمساجد ويفعل في ذلك الأفعال المرضية ، وفي أموال
الأيام يصرّف منها اللوازم الشرعية ؛ فمن بلغ منهم رشيدا أسلم إليه ما عساه يفضل
له منها ، ويقرر القروض ، ويزوج الخاليات من الأزواج والعسدد والأولياء ، من
الأزواج الأكفاء ؛ ويندب لذلك من يعلم ديانته ، ويحقق أمانته ؛ ويختار لكاتبه
الصكوك من لا يرتاب بصحته ، ولا يسك في ديانته وخبرته ؛ وينظر في أمر المتصرفين ،
ومن عنده من المستخدمين ؛ فمن كان منهم على الطريقة الحميدة فليجره على عادته ،
وليبقه على خدمته ؛ ومن كان منهم بخلاف ذلك فليستبدل به وليقصه .

هذا عهدى إليك ، ومُحِبِّي غَدًا عند الله عَلَيْكَ ؛ فاعلم هذا وأعمل به .
 وَكُتِبَ ذَلِكَ عَنِ الْإِذْنِ الْكَرِيمِ الْفَلَائِي وَهُوَ فِي مَحَلِّ وِلَايَتِهِ وَحُكْمِهِ وَقَضَائِهِ ،
 وَهُوَ نَاقِذُ الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ مَاضِيهِمَا ، فِي التَّارِيخِ الْفَلَائِي . (ثُمَّ يَكْتُبُ الْحَاكِمُ عَلَامَتَهُ
 وَالتَّارِيخَ) وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .



وهذه نسخة تقليد :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَكِيمِ الْعَدْلِ الْهَادِي عِبَادَهُ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، الْحَاكِمِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ
 ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ؛ الْمُتَّيِّبِ مِنْ قَدَمِ لَهُ
 الطَّاعَةَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ ، الرَّقِيبِ عَلَيَّ مَا يَصْدُرُ مِنْ أفعالهم
 فَلَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ
 مِنْ دُونِهِ مِنْ وَاٍل .

أحمدُه على نِعَمِهِ التي تُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ ، وَأُسْتَعِيدُهُ مِنْ قِعَمِهِ التي يُرْسِلُهَا
 فيصيبُ بها من يَسَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
 لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةٌ تُفِيدُ الْمُخْلِصَ بِهَا فِي الْإِقْرَارِ النِّجَاةَ يَوْمَ الْمَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
 وَرَسُولُهُ الَّذِي نَعْتَهُ بِأَكْرَمِ الشِّمِّ وَأَثْمَرِ الْخِصَالِ ، وَعَرَفَهُ بِمَا يَجِبُ مِنْ عُبُودِيَّتِهِ فَقَالَ :
 ﴿ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ .
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .
 أما بعدُ ، فَإِنْ مِنْ حَسُنَتْ سِرِّيَّتُهُ ، وَحُدَّتْ سِيرَتُهُ ؛ وَعُرِفَ بِوَرَعٍ وَشُهْرَةٍ بِعَفَافٍ ،
 وَدِيَانَةٍ وَخَيْرٍ وَإِنصَافٍ ؛ وَأَضْحَى نَزَهَ النَّفْسِ عَنِ الْأُمُورِ الدُّنْيَا ، فَقِيهَا دَرَبًا بِالْأَحْكَامِ
 الشَّرْعِيَّةِ ، عَارِفًا بِالْأَوْضَاعِ الْمُرْضِيَّةِ - أَسْتَحَقُّ أَنْ يُوجَّهَ وَيُسْتَعْمَدَ ، وَيُرْقَى وَيَتَقَدَّمَ .

ولمّا علمنا من حال فلان الفلاني من الأوصاف الحميدة، والأفعال السديده -
استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا .

فليكن متمسكا معتصما بحبل الله القوي المتين، (إنه من يتق ويصبر فإن الله
لا يضيع أجر المحسنين) وليباشر ما قلدها أمانه الله سبحانه وتعالى، ويراع حقوق
الله تعالى في السر والعلانية : فإنه معين من استعان به وتوكل عليه، وهادي من
استرشده وفوض أموره إليه .

ويجتهد في فصل الأحكام بين المتنازعين، والمساواة في العدل بين المتحاكين؛
قال الله تعالى : (وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) .

وأن يثبت في الخصومات، ويفرق بين الحقائق والشبهات ؛ وينصف كل ظالم
من ظالمه بالشريعة الحمديه ، ليكون ذلك سبباً للسعادة الأبدية ؛ وينظر في أمر
الشهود : فمن كان منهم نزيهاً ، وإلى الحق متوجهاً ؛ فليأمره ، ومن كان منهم غير
ذلك طالعنا بحاله . وينظر في أمر الجوامع والمساجد معتمداً في ذلك قول الله العزيز
القاهر : (إِمَّا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) .

وينظر في أمر الأيتام ، ويحتاط على ما لهم من الأموال ، ويفعل في ذلك على
جاري عادة أمثاله من الحكام ؛ من نفاية وكسوة ولو أزم شريعته ، فمن بلغ منهم
رشيداً أسلم إليه ما فضل من ماله بالبينة المرضية ؛ ويقرر الفروض على مقتضى قول
الله تعالى : (عَلَى الْمَوْسِيعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ) . ويزوج النسوة الخالية من العبد
والأولياء ، ممن رغب فيهن من الأكفاء ؛ ويندب لذلك من يعلم أمانته وخبرته ،
وينظر في أمر المنصرفين : فمن كان منهم على الطريقة الماثورة أجره على عادته ،

وأبقاه على حُجْمِهِ وَخِدْمَتِهِ ؛ ومن كان منهم خلاف ذلك يُبْعِدُهُ وَيُقْصِيهِ ، وَيَسْتَبْدِلُ
به غيره لِيَبْقَى مَكَانَهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ .

هذا عَهْدِي إِلَيْكَ ، وَحُجَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَلَيْكَ ، فَلتَعَلَّمْ ذَلِكَ وَتَعْمَلْ بِهِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . (وَيُؤَرِّخُ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ بِنَحْطِ الْحَاكِمِ) وَيَكْتُبُ : «وَحَسْبُنَا اللَّهُ
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» وَيَتَوَجَّهُ بِعَلَامَتِهِ الْكَرِيمَةِ .



وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله ذِي الْفَضْلِ وَالسَّخَاءِ ، وَاللَّطِيفِ فِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ؛ الَّذِي مِنْ تَوَاضَعٍ إِلَيْهِ
رَفَعَهُ ، وَمِنْ اطِّاعِهِ نَفَعَهُ ، وَمِنْ اخْتِصَاصٍ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ أَمَالَ عَنْهُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَدَفَعَهُ ؛
الَّذِي أَحَاطَ عَلَيْهِ بِالْمَوَارِدِ وَالْمَصَادِرِ ، وَأَسْتَوَتْ عِنْدَهُ أَحْوَالُ الْأَوَائِلِ وَالْأَوَاخِرِ ،
وَأَطَّلَعَ عَلَى ضَمَائِرِ النُّفُوسِ وَلَا يَنْبَغِي لغيره أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى الضَّمَائِرِ ؛ الْخَافِضِ الرَّافِعِ ،
وَالْمُعْطِي الْمَانِعِ ؛ فَإِلَيْهِ الْأَمْرُ وَالتَّنْذِيرُ ، الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ : (وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ
بِضَرْفٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

أحمدُه حمداً يَقْضِي لِلسَّعَادَةِ بِالتَّيْسِيرِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا يُسَهِّلُ مِنَ الْمَأْرَبِ الْعَسِيرِ ،
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سُبْحَانَهُ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ، وَأَشْهَدُ
أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ، وَجَعَلَهُ لِلْأُمَّةِ خَيْرَ بَشِيرٍ
وَنَذِيرٍ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبَاتِهِ شَهَادَةً يَحُلُّ الْمُخْلِصُونَ بِهَا جَنَّةً (يُحَلُّونَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) .

أما بعد ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ عَارِفاً بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، مُتَهَيِّئاً لِتَبَلُّغِ دَرَجَاتِهَا الرَّبِيعَةِ ؛ مُسْتَنَدًا
إِلَى بَيْتِ مَشْكُورٍ ، وَقَدِيرٍ مَوْفُورٍ ؛ قُلَّدَ الْأَحْكَامَ الدِّينِيَّةَ ، لِيَعْمَلَ فِيهَا بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ .

ولمّا علمنا فلان بن فلان بن فلان الفلاني ، قلّدناه كذا وكذا .

فبأشْرُ أعانَكَ اللهُ : مُحافِظًا على تقوى اللهِ الذي إليه المرجع والمصير ، قال اللهُ تعالى في كتابه العزيز : (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) . وَأَسْتَشِعِرُ خِيفَةَ اللهِ وَأَجْعَلُهَا نُصَبَ عَيْنِكَ ، وَمَمْسَكَ بِالْحَقِّ وَأَجْعَلُهُ حِجَابًا بَيْنَ النَّارِ وَبَيْنَكَ ؛ وَأَنْتَ نَصَبٌ لِنَفِيذِ الْأَحْكَامِ أَنْتِصَابٌ مِنْ يُرَاقِبُ اللهُ وَيُخْشَاهُ ، وَحَاسِبٌ نَفْسَكَ مُحَاسِبَةً مِنْ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ وَيَرَاهُ ؛ وَأَبْدُلُ فِي إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ وَسَعَكَ ، وَرَحَبٌ لِلتَّحَاكِيمِ ذَرْعَكَ ؛ وَأَنْظُرُ فِي أَمْرِ التُّهُودِ وَحَدْرِهِمْ أَنْ يَزُوعُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَحَاسِبُهُمْ فِيمَا جَلَّ وَدَقَّ ؛ وَلَا تُرَخِّصْ لَهُمْ ، وَأَلْزِمُهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا الصَّدَقَ مَنْطِقَهُمْ ؛ وَأَنْهَهُمْ عَنِ التَّسْمُحِ فِيهَا ، وَعَرِّفُهُمُ التَّحَرُّزَ عَمَّا يُؤَدِي مِنَ التَّهْمَةِ وَالتَّطَرُّقَ إِلَيْهَا ؛ وَأَنْظُرُ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِبَابِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ نَظْرًا يُؤَدِي إِلَى صَلَاحِهِمْ ، وَلَا تُعَوَّلُ فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ إِلَّا عَلَى مَنْ تَخْتَارُهُ وَتَرْتَضِيهِ ، وَلَا تُعَرِّجْ إِلَى مَنْ هُوَ مُسْتَنَدٌ إِلَى غَايَةٍ وَلَا تَمَلْ إِلَيْهِ ؛ وَأَنْظُرُ فِي أَمْرِ الْأَحْبَاسِ نَظْرًا يَحْفَظُ أَصُولَهَا ، وَلَا تُرَاجِعْ فِي آسْتِخْلَاصِ مَا يَتَعَيَّنُ لَهَا كَبِيرًا وَلَا صَغِيرًا ، وَلَا تُعَامِلْ فِيهَا إِلَّا ذَوِي الْوَفَاءِ وَالْيَسَارِ ، وَأَرْفُضْ مَعَامَلَةَ مَنْ يَسْتَنِدُ إِلَى الْعُدْمِ وَالْإِعْسَارِ ؛ وَأَفْعَلْ مَا يَفْعَلُهُ مِثْلُكَ مِنَ الْحُكْمِ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْعَدَالَةِ وَالنَّفْسِخِ وَالْإِنْكَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ قَلَّدْنَاكَ هَذِهِ الْأَحْكَامَ ؛ فَإِنْ عَمِلْتَ فِيهَا بِتَقْوَى اللهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ يُعِينُكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ عَمِلْتَ غَيْرَ ذَلِكَ فَأَنْتَ وَاللَّهُ هَالِكٌ ثُمَّ هَالِكٌ ؛ وَأَسْمِعْ نَصِيحَتِي ، وَأَفْعَلْ مَا تُبَرِّدُ بِهِ جِلْدَتَكَ وَجِلْدَتِي ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

قلتُ : ^(١) وَرُبَّمَا كُتِبَ التَّقْلِيدُ بِصَيْغَةِ كِتَابٍ ، مِثْلُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَى الَّذِي يَتَوَلَّى عَلَى قَدْرِ مَرْتَبَتِهِ ، مِنْ : «صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتُوبَةُ» أَوْ : «هَذِهِ الْمَكْتُوبَةُ» ثُمَّ يُقَالُ :

(١) هذه هي المرتبة الثانية وإن لم يأت لها بعنوان في الأصل .

«تَتَضَمَّنُ إِعْلَامَهُ أَنَّ الْمَجْلِسَ الْفِلَافِيَّ» بَلَقِيهِ ، وَيُدْعَى لَهُ : « لِمَا عَلَّمْنَا مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا - أَسْتَخَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى وَفَوَضْنَا إِلَيْهِ الْحُكْمَ وَالْقَضَاءَ بِمَكَانٍ كَذَا ، فَلْيُبَايِعْ ذَلِكَ » عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي التَّقْلِيدِ الَّذِي قَبْلَهُ .

الصف الثاني

(إسجالات العدالة)

قد جرت العادة أن أبناء العلماء والرؤساء تثبت عدالتهم على الحكم ، ويسجل لهم بذلك ، ويحكم الحاكم بعدالة من تثبت عدالته لديه ، ويشهد عليه بذلك ، ويكتب له بذلك في درج عريض ، إما في قطع فرخة الشامي الكاملة ، وإما في نحو ذلك من الورق البلدي ، وتكون كتابته بقلم الرقاع وأسطره متوالية ، بين كل سطرين تقدير عرض أصبع أو نحو ذلك .

قلت : وهذه نسخة سجل أنشأته ، كتبت به لولدي نجم الدين أبي الفتح محمد ، وكتبت له بها عند ثبوت عدالته ، على الشيخ العلامة ولي الدين أحمد ، ابن الشيخ الإمام الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقي ، خليفة الحكم العزيز بمصر والقاهرة المحروستين ، في شهر سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ، وهي :

الحمد لله الذي أطلع نجم العدالة من سماء الفضائل في أفق معاليها ، وأثار بدراري العلماء من حناديس الجهالة مدهم لياليها ، وكل عقود النجابة من نجباء الأبناء بأعلى جواهرها وأنفس لآليها ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ترقى قائلها إلى أرفع الدرا ، ويمتطي متحلها صهوة الثريا : وإنا لنترجو فوق ذلك مظهرا ؛ وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المخصوص بحاسن الشيم ، والموصوف بكرم المآثر ومآثر الكرم ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا من عمرا الدين بالسبب

الأقوى، وسلكوا جادة الهداية فحصلوا من أقصى مغيها على الغاية القصوى؛
وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فلما كانت العدالة هي أسس الشريعة وعمادها، وركنها الأعظم في الاستناد
إلى الصواب وسنادها؛ لا تقبل دونها شهادة ولا رواية، ولا يصح مع عدمها إسناد
أمر ولا ولاية - فقد بنيت الشريعة المطهرة على أركانها، واعتمدت الرواة في صحة
الأخبار على أصولها وتعلقت الأحكام في قبول الشهادة بأخصانها؛ إذ هي الملكة
الحاملة على ملازمة التقوى، والحفيظة المانعة من الوقوع في هوة البدع المتمسك
بسببها الأقوى؛ والحكمة الثانية عن الجماع إلى ارتكاب الكبائر، والعنان الصارف
عن الجنوح إلى الإصرار على الصغائر؛ والزمام القائد إلى صلاح أعمال الظواهر
وسلامة عقائد الضمائر .

ولما كان مجلس القاضي الأجل، الفقيه، الفاضل، المشتغل، المحصل،
الأصيل، نجم الدين، سليل العلماء، أبو الفتح محمد بن فلان القلقشندي القزاري،
الشافعي، خليفة الحكم العزيز بالقاهرة المحروسة والدة، والحاكم العميل الفلاني
ومامهما: أيده الله تعالى أحكامه، وأقر عينه بولده - هو الذي ولد على فراش الديانة،
وظهرت عليه في الطفولة آثارها، ونشأ في أحياء الصيانة، فرويت عنه بالسند
الصحيح أخبارها؛ وأرتضع تدي العلم حين بزوغ نجمه، وغذيه مع لبان أمه فامتزج
بدمه ونجمه وعظمه؛ وأعلن منادى نشأته بجمل الذكر فأغنى فيه عن الاستخبار،
ولاحت عليه لوائح النجابة ففضى له بالكمال قبل أن يبلغ قمر عمره زمن الإبدار؛
فلم يرد منهل التكليف إلا وقد ترين من محاسن الفضائل بأكل زين، ولم يبلغ مبلغ
العلم حتى صار لوالده - والله الحمد - قرة عين - رفعت قصة مخبرة عن حاله فيها من
مضمون السؤال طلب الإذن الكريم بسماع بيئته المذكور، وكتابة إيجال بعدائه،

فَسَمِلَهَا الْخَطُّ الْكَرِيمُ الْعَالِي ، الْمَوْلِيُّ ، الْقَاضِيُ ، الْإِمَامِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ،
 الْعَلَامِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْمُحَدِّثِيُّ ، الْحَافِظِيُّ ، الْحَبْرِيُّ ، الْمُجْتَهِدِيُّ ، الْمُحَقِّقِيُّ ، الْمَدَقِّقِيُّ ،
 الْوَحِيدِيُّ ، الْفَرِيدِيُّ ، الْمُجْتَبِيُّ ، الْمُجْتَبِيُّ ، الْخَطِيبِيُّ ، الْبَلِيغِيُّ ، الْحَاكِمِيُّ ، الْجَلَالِيُّ ،
 الْكَفَانِيُّ ، الْبُلْفِينِيُّ ، الشَّافِعِيُّ ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ ، النَّاطِرِيُّ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْأَبْدَانِ
 الْمَصْرِيَّةِ ، وَالْمَالِكِ الشَّرِيفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى أَيْامَهُ ، وَأَعَزَّ أَحْكَامَهُ ،
 وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَأَسْبَغَ نِعَمَهُ فِي الدَّارَيْنِ عَلَيْهِ - لَسَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ،
 الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ ، الْحَافِظِ ، وَلِيِّ الدِّينِ ، شَرِيفِ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحِدِ الْفُضَلَاءِ ،
 مُفْتِي الْمَسْلَمِينَ ، أَبِي زُرْعَةَ أَحْمَدَ بْنَ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى زَيْنِ الدِّينِ ،
 شَيْخِ الْإِسْلَامِ ، قَاضِي الْمَسْلَمِينَ ، أَبِي الْفَضْلِ عَبْدِ الرَّحِيمِ ، ابْنَ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ
 إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بَدْرِ الدِّينِ ، شَرِيفِ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحِدِ الْفُضَلَاءِ ، مُفْتِي الْمَسْلَمِينَ ،
 أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِ الْعِرَاقِيِّ الشَّافِعِيِّ ، خَلِيفَةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ
 الْمَحْرُوسَتَيْنِ ، وَالْحَاكِمِ بِالْأَعْمَالِ الْمُتَوَفِّيَّةِ ، وَمُفْتِي دَارِ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ بِالْأَبْدَانِ الْمَصْرِيَّةِ :
 أَيْدِ اللَّهِ تَعَالَى أَحْكَامَهُ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ بِالنَّظَرِ فِي ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ .

فَإِذَا سَمِعَ سَيِّدِنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الشَّيْخَ الْإِمَامَ ، الْعَالِمَ ، الْحَافِظَ ،
 وَلِيَّ الدِّينِ ، الْحَاكِمَ الْمَشَارُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِ - أَيْدِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِ - الْبَيِّنَةَ بِتَرْكِيئِهِ ، وَصَرَّحَتْ
 لَهُ بِالشَّهَادَةِ بَعْدَاتِهِ ، وَقَبِلَهَا الْقَبُولَ الشَّرْعِيَّ السَّائِعَ فِي مِثْلِهِ .

ثُمَّ أَشْهَدَ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ مَنْ حَضَرَ مَجْلِسَ حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ ، وَهُوَ نَافِذُ الْقَضَاءِ
 وَالْحُكْمِ مَاضِيَهُمَا ، وَذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارِكِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ
 رَجَبِ الْفَرْدِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ - أَنَّهُ ثَبَّتَ عِنْدَهُ وَصَّحَّ لَدَيْهِ : أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ -
 عَلَى الْوَضْعِ الْمَعْتَبَرِ الشَّرْعِيِّ ، وَالْقَانُونِ الْمُحَرَّرِ الْمَرْغِيِّ ، بِالْبَيِّنَةِ الْعَادِلَةِ الْمَرْضِيَّةِ ، الَّتِي

تَثَبَّتْ بِمِثْلِهَا الْحَقُوقُ الشَّرْعِيَّةُ - عَدَالَةُ الْقَاضِي الْأَجَلِّ ، الْعَدْلُ ، الرِّضَى ، نَجْمُ الدِّينِ مُحَمَّدِ الْمَسْمُوعِ أَعْلَاهُ : زَادَهُ اللهُ تَعَالَى تَوْفِيقًا ، وَمَهَّلَ لَهُ إِلَى الْخَيْرِ طَرِيقًا ، وَمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ صِفَاتِهَا ، وَتَحَلَّى بِهِ مِنْ آدَوَاتِهَا ، بُبُوتًا صَحِيحًا مُعْتَبَرًا ، مُسْتَوْفَى الشَّرَائِطِ مُحَرَّرًا . وَأَنَّهُ - أَيْدِ اللهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ ، وَسَدَّدَ تَقْضِيَةَ وَإِبْرَامَهُ - حَكَمَ بَعْدَآلَتِهِ ، وَقَبُولِ شَهَادَتِهِ ، حُكْمًا تَامًا وَجَزَمَهُ ، وَقَضَى فِيهِ قَضَاءً أَبْرَمَهُ ، وَأَذِنَ لَهُ - أَيْدِ اللهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ - فِي تَحْمِيلِ الشَّهَادَةِ وَأَدَائِهَا ، وَبَسْطِ قَلَمِهِ فِي سَائِرِ أُنْدِيَّتَيْهَا وَأَرْجَائِهَا ، وَأَجْرَاهُ - أَجْرَى اللهُ تَعَالَى الْخَيْرَاتِ عَلَى يَدَيْهِ - مُجْرَى أَمْثَالِهِ مِنَ الْعُدُولِ ، وَنَظَمَهُ فِي سِلْكِ الشُّهَدَاءِ أَهْلِ الْقُبُولِ ، وَنَصَبَهُ بَيْنَ النَّاسِ شَاهِدًا عَدْلًا ، إِذْ كَانَ صَالِحًا لَذَلِكَ وَأَهْلًا .

فَلْيَبْسُطْ بِالشَّهَادَةِ قَلَمَهُ ، وَلْيُؤَلِّفْ عَلَى شُرُوطِ آدَائِهَا كَلِمَتَهُ ، وَلْيَحْمَدِ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَحَهُ مِنْ مَلَائِمِهَا الْجَمِيلَةِ ، وَأَنَالَهُ مِنَ التَّرَقُّيِّ لِرَبَّتَيْهَا الْجَلِيلَةِ ، وَلْيَتَّقِ اللهُ تَعَالَى فِي مَوَارِدِهِ وَمَصَادِيرِهِ ، وَلْيَسْأَلْكَ مَسَالِكَ التَّقْوَى فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ وَآخِرِهِ ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ مَنْ سَلَكَ الْحَقَّ نَجَا ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . أَوْزَعَهُ اللهُ تَعَالَى شُكْرَ هَذِهِ الرَّبَّةِ الْعَلِيَّةِ ، وَالْمَنْزِلَةِ السَّنِيَّةِ .

وَتَقَدَّمَ أَمْرُ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللهِ تَعَالَى الشَّيْخِ الْإِمَامِ ، الْعَالِمِ ، الْحَافِظِ ، وَوَلِيِّ الدِّينِ ، الْحَاكِمِ الْمَذْكُورِ ، وَقَاهُ اللهُ تَعَالَى كُلَّ مَحْدُورٍ ، بِكِتَابَةِ هَذَا الْإِسْجَالِ ، فَكُتِبَ عَنْ إِذْنِهِ الْكَرِيمِ ، مُتَضَمِّنًا لَذَلِكَ مَسْئُولًا فِيهِ ، مُسْتَوْفِيًا شَرَائِطَهُ الشَّرْعِيَّةَ . وَأَشْهَدَ عَلَى نَفْسِيهِ الْكَرِيمَةِ بِذَلِكَ فِي التَّارِيخِ الْمَقْدَمِ ذِكْرَهُ بِأَعَالِيهِ ، الْمَكْتُوبِ بِحِطَّةِ الْكَرِيمِ - شَرَفَهُ اللهُ تَعَالَى ، حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قُلْتُ : وَالْعَادَةُ أَنْ يُعَلَّمَ فِيهِ الْحَاكِمُ عَلَامَةً تَلُوهُ الْبِسْمَلَةَ ، وَيَكْتُبُ التَّارِيخَ فِي الْوَسْطِ ، وَالْحَسْبَلَةَ فِي الْآخِرِ ، كُلَّ ذَلِكَ بِحِطَّةِ ، وَيُشْهَدُ عَلَيْهِ فِيهِ مَنْ يَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ كُتَّابِ الْحُكْمِ وَغَيْرِهِمْ ، كَمَا فِي سَائِرِ الْإِسْجَالَاتِ الْحُكْمِيَّةِ .

الصفحة الثالث

(الكُتُبُ إِلَى التَّوَابِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الكُتُبَ الَّتِي تُكْتَبُ عَنِ القُضَاةِ أَلْفَاظُهَا مُرْسَلَةٌ ، لِاجْتِنَاحِ فِيهَا إِلَى فَنِّ
البِلاغَةِ والسَّجْعِ إِلَّا فِي القَلِيلِ النَّادِرِ .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ بِهِ عَنِ قَاضِي القُضَاةِ نَحْرَ الدِّينِ الشَّافِعِيِّ ، إِلَى الحُكَّامِ
بِالمَمْلُوكَةِ ، وَهُوَ :

أَدَامَ اللهُ فَضَائِلَ الجَنَابَاتِ العَالِيَةِ والمَجَالِسِ العَالِيَةِ ، وَجَعَلَهُمْ قَادَةَ يُقْتَدَى بِهِمْ
فِي القَوْلِ والعَمَلِ ، وَوِ ^(١) الأَحْتِفَالِ مِنْ يَعْنَى بِأَمْرِهِ وَيُحْتَفَلُ ، وَلا سِيَّما
مَنْ سَارَتْ طَرِيقُهُ فَضْلِهِ المِثْلِيَّ فِي الآفَاقِ سَيْرِ المِثْلِ ؛ وَلا زَالَ عَرُفٌ مَعْرُوفُهُمْ عَلَى
ذَوِي الفَضَائِلِ يُفُوحُ ، وَجِيَادِ جُودِهِمْ تَعُدُّو فِي مَيْدَانِ الإِحْسَانِ وَتُرُوحُ ، وَنَيْلُ نَيْلِهِمْ
يَسِيرِي إِلَى القُصَادِ فيُحَمَّدُ سُرَاهُ عِنْدَ العُبُوقِ كَمَا يُحَمَّدُ سُرَاهُ عِنْدَ الصُّبُوحِ .

هذه المكاتبة إليهم تُقْرِئُهُمْ سَلامًا أَلْطَفَ مِنَ التَّسْنِيمِ ، وَتُهْدِي إِلَيْهِمْ ثَنَاءَ مِرْزَاجِ
كاتبه مِنْ تَسْنِيمِ ؛ وَتُبْدِي لِعُلُومِهِمُ الكَرِيمَةَ أَنَّ الجَنَابَ الكَرِيمَ ، العَالِيَّ ، الشَّيْخِيَّ ،
الإِمَامِيَّ ، الفَاضِلِيَّ ، البَارِعِيَّ ، الأَوْحَدِيَّ ، الأَكْمَلِيَّ ، البَلِيغِيَّ ، المَقْدِمِيَّ ، الخَطِيبِيَّ ،
البَهَائِيَّ ، أَوْحَدَ الفَضْلَاءِ ، نَحْرَ العُلَمَاءِ ، زَيْنَ الخُطْبَاءِ ، قِبْلَةَ الأَدْبَاءِ ، قُدُوةَ البَلْغَاءِ ،
صَفْوَةَ المُلُوكِ والسُّلْطَانِ ، خَطِيبَ المُرِصِلِ - أَدَامَ اللهُ المَسْرَةَ بِهِ ، وَوَصَلَ الخَيْرَ
بَسْبِهِ ؛ وَنَفَعَ بِفَوَائِدِ فَضْلِهِ وَأَدْبِهِ - وَرَدَّ عَلَيْنَا بِطَرَابُلسِ المَحْرُوسَةِ ، فَخَصَلَتِ المَسْرَةُ
بِذَلِكَ الوُرُودِ ، وَتَجَدَّدَ بِخِدْمَتِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ وَثِيقِ العُهُودِ ؛ وَأَبْدَى لَنَا مِنْ نَظَرِهِ الفَائِيقِ
الرَّقِيقِ ، وَإِنْشَائِهِ المُغْنِيَّ عَنِ نَسْوَةِ الرَّحِيقِ ، وَكِتَابَتِهِ الَّتِي هِيَ السَّحْرُ الحَلَالُ عَلَى

التحقيق ؛ ما نزه الأبصار وشفف الأسماع ، وقطع من فوسان الأدب أسباب
الأطماع ؛ فأزال عن القلب الكئيب فكرا ، وأنجمل من الروض الأنيق زهرا ،
وأتمل من المسك السحيق عطرا ؛ وكيف لا ؟ وهو النفيس الذي جمع فيه قديم
الأدب وحديثه ، والجليس الذي لا يسأم كلامه ولا يمل حديثه ؛ ياله أينا ليس فيما
يسديه من الأدب تحريف ولا غلط ، وفاضلا لو لم يكن بحرًا لما كان الدر من فيه
يلتقط ؛ يمينه وفطنته الكريمتان ذواتا أفنان ، فهذه إن رقت طرسا فروح وزينان ،
أو بدلت برا فعينان تجريان ؛ وهذه إن نظمت شعرا فياقوت ومرجان ، أو نثرت
تبرا فتمين الدر ألوان ؛ ما برح الفضلاء إلى لقائه يسارعون ، وحق لهم أن يسارعوا
ومن أبواب معرفه يقتبسون ؛ وكيف لا ؟ وهو الشهاب الساطع ، والجليل
الذي لم نزل نسير إليه بالأصابع ، والنيسل الذي تجرى لفرآقه من عيون الليب
المدامع ، والتزيل الذي ينشده العارف عند وداعه :

* يعيشك خبرني متى أنت راجع *

يعرف المحسن إحسانه فيشره من الثناء لواء ، ويحمل في مدح صفاته
ونعوته الإنشاء إن شاء ؛ ويجزل في دم مستحق الدم منه الهجاء ، فأكرم به مدحا
وأعظم به هجاء ؛ العلماء لحضوره يترقبون ، وإليه يتقربون ؛ والفضلاء بفضله
يعترفون ، ومن بحره يعترفون ؛ والأدباء إليه يستيقون ، ومنه يقتبسون ؛ والطلبة
بأذيال فضله يتمسكون ، وبنشر أئنيته يتمسكون ؛ وإخوانه في الله بوجوده
يفتحرون ، وإلى جوده يفتقرون ؛ كلما عرضت لهم حاجة تمسكوا بإيثاره ، وكلما
عاندتهم الدهر سألوه الإمداد بأنصاره ؛ فيجود في خدمتهم بيان بنانه ، ويجرد
في نصرتهم سيف لسانه .

ثم من قبل أن نبلغ منه الوطر، ومن دون أن يكتفى منه السمع والبصر، عرفنا أنه قصد التوجه إلى البلاد الساحلية، والأعمال الطرابضية؛ ليتملى على أهلها من فضائله الباهرة الباسقة، وألفاظه التي هي كالدرر المتناسقة؛ ويُجلبهم عرائس الأفكار من أفكاره، ويُجنيهم عرائس الأثمار من أشجار علمه، ويربيهم البديهة البديعة، والقوافي المحيية المطيعة.

فليتقدم الجماعة - أيدهم الله تعالى - بإكرامه إكرام الأهل والأصحاب، وتلقية بالبشر والطلاقة والترحاب؛ وإحلاله من الإحسان محلاً سامياً، وإنزاله من الإفضال منزلاً عالياً؛ والأعتناء الوافر بأمره، واستجلاب بث حمده وشكره؛ والتقاط درر قوائده، واكتساب غرر قوائده؛ والإصغاء إلى المنشور والمنظوم من أقواله، والتعجب من حسن بدهته وسرعة آرائه.

وليحتفل كل يوم بخدمته غاية الاحتفال، ويعتن بأمره أعتناء لا يساركه تقصير ولا إهمال؛ ويرع له حق الضيف الجليل، والقادم الذي إذا رحل عن بلده أبق له بها الذكر الجميل؛ ويساعد على ما توجه بصده كل ساعة يعود نفعها عليه، ويوفق مما آناه الله ويحسن كما أحسن الله إليه.

ونحن نؤكد على الجماعة - أيدهم الله - في ذلك كل التأكيد، ونبلغ فيه مبالغة ما عليها من مزيد؛ ونحذرهم من الإهمال والتسوية والتقصير، ومن مقابلة جنابه الكريم بالتر الحقيق والقدر اليسير؛ فإكرام هذا الرجل ليس إكرام من لم يسر بسيره، وما هو إلا لعلمه وفضله وخيره، وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «وليس من يكرم لنفسه كالذي يكرم لغيره».

فلتُعظموه كل التعظيم وتزروه منزلة تليق بأهل الفضل والإفضال، وترفعوا له المقام وتحفظوا له المقال؛ ليعود محقق الآمال مبلغ المقاصد، ناشراً الوية الشاء

والمحامد ، مشمولاً بجميل الصلوة والعائد ؛ ونحن منتظرون ما يردُّ عنه من مكاتبته
الكريمة بما وصل إليه من الحسنه .^(١)

وفي همهم العلية ، ومكارمهم السنية ، ما يُغني عن التأكيد بسببه والوصية ؛
والله تعالى يُديم عليهم سايغ الإفضال والإنعام ، ويُجمل بوجودهم وجودهم الأحكام
والحكام ؛ بمنه وكرمه .

الصنف الرابع

(ما يُكتب في اقتتاح الكتب)

فمن ذلك ما يُكتب في أوائل كتب الأوقاف .

وهذه نسخة خطبة في ابتداء كتاب وقف على مسجد ، وهي :

الحمد لله جامع الناس ليوم لا ريب فيه إنه لا يُخلف الميعاد ، وناصير الدين الحمدي
بنينا صلى الله عليه وسلم وعلى آله الكرام الأجداد ، ومُشرف هذه الأمة بالأئمة والجمعة
والجماعات من أهل الرُشاد ، وجاعل من أرتضاه من أرباب سنة نبيه المختار من
عباده العباد ، وميسر القرباب إليه لأهل السداد ، ومريد الأعمال الصالحات
ممن أخلصه بالطاعات ومزيد الإزفاد ، ومفضل الأوقاف على أفضل وجوه البر
من جعله لغير أهلا بالنفع المتعدى وكثرة الأمداد ، ومُعظم الأجر لمن بنى بيتاً لله
بنية خلية من الرياء والعناد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من بنى
مسجداً لله ولو كَفَحَ حصصاً قطاة بنى الله تعالى له به قصرًا في الجنة " ونرجو من كرم الله
الأزدياد .

(١) يباض بالأصل ولعله : من المنازل الحسنة الخ أو ما أشبهه .

أحمدُه على مَوَادِّ نِعْمِهِ التي جَلَّتْ عن التَّعْدَادِ ، وأشكُرُه سُكْرًا وإِفِيًا وإِفْرًا نَجْعَلُهُ
ذَخِيرَةً لِيَوْمِ التَّنَادِ ، وَأَسْتَمِدُّ مِنَ اللُّطْفِ لَوَازِمِ الفَضْلِ الخَفِيِّ وهو الكَرِيمُ الجَوَادُ ،
وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له وأنَّ عِندَهُ عبدُه ورسولُه الخَلِيمُ الخَائِمُ على
حَوْضِهِ الوَرَادِ ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبِهِ ما أَصْنَعِي إلى الذِّكْرِ وأُجِيبُ كُلَّ دَاعٍ
من حَاضِرٍ أو بَادٍ .

وبعدُ ، فلَمَّا كانتِ المَثُوبَاتُ مَضمُونَةً الأَجْرِ عندَ الكَرِيمِ ، والأَعْمَالُ مَتَعَدَّةٌ
في التَّقْدِيمِ ، وكانَ بُيَانُ المَسَاجِدِ وإِفْرًا أَجْرًا ، لمن أقامَ بواجِبِ تَبْيَانِ الظَّنِّ الجميلِ
وسَدَّدَ إلى الخِيراتِ سَيْرًا ، وقد قالَ تعالى : « أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عِبْدِي بِى فليَظُنُّ
بِى خَيْرًا » . ورَأَى العُقْلَاءُ أَنَّ الأَوْقافَ على المَسَاجِدِ والجَوَامِعِ من أنْفُسِ قَوَاعِدِ
الدينِ وأَعْلَى - فإذْلك قِيلَ في هذا الإِنْجَالِ المُبَارَكِ :

هذا ما وَقَفَهُ وَحَبَّسَهُ ، وَسَبَّلَهُ وَأَبَدَهُ فلان . وَقَفَّ وَحَبَّسَ رَغْبَةً في مَزِيدِ الثَّوابِ ،
وَرَجَاءً في تَهْوُنِ تَهْوِيلِ يَوْمِ الحِسابِ ، وَأَغْتِنَا مَا لِلأَجْرِ الجَزِيلِ مِنَ الكَرِيمِ الوَهَّابِ ؛
لقولِ اللهُ تعالى في الآياتِ المَبْرُورَةِ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ
أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ . وَقَفَّ بِنَيْتِهِ خَالِصَهُ ، وَعَزِيمَتِهِ صَالِحَهُ ، وَنَيْسَةَ صَادِقَهُ ؛ ما هو له
وفى مِلْكِهِ ، وَحَوْزِهِ وَيَدِهِ وَتَصَرُّفِهِ ، من غيرِ مُنَاطِرٍ له في ذلكَ ولا شَرِيكَ ،
(ثم يَذْكُرُ الوَقْفَ) .

الفصل السادس

في العُمَرَاتِ التي تَكْتَبُ لِلحَاجِّ

وهذه نسخة عُمرَةٍ أَعْتَمَرَهَا أَبُو بَكْرٍ بنِ مُحَمَّدِ الأَنْصَارِيِّ الخَزْرَجِيُّ ، عند مُجَاوَرَتِهِ بِمَكَّةَ المَشْرِفَةِ في سَنَةِ سَبْعٍ ، وَسَنَةِ ثَمَانٍ ، وَسَنَةِ تِسْعٍ ، وَسَنَةِ عَشْرٍ وَسَبْعِمِائَةٍ ، لِلسُّلْطَانِ المَلِكِ النَّاصِرِ «مُحَمَّدِ بنِ قَلَاوُونَ» ، وَهِيَ :

الحمد لله الذي جعل البيتَ مَثَابَةً للنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَأَمَّنَ مَنْ فِيهِ بِالْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَمَنْ هُوَ لِلإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ نَاصِرٍ ، وَجَعَلَهُ بِسَكَّةَ مُبَارَكًا ، وَوَضَعَ الإِصْرَ بِمَنْ كَثُرَتْ مِنْهُ وَمَنْ سَلَفَهُ الكَرِيمِ عَلَى الطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ الأَوَاصِرِ ، وَعَقَدَ لِيَوَاءِ المُلْكِ بِخَيْرِ مَلِكٍ وَهُوَ وَاحِدٌ فِي الجُودِ أَلْفٌ فِي الوَعْيِ : فَنِي حَالَتِهِ تُعَقَّدُ عَلَيْهِ الخَنَاصِرُ ، وَأَطَابَ المَقَامَ فِي حَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَرَمِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ السُّلْطَنَةَ بِذَاتِهِ الشَّرِيفَةِ وَشَرَفِ العَنَاصِرِ ، وَسَهْلِ الطَّرِيقِ ، إِلَى حَجِّ بَيْتِهِ العَتِيقِ ، مِنَ المَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ فِي دَوْلَةٍ مِنْ أَجْمَعَتِ القُلُوبِ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَوَرِثِ المُلْكِ كَأَبْرًا عَنْ كَأَبْرٍ ، وَأَنْطَقَ الأَلْسِنَةَ بالدعاء له مِنْ كُلِّ وَاقِفٍ إِلَى بَيْتِهِ الحَرَامِ عَلَى آخْتِلَافِ لُغَاتِهِمْ وَأَهْتَرَتْ لَوْصِيفِ مَنَاقِبِهِ المَنَابِرِ .

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا بَلَغَ مِنْ جَزِيلِ أَنْعَامِهِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا أُسْتَرِيدُ بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وَنَوَالِهِ وَإِكْرَامِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ نِعْمَ الذَّخِيرَةُ لِصَاحِبِهَا يَوْمَ لِقَائِهِ وَعِنْدَ قِيَامِهِ ، وَأَقُولُهَا خَالِصًا مُخْلِصًا وَيَاقُوزَ مَنْ كَانَتْ آخِرَ كَلَامِهِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَشْرَفُ مَبْعُوثٍ إِلَى الحَقِّ دُعَى بِنِجَاءِ بِأَشْرَفِ مَلَأَهُ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «عُمَرَةُ فِي رَمَضانَ تُعَدُّ حَجَّةً» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ

خُصُوصًا عَلَى خَلِيفَتِهِ فِي أُمَّتِهِ الْخُصُوصِ بِالسَّبْقِ وَالْمُؤَازَرَةِ وَالتَّصَدِيقِ ، مَوْلَانَا
أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ؛ وَعَلَى مُظْهِرِ الْأَذَانِ وَمُصَدِّقِ الْخِطَابِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ وَعَلَى مَنْ جَمَعَ عَلَى الْأُمَّةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؛ وَعَلَى ابْنِ عَمَّةٍ ، وَارِثِ عِلْمِهِ ؛ الْجَامِعِ لِجَمِيعِ الْمَآثِرِ وَالْمَنَاقِبِ ،
مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؛ وَعَلَى بَقِيَّةِ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ ، سَادَاتِ
الدُّنْيَا وَمُلُوكِ الْآخِرَةِ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكُ الْمَلِكِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْخَيْرُ بِيَدِهِ يُفِيضُهُ
عَلَى خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بَعَادَهُ خَيْرًا نَصَرَ نَاصِرَهُمْ وَرَفَعَ
عَنْهُمْ الْقَلْبَ ، وَدَفَعَ عَنْهُمْ الْعِدَا ، وَوَلَّى عَلَيْهِمْ خِيَارَهُمْ ؛ فَيُقِيمُهُ مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أَنْحَرَجَتْ
لِلنَّاسِ ، لِيُذْهِبَ عَنْهُمْ الضَّرَرَ وَيُزِيلَ عَنْهُمْ الْبَاسَ ؛ وَيَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ
الْمُنْكَرِ ، وَيُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ وَيَقِيمُ مَنَارَ الشَّرْعِ الْمُطَهَّرِ .

وَمَا كَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ ، وَالشَّاهِنشَاهُ الْمُعْظَمُ ؛ الْمَلِكُ النَّاصِرُ - خَلَدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ - قَدْ جَمَعَ فِي الْمُحْتَدِ بَيْنَ طَارِفٍ وَتَالِدٍ ، وَوَرِثَ الْمَلِكَ عَنْ أَشْرَفِ أُنْحٍ وَأَعْظَمِ
وَالِدٍ ؛ وَقَامَتْ عَلَى آسْتِحْقَاقِهِ لِلْسُّلْطَنَةِ الدَّلَائِلُ ، وَأَلْقَهُ سِرُّ الْمَلِكِ وَعَرَفَ فِيهِ مِنْ
وَالِدِهِ وَمِنْ أَخِيهِ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى - الشَّبَائِلُ ؛ فَهُوَ الْمَالِكُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ الْمَلِكُ بِهِ
أَهْلًا وَلَمْ يَزَلْ لَهُ أَهْلًا ، وَالسَّيِّدُ الَّذِي لَيْسَ حُلَّةَ الْفَخَّارِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ فِي السُّؤْدُدِ وَالْفَخَّارِ
مِثْلًا ، وَالْمَلِكُ الَّذِي مَا بَدَأَ لِرَأْيِهِ إِلَّا قَيْلٌ : بَحْرٌ طَمَعِي أَوْ بَدْرٌ تَجَلِّي ؛ وَالْمُؤَيَّدُ الَّذِي
خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِعُلُوِّ شَأْنِهِ وَارْتِفَاقِهِ ، وَلَمْ يَرْضَ مَرَاقِدَ الْفَرَاقِدِ لِعَلْيَانِهِ ؛ وَالكَرِيمُ الَّذِي
سَادَ الْأَوَائِلَ وَالْآخِرَ ، وَأَضْفَيْتَ عَلَيْهِ حُلُلُ الْمَفَاحِرِ ؛ وَالْمَنْصُورُ الَّذِي أُعْطِيَ عَلَى
الْأَعْدَاءِ قُوَّةً وَنَصْرًا ، وَالنَّاصِرُ الَّذِي أَسْعَجَ مَجَالَ نَفْسِهِ فَأَخَذَ الْكُفَّارَ حَصْرًا ، وَحَكَمَتْ
سُيُوفُهُ الْقَوَاضِبُ فَوَضَعَتْ عَنِ الْأَوْلِيَاءِ إِصْرًا ؛ قَدْ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعِزِّ وَالنَّصْرِ كَرَّةً

بعد كرهه، وفضله على سائر ملوك الإسلام بالحجّ وزيارته النبي صلى الله عليه وسلم
مرّة بعد مرّه، ومرّة أخرى إن شاء الله تعالى ومرّة ومرّه!!! كم سلك سنن
وأبده وأخيه - رحمهما الله تعالى - بالغزاة فكان له كلُّ مشهدٍ مذكور، وعُرف
تقدّمه وإقدامه فكان أعظم ناصير وأشرف منصور؛ يحمده الله تعالى والناس عن
جميل ذبه عن الإسلام وحميد فعله، وأستقلّ الجزيل فينبئ الجميل لمن أمّ أبوابه
الشريفة فلا يُستكثر هذا من مثله؛ ما حملت راياته الشريفة كتيبةً إلا نصرت،
ولا وقف بوجهه الكريم في دفع طائفة الكفر إلا كسرت؛ ولا جهز عساكره
المنصورة إلى قلعة إلا نزل أهلها من صياصبيهم، ولا حاصروا ثغراً للكفار إلا أخذوا
بنواصبيهم؛ ولا سيرتيرية لمواجهه محارب إلا ذلّ على رنمه، ولا نطق لسان الحمد
للمجاهد أو سار الشاهد إلا وقف الحمد على قوله وأسمه؛ فاخاره الله تعالى على طم على
العالمين، وأجتهه للدبّ عن الإسلام والمسلمين؛ وجعله لسُلطانه وأرثانه، وفي الملك
مأثراً، وللقمرين ثالثاً؛ ولأموره سدّاداً، ولثغور بلاد الإسلام سدّاداً؛ وقوض إليه
القيام بمصالح الإسلام، والنظر في مصالح الخاصّ والعام؛ وعدق به أمور الممالك
والأملاك، وأطلع بسعادته أيمن البروج في أثبت الأفلاك؛ وحمى الإسلام
والمسلمين من كلّ جانب شرقاً وغرباً، وملاً بمهاتيه البلاد والعباد رعباً وحباً؛
وبسط في البسيطة حكمه وعدله، ونشر على الخلائق حلمه وفضله؛ وفرص طاعته
على جميع الأمم، وجعله سيّداً لملوك العرب والعجم؛ وأمن بمهاتيه كلّ حاضر وباد،
ونوم سُكّان الحرّمين الشريفين من كتفه في أوطأ مهاد؛ وسكّن خواطر المجاورين
من جميع المخاوف، وصان بالقمّام في مكّة الطائف والعمّاكف؛ قد حسن مع الله
تعالى سيرةً وسيراً، ودلّت أيامه الشريفة أنه خير ملك أراد الله تعالى برعيته خيراً؛
وراعى الله فيما رعى، وسعى في مصالح الإسلام عالمياً أن ليس للإنسان إلا ما سعى.

قد مَلَأَ أَعْيُنَ الرعايا بِالطَّمَانِينَةِ وَالْمُجُوعِ ، وَأَمَنَّهُمْ فِي أَيَّامِهِ الشَّرِيفَةِ بِالرِّخَاءِ مِنْ
الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ؛ وَجَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَى ، وَسَهَّلَ لَهُمُ الدُّخُولَ إِلَى بَيْتِهِ
الْحَرَامِ بَرًّا وَبِحُرًّا ، وَفَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ - جَمِيعَ الْأَمْصَارِ ،
وَمَلَأَ مِنْ مَهَابَتِهِ جَمِيعَ الْأَفْطَارِ :

فَسَارَتْ مَسِيرَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ • وَهَبَتْ هُبُوبَ الرِّيحِ فِي الْقُرْبِ وَالْبَعْدِ !

فَوَجِبَ عَلَى الْعَالَمِينَ أَنْ يَدْعُوا لِدَوَائِهِ الشَّرِيفَةِ الْمُبَارَكَةِ بِطَوْلِ الْبَقَاءِ ، وَ[دَوَامِ] الْعُلُوِّ
وَالْأَرْقَاءِ ؛ وَوَجَبَ عَلَى كُلِّ مَنْ الْوَاصِلِينَ إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ وَحَضْرَةَ قُدْسِهِ ، أَنْ يَتَهَلَّ
بِالدُّعَاءِ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْعُوَ لِنَفْسِهِ ؛ فَكَيْفَ مِنْ هُوَ مَمْلُوكُهُ وَأَبْنُ مَمْلُوكِهِ وَوَارِثُ عِبُودِيَّتِهِ ،
وَمَنْ لَمْ يَزَلْ هُوَ وَوَالِدُهُ وَإِخْوَتُهُ فِي صَدَقَاتِ الْوَالِدِ الشَّهِيدِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَعَمِيمِ
نِعْمَتِهِ ؛ الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَبُو بَكْرٍ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُكْرَمِ الْأَنْصَارِيِّ الْخَزْرَجِيِّ ،
فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ مَدَّةَ أَيَّامِهِ مُبْتَهَلًا بِصَاحِ دَعْوَاتِهِ ، مُتَوَسِّلًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِدَوَامِ نَصْرِهِ
وَطَوْلِ حَيَاتِهِ ؛ طَائِفًا عِنْدَ مَقَامِهِ الشَّرِيفِ حَوْلَ بَيْتِهِ الْحَرَامِ ، وَالْمَشَاعِرِ الْعِظَامِ .

وَأَحَبُّ أَنْ يُحْفَظَهُ بِأَشْرَفِ الْعِبَادَةِ فَلَمْ يَجِدْ أَجَلَ مِقْدَارًا وَلَا أَعْظَمَ أَجْرًا ، مِنْ عُمْرَةٍ
يَعْتَمِرُهَا عَنْهُ وَيُهْدِي ثَوَابَهَا لَصَحَابَتِهِ الشَّرِيفَةِ وَيَزِيدُ بِذَلِكَ نَفْسًا ؛ فَقَامَ عَنْهُ بِعُمْرَتَيْنِ
شَرِيفَتَيْنِ أَعْتَمَرَهُمَا عَنْهُ فِي رَمَضَانَ ، مَكْتَلِبَيْنِ بِأَحْرَامِهِمَا وَتَلْبِيَّتَهُمَا ، وَطَوَّأَ فِيهِمَا
وَسَعَى فِيهِمَا ؛ يَتَقَرَّبُ بِذَلِكَ إِلَى أَبْوَابِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَيَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَسْأَلُ صَدَقَاتِهِ
الشَّرِيفَةَ أَنْ يَنْعَمَ عَلَيْهِ بِنِصْفِ مَعْلُومِ صَدَقَةٍ عَلَيْهِ ، وَيَنْصِفَهُ لِأَوْلَادِهِ : لِيَقْضِيَ بَقِيَّةَ
عُمْرِهِ فِي الثَّلَاثَةِ الْمَسَاجِدِ ، وَيُحْضِرَهُ بِجَزَائِلِ الدُّعَاءِ مِنْ كُلِّ رَاكِعٍ وَسَاجِدٍ ؛ وَأَنْ يَكُونَ
ذَلِكَ مُسْتَمِرًّا عَلَيْهِ مُدَّةَ حَيَاتِهِ ، وَعَلَى ذُرِّيَّتِهِ وَنَسْلِهِ وَعَقِيْبِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ؛ لِتَشْمَلَ
صَدَقَاتُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - الْأَحْيَاءَ وَالْأَمْوَاتِ ، وَيَطِيبُ لِقَابَهُنَّ

في أيامه الشريفة الممات ؛ جعل الله تعالى مولانا السلطان وارث الأعمار ،
وأجرى بدوام أيامه الشريفة المقدار ؛ وجعل كلمة الملك باقية في عقبه ، وبلغه
من النصر والظفر والأجر غاية أريه ؛ وجعل أيامه كلها مساراً وبشائر ، ودولته تسرُّ
النواظر ، وسعادته ليس لها آخر ؛ ويهنئه بما قد أممه الله له من ملك والده الشهيد
رحمه الله تعالى :

[أَهْنِكَ] بِالْمُلْكِ يَا خَيْرَ مَنْ • أَجَارَ الْبَرَايَا وَمَنْ مَارَهَا ،
وَمَنْ لَيْسَ لِلأَرْضِ مَلِكٌ سِوَاهُ • مُمِيلٌ لَهُ الْخَلْقُ أَبْصَارَهَا !
وَأَنْتَ الَّذِي تَمْلِكُ الْخَافِقِينَ • ^(١) وَإِعْصَارَهَا ،
وَتَمْلِكُ سَبَبَ تَكْفُورِهَا • وَتَرْكَبُ بِالْحَيْشِ أَوْعَارَهَا ،
وَتَحْكُمُ فِي الْمَرْءِ حُكْمَ الْمُلُوكِ • وَتُنشِدُ فِي التَّخْتِ أَشْعَارَهَا ،
وَتَفْتَحُ بَغْدَادَ دَارَ السَّلَامِ • وَتَنْفِي بِمُلْكِكَ أَكْدَارَهَا ،
وَتَأْخُذُ بِالْعَسْكَرِ النَّاصِرِيِّ • فَصُورُ الْخِلَافَةِ أَوْتَارَهَا ،
وَيَأْمَنُ فِي ذَلِكَ الْعَالَمُونَ • وَتُعْجِي الأُسُودَ وَأَوْكَارَهَا ،
وَتَبْقَى إِلَى ابْنِ تَمِيمِ الْبِلَادِ • بِنُعْمَى تُتَابِعُ إِدْرَارَهَا ،
وَيَبْلُغُ مُلْكُكَ أَقْصَى الْبِلَادِ • وَتُجْرِي الْعِبَادَ وَأَوْطَارَهَا ،
وَيَنْظُمُ سِيرَتَكَ النَّاطِمُونَ • وَتُعْبِي مَغَازِيكَ سُمَارَهَا ،

[والله يُبْقِيهِ] ^(١) بعدها دائماً ناصر الدنيا والإسلام والمسلمين ، كما سماه والده
ناصر الدنيا والدين ؛ إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ؛ وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) بياض بالأصول والتصحيح من المقام .

الباب الثاني

من المقالة العاشرة في الهزليات^(١)

أعلم أنه ربما أعتنت الملوك ببعضه، فاقترحت على كتابها إنشاء شيء من الأمور الهزلية، فيحتاجون إلى الإتيان بها على وفق غرض ذلك الملك. كما وقع لمعين الدولة ابن بويه الديلمي في اقتراحه على أبي إسحق الصابي كتابة عهد بالتطفل، لرجل كان عنده أسمه عليك، ينسب إلى التطفل، ويسخر منه السلطان بسبب ذلك.

وهذه نسخة عهد بالتطفل، التي أنشأها أبو إسحق الصابي عليك المذكور:

هذا ما عهد علي بن أحمد المعروف بعليكا إلى علي بن عرس الموصلية، حين استخلفه على إحياء سنته، وأستنابه في حفظ رؤومه، من التطفل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها وأخافها، ويحمرى معها في سوادها وأطرافها، لما توسمه فيه من قلة الحياء، وشدة اللقاء، وكثرة اللقم، وجودة الهضم، وراه أهلا له من سد مكانه، والرفاهة المهملة التي فطن لها، والرقاعة المطرحة التي أهدتني إليها، والنعم العائدة على لا بسبها بملاذ الطعوم، ويخصب الجسوم، وردا على من آسعت حاله، وأقدره الله على غرائب الماكولات، وأظفره بدائع الطيبات، أخذا من ذلك كله بنصيب الشريك المناصف، وضاربا فيه بسهم الخليط المفاوض، ومستعملا للدخل اللطيف عليه، والمتوج العجيب إليه، والأسباب التي ستشرح في مواضعها من أوامر هذا الكتاب، وتستوفى الدلالة على ما فيها من رشاد وصواب، وبالله التوفيق وعليه التعويل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(١) ذكر المؤلف في بيان محتويات الكتاب في الجزء الأول (ص ٣٢) أن الباب الثاني في الهزليات يشتمل على فصلين: الفصل الأول فيما أعتنت الملوك ببعضه. الفصل الثاني في سائر أنواع الهزل، ولكنه لم يذكر هنا الفصل الثاني، فلينبه.

أمره بتقوى الله التي هي الجانب العزيز، والحريز الحريز، والركن المنيع، والطود
الريع، والعصمة الكائنه، والخنة الواقية، والزاد النافع يوم المعاد، وحيث الأمثلة
من الأزواد؛ وأن يستشعر خيفته في سره وجهره، ويرأقه في قوله وفعله؛ ويعمل
رضاه مطلبه، وثوابه مكسبه، والقربة منه أربه، والزلفى لديه غرضه؛ ولا يخالفه
في مسعاة قدم، ولا يتعرض عنده لعاقبة ندم؛ ولا يقدم على ما كره وأنكر،
ولا يتقاعس عما أحب وأمر.

وأمره أن يتأدب بأدبه فيما يأتي ويذر، ويقف على حدوده فيما أباح وحظر؛
فإنه إذا كان ذلك هجيراً وديئنه، وجرى عليه منهاجه وسننه؛ تكفل الله له بالنجاح
والصلاح، وأفضى به إلى الرشاد والفلاح؛ وأظفره بكل بغيه، وأوصله إلى كل
مشيه؛ ولم يخله من الفوز بما يرصد، والحوز بما يقصد؛ بذلك وعد، وكذلك
يقول، وما توفيقنا إلا بالله، ولا مرجعنا إلا إليه.

وأمره أن يتأمل اسم التطفيل ومعناه، ويعرف مغزاه ومناهاه؛ ويتصفحه تصفح
الباحث عن حظه بمحموده، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده؛ فإن كثيراً من الناس
قد استقبحه ممن فعله، وكرهه لمن استعمله؛ ونسبه فيه إلى الشره والنهم، وحمله
منه على التفه والقرم؛ فمنهم من غلط في استدلاله، فأساء في مقاله؛ ومنهم من شح
على ماله، فدافع عنه بأحتياله؛ وكل الفريقين مذموم، وجميعهما ملوم؛ لا يتلقتان
بعذر واضح، ولا يعتريان من لباس فاضح؛ ومنهم الطائفة التي ترى فيها شركة العنان؛
فهي تتدله إذا كان لها، وتتدلى عليه إذا كان لغيرها؛ وترى أن المنة في المطعم للهاجم
الآكل، وفي المشرب للوارد الواغل، وهي أحق بالحريه، وأخلق بالخييره؛ وأحرى
بالمروء، وأولى بالفتوه؛ وقد عرفت بالتطفيل، ولا عار فيه عند ذوى التحصيل،

لأنه مُشْتَقٌّ مِنَ الطِّفْلِ وَهُوَ وَقْتُ الْمَسَاءِ، وَأَوَّلُ الْعِشَاءِ؛ فَلَمَّا كَثُرَ اسْتِعْمَالُ فِي صَدْرِ النَّهَارِ وَتَجَزَّاهُ، وَأَوَّلُهُ وَآخِرُهُ؛ كَمَا قَبِلَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ: قَمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا الْقَمَرُ، وَلَأَبْنَى بَكْرٍ وَعُمَرُ: الْعُمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا عُمَرُ، وَقَدْ سَبَقَ إِمَامُنَا بَيَّانُ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ سَبَقًا أَوْجَبَ لَهُ حُلُودَ الذِّكْرِ، فَهُوَ بَاقٍ بَقَاءَ الدَّهْرِ، وَمُتَجَدِّدٌ فِي كُلِّ عَصْرٍ؛ وَمَا نَعْرِفُ أَحَدًا نَالَ مِنَ الدُّنْيَا حَظًّا مِنْ حُظُوظِهَا فَبَقِيَ لَهُ مِنْهُ أَثَرٌ يَخْلِفُهُ، وَصِيَّتُ يَسْتَبَدُّ بِهِ إِلَّا هُوَ وَحَدَهُ، فَيَبَيِّنُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُذَكِّرُ بِتَطْفِيلِهِ كَمَا تُذَكِّرُ الْمَلُوكُ بِسَيْرِهَا، فَمَنْ بَلَغَ إِلَى نِهَائِهِ، أَوْ جَرَى إِلَى غَايَتِهِ؛ سَعِدَ بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ فِي يَوْمِهِ، وَنَبَاهَةَ ذِكْرِهِ فِي غَدِهِ؛ جَعَلْنَا اللَّهُ جَمِيعًا مِنَ السَّابِقِينَ إِلَى مَدَاهِ، وَالْمَذْكُورِينَ كَذِكْرَاهُ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَعَمَّدَ مَوَائِدَ الْكِبَرَاءِ وَالْعُظَمَاءِ بِغَزَايَاهُ، وَمُسْمَطَ الْأَمْرَاءِ وَالْوُزَرَآءِ بِسَرَآيَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَظْفَرُ مِنْهَا بِالْغَنِيمَةِ الْبَارِدَةِ، وَيَصِلُ عَلَيْهَا إِلَى الْغَرِيْبَةِ النَّادِرَةِ؛ وَإِذَا اسْتَقْرَأَهَا وَجَدَ فِيهَا مِنْ طَرَائِفِ الْأَلْوَانِ، الْمُلْدَّةِ لِلْسَانَ؛ وَبَدَائِعِ الطُّعُومِ، السَّائِغَةِ فِي الْخُلُقُومِ؛ مَا لَا يَجِدُهُ عِنْدَ غَيْرِهِمْ، وَلَا يَنَالُهُ إِلَّا لَدَيْهِمْ؛ لِحِدْقِ صِنَاعَتِهِمْ، وَجَوْدَةِ أَدَوَاتِهِمْ، وَأَنْزِيَاكِ عَلَيْهِمْ، وَكَثْرَةِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ؛ وَاللَّهُ يُؤَفِّرُ مِنْ ذَلِكَ حَظَّنَا، وَيُسَدِّدُ نَحْوَهُ لِحَظَّنَا؛ وَيُوضِّحُ عَلَيْهِ دَلِيلَنَا، وَيُسَهِّلُ إِلَيْهِ سَبِيلَنَا .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّبِعَ مَا يَعْرِضُ لِمُوسِرِي التُّجَّارِ، وَمُجَهِّزِي الْأَمْصَارِ؛ مِنْ وَكِيْرَةِ الدَّارِ، وَالْعُرْسِ وَالْإِعْذَارِ؛ فَإِنَّهُمْ يُوسِّعُونَ عَلَى نَفْسِهِمْ فِي النَّوَابِ، بِحَسَبِ تَضْيِيقِهِمْ عَلَيْهَا فِي الرَّأْيِ؛ وَرُبَّمَا صَبَرُوا عَلَى تَطْفِيلِ الْمُنْتَظِّفِينَ، وَأَغْضَوْا عَلَى تَهْجَمِ الْوَاغِلِينَ؛ لِيَتَحَدَّثُوا بِذَلِكَ فِي مَحَافِلِهِمُ الرَّذَلَةَ، وَيَعْتَدُوهُ فِي مَكَارِمِ أَخْلَاقِهِمُ النَّذَلَةَ؛ وَيَقُولُ قَائِلُهُمُ الْبَاحِجُ بِاتِّسَاعِ طَعَامِهِ، الْمُبَاهِي بِكَثْرَةِ حُطَامِهِ؛ : إِنِّي كُنْتُ أَرَى الْوُجُوهَ الْغَرِيْبَةَ فَأُطْعِمُهَا، وَالْأَيْدِيَّ الْمُنْتَدَةَ فَأَمْلُؤُهَا . وَهَذِهِ طَائِفَةٌ لَمْ تُرَدِّ بِمَا فَعَلْتَهُ الْكَرَمَ وَالسَّعَةَ،

وإنما أرادت المن والسَّمْعَه ؛ فإذا آهتدى الأريب إلى طرائقها وصل إلى بُغْيَتِه
من إعلان قِضْيَتِها ، وفاز بمراده من ذخائر حَسَنَتِها ، إن شاء الله .

وأمره أن يصادق قَهَّارِمَةَ الدُّورِ ومُدَبِّرِيها ، ويرَافِقَ وكُلَّاءَ المَطَّايِحِ وحَمَّالِيها ؛ فإنهم
يَمْلِكُون من أصحابهم أزيمة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يُجِبُون من أهل
مودَّاتهم ومعارفهم ؛ وإذا عدت هذه الطائفة أحدا من الناس خليلا من خلانها ،
وأتخذته أخوا من إخوانها ؛ سَعِدَ بمراقفتها ، ووصل إلى محابة من جهاتِها ، ومآربه
في جنابِها .

وأمره أن يتعهد أسواق المُسَوِّقِينَ ، ومَوَاسِمِ المُتَبَايِعِينَ ؛ فإذا رأى وظيفه قد زيد
فيها ، وأطعمه قد احتشد مُشْتَرِيها ؛ أتبعها إلى المقصد بها ، وشيَّعها إلى المتزل
الحاوي لها ؛ وأستعلم ميقات الدَّعْوَةِ ، ومن يحضرها من أهل النسيان والمُروءَةِ ؛
فإنه لا يتخلو فيهم من عارف به يرأى وقت مصيره إليها ليتبعه ، ويكف له ليضجبه
ويدخل معه ؛ وإن خلا من ذلك اختلط بزمر الدَّاخلِينَ ، وعُصَبِ الرَّاحِلِينَ ؛
فما هو إلا أن يتجاوز عتب الأبواب ، ويخرج من سلطان البوابين والمُجَّابِ ؛ حتى
يحصل حصولا قَلَّ ما حصل [عليه] أحد قبله فانصرف عنه إلا ضليعا من الطعام ،
بريقا من المُدَّامِ ؛ إن شاء الله .

وأمره أن ينصب الأرصَادَ على منازل المُغْنِيَاتِ والمُغْنِيْنَ ، ومَوَاطِنِ الأَبْلِيَّاتِ (؟)
والمُخْتَبِينَ ؛ فإذا أتاه خبرُ بَجمِ يَضُمُّهُمْ ، ومادِيَةِ تَعْمُهُمْ ؛ ضَرَبَ إليها أعناق إبله ،
وأنضى نَحْوَهَا مطايا خيله ؛ وحمل عليها حَمَلَةَ الحُوتِ المُتَّقِمِ ، والثُّعْبَانَ المُتَّهِمِ ؛
واللَّبِيثَ المَاصِرِ ، والعَقَابَ الكَاسِرِ ؛ إن شاء الله .

وأمره أن يتجنب بجامع العوامِّ المُقْلِينَ ، ومَحَافِلِ الرِّعَاعِ المُقْتَرِينَ ؛ وأن لا ينقل
إليها قدما ، ولا يعفر لما أكلها قسا ؛ ولا يلقى في عتب دورها كَيْسَانَا ، ولا يعد الرجل

• منها إنسانا ؛ فإنها عَصَابَةٌ يَجْتَمِعُ لها ضَيْقُ النُّفُوسِ والأَحْلَامِ ، وَقَلَّةُ الإِحْكَامِ والأَمْوَالِ ؛
وفى التَّطْفِيلِ عليها إِخْجَافٌ بها يُوسَمُ ، وإِزْرَافُهُ بِمُرُوءَةِ المُتَطَفِّلِ يُوصَمُ ؛ وَالتَّجَنُّبُ لها
أُحْرَى ، والأَزْوَرَارُ عنها أُحْجَى ؛ إن شاء الله .

وأَمْرُهُ أَنْ يَحْزِرَ الحِوَانَ إِذَا وُضِعَ ، والطَّعَامَ إِذَا تُقِلُّ ؛ حتَّى يَعْرِفَ بِالْحَدْسِ
والتَّقْرِيبِ ، وَالبَحْثِ وَالتَّنْقِيبِ ؛ عَدَدَ الأَلْوَانِ فى الكَثْرَةِ والقِلَّةِ ، وَأَفْتِنَانَهَا فى الطَّيِّبِ
وَاللَّذَّةِ ؛ فَيُقَدِّرُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَسْبِغَ مع آخِرِهَا ، وَيَنْتَهَى منها عند آتِهَا ؛ ولا يَقُوتهُ
النَّصِيبُ من كَثِيرِهَا وَقَلِيلِهَا ، ولا يُحْطِئُهُ الحِطُّ من دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا . وَمَتَى أَحَسَّ بِقِلَّةِ
الطَّعَامِ ، وَعَجْزِهِ عن الأَقْوَامِ ؛ أَمَعَنَ فى أَوَّلِهِ إِمعانَ الكَيْسِ فى سَعَتِهِ ، الرِّشِيدِ فى أَمْرِهِ ،
المَا لِي لِبَطْنِهِ ؛ من كُلِّ حَارٍّ وَبَارِدٍ ، وَخَبِيثٍ وَطَيِّبٍ ؛ فإنه إِذَا فَعَلَ ذلكَ سَلِمَ من
عَوَاقِبِ الأَنْمَارِ الذين يَكْفُونَ تَطْرُفًا ، وَيُقَلُّونَ تَأْدِبًا ؛ وَيُظَنُّونَ أَنَّ المَاذَةَ تَبْلَغُهُم
فى آخِرِ أَمْرِهِمْ ، وَتَنْتَهَى بِهِم إلى غَايَةِ سَعِيهِمْ ؛ فلا يَلْبَثُوا أَنْ يَجْعَلُوا نَجْمَةَ الوَاقِعِ ،
وَيَنْقَلِبُوا بِحَسْرَةِ الخَائِبِ ؛ أَعَاذَنَا اللهُ من مِثْلِ مَقَامِهِمْ ، وَعَصَمَنَا من شَقَاءِ جُدُودِهِمْ ؛
إن شاء الله .

وأَمْرُهُ أَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ ، وَيُعَالِطَ حِسَّهُ ؛ وَيَضْرِبَ عن كَثِيرٍ مما يَلْحَقُهُ صَفْعًا ،
وَيَطْوِي دُونَهُ كَشْحًا ، وَيَسْتَحْسِنَ الصَّمَمَ عن الفَحْشَا ؛ وَإِنْ أَتَتْهُ اللَّكْرَةُ فى حَلْقِهِ ،
صَبَرَ عَلَيْهَا فى الوُصُولِ إلى حَقِّهِ ؛ وَإِنْ وَقَعَتْ بِهِ الصَّفْعَةُ فى رَأْسِهِ ، صَبَرَ عَلَيْهَا لمَوْجِعِ
أَضْرَاسِهِ ؛ وَإِنْ لَقِيَ بِالْحَقَاءِ ، قَابَلَهُ بِاللُّطْفِ وَالصَّفَاءِ ؛ إِذْ كَانَ قد وَجَعَ الأَبْوَابِ ،
وَخَالَطَ الأَسْبَابِ ؛ وَجَلَسَ مع الحُضُورِ ، وَأَمْتَرَجَ بِالْمُجْهَورِ ؛ فلا بُدَّ أَنْ يَلْقَاهُ المُنْكَرُ
لأَمْرِهِ ، وَيَمْرُّ بِهِ المُسْتَعْرَبُ لَوَجْهِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ حُرًّا حَيًّا أَمْسَكَ وَتَدَمَّمَ ، وَإِنْ كَانَ فَظًّا
غَلِيظًا هَمَّهُمْ وَتَكَلَّمَ ؛ وَتَجَنَّبَ عند ذلكَ المُخَاشَنَةَ ، وَأَسْتَعْمَلَ مع المُخَاطَبِ لَهُ المُلَايَنَةَ ؛
لِيُبْرِدَ غَيْظَهُ ، وَيَقْلَّ حَدَّهُ ؛ وَيَكْفُفَ غَرْبَهُ ، وَيَأْمَنَ سَغْبَهُ ؛ ثم إِذَا طَالَ المَدَى

تكررت الالتحاط عليه فعرف ، وأنيست النفوس به فألف ؛ ونال من المحال المجتمع عليها ، منال من حشم وسئل الذهب إليها .

وقد بلغنا أن رجلا من العصابة كان ذا فهم ودرأيه ، وعقل وحصافه ؛ طفّل على وليه ، لرجل ذي حال عظيمه ؛ فرمقته فيها من القوم العيون ، وصرفت بهم فيه الطنون ؛ فقال له قائل منهم : من تكون أعزك الله ؟ فقال : أنا أول من دعي إلى هذا الحق . قيل له : وكيف ذلك ونحن لا نعرفك ؟ فقال : إذا رأيت صاحب الدار عرفني وعرفته نفسي . فحى به إليه ، فلما رآه بدأه بأن قال له : هل قلت لطباخك : أن يصنع طعامك زائدا على عدد الحاضرين ، ومقدار حاجة المدعوين ؛ قال : نعم ! قال : فإتما تلك الزيادة لي ولأمثالي ، وبها يستظهر لمن جرى مجراي ، وهي رزق لنا أنزله الله على يدك وبك ، فقال له : كرامة ورُحبا ، وأهلا وقربا ؛ والله لا جاست إلا مع عليّة الناس ووجوه الجلّساء ، إذ أطرفت في قولك ، وتفننت في فعلك . فليكن ذلك الرجل إماما يقتدى به ، ويقتفى طريقه ، إن شاء الله .

وأمره بأن يكثر من تعاهد الجوارشنيات المنفذة للسدد ، المقوية للمعد ؛ المشبهة للطعام ، المسهلة لسبل الانهضام ؛ فإنها عماد أمره وقوامه ، وبها انتظامه وألتئامه ؛ إذ كانت تُعين على عمليّ الدعوتين ، وتنهض في اليوم الواحد الأكلتين ؛ وهو يتناولها كذا كالكاتب الذي يقط أقلامه ، والجُندي الذي يصقل حسامه ؛ والصانع الذي يحدد آتته ، والمأهر الذي يصلح أدواته ، إن شاء الله .

هذا عهد عليك بن أحمد إليك ، ومجته لك وعليك ؛ لم يالك فيه إرشادا وتوقيفا ، وتهديبا وتثقيفا ؛ وبعثا وتبصيرا ، وحثا وتذكيرا ؛ فكن بأوامره مؤتمرا ، وبزواجره مُزديرا ؛ ولسومه متبعا ، وبحفظها مضطلعا ؛ إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

الخاتمة

في ذِكْرِ أمورٍ تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة،
وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الكلام على البريد، وفيه فصلان

الفصل الأول

في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها، ويتعلق الغرض
من ذلك بثلاثة أمور

الأمر الأول

(معرفة معنى لفظ البريد لغةً وأصطلاحاً)

أما معناه لغةً، فالمراد منه مسافة معلومة مقدرة بأثنى عشر ميلاً، واحتج له
الجوهري بقول مزرد يمدح عرابة الأوسى :

فَدَتِكَ عَرَابَ الْيَوْمِ أُمِّي وَخَالَتِي، وَنَاقِي النَّاجِي إِلَيْكَ بَرِيدُهَا!

يُرِيدُ سَيْرُهَا فِي الْبَرِيدِ . وَقَدْ قَدَّرَهُ الْفُقَهَاءُ وَعُلَمَاءُ الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ بِأَنَّهُ أَرْبَعَةُ
فَرَاسِخَ، وَالْفَرَسِخُ ثَلَاثَةُ أَمْيَالٍ، وَالْمِيلُ ثَلَاثَةُ آلَافِ ذِرَاعٍ بِالْهَاشِمِيِّ، وَهُوَ أَرْبَعَةُ
وَعَشْرُونَ أَصْبُعًا، كُلُّ أَصْبُعٍ سِتُّ شَعِيرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ، ظَهَرَ إِحْدَاهَا لِبَطْنِ الْأُنْجَرِيِّ،
وَالشَّعِيرَةُ سَبْعُ شَعْرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ مِنْ ذَنْبِ بَغْلٍ أَوْ رِذْوُونٍ .

قال الجوهري : ويقال أيضا على البريد : المرَّبُّ ، يقال : حَمِلَ فلانٌ على البريد .
قال : ويُطلق أيضا على الرسولِ بريدٌ .

ثم اختلف فيه فقيل : إنه عَرَبِيٌّ . وعلى هذا ذهب الخليل إلى أنه مُشْتَقٌّ من
بَرَدَتِ الحَدِيدَ إذا أرسلت ما يخرج منه . وقيل : من أبردته إذا أرسلته . وقيل : من برد
إذا تبت ، لأنه يأتي بما تستقر عليه الأخبار ، يقال : « اليوم يوم باردٌ سمومه »
أى تابت .

وذهب آخرون إلى أنه فارسيٌّ معرَّبٌ . قال أبو السعادات بن الأثير في كتابه
« النهاية في غريب الحديث » : وأصله بالفارسية بريدہ دم ، ومعناه مقصود
الذنب . وذلك أن ملوك الفرس كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بغلاً في البريد قصوا
ذنبه ، ليكون ذلك علامة لكونه من بغال البريد . وأنشد الجوهري لأمرئ القيس :
على كلِّ مقصودٍ الذنابُ معاودٍ • بريد السرى بالليل من خيل بربراً .

الأمر الثاني

(أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن)

أما في الجاهلية ، فقد ذكر في « التعريف » : أن البريد كان موجوداً في عهد
الأكاسرة من ملوك الفرس ، والقيصرية ملوك الروم . قال : ولكن لا أعرف هل
كان على البريد المحرر أو كانت مقاديره متفاوتة كما هو الآن ؟ . ثم قال : ولا أظنه
إلا على القدر المحترم ، إذ كانت حكمتهم تأتي إلا ذلك .

وأما في الإسلام فقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه « الأوائل » : أن أول من
وضعه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما . قال في « التعريف » :

وذلك حين استقرت له الخلافة، ومات أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وسلم له آية الحسن عليه السلام، وخلا من المنازع، فوضع البريد لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم وعرفهم ما يريد، فوضعوا له البريد. قال: وقيل: إنما قيل ذلك زمن عبد الملك ابن مروان حين خلا وجهه من الخوارج عليه: كعمرو بن سعيد الأشدق، وعبد الله بن الزبير، ومضعب بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد.

والذى ذكره العسكرى: أن عبد الملك إنما أحكمه. وذكر عنه أنه قال لابن الدغيدغة: وليتلك ما حضر بابي إلا أربعة: المؤذن، فإنه داعى الله تعالى فلا حجاب عليه. وطارق الليل، فشر ما أتى به ولو وجد خيرا لنام. والبريد، فتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه، فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة. والطعام إذا أدرك، فأفتح الباب وأرفع الحجاب وخل بين الناس وبين الدخول. ثم قال: ويذكر هذا الكلام عن زياد أيضا.

قال في "التعريف": وكان الوليد بن عبد الملك يحمل عليه الفسيفساء وهى الفص المذهب من القسطنطينية إلى دمشق، حتى صقح منه حيطان المسجد الجامع بها، ومساجد مكة والمدينة والقدس.

قال: ثم لم يزل البريد قائما، والعمل عليه دائما، حتى آن لبناء الدولة المروانية أن ينتقض، ولجئها أن يتكت، فأنقطع ما بين خراسان والعراق، لأنصراف الوجوه إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية. ودام الأمر على ذلك حتى انقرضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وملك السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي، والبريد لا يسد له سرج، ولا تلجم له دابة. ثم إن المهدي أغزى ابنه هرون الرشيد الروم، وأحب أن لا يزال على علم قريب من خبره، فرتب فيما بينه وبين

مُعَسِّكَرَ آيَنِهِ بُرْدًا كَانَتْ تَأْتِيهِ بِأَخْبَارِهِ، وَتُرِيهِ مُتَجَدِّدَاتِ أَيَّامِهِ . فَلَمَّا قَفَلَ الرَّشِيدُ قَطَعَ الْمَهْدِيُّ تِلْكَ الْبُرْدَ ، وَدَامَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا بَاقِي مَدَّتِهِ وَمُدَّةِ خِلَافَةِ مُوسَى الْهَادِي بَعْدَهُ . فَلَمَّا كَانَتْ خِلَافَةُ هُرُونَ الرَّشِيدِ ، ذَكَرَ يَوْمًا حُسْنَ صَنِيعِ أَبِيهِ فِي الْبُرْدِ الَّتِي جَعَلَهَا بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : لَوْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِحْرَاقِ الْبُرِيدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، كَانَ صَلَاحًا لِلْمَلِكِ . فَأَمَرَهُ بِهِ فَقَرَّرَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ ، وَرَتَّبَهُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَجَعَلَ الْبَغَالُ فِي الْمَرَازِكِ ، وَكَانَ لَا يُجَهَّزُ عَلَيْهِ إِلَّا الْخَلِيفَةُ أَوْ صَاحِبُ الْخَبَرِ ، ثُمَّ آسَمَرَ عَلَى هَذَا . فَلَمَّا دَخَلَ الْمَأمُونُ بِلَادَ الرُّومِ وَنَزَلَ عَلَى نَهْرِ الْبِرْدُونِ وَكَانَ الزَّمَانُ حَرًّا ، وَالْفَصْلُ صَيْفًا ، قَعَدَ عَلَى النَّهْرِ وَدَلَّى رِجْلِيهِ فِيهِ وَشَرِبَ مَاءَهُ ، فَاسْتَعْدَبَهُ وَأَسْتَبْرَدَهُ وَأَسْتَطَابَهُ ، وَقَالَ لِمَنْ كَانَ مَعَهُ : مَا أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ؟ ، فَقَالَ كُلُّ رَجُلٍ بِرَأْيِهِ . فَقَالَ هُوَ : أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ رُطْبُ إِزَازَ ، فَقَالُوا لَهُ : يَعْيشُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْتِيَ الْعِرَاقَ وَيَأْكُلُ مِنْ رُطْبِهَا الْإِزَازَ ، فَمَا آسَمْتُمُوا كَلَامَهُمْ حَتَّى أَقْبَلْتُ يَغَالُ الْبُرِيدِ تَحْمِلُ أَلْطَافًا فِيهَا رُطْبُ إِزَازَ ، فَأَتَى الْمَأمُونُ بِهَا فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَمْعَنَ وَشَرِبَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ . فَكَثُرَ تَعْجَبُ الْحَاضِرِينَ مِنْهُ لِسَعَادَتِهِ فِي أَنَّهُ لَمْ يَقُمْ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَمْنِيَّتَهُ ، عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ مِنْ تَعَدُّرِهَا . فَلَمْ يَقُمْ الْمَأمُونُ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى حُمَّ حُمَّى حَادَّةً كَانَتْ فِيهَا مَنِيَّتُهُ .

ثُمَّ قَطَعَ بَنُو بُوَيْهِ الْبُرِيدَ حِينَ عَلَوْا عَلَى الْخِلَافَةِ وَغَلَبُوا عَلَيْهَا ، لِيَخْفَى عَلَى الْخَلِيفَةِ مَا يَكُونُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ أحيانًا قَصْدِهِمْ بَغْدَادَ ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ لَا يَزَالُ يَأْخُذُ بِهِمْ عَلَى بَغْتَةٍ .

ثُمَّ جَاءَتْ مَلُوكُ السَّلَاجِقَةِ عَلَى هَذَا ، وَأَهَمَّ مَلُوكَ الْإِسْلَامِ اخْتِلَافُ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَتَنَازُعُهُمْ ، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ إِلَّا الرُّسُلُ عَلَى الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ ، فِي كُلِّ أَرْضٍ بِحَسَبِهَا .

فلما جاءت الدولة الزنكية أقامت لذلك النجابه ، وأعدت له النجب المتخبة .
 ودام ذلك مدة زمانها ثم زمان بني أيوب إلى انقراض دولتهم . وتبعها على ذلك
 أوائل الدولة التركية ، حتى صار الملك إلى الملة الظاهر بيبرس رحمه الله ، واجتمع له
 ملك مصر والشام وحلب إلى الفرات ، وأراد تجهيز دولته إلى دمشق فعين لها نائباً ،
 ووزيراً ، وقاضياً ، وكاتباً للإنشاء .

قال : وكان عمي الصاحب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله هو كاتب
 الإنشاء ، فلما مثل إليه ليوذعه ، أوصاه وصايا كثيرة ، أكدها مواسلته بالأخبار
 وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج ، وقال له : إن قدرت أن لا تبينني كل ليلة إلا على
 خير [ولا تصبني إلا على خير] فافعل ، فعرض له بما كان عليه البريد في الزمان
 الأول وأيام الخلفاء ، وعرضه عليه فحسن موقعه منه وأمر به . قال عمي : فكننت أنا
 المقرر له قدامه وبين يديه . ثم ذكر أنه لم يزل باقياً على ذلك إلى أيامه . ثم قال :
 وهو جناح الإسلام الذي لا يحص ، وطرف قادمته التي لا تقص .

قلت : ولم يزل البريد بعد ذلك مستقراً بالديار المصرية والممالك الشامية إلى أن
 غشي البلاد الشامية تمرلنك صاحب ما وراء النهر ، وفتح دمشق ونحرها وحرقتها
 في سنة أربع وثمانمائة ، فكان ذلك سبباً لحص جناح البريد وبطلانه من سائر
 الممالك الشامية . ثم سرى هذا السم إلى الديار المصرية فالحقها بالهمل ، ورماها
 بعد الحلي بالعطل ، فذهبت معالم البريد من مصر والشام ، وعفت آثاره ، وصار إذا
 عرض أمر من الأمور السلطانية في بعض نواحي الديار المصرية أو الممالك الشامية ،
 ركب البريد على فرس له ، يسير بها الهوينا سير المسافر إلى المكان الذي يريد ،
 ثم يعود على هذه الصورة ، فيحصل بواسطة ذلك الإبطاء في الذهاب والإياب .

الأمر الثالث

(بيان معالم البريد)

إعلم أنه كان فيما تقدم في زمن الخلفاء للبريد شخصٌ مخصوصٌ يتولى أمره بتنفيذ ما يصدر وتلقى ما يرد، يُعبر عنه بـ «صاحب البريد». ومن تعرّض إلى ذكر ذلك أبو جعفر النحاس في كتابه «صناعة الكتاب» في الكلام على أبواب الوظائف، وأشتقاق أئمتناهم. وقد أشار إليه الجوهري في صحاحه أيضا فقال: ويقال أبرد صاحب البريد إلى الأمير فهو مبردٌ يعني أرسل إليه البريد.

ثم قد تقدم في مقدمة الكتاب في الكلام على صاحب ديوان الإنشاء وماله التحدث عليه - أن صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المتولى لأمر البريد وتنفيذ أموره في الإيراد والإصدار. وكان للبريد ألواحٌ من فضةٍ محلاةٌ بديوان الإنشاء تحت أمر كاتب السرّ بالأبواب السلطانية، منقوشٌ على وجهي اللوح نقشا مزدوجا ما صورته: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وأوكره المشركون». ضرب بالقاهرة المحروسة. وعلى الوجه الآخر ما صورته: «عز مولانا السلطان الملك الفلاني: فلان الدين والدین، سلطان الإسلام والمسلمين، فلان، ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الفلاني فلان، خلد الله ملكه». وفي ذلك اللوح ثقبٌ معلقٌ به شربةٌ من حريير أصفر ذات بندين، يجعلها البريدي في عنقه، بإدخاله رأسه بين البندين، ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه، والشربة خلفه من فوق ثيابه. فإذا نرجح بریدی إلى جهة من الجهات، أعطى لوحًا من تلك الألواح، يُعقّقه في عنقه، على ما تقدم ذكره، ويذهب إلى جهة قصده، فكل من رأى تلك الشربة خلف ظهره علم أنه بریدی. وبواسطة

ذلك تُدْعَى له أربابُ المراكز بتسليم خيل البريد . ولا يزال كذلك حتى يذهب
ويعود ، فيعيد ذلك اللوح إلى ديوان الإنشاء .

وكذلك الحكم في دواوين الإنشاء بدمشق وحلب وغيرها من الممالك الشامية ،
لا يختلف الحكم في ذلك إلا في الكتابة بحلّ ضرب اللوح . فإن كان بدمشق
كتب : «ضرب بالشام» . وإن كان بحلب كتب : «ضرب بحلب المحروسة»
وكذلك باقي الممالك .

الفصل الثاني

من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مراكز البريد

وهي الأماكن التي تقف فيها خيل البريد لتغيير خيل البريدية فيها فرساً بعد
فريس . قال في "التعريف" : وليست على المقدار المقدّر في البريد المحرّر، بل هي
متفاوتة الأبعاد، إذ أبلّات الضرورة إلى ذلك : تارة لبعيد ماء، وتارة للأيس بقريّة،
حتى إنك ترى في [هذه]^(١) المراكز البريد الواحد بقدر بريدين . ولو كانت على
التحرير [الذي عليه الأعمال]^(١) لما كان تفاوت . وقد ذكر منها المقر الشهابي بن
فضل الله رحمه الله في "التعريف" ما أربى في ذلك على المقصود وزاد، وهو بذلك
أدري وأدرب . وهأنا أذكر ما ذكره ، موصحاً لما يحتاج منه إلى التوضيح ، مع
الزيادة عليه وتقريب الترتيب .

ويشتمل على ستة مقاصد :

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٤) .

المقصود الأول

(في مَرَكْرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة بالديار المصرية التي هي قَاعِدَةُ الْمَلِكِ ، وما يتفرع عنه من المَرَاكِرِ ، وما تَنْتَهِي إليه مَرَاكِرُ كُلِّ جِهَةٍ)

إِعلم أن الذي يَتَفَرَّعُ عن مَرَكْرِ الْقَلْعَةِ وَيَتَشَعَّبُ منه أربعُ جِهَاتٍ ، وهي : جِهَةٌ قُوصَ من الوَجْهِ الْقِبْلِيِّ وما يَتَّصِلُ بذلك من أُسْوَانَ وما يليها من بلادِ التُّوبَةِ ، وَعِيدَابَ وما يليها من سِوَا كِن . وَجِهَةٌ الإسْكَندَرِيَّةُ من الوَجْهِ الْبَحْرِيِّ . وَجِهَةٌ دِمِيَاطَ من الوَجْهِ الْبَحْرِيِّ أَيْضًا ، وما يَتَفَرَّعُ عنها من جِهَةٍ غَزَّةَ من البلادِ الشَّامِيَّةِ . فَمَا مَرَاكِرُ قُوصَ وما يليها : فمن مَرَكْرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة ، ومنها إلى مَدِينَةِ الْحِيزَةِ ، وهي قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْحِيزِيَّةِ ، وقد تَقَدَّمَ الكلامُ عليها في الكلامِ على بلادِ الْمَمْلَكَةِ في الْمَقَالَةِ الثَّانِيَّةِ . ثم منها إلى زَاوِيَةِ أُمِّ حُسَيْنٍ ، وهي قَرْيَةٌ من عَمَلِ الْجِيزَةِ . قال في "التعريف" : وَالْمَرَكْرُ الْآنَ بِمُنِيَّةِ الْقَائِدِ وهي على الْقُرْبِ من زَاوِيَةِ أُمِّ حُسَيْنٍ الْمَذْكُورَةِ ، ثم منها إلى وَنَا وهي بَلَدَةٌ من عَمَلِ الْبَهْنَسِيِّ ، ثم منها إلى دَهْرُوطَ وهي بَلَدَةٌ من عَمَلِ الْبَهْنَسِيِّ أَيْضًا . ثم منها إلى أَفْلُوسَنَا ، وهي بَلَدَةٌ من عَمَلِ الْأَشْمُونِيِّينَ . ثم منها إلى مُنِيَّةِ بَنِي حَصِيْبٍ ، وهي مَدِينَةٌ من عَمَلِ الْأَشْمُونِيِّينَ ، وقد تَقَدَّمَ الكلامُ عليها في الْمَقَالَةِ الثَّانِيَّةِ . ثم منها إلى مَدِينَةِ الْأَشْمُونِيِّينَ ، وهي قَاعِدَةُ بِلَادِهَا ، وقد تَقَدَّمَ الكلامُ عليها في الْمَقَالَةِ الثَّانِيَّةِ . ثم منها إلى ذِرْوَةِ سَرْبَامَ وهي بَلَدَةٌ من عَمَلِ الْأَشْمُونِيِّينَ على قَمِ الْخَلِيجِ الْيُوسُفِيِّ الْوَأَصِلُ مِنَ النَّيْلِ إلى الْقَيْوَمِ ، وتعرف بِذِرْوَةِ الشَّرِيفِ ، إِضَافَةً إلى الشَّرِيفِ نَاصِرِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بْنِ تَغَلِبِ الَّذِي كَانَ عَصَى بِهَا في زَمَنِ الظَّاهِرِيِّينَ ، وَتَمَّتْ نَفْسُهُ إلى الْمَلِكِ حَتَّى كَادَهُ الظَّاهِرُ وَقَبِضَ عَلَيْهِ وَشَنَقَهُ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ ، وَبِهَا

(١) في معجم البلدان لباقوت : قَلُوسَنَا .

دِيَارُهُ وَقُصُورُهُ وَالْجَامِعُ الَّذِي أُنشِأَ بِهَا إِلَى الْآنَ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ مَنَفْلُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْمَنَفْلُوطِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَجَلُّ خَاصِّ السُّلْطَانِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ أُسْيُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْأُسْيُوطِيَّةِ ، وَمَقَرُّ نَائِبِ الْوَجْهِ الْقِبْلِيِّ الْآنَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طِمَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ عَمَلِ أُسْيُوطَ الْمَقْدَمَةِ الذَّكَرُ عَلَى ضَفَّةِ النَّيْلِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَرَافِقَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ . قَالَ فِي "التعريف" :
 وَرُبَّمَا سُمِّيَتْ الْمَرَافِقُ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَلْسَبُورَةَ وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ أَيْضًا .
 قَالَ فِي "التعريف" : وَرُبَّمَا قِيلَ بَلْسَبُورَةَ بِإِبْدَالِ السَّيْنِ زَايَاً . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى جَرْجَا ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ الْعَمَلِ الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْبُلَيْنَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ ، وَيُقَالُ فِيهَا الْبُلَيْنَا بِإِبْدَالِ الْهَاءِ أَلْفَاً . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى هَوَا ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ أَيْضًا ، قَالَ فِي "التعريف" : وَيَلِيهَا الْكُومُ الْأَحْمَرُ ، وَهِيَ مِنْ خَاصِّ السُّلْطَانِ ، وَعِنْدَهُمَا يَنْقَطِعُ الرَّيْفُ فِي الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ ، وَيَكُونُ الرَّمْلُ الْمُنْتَصِلُ بِدَنْدَرِيٍّ وَيُسَمَّى خَانَ دَنْدَرِيٍّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَوْفَى فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . وَمِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ قُوصَ قَاعِدَةَ الْأَعْمَالِ الْقُوصِيَّةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ .

ثُمَّ مِنْ قُوصَ تَنْقَطِعُ مَرَاكِرُ الْبَرِيدِ ، وَيَتَشَعَّبُ الطَّرِيقُ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ وَبِلَادِ النُّوبَةِ ، وَجِهَةِ عَيْدَابَ وَسَوَاكِنَ .

فَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ رَكِبَ الْمُهْجَنَ مِنْ قُوصَ إِلَى أُسْوَانَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ النُّوبَةِ .

وَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى عَيْدَابَ سَارَ مِنْ قُوصَ إِلَى كِيَانَ فِقَطَّ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ قُوصَ .

قُلْتُ : ثُمَّ يَسِيرُ فِي قَفَارٍ وَجِبَالٍ ، مِنْ كِيَانَ فِقَطَّ إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى لِبَطَّةَ عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنْ الْكِيَانَ ، بِهِ عَيْنٌ تُتَّبَعُ وَليست جارية ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى الْبَرِيحَ عَلَى الْقُرْبِ

من معدن الزمرّد ، به صين صغيرة يُسْتَقَى منها من الماء ما شاء الله ، وهي لا تزيد ولا تنقص . ثم منها إلى حميثة حيث قبر سيدي أبي الحسن الشاذلي ، وهناك عين ماء يُسْتَقَى منها . ثم منها إلى عيذاب ، وهي قرية صغيرة على ضفة بحر القلزم في الشمال إلى الغرب ، وعلى القرب منها عين يُسْتَقَى منها .

وتقدير جميع المسافة من الكيمان إلى عيذاب نحو عشرة أيام بسير الأتقال . على أنه في "مسالك الأبصار" قد ذكر أن الطريق إلى عيذاب من شعبة على القرب من أسوان ، ثم يسير منها في بلاد عرب يُسمون بني عامر إلى سواكن ، وهي قرية حاضرة البحر صاحبها من العرب ، وكتب السلطان تنهى إليه ، على ما تقدم ذكره في الكلام على المكاتب .



وأما الإسكندرية فالمرآة الموصلة بها في طريقين :

الطريق الأولى : الآخذة على الجبل الغربي ويسمى طريق الحاجر . والمسير فيها من مركز القلعة المقدم ذكره إلى مدينة الجيزة . ثم منها إلى جزيرة القط ، وهي قرية من آخر عمل الجيزة من الجهة البحرية . ثم منها إلى وردان ، وهي قرية من عمل البحيرة . (ثم منها إلى الطرائف^(١)) . ثم منها إلى طيلاس وهي بلدة من عمل البحيرة أيضا وتعرف بزواية مبارك . قال في "التعريف" : وأهل تلك البلاد يقولون : أنبارك . ثم منها إلى مدينة دمنهور وتعرف بدمنهور الوحش ، وهي قاعدة أعمال البحيرة ، ومحل مقام نائب السلطنة بالوجه البحري ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى لوفين وهي قرية من عمل البحيرة . ثم منها إلى الإسكندرية .

الطريق الثانية : الآخذة في وسط العمران ، وتعرف بالوسطى .

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٩) .

وهي من مركز القلعة إلى مدينة قَلْبُوب قاعدة الأعمال القَلْبُوبِيَّة ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة مَنُوف العُلْيَا ، وهي قاعدة الأعمال المَنُوفِيَّة ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة المَحَلَّة المعروفة بِالْمَحَلَّة الكُبْرَى ، وهي قاعدة الأعمال الغَرَبِيَّة ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . وقد وهم في " التعريف " فسموها مَحَلَّة المَرْحُوم بلدة من بلاد الغَرَبِيَّة غيرها . ثم منها إلى النَحْرِيَّة ، وهي مدينة من عمل الغَرَبِيَّة . ثم منها إلى الإسكَنْدَرِيَّة .



وأما الطريق إلى دِمِيَاط و غَزَّة ، فن مركز القلعة إلى سِرْيَاقُوس ، وهي بلدة من صَوَاحِي القاهرة ، وليس المَرْكَز في نَفْسِ البَلَد ، بل بالقَرْيَة المُسْتَجَدَّة بِجَوَارِ الخَلْقَاء النَّاصِرِيَّة التي أنشأها السلطان المَلِك النَّاصِرُ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ على القُرْب من سِرْيَاقُوس . قال في " التعريف " : وكان قبل هذا بالعُش ، وكان طويل المَدَى في مكان مُنْقَطِع ، وكانت البَرِيدِيَّة لا تَزَال تُتَشَكَّى منه ، فَصَلَحَ بِنَقْلِهِ ، وَحَصَلَ بِهِ الرِّفْقُ لِأُمُورِ لَوْلَمْ يَكُنْ مِنْهَا إِلَّا قُرْبُهُ مِنَ الْأَسْوَاقِ المِجَاوِرَةِ لِخَلْقَاءِ النَّاصِرِيَّةِ وَمَا يَوْجَدُ فِيهَا ، وَأُنْسُهُ بِمَا حَوْلَهَا [لكفى] . ثم منها إلى بَثْرَ البَيْضَاء ، وهي مَرْكَزُ بَرِيدٍ مُنْفَرَدٍ لَيْسَ حَوْلَهُ سَاكِنُونَ . ثم منها إلى مدينة بَلْبَيْس قاعدة الأعمال الشَّرْقِيَّة ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . قال في " التعريف " : وهي آخر المراكز السُلْطَانِيَّة ، وهي التي تُسْتَرَى خِيَلُهَا مِنَ الْأَمْوَالِ السُلْطَانِيَّةِ وَيُقَامُ لَهَا السُّوَأْسُ وَتَصْرَفُ لَهَا الْعُلُوفَاتُ . ثم منها إلى السَّعِيدِيَّة . ثم من السَّعِيدِيَّةِ إِلَى أَثْمُومِ الرُّمَّانِ قَاعِدَةَ بِلَادِ الدَّقْهَلِيَّةِ وَالْمُرْتَاخِيَّةِ ، وقد تقدم ذكرها في المقالة الثانية . ومنها إلى دِمِيَاط وَمَنْ أَرَادَ غَزَّةَ . وقد تقدم أن مَدِينَةَ بَلْبَيْسِ هِيَ آخِرُ الْمَرَكَزِ السُلْطَانِيَّةِ . ثم السَّعِيدِيَّةِ وَمَا بَعْدَهَا

إلى الخروبة تُعرف بالشهارة، خَيْلُ البريد بها مقررةٌ على عُربانِ ذَوِي إقطاعاتٍ، عليهم خِيُولٌ مُوظَّفةٌ يَحْضُرُ بها أربابُها عند هلالِ كلِّ شهرٍ إلى المراكز، وتَسْتَعِيدُها في آخرِ الشهرِ ويأتي غيرها، ومن هناك سُمِّيتِ الشَّهارةُ . قال في "التعريف" :
وعليهم وآل من قِبَلِ السُّلْطَانِ يَسْتَعْرِضُ في رَأْسِ كلِّ شهرٍ خَيْلَ أصحابِ النَّوْبَةِ ويُدَوِّغُها بالدَّاعِجِ السلْطَانِي . قال : وما دامت تستجدُّ فهي قائمة ، ومتى آكثرتُ أهلُ نوبةٍ من قبلهم فَسَدَّتِ المراكزُ، لأنَّ الشهرَ لا يَهْلُ وفي خَيْلِ المُنْسلِخِ قُوَّةٌ، لا سِيَّما والعربُ قَلِيلَةٌ العَلْفِ .

وأوَّلُ هذه المَرَاكِزِ السَّعِيدِيَّةُ المُقَدَّمُ ذِكْرُها ، ثم منها إلى الخَطَّارةُ، ثم منها إلى قَبْرِ الوابلي . قال في "التعريف" : وقد اسْتَجِدَّ به أبنيةٌ وأسواقٌ وبساتينٌ حتَّى صار كأنه قَرْيَةٌ . ثم منها إلى الصَّالِحِيَّةِ ، وهي قَرْيَةٌ لَطِيفَةٌ . قال في "التعريف" : وهي آخرُ مَعْمُورِ الدِيَارِ المِصْرِيَّةِ ، ثم منها إلى بئرِ عَفْرَى ، وإلى هذا المَرْكَزِ يَجْلِبُ المَاءُ من بئرِ وِراءِها . ومنها إلى القُصَيْرِ . قال في "التعريف" : وقد كان كَرِيمُ الدِّينِ وَيَكُلُّ الخِصَّاصِ بَنَى بها خانًا ومَسْجِدًا ومِثْدَنَةً ، وعَمِلَ ساقِيَةً ، فَتَهَدَّمَ ذلك كُلُّهُ ، ولم يوجد له من يُمَدِّدُهُ ، وبَقِيَتِ المِثْدَنَةُ خَاصَّةً ، ورُتِّبَ بها زَيْتٌ لِلتَّنْوِيرِ . قال : وهذا القُصَيْرُ يَقَارِبُ المَرْكَزَ القَدِيمَ المَعْرُوفَ بِالْعَاقُولَةِ المُقَارِبَ لِقَنْطَرَةِ الجَمْرِ الجَارِي تَحْتَهَا فَوَاضِلُ ماءِ النِيلِ أَوَّانَ زِيادَتِهِ إذا نَحَرَجَ إلى الرَّمْلِ . ثم منها إلى حَبُوبَةٍ . قال في "التعريف" : وليس بها ماءٌ ولا بِنَاءٌ ، وإنما هي مَوْقِفٌ يَقِفُ به خَيْلُ العَرَبِ الشَّهَارَةَ ، وَيُجْلِبُ المَاءَ إليها من بئرِ وِراءِها . ثم منها إلى الغرابي . ثم منها إلى قَطِيَا ، وهي قَرْيَةٌ صَغِيرَةٌ بها تُؤْخَذُ المُرْتَبَاتُ السُّلْطَانِيَّةُ مِنَ التُّجَّارِ الوَارِدِينَ إلى مِصْرَ وَالصَّادِرِينَ عَنِهَا ،

(١) الذي في التعريف : بئر غزى، أنظر ص (١٩٠) .

وهناك رَمْلٌ بالطريق يُخْتَمُ في الليل ويُحْفَظُ ما حوله بالعُرْبَانِ ، حتى لا يَمُرَّ أَحَدٌ لَيْلًا . فيكونُ من القاهرة إلى قَطِيَا اثْنَا عَشَرَ بَرِيدًا . ثم منها إلى صَيِّحَةَ نَحْلَةَ مَعْن . قال في " التعريف " : ومن الناس من يَقْتَصِرُ على إحدى هذه الكلمات في تَسْمِيَتِهَا . ثم منها إلى الْمُطَيِّبِ ، ثم منها إلى السَّوَادَةِ . قال في " التعريف " : وقد حَوَّلَتْ عن مكانها فصار المُسَافِرُ لا يَحْتَاجُ إلى تَعْرِيجٍ إليها . ثم منها إلى الوَرَادَةِ ، قال في " التعريف " : وهي قريةٌ صَغِيرَةٌ بها مَسْجِدٌ على قَارِعَةِ الطريق ، بناه المَلِكُ الأشرفُ « خَلِيل » بن المنصور قَلَاوُونَ نَعْمَدَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ ، حَصَلَ بِهِ الرَّفْقُ بِمِيَتِ السَّفَارَةِ بِهِ . قال : وقد كان نَحْرُ الدِّينِ كَاتِبُ المَالِيكِ بَنِيَّ إلى جَانِبِهِ خَانًا فَبِيعَ بَعْدَهُ . ثم منها إلى بَيْتِ القَاضِي . قال في " التعريف " : والمدى بينهما بَعِيدٌ جِدًا يَمَلُهُ السَّالِكُ . ومنها إلى العَرِيشِ . قال في " التعريف " : وقد أَحْسَنَ كَرِيمُ الدِّينِ رَحِمَهُ اللهُ بِعَمَلِ سَاقِيَةِ سَبِيلِ بِهِ وَبِنَاءِ خَانَ حَصِينٍ فِيهِ يَأْوِي إِلَيْهِ مِنْ أَلْجَاءِ المَسَاءِ ، وَيَنَامُ فِيهِ آمِنًا مِنْ طَوَارِقِ التَّرَجِجِ . ثم منها إلى الخُرُوبَةِ ، وبها سَاقِيَةٌ وَخَانٌ ، بِنَاهُمَا نَحْرُ الدِّينِ كَاتِبُ المَالِيكِ ، حَصَلَ بِهِ مِنَ الرَّفْقِ وَالْأَمْنِ مَا بِالْعَرِيشِ . قال في " التعريف " : وهذا آخر مراكز العَرَبِ الشَّهَارَةِ . ثم مما يليها خَيْلُ السُّلْطَانِ دَوَاتُ الإِصْطِبَالِ وَالخَدَمُ تُشْتَرَى بِمَالِ السُّلْطَانِ وَتُغْلَفُ مِنْهُ ، وَأَوَّلُهَا الرُّعْقَةُ ، ثم منها إلى رَفْعٍ ، ثم منها إلى السَّلْقَةِ . قال في " التعريف " : وكان قبل هذا المَرْكُزِ بَيْتُ طَرَنْطَايَ حَيْثُ الجُمُيزُ وَيُسَمَّى سَطْرًا . قال : وكان في تَقْلِهِ إلى السَّلْقَةِ المِصْلَحَةُ . ثم منها إلى الدَّارُومِ ، ثم منها إلى غَزَّةَ . يكون من قَطِيَا إلى غَزَّةَ أَحَدَ عَشَرَ مَرَّةً كَرًّا .

المقصد الثاني

(في مَرَاكِرِ غَزَّةَ وما يَتَفَرَّعُ عنه من البلاد الشامية)

والذي يَتَفَرَّعُ عنه مَرَاكِرُ ثَلَاثِ جِهَاتٍ، وهى : الكَرَكُ، وِدِمَشْقُ، وِصَفْدُ .

فأما الطريق إلى الكَرَكِ : فمن غَزَّةَ إلى ملاقس وهو مَرَكْرُ بَرِيدٍ، ثم منها إلى بَلَدِ انْطَلِيلِ عليه السلام، ثم منها إلى جنبا، ثم منها إلى الصَّافِيَّةِ، ثم منها إلى الكَرَكِ .

وأما مَرَاكِرُ دِمَشْقِ : فمن غَزَّةَ إلى الحَيْنِينَ، وهو مَرَكْرُ بَرِيدٍ، ومنها إلى بَيْتِ دَارِسِ، والنَّاسُ يَقُولُونَ : تَدَارِسُ، وبها خَانُ بَنَاهُ نَاصِرُ الدِّينِ خَزَنْدَارِ تَنَكْرُ . قال في "التعريف" : وكان قديمًا بياسور، وكان قَرِيبَ المَدِينِ فَنُقِلَ وَكَانَتِ المَصْلَحَةُ فِي قَلْبِهِ، ثم منها إلى قَطْرَى . قال في "التعريف" : وهو مَرَكْرُ مُسْتَجِدٍّ كَانَ المُشِيرُ بِهِ طَاجِرُ الدُّوَادَارِ النَّاصِرَى، وَبِهِ بَيْتٌ سَيِّدٌ وَأَثَرٌ لَهُ . قال : وقد حصل به رِفْقٌ عَظِيمٌ لِبَعْدِ مَا بَيْنَ [لُدٍّ وَبَيْتِ دَارِسِ] ^(١) أَوْ يَاسُورَ، ثم منها إلى لُدٍّ، ثم منها إلى العَوْجَاءِ . قال في "التعريف" : وهى زُورَاءُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَلَوْ نُقِلَتْ مِنْهُ لَكَانَ أَرْفَقَ، ثم منها إلى الطَّيْرَةِ . قال في "التعريف" : وبها خَانٌ كَانَ قَدْ شَرَعَ فِي بِنَائِهِ نَاصِرُ الدِّينِ دُوَادَارِ تَنَكْرُ ثُمَّ كَلَّ بِبَيْدٍ غَيْرِهِ . ثم منها إلى قَاقُونَ، ثم منها إلى حَمَّةِ [ثم منها إلى جِينِينَ] ^(١) . قال في "التعريف" : وهى على صَفْدِ، يعنى القِيَامِ بِهِ، وَبِهِ خَانٌ لَطَاجَارِ الدُّوَادَارِ، حَسَنُ البِنَاءِ جَلِيلُ النِّفْعِ، لَيْسَ عَلَى الطَّرِيقِ أَحْصَسُ مِنْهُ وَلَا أَحْصَنُ، وَلَا أَزِيدُ نَفْعًا مِنْهُ وَلَا أَزِينُ .

(١) بياض بأصله والتصحيح من التعريف (ص ١٩١) .

ومن أراد دِمَشْقَ وما يليها سَارَ من جِينِينَ إلى ذَرَعِينَ . قال في "التعريف" :
 ومنها ينزل على عَيْنِ جَالُوتَ ، وهو مَرْكَزُ مُسْتَجِدِّ حِصَلِ به أعظم الرِّفْقِ والرَّاحَةِ من
 العَقَبَةِ التي كان [يُسَلِّكُ] ^(١) عليها بين جِينِينَ وبيَّسَانَ مع طُولِ المَدَى . ثم منها إلى
 بيَّسَانَ ، ثم منها إلى المَجَامِعِ . قال في "التعريف" : وهو مَرْكَزُ مُسْتَجِدِّ عِنْدَ جَمِيرِ
 سَامَةَ ، كُنْتُ أنا المَشِيرَ به في سنة إحدى وأربعين وسبعائة ، وحَصَلَ به الرِّفْقُ لُبْعِدِ
 ما كان بين بيَّسَانَ وزحر . قال : وقد كان الطريقُ قَدِيمًا من بيَّسَانَ على طَبِيبَةِ آسَمِ ،
 ثم إلى أَرَبَدَ ، وكانت غَايَةً في المَشَقَّةِ ، إذ كان المسافرُ ما بين بيَّسَانَ وطَبِيبَةِ آسَمِ يحتاجُ
 إلى خَوْضِ الشَّرِيبَةِ ، وبها معدية للفَارِسِ دون الفَرَسِ ، وإنما يعبرُ فيها الفَرَسُ
 سِبَاحَةً ، وكان في هذا من المَشَقَّةِ ما لا يوصف ، لا سِمْيًا أيامَ زيادةِ الشَّرِيبَةِ وكَلْبِ
 البَرْدِ : لَقَطْعِ المَاءِ ومُعَانَاةِ العِقَابِ التي لا يَشُقُّهَا جَنَاحُ العُقَابِ . ولكن الأمير
 الطنبغا كَافِلُ الشَّامِ رحمه الله تَقَلَّ هذه الطَّرِيقَ وجَعَلَهَا على القُصَيْرِ حيثُ هي اليومَ ،
 ونَقَلَ المَرْكَزَ من الطَّبِيبَةِ إلى زحر حين غَرِقَ بعضُ البَرِيدِيَّةِ الجَلِيلِيْنَ بالشَّرِيبَةِ . ثم من
 المَجَامِعِ المذكورة إلى زحر ، ثم منها إلى أَرَبَدَ ، ثم منها إلى طَفَسِ ، ثم منها إلى الجامعِ .
 قال في "التعريف" : وكان قَدِيمًا في المكانِ المسمَّى برَأْسِ المَاءِ ، فلما مَلَكَه الأميرُ
 الكبيرُ تَنَكَّرَ كَافِلُ الشَّامِ رحمه الله تَقَلَّ المَرْكَزَ منه إلى هذا الجامعِ ، فَقَرَّبَ به المَدَى
 فيما بينه وبين طَفَسِ ، وكان بَعِيدًا فما جاء إلا حَسَنًا . ثم منها إلى الصَّنَمِيْنَ ، ثم منها
 إلى غَبَاغِبِ ، ثم منها إلى الكُسُوءِ ، ثم منها إلى دِمَشْقَ المحروسةِ .

وأما الطريقُ المَوْصَلَةَ إلى صَفَدَ : فمن جِينِينَ المَقْدَمِ ذِكْرُهَا إلى تَبِينِ ، ثم منها
 إلى [حِطَّيْنِ] ^(١) وبها قبر شُعَيْبٍ عليه السلام ، ثم منها إلى صَفَدَ .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٩٢) .

المقصود الثالث

(في ذكر مركز دِمَشْقَ وما يتفرعُ عنه من المراكز الموصلة
إلى حمص وحمّاة وحلب، وإلى الرّحبة، وإلى طرَابُلُس، وإلى جَعْبَر، ومِصْيَاف
ويروت وصيدا وبعْلَبَك والكرك وأذِرْعَات)

أما طريق حلب : فقال في " التعريف " : من دِمَشْقَ إلى القُصَيْرِ . والذي
رأيتُه في بعض الدساتير أنه من دِمَشْقَ إلى خَانِ لَاجِينِ ، ثم إلى القُصَيْرِ . قال
في " التعريف " : ثم من القُصَيْرِ إلى القَطِيفَةِ ، ثم منها إلى القَسْطَلِ . ورأيتُ
في الدُسْتُور المذكور أن من القُصَيْرِ إلى خَانِ الوَالِي ، ثم إلى خَانِ العُرُوسِ ، ثم إلى
القَسْطَلِ ، ثم منها إلى قَارَا ، ثم منها إلى بَرِيحِ العَطَشِ ويقال فيه البريخ أيضا .
قال في " التعريف " : وقد كان مَقْطَعِ طَرِيقِي ، ومَوْضِعِ خَوْفٍ ، فَبَنَيْتُ به قَاضِي
القُضَاةِ نَجْمُ الدِّينِ أَبُو العَبَّاسِ أَحْمَدُ بنِ صَصْرِي رحمه الله مَسْجِدًا وَبِرُكَّةً ، وَأَجْرَى
المَاءَ إلى البرُكَّةِ مِنْ مَلِكٍ كَانَ له هُنَاكَ وَفَقَهَ على هَذَا السَّبِيلِ ، فَبَدَّلَ الخَوْفَ أَمْنًا ،
وَالوَحْشَةَ أَمْنًا ، أَنَابَهُ اللهُ على ذَلِكَ . ثم منها إلى الغَسُولَةِ ، ثم منها إلى شِمْنِينِ ،
ثم منها إلى حِمَصَ ، ثم منها إلى الرُّسْتَنِ ، ثم منها إلى حَمَاةَ ، ثم منها إلى لَطِيمِينِ ،
ثم منها إلى طَرَابُلُسَ ، ثم منها إلى المَعْرَةَ ، ثم منها إلى أَقْرَانَا ، ثم منها إلى إِيَادِ ، ثم منها
إلى قَنَسِيرِينَ ، ثم منها إلى حَلَبِ .

وأما طريق الرّحبة : فمن القَطِيفَةِ المَقْدَمَةِ الذِّكْرِي إلى العَطْنَةِ . قال في " التعريف " :
وليس بها مَرْكَزٌ ، وَإِنَّمَا بها خَانٌ تُفَرَّقُ به صَدَقَةٌ مِنَ الخُبْزِ وَالْأَخِذِيَّةِ وَنَعَالِ الدَّوَابِّ
إلى جُلَيْجَلِ ، ثم منها إلى المَصْنَعِ ، ثم منها إلى القَرِيَّتَيْنِ ، ثم منها إلى الحَسِيرِ ، ثم منها
إلى البَيْضَاءِ ، ثم منها إلى تَدْمُرَ ، ثم منها إلى أَرْكِ ، ثم منها إلى السُّخْنَةِ ، ثم منها إلى

قُبَاقِبَ، ثم منها إلى كَوَائِلَ . قال في "التعريف" : وهو اليوم عُطْل . ثم منها إلى الرُّحْبَة وهي حَدُّ هذه المملكة .

وأما طريق طَرَابُلُسَ : فمن العَسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْر [إلى القصب ، ثم منها إلى قَدَس] إلى أَمَّارَ، ثم منها إلى الشُّعْرَاءِ، ثم منها إلى عَرَفَا، ثم منها إلى طَرَابُلُسَ .

وأما طريق جَعْبَرِ وَمَا يَلِيهَا : فمن حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْر إلى سَامِيَةَ ، ثم منها إلى بُغْيَدِيدَ، ثم منها إلى سُورِيَا، ثم منها إلى الحِصَّ، ثم منها إلى جَعْبَرِ، إلى عَيْنِ بَدَالِ، ثم منها إلى صَهْلَانَ، ثم منها إلى الخَابُورِ، ثم منها إلى رَأْسِ عَيْنِ .

وأما طريق مِصْيَافَ : فمن حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْر إلى مِصْيَافَ .

وأما طريق صَفَدَ : فمن دِمَشْقَ إلى بَرِيحِ الفلوسِ، ومنه إلى أَرْيَبَةَ، ومنها إلى لغران، ومنها إلى صَفَدَ .

وأما طريق بِيروَتَ : فمن دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسَلُونَ، ومنها إلى زُبْدَانَ، ومنها إلى الحِصَيْنِ، ومنها إلى بِيروَتَ .

وأما طريق صَيْدَاءَ : فمن دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسَلُونَ المُقَدِّمِ الذِّكْرَ، إلى جَزِيرَةَ صَيْدَاءَ، إلى كَرَكِ نُوحَ، ثم منه إلى بَعْلَبَكَّ . قال في "التعريف" : وأهلم أن من صَيْدَاءَ إلى بِيروَتَ قَدْرُ مَرَكْرَ .

وأما بَعْلَبَكَّ، فلها طريقان : إحداهما من خَانَ مِيسَلُونَ المُقَدِّمِ الذِّكْرِ إلى كَرَكِ نُوحَ إلى بَعْلَبَكَّ . والثانية من دِمَشْقَ إلى الزُّبْدَانِيِّ إلى بَعْلَبَكَّ .

ومن أراد من بَعْلَبَكَّ حِمَصَ، توجَّه منها إلى القَصَبِ، ثم إلى العَسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرَ، وبعدها شَمْسِينَ، ثم حِمَصُ عَلِيٍّ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

وأما طريق الكرك : فمن دمشق - والمرآكر المذكورة في الوُصول من غزوة إلى دمشق - على عكس ما تقدم ، إلى طفس ، ومنها إلى القنية ، ومنها إلى البرج الأبيض ، ومنها إلى حُسبان ، ومنها إلى [ديباج ^(١)] ومنها إلى [اكرية ^(١)] ومنها إلى الكرك .

وأما طريق أذربعات ، مقرّ ولاية الولاية بالصَّفقة القبليّة : فمن طفس المقدمة الذّكر إلى أذربعات . قال في " التعريف " : فهذه جملة مرآكر دمشق إلى كل جهة .

قال : فأما مقدار الولايات ، فمن كلّ واحدة إلى ما يليها ، حتى يتوصّل المسافر على البريد إلى حيثُ أراد .

المقصد الرابع

(في مركز حلب وما يتفرع عنه من المراكز الواصلة إلى البيرة وبهسني وما يليهما ، وقلعة المسلمين المعروفة بقلعة الروم ، وآياس مدينة الفتوحات الجاهانية ، وجعبر)

فأما الطريق الموصّلة إلى البيرة : فمن حلب إلى الباب ، ثم منها إلى السّاجور ، ثم منها إلى كلناس ^(٢) ، ثم منها إلى البيرة ، وهي في البرّ الشرقيّ من الفرات . قال في " التعريف " : وهي أجلّ ثغورها ^(٣) .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من التعريف (ص ١٩٤) .

(٢) لم يذكرها التعريف .

(٣) عبارة التعريف : « والبيرة أجلّ قلاع الاسلام ، وعقائل المعامل التي لم تفتزع على طول الأيام » فلعل ما هنا رواية عن نسخة أخرى وقعت بيد المؤلف (انظر ص ١٩٣) .

(١) وأما طريق بهسني وما يليها : فمن حلب إلى السموقة، ثم منها إلى سندرا،
[ثم منها إلى بيت الفار^(٢)] ثم منها إلى عيئاب ، ثم منها إلى بهسني .

ثم منها يُدخَلُ إلى جهة قيسارية والبلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وهي بلاد
الدروب . قال في "التعريف" : وقد استَضَفْنَا نَحْنُ (يعني أهل هذه المملكة)
في هذا الحير القريب إلينا منها : قيسارية ودرندة ، وإنما المستقر المعروف أنَّ
آخر حد الممالك الإسلامية من هذه الجهة - بهسني .

وأما طريق قلعة المسامين وما يليها : فمن عيئاب المقدمة المذكور إليها ، وهي وسط
الفرات ، وهو خُلجان دائرة عليها . ثم من قلعة المسامين إلى جسر الحجر ، ثم إلى
الكحنا ، وهي آخر الحد من الطرف الآخر .

وأما طريق آياس : فمن حلب إلى أرحاب ، ثم منها إلى تيزين ، ثم منها إلى يفرأ ،
ثم منها إلى بغراس ، قال في "التعريف" : وهي كانت آخر الحد مما يلي بلاد
الأرمن . قال : وقد استَضَفْنَا نَحْنُ في هذا الحين ما استَضَفْنَا ، فصار من بغراس
إلى باياتش ، وهي أول جيل الأرمن ، ثم من باياتش إلى آياس .

وأما طريق جعبر : فمن حلب إلى الجبول ، ثم منها إلى بلس ، ثم منها إلى جعبر .
قال في "التعريف" : هذه جملة مراكز حلب . أما بقايا القلاع ومقار الولايات ،
فمن شعب هذه الطرق ، أو من واحدة إلى أخرى .

(١) في التعريف سندرا .

(٢) الزيادة من التعريف (ص ١٩٥) .

المقصد الخامس

(في مركز طرابلس وما يتفرع عنه من المراكز الموصلة إلى جهاتها)

فأما طريق اللاذقية : فمن طرابلس إلى مرقية ، ثم منها إلى يلينياس ، ثم منها إلى اللاذقية ، ثم منها إلى صهيون ، وهي قلعة جليلة كانت دار ملك . ثم منها إلى بلاطنس . قال في "التعريف" : ومن شاء فمن صهيون إلى برزويه ، وهو حصن سمي باسم من عمره أو عرف بملكه ، ومن شاء فمن بلاطنس إلى العليقة أول قلاع الدعوة مما يلي بلاطنس ، ثم منها إلى الكهف ، ثم منها إلى القدموس ، ثم منها إلى الخوابي ، ثم منها إلى الرصافة ، ثم منها إلى مصياف . قال في "التعريف" : فهذه جملة مراكز طرابلس . فأما مقار الولايات فمن واحدة إلى أخرى ، ثم ذكر جميع مراكز البريد بالممالك المحروسة .

قال : فأما من أطراف ممالكا إلى حضرة الأردن ، حيث هو ملك بني هولاكو ، فلهم مراكز تسمى خيل الأولاق وخيل الياق يحمل عليها ، لا تشتري بمال السلطان ولا يكلف ثمنها ، وإنما هي على أهل تلك الأرض ، نحو مراكز العرب في رمل مصر ونحو ذلك .

المقصد السادس

(في معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة المشرفة والمدينة النبوية على ساكنها)

سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام ، إذ كانت من

تمة الطرق الموصلة إلى بعض أقطار المملكة

وكما ضيقت تلك بالمراكز فقد ضيقت هذه بالمراحل . وعادة الحجاج أنهم يقطعون في كل يوم وليلة منها مرحلتين بسير الأثقال ، ودبيب الأقدام ، [ويقطعونها

كلها] في شهر، بما فيه من أيام الإقامة بالعقبة والينبع نحو ستة أيام . أما من يسافر على التَّجِبِّ مُحْفًا مع الحِدِّ في السَّير فإنه يَقْطَعُهَا في نحو أحد عشر .

ثم أول مَصِيرِهِم من القاهرة إلى البركة المعروفة بِرِكَّةِ الْحَاجِّ ، ثم منها إلى البُوَيْبِ ، ثم منها إلى الطَّلِيحَاتِ ، ثم منها إلى المنفرح ، ثم منها إلى مرا كع موسى ، ثم منها إلى عجروذ ، وبها بئر ومَصْنَعُ ماءٍ مُتَّسِعٌ يَمْلَأُ مِنْهَا . ثم منها إلى المنصرف ، ثم منها إلى وادي القَبَابِ ، وهو كثير الرَّمْلِ . ثم منها إلى أول تِيهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وهو وادٍ أَفْحَحٌ مُتَّسِعٌ . ثم منها إلى العُنُقِ ، ثم منها إلى نِيْلٍ ، وبها ماء طَيِّبٌ . ثم منها إلى جَسَدِ الْحَيِّ ، ثم منها إلى بئر بيدرا ، ثم منها إلى تمد الحصا ، ثم منها إلى ظَهْرِ الْعَقْبَةِ ، ثم منها إلى سَطْحِ الْعَقْبَةِ ، وهو عُرْقُوبُ الْبَغْلَةِ على جانب طَرْفِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ ، وفيها ماء طَيِّبٌ من حَفَائِرِ . ثم منها إلى حَفْنِ على جانب طَرْفِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ ، وفيها ماء طَيِّبٌ من الحفائر . ثم منها إلى عَشِّ الْغُرَابِ ، ثم منها إلى آخر الشرفة ، ثم منها إلى مَغَارَةِ شُعَيْبِ ، وبها ماءٌ ومَصْنَعٌ . ثم منها إلى وادي عَفَّانِ ، ثم منها إلى ذَاتِ الرَّحِيمِ ، ثم منها إلى عِيُونِ الْقَصَبِ ، وبه ماءٌ نَابِعٌ وَأَجْمَةٌ قَصَبِ نَابِتَةٌ فِيهَا . ثم منها إلى المَوِيلِحَةِ ، وبها ماءٌ في آبار . ثم منها إلى المُدْرَجِ ، ثم منها إلى سَمَى مُجَاوِرِ بَحْرِ الْقُلْزُمِ ، وبها ماءٌ مَلْحٌ . ثم منها إلى الأثيلات ، ثم منها إلى الأَزْمِ ، والناس يقولون : الأَزْمُ بِاللَّامِ بَدَلِ النُّونِ ، وبه آبارُهَا ماءٌ رَدِيءٌ يُطْلِقُ بَطْنَ مَنْ شَرِبَهُ ، لا يَسْقِي مِنْهُ غَالِبًا إِلَّا الْجَمَّالُ ، وَهِيَ نِصْفُ الطَّرِيقِ . ثم منها إلى رَأْسِ وَادِي عَنْتَرِ . ثم منها إلى الْوَجْهِ ، وبه آبارٌ قَلِيلَةُ الْمَاءِ ، وما هو داخل الْوَادِي يَعْزُّ الْمَاءَ فِيهِ غَالِبًا وَلَا يُوجَدُ فِيهِ إِلَّا حَفَائِرُ ، وَيَقَالُ : إِنَّهُ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ عَلَيْهِ نَضَبَ مَأْوَهُ ، وفيه يقول بعض من حجَّ من الشعراء وعزَّ عليه وَجُودُ الْمَاءِ فِيهِ :

إِذَا قَلَّ مَاءُ الْوَجْهِ ، قَلَّ حَيَاؤُهُ ، وَلَا خَيْرَ فِي "وَجْهِ" بغير حَيَاءِ !

ثم منه إلى المحاطب ، ثم منها إلى أكر ، ثم منها إلى رأس القاع الصغير ، ثم منه إلى قبر القروي ، ثم منه إلى كلخا ، ثم منها إلى آجر القاع الصغير ، ثم منه إلى الحوراء ، وبها ماء غير صالح . ثم منها إلى العقيق بضم العين تصغير عقيق بفتحها ، وهو مضيق صعب . ثم منها إلى مغارة نبط ، وبها ماء عذب ليس بطريق الحجاز أطيب منه . ثم منها إلى وادي النور ، ثم منها إلى قبر أحمد الأعرج الدليل ، ثم منها إلى آجر وادي النور ، ثم منه إلى رأس السبع وعمرات ، ثم منها إلى دار البقر ، ثم منها إلى الينبع ، وهي النصف والرابع من الطريق ، وبها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها ، وبها يودع الحجاج ما ثقل عليهم إلى حين العود ، ويستميرون منها مما يصل إليها من الديار المصرية في سفن بحر القلزم . ثم منها إلى المحاطب في الوعر . ثم منها إلى رأس وادي بدر ، وهي منزلة حسنة بها عيون تجري وحدائق . ثم منها إلى رأس قاع البروة ، ثم منه إلى وسط قاع البروة ، ثم منه إلى رابع ، وهو مقابل الجحفة التي هي ميقات الإحرام لأهل مصر ، وبها يحرم الحج ولا يقشون الجحفة ، إذ قد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بنقل حمى المدينة إليها بقوله : « وأتقل حمأها إلى الجحفة » فلو مر بها طائر لحم . ثم منها إلى قديد بضم القاف . ثم منه إلى عقبة السويق ، ثم منها إلى خليص ، وبه مصنع ماء . ثم منها إلى عسفان ، ثم منها إلى مدرج علي ، وهو كثير الوعر . ثم منه إلى بطن مر ، والعامية يقولون : مرو ، بزيادة واو ، وبه عيون تجري وحدائق . ثم منه إلى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وعظمتها ، ثم من مكة إلى منى ، وبها ماء طيب من آبار محفر ، ثم منها إلى المشعر الحرام والمزدلفة ، ثم منها إلى عرفة وهي الموقف ، وإليها ينتهي سفر الحجاج .

ثم العود في المنازل المتقدمة الذكر إلى وادي بدر على عكس ما تقدم .

الطريق إلى المدينة النبوية

(على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)

من مِصْرَ فِي الْمَرَاجِلِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذَّكْرُ ، إِلَى وَادِي بَدْرِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذَّكْرُ ، إِلَى رَأْسِ
وَادِي الصَّفْرَاءِ ، وَبِهِ عَيُونٌ تَجْرِي وَحَدَائِقُ وَأَشْجَارٌ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى وَادِي بَنِي سَالِمٍ ،
ثُمَّ مِنْهُ إِلَى وَادِي الْغَزَّالَةِ ، ثُمَّ مِنْهُ إِلَى الْفَرَشِ ، ثُمَّ مِنْهُ إِلَى بَثْرَعَلِيٍّ ، وَبِهَا مَاءٌ طَيِّبٌ .
ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى مَا كُنْهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ
وَالْأَكْرَامِ .

وَمِنْ شَاءَ ذَهَبَ إِلَيْهَا مِنَ الْبَيْتِ إِلَى رَأْسِ تَقِيبِ عَلِيٍّ عِنْدَ طَرْفِ الْجَبَلِ ، ثُمَّ إِلَى
وَادِي الصَّفْرَاءِ ، ثُمَّ فِي الْمَرَاجِلِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذَّكْرُ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَهِيَ أَقْرَبُ الطَّرِيقَيْنِ
لِلذَّاهِبِ مِنْ مِصْرَ ، وَتِلْكَ أَقْرَبُ لِلْعَائِدِ مِنْ مَكَّةَ .

الباب الثاني

من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلي، وذكر أبراجها المقررة بطرق
الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان

الفصل الأول

في مطاراته

قد تقدم في الكلام على أوصاف الحمام - عند ذكر ما يحتاج إلى وصفه في أواخر
مقاصد المكاتب من المقالة الرابعة - أن الحمام اسم جنس يقع على هذا الحمام
المتعارف بين الناس، وعلى الحمام والدباسي والقماري والفواخيت وغيرها، وأن التبادر
إلى فهم السامع عند ذكر الحمام هو هذا النوع المخصوص، وأن أغلاه قيمة وأغلاه
رتبة الحمام الرسائلي، وهو الذي يتخذهُ الملوك لحمل المكاتب، ويُعبّر عنه بـ«الهدى» .
وتقدم هناك الكلام على ذكر ألوانها على اختلافها، وعدد الرياش المعتبرة فيها، وهي
رياش أجنحتها وأذناها، وبين الفرق بين الذكر والأنثى، ووصفة الطائر الفاره،
والفِرَاسِيَّة في نجابته في حال صغره، والزمان والمكان اللاتين بالإفراخ، وما يجرى
بجرى ذلك مما يحتاج إليه الكاتب عند وصفه لبيان النجيب منه من غيره، فأغنى
عن ذكره هنا .

والمختص منه بهذا المكان ذكر الاعتناء بهذا الحمام، وأول من أهتم بشأنه،
واعتنى بأمره، ومن قام به من الملوك، ومسافات طيرانه، وما يجرى هذا
البحر .

فاما الاعتناء به والاهتمام بشأنه - فقد آعنى به في القديم خلفاء بني العباس :
 كالمهدي ثالث خلفائهم ، والناصر منهم . وتنافس فيه رؤساء الناس في العراق لاسيما
 بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض المعمار" أنهم تنافسوا في اقتنائه ، ولهجوا
 بذمهم ، وبالغوا في أثمانه ، حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعمائة دينار . ثم قال :
 ويقال : إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار . قال :
 وكانت تباع بيضنا الطائر المشهور بالفراة بعشرين ديناراً ، وأنه كان عندهم دقائر
 بأنساب الحمام كأنساب العرب ، وأنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه
 ولا العدل من اتخاذ الحمام ، والمتافسة فيه ، والإخبار عنها ، والوصف لأثرها ،
 والتعت لمشهورها ، حتى وجه أهل البصرة إلى بكار بن شيبه البكراني قاضي مصر ،
 (وكان في فضله وعقله ودينه وورعه على ما لم يكن عليه قاض) بحامات لهم مع
 ثقات ، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه ، ففعل . وكان الحمام عندهم
 متجراً من المتاجر ، لا يرون بذلك بأساً .

وذكر المقر الشهابي بن فضيل الله في "التعريف" أن الحمام أول ما أتت بالديار
 المصرية والبلاد الشامية من الموصل ، وأن أول من آعنى به من الملوك ^(١) [وتقله]
 من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله ، في سنة تميم
 وستين وخمسمائة . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالغوا حتى أفردوا له
 ديواناً وجرائد بأنساب الحمام . وصنف فيه الفاضل محيي الدين بن عبد الظاهر كتاباً
 سماه : "تمائم الحمام" .

قلت : وقد سبقه إلى التصنيف في ذلك - أبو الحسن بن ملاعب الفوارس
 البغدادي ، فصنف فيه كتاباً للناصر لدين الله الخليفة العباسي ببغداد ، وذكر فيه

(١) بياض بالأصول ، والتصحيح من "التعريف" (ص ١٩٦) .

أسماء أعضاء الطائر ورياشه ، والوشوم التي تُوسم في كل عضو ، وألوان الطيور
وما يُستحسن من صفاتها ، وكيفية إفراخها ، وبعد المسافات التي أرسلت فيها ،
وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجرى هذا الجري . وأظن أن كتاب القاضي
محي الدين بن عبد الظاهر نتيجة عن مقدمته .

وأما مسافات طيرانه ، فقد تقدم أن الطائر الذي بيع بألف دينار طار من
القسطنطينية إلى البصرة ، وأن الحمام أرسل من مصر إلى البصرة بحضرة القاضي
بكار قاضي مصر .

وذكر ابن سعيد في كتابه "حيا المحل وجنى النخل" أن العزيز تاني خلفاء
الفاطميين بمصر ، ذكر لوزيره يعقوب بن كلثوم أنه ما رأى القراصية البعلبكية ،
وأنه يحب أن يراها . وكان بدمشق حمام من مصر وبمصر حمام من دمشق ،
فكتب الوزير لوقت بطاقة يأمر فيها من هوتحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من
الحمام المصري ، ويعلق في كل طائر حبات من القراصية البعلبكية ، ويرسلها إلى
مصر ، ففعل ذلك ، فلم يمض النهار حتى حضرت تلك الحمام بما علق عليها من
القراصية ، فجمعها الوزير يعقوب بن كلثوم وطلع به إلى العزيز في يومه ، فكان ذلك
من أغرب الغرائب لديه .

وذكر أيضا في كتابه "المغرب في حلى المغرب" أن الوزير البازوري المغربي ،
وزير المستنصر بالله الفاطمي وجه الحمام من تونس من أفريقيا من بلاد المغرب
فجاء إلى مصر ، والعهد عليه في ذلك .

الفصل الثاني

من الباب الثاني من الخاتمة في أبراج الحمام المقررة لإطارتها
بالديار المصرية والبلاد الشامية

وهي من القواعد والطرق، على ما تقدم في البريد .

أما في المسافات فإنها تختلف، فإن مطارات الحمام ربما زادت على مرارة
البريد .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل المحروسة
إلى جهات الديار المصرية

قال في "التعريف" : وأعلم أن الحمام قد أقطع تدريجه من مصر إلى قوص
وأسوان وعين شمس . وهذا ظاهر في أن الحمام كان يدرج إلى هذه الأماكن ،
ثم أهمل تدريجه بعد ذلك . قال : ولم يبق منه الآن إلا ما هو من القاهرة إلى
الإسكندرية ، ومن القاهرة إلى دمياط ، ومن القاهرة إلى السويس من طريق
الحاج ، ومن القاهرة إلى بلبيس متصلًا بالشام .

قلت : وأهل هذه الأبراج كلها برج قلعة الجبل المحروسة ، ومنها التدرج إلى
سائر الجهات .

ثم لم يذكر في "التعريف" : الأبراج الموصلة إلى أسوان وعين شمس والإسكندرية
ودمياط .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل إلى غزة

من بروج قلعة الجبل - إلى بلبيس ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى قطيا ،
ثم منها إلى الوردية ، ثم منها إلى غزة .

الأبراج الآخذة من غزّة وما يتفرّع عنها

إعلم أن الأبراج من غزّة تتشعب فيها مسارح الحمام إلى غير جهة دمشق وإلى جهتها .

فأما غير جهة دمشق، فمن غزّة إلى بلد الخليل عليه السلام، ومن غزّة إلى القدس الشريف، ومن غزّة إلى نابلس .

وأما جهة الشام : فمن غزّة إلى لُد، ومن لُد إلى قاقون، ومن قاقون إلى جينين .

ومن جينين تتشعب المسارح إلى غير جهة دمشق وإلى جهتها .

فأما ما إلى غير جهة دمشق : فمن جينين إلى صفد . وأما ما إلى جهة دمشق : فمن جينين إلى بيسان، ومن بيسان إلى أربد، ومن أربد إلى طفس، ومن طفس إلى الصنمين، ومن الصنمين إلى دمشق .

قال في "التعريف" : ومن كل واحد من هذه المراكز إلى ما جاور ذلك من المشاهير : مثل من بيسان إلى أذربايت مقر ولاية الولاية بالصفقة القبلية، ومن طفس إليها - لإشعار وإلى الولاية .

الأبراج الآخذة من دمشق وما يتفرّع عنها

تتشعب مسارح الحمام من دمشق إلى غير جهة حلب، وإلى جهتها .

فأما إلى غير جهة حلب : فتسرح من دمشق إلى بعلبك، ومن دمشق إلى القريتين .

وأما ما هو إلى جهة حلب : فتسرح من دمشق إلى قارا^(١)، ثم من قارا^(١) إلى حمص،

ثم من حمص إلى حماة، ثم من حماة إلى المعرة، ثم من المعرة إلى حلب .

(١) سماها في معجم البلدان : قارة بالهاء .

الأبراج الاخذة من حلب وما يتفرع عنها

بُرجُ الحمام من حلب إلى البيرة ، ومن حلب إلى قلعة المسلمين ، ومن حلب إلى بهسني . قال في " التعريف " : وإلى بقية [ماله شأن ^(١)] مما حولها [ثم من القرينتين إلى تدمر ، ومنها إلى السخنة ، ومنها إلى قباقب ، ومنها إلى الرجة . وقد تعطل الآن تدريج السخنة إلى قباقب ، وإنما صار يسوق بيطاتيق تدمر الواقعة بالسخنة منها إلى قباقب ، ثم يسرح على الجناح من قباقب إلى الرجة ^(٢)] . قال : وبما ذكرتم ذكر مراكر الحمام في سائر الممالك الإسلامية .

قلت : وقد تعطل تدريج الحمام الآن .

(٢) الزيادة من التعريف ليم الكلام .

الباب الثالث

من الخاتمة في ذكر هجين الثلج والمرآكِبِ المُعدَّة لَحْمِ الثلج الذي يحمل
من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية،
وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في نقل الثلج

إعلم أن ماء نيل مصر لما كان من الحلاوة واللطافة على ما لا يساويه فيه نهر من
الأنهار، على ما تقدم ذكره في الكلام على الديار المصرية في المقالة الثانية، مع شدة
القيظ بها في زمن الصيف، ومثونة الهواء الذي قد لا يتأني معه تبريد الماء، وكان
الثلج غير موجود بها، وكانت الملوك قد اعتادت الرفاهية مع اقتدارها على تحصيل
الأشياء العزيزة، وولوعهم بجلبها من الأماكن البعيدة - إكمالاً لحال الرفاهية،
وإظهاراً لأبهة الملك - دعاهم كمال الرفاهية والأبهة إلى جلب الثلج من الشام إلى
مصر: لتبريد الماء به في زمن الحر. على أن ذلك كان في غيرهم من الملوك التي
لا تلج بحاضرتهم.

وقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" أن أول من حمل إليه الثلج
النجاش بن يوسف بالعراق. ثم لاعتناء ملوك مصر بالثلج قرروا له هجيناً تحمله في البر
وسفنًا تحمله في البحر، حتى يصل إلى القلعة المحروسة.

الفصل الثاني

من الباب الثالث من الخاتمة في المراكب المعدة لنقل الثلج من الشام
 قد ذكر في "التعريف" أنها كانت في أيام الملك الظاهر «بيبرس» تَعَمِّدُه اللهُ
 بِرَحْمَتِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي السَّنَةِ، لَا تَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ . قال : ودامت على أيام سُلْطَانِنَا
 (يعنى المَلِكَ النَّاصِرَ «مُحَمَّدَ بْنَ قَلَاوُونَ») فِي السُّلْطَنَةِ الثَّلَاثَةَ، وَبَقِيَتْ صَدْرًا مِنْهَا،
 ثُمَّ أَخَذَتْ فِي التَّرِيدِ إِلَى أَنْ بَلَغَتْ أَحَدَ عَشَرَ مَرَّجًا فِي مَمْلَكَةِ الشَّامِ وَطَرَابُلُسَ،
 وَرُبَّمَا زَادَتْ عَلَى ذَلِكَ . قال : وَأَخْرَعَهُدَى بِهَا مِنَ السَّبْعَةِ إِلَى الثَّمَانِيَةِ تُطَلَّبُ
 مِنَ الشَّامِ وَلَا تُكَلَّفُ طَرَابُلُسَ إِلَّا الْمُسَاعَدَةَ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَوْقَاتِ
 وَدَوَاعِي الضَّرُورَاتِ .

قال : والمراكب تأتي دُمِياطَ فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ يَخْرُجُ الثَّلْجُ فِي النَّيْلِ إِلَى سَاحِلِ
 بُولاقَ، فَيُنْقَلُ مِنْهُ عَلَى الْبِغَالِ السُّلْطَانِيَّةِ، وَيُحْمَلُ إِلَى الشَّرَابُخَانَاهِ الشَّرِيفَةِ، عَلَى
 مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ .

وقد بَرَّتِ الْعَادَةُ أَنَّ الْمَرَكَبَ إِذَا سَفَرَتْ سَفَرًا مَعَهَا مِنْ يَتَدَرَّكُهَا مِنْ ثَلَاثِينَ
 لِمَدَارَاتِهَا . ثُمَّ الْوَأَصِلُونَ بِهَا فِي الْبَحْرِ يَعُودُونَ عَلَى الْبَرِّ فِي الْبَرِّ .

الفصل الثالث

من الباب الثالث من الخاتمة في الهجن المعدة لنقل ذلك

قد ذكر في "التعريف" أنه مما حَدَّثَ فِي الدَّوْلَةِ النَّاصِرِيَّةِ «مُحَمَّدَ بْنَ قَلَاوُونَ»
 وَأَسْتَمَرَ . وَقَدْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ لَا يُجْمَلُ إِلَّا فِي الْبَحْرِ خَاصَّةً . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الْمَرَكَرَ
 مِنْ دِمَشْقَ إِلَى الصَّنَمِينَ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَانِيَّاسَ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى أَرْبَدَ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَيْسَانَ،

ثم منها إلى جينين ، ثم منها إلى قاقون ، ثم منها إلى لُد ، ثم منها إلى غزّة ، ثم منها إلى العريش ، ثم منها إلى الورداء ، ثم منها إلى المطيب ، ثم منها إلى قطيا ، ثم منها إلى القصير ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى بلبيس ، ثم منها إلى القلعة .

قال : والمستقر في كل مركز ست هجن : خمسة لأحمال ، وهجين للهجان ، تكون كل قلة خمسة أحمال . وهذه الهجن من الشام إلى العريش على المملكة الشامية ، خلا جينين فإنها على صقد . ومن الورداء إلى القلعة هجن من المناخات السلطانية ، والكلفة على مال مصر . ولا تستقر هذه الهجن بهذه المراكز إلا أوان حمل الثلج ، وهي : حزيران وتشرين الثاني . وعدة نقلاته إحدى وسبعون قلة ، متقارب مدد ما بينها ، ثم صار يزيد على ذلك . ويجهز مع كل قلة بریدی يتداركه ، ويجهز معه ثلاث خيبر بجملته ومداراته ، يُحمل على فرس بریدی ثان . قال : وأستقر في وقت أن يُحمل الثلج على خيل الولاية .

وأعلم أن الثلج إذا وصل على المراكب والهجن حتى انتهى إلى القلعة ، نحر بالشرايحاناه السلطانية . قال في "التعريف" : ومذ قتر أن يُحمل من الثلج على الظهر ما يُحمل ، استقر منه خاش المشروب ، لأنه يصل أنظف وأمن عاقبة ، على أن المتسفرين يأخذون الجاشني منه بحضور أمير مجلس وشاد الشرايحاناه السلطانية ونحرانها . أما المنقول في البحر فلبا عدا ذلك . قال : وللمجهزين به من الخلع ورسوم الإنعام رسوم مستقره ، وعوائد مستمره .

قلت : وقد جرت العادة أن وأصل الثلج في كل قلة في البر والبحر تُكتب به رجعة من ديوان الإنشاء ، وهذا هو وجه تعلقه بديوان الإنشاء .

الباب الرابع

من الخاتمة في المناور والمحرقات ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في المناور

قال في "التعريف" وهي مواضع رُفِعَ النَّارُ في اللَّيْلِ والدُّخَانُ في النَّهَارِ .
 وذلك أن مملكة إيران لما كانت بيد هولاكو من التتار، وكانت الحروب بينهم
 وبين أهل هذه المملكة، كان من جملة احتياطات أهل هذه المملكة أن جعلوا أماكن
 مُرْتَفَعَةً من رؤوس الجبال تُوقَدُ فيها النَّارُ ليلاً و[يُنَارُ] الدُّخَانُ نهاراً، للإعلام بحركة
 التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة . وهذه المناور تارة تكون على رؤوس
 الجبال ، وتارة تكون في أبنية عالية ، ومواضعها معروفة تُعرَفُ بها أكثر السفارة ،
 وهي من أقصى تغور الإسلام كالبيرة والرحبة ، وإلى حضرة السلطان بقلعة الجبل ،
 حتى إن المتجدد بالفرات إن كان بكرة علم به عشاء ، وإن كان عشاء علم به بكرة .
 ولما يُرْفَعُ من هذه النيران ، أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف
 حالات رؤية العدو والمخبر به باختلاف حالاتها، تارة في العمد، وتارة في غير ذلك .
 وقد أُرْصِدَ في كل منور الدياب والنظارة ، لرؤية ما وراءهم وإراء ما أمامهم ، ولهم
 على ذلك جوامك مُقَرَّرَةٌ كانت لا تزال دارة . قال : وكان ينور بمدينة طائفة من تلك
 المملكة قوم من النصاح بحجة أمير سوي التنوير، ويستتر عليهم أهل البلد حباً للملكا ،
 فترى [ناره أو دخانه بحربة الروم وبالخرف أيضاً، ويرفع فيهما أو في إحداهما فيرى]^(١)

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠) .

من كل منهما بوايدى الهيكل، ويرفع فيه فيرى [بالقناطر، ويرفع بالقناطر فيرى بالرحبة
وقاها الله، ويرفع بها فيرى في كوايل، ويرفع فيها فيرى في منظره قباقب، ويرفع
فيها فيرى في حفير أسد الدين، ويرفع بها فيرى^(١) بالشحنة، ويرفع فيها فيرى بمنظرة
أريك، ويرفع فيها فيرى بالبويب وهو قنطرة [بين أريك^(١) وتدمر، ويرفع فيها فيرى
بمنظرة تدمر، ويرفع فيها فيرى بمنظرة البيضاء، ويرفع فيها فيرى بالحير، ويرفع فيها
فيرى بجلبج، ويرفع فيها فيرى بالقريتين، ويرفع فيها فيرى بالعطنة، ويرفع فيها فيرى
بنيّة العقاب، ويرفع فيها فيرى بمثدنة العروس، ويرفع فيها لما حولها، إنذاراً للرعايا
وصماً للأطراف، ويرفع حول دمشق بالجبل المطل على برزة فيرى بالمانع، ويرفع به
فيرى بتل قرية الكتبية، ثم يرفع فيها فيرى بالطرة، ثم يرفع فيرى بجبل أربد ويجبل
عجلون، ثم يرفع بهما فيرى بجبل طيبة أسم، ثم يرفع بها فيرى بالمنور المعمول بازاء
البيتر الذي برأس الجبل المنحدر إلى بيسان المعروف بعقبة البريد، لا عدول بطريق^(٢)
البريد الآن عنه، ويرى منه أطراف أعمال نابلس [نحو جبال أزيق وما حولها،
ويرفع من هذا المنور الذي برأس عقبة البريد فيرى بالجبل المعروف بقرية جينين،
ثم يرفع منه فيرى بجبل حجمة، ثم يرفع منه فيرى بشرفة قاقون، ثم يرفع منه فيرى
بأطراف أعمال نابلس^(١) ويرى على قصد الطريق بذروة الجبل المصايب لمجدل بابا،
فيرفع منه فيرى بمركز ياسور المعدول بالبريد الآن عنه، ثم يرفع منه فيرى بالجبال
المطلّة على غزّة، ويرفع بغزّة على أعلى الحدب المعروف بحدب غزّة، ثم [لأمنور^(١) ولا
إخبار بشأن التتار إلا على الجناح والبريد .

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠ - ٢٠١) .

(٢) الذي في التعريف : وقد عدل الآن طريق الخ فتنبه .

قال : ثم أعلم أن جميع ما ذكرناه من مَنَاورٍ تُشعَّب إلى ما تخرج عن جادة الطريق إلى البلاد الآخذة على جنب جنوبيًا وشماليًا ، شرقًا وغربًا . أما منذُ أصلح الله بين الفِتنين ، وأمن جانب الجهتين ، فقد قلَّ بذلك الاحتفال ، وصُرف عن البال . وهذه المناور رؤوسٌ قد عَفَّت ، وجسومٌ [أكلت شعل النار أرواحها] ^(١) فانطفت .

على أنه قد نصَّ في "التعريف" على مَنَاورٍ طريق البرية ، ومناور طريق الرحبة ، وهما من نفس المملكة .

قلت : وهذه المَنَاورُ مأخوذة عن ملوك الهند . فقد رأيت في بعض الكتب أن ببلادهم مَنَاورٌ على جبالٍ مرتفعة ، تُرى النار فيها على بُعد أكثر من هذه .

على أن مرتبها بهذه المملكة أولاً أتى بحكمة ملوكية لا تساوئ مقداراً ، إذ قد ترقى في سرعة بلوغ الأخبار إلى الغاية القصوى . وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره ، والحمم يأتي من الخبر بما هو أسرع في البريد ، والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمم . وناهيك أن يظهر عنوان الخبر في الفرات بمصر في مسافة يومٍ وليلة .

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠١) .

الفصل الثانى

من الباب الرابع من الخاتمة فى المحرقَات

قال فى "التعريف": وهى مَوَاضِعُ مِمَّا بِلَى بِلَادِنَا مِنْ حَدِّ الشَّرْقِ دَاخِلَةٌ فِي تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ (يعنى مملكة بنى هولاكو من التتار) يُجَهَّزُ إِلَيْهَا رِجَالٌ فَتُحْرَقُ زَرْعُهَا ، كَأَرْضِ الْبُقْعَةِ وَالْتَرْتَارِ وَالْفِينَةِ ، وَبِاشْرَةِ ، وَالْمَتَاخِ ، وَمَشْهَدِ ابْنِ عُمَرَ ، وَالْمُوَيْلِحِ ، وَبِلَادِ نَيْنَوَى مِنْ بَرِّ الْمَوْصِلِ الَّتِي يُقَالُ ، إِنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعَثَ إِلَى أَهْلِهَا ، وَالْوَادِي ، وَالْمَيْدَانِ ، وَالْبَابِ ، وَالضُّوْمَعَةَ ، وَالْمَرْجَ الْمَعْرُوفِ بِبَنِي زَيْدٍ ، وَالْمَرْجَ الْمُحْتَرِقِ ، وَمَنَازِلِ الْأَوْبَرَاتِيَّةِ ، وَهِيَ أَطْرَافُ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ إِلَى جَبَلِ الْأَكْرَادِ . وَبِلَادِ سِنْجَارِ - الْمَنْطِقِ وَالْمَنْظَرَةِ وَالْمَرْيَدَةِ ، وَتَحْتَ الْجِبَالِ عِنْدَ التَّلِيلَاتِ ، وَكَذَلِكَ النَّارَاتِ ، وَأَعَالَى جَبَلِ سِنْجَارٍ وَمَا وَالِي ذَلِكَ .

وذلك أنه كان من عادة التتار أنهم لا يكلفون عُلُوفَةَ خَيْلِهِمْ بَلْ يَكُونُهَا إِلَى مَا تَنَبَّأَتْ الْأَرْضُ ، فَإِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْأَرْضُ مُخْصَبَةً سَلَكُوهَا ، وَإِذَا كَانَتْ مُخْصَبَةً تَجَنَّبُوهَا ، وَكَانَتْ أَرْضُ هَذِهِ الْبِلَادِ الْمَتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ أَرْضًا مُخْصَبَةً ، تَقُومُ بِكَفَايَةِ خَيْلِ الْقَوْمِ إِذَا فَسَدُوا بِلَادِنَا ، فَإِذَا أَحْرَقُوا زَرْعَهَا وَنَبَاتَهَا ضَعُفُوا عَنْ قَصْدِ بِلَادِنَا وَحَصَلَ بِذَلِكَ جَمِيعُ الرِّقِّ ، وَالذَّفْعُ عَنْ مَبَاغَةِ الْأَطْرَافِ وَمُهَابِجَةِ الثُّغُورِ .

وَكَانَ طَرِيقُهُمْ فِي إِحْرَاقِهَا أَنْ يُجَهَّزُوا إِلَيْهِمُ الرِّجَالُ وَمَعَهُمُ النَّعَالِبُ الْوَحْشِيَّةُ وَكِلَابُ الصَّيْدِ ، فَيَكْتُمُونَ عِنْدَ أَمْنَاءِ النَّصَّاحِ فِي كُهُوفِ الْجِبَالِ وَبُطُونِ الْأَوْدِيَةِ ، وَيَرْتَقِبُونَ يَوْمًا تَكُونُ رِيحُهُ عَاصِفَةً وَهَوَاؤُهُ زَعَزَعٌ ، تُعَلِّقُ النَّارُ مُوتِنَةً فِي أَذْنَابِ تِلْكَ النَّعَالِبِ وَالْكِلَابِ ، ثُمَّ تُطَلِّقُ النَّعَالِبُ ، وَالْكِلَابُ فِي آتْرِهَا وَقَدْ جُوعَتْ ، لِتَجِدَّ

الثعالبُ في العَدُوِّ ، والكلابُ في الطَّلَبِ ، فَتُحْرَقُ ما مرَّتْ به من الزَّرْعِ والنباتِ ، وتُعَلِّقُ الرِّيحُ النَّارَ منه فيما جاوَرَه ، مع ما يُبَلِّغُه الرَّجَالُ بأيديهم في اللَّيالي المُظْلِمَة ، وعِشاءِ الأيَّامِ المُعْتَمَة . وكان يُنْفَقُ في نَظيرِ هذا الإحراقِ من خزانة دِمَشقُ جُمْلٌ من الأموال . قال : وكان الأهتمامُ بذلك في أوَّلِ الأمرِ قبل أن يَفْطُنوا بِقصدِ التَّحْرِيقِ ، ثم نَبَّههم على ذلك أهلُ المُدَاجاةِ ، فصاروا يَرَبِطونَ عليها الطُّرُقَ ، ويُمسِكُونُ منها بالأطرافِ ؛ وَفَتَلَ عَدِيدٌ من الرجالِ بِسَبَبِها ، وأحرقوهم بأشدَّ من نارِها .

وذَكَرَ أنْ مِمَّا كان يُجْتَنَبُ تَحْرِيقُه - أرضُ الجبالِ ، من حيثُ إنها بلادُ بَقِيَّةِ السَّلَفِ الصالحِ من ذُرِّيَّةِ شيخِ الإسلامِ الإمامِ الكبيرِ العارِفِ باللهِ «عَبْدِ القَادِرِ الجَلِيلِي» المعروفِ بِالكِبْلَانِيِّ ، نفعَ اللهُ تعالى بِبركانه ، لتَعْظِيمِهِم من الجهتينِ ، مع ما لهم عندَ مُلوَكنا من المكانةِ العَلِيَّةِ : لَقَدِيمِ سَلَفِهِم ، وصَمِيمِ شَرَفِهِم ، وَلِمَا للإسلامِ وأهلِهِ من إِسعافِهِم بما تَصِلُ إليه القُدْرَةُ وَيَلْفُه الإمكانُ .

قلتُ : وبتمامِ القولِ في هذا الطَّرَفِ قد تمَّ ما كنتُ أَحاولُه من التَّاليفِ ، وأهتمُّ به من التَّجَمُّعِ ؛ وباللهِ التَّوْفِيقِ ، وإليه الرِّغْبَةُ ؛ وهو حَسْبِي ونِعْمَ الوَكِيلُ .
وأَعْلَمُ أن المصنِّفاتِ تَتَفَاوَتْ في الحُظُوظِ إِقبالاً وإِدباراً : فمن مرَّغُوبٍ فيه ، ومرَّغُوبٍ عنه ، ومُتَوَسِّطٍ بين ذلك . على أَنه قَلَّ أن يَنْفَقَ تَأليفُ في حياةِ مُؤَلِّفِهِ ، أو يروِّجَ تَصْنِيفُهُ على القُرْبِ من زَمَانِ مُصَنِّفِهِ .

قال المسعوديُّ في كتابه «التنبيه والإشراف» وقد تَشَتَّرَكَ الخَوَاطِرُ ، وَتَنَفَّقُ الضَّائِرُ ؛ وَرُبَّمَا كان الأَخيرُ أَحْسَنَ تَأليفًا ، وأَمْتَنَ تَصْنِيفًا ؛ لِحِكْمَةِ التَّجَارِبِ ، وَخَشْيَةِ التَّبَعِ ، والأَحْتِراسِ من مَوَانِجِ المَضَارِّ . ومن هاهنا صارت العلومُ نَامِيَّةً ، غيرَ مُتَنَاهِيَّةً ، لوجودِ الأَخيرِ ما لا يَجِدُه الأَوَّلُ ، وذلك إلى غيرِ غَايَةٍ مَحْصُورَةٍ ، ولا نِهايَةٍ مُحدُودَةٍ .

على أن من شيم كثير من الناس إطرأ المتقدمين، وتعظيم كتب السالفين؛ ومدح الماضي، وذم الباقي؛ وإن كان في كتب المحدين ما هو أعظم فائده، وأكثر عائدته.

ثم حكى عن الجاحظ - على جلاله قدره - أنه قال: كنت أؤلف الكتاب الكثير المعاني، الحسن النظم، وأنسبه إلى نفسي، فلا أرى الأسماع تُصنعي إليه، ولا الإيرادات تُتيمم نحوه، ثم أؤلف ما هو أنقص منه رتبة، وأقل فائدة، وأتحله عبد الله بن المقفع، أو سهل بن هرون، أو غيرهما من المتقدمين، ممن صارت أسماءهم في المصنفين، فيقبلون على كتبها، ويسارعون إلى نسخها، لا لشيء إلا لنسبتها للقدمين، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم، ومناقسته على المناقب التي عني بتشبيدها.

قال: وهذه طائفة لا يعبأ بها كبار الناس، وإنما العمل على أهل النظر والتأمل الذين أعطوا كل شيء حقه من القول، ووقوه قسطه من الحق؛ فلم يرفعوا المتقدم إذا كان ناقصاً، ولم ينقصوا المتأخر إذا كان زائداً؛ فليشمل هؤلاء تصنف العلوم، وتدون الكتب.

وإذا كان هذا نقل المسعودي عن الجاحظ الذي هو رأس المصنفين، وعين أعيانهم، فما ظنك بغيره؟

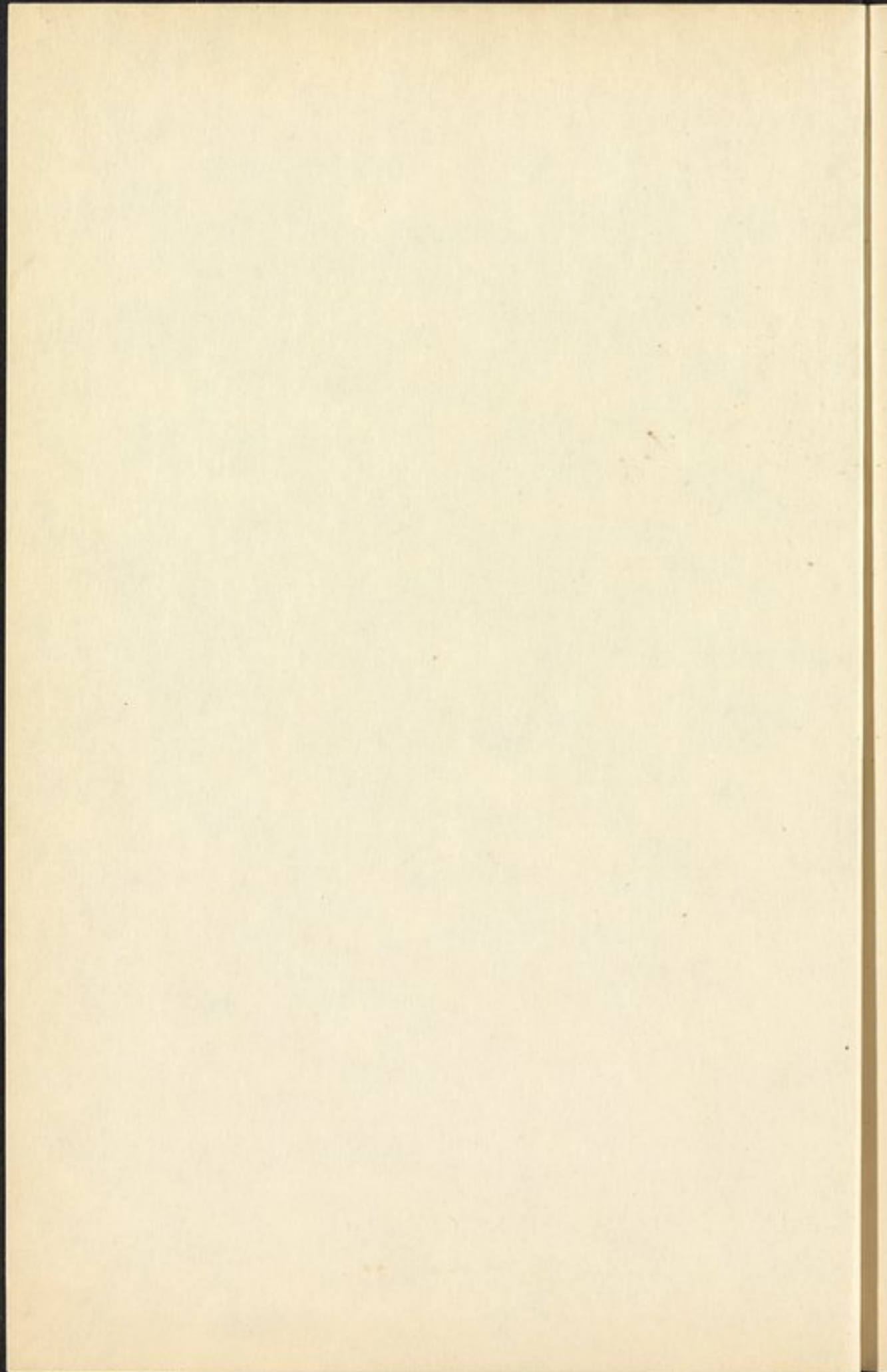
لكني أحمد الله تعالى على رواج سوق تاليفي، ونفاق سلعتي، والمسارة إلى استيغابته قبل انقضاء تاليفه، حتى إن قلبي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان الطرس إلى اكتتابه، ومرتبب نجاهه للاستنساخ يساهمهما في ارتقابه. فضلاً من الله ونعمه، (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

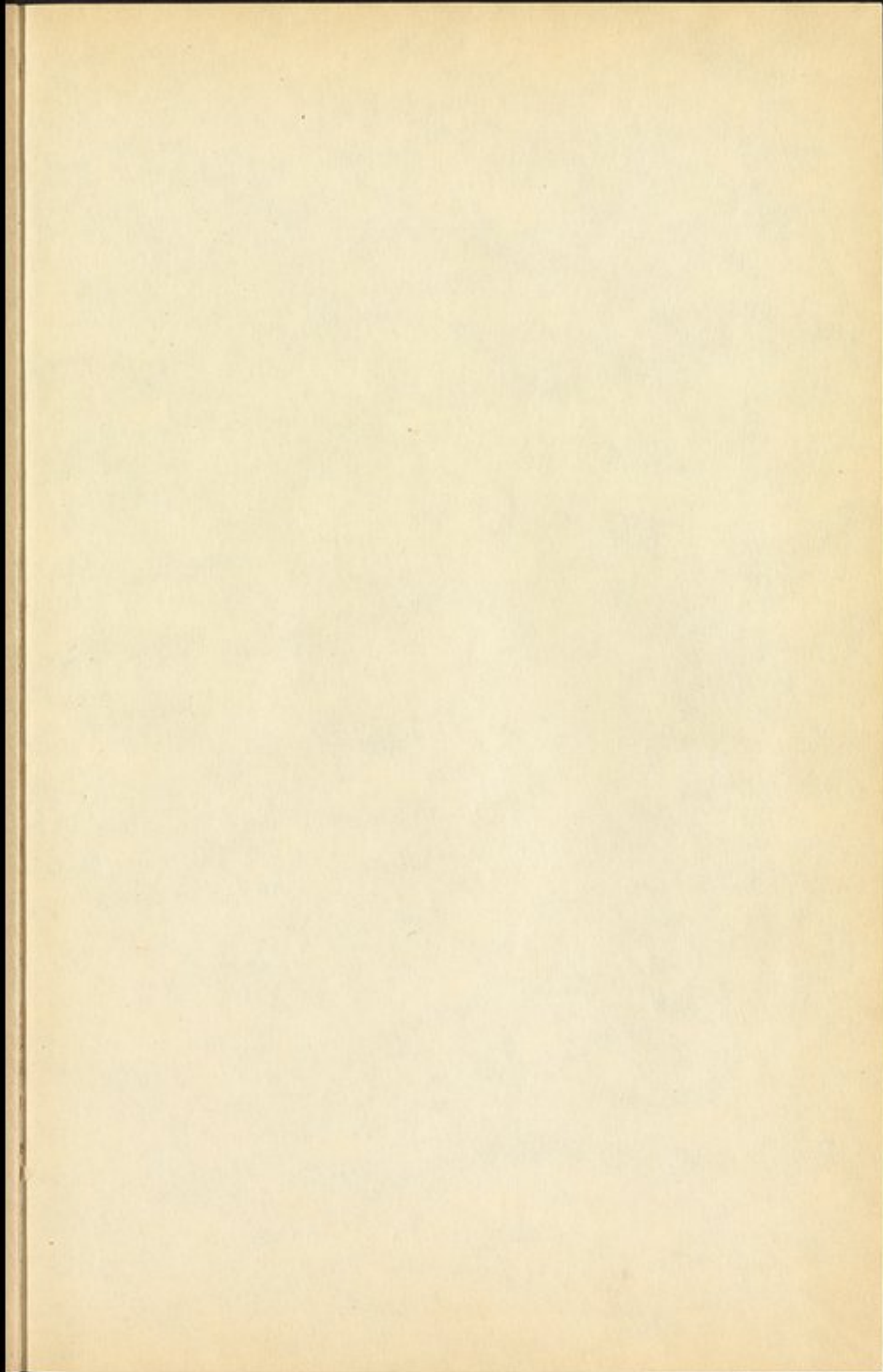
قال المؤلف : تَجَزَّتْ تَأْلِيفَهُ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارَكِ ، يَوْمِ الْجُمُعَةِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ ، سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ .

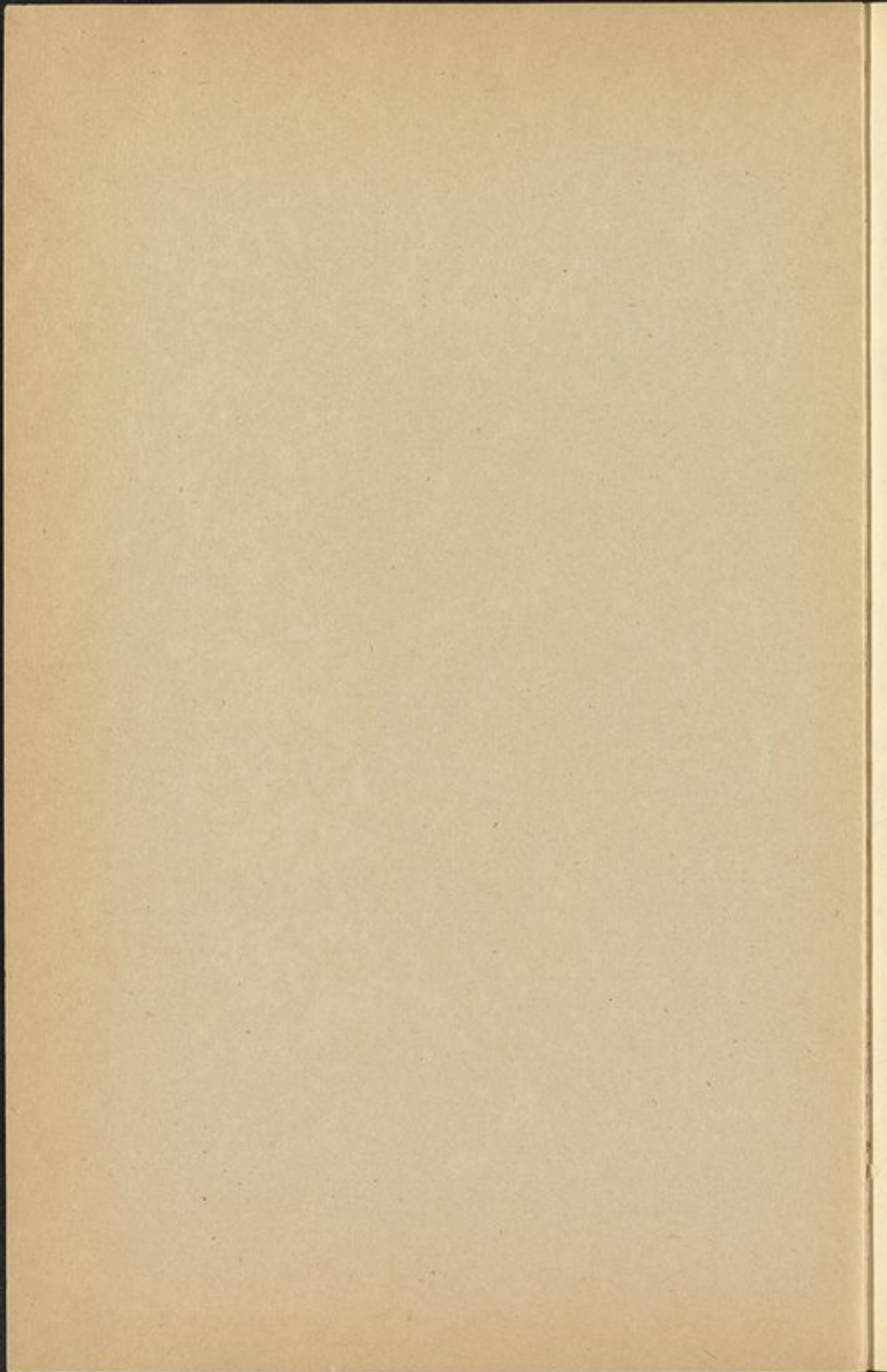
وَتَجَزَّتْ هَذِهِ النُّسخة فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارَكِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ صَفَرِ الْحِجْرِ ، سَنَةِ تِسْعِ وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ .

فَوَرَّغَ مِنْهُ كِتَابَةً وَسِتَّةً قَبْلَهُ ، فَقَرِئَ رَحْمَةً رَبِّهِ الْعَنِيِّ الْفَاتِحِ ، عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَبُو مُحَمَّدٍ النَّاسِخُ الشَّافِعِيُّ ، تَزِيلُ الصَّالِحِيَّةِ النَّجْمِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالسَّادَةِ الْحَنَابِلِيَّةِ ، بِمُخَطِّ بَيْنِ الْقَصْرَيْنِ : غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ ، وَسَتَرَ عُيُوبَهُ ، وَخَتَمَ لَهُ وَالسَّامِعِينَ بِخَيْرٍ ، آمِينَ

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ
وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ : سُبْحَانَ رَبِّكَ
رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ







893.7K125

W

14

Cop. 2.

893.7K125

W

v. 14

Kalkashandī

cop. 2

Kitāb ṣubḥ al-a^ḥshā.

APR 29 1947

BINDER

JUN 17 1947

